ص: ۷

المجلد الرابع

الجزء السابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ. رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ [آل عمران: ۱۹۳ و ۱۹۴]

ص: ۹

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

و ما توفيقى إلا باللّه عليه توكلت و إليه أنيب

تقديم:

كان تأخر صدور هذا الجزء من كتابنا (الإمام الصادق و المذاهب الأربعة)- و هو السابع- فترة انقطاع بيننا و بين القراء، لم تكن مقصودة و كنا ننوى أن يكون الجزء السابع نهاية البحث و خاتمة المطاف فى سفر كلّفنا ثمنا غاليا من الجهد و العناء، و قد خفف عنا ما لقيه من استجابة و إقبال لدى القراء، كم حاولت أن أتخطى عوائق العمل، و أذلل ما أواجه من صعاب لمواصلة و إكمال البحث فيه، ليخرج هذا الجزء إلى أيدى القراء قبل هذا الوقت، إلا أن العوائق تلك و الصعاب كانت تزداد اتساعا و تعقيدا، و ها أنا ذا أزاول نشاطى لإكمال السلسلة، فأتناول أهم الأبحاث المخصصة للحديث عن كل واحد من أئمة المذاهب الأربعة بإيجاز استكمالا لما سبق و استدراكا لأمور لم نذكرها، إذ لم نتعرض لها من قبل كمعرفة الأولاد و الأحفاد، و الوقوف على بعض الآثار و الآراء و أمور فكرية و فقهية أخرى مما يضيق بها حيز الجزء السابع فأتبعناه بثامن.

نرجو اللّه أن يكون به كمال الفائدة و نهاية القصد. و قد آثرت تأخير الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام لما يتطلبه ذلك من إفاضة فى بعض الأمور كالإشارة إلى أولاده و أحفاده الذين ورثوا مدرسته، و ما يتعلق بذلك من استطراد يقتضيه البحث فى الحديث عن الطائفة الإسماعيلية التى تنسب إلى إسماعيل ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق، و ما يحيط حياته من ملابسات، و ما وقع فى ذلك من اختلاف.

ص: ۱۰

و ألتزم هنا نهج البحث فى عوامل التعصب الطائفى و أسباب الخلاف المذهبى كمشكلة تاريخية سببت الفرقة بين المسلمين و فككت وحدتهم و باعدت بينهم، و قد خصصت فى الأجزاء السابقة من الكتاب حيزا كبيرا لدراسة نتائج التعصب و عوامل

قیامه، و أوضحت ما علق بفعل ذلک فی أذهان الناس من أمور تسیء إلی مفهوم الانتماء إلی المذاهب و غلبة نزعة العداء علی جوهر المبادئ، حتی أدی ظاهر الالتزام بها إلی الخروج عن میزان الشرع، و حدوث انعکاسات سلبیة علی المجتمع فأحدثت خللا فیه، إذ خرجت المنازعات عن حدود التوازن الفکری أو الخلاف الواعی، فتعددت حدود الاستقامة و الاعتدال- فی السلوک و التصرف- إلی الاعتقاد، حتی أصبح النص الوارد فی الکتاب (عند بعضهم) لا یعمل به إن خالفه رئیس المذهب الذی أصبحت أقواله سنة، و مخالفته بدعة، و عدم اتباعه کفرا، حتی قالوا أن الکتاب تنسخه مخالفة أقوال علماء المذهب، یقول الکرخی «۱»: «الأصل أن کل آیة تخالف قول أصحابنا فإنها محمولة علی النسخ، أو علی الترجیح و الأولی علی التأویل، من جهة التوفیق. الأصل أن کل خبر یجیء بخلاف قول أصحابنا فإنه یحمل علی النسخ، أو یحمل علی أنه معارض بمثله، ثم صار إلی دلیل آخر أو ترجیح فیه، بما یحتج به أصحابنا من وجوه الترجیح، أو یحمل علی التوفیق» «۲».

و یبین لنا هذا النص مدی الارتباط بالمذهبیة و الالتزام بأقوال الأئمة حتی و إن خالفت الواقع، و یخضعون الکتاب لموافقة أقوالها، و إذا امتنع النص القرآنی فإنهم ینسخون و یعملون بما جاء عن أصحاب المذاهب «فهم مدفوعون وراء المذهبیة تعصبا، و یطرحون الدلیل و یؤوّلونه تأویلا بعیدا لا یتفق مع الحقیقة. فهذه هی المذهبیة التی یبغضها اللّه و رسوله» «۳».

و لقد أدت شئون الحکم و مقتضیات السلطان إلی تبنی التمذهب و جعل الرئاسة فی الفقه من أعمدة السیاسة، فتأثر- تبعا لمواقف الملوک و الحکام، وجود و نشاط

---

(۱) عبید اللّه بن الحسن أبو الحسن الکرخی. ولد سنة ستین و مائتین، و مات سنة أربعین و ثلاثمائة، انتهت إلیه رئاسة الحنفیة، کان من المجتهدین فی المسائل علی مذهب أبی حنیفة، و له المختصر و شرح الجامع الصغیر و شرح الجامع الکبیر.

(۲) الدکتور مصطفی سعید الجن، نقلا عن أصول الکرخی، ص ۸۴ القاهرة ۱۹۷۲.

(۳) الدکتور مصطفی سعید الجن، أثر الأخلاق فی القواعد الأصولیة، ص ۹.

و انتشار المذاهب إذ لم یجر الحکام علی مذهب بعینه، و إنما یتقرر ذلک بحسب الظروف و الملابسات و عوامل النفوذ و الغلبة سیما و إن العالم الإسلامی بات مسرحا للقوة یشهد نتائج الغلبة علی شکل دول و وزارات و جیوش. و لا بد أن یکون القضاء- و هو من أکثر الوظائف استقرارا لأصوله المعروفة و أهمیته فی حیاة الناس- من أولیات شئون السلطان التی تتسرب إلیها موجات التمذهب، و تتطلع إلیها الرغبات، فحصرت بعد زمن بالمذاهب الأربعة، و سارت الأمور علی الاستعانة بما کان من مقتضیات السلطان فی الأساس، و هو تحدید المراتب الفقهیة و المراجع فی أشخاص بأعیانهم.

یحکی عن أبی زرعة- تلمیذ البلقینی- أنه سأل أستاذه عن المانع للشیخ تقی الدین السبکی عن الاجتهاد و هو جامع للشروط. فسکت البلقینی و لم یجب. فقال أبو زرعة: «فما عندی ان الامتناع عن ذلک لیس إلا للوظائف التی قدرت للفقهاء علی

المذاهب الأربعة، و إن من خرج عن ذلک و اجتهد لم ينل شيئا من ذلک، و حرم ولاية القضاء، و امتنع الناس عن استفتائه، و نسبت إليه البدعة. فتبسم و وافقنى على ذلک».

و امتد تأثير ذلک لينعكس على نهج التعامل مع وقائع التاريخ و روح المبادئ، فراح أغلب المؤرخين ينقادون للنزعة الطائفية المشبعة بالعصبية الإقليمية أو القبلية معتمدين على الخرافات و الادعاءات التى تؤجج نار الفرقة و تزيد الانقسام، لتطغى حدة الخلاف على الحقيقة، و تدفع الأمور فى مسار لا يخضع لمنطق و لا يأبه بالشواهد إرضاء لرغبة الحكام، و تزلفا لذوى السلطة، و بذلک عجّ التاريخ بما نجم عن تلک النزعات، فأصبح البحث عن الحقيقة و التوسل إلى استخلاص الواقع، أو استنباط الجوهر محاطا بعوائق و صعوبات، بعد أن أدى تقادم الزمن و استمرار القناعة بما صدر عن مصادر التعصب و جهات الانقسام، إلى أن تكتسب شكلا ثابتا يقف بوجه موجات الوعى التى تنمو بين شبابنا المسلم المتصف بروح العلم و الموضوعية.

لقد كان التحيّز فى طرح مواضيع لها أهميتها لتعلّقها بحياة المسلمين و تفاصيل وجودهم هوية الباحثين المرتبطين بالسلطة، و كانت نبرة الفرقة و دعوة الانقسام، بطاقة الدخول إلى عالم القصور و الرفاه السلطوى، و بذلک ارتكب هؤلاء جناية على أجيالنا إذ تنصلوا من مهمات الباحث و مسئولياته، و تخلوا عن أصول الأمانة فى نقل الأحداث و تصوير الظروف و العوامل، فساقوا الآراء دون تمحيص أو تقدير لمرحلة أو وضع تاريخى معين. و أنّى لنا الحصول على نهج تاريخى يراعى مصلحة الأمّة و يقدّر

ضرورات الدين أو الدّعوة، ما دامت أهواء السلطة و التحكم كامنة وراء ما يصدر عن الباحثين.

و رغم ذلک، لم يتعدّ الخلاف بين المسلمين المسائل الثانوية و الفقهية، إذ لم يكن الخلاف يوما فى التوحيد أو الكتاب أو السنة، فهم بحمد اللّه متفقون على توحيد اللّه و على كتابه، و مجمعون على أن ما بين الدّفتين هو القرآن بدون زيادة أو نقصان، و لم يختلفوا فى وجوب الأخذ بسنة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إن اختلفوا فى الفهم أو التفسير، أو توقفوا فى تحقيق الطريق الموصل إلى أخذ الحديث صدر عن الرسول أو لم يصدر.

و لقد هيأ اللّه لهذه الأمة علماء جنّدوا أقلامهم لمواجهة نتائج دعوات التعصب و الانقسام، فكتب الكثير منهم فى ذلک حرصا على سنة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و منعا لأيدى العابثين من الوصول إليها، و دحضا للكذابين و الجهال.

و قد ركزنا فى البحث حول الخلافات المذهبية و النزعات الطائفية التى أدت إلى الفتنة و الشقاق، فعطلت قوى الأمة و شلّت طاقاتها.

و إذا كان التاريخ الإسلامى قد شهد منذ فجر الدعوة بذور الفرقة و الشقاق، فإننا لا نود أن نتعرض فى بحثنا إلى مجريات عهد الخلافة و آثار الخلافات على المجتمع الإسلامى، و بروز النزعات الشخصية و المصالح الذاتية. و لا للخصومة فى مرتكب الكبيرة و غيرها. و إنما بحثنا فى المذاهب و اتساع عوامل الفرقة و الخلاف التى أدت إلى فتن غذّاها الاختلاف فى الآراء، و ما رافق ذلک من مهاترات و خصومات تطورت إلى حروب سالت فيها دماء، و أهينت كرامات، و انتهكت حرمات.

و قد رأينا فيما سبق من أجزاء البحث، كيف تضافرت عوامل عديدة على إثارة المشاكل، و كيف وقعت الأمة فى امتحان قاس، و قد كانت ظروف الفتنة و شيوع الاضطراب، فرصة للجهلة و الغوغاء من الناس للظهور و احتلال مواقع، فيما اضطهد المفكرون و كمّت أفواههم، و نورد هنا قول العلامة المصلح الشيخ محمد عبده الذى يعكس هذا الظرف فيقول: «و السبب فى بقاء قوة سلطان الخلاف و النزاع هو تفشى الجهل، و تعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التى ينتسبون إليها، و بجاهها يعيشون و يكرمون، و تأييد الأمراء و السلاطين لهم، استعانة بهم على إخضاع العامة، و قطع طريق الاستقلال العقلى على الأمة. لأن هذا أعون على الاستبداد، و أشدّ

ص: ١٣

تمكينا لهم مما يحبون من الفساد و الإفساد. فاتفاق كلمة علماء الأمة و اجتماعها على أن الحق كذا بدليل كذا ملزم للحاكم باتباعهم فيه، لأن الخواص إذا اتحدوا اتبعهم العوام، و هذه هى الوسيلة الوحيدة لمنع استبداد الحكام، فالدّين يأمر برفع الشقاق و التنازع و بالاعتصام بحبل الوحدة، و هذا معنى قوله تعالى: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا و قوله تعالى: وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا و قول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض».

ثم يقول المرحوم الشيخ محمد عبده: و قد خالفنا كل هذه النصوص، فتفرقنا و تنازعنا، و حارب بعضنا بعضا باسم الدين، لأننا سلكنا مذاهب متفرقة، كل فريق يتعصب لمذهبه، و يعادى سائر إخوانه المسلمين لأجله، زاعما أنه بهذا ينصر الدين، و ليس فى ذلك إلا خذلانه بتفريق كلمة المسلمين، هذا سنّى يقاتل شيعيا، و هذا شافعى يغرى التتار بحنفى، و هذا حنفى يقيس الشافعية على الذمية» «١».

و يقول السيد رشيد رضا: «حتى أن من اتباعهم (أى أئمة المذاهب) من قدّمهم على الأنبياء عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح، فإنهم يردّون كلام النبى المعصوم- مع اعتقاد صحة سنده- بقول نقل عن إمامهم، و يتعللون باحتمالات ضعيفة» «٢».

و لا أملك أن أستطرد دون أن أشير إلى أن هذا القول هو تعبير عن واقع يأتى مصحوبا بخروج عنه، و ميل إلى ما استنكر فيه، إذ أن السيد رشيد رضا شهد فترة نضج جهود المصلحين المحدّثين، و تبلور أفكار الوعى، غير أنه أسهم هنا و هناك فيما يخالف اتجاه التحرر من التعصب و نهج التحقق و البحث اللذين اتسم بهما فكر الفترة الدينية التى يتصدرها المرحومان السيد جمال الدين الأفغانى و تلميذه الشيخ محمد عبده، و الذى تلاقح و تمازج مع تيارات الوعى و دعوات الوحدة الإسلامية.

و هناك صور من حالات الانقسام و الشقاق ذكرها ابن قدامة: «ففى طرابلس الغرب، ذهب بعضهم إلى المفتى و قال له: اقسم المساجد بيننا و بين الحنفية، لأن فلانا من فقهائهم يعبر عنا كأهل الذمة، بما أذاع فى هذه الأيام من اختلاف الأحناف

---

(١) ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين ص ٦٥- ٦٦.

(٢) انظر مقدمة المغنى لابن قدامة.

فی: هل یجوز للحنفی أن یتزوج الشافعیة؟ فقال بعض الأحناف: لا یصح لأنها تشک فی إیمانها، لأن الشافعیة یجیزون أن یقول المسلم: أنا مؤمن إن شاء اللّه. و هذا یدل علی عدم تیقنها فی إیمانها فی اللّه، و الإیمان لا بد له من الیقین.

و أن بعض الأتباع سمع رجلا یصلی مأموما یقرأ الفاتحة، فضربه بیده علی صدره ضربة قویة وقع منها علی ظهره و کاد یموت. و أن بعضهم کسر سبّابة رجل لأنه رفعها فی التشهد، بفتوی أحد علماء الحنفیة- و هو الکیدانی- بحرمة رفع السبابة، و اعتبروا ذلک نصا إلهیا، و حکما قطعیا فمن خالفه عوقب علی جریمته» «۱».

و یذکر العلامة العز بن عبد السلام الشافعی فی أمور الأخذ بما فیه اختلاف، و أن لا بأس بفعل أو ترک ما لا ینقض الحکم الشرعی: أن الناس لم یزالوا علی ذلک یسألون من اتفق من العلماء من غیر تقیید بمذهب و لا إنکار علی أحد من السائلین، إلی أن ظهرت هذه المذاهب و متعصبوها من المقلدین، فإن أحدهم یتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلدا له فیما قال، فکأنه نبی أرسل إلیه. و هذا نأی عن الحق، و بعد عن الصواب لا یرضی به أحد من أولی الألباب ... الخ «۲».

و یقول التاج السبکی: و لقد رأیت فی طوائف المذاهب من یبالغ فی العصبیة بحیث یمتنع بعضهم عن الصلاة خلف بعض إلی غیر هذا مما یستقبح ذکره، و یا ویح هؤلاء أین هم من اللّه. و لو کان الشافعی و أبو حنیفة رحمهما اللّه حیین لشددا النکیر علی هذه الطائفة «۳».

کما یذکر ابن قدامة أن أربعمائة قاض حنفی و شافعی هاجروا فرارا من تحکم الغوغاء. و حدثت بدمشق عدة حوادث بین الشافعیة و الحنابلة، و بین الشافعیة و الحنفیة، کل ذلک بسبب الطعن فی المعتقدات لأمور تافهة. فمثلا أن ابن القشیری- و هو أحد علماء الشافعیة- یدخل بغداد، و یرقی المنابر للوعظ، فتقوم قائمة الحنابلة، و تقع بینهم و بین الشافعیة فتنة، و بسبب ذلک یسجن بعض العلماء لإطفاء نارها.

و فی سنة ۴۲۱ هجری بین بعض الأتراک و بعض الهاشمیین منازعة، فاجتمع

---

(۱) المصدر السابق.

(۲) انظر عقد الجید فی أحکام الاجتهاد و التقلید للدهلوی ص ۱۲.

(۳) الإعلان بالتوبیخ لمن ذم التاریخ للسخاوی ص ۱۳۰ و ۱۳۱.

الهاشميون و من والاهم من الشيعة و غيرهم فى مسجد المدينة، و رفعوا المصاحف و استفزوا الناس، فاجتمع لهم العدد الكبير من الكرخ. و اجتمع الأتراک و هم جند الدولة و أعيان بغداد فى ذلک اليوم و اشتد القتال بين الطرفين «۱».

و لا يخفى دور السلطة فيما يحدث، و أن الفتن التى تجرى- و ما يتخللها من نيل من مقامات العلم، و تعد على أصحاب المكانات الدينية- من صنعها، فينحاز الحكام إلى طرف دون آخر. فى حين يعلم أن ذلک من تعاطى السفهاء- كما ينص ابن كثير فى وصفهم- و إلا كيف يضرب خطيب جامع بالآجر و يكسر أنفه و يخلع كتفه؟ و لما ذا يقبل آخرون على أناس يحيون ذكرى عاشوراء بالحديد، فيقتتلون اقتتالا شديدا، و يقتل من الفريقين طوائف كثيرة، و تجرى بينهم فتن و شرور مستطيرة.

و يحدثنا ابن الجوزى فى حوادث سنة ۴۹۴ ه أن السلطان قتل خلقا من الباطنية يبلغ عددهم ثلاثمائة و نيفا، و كتب بذلک كتابا للخليفة، فتقدم بالقبض على قوم يظن فيهم ذلک المذهب، و زاد تتبع العوام لكل من أرادوا، و صار كل من فى نفسه شىء من إنسان يرميه بهذا المذهب، فيقصد و ينهب «۲».

كما وقع كثير من الفتن بين الناس بسبب اختلاف الآراء بين العلماء من فقهاء و مفسرين، فبدلا من أن تعقد المجالس لرفع ذلک الالتباس و إزالة الخلافات، أصبحت مثار فتن و سببا لتدخل الغوغاء و أصحاب الأهواء الفاسدة، المندسّين فى صفوف المسلمين.

و قد حدث أن اختلف الحنابلة و غيرهم من السنة فى تفسير قوله تعالى: عَسى أَنْ يَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقاماً مَحْمُوداً فقالت الحنابلة أن المقصود من هذه الآية أن يقعد اللّه نبيه على عرشه. و قال غيرهم: أن المقصود هو الشفاعة، و احتدم الجدل، و اتسع النزاع بسبب ذلک الخلاف، و اقتتل الحنابلة مع خصومهم «۳» إذ كانت لهم القوة فى بغداد لمساندة السلطة لهم و التفاف العامة حولهم و انضمام كثير من الجند إليهم. و قتل منهم قتلى كثيرة، و كان جماعة أبى بكر المروزى أبطال هذه الفتنة «۴» و اعتمدوا على القوة.

---

(۱) ابن كثير، البداية و النهاية ج ۱۲ ص ۲۶ و ۲۸.

(۲) المنتظم ج ۹ ص ۱۲۰.

(۳) السيوطى، تاريخ الخلفاء ص ۱۵۴.

(۴) الكامل لابن الأثير ج ۸ ص ۱۳۲.

و استمر مدة من الزمن يرهبون قلوب الناس، و يتعرضون بالشرّ لغيرهم من الطوائف، و إغراء بعضهم بعضا. مما حمل الخليفة الراضى على إصدار منشور فى ردعهم بالقتل إن لم يرجعوا عن غيّهم «۱».

و من الملاحظ أن هذا المنشور قد أوقف نشاطهم. عن إثارة الفتن و الوقيعة بغيرهم، و خفف عن الناس بعض تلك الشرور التى لحقتهم بفعل التعصب لعقائد فى التجسيم و آراء واهية مشبهة تجعل اللّه كالمخلوقات و المحدثات، و من نيل لمقامات الأولياء و مظاهر الاحتفال بسيرهم. و كان الراضى صريحا فى إعلانه و شديدا فى بيانه و قد توعّدهم فى ختامه بالعقوبات الصارمة. و مما جاء فى منشوره: «ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة و المذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن، و إنكاركم زيارة قبور الأئمة و تشنيعكم على زوّارها بالابتداع، و أنتم مع ذلک تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ... الخ» و مضمون البيان يعبّر عن عودة إلى أصول الحق و قواعد التفكير السليم.

و فى أحضان الحكام و المتنفّذين، نشأ التعصب عنيفا، و غدا من أسلحتهم الفتاكة، فاستغل الحنابلة وجود من يتعصب لمذهبهم فى فترة ردود الفعل و انعطاف الخلفاء الحكام لاستمالتهم فى مواجهة آثار التطرف و التجاوز التى ارتكبت من المعتزلة عند ما ركنوا إلى السلطان و تناءوا عن مصادر الفكر. فكان الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة حنبليا متعصبا لمذهبه، فنعموا فى ظل سلطته، و تصرفوا فى أمور لا يسوغ لهم الدخول بها. و لم تعدم المذاهب الأخرى من مناصرين لها باستعمال سلاح التعصب و الطائفية، فكان من يعهد إليه بوظيفة يوجه جهوده لنصرة مذهبه، و التحامل على غيره. فكان مرجان الخادم شافعى المذهب، تعصب على الحنابلة، و كان بينه و بين الوزير بن هبيرة عداء لأنه حنبلى و يتعصب لهم، كما نصب العداء لابن الجوزى،- و هو عالم الحنابلة و المبرز فى عصره- و كان فى عصرهما الأمير محمد بن موسى التركى أمير دمشق- و هو حنفى المذهب- و يتعصب للحنفية تعصبا مفرطا، و يعادى بقية المذاهب، و بالأخص الشافعية، و كان يعلن بأنهم ليسوا من المسلمين، و يقول:

لو كانت لى الولاية لأخذت من الشافعية الجزية «٢» و عند ما برز الوزير نظام الملک فى

---

(١) ابن مسكويه، تجارب الأمم ج ١ ص ٣٢٢.

(٢) ابن كثير ج ١٢ ص ١٧٥.

محافل الملوک لم يقدر على تحقيق السيادة للشافعية، و الحدّ من تعصّبات الجماعات التى عكفت على حسّ المعاداة، فكان يختار من العلماء من يستشعر فيه القدرة و المنزلة، و يبعثه إلى بغداد. و لكن الحنابلة كانوا لا يترددون عن استخدام الشتم و السب، و دفع الأمور إلى الاضطراب و الهياج. و قد تكلمنا غير مرة عن الأسباب التى أدت بالمسلمين إلى هذه الحالة التى أصبحوا عليها من تباعد و تباغض و تراشق بالكفر و الزندقة.

و لنمضى قليلا مع ألوان الأحداث و صور المجتمع و هو يقاسى الفرقة، و ما أحدثه التعصب من تباعد و عداء و تباغض تسىء إلى رابطة العقيدة، و تبعد عن روح الإسلام و نظمه التى تجعل لكل حقه، و قد كان أبطال التعصب و دعاة الفرقة و جنود الشغب يتعاهدون عوامل معينة بالرعاية، و يعملون على إذكائها و يحاربون كل ما من شأنه العودة إلى روح الدين و فضح البواعث و كشف الدوافع التى تقف وراء تلک الأحداث.

فهى إذا ما قامت من مستوى السلاطين، تلونت بحسب الرغبات و مصالح الحكم التى تمحورت حول أغراض ضيقة و غايات خاصة، و هى إذا ما بدرت من أصحاب المواقع على اختلافها و هيئاتها، كانت ستارا للإبقاء على واقع التمتّع و النفوذ، فيما نرى الناس تكتوى بنار الفرقة، و يتمزّق كيان المجتمع الإسلامى، و تسود روح من العداء التى تنكرها أبسط روابط الإنسانية، فكيف إذا كان الأمر بين أقوام و طوائف تجمعهم كلمة التوحيد، و يفترض أن تشدّ قلوبهم و تجمعها شريعة النبى المصطفى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و سنعرض فيما يلى بإجمال بعض العوامل الكثيرة الأخرى:

ص: ١٩

١- الجمود الفكرى

فقد ضمن الإسلام بمبادئه و قيمه وضعا فكريا يؤدى إلى تطور حالات الإنسان و تقدمه الحضارى، و يدفع بمن امتلك قدرة الفكر و موهبة العلم إلى اغتراف مناهل المعرفة و الأخذ بمضامينها، فكان التفاعل الفكرى و العطاء العلمى سمة المجتمع فى صدر الإسلام، و صفة الدعوة المحمدية التى بدّلت أوضاع الإنسانية، و أحدثت الثورة فى حياة الشعوب التى آمنت بها و انشدّت إليها.

و كان التطور الفكرى مقياسا أساسيا فى التعامل الحياتى و الوجود الإنسانى للمجتمع المسلم، حتى إذا حدثت الفرقة بعد استحكام النزعة الطائفية، و استفحال التعصب المذهبى، برزت عناصر كثيرة تقف بوجه ذلك التطور و التقدم الفكرى، إذ لا يمكن للآراء المنحرفة و الدعاوى الفارغة أن تجد لها موقع قدم أمام ما بلغه المسلمون من مستوى فكرى. فكان الجمود العقائدى أو الفكرى أقرب إلى الجهلة و ذوى الأغراض و الأفكار المنحرفة، و أنفع لهم، فلقى المفكرون ضروبا من المقاومة الشديدة و الجفاء الظاهر، لكى يعطل وعيهم، و يبعد أثرهم، و تتاح لأولئک الذين يعملون على نشر الفرقة الفرصة ليغطوا جهلهم، و يحققوا لأنفسهم مكانة على حساب وحدة المسلمين و مصلحتهم.

و نحن عند ما نستعرض جوانب و صورا من هذا الواقع- بعد قرون طويلة و مراحل متعددة- نرمى إلى كشف عوامل ذلک و عواقبه فى مرحلة يتصاعد فيها وعى نشئنا المسلم و أجيالنا الواعية، حتى يتبينوا واقع الدعوات و التيارات التى تحاول تجديد تلک الفرقة، و إعادة ذلک الخلاف بعقليات متحجّرة و دعوات متخلّفة، لا تختلف فى دوافعها و حقيقتها عن عوامل و أسباب قيام الفرقة فى المراحل الأولى من التاريخ الإسلامى.

ص: ٢٠

و الدعوة الصادقة تبقى محتفظة بتأثيرها و نقائها، و دعوات الفرقة مفضوحة مهما تلبّست ستار العلم أو برقع الثقافة، و إسهاما فى تحمل مسئولية نشر الألفة و المحبة، نبعد عن التحامل على أحد، و لا نتجاهل واقعا نقف عليه، أو برهانا يفرض نفسه.

فالتزام النظرة الصائبة و الدعوة الصادقة يجعل ترسّبات الماضى موضعا للانتقاء و الاختيار، فيهمل ما كان منه مشوبا بهذه الصفحات، و يعتمد ما كان منها مدعاة للوحدة و الائتلاف.

لقد عصفت بالمجتمع الإسلامى عواصف الخلاف، و ظهر التصدّع فى الصفوف بعد أن منى الإسلام بداء عصبية عمياء، و مذهبية ما أنزل اللّه بها من سلطان، و كثرت عوامل الخلاف، و قويت شوكة الجهلة عند ما حورب العلماء، و رمى الفلاسفة بوجه عام بالزندقة، و تشعّبت فروع ذلک، و أصبح المجال واسعا لزرع بذور الفرقة، و كثر الصراع فى مسائل افترق المجتمع حولها، فتفرّقت الكلمة، فمنها الجمود الفكرى.

و الجمود الفكرى- كما تقدم- كظاهرة قوية فى هذا الواقع المؤلم، بعد أن جعل الإسلام حرية الفكر نبراسا للعقول و الأفهام، و طريقا للاهتداء إلى عالم الحق، و أصبح المفكرون فى نظر ذوى الجمود و فى نظر من آثر التسرّع فى الحكم على الأشياء قبل معرفتها، لعجزه عن المجاراة و المساهمة فى حركة الفكر أهواء أو زندقة، فذهبت الدعوة الصادقة ضحية الحجر على حرية العقل، أو نتيجة الجمود الفكرى الذى أقرّته سلطات جائرة و أوضاع منحرفة و تدخلات مختلفة، فكان ذلک حائلا دون تمتع الناس بحقوقهم.

و كان الذين يلتزمون نهج التحرّر الفكرى و الاحتكام إلى العقل كالشيعة و المعتزلة و غيرهم من رجال الفكر قد لاقوا فى سبيل حرية الفكر بلاء، و واجهوا محنا، لأنهم لم يحجبوا نور العقل بظلمة التبعية العمياء، فربطوا بينهم و بين من شذّ فى علم الكلام عن النهج القويم، و ذلک عند ما أقبل المسلمون على دراسة الكتب المنقولة من كتب الأوائل من: منطق و رياضيات و طبيعيات و العلوم الإلهية و الطب و الحكمة العملية و غيرها من علوم الأوائل التى نقل شطر منها فى عهد الأمويين، ثم أكمل فى عهد العباسيين. فقد ترجموا مئات الكتب اليونانية و الرومية و الهندية و الفارسية و السريانية إلى العربية، و أقبل الناس يتدارسون مختلف العلوم، و لم يلبثوا كثيرا حتى استقلوا بالنظر، و صنّفوا فيها كتبا و رسائل، و كان ذلک يغيض علماء

ص: ٢١

الوقت، و لا سيما ما كانوا يشاهدونه من تظاهر الملاحدة و الدهريين، و الطبيعية و المانوية الخ «١».

و من المظاهر المؤلمة ما تعرّض له أبو جعفر بن جرير الطبرى- صاحب التاريخ و التفسير المشهورين- سواء فى حياته أو فى مماته، فنحن نعلم أن للأموات حرمة، و لأن كانت غريزة الكره و الحقد تجد مجالها بين الأحياء، فإن ارتحال الطرف الآخر كاف للكفّ عن استمرار الغرائز الملتوية. يقول ابن كثير: «و دفن فى داره لأن بعض عوام الحنابلة و رعاعهم منعوا من دفنه نهارا، و نسبوه إلى الرفض. و من الجهلة من رماه بالإلحاد، و حاشاه من ذلک كله. بل كان أحد أئمة الإسلام علما و عملا بكتاب اللّه و سنة رسوله، و إنما تقلدوا ذلک عن أبى بكر محمد بن داود الفقيه الظاهرى، حيث كان يتكلم فيه و يرميه بالعظائم و بالرفض. و لما توفى اجتمع الناس من سائر أقطار بغداد، و صلوا عليه بداره، و دفن بها، و مكث الناس يترددون إلى قبره شهورا يصلون عليه. و قد رأيت له كتابا جمع فيه أحاديث غدير خم فى مجلدين ضخمين، و كتابا جمع فيه طريق حديث الطير. و نسب إليه، أنه كان يقول بجواز مسح القدمين فى الوضوء، و إنه لا يوجب غسلهما» و بمرور الوقت عجز خصومه عن طمس شواهد علمه، فأخذوا بالقول بأن هناک طبريين أحدهما شيعى يستحق هذا العداء. و إن كل ما جاء من الحق على لسان الطبرى، و كل ما

ذكره هذا المؤرخ و المفسر الكبير من الحقائق هو من الطبرى الآخر، يقصدون محمد بن جرير بن رستم المحدث الإمامى الثقة، و قد اشتهر بكتابه (المسترشد فى الإمامة) و عرف بالمناظرة و الكلام، و ليس هناک ما يساعد على الخلط بين الاثنين، فآثار كلّ منهما مستقلة و معروفة، و القول بمثل هذا ينمّ عن القصد السيئ.

و كان للمسلمين مكانة فى علم الكلام و غيره، و امتازوا عن سواهم بأمور كثيرة.

و كانت مقاومة المفكرين بأساليب مختلفة و عبارات لا تعبّر إلا عن سوء الفهم. فقد رمى المتكلّمون بالكفر و الزندقة و الخروج عن الدين حسب ما ترتضيه السياسة، و ما تراه فى خدمة مصالحها، فوسعت شقّة الخلاف بين المتكلّمين و بين الفقهاء، و شجعت الحملة على المتكلمين و رميهم بالكفر. فكانت تلک الحركة ضد علم الكلام سببا فى تضييق آفاق الفكر، و سد أبعاده، و تقييد روح الإبداع، حتى هدّد العلماء من المتكلمين.

---

(١) الطباطبائى، الميزان ج ٥ ص ١٧٩.

و قد ساعد على ذلک آراء بعض أئمة المذاهب و أتباعهم، إذ كان بعضهم يرى لزوم تعزير أهل الكلام و ضربهم و إهانتهم، و أن يطاف بهم فى العشائر. و اشتهر عن الشافعى أنه قال: إياكم و الكلام. و قال: لأن يبتلى اللّه المرء بكل ما نهى عنه ما عدا الشرک به خير من أن ينظر فى علم الكلام.

و وجد زعماء الفتن و عناصر الشغب فيما أوثر عن الإمام الشافعى و غيره سلاحا مجردا يستخدمونه لتحقيق أغراضهم، و تغيير الواقع إلى جمود و تخلف. رغم أن هذه الآراء فى حقيقتها و ظروفها تعبّر عن حرية الرأى و قدرة الاجتهاد، و مع هذا نجد أن الإمام الشافعى ينص على دوافع مثل هذا التوجه، و يلتفت إلى تلک الأجواء، إذ قال للربيع: إياک و علم الكلام. و عليک بالاشتغال بالفقه و الحديث. و لئن يقال لک أخطأت خير من أن يقال لک كفرت «١».

و قد نضج علم الكلام فى عصر الشافعى، و اتسع نشاط المتكلمين، و أثيرت هناک مسائل كثيرة دار حولها النقاش و الجدل. و لا بد لكل عالم أن يلتمس الدلائل و البراهين من طريق المعقول لتقوية جانبه، و الردّ على مخالفيه، و لكن من باب درء الخطر من الانهزام أمام المفكرين، أغلق الباب بحرمة تعلم علم الكلام، بل حرمة الاستماع إليه، و حكموا بكفر من يتعلمه.

و كان للفلسفة فى أول زمن الدولة العباسية سوقا رائجا، فقد كانت بغداد فى أواسط القرن الثانى إلى أواخر القرن الخامس ميدان الأفكار الجديدة، كما كانت البصرة كذلک منذ القرن الأول، يقصدها العلماء من البلدان القاصية، و يتذاكرون صنوف العلم، و يتقارضون بأنواع الحكمة. و كانت بغداد مدة ثلاثة قرون مبعث الحركات الفكرية، و العلماء فيها يوحدون صفوفهم.

و كانت الحكومة لا تعارض مجالس النظر و الحجاج ما لم يضر بمصالحها، أما إذا كان البحث فى الإمامة و ما يتعلق بها من إعطاء الفكر مجالا فى أمور يتطلب البحث فيها إيضاحا لما أبهم منها؛ فإن ذلک محظور لا تسمح الدولة فى خوضه.

و اشتدت الحكومات فى القرن السادس بمطاردة علوم الحكمة. و حرّم ابن الصلاح المنطق و الفلسفة، و لم يتمكن أحد فى دمشق من قراءة كتبها، و كان المنادى

---

(١) الجواهر و اليواقيت ج ١ ص ١٧.

ينادى: من ذكر غير التفسير و الحديث و الفقه، و تعرّض لكلام الفلاسفة ينفى. و أفتى الذهبى بتحريق كتب علوم الفلسفة، و إعدام علمائها و القائمين عليها، إذ يقول: و ما دواء هذه العلوم، و علمائها القائمين بها علما و عملا إلا التحريق و الإعدام من الوجود «١». حتى عدّ الاضطهاد فى سبيل المذاهب و الأفكار سمة السياسة لأنه «منذ ظهر الإسلام كان من يخالف الجمهور فى المعتقدات و الآراء يحمل إلى الولاة، فإما أن يستتيبوه أو يعاقبوه، و ما فتئ المهيمنون على الشريعة يثيرونها حربا شعواء على كل من جاهر بفكرة دعا إليها أو لم يدع، و يكفى فى بلائه خروجه عن المألوف و العرف» «٢».

و انتهز العوام و المتفقهة فرصة غضب الملوك على الفلاسفة، فراحوا يروّجون التهم حول كثير من علماء الأمة إذا وجدوا ميلا من السلطان نحوهم، و كان شهاب الدين السهروردى من الحكماء الذين قربه الملك الظاهر غازى ولد السلطان صلاح الدين، فحسده علماء عصره، و ناظروه فانتصر عليهم. فالتجئوا إلى الدسّ و الكذب، و رموه بالكفر و الإلحاد، و طلبوا استئصال الشرّ بقتله حتى لا ينفذ إلحاده، فتمّ لهم ما أرادوا، و أمر السلطان ولده بقتله بلا مراجعة، فقتله سنة ٥٨٦ ه عن ٣٦ سنة، و عرف فى التاريخ بالشاب المقتول.

و قد أورد ابن أبى أصيبعة أن الظاهر غازى بن صلاح الدين، دعا الفقهاء إلى مساجلة السهروردى، فانتصر عليهم و أفحمهم، فزاد حقدهم عليه، فدبروا له تهمة المروق عن الدين، و عملوا محاضرة بكفره، و سيّروها إلى الملك الناصر صلاح الدين و قالوا: إن بقى هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر، و كذلك إن أطلق فإنه يفسد أى ناحية يكون بها من البلاد. و زادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتابا فى حقّه بخط القاضى الفاضل و هو يقول فيه: إنّ هذا الشاب السهروردى لا بد من قتله «٣».

و مكانته فى الفلسفة لا ينكرها حتى أعداؤه، فهى من أبرز صفاته عندهم، كما

---

(١) كرد على، الحضارة الإسلامية ٢/ ٤٣.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٩.

(٣) ابن أبى أصيبعة، الطبقات ص ٦٤٢.

أن من أبرز معالم سيرته هو قتله دون بينة. حتى أن السلطان الذى غلب عليه الذين ساءهم انتصار السهروردى عليهم ندم و نقم على الذين أفتوا فى دمه، و قبض على جماعة منهم و أهانهم و أخذ منهم أموالا عظيمة «۱» كذلک فإنّ الذين يرمونه بالزندقة من المؤرخين لا يملكون إنكار براعته فى علم الكلام، و كونه مناظرا محجاجا زاهدا من أذكياء بنى آدم و رأسا فى معرفة علوم الأوائل «۲».

و ذكر العماد الأصفهانى- المعاصر له- أن الفقهاء دعوا السهروردى للمناقشة فى المسائل الفقهية، و فى مسائل الأصول، فظهر عليهم، فحقدوا عليه، و بيّتوا أمرهم إلى الثأر منه، فدعوه إلى مناقشة علنية أخرى فى مسجد حلب، و سألوه: هل يقدر اللّه على أن يخلق نبيا آخر بعد محمد؟ فأجابهم الشيخ: بأن لا حدّ لقدرته. ففهموا من إجابته أنه يجيز خلق نبى بعد محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو خاتم النبيين، و من ثمة أعلنوا مروقه من الدين، و كتبوا محضرا بكفره، سيروه إلى السلطان، فأمر بإعدامه و إحراق كتبه «۳».

و استمر أعداء حرية الفكر و دعاة الخضوع لسلطان الجهل و التقليد الأعمى بالحرب لعلماء الأمر، فثارت الأحقاد، و ظهرت العداوات و الانتقام. فهذا الفيلسوف ابن رشد- و كان مالكى المذهب و من فقهائهم- تولى القضاء بإشبيلية مدة تزيد على عشر سنوات، و قد قربه الملک أبو يوسف الملقب بالمنصور، مما أثار حسد الفقهاء و المتزمتين، فرموه بالكفر و الزندقة، و تمكنوا من تغيير الخليفة، فنقم عليه و استجوبه فقهاء قرطبة، و قرروا أن تعاليمه كفر، و لعنوا من يقرأها، و حكموا عليه بالكفر و النفى من بلده. و أمر الخليفة بحرق كتبه و كتب الفلسفة فى جميع البلاد، و لعن ابن رشد، و نفى إلى جزيرة فى قرطبة. و إنما لم يحكم على ابن رشد بالقتل أسوة بغيره ممن اتهم بسوء الاعتقاد لأن الذى يرأس المحكمة و يصدر الأحكام كان من علماء المالكية، فكانت المحكمة التى تعقد لمحاكمة المتهمين بالبدعة أو الضلالة أو الزندقة إنما يسند أمرها إلى القضاة المالكية لأنهم يخالفون سائر المذاهب فى هذه التهم التى تلصق بمن تحاول الدولة قتله باسم الدين.

---

(۱) المصدر نفسه ص ۶۴۴.

(۲) شذرات الذهب ج ۲ ص ۲۹۰.

(۳) انظر مقدمة كتاب هياكل النور.

فعند المالكية يقتل المتهم بالضلال أو الزندقة أو البدعة أو ما شئت فقل من مقررات الحكم الجائر. فيصدر الحكم فى حقه و إن تاب، بخلاف بقية المذاهب.

لأن رأى مالک أن المبتدع أو الزنديق ينفذ فيه حكم الإعدام و إن تاب.

لقد أدى شيوع ذلک إلى حالات من الجهل و الجمود و تحكم الفوضى. فنشط العامة بما يرضى أطماعهم و يجلب عليهم نعم السلطة و المتحكمين، فأصبحت الطبقات الحاكمة هى التى تقرّ العقائد التى تراها أكثر نفعا لها و أقرب إلى الاستجابة عليها، فتلتقى إرادة المتحكمين مع رغبة المتنفّذين و المستفيدين من تيارات التعصب هذه. ففى سنة ۴۳۳ ه تصدر الدولة أمرا باتّباع ما تراه من العقائد، فكان منشورها يتضمن أهم المسائل العقائدية التى هى محور الخلاف فى ذلک العصر، فهو يتضمن بعد التوحيد و الأقرار لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالرسالة: عقائد مذاهب أهل السنة. و جاء فيه: أن من قال أن القرآن مخلوق فهو كافر حلال الدم. و أن يلتزم الناس بحب الصحابة كلهم. و أنهم خير الخلق بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن خيرهم كلهم و أفضلهم بعد رسول اللّه أبو بكر الصديق، ثم عمر، ثم عثمان، ثم على، و أن يشهدوا للعشرة المبشّرة بالجنة، و أن يترحّموا على أزواج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من سبّ عائشة فلا حظّ له فى الإسلام، و لا يقول فى معاوية إلّا خيرا، و لا يدخل فى شىء شجر بينهم «۱».

و وقع المنشور فى أغلب ما تضمنه موافقا لرغبة العامة، حيث يؤدى بمحتواه إلى شلّ الحركة العلمية التى تخالف آرائهم. فاتباع ذلک النظام لازم، و مخالفه يعدّ كافرا، و قد كتب الفقهاء خطوطهم، و حكموا بفسق و كفر المخالف. كما أصبحت السلطة القضائية تخضع لهذا المرسوم، و تعاقب بموجبه، فمن اتهم بالمخالفة حكم بكفره، و حلّية دمه، فأصبح العلماء بين خوف العامة و غضب السلطة، و ليس وراءه إلّا سيف النقمة، فلا يستطيع أحد أن يبدى رأيا فيما توصّل إليه من وراء تفكيره و النظر العقلى، و لا يستطيع المؤرخ أن يسجّل حادثة فيها مخالفة لرأى السلطة، و ليس لباحث أن يثبت شيئا بعد تحقيقه و صحته، كما ليس للمحدّث أن يناقش حديثا أو يثبت ما لا يتفق و آراء العامة. فكم ضاع من وراء هذا التحجير من الأفكار الحرّة و الحقائق التاريخية التى أهملها العلماء مخافة أن يعرفوا بها فيهلكوا، و بذلک حقنوا دماءهم،

---

(۱) المنتظم ج ۸ ص ۱۱۰- ۱۱۱.

و اتقوا تقاة أنجتهم من تسلط العتاة. فضاعت أخبار كثيرة، و خمدت القرائح، و شاع الجمود الفكرى، و فشى الجهل. و السلطة من وراء الجهّال تشدّ أزرهم، و تفتک بمن يحاول الخروج عن الطاعة «و إنه لطبيعى كذلک فى أن يكون الملک عدوا لدودا لكل بحث و لو كان علميا يتخيل أنه قد يمس قواعد ملكه و تقويض كرسيّه و لهذا ضغطوا على حرّيّة العلم، و استبدّوا بمعاهد التعليم، و ربطوها بعجلة الدولة» «۱».

و برغم ركام الأهواء تجد الحقيقة لها ألسنة و أقلاما تعبّر عن جوهر الدافع فى الإبقاء على الجمود و بواعث سياسة الحكام الذين أحكموا إغلاق منافذ الفكر ليهيمنوا على الأمة، و أغلقوا باب الاجتهاد الذى تشبّث الشيعة لفتحه حماية للفكر و إغناء للفقه، فلما رأى بنو العباس أن وسائلهم فى القهر لا تجديهم، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم، فيتولوا أمره بأنفسهم، ليربوا العلماء على الخضوع لهم، و يملكوهم بالمال من أول أمرهم، و كانت الأمة هى التى تتولى أمر التعليم بعيدا عن الحكومة، كما تتولاه الآن الأمم الراقية .. فيقوم فى المساجد حرا لا يخضع لحكم ملک أو أمير، و يتربى العلماء بين جدرانها أحرارا لا يرقبون

إلا اللّه فى علمهم، و لا يتأثرون بهوى حاكم، و لا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم. فأراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم، و يتولوا بأنفسهم أمر التعليم بين المسلمين، فأخذوا ينشئون له المدارس بدل المساجد، و يحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يرغب العلماء فيها، و يجعل لهم سلطانا عليهم، و أخذت الممالک التابعة لهم تعمل فى هذا بسنّتهم، حتى صار التعليم خاضعا للحكومات بعد أن كان أمره بيد الرعية، و كان لهذا أثره فى نفوس العلماء فنزلوا على إرادة الملوک، و لم تقو نفوسهم على مخالفتهم فى رأيهم أو توجيه شىء من النصح إليهم «٢» فلما انتشرت المدارس الحكومية قام بنو العباس بالخطوة المكمّلة، فطلب من المنفّذين لسياستهم المشتغلين بالعلم ألا يذكروا شيئا من تصانيفهم، و ألا يلزموا الفقهاء بحفظ شىء منها؛ بل يذكروا كلام الشيوخ السابقين تأدّبا معهم، و تبرّكا بهم. فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزى الحنبلى بالسمع و الطاعة.

---

(١) كرد على: الحضارة الإسلامية.

(٢) انظر: عبد المتعال، الصعيدى، فى ميدان الاجتهاد ص ٧.

فيما كان نهج الشيعة منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا يقوم على إثبات مذهبهم بالأدلة المنطقية، و الكتابة العلمية، و كان مدار الإمامة و مصطلحاتها الفنية من أكبر ما اهتموا به لأنها من أركان الدين، و هى أصل إقامة المجتمع و مصدر بناء هيئاته، و هم الذين قسّموا علمها، و بوّبوا أبوابه، و عيّنوا مجاله، و رسموا حدوده «١».

و كان للشيعة بتلک العصور ألمع الشخصيات الإسلامية كهشام بن الحكم، و كان يرأس مدرسة فكرية إسلامية أخذ تعاليمها من أستاذه الإمام الصادق عليه السّلام و يقول فيه ابن النديم: أنه هو الذى فتق الكلام فى الإمامة، و هذّب المذهب، و سهّل طريق الحجاج. و كان حاذقا بصناعة الكلام، حاضر الجواب «٢». و من جرّاء شهرته فى الكلام مع علوّ رتبته بالفقه و سائر العلوم، فقد تحاملوا عليه، و نسبوه إلى سوء الاعتقاد، كما طاردته السلطة أيام هارون الرشيد، فهرب و مات متخفيا. و هكذا غيره من فلاسفة الشيعة و علمائها الذين امتحنوا فى سبيل عقيدتهم أمثال: مؤمن الطاق محمد بن النعمان، و أبو يوسف الكندى، و بنى نوبخت، و الرازى، و الهمدانى و غيرهم من متكلمى الشيعة و فلاسفتهم. و كان اشتهارهم بعلم الكلام مهّد لأعدائهم أن يتّهموهم بسوء الاعتقاد، و البدعة و الكفر، و هذه البدعة هى بدعة سياسية، لإن مخالفتهم لنظام الحكم السائد جعلتهم مبتدعة فى نظر أعوان السلطة. و نتيجة لذلک التعصّب الأعمى شاعت الافتراءات، و موّهت فى إطار فقهى أو مذهبى. لأن الشيعة التزموا نهج أهل البيت كأئمة هداة و صفوة معصومة تمثّل الرسالة فى أصولها و المبادئ فى نقائها. و الذين كان نصيبهم الاضطهاد و الظلم، و الابتعاد عن السلطة التى انجرّت إلى القيم الدنيوية و المادية. فوضعت السلطة مخططا لمواجهة التيار الذى يمثل الالتزام بخط أهل البيت، و التخلص من رجالات الشيعة و أفكارهم بكل السبل، سواء كانت بالقتل و الاعتداء، أو التحريف و قلب الحقائق، و العمل على نبذ كل ما يمتّ لهم بصلة. فوصل الأمر بالمتفقّهين إلى الدعوة إلى ترک أحكام الشرع إذا كانت تشبه أحكام الشيعة. فعلى سبيل المثال لا الحصر:

١- قالوا: و من المصلحة أن يمنع المصلى عن اختصاص جبهته بما يسجد عليه

(۱) النظريات السياسية الإسلامية ص ۸۱- ۸۲.

(۲) الفهرست ص ۲۴۹- ۲۵۰.

من أرض و غيرها لأن ذلک الاختصاص من شعار الشيعة «۱».

۲- حكم بعضهم بأفضلية المسح على الخفّين بدون دليل، و إنما كان ذلک الحكم، لأن الشيعة طعنوا فى المسح على الخفّين، و إحياء ما طعن فيه المخالفون من السنن أفضل من تركه «۲».

۳- يقول ابن تيمية فى منهاجه- عند بيان حرمة التشبه بالشيعة-: و من هنا ذهب من ذهب من الفقهاء إلى ترک بعض المستحبّات. إذ صارت شعارا لهم (الشيعة) فإنه و إن لم يكن الترک واجبا لذلک، لكن فى إظهار ذلک مشابهة لهم، فلا يتميّز السنّى من الرافضى، و مصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم و مخالفتهم أعظم من مصلحة المستحب. و إن هذا لمن الإفراط فى الانحراف و الغفلة عن أكبر خطأ يرتكب فى ترک أوامر اللّه سبحانه.

و لا زالت الحالة هذه تشقّ طريقها حتى فى العصور المتأخرة، كما يحدثنا الشيخ القاسمى عنهم بقوله:

«يدرّس كثير من العلماء للطلبة فى المساجد، و هؤلاء المدرّسون ندر من يكون منهم غير متعصب أو لا يوجد، و لذلک لا تخلو المساجد العامة التى يكثر مدرّسوها من ثورات تتناقلها الأفواه، و ما منشؤها إلا التعصب، و هاک بيان ذلک: نرى مدرّس الفقه غير الحكيم يقرأ الفروع قراءة مشوبة بهضم المخالف لمذهبه و عدم رؤياه بشىء، و عدم الاعتداد بمذهبه كليا إلا ظاهرا، فلا ينصرف تلامذته من دراسة إلا و هم مملوءون قوة بها، يدفعون من خالفهم فى تلک الفروع، و قد يرون بطلان ما عليه غيرهم. كما يعلّمونه كراهة الاقتداء بالمخالف، مما يتبرّأ منه هدى السلف و الأئمة المتبوعين عليهم الرحمة و الرضوان. و كما يحاولون دليلا ضعيفا فى مقابلة قوى كمرسل فى مقابل مسند، و إيثار ما رواه غير الشيخين على ما رواياه مما يتبرّأ منه الإنصاف» «۳».

و على أى حال فإنّ التعصب المذهبى قد أحدث مظاهر شاذة فى المجتمع الإسلامى، و ولّد مراحل سوداء، سادتها ظروف سيئة و متباينة، و قد رأينا ما أحدث

(۱) انظر غاية المنتهى فى الجمع بين الإقناع و المنتهى ج ۱ ص ۱۳۵.

(۲) نيل الأوطار ج ۱ ص ۱۷۶.

(۳) إصلاح المساجد ص ۱۶۴.

ص: ۲۹

التعصب من فرقة و انقسام بين صفوف أمة واحدة ذات كتاب واحد و نبى واحد، و لكنه- و الحمد للّه- لم يبلغ الخلاف إلى مستوى العقائد الأساسية التى هى دعامة الإسلام و ركيزة وحدة الأمة. و رغم أن روح التعصّب و نزعات التحكّم قد أدّت إلى اختلال القيم و تشويه المبادئ من خلال إخضاعها للأهواء و التعصب و التحزب؛ فإن روح الحرص و الإيمان بقيت تواجه حملات التضليل و تيارات الانقسام، فراح الكثيرون من علماء هذه الأمة و رجالاتها ينبذون الخصومة، و يرفضون التحزّب و إثارة روح الحقد، و يتمسّكون بروح الإخاء إطاعة لأمر اللّه و عملا بمبادئه، و يبثّون روح التفاهم، لتنمو من جديد. و عملوا جاهدين لحفظ تراث الإسلام، و إزالة كل ما يحول دون التقاء أبنائه على صعيد الأخوة الإسلامية.

و لو حاول مثير و الفتنة الاحتكام إلى مبادئ الإسلام و إلى روح الرسالة فيما يدّعون من أمور و مسائل، لباءت حملاتهم و تحرّكاتهم بالفشل و الخسران. لكنّهم توسّلوا بأمور اختلفوها، و نصوص أوّلوها لترضى مراميهم و أغراضهم؛ فضاعت فى غمرة الفهم و التقوّلات أسس و أصول الحياة التى أرسى دعائمها الإسلام، فكان من البديهى أن يكون الجمود الفكرى غطاء لموجات التعصّب و التحزّب التى أحالت الألفة إلى تناحر، و الأخوّة إلى عداء.

و من تلك المشاكل مسألة خلق القرآن. و قد أشرنا لها سابقا، و زيادة فى البحث نذكر هنا بعض ما تدعو الحاجة لذكره:

ص: ۳۱

۲- خلق القرآن

تأثر المأمون بحركة العلوم التى كانت سائدة فى عصره، و كانت حالة الأمة الفكرية قد اتسمت بخصائص و ظواهر مهمة، أثرت فى السياسة من خلال شخصية الحاكم الذى نشأ و ميله إلى العلوم ينمو معه، حتى تفرّد بمواقف تكشف عن وعى و تصوّر خضوعا للمنطق، و إذعانا للحق، خاصة فى الأمور و الأحداث التى اكتنفت مسيرة الخلافة منذ قيام نظام الخلافة.

و كان من أبرز جوانب الحياة الفكرية، ظهور تيارات و اتجاهات كلامية و عقلية اهتمّت بعقائد و أديان الأمم الأخرى، التى راحت بقاياها تكيد للإسلام. فتعرّف المسلمون على مضامين و مناهج النشاطات المعادية، و تمثّلوها، و صاغوها. فماجت مواطن الفكر الإسلامى بدراسات و أصناف من العلوم، عبّرت عن قدرات العلماء و المتكلمين الإسلاميين، فأسهموا مساهمة كبرى فى ردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، و مناجزتهم بنفس السلاح الذى أشهروه بوجه الإسلام.

و لمّا تسلّم المأمون سدّة الحكم- بعد الأحداث الدامية المعروفة- مال بالنظام إلى الجهة التى تنسجم مع ميوله، و تناسب ما نطلق عليه «الحركة الفكرية» حيث غلبت صفة البحث و الطابع العلمى، فكان المعتزلة فى هذه الفترة من أبرز المناظرين و أنشط المتكلمين، فكانوا أصحاب جدل و أنصار رأى. غير أنهم فى الفقه و الأصول لم يتفقوا على قواعد ثابتة، لذلك لم يخرجوا من تيار الجدل و النظريات، و قد حسبوا كثيرا على الشيعة، بل أن البعض نظر إلى الأمر معكوسا و تناسى أصول الشيعة و وجودها

التأريخى الذى يسبق ظهور المعتزلة. و ظل الالتباس قائما حتى اليوم من جرّاء اشتراک المعتزلة مع الشيعة فى بعض الخصائص الفكرية: من اهتمامهم بالعقل، و رعايتهم

ص: ٣٢

الفكر. و قد أسهم المأمون نفسه فى إثارة القضايا التى تخصّ عقيدة الشيعة، منها:

مسألة الخلافة، و الأحقّيّة و الأفضلية؟ و لكن العمل السياسى كان يتمثّل فى الموقف من العلويين، و إرساء قواعد الحكم على أساس رضا الناس و قبولهم النظام العباسى عن قناعة، بعد أن فضحت سياسة السابقين من آبائه خدعة الدعوة إلى الرضا من آل محمد، و كيف كشّر العباسيون عن أنياب حقد أشدّ و أدهى على العلويين من حقد الأمويين. فكان أن حمل المأمون العلويين من المدينة و فيهم الإمام الرضا على بن موسى، و جاء بهم إلى خراسان. و كان غرضه شخص الإمام الرضا عليه السّلام فأنزل العلويين دارا، و أنزل الإمام الرضا دارا و أكرمه و عظم أمره.

و اختار المأمون أن يعلم الإمام الرضا بقصده من وراء ذلک عن طريق الوسطاء، و ادّعى أنه يريد أن يخلع نفسه من الخلافة و يقلّدها إلى الرضا عليه السّلام و كل الدلائل تشير إلى كذب هذا الادعاء. فالمأمون حاكم لم يتورّع عن قتل أخيه فى سبيل كرسى الخلافة، و لا يمكن بأى حال أن يخرج عن أهم قواعد الحكم الجائر، و يتخلّص من كره آل على، و إن ادعى ذلک و جاهر بأنه وجد أن العباسيين قد ظلموا و غصبوا آل على حقهم. هذا من جهة، و من جهة ثانية فإن الإمام الرضا فى سيرته و وجوده، هو امتداد حى و استمرار متوقّد لسيرة ابن الشهيد الإمام موسى بن جعفر، لم يحفل بالدنيا، و لم تبعده نوائب الدهر عن أمور دينه و رعاية أهل الإسلام بالدعوة إلى التمسّک بالعقيدة و الاتجاه إلى الإخلاص فى الدين.

و إن قدّر المأمون بعض نظرة الإمام الرضا إلى السلطة السياسة من حيث تصنيفات الواقع، فليس من السهولة بمكان تناسى حقائق التاريخ الأسود للعباسيين و فظائعه.

و يروى الشيخ المفيد- قدس سره- فى الإرشاد، أن الإمام الرضا أنكر هذا الأمر و قال: «أعيذک باللّه يا أمير المؤمنين من هذا الكلام، و أن يسمع به أحد» فردّ عليه الرسالة: فإذا أبيت ما عرضت عليک، فلا بد من ولاية العهد من بعدى. فأبى عليه الرضا أباء شديدا. فاستدعاه، و خلا به و معه الفضل بن سهل ذو الرئاستين، ليس فى المجلس غيرهم و قال: إنى قد رأيت أن أقلّدک أمر المسلمين، و أفسخ ما فى رقبتى و أضعه فى رقبتک. فقال له الرضا عليه السّلام: «اللّه اللّه يا أمير المؤمنين، إنه لا طاقة لى بذلک، و لا قوة لى عليه ..» قال له: فإنى مولّيک العهد من بعدى. فقال له: «اعفنى

ص: ٣٣

من ذلک يا أمير المؤمنين». فقال له المأمون كلاما فيه تهديد له على الامتناع عليه، و قال فى كلامه: إن عمر بن الخطاب جعل الشورى فى ستة أحدهم جدّک أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام و شرط فيمن خالف منهم، أن يضرب عنقه، و لا بد من قبولک ما أريده منک، فإننى لا أجد محيصا عنه.

فكان جواب الإمام الرضا أبلغ تعبير عن فهم البواعث التى وراء مثل هذا الأمر، و خير ردّ يعرّى الخطة التى ترمى إلى ترميم كيان الظلم بالإساءة إلى نهج آل البيت، و محاولة ثنيهم عن الابتعاد عن الركون إلى الظلمة، و جهادهم للإبقاء على سلطان الدين فى روحانية النفوس و علاقات المجتمع. و لما لم يجد الإمام الرضا أمامه إلا سيف الحكام قال للمأمون: «فإنى أجيبك إلى ما تريد من ولاية العهد على أننى لا آمر و لا أنهى، و لا أقضى، و لا أولى و لا أعزل، و لا أغيّر شيئا مما هو قائم». فأجابه المأمون إلى ذلک كله، لكى يحقق الغرض السياسى الذى أراده، و زيّن له و همه ذلک، فظن أن خدعة ولاية العهد تنطلى على الناس فيما جعلها فارغة ليست بشروطه التى عوّل عليها، بل بشروط الإمام الرضا.

و على هذا المنوال، عالج الجانب الفكرى و الحياة العقلية النشطة، فأقحمها فى دوائر السياسة و الحكم، و جعل رجال الفكر و أصحاب الاتجاهات العقلية- التى يفترض فيها ممارسة الدفاع عن الرأى- أعمدة للتحكم، فأوقع الحركة الفكرية فى تناقض. و هكذا استطاع المأمون أن يستفيد من ميوله و اهتماماته، و يؤثر فى أولئک الذين ارتضوا أن يكونوا جزءا من السلطة على ما هم عليه من صفات و سمات فكرية، تجعلهم من أهل العدل.

فى سنة ٢١٢ ه أظهر المأمون القول بخلق القرآن، و تفضيل الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام و قال: هو أفضل الناس بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «١».

و فى سنة ٢١٨ ه أعلن وجوب الاعتقاد بخلق القرآن، و أنه حادث غير قديم، و ذلک لنفى التشبيه عن ذات اللّه، و نفى الصفات عن الذات العلية، لئلا تتصف الذات بما يعددها. و نفى المعتزلة و من وافقهم من المسلمين الاعتقاد بقدم الصفات كقدم

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٧٩.

الذات، لأن الذات هى وحدها متّصفة بالقدم، و من أجله كانت الصفات محدثة ظاهرة فى الغير، و الكلام محدث، و القرآن محدث لأنه من الكلام.

و لجأ المأمون إلى استخدام القوة لفرض هذا الرأى، و أعدّ لسياسته فى هذا المجال العدة زمنا طويلا، و نصب ديوانا للمحنة، و حمل الناس على هذا الاعتقاد، و محاربة من يقول بأن القرآن قديم. لأنه من صفات اللّه، و الذين لم يروا بدّا من إثبات الصفات للذات و إنها قديمة قدمها الخ ...

فحصل الانقسام، و عقد مجلس للامتحان، و اختارت الدولة له أشد الناس جدلا من المعتزلة و غيرهم، كما اختار جماعة من الجلّادين الأشداء الجفاة الذين مرنوا على الضرب بالسياط، و الحراس الغلاظ، و جعل فى الديوان عقابا لكل ممتنع عن الأقرار (و تبتدئ العقوبة بالحرمان من الحق- الذى نسميه فى حياتنا- بالحق المدنى فى الحياة، و تنتهى بخشبة الصلب، فإذا لم يكن للرجل رزق و وظيفة عوقب عقوبة بدنية بقدر ما يمتنع عن الإجابة أو يحتال فى الإنكار، أو يصطنع الخلاص) «١».

و هنا لا بد من الإشارة إلى التقاء المعتزلة مع الشيعة فى القول فى كون كلامه تعالى لا يكون إلا بكلام محدث، لأن حقيقة المتكلم من وقع منه الكلام الذى هو هذا المعقول بحسب دواعيه و أحواله، و الكلام المعقول ما انتظم من حرفين فصاعدا من هذه الحروف المعقولة التى هى ثمانية و عشرون حرفا، إذا وقع ممن يصح منه أو من قبيل الإفادة. و الدليل على ذلک أنه إذا وجدت هذه الحروف على هذا الوجه سمّى كلاما، و إذا اختلّ واحد من الشروط لا يسمى بذلک. فعلمنا أنه حقيقة الكلام، و متى ما وقع ما سميناه كلاما بحسب دواعيه و أحواله سمى متكلما، فعرفنا بذلک حقيقة المتكلم «۲».

و لكن الشيعة لا يطلقون صفة «مخلوق» على القرآن، فكانوا أكثر حرصا على التنزيه و قالوا: ينبغى أن يوصف كلام اللّه بما سمّاه اللّه تعالى به من كونه محدثا، قال اللّه تعالى: ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ. و قال عز و جل: وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ.

---

(۱) عبد العزيز سيد الأهل، شيخ الأمة أحمد بن حنبل ص ۲۱۸.

(۲) الشيخ الطوسى، الاقتصاد ص ۶۵- ۶۷.

و الذكر هو القرآن بدلالة قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْکَ الذِّكْرَ و قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ. و قد روى عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «القرآن محدث غير مخلوق و غير أزلى مع اللّه سبحانه». كما ورد عن غيره من أئمة الهدى النهى عن جعل اسم آخر للقرآن غير ما ورد عن اللّه.

لقد وصف الشيعة القرآن بما وصفه اللّه تعالى، فقالوا عربى لقوله تعالى:

بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ و العربية محدثة. و منعوا وصفه بأنه مخلوق، لأنه يوهم بأنه مكذوب أو مضاف إلى غير قائله، لأنه كالمعتاد من هذه اللفظة، قال اللّه تعالى: إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ و: إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. و قال تعالى: وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً فنرى أن وصف الكلام بالخلق يأتى إذا أريد به الكذب أو الانتحال، كما يقولون هذه قصيدة مخلوقة و مختلقة، إذا كانت منتحلة مضافة إلى غير قائلها «۱».

أما الأشعرية فيقولون إن الصفات التى أنيطت بها الأقوال و ابتنيت عليها المسألة هى صفات معنوية، و هى صفات زائدة على ذاته، و بيان وجوب المشكلة يقتضى التفصيل، و نحن نقصد هنا الإشارة و ذكر إحدى القضايا التى نجم عنها أضرار و فرقة استمرت قرونا عديدة بآثارها، و توارثها حتى اليوم خلق عن أسلاف أورثوهم التعصب، و راحوا يستهزءون بما منّ اللّه عليهم من عقل و إدراک، و يؤثرون الجمود و التوقف عن النمو.

و القصد فإن المأمون أظهر من ألوان الاعتماد على المعتزلة و تقريبهم، ما جعلهم أعلى الناس مكانة و أوفرهم حظا، و خضعت مجالس المناظرات و النقاش لأهواء الحاكم، فكان مدارها المواضيع التى يرغب بها المأمون. و لا جدال فى تبنى المأمون لفكر المعتزلة، لكن نزعات الحاكم أو السلطان قد تغلبت على شخصية التلميذ أو ميول المتعلم، بل جعلها مادة للسياسة.

و المؤسف المؤلم أن توضع عناصر الغنى الفكرى و مناهج البحث فى خدمة أغراض السلطان، و تصبح من أسباب التدهور، و من وسائل الحاكمين و المتنفذين، فتؤدى إلى نتائج و عواقب لا تليق بالفكر الحر و العقل النير. و مع ما اتصف به المأمون من إلمام و دراية، فإن كتابه السلطانى الذى أصدره سنة ٢١٨ ه كان فى حقيقة أمره

---

(١) أيضا نفس المصدر.

تصرفا إداريا لا يختلف بشىء عن بقية إرادات الحكام، و لكنه تضمّن أفكار المعتزلة و آراءها، مما أساء إلى أهدافهم الأخرى التى تتصل بالعقل و حرية الفكر.

أما تنزيه اللّه سبحانه و تعالى عن الصفات التى يتصف بها المخلوقون، فالقرآن عندهم مخلوق و ليس بقديم، فاللّه وحده قديم، و ما ورد فى القرآن هو كلام اللّه، و لكن عندهم أن الكلام لا يمكن أن يكون صفة للّه تعالى هى ذاته كالعلم و القدرة، و أنكروا أن تكون الصفات أشياء و ذواتا قديمة قائمة وراء الذات، لأن هذا يؤدى إلى تعدد القدماء، لذا فإن الذات و الصفات شىء واحد. و يردّ الفلاسفة أن ذلک بعيد من المعارف، بل يظن أنه مضادّ لها، و ذلک أن العلم يجب أن يكون غير العالم، و إنه ليس يجوز أن يكون العلم هو العالم إلا إذا جاز أن يكون أحد المتضايفين قرينة مثل أن يكون الأب و الابن معنى واحدا بعينه «١» بالنسبة لعقيدة الثالوث.

و أدت السياسة إلى أن يكون ذلک مثار فتنة شملت أيام المأمون و المعتصم و الواثق، و حصلت من ورائها فرقة و تباعد، و وصل الأمر إلى أن من يذهب إلى قدم القرآن يكفّر من يقول بأنه مخلوق، و ذلک فى عهد المتوكل، حيث ارتد عن تلک السياسة إلى منحى آخر، بعد أن كان بعض القضاة يسأل الشاهد عن هذه القضية، فإن أقر بأنه مخلوق قبلت شهادته و إلا ردّها «٢».

ثم أفتى- بعضهم و بتأثير السلطة- بوجوب قتل من يقول بخلق القرآن، و بديهى أن هذا المفتى لم يستند بفتواه إلى دليل عقلى أو نقلى، بل كان مستندا إلى أمر تافه، و ذلک أنه عند ما سئل عن دليل هذه الفتوى أجاب: أن رجلا رأى من منامه إبليس قد اجتاز بباب المدينة و لم يدخلها، فقيل لم لم تدخلها؟ قال إبليس: أغنانى عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن «٣».

و نظير هذا ما حدثنا به التاريخ عن المهدى العباسى عند ما دخل عليه شريک بن عبد اللّه القاضى، فلما رآه المهدى، قال: علىّ بالسيف و النطع. قال شريک: و لم يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت فى منامى كأنک تطأ بساطى، و أنت معرض عنى، و قصصت رؤياى على من عبّرها فقال: إنه يظهر لک طاعة، و يضمر لک معصية ما.

---

(١) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ص ٨۴- ٨۵.

(٢) الكندى، كتاب القضاة ص ۴۴٧.

(٣) الاعتصام للشاطبى ج ١ ص ٢۶٢.

فقال له شريک: و اللّه ما رؤياک برؤيا إبراهيم الخليل، و لا كأن معبّرک بيوسف الصديق، فبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين؟ فاستحى المهدى و قال: أخرج عنى. ثم صرفه عن القضاء و أبعده «١».

و مرّت مشكلة خلق القرآن عبر التاريخ تتوارثها الأجيال، و استغل الحنابلة ميول بعض الأمراء إليهم فراحوا يوقعون المكروه بمن يخالفهم، و قد استمالوا الملک الأشرف فأصبح يعتقد بأن من يخالف عقيدة الحنابلة فهو كافر حلال الدم، و أصبح هذا الاعتقاد هو الاعتقاد الرسمى «٢».

و كان العز بن عبد السلام المتوفى سنة ۶۶٠ ه من العلماء المبرزين، و من الدعاة إلى التحرر من نير التقليد الأعمى، و كان أشعرى العقيدة، فتقدم الحنابلة إلى الملک الأشرف بأن الشيخ العز زائغ العقيدة، منحرف عمّا صحّ من العقائد الدينية الصحيحة، و أن الدين الذى هم عليه هو اعتقاد السلف و الإمام أحمد و فضلاء أصحابه، و على هذا الاعتقاد الذى فرضه السلطان يقول الرستمى:

الأشعرية ضلّال زنادقة	إخوان من عبد العزّى مع اللات
بربّهم كفروا جهرا و قولهم	إذا تدبّرته أسوأ مقالات
ينفون ما أثبتوا عودا لبدئهم	عقائد القوم من أوهى المحالات

«٣» و قد امتحن العز بن عبد السلام و غيره ممن يخالف الحنابلة فى شىء من الاعتقاد، و كانت السلطة هى العامل الوحيد فى بعث نشاطهم و امتداد حركاتهم، و بها ينتصرون على خصومهم الذين نبذوا الجمود و آثروا التدبّر و الاحتكام إلى القرآن و السنّة، فالشيخ عز الدين بن عبد السلام إنما كان غرضا لهم لما عرف عنه من أقوال و مواقف ثابتة تغاير ما يدعون إليه- و قد ذكرنا بعض أقواله- و التى نذكر منها قوله:

(و من العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا، و هو مع ذلک يقلده فيه، و يترک من شهد الكتاب و السنّة

---

(۱) المصدر السابق.

(۲) هامش ذيل تذكرة الحفاظ ص ۲۶۳.

(۳) المصدر السابق.

و الأقيسة الصحيحة لمذهبهم جمودا على تقليد إمامه، بل يتحيل لدفع الكتاب و السنّة و يتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلّده).

و فى بغداد جلس أحد الحنفية المقربين عند السلطان بجامع القصر و جامع المنصور، و أخذ يلعن الأشعرى على المنبر و يقول: كن شافعيا و لا تكن أشعريا، و كن حنفيا و لا تک معتزليا، و كن حنبليا و لا تكن مشبّها، و أخذ يذم الأشعرى و يمدح المذاهب الأربعة «۱».

و شاعت الاتهامات بالباطل، و مضى الحنابلة فى نشاطهم، فارتكبوا أعمال الفتک بمن لم يكن على عقيدتهم لأنه عندهم كافر حلال الدم استنادا إلى فتوى أحمد بن حنبل، فقد جاء عنه أنه يذهب إلى كفر من يقول بخلق القرآن، و سئل يوما عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة و كان عنده مملوک يقول بخلق القرآن؟ فقال:

لا يجزى، لأن اللّه تبارک و تعالى أمر بتحرير رقبة مؤمنة و ليس هذا بمؤمن هذا كافر «۲».

و قال أبو الوليد: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، و من لم يعقد عليه قلبه على أن القرآن ليس بمخلوق فهو خارج عن الإسلام «۳».

و قال على بن عبد اللّه: القرآن كلام اللّه، من قال أنه مخلوق فهو كافر لا يصلّى خلفه.

و قال أبو عبد اللّه الذهلى المتوفى سنة ۲۵۵ ه: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، و بانت منه امرأته، فإن تاب و إلّا ضربت عنقه، و لا يدفن فى مقابر المسلمين، و من وقف و قال: لا أقول مخلوق: و قد ضاهى الكفر، و من زعم أن لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، و لا يدفن فى مقابر المسلمين.

و سئل أحمد بن حنبل عمن قال: لفظى بالقرآن مخلوق. فقال: هذا لا يكلّم و لا يصلّى خلفه، و إن صلّى أعاد. و ان لا يسمح لأصحابه بالسلام على من يخالفه فى رأيه.

(۱) المنتظم ج ۹ ص ۱۰۷.

(۲) ذیل طبقات الحنابلة ج ۱ ص ۱۳۳.

(۳) ابن العماد، شذرات الذهب ج ۲ ص ۳۲۲.

و علی أی حال، فإن مشکلة القول بخلق القرآن- کما مرت الإشارة إلیها- بلغت حدّا یستغرب فیه الإنسان وقوع تلک الأحداث المؤلمة فی زمن اشتدت الصراعات فأصبحت فیه مقیاسا یقاس به إیمان المرء و کفره، و بهذا انعطفت موجة الصراع المذهبی نحو مرحلة جدیدة من الخلاف، خلّفت وراءها مادة أخری، و محورا جدیدا تدور علیه مشاکل الأمة فی خلافاتها المتواصلة.

و فی عهد المتوکل العباسی، عند ما أفل نجم المعتزلة، و أفلت منهم زمام الحکم، و انحازت السلطة لجانب أهل الحدیث و هو الجانب المعارض الذی یمثله جماعة أحمد بن حنبل، فانصبّ الغضب علی المعتزلة بعد أفول نجمهم، و استغل دعاة الفرقة فرصة انتصار جانب المعارضة، و طلوع نجم أحمد بن حنبل باعتباره من الشخصیات المعارضة للدولة فی فرض القول بخلق القرآن.

فکثر أتباع هذا الجانب، و ظهرت الضغائن، و نبشت الدفائن، و سارت جموع مختلفة الاتجاهات، متباینة القومیات فی رکاب اتباع أحمد بن حنبل إذ کان لهم دور السلطة فی الدولة، و قد تجاوزوا أقصی حدّ فی العقوبة و الانتقام ممن خالفهم و بالأخص من المعتزلة و الشیعة لعنا و قتلا و تکفیرا، و تمادوا فی مهاجمة المعتزلة حتی قالوا: أن المعتزلی لا تجوز الصلاة علیه، و أن دماءهم حلال للمسلمین، و فی أموالهم الخمس، و لیس علی قاتل الواحد منهم قود و لا دیة و لا کفارة، بل لقاتله عند اللّه القربة و الزلفی «۱».

و قد ابتعدوا عن کل مبادئ العدالة، و خالفوا قواعد العلم مع المنطق، ففی سنة ۳۲۳ ه أحرق الحنابلة فی الکرخ طرف البزازین، فذهبت فیه أموال کثیرة للتجار، و أطلق لهم الراضی ثلاثة آلاف دینار، و کان العقار لقوم من الهاشمیین، فأعطاهم عشرة آلاف دینار، و احترق ثمانیة و أربعون صنفا من أسواق الکرخ طرح فیه النار قوم من الحنابلة، حیث قبض بدر الخرشی علی رجل من أصحاب البربهاری یعرف بالدلّال، و احترق خلق من الرجال و النساء «۲».

و خلفت الانفعالات و حالات التعصب و الجهل جنودا و أبطالا ماهرین فی الأذی

(۱) انظر الفرق بین الفرق ص ۱۵۱.

(۲) تکملة تاریخ الطبری ص ۹۳.

و شجعانا فی الأضرار. و فی هذا الخضمّ استبیحت الدماء و الأموال ففی سنة ۴۹۵ ه قدم بغداد عیسی بن عبد اللّه الغزنوی، فوعظ الناس- و کان شافعیا أشعریا- فوقعت فتنة بین الأشعریة و الحنابلة «۱» إذ لا یروق لهم أن یکون أشعری أو شافعی بوظیفة الوعظ فی تلک الأیام. فهاجوا لذلک، و وقعت الفتنة، و وقع فیها حریق ببغداد.

و فی سنة ۵۱۳ ه دخل أبو نصر القشیری بغداد، فوعظ بها، فثارت الحنابلة و وقعت فتنة بینهم و بین الشافعیة، و أخرج القشیری من بغداد «۲». و فی خوارزم أحرق الحنابلة جامعا عظیما فی مرو بناه نظام الدین مسعود بن علی المتوفی سنة ۵۹۶، بناه للشافعیة، فحسدتهم الحنابلة و أحرقوا الجامع.

یقول أبو حامد الغزالی المتوفی سنة ۵۰۵ ه: و قد سلمت المدارس لأقوام قل من اللّه خوفهم، و ضعفت فی الدین بصیرتهم، و قویت فی الدنیا رغبتهم، و اشتدّ علی الاستتباع حرصهم، و لم یتمکنوا من الاستتباع و إقامة الجاه إلا بالتعصب، فحبسوا ذلک فی صدورهم، و لم ینبهوهم علی مکاید الشیطان فیه، بل نابوا عن الشیطان فی تنفیذ مکیدته، فاستمرّ الناس علیه، و نسوا أمهات دینهم. فقد هلکوا و أهلکوا، فاللّه تعالی یتوب علینا و علیهم.

و قال ابن کثیر و هو فی واقعه و حقیقته من کبار علماء الحنابلة رغم صبغة الشافعیة بعد ذکره لهذا الحادث فی تاریخه: (و هذا إنما یحمل علیه قلة الدین و العقل).

و الواقع أن قضیة خلق القرآن، هیأت للحنابلة عهدا بعث لهم النشاط فی أعمالهم التی لا تدخل تحت نطاق الدین، و لا تخضع لحکم العقل، لأنهم قاموا بدور الغوغاء من الهمجیة فی کثیر من القضایا، فقد کمّوا أفواه العلماء بغوغائهم من الردّ علیهم. خذ مثلا قضیة الشریف عبد الخالق بن عیسی شیخ الحنابلة عند ما توفی و أراد العوام أن ینبشوا قبر أحمد بن حنبل و یدفنوه معه، و لم یستطع أحد من العلماء أن یردّ علیهم و یمنعهم عن نبش القبر، فقال أبو محمد التمیمی من بین الجماعة: کیف

---

(۱) راجع الطبری ۱۰/ ۲۸۶ و ابن طیفور ۱۸۱ و ۱۸۲.

(۲) راجع ابن کثیر ج ۱۲ ص ۱۶۲.

تدفنونه فی قبر أحمد و ابنة أحمد مدفونة معه؟ فإن جاز دفنه مع الإمام، لا یجوز دفنه مع ابنته. فقال بعض العوام: أسکت فقد زوّجنا بنت أحمد من الشریف، فسکت التمیمی و دفنوه مع أحمد فی قبره «۱».

و نشط العوام فی شذوذهم، فقابلوا حملة الفکر، و علماء الأمة بالعنف، و عاملوهم بالغلظة، و حجبوهم عن الاتصال بالمجتمع.

فهذا محمد بن أحمد المعتزلى الفيلسوف المتكلم، لزم داره مدة من السنين، لم يستطع الخروج لأنهم غضبوا عليه.

و الحافظ أبو نعيم صاحب الحلية المتوفى سنة ۴۳۰ ه تعصّب الحنابلة عليه، فهجره الناس خوفا منهم.

قال محمد بن عبد الجبار: حضرت مجلس أبى بكر بن على المعدّل، و كان بين الأشعرية و الحنابلة تعصّب زائد، فقام إلى ذلک الرجل أصحاب الحديث بسكاكين الأقلام، و كاد أن يقتل «۲».

كما أنهم رجموا أبا الفرج الأسفرايئينى الواعظ فى الأسواق مرات عديدة، و أظهروا لعنه و سبّه لأنه لم يكن منهم. كما تعصبوا على الفقيه جعفر بن محمد الشافعى الموصلى و كان مقدما عند السلطان، فحسدوه، و كتبوا محضرا نسبوه لكل قبيح، فنفى من الموصل سنة ۳۲۳ ه.

و لقى ابن عساكر شيخ الشافعية المتوفى سنة ۶۲۰ ه من الحنابلة أذى كثيرا، تعصبا عليه و تحدّيا لمقامه، و كان يتجنّب المرور بهم خشية إيقاع المكروه به منهم.

و كان ابن قدامة عالم الحنابلة بدمشق يذهب إلى عدم إسلام ابن عساكر، لأنه يقول بالكلام النفسى، فلا يرد السلام عليه «۳».

و كذلک الخطيب البغدادى المتوفى سنة ۴۶۳ ه تحامل عليه الحنابلة و اتهموه بالميل إلى المبتدعة، و يقصدون المبتدعة المتكلمين و الأشاعرة، و قد حملهم التعصب

---

(۱) شذرات الذهب ص ۳۳۷.

(۲) تذكرة الحفاظ ج ۳ ص ۲۷۷.

(۳) طبقات الشافعية ج ۵ ص ۶۹.

فقالوا: إن الكتب التى تنسب إليه ليست له، و إنها للصولى، فسرقها و نسبها لنفسه «۱».

و اتسع نشاطهم فعمّت الفوضى فى البلاد، و ذلک فى عهد الراضى، فأصدر منشورا يردّ عليهم و يعدّد مساوئهم، و يهدّدهم بالعقاب، و النكال. و جاء فى المنشور الذى وجهه إليهم قوله:

و قد تأمل أمير المؤمنين أمر جماعتكم، و كشفت له الخبرة عن مذهب صاحبكم .... «۲» زيّن لحزبه المحظور، و يدلى لهم حبل الغرور، فمن ذلک تشاغلكم بالكلام فى ربّ العزّة تباركت أسماؤه، و فى نبيّه و العرش و الكرسى، و طعنكم على خيار الأمة، و نسبتكم شيعة أهل بيت رسول اللّه إلى الكفر و الضلال، و إرصادهم فى الطرقات و المحال، ثم استدعاؤكم المسلمين

إلى التدين بالبدع الظاهرة و المذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن. إلى آخر ما يتضمنه المنشور من تعداد مساوئ تلك الخصال، و التهديد لهم بالعقوبة و عظيم النكال.

إذن، تمكّن التعصب من نفوس العامة، و اشتدّ أمر الحنابلة، و كان منهجهم يتّسم بالعنف، و التعدى على كل من خالفهم الرأى. و هكذا تلونت الأحداث بتعدد الحكام و تغيّر الأغراض، فإذا ارتأى المأمون أن تكون قضايا الفكر و العمل شعارا لدولته فقد كان ينزع إلى خدمة الحكم و توطيد أركان السلطان، حتى استطاع أن يجعل المتعلقين بالحكم و المستفيدين من الخلافة تبعا له فى رأيه.

و يقتضى البحث أن نشير دون تفصيل إلى أوامره فى هذه المشكلة، و هى إن أدرجت فى عرض للمقارنة نراها تضمّ أفكار المعتزلة، و هذه الأوامر تذكر دوما فى المراجع و الكتب التى تؤرخ لهذه القضية، و تجدها مبسوطة فيها، و نحن نختار ما صدر من المأمون عند ما كان فى الرّقة، و نقتصر منه على الجزء الذى يتناول مسألة خلق القرآن، و كان ذلك سنة ٢١٨ ه- كما ذكرنا- فقد قرر المأمون أن يتولى إلزام الناس بالقول فى خلق القرآن، و اختار أن يبدأ بأنفار عيّن أسماءهم، منهم: محمد بن سعد كاتب الواقدى، و أبو مسلم مستملى يزيد بن هارون، و يحيى بن معين، و زهير بن حرب أبو خيثمة، و إسماعيل بن داود، و إسماعيل بن أبى مسعود،

---

(١) ابن مسكويه، تجارب الأمم ج ١ ص ٣٢٢.

(٢) بياض فى الأصل.

و أحمد بن الدورقى. فأشخصوا إليه، فامتحنهم و سألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق. و تبنّت سلطته فى بغداد أمر إشاعة ذلك عنهم و تقرير قولهم بحضور الفقهاء و رجال أهل الحديث «١».

و اتخذت أفكار المعتزلة و معتقداتهم صفة الأمر السلطانى كما جاءت على لسان المأمون فى أمره إلى إسحاق بن إبراهيم (... و اللّه عز و جل يقول: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا و تأويل ذلك: إنا خلقناه. كما قال جل جلاله: وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها و قال: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً. وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ فسوّى عز و جل بين القرآن و بين هذه الخلائق التى ذكرها فى مشيئة الصنعة، و أخبر أنه جاعله وحده فقال: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، و لا يحاط إلا بمخلوق. و قال لنبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ و قال: ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ و قال: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ و أخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا: ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى فسمى اللّه تعالى القرآن قرآنا و ذكرا و إيمانا و نورا و هدى و مباركا و عربيا و قصصا فقال: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ و قال: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ و قال: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ

سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ و قال: لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ فجعل له أولا و آخرا، و دلّ عليه أنه محدود مخلوق. و قد عظم هؤلاء بقولهم فى القرآن المتكلم فى دينهم و الحرج فى أمانتهم، و سهلوا السبيل لعدو الإسلام، و اعترفوا بالتبديل و الإلحاد على قلوبهم، حتى عرفوا و وصفوا خلق اللّه و فعله بالصفة التى هى للّه وحده، و شبّهوه و الأشباه أولى بخلقه، و ليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فى الدين، و لا نصيبا من الإيمان و اليقين، و لا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى أمانة و لا عدالة و لا شهادة و لا صدق فى قول و لا حكاية، و لا توليه لشىء من أمر الرعية ...)

إلى آخر كتابه.

و مع هذه الحالة الفكرية و الصياغة الدينية، و ما اتصف به حكم المأمون من

---

(١) راجع الطبرى ١٠/ ٢٨۶ و ابن طيفور ١٨١ و ١٨٢.

ظاهر الميل إلى العلويين، فإن أغراض الحكام الشخصية تكاد فى دوافعها تكون واحدة على مرّ الأجيال فى التاريخ الإسلامى، فعندنا أن القالب جديد، غير أن الجوهر واحد، و هو استخدام الدين للمصالح و المنافع، و تأكيد السيطرة و الهيمنة. فها نحن أولاء أمام الحكام و هم يعرّضون الأمة للبلاء مرة أخرى، و يعدّون لأخصامهم النقمة و المحن. و عند ما يبدأ معاوية بإسقاط من يرى فضل على أو يروى حديثه من الديوان، و يأمر بهدم دار من يوالى عليا، حتى كانت النقمة على الزنادقة أهون من أفعال السلطة بمن يودّ أهل البيت. فقد كان رجال أهل البيت و الأئمة منهم قد تعاهدوا أمر أصحابهم بالسياسة الملائمة، أو بالثورة و السيف منذ عهد الإمام الحسن حتى نهاية عهد الإمام الصادق عليه السّلام ثم جاءت الفترة العباسية، فكانت القيادة للإمام موسى بن جعفر بتقواه و زهده، ثم للإمام الرضا بعلمه و حكمته. فلم تحدث النتائج التى سنراها فيما بعد هذه الفترة، و قد استعرضنا فى الأجزاء السابقة من كتابنا آثار مواقف الأئمة و على الأخص موقف الإمام الصادق و كيف اتّجه إلى تربية النفوس و شدّ القلوب بروابط الإيمان و العلم، و كان سلطانه على أتباعه و محبيه سلطان دين و عقيدة، فكانت طرقه فى الدعوة إلى الدين و منهجه فى الأحكام و الفقه منهلا أغنى الأمة، و اغترفت منه فطاحل الرجال.

و فى مشكلة خلق القرآن، اتبع المأمون السياسة ذاتها، لأن الظاهر قد يتغير، أما الجوهر و حقيقة الدوافع فليس لها على صعيد الحكم غير القوة و التعدّى و العنف و إراقة الدماء، فكأننا إذا ما قرأنا أوامر المأمون نقرأ تعليمات الأمويين و أوامرهم، فتراه يتّهم بالكفر من يخالفه، و يأمر بضرب الأعناق. ليتسلّى برؤية الرءوس. و لا نريد أن نذكر أوامره لطولها و تفاصيلها، إنما نذكر شيئا يسيرا (... و من لم يرجع عن شركه ممن سمّيت لأمير المؤمنين فى كتابك و ذكره أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا و لم يقل أن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد و إبراهيم بن المهدى، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين، مع من يقوم بحفظهم و حراستهم فى طريقهم، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، و يسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه، لينصحهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا و يتوبوا حملهم جميعا على السيف).

و لقد فتح المأمون على الأمة بابا من البلاء لم يغلق، فقد بلغت سياسة حدّ الولع بما تواضع عليه الناس و استلموه و توارثوه ناجزا، عملت على تكوين عوامل

ص: ۴۵

السلطة و أصحاب الأغراض المختلفة، فعمد إلى سلطة الحكم لأحداث هزّة فى طريقة بقاء الناس على استسلامهم و استمرارهم على موروثهم، و فكّر فى المجاهرة بأمور ينتهى إليها النظر الجرىء و الحرّ، لكن حركة الرأى و نشاط العقل مهما شهدت من ألوان و ضروب متطورة، لم تشمل المجتمع بأسره، و لم تسع الناس جميعا، و لا بد أن يبرز للموروث موقف، كما أنها ليست هى الدين كله. و قد أساء بذلک.

لقد تهيأت الظروف لأن يبرز أحمد بن حنبل. و كان وراءه شيوخ آخرون دفعوه إلى الثبات بوجه المأمون و عدم الإذعان، كأبى جعفر الأنبارى الذى لحق بابن حنبل لمّا حمل إلى المأمون و قال له: يا هذا، أنت اليوم رأس و الناس يقتدون بک، فو اللّه لأن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبنى بإجابتک خلق من خلق اللّه، و إن أنت لم تجب ليمتنعنّ خلق من الناس كثير، و مع هذا فإن الرجل إن لم يقتلک فأنت تموت، و لا بد من الموت، فاتق اللّه و لا تجبهم إلى شىء. فجعل أحمد يبكى و يقول: ما شاء اللّه، ما شاء اللّه. ثم قال أحمد: يا أبا جعفر، أعد علىّ ما قلت. فأعاد عليه، فجعل يقول: ما شاء اللّه، ما شاء اللّه «۱».

و قد انتهى الأمر إلى أن يبقى أحمد بن حنبل وحده فى امتحان السلطة له، حيث تخلّى كل نفر عن الثبات، و لم يبق معه إلا محمد بن نوح الذى كان معه فى الاقتياد إلى المأمون، و قام محمد بن نوح بما يقوم به الآخرون و هم خارج الاعتقال، و الذين أخذوا يرون فى أحمد رمزا لبقاء مناهجهم و طرقهم فى القول و الحكم. و قد كان محمد بن نوح حدثا و هو يمثل حالة أو مرحلة عمرية تشد إليها من كانوا فى عمره، فكيف إذا كانت نهايته الموت و هو فى ظل الاعتقال و التعذيب، فقد مات و هما فى الطريق إلى المأمون. و لكن محمد بن نوح كان يقول لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد اللّه اللّه اللّه، إنک لست مثلى، أنت رجل يقتدى بک، و قد مدّ الخلق أعناقهم إليک بما يكون منک. فاتق اللّه و اثبت لأمر اللّه «۲».

و توفى المأمون فى السنة نفسها، و خلفه المعتصم، و كان المأمون قد وضع لأخيه السياسة التى يلتزمها، و قد كان استمراره على القول بخلق القرآن لا عن وعى

---

(۱) ابن الجوزى، مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ۳۱۴.

(۲) أيضا ص ۳۱۵.

ص: ۴۶

و إلمام، و إنما سياسة و تقليدا، فهو لا يرقى إلى درجة أخيه فى الاطلاع، فقد عرف عنه قلة علمه، و يروى أن أباه كان عنى بتأديبه فى أول أمره، فمرّت به جنازة لبعض الخدم فقال: ليتنى كنت هذه الجنازة، لأتخلص من همّ المكتب. فأخبر الرشيد

بذلک، فقال: و اللّه لأعذّبنه بشیء یختار الموت من أجله. و أقسم ألا یقرأ طول حیاته، و یبدو أنه کان قریبا من الأمیة کما وصف نفسه فی بعض الروایات، و لهذا فإن بقاء القول بخلق القرآن یفقد فی عهده الجوانب الفکریة، و یبقی الدافع السیاسی الذی شمل المتنفذین من المعتزلة أیضا ممن أغرتهم السلطة کأحمد بن أبی دؤاد الذی کان یمثل عامل بقاء سیاسة المأمون، و فی الوقت الذی نجد فیه إشارات إلی خروج المعتصم عن نهج العنف، نجد ابن أبی دؤاد یذکّر المعتصم أنه لو سلّم و لان، فسیقال حتما عن المعتصم أنه ناهض مذهب المأمون، و أن الناس سیرون أن أحمد قد أحرز نصرا علی خلیفتین، و هی نتیجة قد تحفّز أحمد بن حنبل علی أن یعدّ نفسه زعیما، مما یفضی بدولة الخلفاء إلی أوخم العواقب، و هو ما نص علیه المقریزی فی المقفی الذی نقل عنه المستشرق الأمریکی ولتر ملفیل و الذی نحن فی سیاق قوله الآن «۱» ذکر المقریزی: قال أبو عبد اللّه و جعلت بین العقابین. فقلت: یا أمیر المؤمنین إن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «لا یحل دم امرئ مسلم یشهد أن لا إله إلا اللّه و إنی رسول اللّه إلا بإحدی ثلاث ...» الحدیث «۲» و قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «أمرت بأن أقاتل الناس ..»

الحدیث «۳» فبم تستحل دمی، و لم آت شیئا من هذا؟ یا أمیر المؤمنین أذکر وقوفک بین یدی اللّه عز و جل کوقوفی بین یدیک، یا أمیر المؤمنین راقب اللّه. فلما رأی المعتصم ثبوت أبی عبد اللّه و تصمیمه، لان لأبی عبد اللّه، فخشی ابن أبی دؤاد من رأفته علیه فقال: یا أمیر المؤمنین، إن ترکته، قیل أنک ترکت مذهب المأمون و سخطت قوله، و أنه غلب خلیفتین. فهاجه ذلک و طلب کرسیا، جلس علیه و قام ابن أبی دؤاد و أصحابه علی رأسه. انتهی.

و من الصورة التی نطلع علیها، و فی وسطها أحمد بن حنبل، نری أن ابن حنبل

---

(۱) ولتر ملفیل پاتون، أحمد بن حنبل و المحنة، ترجمة عبد العزیز عبد الحق ص ۱۵۰.

(۲) تکملة الحدیث: «کفر بعد إیمان، و زنا بعد إحصان، و قتل النفس بدون نفس» و فی بعضها غیره.

(۳) تکملة الحدیث: «حتی یقولوا لا إله إلا اللّه، فإن قالوها عصموا منی دماءهم و أموالهم» و فی بعضها غیر هذا النص.

فی السلوک و التصرّف یلتزم بتعالیم السنة، و یحتج بأحادیث النبی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یحاول بهما أن یحمی نفسه و یصون کرامته، و یلوذ بالعلم، و یتوسّل بالفقه لیردّ عنه کید السلطة، حتی لتطالعنا من بین ملامح تلک الصورة أن أحمد بن حنبل ساير قوة السلطان، و أظهر ما یرید الحکام تحت وقع السیاط، لیکفّ الأذی و یدفع العذاب، فهذا مؤرخنا الیعقوبی یقول: و امتحن المعتصم أحمد بن حنبل فی خلق القرآن، فقال: أنا رجل علمت علما، و لم أعلم فیه بهذا. فأحضر له الفقهاء، و ناظر عبد الرحمن بن إسحاق و غیره، فامتنع أن یقول أن القرآن مخلوق، فضرب عدة سیاط.

فقال إسحاق بن إبراهيم: ولّنى يا أمير المؤمنين مناظرته. فقال: شأنک به. فقال إسحاق: هذا العلم الذى علّمته نزل به ملک، أو علمته من الرجال؟ فقال: بل علّمته من الرجال. فقال: شيئا بعد شيء أو جملة؟ فقال: علمته شيئا بعد شيء. قال: فبقى عليک شيء لم تعلمه؟ قال: بقى علىّ. قال: فهذا مما لم تعلمه، و قد علمک أمير المؤمنين. قال: فإنى أقول بقول أمير المؤمنين. قال: فى خلق القرآن؟ قال: فى خلق القرآن. قال: فأشهد عليه، فخلع عليه و أطلقه. انتهى. و هنا نلاحظ أن أحمد بن حنبل بعد خروجه من السجن و امتحان القوة له، قد وجد العامة التى تضرّرت بمواقف و سياسة المأمون و خلفه تنتظر خروجه و تتشوق للقياه، فيبالغ فى الرد، و يسمح لنفسه بالحكم على مخالفيه بما لم يرد به نص، و بما يخالف ما احتج به أمام قوة السلطان و هو يمتحن أمام خلفاء بنى العباس و يتقى اعتداءهم. كما نلاحظ فى عموم سيرته غموضا، و أحيانا خفاء فى رأيه فى الإمام على عليه السّلام أو يزيد بن معاوية، إذ تضطرب كما فى الروايات، و مهما يكن من أمر، فإن العامة قد وجدت نفسها مستهدفة من قبل سياسة بنى العباس فى عهد المأمون و خلفيه حيث ظهرت السلطة بمظهر العلم و صفة المتكلّمين. و قد كان المأمون شديدا عليهم و هو يستعير منطق المعتزلة و أفكارهم، و يصدر أوامره السلطانية من مرو ليلبس حكمه لبوس المرحلة، فيقول فى أول كتاب له: و قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم و السواد الأكبر من حشو الرعية و سفلة العامة فمن لا نظر له، و لا رؤية و لا استدلال له بدلالة اللّه و هدايته، و لا استضاء بنور العلم و برهانه فى جميع الأقطار و الآفاق، أهل جهالة باللّه و عمى عنه، و ضلالة عن حقيقة دينه و توحيده و الإيمان به، و نكوب عن واضحات إعلامه و واجب سبيله، و قصور عن أن يقدروا اللّه حق قدره، و يعرفوه كنه معرفته، و يفرقوا بينه و بين

خلقه بضعف آرائهم و نقص عقولهم، و خفائهم عن التفكير و التذكر «۱». هذا و السلطة تتحول إلى الخضرة و تغيّر شعارها الأسود تقربا إلى الشيعة، و قضية إسناد ولاية العهد إلى الإمام الرضا ما زالت فى الأذهان، و لا بد أن قضية سمّه و قتله لا تهمّ الآخرين أكثر مما تهمّهم المظاهر، و بين فترة و أخرى يهمّ المأمون فى القول بمسألة على رأى الشيعة، بينما قضية امتحان السلطة للعلماء لها طابع معتزلى، و العامة أخذت تنظر إلى أهل الرأى و الفكر نظرة واحدة، لأن الفترة حديثة عهد، و الحركة ما زالت فى بواكيرها، و مناهج الكلام و أساليب القول قامت كالموجة التى تهدد ركود الغدران بالتحول أو الفناء.

لقد أعلنت السلطة طابعها أو انحيازها إلى أهل الفكر و تيارات الكلام، و جاء بيانها شديدا استفزّ العامة الذين كانوا قاعدة الحكام منذ عهد معاوية، و تهيأ على مر المراحل ممن لبس لبوس الدين، و تجلبب بجلباب العلم، أن يبذل أقصى ما يستطيع ليرضى السلطان، و يجعل الجمهور ينظر إلى حال الحاكم من خلال ما يصوّرونه لهم، فاحتل الحكام فى أنظارهم موقع القداسة، و أحنوا الرءوس برغم ما يسفک من دماء، و تنتهک من حرمات، و يستباح من أعراض، فألفوا أمورا فى كل شأن من شئون الاعتقاد و الحياة، و ورثوها على نمط الحكام و صياغة المنتفعين.

و للأسف، فإن تحوّل السياسة و انعطاف المأمون إلى أوجه جديدة فكرية متكلّفة، و ما أحدث ذلک من هزّة عنيفة، لم تعالج بما يساعد على كبح جماع الانفعالات و لجم الجهل، فإضافة إلى توافر أسباب الهياج و شيوع مضمون سياسة السلطة، و ما يوفره ذلک من مادة غنية لشدّ الجمهور و التلاعب بعواطفه، و دفع مشاعره إلى أشد حالات النقمة، أصبحت كلمة الجهل أو الأوصاف التى يطلقها رجال المناظرات و أساتيذ الكلام على خصومهم الذين يسترون جهلهم بالعناد و التعصب، أدلة أخرى ألّبت الناس

على أهل الفكر قبل أن تألبهم على العباسيين و أغراضهم السياسية، فضاعت فى وسط ذلک الأسباب الحقيقية لقيام مثل هذه المرحلة، و كان تقصير الجهات فيها متماثلا، إذ لم يبذل المعتزلة ما يكفى من جهد بعيدا عن السلطة، بل انتقلت حصيلة اعتقاداتهم إلى الحكام و ألحقتهم السلطة بها.

---

(١) ابن طيفور، ص ١٨١.

كما كان الطرف الآخر يعتمد على الاستشارة و الاستفزاز، ليستفيد من نتائجهما فى الإبقاء على ممسک الجمهور و محافظتهم على الأوضاع التى ألفوها و عاشوها، و لمّا اجتاز أحمد بن حنبل الأزمة صبّ جام غضبه على أصل القضية، فأباح لنفسه الفتوى و القول بكفر من يقول بخلق القرآن. و قد مرّ بنا ذلک و أشرنا إلى ما جاء عنه فى كفر من يقول بخلق القرآن، إذ سئل عن رجل وجب عليه تحرير رقبة مؤمنة و كان عنده مملوک يقول بخلق القرآن؟ فقال: لا يجزى، لأن اللّه تبارک و تعالى أمر بتحرير رقبة مؤمنة.

و لم يكن أحمد بن حنبل أو الجمهور فى حال يجاهرون بها بالخروج على رأى الحاكم أيام المعتصم، إذ يروى أن أحمد أمسک فى عهد المعتصم حتى عن رواية الحديث الذى هو عماد مكانته و مقوم شخصيته، فهو الحافظ الذى ينبسط فى الرواية و يتقيد بها حتى قيل: إنه أقرب إلى الحديث منه إلى الفقه. و لا ننسى أن هذه الفترة شهدت غياب الإمام الرضا، و كون ابنه الإمام محمد الجواد ما زال فى مقتبل العمر، و تتضافر الروايات على ما بلغه فى العلم و الحكمة و الأدب و كمال العقل، حتى أن المأمون أراد أن يوجد للصبغة التى أرادها لحكمه دلالة جديدة، فزوّجه ابنته أم الفضل، و اتجه إلى المدينة، و ابتعاده عن العراق أمر له مغزى كبير، اختيارا منه و عملا بنهج أبيه، و كيف حمل ولاية العهد اسما، و لم تنجح وسائل المأمون مع الإمام الرضا فى زجّه فى شئون السلطان، و إذا كان أهل البيت قد عملوا على تهذيب النفوس بتعاليم الإسلام و ترسيخ الأحكام فى المجتمع بتربية النشأ و إرشاد الناس، فقد كان الرضا عليه السّلام يقول: «إنما يؤمر بالمعروف و ينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ، فأما صاحب سيف و سوط فلا». و كان قوله المشهور للمأمون: «ما التقت فئتان قط إلا نضر اللّه أعظمهما عفوا». فعاد الإمام الجواد إلى مهبط الوحى و مهد النبوة، و سعى عليه السّلام إلى توجيه الناس و بث العلم و نشر الأحكام، و كانت الوفود تأتيه من الأقطار النائية لأنه وارث علم أهل البيت عن أبيه الرضا عليه السّلام غير أن المعتصم أعاده إلى بغداد و انتهى شهيدا مسموما على يد بنى العباس.

فكأن الناظر إلى أعمال بنى العباس فى هذه الفترة يجد تقربا و رعاية إلى آل على، فى حين أن حقيقة ما يعيشونه مكابدة رهيبة تنتهى بهم إلى الموت. كما أن العلويين استمروا فى مناهضتهم للسلطة، و لم تنطل عليهم خدع الحكام و تكريم

المأمون للطالبيين أو العلويين، و عدم منعهم من الدخول عليه؛ حتى ثار عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ببلاد اليمن و دعا إلى الرضا من آل محمد. فأرسل إليه المأمون جيشا كثيفا تحت قيادة دينار بن عبد اللّه، و كتب معه أمانا لعبد الرحمن، فقبله و سار إلى المأمون، فمنع المأمون عند ذلک الطالبيين من الدخول عليه، و أمرهم بلبس السواد «١» و امتنع أكثرهم عن لبس السواد، فكان عقابهم السجن. فهذا عبد اللّه بن الحسين بن عبد اللّه بن إسماعيل بن عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب امتنع عن لبس السواد و حرّمه لما طولب به، فحبس بسر من رأى فى أيام المعتصم حتى مات فى الحبس «٢» كما استمر على رفض سلطة العباسيين جماعة من العلويين و لجئوا إلى الثورة. و يمكننا القول أن محاولات بنى العباس بلونها هذا قد استطاعت أن تجعل الرقابة و القيود التى اعتاد عليها أئمة أهل البيت و المفروضة عليهم من قبل الحكام مناسبة لأصول اتجاهات الرأى و مدارس الكلام، لكنها فى حقيقتها واحدة. فعلم أهل البيت و تعليمات الأئمة كانت منهلا و ينبوعا لهذه الاتجاهات، و كان المعتزلة على الأخص من أقرب الناس رأيا إلى فقه أهل البيت، و إن ضمّت صفوفهم رجالا أبعد ما يكونون عن الولاء، حيث تأثر معتزلة البصرة بما يحيط بهم، و تأثر معتزلة بغداد بغير ذلک، و بناء عليه فكيف يدّعى المأمون العلم و الانتصار للفكر، و يتبع سياسة السجن و اعتقال رجال أهل البيت الذين لا ينكر المعتزلة تأثرهم و اقتدائهم بهم؟ فأخذ بالتظاهر الذى يصعب معه الاطمئنان إلى زوال نوازع الكره و العداء لأهل البيت.

و كان المعتصم مقلدا و منفذا لسياسة المأمون بجوانبها المختلفة فى الموقف من رجال الفكر و معاملة أهل البيت، ثم جاءت مرحلة الواثق التى تمثل المرحلة الوسطى التى تسبق عودة السياسة العباسية إلى عهدها على يد المتوكل. و مع أن رجل المعتزلة السلطانى أحمد بن أبى دؤاد قد تمكّن من إبقاء قضية خلق القرآن على واجهة الحكم، إلا أن الواثق لم يتعرّض إلى أحمد بسوء، و أرسل إليه و قال له: لا تساكنّى بأرض، فاختفى أحمد بقية حياة الواثق.

---

(١) ابن الأثير ۴/ ١۵۶.

(٢) المقاتل ٣٨۵.

و نحن نجد فى أحداث هذه المشكلة من مظاهر الظلم و العنف ما تأباه النفوس، لكنها تصبح غير ملفتة إذا ما قورنت بأهوال السجون و مصائب التعذيب التى يلقاها آخرون، فدع عنک كيف استشهد الإمامان الرضا و الجواد على يد حكام يتظاهرون بالودّ، و خذ مثلا من عرف من العباسيين بعدائه لأهل البيت. و مع ذلک فلا يقرّ ما يجرى فى ظل الحكام من اعتداء على حرمة الرأى أو العلماء، بل نذكره للإدانة و نسطّره لتعرف الأجيال ما ارتكب الحكام. و من أحداث هذه الفترة التى تتصل بالقول بخلق القرآن أن شيخا من الشام جيء به إلى الواثق، فلما دار النقاش اتفق الواثق مع رأى الشيخ فى جواز الإمساک عن هذه المقالة ما اتسع لهم كما اتسع لرسول اللّه و أبى بكر و عمر و عثمان و على، و أمر الواثق بقطع قيد الشيخ، فلما قطعوا القيد ضرب الشيخ بيده إلى القيد حتى يأخذه، فجاز به الحداد، و أخذه من الحداد قائلا: لأنى نويت أن أتقدم إلى من أوصى إليه أن يجعله بينى و

بين كفنى حتى أخاصم به هذا الظالم عند اللّه يوم القيامة و أقول: يا ربّ، سل عبدک هذا لم قيدنى و روّع أهلى و ولدى و إخوانى بلا حق أوجب ذلک علىّ؟

ثم جاءت فترة عهد المتوكل الذى استلم الحكم فى سنة ٢٣٢ ه فعاد النصب بأوضح صوره «١» و تجدّد العداء لآل البيت بأقبح أشكاله، و ليس ذلک بردّ فعل لما سبق، و إنما ردود الفعل تمثلت فى موقعه فى مسلسل الحكام من بنى العباس. يقول ابن كثير: و كان المتوكل محببا إلى رعيته؟ قائما فى نصرة أهل السنة، و قد شبهه بعضهم بالصدّيق فى قتله أهل الردّة لأنه نصر الحق و ردّه عليهم حتى رجعوا إلى الدين، و بعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بنى أمية، و قد أظهر السنّة بعد البدعة، و أخمد أهل البدع و بدعتهم بعد انتشارها و اشتهارها.

و أكرم المتوكل أحمد بن حنبل، و كتب إلى نائبه ببغداد أن يبعثه إليه، و كان حتى وفاة أحمد يتفقده و يوفد إليه فى أمور يشاوره فيها و يستشيره فى أشياء تقع له «٢».

و بدأ الحنابلة مع السلطة منذ هذا التاريخ يسهمون فى تعميق روح الخلاف، و نحن- و إن قلنا برد الفعل- إلا أن الأمر تجاوز ذلک لاستسهال أمر الاتهام بالكفر و الخروج

---

(١) انظر الجزء الأول من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

(٢) ابن كثير ١٠/ ٣٤٠.

على الدين. فاهتزّ كيان الأمة، و اختلّ بناء المجتمع، و قد أطلعنا فيما مضى على جانب من الأحداث التى تقوم بتأثير العصبية و الجهل. و استمر الحنابلة يعنون بالهيمنة على الحكم، حتى أن المطيع باللّه كان يتقرّب إليهم بالتظاهر بسماعه و ترديده أقوالا لأحمد بن حنبل، و قد كان يحدّق به خلق كثير من الحنابلة قدروا بثلاثين ألفا، فأراد أن يتقرب إليهم، فى حين كان الناس يأكلون الأطفال و الجيف لشدة الجوع، و إذا رأثت الدواب اجتمع جماعة من الضعفاء على الروث، فالتقطوا ما فيه من حبّ الشعير فأكلوه، و كانت الموتى مطرحين فربما أكلت الكلاب لحومهم «١».

و امتدت مشكلة خلق القرآن لعهود طويلة، و بتأثير الحنابلة شملت الاتهامات أغلب الطوائف، ففى سنة ٤٠٨ ه استتاب القادر باللّه فقهاء المعتزلة الحنفية، فأظهروا الرجوع و تبرّءوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام و التدريس و المناظرة فى الاعتزال و الرفض و المقالات المخالفة للإسلام، و أخذ خطوطهم بذلک، و إنهم متى خالفوه حلّ بهم من النكال و العقوبة ما يتّعظ به أمثالهم، و امتثل يمين الدولة و أمين الملة أبو القاسم محمود أمر أمير المؤمنين و استنّ بسنّته فى أعماله التى استخلفه عليها من خراسان و غيرها فى قتل المعتزلة و الرافضة و الإسماعيلية و القرامطة و الجهمية و المشبّهة، و صلبهم و حبسهم و نفاهم، و أمر بلعنهم على منابر المسلمين، و إبعاد كل طائفة من أهل البدع، و طردهم من ديارهم، و صار ذلک سنّة فى الإسلام «٢».

ثم تبادل الناس فيما بينهم الاتهامات، و غدت سنّة الحكام شاملة، و شاع التعصب مع سعى حثيث إلى إدخال الحكام فى صميم الأمر، و الاستعانة بقوة السلطان، و نحن سنعرض إلى جوانب من ذلک بحسب مواقعها من الكتاب.

---

(١) المنتظم ۶/ ۳۴۴.

(٢) المنتظم ٧/ ٢٨٧.

ص: ۵۳

٣- البدع و الضلالات

و هكذا أدّت تدخلات الحكام إلى نتائج أساءت كثيرا إلى حركة الفكر و الكلام، و شجعت قيام ظروف ملائمة للاتهامات و العداء. و إذا نظرنا إلى تاريخ الحكام فى الإسلام و موقفهم من أعدائهم، رأينا أن سلاح التكفير و الخروج عن الدين كان من أهم ما يشهره الحكام لاجتناب العامة و استغلال مشاعرهم المختلفة، و البروز بمظهر دينى غير حقيقى، و لما حدثت هذه الأحداث و تحكّمت النزعات و هيمن التعصب على النفوس، تبادلت الطوائف الاتهامات، و أصبح الاتهام بالبدعة و الضلالة أمرا مألوفا، كما أصبح استحلال الدم و ما يتبع ذلک من فظائع الأمور التى تشلّ حركة الفكر و تمزّق المجتمع شرّ ممزّق، إذ لم يكن استخدام لفظى البدعة و الضلالة قائما على أساس صحيح مجرد من العواطف و النزعات الخاصة. فقد تدخلت الأغراض المختلفة: أغراض الملوک، و أغراض المتنفذين و المتزعمين فى شتى الميادين. و قوبل استسهال الحكم بالكفر أو الضلال بأعمال و فتاوى مقابلة، و مرّت الأعوام و لفظ الضلالة و البدعة يستخدمان وفق الأغراض، و كل جهة يصدر منها الاتهام يصدر من أختها فى الدين ما يقابل ذلک.

و أصبحت حركة المذاهب تتبادلها بسهولة، و هى فى كل الأحوال تحدث فى حالة تتغلب فيها العواطف على حكم الدين، فعقيدة الإسلام واضحة جلية و إن استجد ما يخرج على القواعد و الأصول و روح الإيمان، فالتصدى لهذا الخروج و إطفاء باطله واجب على كل مسلم، فإذا كانت مبادئ الإسلام واضحة و عقائده جلية، فما لا يجرى على منواله و يقتدى بروح القرآن بيّن معروف يكون من السهولة الإجماع عليه، أما إذا كان تحكما و خضوعا للأهواء فهو المصيبة التى نحن بصدد بيان بعض أجزائها و جوانبها.

ص: ۵۴

فالمذاهب أصبحت تدّعى أن كلّا منها على حق، و غيرها على الضلالة.

و البدعة لغويا كل شىء أحدث على غير مثال سابق، سواء كان محمودا أو مذموما. و البديع: محدث عجيب غير معروف، و هى تفيد معنى الأحداث و الاختراع. أما البدعة اصطلاحا فهى مدار اختلاف الفقهاء شرعا، و يميل أغلب العلماء إلى أنها إحداث فى الشرع، و عند بعضهم قد يكون مذموما أو محمودا. و لكن روح العداء أخضعت اللفظين لأغراضها، فاتهمت كل طائفة الأخرى

بالبدعة و الضلالة دون تمييز و هو انحراف عن واقع الحال، و بعد عن الحقيقة، و من هذا ما ذهب إليه ابن المقرى الشافعى فى تمثيله للمبتدع بالحنفى، و صاحب البزازية الحنفى يمثل المبتدع بالشافعى، و أمثال هؤلاء كثيرون بين المذاهب الأربعة «١».

كما و قد وضعت كتب تتضمن بيان الفرق الإسلامية و شرح عقائدها و تصف الكثير منها بالبدعة أو الضلالة أو الكفر أخيرا.

و تمرّ السنون، و تكثر الكتب من دون جدوى فى تحديد هذين الاصطلاحين لنعرف ما هى البدعة التى يستوجب صاحبها النار، بسبب الضلال عن الهدى؟ كما ورد فى الحديث: «كل بدعة ضلالة، و كل ضلالة فى النار». فكيف نتعرف على البدعة و نجتنبها؟ و ما هى الضلالة التى توجب دخول النار؟ هل لها حدّ شرعى أو تعريف لغوى؟ و قد اختلفت المصاديق و تعدّدت الأقوال. و حديث الفرق أن النبى قال: «ستفترق أمتى على ثلاث و سبعين فرقة، اثنتان و سبعون فى النار، و واحدة فى الجنة» و بلفظ آخر «كل على الضلالة إلا السواد الأعظم» فلهذا الحديث شأن و قد تعرّضنا له سابقا و شكّككنا فى صحة نسبته إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على إجماله بدون بيان، و هذا ما يوجب إغراء الأمة بعضها ببعض، و تحامل الناس بعضهم على بعض، و سنعود للحديث عنه إن شاء اللّه.

و بقى تعريف البدعة هو ما اخترع على غير مثال سابق، فهى لغويا كما فى لسان العرب: بدعه أنشأه كابتدعه. و بدع اللّه الخلق أحدثهم لا على مثال سابق. و بدع سمن، و بدع بداعة و بدوعا صار بديعا، و أبدع أبدا و الشاعر أتى بالبديع فهو مبدع، و منه البديع الخالق المخترع، و فى المذهب أنها إيراد أقوال لم يستند فاعلها أو قائلها

---

(١) سر انحلال الأمة ص ١٨٩.

فيها لصاحب الشريعة لأن أصل مادة بدع الاختراع على غير مثال سابق، كقوله تعالى:

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ و لكن مجريات الأحداث و تطورات الأمور جعلت التعريف فى اختلاف و مذاهب، فمنهم من جعلها فى العبادات خاصة، و منهم من جعلها فى العبادات و العادات.

فتعدّدت وجهات النظر فى إطلاق البدعة أو الضلالة، و استهل الناس قذف الآخرين بها مما عمّق الخلاف بين المذاهب أو الطوائف، فطائفة تتهم الأخرى بالبدعة و الضلالة و تتوهم أنها تحتكر، الهدى و تسيطر على الحق دون غيرها، و هذا يحدث ردّ فعل عند الطائفة الأخرى، فيردّ الاتهام على الطائفة بنفس الأسلوب، و بأنها مبتدعة خارجة عن الدين، و هى على الهدى. و بهذا فقد اشتدّ الهياج، و كثرت الفتن، و انتشرت الفوضى، و هنا نرى لزوم الحديث عن الفوارق التى حلت بين المسلمين، و كيف أصبحت كلمة بدعة أو مبتدعة سلاحا يوجه للناس و هم فى حالات أقرب بها إلى اللّه و مبادئ الإسلام من أولئك الذين يستخدمونها لتغطية ضعفهم و انهزامهم.

و كيف وجّهت إلى الجماعات التى تهدّد مناهج الجمود و الانغلاق ظلما، كما وجّهت توجيها سليما إلى الجماعات التى لا غبار على بعدها عن السنة و خروجها على ما جاء به صاحب الشريعة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

من هو المبتدع

؟ لقد حدثت أمور بسبب الاختلاف فى تمييز البدعة و من هو المبتدع فخلطوا بين السقيم و الصحيح و سارت الأمور على غير المنهج العلمى، فكانت هناك أشياء هى مدعاة للأسف لأنها تعكس سلوك رجال لم يسلكوا مع خصومهم الطريق التجرّدى المعقول، بل التجئوا إلى استخدام القوة و كل ما يتعارض مع حرية الفكر التى ضمنها الإسلام، و جعلها إحدى مقومات المجتمع الإسلامى، و لنقف على بعض الأقوال فى لزوم تجنب صاحب البدعة، و لنأخذ صورة عن تلك العصور المظلمة، و الوقوف على تلك المفارقات التى حدثت بالمجتمع.

يقول بعضهم: من جالس صاحب بدعة، نزعت منه العصمة و وكل إلى نفسه.

و عن يحيى بن كثير أنه قال: إذا لقيت صاحب بدعة فى طريق، فخذ طريقا آخر.

و عن الفضيل أنه قال: من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة، و الماشى إليه معين على هدم الإسلام.

ص: ۵۶

و قال هشام بن حسان: لا يقبل اللّه من صاحب بدعة صلاة و لا صياما، و لا زكاة و لا حجا، و لا جهادا، و لا عمرة، و لا صرفا، و لا عدلا «۱».

و قد أوردوا عن صاحب الرسالة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أحاديث تدعم هذه الآراء، فعن هشام بن عرفة مرفوعا «من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».

و عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من أتى صاحب بدعة ليوقّره فقد أعان على هدم الإسلام، و من أعرض عن صاحب بدعة بغضا له فى اللّه ملأ اللّه قلبه أمنا و إيمانا، و من انتهر صاحب بدعة آمنه اللّه يوم الفزع الأكبر، و من أهان صاحب بدعة رفعه اللّه مائة درجة، و من سلّم على صاحب بدعة أو استقبله بالبشر، أو استقبله بما يسرّه، فقد استخفّ بما نزل على محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم».

و جاء عن عائشة، أنها سألت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «هم أصحاب الأهواء و أصحاب البدع و أصحاب الضلالة من هذه الأمة، يا عائشة: إن لكل ذنب توبة، ما خلا أصحاب الأهواء و البدع ليس لهم توبة، و أنا برىء منهم، و هم براء منى».

و غير ذلک من الآثار التی أسندت إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. و لسنا فی معرض نقدها من حیث الصحة أو الدلالة، و بیان علتها، و لکن الأمر المهم أن ننظر إلی الواقع العملی و کیف استعملت کلمة البدعة فی معان مختلفة، و اتّهم بها رجال هم مثال التمسک بالسنّة. و نود هنا استکشاف الواقع حول انطباق هذه التسمیة لنخرج بنتیجة و هی: من هو الذی تنطبق علیه هذه السمة فی الإسلام؟ و من هو صاحب السنّة المتمسک بها؟

۱- فهذا أحمد بن حنبل فی معرض کلامه عن الفرق المبتدعة یقول: ذکر محاسن أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کلهم أجمعین، و الکف عن مساوئهم، و الخلاف الذی یشجر بینهم، فمن سبّ أصحاب رسول اللّه، أو واحدا منهم، أو تنقّصهم أو طعن علیهم أو عرض بعیبهم، أو عاب أحدا منهم فهو مبتدع رافضی خبیث مخالف، لا یقبل اللّه منه صرفا و لا عدلا، بل حبهم سنّة، و الدعاء لهم قربة، و الاقتداء بهم وسیلة، و الأخذ بآثارهم فضیلة.

---

(۱) الشاطبی ج ۱ ص ۶۰ و ۱۰۷.

۲- و قال: من زعم أنه لا یری التقلید، و لا یقلد دینه أحدا فهو قول فاسق عند اللّه و رسوله، إنما یرید بذلک إبطال الأثر، و التفرّد بالرأی و الکلام و البدعة.

۳- و أصحاب الرأی و هم مبتدعة ضلال، أعداء للسنة و الأثر، و یبطلون الحدیث، و یردّون علی الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یتّخذون أبا حنفیة و من قال بقوله إماما و یدینون بدینه، و أی ضلالة أبین ممن قال بهذا و ترک قول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه.

۴- و الولایة بدعة، و البراءة بدعة، و هم الذین یقولون: نتولی فلانا و نتبرأ من فلان، و هذا القول بدعة فاجتنبوه.

فمن قال بشیء من هذه الأقاویل أو رآها، أو صوّبها، أو رضیها، أو أحبها فقد خالف، و خرج من الجماعة و ترک الأثر، و قال بالخلاف، و دخل فی البدعة و زلّ عن الطریق، و ما توفیقی إلا باللّه.

و بهذا ختم الإمام أحمد هذا الفصل من رسالته أو اعتقاده الذی رواه عنه أحمد بن جعفر الأصطخری و التی یقول فی أولها: هذه مذاهب أهل العلم و أصحاب الأثر. (إلی أن یقول) فمن خالف شیئا من هذه المذاهب أو طعن فیها، أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة. ثم یعدّد العقائد أولا مما ینطبق علی ما تذهب إلیه الحنابلة فقط. و یذکر الأقوال ثم یعدد الفرق المبتدعة و منهم المرجئة و الخوارج و المعتزلة إلی آخر ما ورد فی الرسالة من أمور هامة.

و إذا وقفنا وقفة المتأمل فی عبارات هذه الرسالة، أو المرسوم الذی اتخذه الحنابلة منهجا و دستورا یسیرون علیه فی معاملة المسلمین و بیان منزلتهم الدینیة، یبدو لنا جلیا أنه لم یسلم أحد من جمیع الأمة الإسلامیة من الضلالة، و ارتکاب البدعة. أو بعبارة أوضح، لم تسلم فرقة من فرق المسلمین من ذلک، إلا الحنابلة أنفسهم فهم المسلمون، و لهم الإسلام وحدهم دون سواهم

كما يدّعون و يصرّحون بذلک. فهذا الشيخ عبد الغنى المقدسى من أشهر علماء الحنابلة، ذكر شيئا من العقائد أنكرها عليه بقية المذاهب، فعقدوا له مجلسا، و أصرّ على رأيه، فقال له الأمير برغش: كل هؤلاء ضلّال و أنت وحدک على الحق؟ قال: نعم. فغضب الأمير، و أمر بنفيه من البلد، و كسر منبر الحنابلة.

ص: ۵۸

قال ابن كثير: و جرت خبطة شديدة نعوذ باللّه من الفتن ما ظهر منها و ما بطن «۱» و يؤيد ذلک تصريح شيوخهم بأن غير الحنابلة مبتدعة. يقول قتيبة بن سعيد: أحمد بن حنبل إمام، و من لا يرضى بإمامته فهو مبتدع. و ادعوا على الشافعى أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له: تطلق اسم الكفر عليه؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل عائد السنة، و من عائد السنّة قصد الصحابة، و من قصد الصحابة أبغض النبى، و من أبغض النبى كفر باللّه العظيم «۲».

و قال أحمد الدورقى: من سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء، فاتهموه على الإسلام.

و قال بعض الحنابلة: إذا رأيت البغدادى يحبّ أبا الحسن بن بشار، و أبا محمد البربهارى- و هما من شيوخ الحنابلة- فاعلم أنه صاحب سنّة.

و من الصعب الإحاطة بما خلّفته تلک الظروف من ادعاءات و تقوّلات، و قد أعرضنا عن كثير مما وصلنا من ادعاءات الحنابلة فى علمائهم عامة و ابن حنبل خاصة، و سواء صحّت تلک الأقوال أم لم تصح، فالعامة يأخذون بها و يجعلونها شعارا فى مسيرتهم نحو أهدافهم، و قد أوردوا عن أحمد بن حنبل و غيره أمورا لا يمكننا أن نصدّقها، فهى بعيدة كل البعد عمّا اتصف به أحمد من العلم، و الاتزان. و لكن الحنابلة جعلوا ذلک دستور حياتهم، بدون تثبّت، و قد دعمت تلک الأقوال حركاتهم فى مقابلاتهم لجميع الفرق، و اشتدوا بصورة خاصة على الشيعة.

أما المعتزلة- و هم خصوم الحنابلة السياسيين- فقد نالوا من الأذى ما لا يوصف، و كذلک الأشعرية الذين اختلفوا معهم فى العقائد، و قد صرّحوا بالطعن على الأشعرى و نسبوا له أقوالا مخالفة لروح الإسلام، و ذهب بعضهم إلى كفر أصحابه، و خروجهم عن حظيرة الإسلام نظرا لما يعتقدونه مما يخالف عقائد الحنابلة، و بهذا وصفوا الأشعرى نفسه بأنه مبتدع، ففى سنة ۴۴۵ ه أعلن بنيسابور لعن الأشعرى رسميا، و كان قد رفع إلى السلطان طغرلبک من مقالات الأشعرى، فأمر بلعنه.

---

(۱) البداية و النهاية ج ۱۳ ص ۲.

(۲) طبقات الحنابلة ج ۱ ص ۱۳۶.

ص: ۵۹

و وقعت فتنة عظيمة بين الحنابلة و الأشعرية حتى تأخر الأشاعرة عن حضور الجمعات خوفا من الحنابلة.

و خلاصة القول، أن الحنابلة يرون من خالفهم من المسلمين كفارا. و يقابلهم الأشعرية كلهم أو بعضهم بتكفير شامل لمن لا يعرف وجود البارى بالطرق التى وضعوها، و قد خالفهم الحنابلة فى جميع ذلک.

و ذهبوا إلى أن العدول عن مذهب الأشعرى و لو قيد شبر فهو كفر، و لو كان العدول فى شىء نزر فهو ضلال و خسر. و هكذا فالأشعرية و الحنابلة يكفّر بعضهم بعضا، و قد لقى الأشعرى من الحنابلة فى حياته، عنتا و تحاملا عليه و على أتباعه و مؤيدى أفكاره و آرائه، و لشدّة تعصّبهم عليه أخفى أصحابه قبره بعد وفاته سنة ٣٣٣ ه حذرا من أن تنبشه الحنابلة، لأنهم حكموا بكفره و إباحة دمه. و لقد وقعت بين الحنابلة و الأشاعرة حوادث كثيرة و حروب و قتال فى شوارع بغداد، أهمها يوم دخلها القشيرى، و وعظ بها. فاضطر إلى الخروج من بغداد، و كانت اللعنات تنهال على الأشعرى، و نسبوا إليه بعض الآراء الشاذة ليوجهوا الرأى العام ضد الأشعرية، و قد اتخذ الحنابلة يوم الجنائز إعلانا لمبدئهم، و تكفيرا لمن خالفهم، و قد كانوا يردّدون فى تشييع الجنائز هتافات معادية للأشعرية و غيرهم من خصومهم، و بهذه الأمور المحزنة يستمر الوضع السيئ بين جماعات المسلمين، و تنتشر الفرقة بين صفوفهم، و الأمر يشتد كلّما مرّ الزمن. و قد قطع الحنابلة فى مسيرتهم أشواطا بعيدة فى الدعوة لآرائهم بعنف و قوة، كما صبّوا جام غضبهم على من خالف بعض تلک الآراء.

و قد أفتى بعض علمائهم- و هو الشيخ عبد اللّه الأنصارى الملقب بشيخ السنّة فى خراسان- بعدم حلّية ذبائح الأشعرية، لأنهم كفار فى نظره تبعا لرأى العامة من الحنابلة.

و قد امتحن كثير من العلماء، و راحوا ضحية الجهل و الفوضى، و اتّهم كثير منهم بسوء الاعتقاد، كما رمى الكثير منهم بالكفر و الزندقة.

و كان ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣۴٠ ه من أولئک الرجال الذى نالهم غضب الحنابلة- كما أشرنا سابقا- مع عظيم منزلته و مكانته العلمية، و هو صاحب التفسير الشهير و المؤلفات القيّمة، فرموه بالإلحاد و الزندقة لأنه خالفهم فى مسألة

اليدين، فقال فى قوله تعالى: يَداهُ مَبْسُوطَتانِ أى نعمتاه. و هم يرون أن اليد هى اليد الجارحة، كما زادوا فى اتهامه أنه رافضى، لأنه كان يرى جواز المسح بالوضوء على القدمين، كما ألّف كتابا جمع فيه أحاديث غدير خم، و آخر جمع فيه طرق حديث الطائر المشوى «١».

و من هذا و ذاک، فقد امتحن و غضبوا عليه، و رموا داره بالحجارة حتى علت على الباب، و منع من التحديث، و لما مات منعوا دفنه نهارا، و دفن ليلا خوفا منهم. و كان أبو الحسن الآمدى حنبليا، ثم انتقل لمذهب الشافعى، و حدث بمدرسة الشافعية بالقرافة الصغرى، و اشتهر فضله و انتشرت فضائله، فتعصّبوا عليه و كتبوا محضرا بخطوطهم، و اتهموه بمذاهب التعطيل و الانحلال، و خرج إلى دمشق و انعزل و لزم بيته إلى أن مات. و ألقى القبض على ظهير الدين الأردبيلى الشهير بقاضى زاده، و هو حنفى المذهب، و قطعت رقبته و علقت على باب زويلة بالقاهرة، لأنه ذهب إلى عدم وجوب ذكر الصحابة فى الخطبة،

فاتهموه بالبدعة، أو أنه يتشيّع، فعوقب لذلک. و حکم علی الحسن بن أبی بکر السکاکینی بالزندقة و أنه یسبّ الصحابة، و أقیمت علیه الشهادة عند القاضی شرف الدین المالکی، فحکم علیه بالقتل، فضربت عنقه بسوق الخیل.

و اتّهم لسان الدین بن الخطیب- عالم الأندلس- بالزندقة، فحکم علیه بالقتل.

و ذلک أنهم أحصوا علیه کلمات فی مؤلفاته و رفعوها إلی القاضی، فسجّل علیه الحکم بالزندقة، و أفتی بعض الفقهاء بقتله، فطرقوا علیه السجن فخنقوه و أخرجوا شلوه و أحرقوه.

و قد أشرنا سابقا إلی أن المحکمة التی تعقد لمحاکمة المتّهمین بالبدعة أو الضلالة عن الدین هی تحت رئاسة قاض مالکی، و الزندیق أو المبتدع عن المالکیة ینفّذ فیه الحکم و إن تاب، بخلاف بقیّة المذاهب، و هو رأی مالک، و قد خالف ابن مخلد و ابن الموازی ذلک.

قال الشوکانی: أبتلی أهل تلک الدیار بقضاة من المالکیة یتجرءون علی سفک

---

(۱) و قد رواه عدة من الصحابة عن أنس بن مالک: أن النبی أهدی إلیه طائر مشوی، فقال: «اللهم ائتنی بأحبّ خلقک إلیک یأکل معی من هذا الطائر» فجاء علی علیه السّلام فأکل معه. رواه الترمذی و قال الحاکم فی المستدرک رواه عن أنس أکثر من ثلاثین.

الدماء بما لا یحلّ به أدنی تعزیر، فأراقوا دماء جماعة من أهل العلم بجهالة و ضلالة و جرأة علی اللّه، و مخالفة لشریعة رسول اللّه، و تلاعبا بدینه بمجرد نصوص فقهیة و استنباطات فرعیة لیس علیها آثار من علم، و إنّا للّه و إنّا إلیه راجعون.

و ربما کان حکم المالکی عن غضب و تأثر، فإن الباجریقی الشافعی الذی اتهم بانحلال العقیدة، حکم الحنبلی بعصمة دمه، فغضب قاضی المالکیة و حکم بقتله.

و قدم رجل متّهم بالبدعة، و لما أحضر أنکر ذلک. فحکم بقتله، فقال: کیف تقتلوننی و أنا أقول: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه؟

قال ابن أبی عقیل: أنا أقتلک.

قال: بأی حجّة؟

قال: یقول اللّه تعالی: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ.

و من الفظائع المؤلمة، إنهم حكموا على إبراهيم الضبّى بالسجن، فضمّ إليه فى السجن رجل يعرف بابن الهذيل، ثم صدر حكم بأن يضرب ابن الهذيل خمسمائة سوطا، و أن تخبط رقبة إبراهيم ليلا، فاشتبه العامل و ضرب إبراهيم خمسمائة سوطا و أعاده إلى السجن، و أخرج ابن الهذيل فضربت عنقه، ثم انتبه الوالى للغلطة، فأخرج إبراهيم و ضربت عنقه، ثم ربطت أرجلهما بالحبال و جرّا مكشوفين غير مستورين من دار الإمارة، ثم صلبا ثلاثة أيام.

و استمر الحال على هذه الفوضى و التحكّم بأرواح الناس باسم حماية الدين و مقاومة المبتدعة و المفسدين، و كانوا يرون مؤاخذة هؤلاء بالشدّة، و معاملتهم بالعنف انتصارا لمبادئهم، و إنجاحا لمخططاتهم، فلا يسمعون قول أحد فى الدفاع عن نفسه، و ربما لم يسمحوا له بالدفاع عن نفسه، و لا يلتفت إلى ما يكتبه بالردّ على ما اتهم به خوفا من وضوح الحجة و عجزهم عن نقضها، و عمدوا إلى الاستعانة بالسلطة ليرغّبوها فى إبادة المفكرين حماية لأنفسهم، فأخذوا بفتوى مالک و من رافقه من أصحاب الشافعى إلى قتل الداعية إلى البدع، فلا توبة له، و أعرضوا عن نصوص الدين فى قبول توبة المؤمن.

ص: ۶۳

۴- القصص و القصاصون

أدى تحول النظام الإسلامى إلى الملک، و تحكّم الأفراد، إلى ظهور وسيلة جديدة من وسائل أصحاب السلطان فى توطيد دعائم حكمهم و تثبيت نفوذ عوائلهم، فاستحدث القصص مرادفا لدور الخطباء أو الشعراء الذين انزلقوا مع الحكام فى سياساتهم التى استخدموا بها الدين لأغراضهم و مصالحهم. و لا نعرف أثرا متفقا عليه يشير إلى وجود القصص أو ظهور القصاصين كظهور الشعراء قبل الإسلام أو بعده، أو أن العرب عرفوا هذا النوع بما يقرب من الألوان التى عرفتها الشعوب الأخرى، فليس فى الجزيرة من أمثال تلک الأساطير أو الحكايات، و ما كان فيها محدود التفاصيل و الأثر، أما فى الإسلام فقد تميّز عن الأديان السابقة بوحدة العلاقة و الواسطة، و عدم وجود وساطات أخرى تفسح المجال للاستعانة بالخيال. و ما طرأ فى العقائد كان من مخلفات بنى إسرائيل التى منع الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من سلوک طريقها حيث يذكر أنه قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن بنى إسرائيل هلكوا لما قصّوا».

و نودّ هنا أن نشير بعجالة إلى مبدأ هذا الأسلوب الذى وضع لخدمة أغراض الحكام، و الذى لعب دورا كبيرا فى إثارة الفوضى و إشاعة الفرقة و تأجيج نار العداء، و تطور إلى صنعة يتكسب منها من لم يفلح فى المجالات الأخرى، أو من لم ينجح فى أمور الحياة، أو تدفعه نيات خبيثة و أحقاد على الإسلام. إضافة إلى كونها وظيفة من وظائف الدولة يتصل من خلالها القاصّ بأصحاب السلطة و الخلفاء من خلال ما يقوم بإشاعتها، و بقدر ما يحرّک فيهم الإعجاب، و هو يعبر عن أغراضهم و ما يعملون على إشاعته و نشره.

و كان هذا النوع من النشاط من أشد الأساليب فتكا فى جسد الأمة و تأثيرا سلبيا

ص: ۶۴

فی واقع الناس، و قد کانت لحمته مختلطة و متنوعة تجافی المنطق و العقل، و لعبت فی عقول الناس و میولهم، ثم جرأت السلطة القصاصین علی أن یتناولوا کل ما من شأنه خدمة دولهم و حکم أسرهم.

و القصاصون استعملوا قصصا تحمل الناس علی ارتکاب المعاصی، أو تدفعهم إلی القتال و النزاع. ففی سنة ۲۸۴ ه أثار القصّاصون الفتن بین أتباع المذاهب الدینیة، مما حمل الخلیفة المعتضد علی منعهم «۱».

و قد وصفوهم بالکذّابین، و أنهم یروون الأعاجیب «۲» و منع عضد الدولة ظهورهم فی المساجد سنة ۲۶۷ ه و غیرها، و اعتبرهم آفة المجتمع لأن أحادیثهم کانت سببا فی إثارة الناس «۳».

و لم یعهد فی صدر الإسلام وجود قصاصین، و لکن الأمر محدث فی العهد الأموی، أحدثه معاویة حین کانت الفتنة، فکان للقصّاصین نشاط سیاسی یقومون به لتقویم دعائم الملک، إذ هم یحرّضون الناس علی تأیید الدولة، و یوغرون قلوب الناس بما یخترعونه من القصص، و یلهبون شعورهم بما یضعونه من الأحادیث، فیزداد نشاط الناس بالغیظ و حب الانتقام.

و کان الحکم الأموی منذ لحظاته الأولی یخطط لکسب الأکثریة من الناس، و إیهام الرعیة بشرعیة سلطانهم، فلجئوا إلی أسالیب کثیرة أهمها الدعایات الملفقة، و من صور الدعایة التی ابتکروها کان تجنید القصّاص لترسیخ دعائم حکمهم علی حساب مکانة الرسول و أصحابه الأخیار، و لکی یضمن الأمویون الإفادة من جهود القصاص ألزموا الناس بلزوم الاستماع إلیهم.

و لقد قام أولئک القصّاصون بکل جهدهم بصیاغة القصص و تلفیق الأحادیث.

قال حبیب بن الحرث الثمالی: بعث إلیّ عبد الملک بن مروان فقال: یا أبا

---

(۱) الطبری ص ۱۸۲. و المنتظم ج ۷ ص ۸۸.

(۲) مروج الذهب ج ۵ ص ۸۶ ط أوروبا. و المقدسی فی البدء و التاریخ ج ۱ ص ۱۹۹.

(۳) العبر ص ۶۵- ۶۶.

أسماء، إنّا قد جمعنا الناس علی أمرین. فقلت: و ما هما؟ قال: رفع الأیدی علی المنابر یوم الجمعة، و القصص بعد الصبح و العصر «۱».

کما اتخذت السلطات فی العهد الأموی استخدام القصاص وسیلة لتشویه مبادئ الإسلام و تعضید حکمهم و اختلاق النصوص و القصص بما ینسجم مع سیاستهم فی العنف و التحکم و إخماد حریة الرأی؛ فکان القصّاصون رکیزة الدولة الأساسیة فی مواجهة القوی التی أخذت تکتشف حقیقة ترکیب النظام الأموی و سیاسته الظالمة، فبذل القصّاص غایة جهدهم فی تشویه الحقائق، و

السماح لهم باختلاق الروايات و وضع الأحاديث، و الإغضاء عن الافتعالات المفضوحة التى انضم بها القصاص إلى ركب المدّاحين و أهل الخطب الذين شوّهوا دور المنابر، و أساءوا إلى مهمة رجال العلم بصمتهم المطبق، و هم يرون سفک الدماء و انتهاک الحرمات، و التعدّى على تعاليم صاحب الرسالة و مبلّغ الشريعة و أهل بيته الأطياب، و بجلجلة ألسنتهم و هم يركبون الكذب، و يجمعون الموضوعات، و يسوقون الخرافات و المنامات و الأساطير تزلفا و تكسّبا، فباعوا دينهم بأبخس الأثمان، و عند اللّه الجزاء.

ثم انتشرت خرافات القصص الإسرائيلية المعروفة بالإسرائيليات، و قد قام بذلک جماعة من اليهود، و فى طليعتهم كعب الأحبار، تلک الشخصية اليهودية التى دخلت الإسلام و هو يحمل على كتفيه مهمة نشر الإسرائيليات و بثّها فى ثنايا علوم الإسلام و فنون القرآن، فكان أكبر و أخطر مصدر لهذا الفن. و قد سفنا الحديث المروى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يشير فيه إلى أن اليهود فى قصصهم قد هلكوا، و قصدنا إظهار ما فيه من تحذير، و قد جاء كعب ليكون من دعائم بنيان فن القصص الذى عملوا على توسيعه، فالتقت الأغراض.

فاليهود هم أكبر عامل لإثارة الحزازات و النعرات و النزعات العصبية بين القوميات التى تعيش فى المجتمع الإسلامى، و طريقتهم فى تآمرهم على الإسلام هى:

التظاهر باعتناقهم إياه، ثم يبدءون ببثّ سمومهم بما يلقونه من قصص و أخبار و هى ليست بذات قيمة؛ لكنهم يجيدون استغلال الظروف و التحرک المناسب.

و قد حذّر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من خطرهم، و أمر بإجلائهم، و كانت آخر وصية له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن

---

(١) الباعث على إنكار البدع و الحوادث لشهاب الدين أبو شامة ۶۶.

قال: «اللّه فى أهل بيتى، أوصيكم فى أهل بيتى خيرا، و أخرجوا اليهود من جزيرة العرب» و لكن المسلمين لم يأخذوا هذه الوصايا بعين الاعتبار، فكان ما كان من عواقب وخيمة.

و قد أجلى عمر بن الخطاب جماعة من اليهود، فسكنوا الكوفة، فكانوا قطب رحى الخلافات، و قد شوّهوا سمعة هذا البلد العربى المسلم. حتى عرف بالمكر و الخيانة، و الغدر، و الخديعة. و لعب هؤلاء اليهود دورا مهما فى نشر الخلافات فى جيش الإمام الحسن عليه السّلام و تمزيق وحدة الصف، و إثارة النعرات.

و لا يتّسع المجال لشرح مواقفهم من قضية الحسين عليه السّلام بدفع عجلة الحوادث، و تطوير الوقائع، للإسراع فى القضاء على الحسين عليه السّلام لأنهم يعدّون ذلک نصرا لهم، و فتحا جديدا فى موقفهم العدائى للإسلام، و استمرّت أعمالهم فى العهد الأموى يوسّعون دائرة الخلافات، و يقيمون العراقيل فى طريق التفاهم بين الفئات المتناحرة.

و على كل حال، فقد استمر القصّاص بمساندة السلطة و تأييدهم الحاكم الذى يصبح وضعه ينذر بالخطر لسوء السيرة و قبح المعاملة، فيلجأ إلى استعمال سلاح الحماية باسم الدين بشتى الوسائل، فيوعز إلى القصّاص بالنزول إلى غمار العامة يقصّون عليهم ما يحرّک شعورهم ضد الفئة المعارضة للدولة، أو يشغلونهم بحدوث فتنة. و قد استطاعوا أن يجلبوا أذهان السذّج، و يؤثروا على تلک العقول فى وضع الأحاديث و اختراع القصص، فكانوا أداة فرقة، و أكبر عامل لإثارة الفتن.

قال ابن الجوزى: و كان القصّاص فى أواخر القرن الرابع أكبر مثيرى الفتن بين السنة و الشيعة.

و يقول أيضا فى موضوعاته: إن معظم البلاء فى وضع الحديث إنما يجرى من القصّاص، لأنهم يروون أحاديث ترفق و الصحاح تقل فى هذا. و اختلف أهل البصرة فى القصص، فأتوا أنس بن مالک فسألوه: أ كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقص؟ قال: لا.

و أخرج الزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن نافع و غيره- من أهل العلم- أنهم قالوا: لم يقصّ فى زمان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا زمان أبى بكر و لا زمان عمر؛ و إنما القصص محدثة، أحدثها معاوية حين كانت الفتنة.

ص: ۶۷

و لا شک أن معاوية استعمل تلک الفئة المرتزقة كما قدّمنا ليستعين بها فى وضع الأحاديث لدعم ملكه، و حمايته بوجه موجة الاستنكار، و قد استطاع أن ينشر بين الناس مناقب عثمان الموضوعة، و مناقب البلدان، و مناقب بعض الرجال و العشائر كما يشاء.

كما أنه استطاع أن يختلق لخصومه مثالب أبرزها فى قالب الابتكار و الخيال الواسع، و تمكّن بهذه القوة، أن يزوى ما لعلى عليه السّلام من مناقب و ما ورد فيه من أحاديث صحاح، فكان بحكم تلک الدعايات التى هى كأوامر رسمية أن أصبح الخطباء يعلنون سبّ على عليه السّلام و شيعته، و كان الوعّاظ يختمون مجالسهم بشتمه عليه السّلام و كان يلزم الناس بإعلان سبّه و البراءة منه، و فرض عليهم تعليمه لأبنائهم، و أصبح معاوية بمقتضى تلک الأساليب و بتلک الأكاذيب هو: أمين الأمة، و كاتب الوحى، و خال المؤمنين، إلى آخر ما هنالک من أساطير.

و مهما حاول معاوية إخفاء فضل على عليه السّلام فقد انهار ما بنى، و بقى ذكر على و أهل بيته عليه السّلام تردّده الأجيال بفخر و اعتزاز على مرّ العصور و الأيام.

إذا ما بناء شاده الدين و التقى تهدّمت الدنيا و لم يتهدّم

و لسنا هنا بمعرض البحث عن تلک الأزمنة، فقد أشرنا إلى بعضها فى الأجزاء السابقة، و جلّ اهتمامنا فى جميع ما ذكرناه هنا و هناک، هو إعطاء صورة عن الأمور المحزنة التى تحزّ بالنفس، و التى حدثت فى أزمنة متأخرة من الزمن. الذى كان ظرف تلک الحوادث و هى امتداد لما حدث فيها من خلافات.

و على أى حال، إن الأثر الذى أحدثه القصّاصون فى ذلک المجتمع من إثارة فتن، و إيقاد نار البغضاء بين طوائف المسلمين، و إشعال حروب طاحنة؛ هو من أعظم الأمور التى ابتلى بها المسلمون فى تلک الفترة المظلمة.

لقد كان أولئک النفر يحرّضون الناس على القتال و النهب، و يحرّكون القلوب، و يثيرون الشعور بما يفتعلونه من أقوال و يضعون من أحاديث، يغذّون بها أدمغة العامة، كما قاموا فى المساجد و الجوامع و الطرقات و الأندية يبثّون سمومهم.

فاتخذتهم السياسة سلاحا فاتكا- كما قدمنا- و هم ينتشرون فى ساحات الحرب

ص: ۶۸

يشجعون الجند على القتال. و لقد خضعت العامة لتصديقهم و قبول مفترياتهم، حتى أصبح من العسير الإنكار على واحد منهم. و من تجرأ فأنكر، يكون عرضة لسخط العامة. و حيث عظم خطرهم و فشا كذبهم و ظهر تلاعبهم بتفسير الكتاب العزيز، فأراد بعض العلماء أن يقوم بتوجيه الناس بحملة إنكار على هؤلاء الذين فتكوا بجسم الأمة بأكاذيبهم، و لكن أقعد أولئک العلماء خوف العامة، فتركوا الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر تقية و خشية من السلطان، لأنهم تحت رعاية الدولة. و ربما خرج القاصّ محاطا بالجند و مزوّدا بالسلاح.

ففى سنة ۴۷۵ ه عبر قاصّ من الأشعرية- يقال له البكرى- إلى جامع المنصور و معه الشحنة و الأتراک بالسلاح، و كان البكرى فى حدة و طيش، و كان النظام أنفذ ابن القشيرى، فتلقاه الحنابلة بالسبّ، فأرسل إليهم النظام هذا القاصّ، فأخذ يسبّ الحنابلة، و يستخفّ بهم، و قد أحيط بالسلاح من الأتراک، و صعد المنبر و قال: وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا ما كفر أحمد بن حنبل، و لكن أصحابه كفروا. و حكى على الحنابلة فى صفات اللّه عز و جل ما لا يليق، فأغرى بهم الناس، و أعلن شتمهم «۱».

و أراد جماعة من العلماء الإنكار على محمد السمرقندى لأنه كان يقصّ و يحدّث بأحاديث منكرة، فلما حضروا عنده، اجتمع العامة، فخاف العلماء من شرّه.

و نزل قاصّ فى دار الحذائين و روى أحاديث منكرة، فأراد يحيى بن معين أن ينكر عليه، و لكنه ترک ذلک تقية خشية أن يقتله الحذائون بشفارهم.

و حكى السيوطى قصته مع القصاص الذى حدّث الناس بحديث لا أصل له، و كذّبه السيوطى، و أفتى بأن هذا الحديث لا أصل له و هو باطل لا تحلّ روايته و لا ذكره و خصوصا بين العوام، و السوقة، و النساء، و أنه يجب على هذا الرجل أن يصحح الأحاديث التى يرويها فى مجلسه على مشايخ الحديث.

فنقل كلام السيوطى إلى ذلک القاص، فاستشاط غيظا و قام و قعد، و قال: مثلى من يصحح الحديث عن المشايخ؟! مثلى يقال له فى حديث رواه أنه باطل؟! أنا أصحح على الناس، أنا أعلم أهل الأرض بالحديث. ثم أغرى الناس بالسيوطى

(۱) تحذير الخواص للسيوطى ص ۵۰.

فهاجت العامة، و قامت الغوغاء، و تناولوه بألسنتهم، و توعّدوه بالقتل و الرجم «۱».

و أنكر على بن نبال على قاص بما حدّث، فعظم ذلک على العامة و همت بإيقاع المكروه فيه، فاختفى عنهم و توارى فى بيته. و سمع الأعمش أحد القصاص يقول:

حدثنا الأعمش. فقام و توسط الحلقة، و جعل ينتف شعر إبطه. فقال القاص:

يا شيخ، أ لا تستحى نحن فى حلقة علم، و أنت تفعل مثل هذا؟!! فقال الأعمش: الذى نحن فيه خير من الذى أنت فيه.

قال: كيف؟

قال: إنى فى سنّة، و أنت فى كذب. أنا الأعمش، ما حدّثتک مما تقول شيئا «۲».

و تجنّب العلماء معارضة القصّاصين، و الردّ عليهم تقية و خوفا على أنفسهم، لأن العامة ارتبطوا بالقصاص، و أقبلوا عليهم و تقبلوا كل ما يلقونه من الموضوعات، و القصص الخرافية. و قد قام أحد القصّاصين فحدّث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار. فلم يبق أحد منهم إلا و قد أخرج لسانه يومىء بها إلى أرنبة أنفه. و من هذا الباب تسرّبت أكثر الأحاديث المرغّبة فى كثير من الأعمال.

و دخلت أذهان العامة تلک الخرافات و الأباطيل، و أصبحت و كأنها حقائق لا تقبل الشک و لا تخضع للجدل، كما أدخلوا كثيرا من العقائد المفتعلة ضمن أحاديث مكذوبة أحدثوها، و ربما خلقوا لها أسانيد من أنفسهم. و من أغرب ما ورد عنهم أن أحدهم قام فحدّث عن أبى خلفة أنه قال: حدثنا الوليد بن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبى. فقام إليه أبو حاتم البستى و قال له: رأيت أبا خلفة؟ قال: لا. فقال له كيف تروى عنه و لم تره؟

فقال القاص: إن المناقشة معنا من قلة المروة، أنا أحفظ هذا الإسناد الواحد، و كلما أسمع حديثا ضممته إلى هذا الإسناد.

و من ذلک أن قاصّا حدّث بحديث و أسنده عن أحمد بن حنبل و يحيى بن معين

(۱) المصدر السابق فى المقدمة.

(۲) الأسرار المرفوعة لعلى القارى ۵۵. و الأحياء للغزالى ۱/ ۵۸.

و كانا حاضرين بالمجلس. و بعد أن فرغ أوحى إليه ابن معين بيده، فأقبل متوهّما لنواله، لأن القصاص كانوا ينالون الأموال من المستمعين، فلما جلس قال ابن معين:

من حدثک بهذا الحديث؟ قال: حدثنى يحيى بن معين و أحمد بن حنبل.

فقال ابن معين: هذا أحمد بن حنبل و أنا ابن معين، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن كان و لا بد من الكذب فعلى غيرنا. فقال له: أنت يحيى؟

قال: نعم.

قال القاص: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، ما حققت إلا الساعة.

فقال له يحيى: كيف علمت أنى أحمق؟

فقال: كأنّ ليس فى الدنيا أحمد بن حنبل و ابن معين غيركما؟ قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل و يحيى بن معين، فوضع أحمد بن حنبل كمّه على وجهه.

و قال: دعه يقول.

و لم يستطع أحدهما و الحالة هذه أن يشتد فى الإنكار عليه مع عظيم منزلتهما و اشتهارهما بين الناس خوفا من الغوغاء «۱».

و حدّث بعضهم عن الأعمش بلا سند قال: خرجت فى ليلة مقمرة أريد المسجد فإذا أنا بشىء عارضنى، فاقشعرّ منه جسدى، فقلت: أ مؤمن أنت أم كافر؟ فقال: بل مؤمن. فقلت: أمن الأنس أنت أم من الجن؟

قال: بل من الجن.

فقلت: فيكم من هذه الأهواء و البدع شىء؟

قال: نعم.

ثم قال: وقع بينى و بين عفريت من الجن اختلاف فى أبى بكر و عمر فاحتكمنا لإبليس.

قال العفريت: إنهما ظلما عليا و اعتديا عليه. فحكينا ذلک لإبليس فضحک و قال: هؤلاء- أى الذين يقولون بهذه المقالة- من شيعتى و أنصارى و أهل مودتى. ثم قال: أ لا أحدّثكم بحديث؟ قلنا: بلى. قال إبليس: إنى عبدت اللّه فى سماء الدنيا ألف عام، ثم رفعت إلى الرابعة، و رأيت فيها سبعين ألف صف من الملائكة يستغفرون

---

(١) الأسرار المرفوعة ٥٣- ٥٥.

لمحبى أبى بكر و عمر، ثم رفعت إلى الخامسة فرأيت سبعين ألف ملک يلعنون مبغضى أبى بكر و عمر.

بهذا يتقدم قاصّ يعهد إليه توجيه المجتمع حسب رغبات الدولة، و أى خدمة أعظم من هذه، و هى إبراز خصوم الدولة و هم الشيعة- أو المبتدعة فى منطق السياسة- بمظهر يشمئز منه كل واحد، و قد وسموهم بأنهم يلعنون الشيخين و يبغضونهما، و شاع ذلک فى المجتمع بدون وقوف على واقع الحال.

كما اتخذوا من القصص وسائل تدخل فى أذهان العوام عند ما يسندون ذلک إلى عالم الغيب أو الخضر عليه السّلام و هو يتردّد على ألسنة القصّاص فى أكثر المناسبات لتوجيه الشعور إلى ما يمكن قبوله.

لقد حدّثوا عن بلال الخوّاص أنه قال: كنت فى تيه بنى إسرائيل، فإذا رجل يماشى، فتعجبت منه، ثم إنى ألهمت أنه الخضر عليه السّلام فقلت له: بحق الحق من أنت؟

فقال: أخوک الخضر.

فقلت له: أريد أن أسألک.

فقال: سل.

فقلت: ما تقول فى مالک بن أنس؟

قال: هو إمام الأمة.

فقلت: ما تقول فى أحمد بن حنبل؟

فقال: رجل صدق.

قلت: فما تقول فى بشر الحافى؟

فقال: لم يخلق بعده مثله «۱».

و هكذا تدور هذه المحاورة الخيالية، و تبرز للوجود بهذا الشكل، لتلعب دورا فى مجال الدعاية المذهبية، و تأخذ طريقها إلى عقول تتقبل الخرافات و الأباطيل.

---

(۱) أحمد بن زين، شرح العينية ۵۱۱.

و لقد ابتلى الخضر عليه السّلام بأولئک القصاصين، فهم يزجّون بشخصه، و يدخلون اسمه فى كثير من قصص الدعاية المذهبية، كما جعله بعض الأحناف تلميذا لأبى حنيفة فى حياته و بعد مماته كما تقدم.

كما استعمل الصوفية من شخصيته وسيلة إعلام لبعض شخصيّاتهم أو شاهدا على صحة طريقتهم «۱».

لقد دخل نشاط القصّاصين فى أغلب زوايا المجتمع، و استخدمه الناس فى أغراضهم المختلفة، و لجأ إليه أصحاب المذاهب. و كانت القصص تتبدل شخصياتها بحسب تغيّر المتنفّذين و الصنعة التى يحملونها: مذهبية أو عرقية أو إقليمية. و لكن الأمر الذى لا يتغير هو العداء للشيعة و الهجوم عليهم تحت ستار سبّ الصحابة أو بغض الشيخين، لأن الحكام منذ عهد معاوية اعتمدوا هذه التهم، و راحوا يستميلون الأمة، و يجعلون اتجاه وجودها و استمرارها عدائيا تجاه الشيعة، و تأكيد سلطة الحكام و صفتهم الدينية من خلال أصحاب الصنعة فى الخطابة و الحديث و القصص.

كان مجلس القصّاصين يضمّ الرجل و المرأة و الطفل، و كلهم على مستوى واحد من حيث قبول تلک القصص، و لا تتعدى أنظارهم و مدركاتهم حدود المنابر التى يرقاها مرّة الوعاظ المرتزقة، و مرّة العلماء المأجورون، و مرّة القصّاص الكذبة و هو يسبّحون بحمد الظلمة و يأتمرون بأمر البغات منذ أن قامت الفتنة على يد الطلقاء من الأمويين، و منذ أن اشرأبت الجاهلية من على دست حكمهم فى الشام، فراحت هذه الزمر و مؤسساتها تؤثر فى أذهان الناس، و تبنى عقائدهم كما تشاء. بحيث يصحّ الحاكم الظالم و الفاسق الفاجر إماما بنص مكذوب و أثر موضوع، فيتقبل الناس ما يلقونه إليهم من سموم.

و فتح من جراء ذلک شدة البغض لهؤلاء الذين يوصفون أو يتهمون ببغض الشيخين أو لعنهما، و بالأخص تضاعف التهم على الشيعة حتى أصبحت من الأمور الارتكازية. لهذا ثبت فى أذهان السذّج أن بغض الشيعة من السنة، و أنه خير عمل يقدمه الإنسان لربه.

---

(۱) انظر المصدر السابق ۵۳۴.

و جاء فی النجوم الزاهرة فی ترجمة الخفّاف أنه کان شدیدا من السنّة، و لما مات ابن المعلم فقیه الشیعة- و هو الشیخ المفید رحمه اللّه- جلس للتهنئة و قال: ما أبالی أی وقت مت بعد أن شاهدت موته.

قال مؤلف النجوم الزاهرة: و مما یدل علی دینه و حسن اعتقاده بغضه للشیعة، و لو لم یکن من حسناته إلا ذلک لکفاه عند اللّه «۱». فلا غرابة أن یصبح بغض الشیعة سنّة معمولا بها، و هی عندهم خیر ما یلقی الإنسان بها ربه. و قد أصبح الکثیر من هذه البدع من المسلّمات عن العوام لا تقبل الجدل و النقاش، و أن الکثیر من الخرافات قد ارتکزت فی الأذهان کحقیقة واقعیة لا لبس فیها و لا غموض.

و قد خفیت تلک الخرافات علی أکثر الناس، و أصبح لها مکانة. و هی عنصر فعّال فی توجیه الشعور ضد الخصوم، لا سیما أنهم أشرکوا الشیاطین و الجنّ فی المعاونة معهم بالعمل ضدّ کل من یخالف المتسلطین و دعاة التحجر و الجمود.

حدّث أحمد بن نصر قال: رأیت مصابا بالصرع، فقرأت فی أذنه، فکلّمتنی الجنیة من جوفه فقالت: یا أبا عبد اللّه، دعنی أخنقه، فإنه یقول بخلق القرآن «۲».

و أحمد بن نصر هو من کبار العلماء، و ممن یقول بقدم القرآن، و قد امتنع عن القول بخلقه، فأحضره الواثق فقال له: ما تقول فی القرآن؟

فقال: کلام اللّه.

قال الواثق: افتری ربک یوم القیامة؟

قال: کذا جاءت الروایة.

فقام الواثق إلیه بنفسه، فقتله صبرا «۳».

و یروی الخطیب البغدادی فی التاریخ أن الواثق قال له: ویحک یری کما یری المحدود المتجسّم؟ یحویه مکان و یحصره الناظر. أنا أکفر برب هذه صفته «۴» و قد کان أحمد بن نصر من ضحایا السلطان، نصب رأسه ببغداد علی رأس الجسر، و استخدم القصّاص من الحنابلة طریقة موته، و ادخلوا المنامات، و کم للمنامات و الرؤی من أهمیة عند ما یعزّ الأثر و تنعدم المادة، و هی من أسهل الأسالیب. و قد عجّت بها

---

(۱) النجوم الزاهرة ج ۴ ص ۱۶۱.

(۲) و (۳) طبقات الحنابلة ج ۱ ص ۸۱.

(۴) انظر: الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، محنة خلق القرآن/ الجزء الأول.

المصنّفات المختلفة، فأحاط القصّاص موت أحمد بن نصر بما يخدم عقيدة التجسيم، إذ يروى الخطيب البغدادى عن الحنابلة: رأى بعض أصحابنا أحمد بن نصر فى النوم بعد ما قتل، فقال: ما فعل بک ربک؟ فقال: ما كانت إلا غفوة حتى لقيت اللّه، فضحک إلى. أخبرنا أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن طاهر الدقاق، أخبرنا أبو بكر النجاد، حدثنا عبد اللّه بن أحمد، حدثنا أبو الحسن بن العطار محمد بن محمد قال: سمعت محمد بن عبيد- و كان من خيار الناس- يقول:

رأيت أحمد بن نصر فى منامى فقلت: يا أبا عبد اللّه، ما صنع بک ربک؟ فقال:

غضبت له، فأباحنى النظر إلى وجهه (انتهى). ثم ينشرها المختصّون و يذيعونها. و قد ذكرنا فيما سبق أن الواثق كان يمثّل المرحلة الوسطى التى تجمع بين المأمون فى شدّته و بين المتوكل فى إدنائه الحنابلة و العامة، أو أن هناک ما يشير إلى ميل لتبرئة آل العباس من دماء الأبرياء و إبقاء صلة القرابة بالرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معتمدا لمكانتهم المقدسة، فوضعوا على لسانه أن أحدهم سأله و هو عليه السندس و الاستبرق و على رأسه تاج: ما فعل اللّه بک يا أخى؟ قال: غفر لى و أدخلنى الجنة، إلا أنى كنت مغموما ثلاثة أيام. قلت:

و لم؟ قال رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّ بى، فلما بلغ خشبتى حوّل وجهه عنّى، فقلت له بعد ذلک: يا رسول اللّه، قتلت على الحق أو على الباطل؟ فقال: أنت على الحق، و لكن قتلک رجلا من أهل بيتى، فإذا بلغت أستحيى منک.

و يعقد ابن الجوزى بابين مستقلّين فى المناقب يذكر فيهما المنامات التى رؤى فيها أحمد بن حنبل، و بابا آخر يذكر فيه تأثير موت أحمد عند الجن، نذكر منها على لسان رجل بطرسوس: أنا من اليمن و كانت لى بنت مصابة، فجئت بالعزّامين، فعزموا عليها. ففارقها الجنّى على أن لا يعاود، فعاود بعد سنة. فقلت: أ ليس قد فارقت على أن لا تعاود؟ قال: بلى. و لكن مات اليوم رجل بالعراق يقال له أحمد بن حنبل، فذهبت الجن كلها تصلّى عليه إلا المردة و أنا منهم، و لست أعود بعد يومى. فما عاد.

و من المضحک، بل المخزى فى آن واحد ما وقع فى سنة ۴۵۶ ه أن قوما من الأكراد خرجوا متصيّدين، فرأوا بالبرية خيما سودا سمعوا فيها لطما شديدا و عويلا كثيرا و قائلا يقول: مات سيدوک ملک الجن، و أى بلد لم يلطم عليه و لم يقم له فيه مأتم قلع أصله و هلک أهله. فخرجت النساء من حريم بغداد إلى المقابر يلطمن ثلاثة

أيام و يخرّقن ثيابهنّ و ينشرن شعورهنّ، و خرج الرجال يفعلون مثل ذلک، و فعل هذا فى واسط و غيرها من البلدان «۱».

بمثل هذه العقلية الضحلة، أصبح الناس يعيشون تحت ظلال علماء و قادة يدفعون بهم إلى مهاوى الجهل و التعصب، و يقبعون فى ظلمات الفرقة، و قد نشرت تحت ستار الوعظ خرافات و أوهام و أباطيل، و طغت موجة الغلو و التحدى لتعاليم الإسلام، و انتشرت عقائد بعيدة عن روح الإسلام و نظمه، و مصدر ذلک تلک الحلقات التى اتخذت لأغراض خاصة و أبواق المأجورين.

و لقد أخذت تلک الخرافات مکانتها فی أدمغة السذّج، و هی السمّ القاتل، و السلاح الفاتک، ثم تحولت إلی مادة یشطح فیها الخیال، و یحاط بها الأشخاص.

و تظهر علی الساحة جماعات بمسوح دینیة و شعائر مبالغ فیها، تجعل لها قادة من الرجال الأحیاء أو الأموات، فتنسب إلیها الأعمال أو تصوّر سیرهم بأوضاع لا تجد لها مستندا من عقل أو حقیقة، و ما هی إلا أوهام تنجم عن حالات خاصة یمارسها الأشخاص، فتخلق أجواء یبرز بها مختصّون فی الأداء و التوجیه، تجتذب أفعالهم السذّج و البسطاء، فتصبح عندهم عقیدة و طریقة. و قد جاءوا بمناقب لمن و سموهم بالأولیاء أو الشیوخ ذوی الکرامات.

فهذا یدّعی له بأن الشمس وقفت له إکراما حتی یصل إلی وطنه عند ما ضایقه اللیل کالشیخ محمد الحضرمی حتی قالوا فی ذلک:

و من جاهه أومأ إلی الشمس أن قفی فلم تمش حتی أنزلوه بمقعد

«۲» و قالوا: أنّ الکعبة توهّدت و هی تطوف بسریره.

و أوردوا عن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أن من قبّل ید الشیخ الحضرمی دخل الجنة. إلی غیر ذلک من خرافات و أوهام «۳».

و کذلک أدعی للسید أحمد الرفاعی أن الشمس وقفت فی قرصها إلی أن دخل قریة أم عبید «۴» و أکثروا عن المشایخ نقل کرامات تدل علی مبلغ ما وصل إلیه

---

(۱) طبقات الحنابلة ج ۱ ص ۸۱.

(۲) الیافعی، مرآة الجنان ۴/ ۱۸۸.

(۳) ابن العماد، شذرات الذهب ۵/ ۲۶۲.

(۴) الشیخ أحمد الوتری، روضة الناظرین ۹۹.

الانحطاط الفکری، و قد جعلوا الاعتراف بها و الخضوع لها من عقائد الإسلام، فمن مارى فیها شکّوا فی دینه «۱».

فكانوا يلزمون الناس بالاعتقاد بأن شيبان العجمى سخرت السماء لخدمته، عند ما يريد أن يغتسل، فهناک تأتى سحابة تمطره فيغتسل، و نسبوا لآخر منهم أنه يخرج فى القافلة من البصرة يوم التروية، فيدرک الحج أول النهار.

و قالوا: أن إبراهيم الخراسانى كان يمشى على البحر بين الأمواج، و أحمد بن خضير البلخى كان يفرش بساطه على البحر «٢».

و غير ذلک من ادّعاءات كاذبة و مناقب مفتعلة، و ليت الأمر اقتصر على تخيّل الكرامات و ادعاء المعجزات التى يسهل أمرها عند تحكيم العقل و تدقيق النظر، فإن قائمة الموضوعات امتدت إلى الأحكام الشرعية و ابتغائها على نتاج هذه الأمراض التى تكبّل طاقات البشر و تشلّ قدراتهم، فيعلم العيد من امتناع الوليد عن الرضاع و هو فى حضن أمه. أو ما أوردوا للسيد البدوى من أنه بعد أن مات قام فغسّل نفسه، و بعد انتهائه من الغسل مات ثانية.

و قد ابتنى على هذا نزاع فقهى كما أورده الشيخ الباجورى و غيره فى تغسيل الجنائز فقالوا: إن الميت لو غسّل نفسه لا يحتاج إلى من يغسله ثانية كما وقع للسيد أحمد البدوى.

و يروون أن جماعة من الفقهاء و الفقراء اجتمعوا عنده فى المدرسة النظامية، فتكلم فى القضاء و القدر، بينما هو يتكلم إذ سقطت عليه حية من السقف، ففرّ منها كل من كان حاضرا عنده و لم يبق إلا هو، فدخلت الحية تحت ثيابه، و مرت على جسده، و خرجت من طوقه، و التوت على عنقه، و هو لا يقطع كلامه و لا غيّر جلسته، ثم نزلت على الأرض و قامت على ذنبها بين يديه، فصوتت، ثم كلّمها بكلام ما فهمه أحد من الحاضرين، ثم ذهبت. فرجع الناس و سألوه عما قالت؟ فقال: قالت لى لقد اختبرت كثيرا من الأولياء فلم أر مثل ثيابک. فقلت لها: و هل أنت إلا دويدة يحرّکک القضاء و القدر الذى أتكلم فيه «٣».

---

(١) محمد الغزالى، الإسلام و الطاقات المعطلة ١٢٤.

(٢) المناوى، الكواكب الدرية ١/ ١٩٢- ١٩٨.

(٣) انظر: طبقات الشعرانى، ترجمة الجيلى، الجزء الأول.

و من الغريب أنهم يربطون بين خرافاتهم و بين واقع الإسلام، كما أنهم اخترعوا أسطورة لرقصتهم فى مجالس الذكر، و أنهم يفعلون ذلک اقتداء بأبى بكر، و قالوا:

حدّث الأشنانى عن ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: هبط علىّ الأمين جبريل و عليه طنقسة و هو متخلل بها. فقلت: يا جبريل، ما نزلت إلى بزىّ مثل هذا الزىّ؟

قال: إن اللّه أمر الملائكة بأن تتخلل بالعباءة إكراما لأبى بكر. و رواها العلاء بسند عن ابن عمر. بينما الناس عند النبى و عنده أبو بكر و عليه عباءة، قد خللها على صدره بخلال، إذ نزل جبرئيل و قال: مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها؟ فقال النبى: يا جبرئيل قد أنفق ماله علىّ. قال جبرئيل: فأقرأه من اللّه السلام و قل له: يقول ربک: أراض أنت أم ساخط؟ قال ابن حجر فى بقية الحديث: فبكى أبو بكر و قال:

أعلى ربى أغضب؟

و قد أورد هذه المنقبة صاحب الذهب الأبريز فى شرح الوجيز ص ٣٩٢، و هى أن أبا بكر أنفق ماله فى سبيل اللّه، و أعتق عبيده حتى تخلل بالعباءة، و نزل جبرئيل و قال يا محمد: إن ملائكة السموات تخللت بالعباءة إكراما لأبى بكر من اللّه، و قل له:

إن ربک عليک راض فهل أنت عنه راض؟

فقال أبو بكر: إنى عن ربى راض. و صار يفتل (يفتر) كالدولاب. و عنه أخذت الصوفية الدوران و الرقص.

و نسبوا إلى أبى بكر أنه ألبس أحدهم الخرقة فى المنام و هو ابن هواد البطائحى و كان شاطرا يقطع الطريق، فكان أول من ألبسه أبو بكر- كما يروى الشعرانى- ثوبا و طقية فى النوم، فاستيقظ فوجدهما عليه؛ و يرقى بهم الحال، فيدّعون للشيخ عبد القادر منزلة النبوة و درجة المناجاة مباشرة من دون واسطة، فيقول: يا رب. فيقول اللّه: لبيک. و قد جمعت هذه المناجاة و الوحى الإلهى فى رسالة أسموها: الرسالة الغوثية. نقتطف منها ما يلى:

قال الشيخ عبد القادر الكيلانى:

الحمد للّه كاشف الغمّة، باسط النعمة، و الصلاة و السلام على نبيه خير البرية.

قال الغوث الأعظم المستوحش بغير اللّه و المستأنس باللّه.

قال اللّه تعالى: يا غوث الأعظم.

قلت: نبيک يا رب، الغوث.

قال: كل طور بين الناسوت و الملكوت فهو شريعة، و كل طور بين الجبروت و الملكوت فهو طريقة، و كل طور بين الجبروت و اللاهوت فهو حقيقة.

و قال لى: يا غوث الأعظم، ما ظهرت فى شىء كظهورى فى الإنسان.

ثم سألت فقلت: يا رب هل لک مکان؟

فقال لی: يا غوث الأعظم، إنا مکان المکان، و ليس لی مکان. و أنا سرّ الإنسان.

ثم سألت فقلت: يا رب هل لک شرب و أکل؟

قال: أکلی أکل الفقير، و شربه شربی.

ثم سألت و قلت: يا ربّ من أی شیء خلقت الملائکة؟

إلی آخر ما جاء فی هذا الباب من المناجاة التی تضمنتها «الرسالة الغوثية» و قد طبعت باللغة التركية، و ترجمت إلی العربية، و يأتی ذكرها فی تعداد مؤلفات الشيخ عبد القادر «۱» و فيها تلک المناجاة، أو المقابلة بين الشيخ و ربه.

و قالوا عنه: أنه كان فی حفرة أيام رضاعه دليلا علی هلال شهر رمضان، لأنه

---

(۱) هو الشيخ عبد القادر بن موسی بن عبد اللّه. أمه أم الخير فاطمة بنت السيد عبد اللّه الصومعی الزاهد. ولد فی بنيق قصبة من بلاد جيلان وراء طبرستان سنة ۴۷۰ ه ۱۰۷۷ ميلادية، و دخل بغداد فی سنة ۴۸۸ ه ۱۰۹۵ ميلادية، فقرأ الفقه و الأصول، و سمع الحديث، و اشتغل بالوعظ، و لازم الانقطاع و الخلوة، و أسند له الولاية. و عرف بالشيخ عبد القادر الكيلانی، و له مؤلفات كثيرة، كما ذكروا له كرامات و معاجز خصص لها كتب تنوف علی أكثر من ۳۰ كتابا. توفی فی بغداد سنة ۵۶۱ ه و قبره ظاهر يزار، و محلة تعرف بمحلة باب الشيخ نسبة له.

جاء فی النظرات ج ۲ ص ۹۱ الطبعة ۶- مطبعة الرحمانية فی مصر سنة ۱۹۳۰ م. تحت عنوان:

دمعة إلی الإسلام، يقول فيه:

إنه ورده كتاب من الهند يصف كاتبه مؤلفا موضوعه تاريخ حياة عبد القادر الجيلانی و ذكر مناقبه و كراماته و ما وصفه بصفات و ألقاب هی بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوة فضلا عن مقام الولاية.

كقوله: سيد السماوات و الأرض، النفاخ الضرّار المتصرّف فی الأكوان و المطلع علی أسرار الخليفة محيی الموتی و مبرئ الأعمی و الأبرص و الأكمه، و أمره من أمر اللّه ... إلی آخر تلک الألفاظ.

و هلم معی فاقرأ بقية الكتاب ص ۹۳ يصف الكاتب أمة من الناس يسجدون لقبر ينسب لأولاد عبد اللّه سجود رق من دون اللّه، و إن فی كل بلاد صورة مزار لقبر عبد القادر، فيكون القبلة التی يتوجه إليها المسلمون فی تلک البلاد الخ. أ صحيح هذا؟ نحن قرأنا كما قرأت و السلام.

كان يمسک عن الرضاع فی شهر رمضان نهارا، و لأنه صائم و رضاعه فی آخر الشهر دلالة علی هلال شوال!! و صادف أن غمّ الهلال علی الناس فی آخر الشهر، فسألوا أمه: هل رضع الیوم؟

قالت: نعم. فعلموا أنه العید!!! و بعض المصادر الصوفیة تروی ذلک علی لسان والدته التی یصفونها بأنها: لها قدم فی الطریق. و أنها قالت: لما وضعت ولدی عبد القادر کان لا یرضع ثدیی فی نهار رمضان، فأتونی و سألونی عنه؟ فقلت لهم: إنه لم یلتقم له ثدیا، ثم اتضح ذلک الیوم کان من رمضان «١».

لقد أدی إقبال العامة علی القصّاص، و وضوح أهداف مجالس القصّ فی تمجید الحکّام و الدفاع عن أصحاب القوة و النفوذ إلی ظاهرة أخری، هی التی نحن بصددها حیث نجمعها فی التأثیر السلبی مع القصاص.

و مع تباین الأغراض و النزعات فإننا إذا أخذنا بمقاییس البدعة و معاییر الأحداث، فإن ما یجمع بین هذه الأعمال هو تجاوز الحد و المبالغة فی السلوک، سواء فی الدفاع عن الظلمة و الکذب علی الرسول محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو فی تعظیم الأشخاص و نسبة الأمور العظیمة إلیهم و التقیّد بشعائر تخرج الإنسان المسلم من حال الاتّزان و القبول.

و لا تحول صفة الزهد و التقشف أو أغراض الوعظ دون نظرنا إلی النتیجة.

یقول الإمام الحافظ أحمد بن محمد بن الصدیق فی کتابه (فتح الملک العلی بصحة حدیث باب مدینة العلم علی): و قد نص السلف علی أن القصص بدعة، و أن التزهّد و التقشّف الخارج عن السنّة بدعة أیضا، فکان مقتضی هذا أن تردّ روایة کل زاهد و مذکر، و یعلق ذلک بزهده و تذکیره، لأنه وجد الکذب شائعا، و وصفوا بالبدعة کما هو حال الآخرین.

(فإن قیل): لم یصدر الکذب إلا من جهلة الزهاد و من لا تقوی عنده من القصّاص و الوعاظ.

---

(١) طبقات الشعرانی ج ١ ص ٩١.

(قلنا): و کذلک المبتدعة، فإنّا لم نجد الکذب شائعا إلا فی فسقتهم، و من لا یخشی اللّه منهم. أما أهل الدین و التقوی فوجدناهم فی نهایة الصدق و غایة التحرّز من الکذب. انتهی. و بما أن المصنف من أصحاب التصوّف، فهو لم یتطرّق إلی الکرامات، و تناول الجانب الذی یهمّ بحثه فقط، و قد کان متّصفا فی محاولته تطبیق الأحکام التی تصدر بفعل العوامل التی ذکرناها و الظروف التی بیناها من تسلط الحکام و تأثیرهم علی أصحاب الفتوی و الحدیث، و استخدام البدعة فی الاتجاه الذی ترغب به السلطة. فهو یذکر ما ورد فی ترجمة أحمد بن عطاء الهجیمی الزاهد. قال ابن المدینی: أتیته یوما فجلست إلیه، فرأیت معه درجا یحدّث به، فلما تفرقوا عنه، قلت له: هذا سمعته؟ قال: لا و لکن اشتریته و فیه أحادیث حسان أحدّث بها هؤلاء

ليعملوا بها و أرغّبهم و أقرّبهم إلى اللّه، ليس فيه حكم و لا تبديل سنّة. قلت له: أ ما تخاف اللّه، تقرّب العباد إلى اللّه بالكذب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟.

كما يذكر ما ورد فى ترجمة زكريا بن يحيى الوقار: كان يتهم بوضع الأحاديث لأنه يروى عن قوم ثقات أحاديث موضوعة قال: و الصالحون قد وسموا بهذا أن يرووا أحاديث فى فضائل الأعمال موضوعة، و يتهم جماعة منهم بوضعها «١».

و لقد ظلت الصوفية تحتفظ بعناصرها العلمية و فلسفتها، و هى كطريقة فى الحياة أو فى العبادة لا نتناولها، فلا يعنينا ذلک، فهى قد تكون من أصول قديمة أبعد من الإسلام، ثم تجددت بعد فجر الإسلام، فوجدت فى المنهج الحياتى للإمام على عليه السّلام خير تعبير عن اتجاهها، فجعلته القدوة. أو قد تكون إسلامية بحتة لها صفة العلم، و حمل ما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إن اللّه أعد لقبول ما جاء به الرسول أصفى القلوب و أزكى النفوس، فظهر تفاوت الصفاء، و اختلاف التزكية فى تفاوت الفائدة و النفع. و سوقهم حديث أبى حمزة الثمالى: حدثنى عبد اللّه بن الحسن قال:

حين نزلت هذه الآية: وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلى: سألت اللّه سبحانه و تعالى أن يجعلها أذنک يا على. قال على: فما نسيت شيئا بعد، و ما كان لى أن أنسى. قال أبو بكر الواسطى: آذان وعت عن اللّه تعالى أسراره «٢».

---

(١) فتح الملک العلمى ص ٦٠.

(٢) السهروردى، عوارف المعارف ص ١٢ و ١٣.

و حرصهم على الاتصال بالإمام على عليه السّلام شديد، حتى شملهم نصب ابن تيمية فتناولهم بلسانه و دبجت يراعه فى النيل، فهم جزءا من تراثه الحنبلى السلفى.

و أيا كان، فإن الكرامات و الأحوال و تناقل خوارق الأعمال، يؤدى إلى بقاء المتعلقين بهم فى حالة من ضعف الإدراک و وهن العزيمة، و طريقة أداء الأذكار قد شجعت على الحلول، و أدت إلى اعتقادات بعيدة عن الإسلام. و فى موضوع التصوف نتلمّس آثار القصّاص بمحاولات إبعاد طرق المتصوّفة أو حالات الزهد الكامل و التقشف المقبول عن أى صبغة شيعية. و الشيعة ليس لهم رغبة أو يد فى ذلک، لكن الكثير من طوائف المتصوفة مقيمون على ولائهم للإمام على و لآل البيت صلوات اللّه عليهم أجمعين، و عبر المراحل الزمنية و اختلاط المحدثين و القصاص بأهل الذكر، و تطور أحوال المتصوفة نبع بينهم من أصناف إلى «الهوس» أصلا «سيئا» حرصا منه، ثم انتهت المجالس إلى غاية بذاتها تفوق أو تعلو على أية غاية. لتكون مسرحا لرواية الخوارق، و إقامة الحركات، و الدقّ التى يعجز أى عاقل عن اختلاق أصل إسلامى لها.

و على أى حال، فلقد اشتد نشاط القصّاص، و أخذوا مكانتهم من السلطتين الزمنية و التشريعية، فهم ينشرون بين الناس أحكاما ما أنزل اللّه بها من سلطان، كما أنهم يتمتعون باحترام العامة و تقديرهم، لأنهم يمثّلون الجانب الروحى. و إلى جانب ذلك، لهم نفوذ إرادة، إذ الدولة تمنحهم رعايتها، و تعتنى بشئونهم، و قد استعملوا نفوذهم هذا ضد كثير من الطوائف و جماعات من الناس. و بدأت روح الاستياء تسرى فى جسم الأمة، و نمت خلال ذلك فكرة إيجاد مجالس لذكر اللّه و للوعظ، ليشغل الناس عن مجالس القصّاص، فاتجه الأفراد إلى هذا اللون الجديد. وصفها أبو طالب المكى بقوله: إن مجالس أهل العلم باللّه و أهل التوحيد و المعرفة، هى مجالس الذكر «١».

و تطوّرت هذه المجالس، و تسرّبت إليها يد القصّاصين، فتدخلوا فيها، و قد وضعت فيها أحاديث، و أحيطت بهالة من التعظيم و التقديس تشجيعا للناس و الالتفاف حولها، حتى أصبح لها بين العامة شأن من الشأن، و تعلقوا بها و جعلوا الحضور فيها

---

(١) أبو طالب المكى، قوت القلوب ج ١ ص ١٥٢.

من أعظم الطاعات و أفضل القربات، و تزاحم الناس على تلك المجالس، و لا ندرى هل استغل المتصوفة هذه الفرصة، و من هنا انتشر ذكرهم؟ و هل كان ظهور التصوف قبل انتشار هذه المجالس، أم أنه انطلق منها فكانت نقطة بداية؟ و من المستحسن هنا الإشارة إلى نشأة التصوف و تطوره، و كيف أصبح وسيلة لنشر الخرافات و بعث الحزازات.

و الذى يظهر أن بداية التصوف كان سنة ٢٠٠ ه فى الاسكندرية عند ما ظهرت طائفة يسمّون الصوفية، يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر فيما زعموا، و يعارضون السلطان فى أمره، و ترأس عليهم رجل منهم يسمى أبو عبد الرحمن الصوفى «١».

و يقول القشيرى: انفرد خواصّ أهل السّنة المراعون أنفاسهم مع اللّه تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، و اشتهر هذا الاسم بهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة «٢».

و أول من سلك طريق الملامة: أبو صالح حمدون بن عمارة القصّار المتوفى سنة ٢٧١ ه و كان يفضل أن يكون مظهره مظهر المذنبين على أنه يخشى أن يصرفه تعظيم الناس له عن اللّه.

و قيل: إن فكرة الملاقية قديمة، فقد وصفها أفلاطون فى أول الكتاب الثانى من الجمهورية، العادل: الحق الذى يظن الناس أنه ليس عادلا.

و كان التصوّف قد شغل ناحية هامة من نواحى الحركة العقلية الإسلامية، بل العالمية من جهة، و كان لأعلام مفكرى الإسلام كالفارابى و إخوان الصفا و ابن سينا و الغزالى و الحلّاج و ابن العربى فى التصوف آراء نظرية و خطط عملية.

و لسنا بهذا العرض نريد- كما قلنا- أن نتعمّق فى البحث عن التصوّف، و نشأته و تطويره فى مجال الفكر، و قد تناولت ذلک أقلام الكتّاب و المؤرخين. و الذى يغنينا هنا، هو أن نعرف كيف تطوّر التصوّف، و متى حصلت فيه تلک الآراء الخاطئة، و تحول إلى ادعاءات فارغة و وقوع أعمال منكرة، و قد أصبح ضرره على المجتمع لا يقل عن أضرار القصّاصين؛ بل ربما اختلط المنهجان، و انطلقا سوية فى طريق البعد عن كثير من المدّعين الصلة به، إذ أصبح فيه من الدخلاء و دعاة السوء ما تشوّه

---

(١) الكندى، الولاة و القضاة ص ١۶٢.

(٢) الرسالة ص ١٧.

حقيقته، و فتح على المجتمع حكايات خرافية و أساطير ادّعوا أنها دينية، و وضعوا أحاديث الرقائق، و يرون فى ذلک طاعة اللّه و نصرة الدين، و أصبحت فكرة الاتحاد أو الحلول خارجة عما كان يسلكه القدماء من طريق النور و البصيرة الذى لا يتيسر إلا بطريقة العبادة، فكثرت ادّعاءاتهم فى قربهم للّه، و وضع الكرامات الخارقة للعادة فى حق أصحابهم الذين لهم مراتب و أسماء و منازل و ألقاب تجعل منهم نظاما متكاملا فى الأفضلية و التأثير و المقامات و الدرجات، طالما تدخلت الأهواء الخاصة و الرغبات الشخصية فى إبرازها فى زمننا لتحقيق المصالح و التظاهر بالعظمة الروحية و الخصائص الذاتية التى تجعل له مقدرة على الأعمال فى أمور الدعاء أو الشفاء، و اللّه أعلم بسرّ تلک الحالات التى اشتهرت بين الناس و أصبحت عندهم بمستوى اليقين.

و إضافة إلى ما أدى إليه التصوف و ما قام على حالاته من اعتقادات و أفكار، فإن من دواعى الإشارة إليه فى كتابنا و فى هذا الموضع، تلک الأفكار التى وجدت مع البدايات، و لقد لمّحنا إلى الاختلاف فى أصل أو مصدر التصوّف، و كان هذا الاختلاف موضع نقاش واسع و كبير اختص به كتّاب كثيرون، و قد كان المتحاملون منهم يتّبعون الأسس التى وضعها المستشرقون للطعن فى الإسلام و الدخول إلى أفكار الطبقة المثقفة منهم بطابع جديد، و على الأخص أولئک الذين تلقّوا دراساتهم فى أروقة الغرب، و تلمذوا على أساتذة الجامعات الإنكليزية و الألمانية و الفرنسية و الأمريكية، و كان مذهب أهل البيت غرضهم الأول الذى وجهوا إليه سهام الاتهام، فاختلقوا الأفكار الساذجة التى لا تستقيم و لا تثبت أمام الحقائق المعروفة، فادّعوا أن موقع القيادة التى أحل بها الشيعة أئمتهم، و نظرة الاحترام و الإجلال التى أحاطوا بها زعماءهم من أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لها مصادرها الأجنبية. و فى ذلک خروج على المنطق، و تجاوز و تعدّ على أبسط قوانين البحث و النظر، احتاج دحضه و الردّ عليه إلى جهود كبيرة، و ذلک لاتساع الجهات التى تولّت القول، و نصبت نفسها بالنيابة عن أعداء الأمة لترويج هذه الأقوال، و قد جئنا على بعضها فى الأجزاء السابقة من الكتاب، لكن الملاحظة الهامة أن أتباع الغرب من أبناء اليوم أو غيرهم من حشوية السلف و عاشقى الجمود لا يصرّحون بالتجريح، و يتردّدون فى الشتم و الاتهام فى عرضهم لحالات الهوس، و الأفكار التى جعلتنا نضمّ نتائج التصوف إلى العوامل التى أدت إلى تخلف و فرقة شديدين. و لا بد أن نذكر أن «الشيخ» ابن تيمية يكشف فى رده

ص: ۸۴

على ابن عربى و محتويات كتابه «فصوص الحكم» عن غرضه الحقيقى، و هو تناول الشيعة و الإساءة إليهم، إذ ينسب كبارهم كالتلمسانى و ابن سبعين إلى الفرق الغالية التى اقتضت الأغراض السياسية أن تحسب على الشيعة و تقرن بالإمامية، و كان يكفى «لشيخهم» ابن تيمية ذرّة من إنصاف أو اطلاع و تحقيق ليعلم الفرق، و لو تخلى لحظة عن مرض الحقد الأعمى، و أنصت إلى ما يقوله الشيعة عن مذهبهم، لبعد عن الزلل و الخطأ الذى هو فيه و لو بقيد شعرة.

و عندنا أن حالات الحلول و المعتقدات الأخرى التى اتّسم بها التصوف، تعود إلى الوضع النفسى الذى يتخلل أوقات القيام بطقوس الصوفية، و هى لا شک متفرعة عن تصرفات أشياخهم الأوائل الذين فى نظرهم أمسكوا بأصول المعرفة و مفاهيم المحبة الإلهية، و راحوا يبيحون لأنفسهم تصرفات و أفعالا غزت عقول مريديهم، و حجبت الأصول الحقيقية و المفاهيم الجلية التى سنطّلع عليها فى مظانّها الصافية و مصادرها النقية عند رجالات أهل البيت النبوى، و موقع الإمام الصادق عليه السّلام فى هذه السلسلة.

و نقف قليلا لنوضّح بموجز من البيان منشأ كلمة الصوفى فى الإسلام، و مبدأ اشتقاقها، فإنا نجد هناک زخما من الأقوال فلا حاجة للبسط فى ذلک، و لعل أهمها أنها نسبة إلى الصفّة الأولى التى كان المتنسّكون يجتمعون عليها فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أكثرهم من الفقراء، حتى نسب إليها جماعة فيقال فلان من أهل الصفة، و الصفة مكان فى مسجد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند يمين الداخل من باب جبرئيل، و هناک قوم يقولون أنها نسبة إلى الصفاء- كما قلنا سابقا- أو انها نسبة من صافا ربّه فصوفى، و قيل أنها الصف الأول فى الصلاة، و قيل نسبة إلى بنى صفة. و فريق يقولون إنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هى صوفينا و معناها الحكمة، فيكون الصوفية قد لقبوا به نسبة إلى الحكمة لأنهم كانوا يبحثون فيما يقولونه بحثا فلسفيا، و آخرون يقولون نسبة إلى الصوف الذى اشتهر المتنسكون به، و قد اختار هذا الاسم جماعة منهم.

و نجد التنسّک فى الإسلام حيث تنسّک جماعة من الصحابة فى عهد النبى و عرفوا به كأبى ذر و حذيفة و أويس القرنى و غيرهم. و كان المتصوّفون فى أول نشأتهم يتنسّكون و يتعبّدون من دون إطلاق لتسمية المتصوّفة عليهم، لأن تنسّكهم و زهدهم من وجوه إيمانهم بأحكام القرآن و عقائد الإسلام، و هو ما كان سبب مأساة أبى ذر

ص: ۸۵

الذى قصد إلى تطبيق نظام الإسلام و ضمان حق الفقراء. و تمسک بمبدإ الآخرة و زوال الدنيا، فكان شعاره قول اللّه سبحانه و تعالى: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ فامتدت إليه يد الأغنياء. و رمته فى أحضان حكم معاوية، فكان لا يخفى إنكاره لما فيه معاوية من بذخ و ترف يتعارض مع الإسلام، و زاد على ترديده قول اللّه، قوله لمعاوية جهارا: إن كان ما أنفقت من مال اللّه فهو خيانة، و إن كان من مالک فإسراف.

و لقد أدت أوضاع الدعوة فى زمن الرسالة و ضرورات نشر الدين إلى معاناة كبيرة و تضحية بالغة شملت الأهل و المال و المسكن، فقد كان أهل الصّفة (غرباء فقراء مهاجرين أخرجوا من ديارهم و أموالهم) و وصفهم أبو هريرة و فضالة بن عبيد فقالا:

يخرّون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين، و كان لباسهم الصوف حتى أن كان بعضهم يعرق فيه فيوجد منه ريح الضأن إذا أصابه المطر. هذا وصف بعضهم لهم حتى قال عينية بن حصن للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أنه ليؤذينى ريح هؤلاء، أ ما يؤذيک ريحهم؟

و المتصوفة يتمسّكون بنسبتهم إلى حال أهل الصّفة، و أن التسمية منها، غير أن ذلک لا يتفق مع اللغة، و تأباه قواعد الصرف. أما النسبة إلى الصوف فقد تكون من حيث اتفاقها مع قواعد اللغة و التاريخ هى الأصح. و لا نعنى بالقطع و اختيار أحدها على وجه اليقين، فليس لذلک أهمية فى نظرنا، و قد يخرج عن صلب البحث. كما أن الصوفية يريدون أن يجمعوا بين كل التسميات، و ربطها بالصّفة و الصوف اللذين يتوحّدان فى نظرهم، و من نسبهم إليهما فإنه عبّر عن ظاهر أحوالهم، و ذلک أنهم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان، و هجروا الأخدان، و ساحوا فى البلاد، و أجاعوا الأكباد، و أعروا الأجساد، لم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه من ستر عورة و سدّ جوعة «١».

و نختصر القول فى نصّين كليهما لأحمد أمين، لأنى فى دار الغربة و الابتعاد عن الوطن حيث دارى و مكتبتى، أعانى معاناة لا يعرفها إلا اللّه من توفير ما احتاج إليه من ضرورات البحث و أمهات المصادر التى كانت متيسرة فى دارى فى النجف الأشرف، و أنفقت بين رياض الأفكار الشطر الأوفى من عمرى، كان حصيلته الأجزاء الستة

---

(١) انظر: أبو بكر محمد الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٩، ٣٠، ٣١.

الماضية من كتاب الإمام الصادق و المذاهب الأربعة و مخطوطاتى الأخرى. ناهيک عن و هن البدن و ضعف البصر حتى الكلل. لک الحمد اللهم أولا و آخرا.

يقول أحمد أمين: و من ناحية أخرى تغالى الصوفية فى الأعمال النفسية الروحية، و لم يضغطوا ضغطا كافيا على الأعمال الظاهرة، فكان هناک فقهاء و صوفية، و عداء بين الفقه و التصوف. الصوفية يرمون الفقهاء بأنهم لا يعبئون إلا بالقشور من مظاهر الأمور، و الفقهاء يرمون الصوفية بأنهم غلوا فى أحوال الروح أكثر مما كان يعرفه الإسلام و سمّوهم أهل الباطن «١».

و يقول الدكتور أحمد أمين: و كان التصوّف يغلو فى الباطن، و كان مرتعا خصبا للخرافات و الأوهام و التحرّر من الشعائر، و ارتكاب الموبقات، و اخترعوا بجانب التصوف الموسيقى و الذكر و الشطح و الرقص و غير ذلک، و كان لهم أثر كبير فى النظام الاجتماعى المتهافت، و كان من نتائج الصراع الشديد بين الفقهاء و المتصوّفة أن آل الأمر إلى سجن بعضهم «٢».

و هذا ما يكشف لنا جانبا من جوانب الصراع الحاد، مما يحدث رد فعل فى نفوس أكثر الناس، فالمتصوفة سلكوا الجانب الروحى ادّعاء، و دعوا الناس إلى الاعتقاد بما لا يقبله العقل و لا ينطبق مع نظم الإسلام، و أصبح جانب التصوّف يدعم تلک الخرافات التى انثالت على المجتمع بسمّ قاتل، و كانت تلک الرباطات مصدرا لأمور لا رابطة لها بالإسلام. و وجهوا الناس إلى

تعظيم قبور من يسمونهم بأولياء على طرقهم المعروفة و أساليبهم الخاصة، يكمل هذا و ذاک ادّعاءات الأحداث و الأفعال للأموات و الأحياء الذين يتّصلون بهم، فتسود حالة من الإيمان بقدرات المخلوقين و الاعتقاد بكرامات أوليائهم، و تتحجّر الأذهان و الأفهام على ألوان من الإيحاء التى يستفيد منها الذين يحتلّون الصدارة.

و فى وسط فوضى القيام بأعمالهم و أشكال طرقهم، كان الناس يساقون إلى مستويات عقلية واهية، و يرفعون إلى مهاوى الجهل كما علمنا سابقا و مرّ بنا فى ثنايا البحث.

---

(١) ظهر الإسلام ٢/ ٥٧.

(٢) أحمد أمين، يوم الإسلام ١٠١.

خلاصة البحث

إن روح العداء التى سقط بها المجتمع فى مخالفة صريحة لأحكام الشريعة و تعاليم السنة النبوية، تظافر على ظهورها عوامل عديدة و أسباب شتى، كانت يد المصالح الخاصة و أغراض السلطان هى الأقوى و الأغلب.

و من عوامل نجاح الدعوة إلى القضاء على محاولات استمرار العداء و الانقسام، قيامها على التحقيق و التثبّت و الابتعاد عن حمى الفرقة و داء التعصب الذى ما زال ينخر فى نفوس بعض الناس فى عصرنا الحاضر.

و قد بحثنا الجمود الفكرى، و اطلعنا على آثار الجهل و نتائج مقاومة روح العقل و حرية الأفكار، و كيف التقت مصالح الحكام و أصحاب السلطان مع ذوى النفوذ و المكانات، و اجتمعت الجهود و الطاقات للوقوف بوجه انفتاح آفاق الفكر، و أسهم كلّ من موقعه و مسئولياته فى محاربة أصحاب الأفكار و العقائد، و احتل التعصب المنزلة العالية لدى الذين يخشون آراء الناس و إطلاق حريتهم، و تكوّنت لدى السلطان و الحكام فكرة تحدّد الخطر فى جهة النظر و الاعتماد على الفكر، و تماسكت فى العهد العباسى الأجزاء التى أوجدها الحكام المتسلّطون منذ أن انحرفوا بالنظام الإسلامى و استبدّوا بالحكم بعد الإمام على عليه السّلام و أصبحت مساهمتها فى إرساء الظلم أعظم من السابق، فإننا نلاحظ أن معاوية كان يملى إرادته دوما على فقهائه و خطبائه و المنضمّين إلى سلطانه، أما فى حكم بنى العباس فقد بات الاتجاه إلى تأسيس المذاهب أولا، و كانت العلاقات متبادلة و متوازنة فى كثير من الأحيان بين تدخل الخليفة و رأى رجال الفقه، ثم برز على السطح من استهان بروابط العقيدة و روح الأخوة فى الدين و أغرته السلطة بمنافعها و ملاذها.

كذلک بحثنا مسألة خلق القرآن، و هی من أعظم المشاکل و أشدّها تعقیدا، و من وجوه تعقیدها أن تحسب من عوامل الانحطاط فی المجتمع، و من أسباب دفعه إلی التفرقة، فهی قد تکون مشکلة تتجه إلیها الأفکار و تعقد حولها المناظرات لتکون مادة تسلک بها مسالک الاستدلال و طرق الاستنتاج، و تقابل الحجة بالحجة، و یلاقی الرأی بالرأی علی منهج التیارات الفکریة التی ظهرت فی تلک المرحلة، و تمثلت فی أفکار و اعتقادات کان حافزها الدفاع عن الإسلام و دحض افتراءات أهل الکتاب. لکن أغراض أهل الحکم و السلطان جعلتها کبقیة الأفکار و التیارات، و سلبتها میزتها و أهم خصائصها، فباتت واحدة من أسلحة الخلفاء التی تنتهک بسببها الحرمات و الأموال و الدماء، و أحدثت نتائج بالغة الضرر ترتّبت علی أسالیب السلطة الملتویة و السیئة فی تبنّیها لأفکار المعتزلة، و قد أشرنا إلی مسئولیة رجال العقل من المعتزلة فی ذلک و کأنهم التذّوا بالسلطة کما التذّ بها من سبقهم.

و کانت مرحلة المأمون و خلفیه، قد أدت إلی زیادة و ترسیخ علاقة العامة بالسلطة، و استسلامها للنظرة التقلیدیة التی عمل علی رسمها بصفتها الدینیة و صلاحیاتها الواسعة رجال متعددون، ارتبطوا بالخلفاء، و أذعنوا لرغبات الحکام فکانوا من أسباب الفرقة و حمایة الظلم.

ثم اخترنا قضیة البدع و الضلالات، و التی أصبحت تطلق بلا روية، و تخضع للأهواء حتی شملت الطوائف جمیعها.

کما اخترنا من عوامل تخلف المجتمع و انقسامه مسألة القصّاص و دورهم فی استماله العامة و خدمة الحکام و جبروت الملوک، ثم ألحقنا بهذا العامل- من حیث التأثیر- قضیة التصوّف و ما أدت إلیه من مستوی عقلی یتقبّل الخرافات و یقبل علی الأوهام.

و من یبحث یر أمورا أخری عملت فی جسم المجتمع تمزیقا، و دفعت به إلی مهاوی التخلف. غیر أنّا اخترنا هذه العوامل من غیر أن ننکر دور العوامل الأخری، و هی فی عمومها ما زالت آثارها باقیة حتی الآن نسعی- و اللّه من وراء القصد- إلی إظهار ظروف قیامها و تحکیم العقل و النظرة الواعیة التی تسمو عن التعصب و الجهل لنعود إلی أصول العقیدة، و البحث المنصف یسهم بتحقیق هذا الهدف، لأن الکشف

عن ملابسات وجود هذه العوامل، و التأکید علی حقائق قیامها، من أهم أسباب النجاح فی إدانة الطائفیة و التخلی عن التعصب و العناد.

و قد بحثنا مشکلة خلق القرآن، و طرفا من أثر القصّاصین و الوضّاع فی عقول العامة فی الجزء الأول من کتابنا، و زدنا هنا ما اقتضته ضرورة البحث و متطلبات اکتمال کل جزء من الأجزاء الأخیرة السابع و الثامن بمواد البحث المطلوبة التی تتیح الفائدة. و فی هذا الجزء مهّدنا من خلال التطرّق للبدع التی طرأت علی الصوفیة إلی التفسیر الصوفی لسیرة الأئمة الأطهار.

الإمام الصادق و التفسير الصوفى

من الأمور التى ثبتت و استقرت على أسسها، و احتفظت بملامحها الأصلية، و قاومت موجات العداء، هى سيرة الأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم أفضل الصلاة و السلام، فظلت شخصياتهم الفذّة مصادر إلهام تستمدّ منها الأمة العبر و الدروس، و تتأسى بمواقفها و تجربتها. و بقى الشيعة يتلقون أمور دينهم من هؤلاء الرجال الذين تعرضوا لمختلف أنواع المحن و ضروب التجارب القاسية، فرسم الأئمة عليهم السّلام لمحبيهم و أتباعهم فى كل مرحلة طريق العمل، و وضعوا لهم سبل النجاة من خلال نماذج سلوكية و مواقف جهادية و فكرية تنير الطريق أمام شيعتهم، و هم يعانون الويلات على أيدى الحكام و الملوك و أصحاب السلطان و الجبروت.

و لا تحتكر الشيعة طرق الاتصال بتاريخ الأئمة الطاهرين، و لا تدّعى اختصاص الأخذ عن تراث و أحكام أهل البيت بأحد، بل يرون أنهم رجال الإسلام و أعلام الهدى الذين تتجه رسالتهم إلى كل الطوائف من المسلمين، و تسع تعاليمهم جميع المسلمين.

و قد واجه الشيعة حملات ظالمة، و موجات عنيفة تزعّمها رجال مختلفون على مرّ العصور، و إن لم تكن على هيئة حملات الحكام و موجات ظلمهم المتكررة ضد أهل البيت و أتباعهم، و ما يعنى ذلک من ألسن ترقى منابر يفترض أن تقوم بمهمات المنبر المحمدى، و قصاصات و مراسيم، و جنود و دماء و أسلحة تلاحق أهل البيت و شيعتهم. إلا أن الحملات التى يقوم بها نفر بين فترة زمنية و أخرى، و بين مرحلة و مرحلة، تجد لها آذانا صاغية لما تتستّر به من مراكز احتلتها بفعل ظروف سياسية و اجتماعية غلب عليها الطابع الدينى، و قد مهروا فى دفع العامة إلى الإيمان بأقوالهم

ص: ٩٢

و الاعتراف بوجهات نظرهم التى هى فى حقيقتها غير سليمة لقيامها على الاجتراء و التحكم. و قد تطرّقنا إلى ما انتهى إليه التصوّف من طقوس أسهمت فى تخلف العامة، و تشجيع ظهور حالات يؤدون بها حركات تخرجهم عن الاتزان و السلامة، أو ادّعاء الكرامات التى يرافقها بيان و شرح تجعلها بمستوى المعجزات.

فكانت هذه النهايات فى المتصوفة، إضافة إلى الأفكار و المعتقدات التى تأولوها عن شواهد و أحداث لآل بيت الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مادة تعميق الانقسام فى المجتمع الإسلامى، و تأكيد الفرقة بين السنة و الشيعة و ذلک لضياع التحقيق و فقدان التدقيق.

و لئن أدت حركة العلم و النشاط الفكرى إلى اختلاط و تداخل بين دوائر الشيعة الفكرية و بين المعتزلة، فقد حسمتها دلائل كثيرة مادية و معنوية فى الفكر و التصرف، و بات واضحا لكل ذى بصر ينظر بتجرد، أن تشابه المناهج و تقارب المنحى الفكرى بين الشيعة و المعتزلة، لا يعنى اتحادهما المطلق أو تشابههما التام، و مع هذا بقيت إلى يومنا هذا، كمثل قضية تشيّع ابن أبى الحديد شارح كتاب نهج البلاغة، و عدم الالتفات إلى اعتزاله، و ما ينطوى ذلک على أمور لا تقرّها الشيعة، و ما ذلک إلا من نتائج إغفال التحقيق و إهمال أمانة البحث. و إلا فإن أصول التشيّع تقترن بأصول الدعوة الإسلامية وجودا و مضمونا، و كان أهل البيت من أئمة الشيعة قد امتازوا عبر كل عهود الحكام- و قبل ظهور تيارات الجدل و الكلام- برعاية الفكر و تحفيز الرأى

فی حدود الشریعة و الأحکام، و ضرورة العقل. و کانت مدرسة الإمام الصادق علیه السّلام من أعظم صروح الفکر الإسلامی، لما اضطلعت به من نشاطات و مهمات تعنی بالفکر و الدین، و قد تقدمت الإشارة فی الأجزاء السابقة من الکتاب- و سنأتی علی ذکرها فی موضعها فی الجزء الثامن إن شاء اللّه- إلی اتصال رجال المعتزلة بالإمام الصادق علیه السّلام و لقد أصبحت مسألة تأثر الشیعة بالمعتزلة و أخذهم عنها من جملة المحاولات التی ترمی إلی الإساءة إلی مذهب الشیعة، و التقلیل من شأنه، فالنظرة العجلی تظهر الحقائق، فما ظنّک بالتحقیق و رعایة الأمانة؟

فما المعتزلة إلا تیار لا یختلف عن بقیة التیارات التی تهب بعوامل مختلفة لفترة معینة، و قد نمت فی ظل المماحکات و المناظرات، و قامت علی أسس المناظرة و الجدل، فهی فی إطار الکلام و فی مناحی العقیدة، تمثل مجموعة من الأفکار و النشاطات التی تتصل بالعقیدة، و القصد منها الردّ علی جهات داخل صفوف الأمة

ص: ۹۳

الإسلامیة أو خارجها، و تبنّی اعتقادات جدیدة و اجتهادات فی الجزئیات و الفروع و أقوال فی الصفات، إلی غیرها من أبواب نشاط المعتزلة، و لا ندری کیف یسمح لنفسه منصف أن یجعل الشیعة بفکرهم و بفقههم و برجال مذهبهم من أئمة الهدی و سادة أهل البیت تابعا و متأثرا بالمعتزلة، الذین کان أفضل رجالهم تبعا لأفکار الشیعة. و هو ما تمیّزت به مدرسة بغداد الاعتزالیة. و لقد کان من أخص الخصائص فی وجود الشیعة تاریخیا و دینیا، استقلالهم بالفقه و الروایة، و قیام أسسها علی مدرسة أهل البیت الطاهرین علیهم أفضل الصلاة و السلام. و ما انتظم فکر المعتزلة من قضایا رئیسیة انطوی فکر الشیعة علی أصولها و أمهاتها قبل أن تستجد عوامل انبعاث تیار المعتزلة و ظهور أصولهم التی نادوا بها.

و فی الحقیقة، فإن قضیة العلاقة بین الشیعة و المعتزلة، تبقی قضیة من قضایا الفکر، تبرز فی مستویات للبحث تستلزم الأمانة و تتطلب الموضوعیة، و أی تناول یزلّ عن غرض العلم، و یلجأ إلی أسالیب التهجّم و الاتهام، یفضح دوافعه و یعری أغراضه، و لهذا وجدنا الکثیر من الباحثین المعاصرین، یتناولون القضیة بطابعها الفکری و فی حدود ظروف قیامها، و انتهاء تیار المعتزلة و بقاء طائفة الشیعة.

أما القضیة ذات الخطر الجسیم، فهی قضیة التصوف التی قصد فی کثیر من استخداماتها إلی الطعن بالشیعة، و إبقاء الخلط بین الفرق التی تحسب علی الشیعة، و بین طائفة الشیعة الإمامیة.

یقول ابن تیمیة فی ردّه علی ابن عربی:

(ما تضمّنه کتاب «فصوص الحکم» و ما شاکله من الکلام فإنه کفر باطنا و ظاهرا، و باطنه أقبح من ظاهره. و هذا یسمی مذهب أهل الوحدة و أهل الحلول، و أهل الاتحاد، و هم یسمون بالمحققین ... فأقوال هؤلاء و نحوها باطنها أعظم کفرا و إلحادا من ظاهرها، فإنه قد یظن أن ظاهرها من جنس کلام الشیوخ العارفین أهل التحقیق و التوحید.

و أما باطنها فإنه أعظم کفرا و کذبا و جهلا من کلام الیهود و النصاری و عبّاد الأصنام.

و لهذا فإن كل من كان منهم أعرف هؤلاء بهذا المذهب و حقيقته، كان أعظم كفرا و فسقا.

ص: ۹۴

كالتلمسانى، فإنه كان من أعرف هؤلاء بهذا المذهب، و أخبرهم بحقيقته.

فأخرجه ذلک إلى الفعل، فكان يعظّم اليهود و النصارى و المشركين، و يستحل المحرمات، و يصنف للنصيرية كتبا على مذهبهم، يقرّهم فيها على عقيدتهم الشركية.

و كذلک ابن سبعين كان من أئمة هؤلاء، و كان له من الكفر و السحر الذى يسمى «السيميا» و الموافقة للنصارى و القرامطة و الرافضة ما يناسب أصوله) «۱».

و لا نحتاج إلى بيان القصد عند ما أوضح ابن تيمية و جاء على أسماء الفرق ليجعل من إدراجه «الرافضة» بهذا الشكل دلالة على لون من ألوان نيله من الشيعة، و كم له من نصوص لا يتردد فيها فى ذلک دون روية أو معتمد أو مسوّغ.

أما ابن خلدون، فهو أيضا من أبطال الدعوة و رجال الحملة الظالمة على الشيعة، و كغيره من الذين استسلموا لأسلافهم، و لعبت بعقولهم الأهواء، يجد فى الصوفيّة مادة للطعن على الشيعة و يساهم فى إثارة الغبار الذى يحجب الفوارق و الحدود بين الشيعة و من ينسب إليهم، و لو طبقت المناهج المحدثة التى استمدّت من ابن خلدون أفكارها الاجتماعية على هذا الجانب، لأصبحت قضية ما يحمل على الشيعة و ما يتّهمون به من الأفكار الغالية و الحلولية من أسس مناهج البحث التأريخى المعاصر، و لأدى تطبيقها إلى زوال ما ألصق بالشيعة ظلما، غير أن ابن خلدون اتّخذ حجة و علما فى فن- كما يرون- و أسهم فى أمر لا يقوم على فن أو شىء من الصحة، فمتى كان التعصب علما، و متى كان الهوى منهجا؟ فما التعصب إلا من صور الجهل، و ما الميل إلى الهوى إلا من قلة الإدراک، و لكنها إرادة الحكام و سياساتهم فى التأثير على أفكار العامة، و حملهم على الاعتقاد بأن كلما يصدر عن السلطان هو الحق، و ما يقوم به حاكم الزمان هو العدل، فكان ابن خلدون و غيره من خدمة حضرات الملوک و المتزلّفين لكراسى السلاطين من الدعاة إلى ذلک. فانظر مقدمة مقدمته و ما خلع من ألقاب على الذين جعلهم كعبة تطلعه و مهوى أحلامه، و لقد كان أبعد الناس عن منهج التاريخ الذى أورده فى فصل علم التاريخ، لأنه راعى الملوک فى دولهم و الحكام فى سياستهم على مدى الأقطار، فأخلاقه تجعله يمدّ لكل حاكم يدا لأجل أن يستقرّ يوما فى أحد الدواوين أو يضمّه أحد القصور، و ما التزم بما قال من أن فن التاريخ (محتاج

---

(۱) ابن تيمية، الصوفية و الفقراء ص ۴۴ و ۵۵.

ص: ۹۵

إلى مآخذ متعددة و معارف متنوعة و حسن نظر و تثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق و ينكبان به عن المزلات و المغالط).

يقول ابن خلدون:

(ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوّفة، المتكلمين فى الكشف و فيما وراء الحسّ توغّلوا فى ذلک، فذهب الكثير منهم إلى الحلول و الوحدة كما أشرنا إليه، و ملأوا الصحف منه، مثل الهروى فى كتاب المقامات له، و غيره، و تبعهم ابن العربى و ابن سبعين و تلميذهما ابن العفيف، و ابن الفارض، و النجم الإسرائيلى فى قصائدهم، و كان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة، الدائنين أيضا بالحلول و ألوهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، و اختلط كلامهم، و تشابهت عقائدهم، و ظهر فى كلام المتصوّفة القول بالقطب و معناه رأس العارفين) «١».

لقد حاولنا الاقتصار على بعض أهم الأمور التى لا بد منها فى تناولنا للتصوف، و على أبرز الجوانب التى جعلوها فى طرقهم، و قلنا فى السابق أنهم أوجدوا لهم نظاما متكاملا على رأيهم حسب المراتب و الدرجات و المقامات و الأحوال، كالمريد و الغوث و القطب و الأبدال. و هى منازل وضعوا رجالهم بها، اصطلحوا على خصائصها، و اتفقوا على ماهيتها بحسب تكوين عقائدهم، و ظروف نشأتهم و مع وضوح اختصاص المراتب بالتدرج الذى يدخل فى أساليب الدعوات السرية و التعاليم الباطنية، فإن ابن خلدون يرى أن ذلک هو ما تقوله الشيعة فى النقباء.

يقول ابن خلدون:

(و هذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية و لا دليل شرعى، و إنما هو من أنواع الخطابة، و هو بعينه ما تقوله الرافضة، و دانوا به، ثم قالوا بترتيب وجود الإبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة فى النقباء، حتى أنهم لمّا أسندوا لباس خرقة التصوّف ليجعلوه أصلا لطريقتهم و تخليهم، رفعوه إلى على رضى اللّه عنه، و هو من هذا المعنى أيضا، و إلا فعلى رضى اللّه عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية و لا طريقة فى لباس و لا حال؛ بل كان أبو بكر و عمر رضى اللّه عنهما أزهد الناس بعد

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩۶.

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أكثرهم عبادة، و لم يختص أحد منهم فى الدين بشىء يؤثر عنه فى الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة فى الدين و الزهد و المجاهدة، يشهد لذلک من كلام هؤلاء المتصوفة فى أمر الفاطمى و ما شحنوا كتبهم فى ذلک مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفى أو إثبات، و إنما هو مأخوذ من كلام الشيعة و الرافضة و مذاهبهم فى كتبهم و اللّه يهدى إلى الحق) «١».

و يضطرنا تحامل ابن خلدون فى الأمور الاعتقادية و التاريخية التى تخص الشيعة، إلى مناقشته بنصوصه، و الجدير بالذكر، أن تحامل ابن خلدون كان من أسباب أقدامنا على تأليف الكتاب، فهو يقول عن مذاهب الشيعة فى حكم الإمامة (إن الإمامة ليست

من المصالح العامة التى تفوّض إلى نظر الأمة، و يتعين القائم بها بتعيينهم، بل هى ركن الدين و قاعدة الإسلام، و لا يجوز لنبى إغفاله و لا تفويضه إلى الأمة) «۲».

و لنوضح أن لا حجة و لا دليل لابن خلدون فى الربط بين عقائد الشيعة و أقوال المتصوفة عن رجالاتهم و النظام الذى وصفوهم فيه:

۱- إن أمر الرسالة يحتاج إلى دوام فى الدعوة، و بقاء فى التوجيه يقوم على ميزات و صفات تتصل بصاحب الرسالة و القائم بالدعوة، و تنتمى إليه فى التوجه و المضمون، لذلک فهى من أركان الدين. و حديثه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من مات و لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» و يروى: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية» صريح فى الدلالة على وجوب معرفة الإمام لأغراض الدين و استيضاح الأحكام.

لذلک نرى الإمام أمير المؤمنين يقول: «و إنما الأئمة قوام اللّه على خلقه، و عرفاؤه على عباده، و لا يدخل الجنة إلا من عرفهم و عرفوه، و لا يدخل النار إلا من أنكرهم و أنكروه».

و قد كان الإمام على عند ما آلت إليه الخلافة، قد أرسى حكمه على نظام الإمامة لأنها أقرب إلى جوهر الإسلام، و تمثل سلطانه الروحى. قال اللّه تعالى: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا «۳» و قال اللّه تعالى: إِنِّى جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى قالَ لا يَنالُ

---

(۱) أيضا ص ۳۹۷.

(۲) المقدمة أيضا ص ۱۶۴.

(۳) سورة الأنبياء، آية: ۷۳.

عَهْدِى الظَّالِمِينَ «۱» و قد أوضح الإمام على عليه السّلام الحالات التى تخرج صاحبها عن حدود رعاية الدين عند ما بيّن أصناف الناس فى حديثه لكميل بن زياد، و بيّن أصل الإمامة الدينى حيث قال: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم للّه بحجة إما ظاهرا مشهورا و إما خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج اللّه و بيناته، و كم ذا و أين أولئک، أولئک و اللّه الأقلّون عددا، الأعظمون عند اللّه قدرا، بهم يحفظ اللّه حججه و بيناته حتى يودعها إلى نظرائهم، يزرعوها فى قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، و باشروا روح اليقين، و استلانوا ما استوعره المترفون، و أنسوا بما استوحش منه الجاهلون، و صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئک خلفاء اللّه فى أرضه و الدعاة إلى دينه» «۲».

كما أوضح الإمام أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام أن الضلال فى عدم التعرّف على الإمام، فلما سئل عليه السّلام: ما أدنى ما يكون به الرجل ضالا؟

قال عليه السّلام: «أن لا يعرف من أمر اللّه بطاعته، و فرض ولايته، و جعله حجته فى أرضه، و شاهده على خلقه».

فإذن، اتصال الإمامة بشئون الدين و أصوله يجعلها من أركان الدين، فهى لحفظ الشريعة و تدبير أمر الناس و استمرار الدعوة إلى الهدى و الإيمان و النيابة عن صاحب الأمر و إبقاء مقام النبوة من حيث بيان الأحكام و إيضاح علوم الشريعة و حفظ السنن، و الفرائض و الدعوة إلى الحق و العمل بالصدق.

فالأئمة عليهم السّلام هم الأوصياء و ورثة الأنبياء الذين خصّهم اللّه بالكمالات و العصمة، فقال الإمام الصادق عليه السّلام: «أمر اللّه كل واحد من الأئمة أن يسلّم الأمر إلى من بعده».

يقول الفضل بن شاذان فى الجواب عن علة نصب الأئمة و الأمر بطاعتهم: أن الخلق لما وقفوا على حدّ محدود، و أمروا أن لا يتعدّوا تلك الحدود لما فيه من فسادهم، لم يكن يثبت ذلک و لا يقوم إلا بأن يجعل عليهم فيها أمينا يأخذهم بالوقف عند ما أبيح لهم، و يمنعهم من التعدّى على ما خطر عليهم، لأنه لو لم يكن ذلک، لكان أحد لا يترک لذته و منفعته لفساد غيره، فجعل عليهم قيما يمنعهم من الفساد

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ۴/ ٣١١. و حلية الأولياء ١/ ٨٠.

و يقيم فيهم الحدود و الأحكام. و فيها: أنا لا نجد فرقة من الفرق و لا قلة من الملل بقوا و عاشوا إلا بقيّم و رئيس لما لا بد لهم منه فى أمر الدين و الدنيا، فلم يجزى فى حكمة الحكيم أن يترک الخلق مما يعلم أنه لا بد لهم منه، و لأقوام لهم إلا به، فيقاتلون به عدوّهم، و يقسّمون به فيئهم، و يقيمون به جمعتهم و جماعتهم، و يمنع ظالمهم من مظلومهم. و منها إنه لو لم يجعل لهم إماما أمينا حافظا مستودعا لدرست الملة، و ذهب الدين، و غيّرت السنن و الأحكام، و لزاد فيه المبتدعون، و نقص من الملحدون، و شبّهوا ذلک على المسلمين، إذ قد وجدنا أن الخلق منقوصون محتاجون غير كاملين مع اختلافهم و اختلاف أهوائهم، و تشتت حالاتهم، فلو لم يجعل فيها قيما حافظا لما جاء به الرسول الأول، لفسدوا على نحو ما بيناه، و غيّرت الشرائع و السنن و الأحكام و الإيمان، و كان فى ذلک فساد الخلق أجمعين .. الخ «١».

٢- إن أمرا بمثل هذه الأهمية و على مثل هذه الصفة الدينية، لا يمكن أن يهمله النبى المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فحوى الاختلاف هى التى تعيّن الصفة الدينية أو الصفة الزمانية، لأن الأخذ بالوصية وفق منظور الأئمة، و الهداية الدينية يجنّب الأمة ما انتهت إليه الأحوال فى عهد بنى أمية أو بنى العباس. و لا يدع مجالا لغلبة الأهواء أو تحكّم المصالح، و عندنا أن الناس

عند التحاق النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالرفيق الأعلى و انقطاع الوحى بموته، لم يكونوا جميعهم على درجة واحدة من الإيمان، بل كانت المدينة المنورة و الجزيرة العربية تضمّ أناسا من الذين أسلموا فحسب، و آخرين من المنافقين و ذلک بنص القرآن و شهادة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال اللّه تعالى: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٢» و قال سبحانه:

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ «٣».

و قال تعالى أيضا: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً و قال: يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي

---

(١) علل الشرائع.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٤٩.

(٣) سورة المائدة، آية: ٥٢.

الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا «١» و قال تعالى:

وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ «٢» صدق اللّه العلى العظيم.

ثمّ هل تخفى على ذى عقل دلالة ما نزل به جبرائيل أن يكون إشهار البراءة و إعلان انتهاء العهد مع المشركين على يد الإمام على بن أبى طالب، لأن ذلک يقتضى أن يكون على يد صاحب الشريعة أو واحد من أهل بيته يمثله «٣» لإعلام المشركين ما ستكون عليه علاقتهم بأهل الإسلام بعد أن تمكنت الدعوة و أصبح لها من القوة ما تستطيع به أن تهاجم المشركين، و تتحول إلى محاربة وجودهم و عقائدهم؟

و لكن الأهواء و التعصب تجعل من كل حقيقة مثارا للجدل.

فأخذ الأمر بالصفة الدينية التى تتظافر عليها الأدلة القاطعة و النصوص الصريحة، يجعل مهمات الدعوة قائمة، و لا بد أن يكون لهذا الدين من أئمة يقومون بالأمر، و ينشرون أحكام الدين و يبيّنون أصوله. فمن أولى من عترة النبى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ و ما قيل فيهم من قبل الشيعة ليس من أنواع الخطابة- كما يقول ابن خلدون- التى هى بضاعة خطباء الحكام أو

نكايا المتصوفة، بل هى نصوص معتبرة تصف حال القائمين بالأحكام و الداعين إلى الإسلام و انتهاجهم منهجا يحيى سنة الرسول الأعظم.

قال الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام:

«إن الإمامة منزلة الأنبياء و إرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة اللّه و خلافة رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مقام أمير المؤمنين عليه السّلام و خلافة الحسن و الحسين عليهم السّلام.

إن الإمام زمام الدين و نظام المسلمين و صلاح الدنيا و عزّ المؤمنين. الإمام أس الإسلام النامى و فرعه السامى. بالإمام تمام الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج و الجهاد و توفير الفيء و الصدقات و إمضاء الحدود و منع الثغور و الأطراف.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢٠.

(٢) سورة البراءة، آية: ١٠١.

(٣) فى ذخائر العقبى للمحب الطبرى بإسناده عن أبى هريرة، و فى رواية من حديث أحمد عن على أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما راجعه أبو بكر قال له: «جبريل جاءنى فقال لن يؤدى عنک إلا أنت أو رجل منک».

و فى صحيح البخارى: «إلا أنا أو رجل منى».

الإمام يحلل حلال اللّه و يحرم حرامه، و يقيم حدود اللّه، و يذبّ عن دين اللّه، و يدعو إلى سبيل اللّه بالحكمة و الموعظة الحسنة و الحجة البالغة».

فيكون السلوک و النسب من جنس الدعوة و صاحب الدعوة. فإذا كان أصحاب الطرق و مريد و بعض الأشخاص قد أرادوا أن يتقربوا من آل البيت، أو يتظاهروا بذلک على مختلف الأغراض و الدوافع، فليس إلى تساويهم مع الأئمة الأطهار من سبيل يقرّه المنطق، إلا إذا غلب التعصب و الهوى. فكل غوث أو بدل أو أى مرتبة عندهم لا تسمو إلى أى فرد من أهل بيت النبوة الأئمة الأطهار عليهم السّلام حتى و إن ساقوا أحاديث صحّحوها و حسّنوها و رواها أحمد كحديث: الإبدال فى هذه الأمة ثلاثون رجلا قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل اللّه مكانه رجلا.

و حديث: الأبدال فى أمتى ثلاثون بهم تقوم الأرض و بهم تمطرون و بهم تنصرون. أو الذى رواه الطبرانى عن عوف بن مالک و وصفه السيوطى بالحسن: الأبدال فى أهل الشام، و بهم تنصرون، و بهم ترزقون. فإذا قيل أن المقصود بهم يشمل أئمة أهل البيت فإن خصائص الأئمة الأصلية التى بيّناها هى الأحق.

و لو أعدنا النظر فی قول ابن خلدون لنتناول نقطة أخری من بین النقاط التی تستدعی التوقف و المناقشة، فابن خلدون هکذا شأنه فی کل أمر یتعلق بآل البیت الأطهار، فهذا النص علی قصره یضمّ عدة نقاط نترک مناقشتها للقارئ الکریم، و لضیق ما نخصصه لابن خلدون هنا، و هی فی أغلبها بادیة النصب و العداء، و لنعد إلی قوله: ثم قالوا بترتیب الإبدال بعد هذا القطب کما قاله الشیعة فی النقباء حتی أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف لیجعلوه أصلا لطریقتهم و تخلیهم رفعوه إلی علی رضی اللّه عنه، و هو من هذا المعنی أیضا، و إلا فعلی رضی اللّه عنه لم یختص من بین الصحابة بتخلیة و لا طریقة فی لباس و لا حال، بل کان أبو بکر و عمر رضی اللّه عنهما أزهد الناس بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أکثرهم عبادة ... إلی آخر کلامه.

و ابن خلدون علی الانحراف و التحوّل عن أهل بیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اللذین دفعا من سبقه و من اتبعه إلی أن یبعدوا أصول التصوف التی اتفق علیها المتصوفة و أدعوها عن مجالات أهل البیت و مواقع القرب منهم، و مدی صحة ذلک و قربه أو بعده عن الحقیقة من شئون المتصوفة و طوائفهم لا من شأن الشیعة، لأن الشیعة هم أتباع الأصل و أنصار الجوهر. و کما حفلت صفحات المناقب التی یقصد بها المضاهاة أو التأثیر

علی مناقب أهل البیت و عظیم منزلتهم، حفل تیار الانحراف فی اهتمامه بما یتعلق بالتصوف و أصوله التی أقیم علیها بما ینجم عن هذا القصد منها: أن أبا بکر لما أنفق ماله فی سبیل اللّه و أعتق عبیده حتی تخلل بالعباءة، نزل جبرائیل و قال: یا محمد: إن ملائکة السموات تخللت بالعباءة إکراما لأبی بکر من اللّه، و قل له: إن ربک علیک راض فهل أنت علیه راض؟ فقال أبو بکر: إنی عن ربی راضی «۱».

و سری ذلک إلی صفوف المتصوّفة، و سمح لکثیر من أشیاخهم باحتلال المراتب التی یسعون إلیها، مع أن القسم الأعظم- و علی الأخص فی مصر- بقی محتفظا بصورة الأصول التی أقاموا علیها طرقهم، و جعلوا من سیرة أهل البیت الأطهار مصدرا ثابتا، و أقاموا علی الولاء الذی خالطته حالات الطرق التی أشرنا إلیها، و بعض من آثار التیارات الأخری التی ظهرت علی ساحة الإسلام.

کما أن الصوفیة یأخذون بالإمامة لتکون علی معنی الدرجات التی تکوّن نظامهم غیر أنهم یختلفون فی شرط النسب.

و إذا نظرنا إلی نظریاتهم و قواعد سلوکهم، لوجدناهم یستخلصون أغلبها من أحداث تاریخ أهل البیت، إذ لدیهم فی الولایة نظریة ولایة العلم و ولایة الحکم أو خلافة الحکم، و أن الإمام علی اختص بالأولی.

و فی مجال الإمامة یقولون بإمامة الأشباح و الأرواح، و هی ما تقصده فی الحدیث عن السلطان الروحی لأهل البیت و أئمتهم الأطهار، و کیف أقاموا منزلهم فی نفوس شیعتهم و محبیهم علی أساس النصح و الإرشاد و الوعظ و التبلیغ، و عزفوا عن سلطان الحکم، و وجهوا أتباعهم إلی عوالم دینیة و روحیة تجعل من الأحکام و الفرائض دینا و مجتمعا قائما. یروی الشیخ الصدوق رحمه اللّه عن جابر عن أبی جعفر عن أبیه علیه السّلام أنه قال: «إذا کان أول یوم من شهر شوال نادی مناد أیها المؤمنون

اغدوا إلى جوائزكم» ثم قال أبو جعفر عليه السّلام: «يا جابر جوائز اللّه عز و جل ليست كجوائز هؤلاء الملوک». ثم قال: «هو يوم الجوائز».

كما يروى عن الإمام الباقر عليه السّلام أيضا: «ما من عيد للمسلمين أضحى و لا فطر إلا و هو يجدّد لآل محمد فيه حزن، لأنهم يرون حقهم فى يد غيرهم».

---

(١) الذهب الأبريز فى شرح الوجيز.

يقول أبو المعالى محمد سراج الدين الرفاعى عن الإمامة عند الصوفية: و جعلها إطار الدرجات و المنازل التى لديهم، و اشتراط النسب الشريف: و هى الإمامة التى عناها حجاجة الصوفية، و وسموها بالقطبيّة الكبرى، و الغوثية العظمى، و الإمامة الجامعة، و قالوا لصاحب مرتبتها: الغوث، و قطب، و الإمام الجامع، و الإنسان الكامل، و أطبق جماهير الصوفية سلفا و خلفا أن الغوث هذا المعنى بهذه الإمامة لا يكون من غير أهل البيت النبوى أبدا، و قالوا: إن أهل البيت النبوى لمّا فاتتهم إمامة الأشباح التى هى الخلافة الظاهرة، عوّضهم اللّه سبحانه و تعالى ما هو خير منها، و ذلک إمامة الأرواح، فإمامهم هذا أعنى القطب الغوث يتصرّف فى ذرّات الأكوان، و صاحب خلافة الظاهر ذرة منها ...

ثم يورد قول السيد إبراهيم أبو إسحاق الأعزب الرفاعى: كلمتان مردودتان عند أهل البساط: كلمة شريف يطلب نيل الإمامة الظاهرة بعد أن انعقدت على الإمامة الجامعة الروحية بيعة الأرواح لأهل البيت، و أمضى اللّه تعالى و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهم ذلک، و ها هى تنقلب بحمد اللّه تعالى فيهم، و لا تنزع منهم حتى تختم بسيدنا الإمام ولى اللّه المهدى عليه السّلام. و الكلمة الثانية كلمة رجل قال أن قطبية الأقطاب يعنى الغوثية و الإمامة الكبرى الروحية، تكون فى غير أهل البيت، فإن هذه الكلمة من عثرات ألسن بعض أهل الرى لا يلتفت إليها و لا يعول عليها. نعم إن المحاذاة للغوث ثابتة عند المتمكنين، فقد يحاذى الولى الذى ليس بشريف- بمحض فضل اللّه و توفيقه- مرتبة الغوث الجامع، و لكن لا ينزل تلک المنزلة بعينها أبدا «١» بسبب منزلة أهل البيت فى قلوب الناس، و ميل النفوس إليهم لم يكن من السهل إغفال هذا الشرط، و لكن من السهل ادّعاء النسب و الالتصاق بالشجرة الطاهرة المباركة النقية. و ظل الصوفية يرون آل البيت بمنظار طرقهم و عقائدهم. اقرأ هذا النص الصوفى:

(و ذكر بعضهم أنها تروى- الطرق- من جهة الحسن عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من جهة عن على، لأن الحسن كان أول فتحه و مدده من يد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم صحب و اقتدى بوالده عليه السّلام كما وقع لكثير من أهل اللّه تعالى حصل لهم الفتح من يده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مباشرة، برؤيا منامية أو اجتماع روحانى، ثم صحبوا بعد ذلک الشيوخ للسلوک و التهذيب، أو انتسبوا إليهم للأدب مع الشريعة و الركون إلى الواسطة.

(۱) صحاح الأخبار فی نسب السادة الفاطمیة الأخیار ص ۵۰ و ۵۱.

و ذکر بعضهم أن الحسن ورث القطبیة من والدته سیدة نساء أهل الجنة صلّی اللّه علیها و سلّم، و هی أول الأقطاب علی الإطلاق، و کل هذا صحیح، فإنهم بیت النبوة، و منبع المعارف و الکمالات و الأسرار، و قد ألبسهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جمیعا بکسائه الشریف، و سقاهم بمدده العظیم، و شملهم بنوره الفخیم، فحازوا منه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أعلی مراتب الولایة.

و أقصی ما یصله البشر من درجات العرفان) انتهی.

ثم یطلّ المتصوّفة علی مأساة کربلاء و فاجعة الطف، حیث مسرح ثورة أبی الأحرار الحسین بن علی علیهما السّلام و موضع نهضة سید الشهداء، و صفحات البطولة، و مواقف الجهاد، فیروون بطرقهم أن الإمام الحسین لما انکشف له فی سرّه تدلی الخلافة الروحیة التی هی الغوثیة و الإمامة الجامعة فیه و فی بنیه علی الغالب، استبشر بذلک، و باع فی اللّه نفسه لنیل هذه النعمة المقدسة، فمنّ اللّه علیه بأن جعل فی بیته کبکبة الإمامة، و ختم ببنیه هذا الشأن، علی أن الحجة المنتظر الإمام المهدی علیه السّلام من ذریته الطاهرة و عصابته الزاهرة «۱».

فإذا کان النظر فی جوانب عظمة الإمام علی علیه السّلام کان التأثر علی أشده، و راحوا یقتبسون من سیرته، و یؤسسون علی فضائله، و یصفونه بحسب أوصافهم التی قد یلتقون عبرها مع شیعة أهل البیت أو ینفردون بها، کما أنهم لا یطبقون علی رأی و لیسوا کالشیعة فی الوصیة و الإمامة، فمنهم من یجعل الإمام فی الطبقة الأولی من طبقات المتصوفة، و یمضی فی ذلک حسب ترتیب الخلفاء، و منهم من یقول أن الأفضیلة التی یراها السنّة فی الخلفاء لا تستلزم الأعلمیة، و یسوقون أدلة علی ذلک کقصة الخضر مع موسی علیهما السّلام فإن القرآن أثبت أعلمیة الخضر بالحقائق علی موسی، مع أن موسی أفضل منه بلا خلاف بین أحد یعرفونه. و یقولون: و یکفی أن الخضر نبی و موسی علیه السّلام رسول، بل من أفضل الرسل، و لا یوجد من یقول بأن هناک نبی أفضل من بعض أولی العزم من الرسل علیهم السّلام.

و فی الإمام علی یقولون:

بأنه مدینة العلوم و المواهب، ولی المتقین و إمام العادلین، أقدمهم إجابة و إیمانا، و أقومهم قضیة و إیقانا، المنبئ عن حقائق التوحید، المشیر إلی لوامع بوارق

(۱) المصدر نفسه، ص ۵۰.

علم التفريد، ذو القلب العقول و اللسان السئول. و الآذان الواعية و العهود الوافية.

ختم اللّه به الخلافة كما ختم بمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم النبوّة، الأخيشن فى دين اللّه، الممسوس فى ذات اللّه. و قد قيل: التصوف مرافقة المودود و مصارمة المعهود. قال حذيفة: قالوا يا رسول اللّه: أ لا تستخلف علينا؟ قال: «إن تولوا عليا و ما أراكم فاعلين تجدوه هاديا مهديا». و سئل المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنه فقال: «قسّمت الحكمة عشرة أجزاء، فأعطى تسعة و الناس واحدا» و قدم عليه يوما فقال: «مرحبا بسيد المسلمين و إمام المتقين. إن اللّه أمرنى أن أدنيک و أعلمک لتعى» و قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللّهم وال من والاه و عاد من عاداه» و قال: «على منى و أنا منه» و قال: «أنا مدينة العلم و على بابها» و قال: «لا يحبه إلا مؤمن و لا يبغضه إلا منافق». و قال: «من آذى عليا فقد أذانى، و من سبّه فقد سبّنى، و من أبغضه فقد أبغضنى، و من أحبّه فقد أحبّنى» و قال: «على مع القرآن و القرآن مع على» و قال ابن عباس رضى اللّه عنه: ما نزل فى أحد من كتاب اللّه ما نزل فى على رضى اللّه عنه، و كان إذا غضب المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يجسر أحد أن يكلّمه إلا على. و قال: لعلى ثمانى عشرة منقبة ما كانت لأحد من هذه الأمة. و قال يوم خيبر: «لأعطينّ الراية رجلا يحبّ اللّه و رسوله، و يحبه اللّه و رسوله». و جعل حبه علامة الإيمان و بغضه إمارة النفاق. و قال الإمام أحمد: ما ورد لأحد من الصحابة من الفضائل ما ورد لعلى رضى اللّه عنه. رواه الحاكم و غيره، و كان رضى اللّه عنه الانقياد و الاستسلام شأنه، و التبرّى من الحول و القوة مكانه. و قد قيل: التصوف إسلام الغيوب إلى مقلب القلوب، و إذا أردت أن تعرف منزلته من المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتأمل صنيعه فى المؤاخاة بين الصحابة، جعل يضم الشكل إلى الشكل، و المثل إلى المثل، فيؤلف بينهما إلى أن آخا بين أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما، و ادّخر عليا كرم اللّه وجهه لنفسه، و اختصه بأخوّته، و ناهيک بها من فضيلة، و أعظم بها من شرف «١».

ثم يستمدّون من سيرته ما يؤيد المقالات الصوفية، و من أقوال أئمة المسلمين فيقول المناوى: و قد شهد له بكمال الزهد الإمام الشافعى رضى اللّه عنه. قيل له: ما نفّر الناس عن على رضى اللّه عنه إلا أنه كان لا يبالى بأحد. فقال الشافعى رضى اللّه عنه: كان عظيما فى الزهد، و الزاهد لا يبالى بأحد، و كان بذات اللّه عليما، و عرفان

---

(١) الكواكب الدرية ص ٣٨ و ٣٩ الجزء الأول.

اللّه فى صدره عظيما. و قد قيل: التصوف البروز من الاحتجاب إلى رفع الحجاب.

و أعيان رجالهم و كبارهم المشهور عندهم أن طريقتهم تتصل بالإمام أمير المؤمنين عليه السّلام يقول الوترى: نعم، إن خرقة الصوفية رضى اللّه عنهم تتصل بالخليفة الرابع أسد الملاحم و المعامع، شيخ أئمة الآل، فحل الرجال، صهر رسول الثقلين، والد الريحانتين، إمام المشارق و المغارب، أمير المؤمنين أسد اللّه سيدنا على بن أبى طالب كرم اللّه وجهه و رضى اللّه تعالى عنه، و قد ندر اتصال خرقة بغيره، و كلهم على هدى يتصلون بسيد المخلوقين حبيب رب العالمين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا

يلتفت لما تقوّله البعض فى شأن خرقة الصوفية، فإن ذلک قد نشأ عن هفوات لا تعتبر، و لا يبنى عليها الشک بعد اليقين بصحة الخبر «۱».

ثم يحسبون الأئمة من آل البيت صلوات اللّه عليهم أجمعين أعيانا لخرقتهم، فيقول الوترى: و إن أعيان أهل الخرقة ساداتنا أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أعيانهم أئمة الآل الأعلام عليهم الرضوان و السلام، و هم: السبط الجليل القدر، الوفير المنن أمير المؤمنين الإمام أبو محمد الحسن، و السبط العظيم المقام، قرة عين سيد الكونين أمير المؤمنين الإمام أبو عبد اللّه الحسين، و سيدنا الإمام على زين العابدين، و سيدنا الإمام محمد الباقر، و سيدنا الإمام جعفر الصادق، و سيدنا الإمام على الهادى، و سيدنا الإمام الحسن العسكرى، و سيدنا الإمام الخلف الصالح قرة عين الأئمة الهادين الإمام محمد المهدى سلام اللّه عليه و عليهم أجمعين، فهؤلاء السادات الأعيان، أحوالهم مذكورة، و أعلامهم منشورة، و تراجمهم أشهر من أن ينبّه عليها، و فضائلهم أفعمت بها الدفاتر، و جفّت لها المحابر، و هم سادات السادات، و أعيان الأولياء، الذين خرق اللّه لهم العادات.

ما ذا يقول المادحون بوصفهم	و هم السراة خلائف المختار
ضربت قباب فخارهم و سمّوهم	بين البتول الطهر و الكرّار
للّه جعفر طاب من أنسابهم	عقدت عليه سلاسل الأقمار

«۲»

---

(۱) أحمد بن محمد الوترى، روضة الناظرين و خلاصة مناقب الصالحين.

(۲) المصدر نفسه.

و لا نطيل فى تفاصيل مقالات الصوفيين أو تعريفاتهم، و نقتصر على أمرين نراهما المدخل الذى جاء منه الصوفية إلى رياض أهل البيت فى سيرهم، و راحوا يعقدون أكاليل معتقداتهم منها.

الأول: الحب

: و جعل مدار الحب إلهيا، يصبغ علاقة المسلم بربه، و هى فى أشكالها تقوم على فكرة الإمام على عليه السّلام و تحديده ماهية العبادة أن تكون عبادة أحرار، لا طمعا فى ثواب أو خوفا من عقاب، و عليها أسسوا ذلک، و لا تبعد بأى حال عن ثواب أو خوفا من عقاب، و عليها أسوسا ذلک، و لا تبعد بأى حال عن أصلها الحقيقى مهما تعدّدت الأقوال.

يقول القشيرى: من عرف اللّه عن طريق المحبة دون خوف هلک بالبسط و الإدلال، و من عرفه من طريق الخوف من غير محبّة انقطع عنه بالبعد، و من عرف اللّه من طريق المحبة و الخوف أحبه اللّه فقرّبه و علّمه و مكّنه.

أما أبو طالب المكى فيقول: و كل محب للّه خائف، ليس كل خائف محبا.

و ربما كانت المحبة ثوابا للخوف و مزيدا له، و هذا فى مقام رب العالمين. و ربما كان الخوف مزيدا للمحبة و ثوابها، و هذا فى مقام العالمين. فمن كانت المحبة مزيدة بعد الخوف فهو من المقربين. و من كان الخوف مزيد محبته، فهذا من الأبرار المحبين و هم أصحاب اليمين «١».

و أرى من المستحسن هنا أن نذكر شيئا من نصوص التراث الشيعى القائم على أفكار أئمتهم صلوات اللّه عليهم و مواعظهم، بعد الإشارة إلى تعلق هذا المدخل بالجانب الإشراقى الذى أغناه الرئيس ابن سينا فى الإشارات:

يقول الشيخ الجليل محمد مهدى النراقى فى «جامع السعادات» و تحت فصل المنكرين لحب اللّه: (قد ظهر مما ذكر ثبوت حقيقة المحبة و لوازمها من: الشوق و الأنس للّه تعالى، و أنه المستحقّ للحب دون غيره. و بذلک ظهر فساد زعم من أنكر إمكان حصول محبة العبد للّه تعالى و قال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة اللّه،

---

(١) قوت القلوب، الجزء الثانى ص ٥٨ و ٥٩.

و أما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس و المثل. و لما أنكروا المحبة أنكروا الأنس و الشوق و لذة المناجاة و سائر لوازم الحب و توابعه، و يدل على فساد هذا القول، مضافا إلى ما ذكر، إجماع الأمة على كون الحب للّه و لرسوله فرضا، و ما ورد فى الآيات و الأخبار و الآثار من الأمر به و المدح عليه و اتصاف الأنبياء و الأولياء به).

انتهى.

قال الإمام الصادق عليه السّلام: «حب اللّه، إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كل شاغل و كل ذكر سوى اللّه، و المحب أخلص الناس سرّا للّه، و أصدقهم قولا، و أوفاهم عهدا، و أزكاهم عملا، و أصفاهم ذكرا، و أعبدهم نفسا، تتباهى الملائكة عند مناجاته، و تفتخر برؤيته، و به يعمر اللّه بلاده، و بكرامته يكرم اللّه عباده، و يعطيهم إذا سألوه بحقه، و يدفع عنهم البلايا برحمته، و لو علم الخلق ما محله عند اللّه و منزلته لديه، ما تقربوا إلى اللّه إلا بتراب قدميه».

و قوله عليه السّلام يعطينا صورة واضحة عن منهجه فى الدعوة إلى التمسک بالدين، و الانصراف لمرضاة اللّه، فى وسط تلک المعتركات و المحن التى تشهدها الأمة على أيدى المتسلطين، الذين يتخذون من دين اللّه ستارا لأغراضهم و أطماعهم، فاختط

لنفسه و لمريديه طريق الإخلاص للّه، و التقرّب منه، الذى يبعث فى النفوس الطمأنينة. و يحيى الأمل بعد تلك النكبات و الفواجع التى ألمّت بأهل البيت الكرام صلوات اللّه عليهم، و امتدت إلى المؤمنين من أتباعهم.

و يوضّح الإمام الصادق عليه السّلام أصول اتجاهه الروحى، و يجعل شيعته و مريديه على معرفة و بيّنة من خصائص السلوك الذى يدعوهم إليه، و دقائق المنهج الذى يحملهم عليه، فيقول عليه السّلام: «نجوى العارفين تدور على ثلاثة أصول: الخوف و الرجاء و الحب. فالخوف فرع العلم، و الرجاء فرع اليقين، و الحب فرع المعرفة.

فدليل الخوف الهرب، و دليل الرجاء الطلب، و دليل الحب إيثار المحبوب على ما سواه. فإذا تحقق العلم فى الصدر خاف، و إذا صح الخوف هرب، و إذا هرب نجا، و إذا أشرق نور اليقين فى القلب شاهد الفضل، و إذا تمكن من رؤية الفضل رجا، و إذا وجد حلاوة الرجاء طلب، و إذا وفّق للطلب وجد، و إذا تجلى ضياء المعرفة فى الفؤاد هاج ريح المحبة، و إذا هاج ريح المحبة استأنس فى ظلال المحبوب على ما سواه، و باشر أوامره و اجتنب نواهيه، و اختارهما على كل شىء غيرهما، فإذا استقام على

بساط الأنس بالمحبوب مع أداء أوامره و اجتناب نواهيه وصل إلى روح المناجاة و القرب. و مثال هذه الأصول الثلاثة كالحرم و المسجد و الكعبة، فمن دخل الحرم أمن من الخلق، و من دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها فى المعصية، و من دخل الكعبة أمن قلبه من أن يشغل بغير ذكر اللّه» «١».

كان الصادق عليه السّلام فى مركزه الدينى و مكانته العلمية، يتصدى لمهمات القيادة الروحية، و يضع لأصحابه الإمارات التى يميزون بها فى خضم ذلك المعترك. من أقبل على نهجه بإخلاص، و يطلب من أصحاب البحث عن الصفات بطريق العمل و الالتزام بين صفوف شيعته فيقول عليه السّلام:

«امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلوات كيف محافظتهم عليها، و عند أسرارهم كيف حفظهم لها من عدوّنا، و إلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم بها».

الأمر الثانى: [الزهد]

الذى راح الصوفية ينهلون منه ما يشاؤون، و يضعونه فى أوعية خاصة بهم من شأنها أن تحوّل طعم المحتوى، و تغيّر لونه هو: الزهد.

و للعلماء فى حقيقة الزهد اختلاف كبير، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالخرقة و الطريقة، فلا بد أن يؤخذ الظاهر الذى يعضد الأقوال أو يدعّم الأسس. و نحن هنا نعرض القليل القليل مما يتحاشاه الذين يسوؤهم ذكر الحقيقة على حالها.

فالإمام على أمير المؤمنين عليه السّلام فى حياته الشريفة و سيرته الطاهرة، قد أخذ منذ آلت إليه الخلافة و انتهى إليه الحكم بجعل فترة إمامته فترة تتولى معالجة آثار التطورات الماضية، و تتجه إلى المستقبل لأحكام الصلة بين عهد الرسالة و حياة النبى

محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإشراقهما و نورهما، و بين أسس سياسته، حتى تهدأ النفوس و تستقر على الهدى، و لو لا فترة حكمه و تطبيقات إمامته لكانت عودة الجاهلية و أحقاد المشركين بأعنف مما كانت عليه، و لما راعت أحدا من أهل الإسلام، و لذلک فإن الإمام عليا فى سلوكه لم يدع إلى ابتعاد عن الحياة، و لا إلى انغلاق. و إنما هو المكلف بحفظ السنّة على أصولها، و إبقاء الشريعة على مقاصدها.

---

(١) الاثنى عشرية فى المواعظ العددية للعيناثى ص ٧٢.

عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسألون عن عبادة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر؟ فقال أحدهم: أمّا أنا فأصلى الليل أبدا. و قال الآخر:

أنا أصوم النهار و لا أفطر. و قال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا و كذا؟ أما و اللّه إنى لأخشاكم للّه، و أتقاكم له، و لكنّى أصوم و أفطر، و أصلى و أرقد، و أتزوّج النساء. فمن رغب عن سنّتى فليس منى».

و ما يبنى عليه من مظاهر سيرة الإمام على عليه السّلام لدى الصوفية، و خاصة فى القرن الثانى الهجرى، و بدايات اتساع طرقها و شيوع تعاليمها، يغفل المقاصد الحقيقية التى تكمن فى كل ناحية من حياة الإمام على عليه السّلام و تتعلق بما ينسجم مع نزعتها.

فإذا قيل: إن الإمام عليا كان يلبس إزارا خلقا مرقوعا، فذلک نصف الحقيقة، لأن تصرف الإمام و جوانب سيرته، تظهر فلسفتها فى أقواله. فعند ما قيل له فى ذلک الإزار، قال عليه السّلام: «يخشع له القلب، و تذلّ به النفس، و يقتدى به المؤمنون».

و قوله عليه السّلام: «... إن اللّه تعالى فرض على أئمة الحقّ أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره» أى يجب على الإمام العادل أن يشبّه نفسه فى لباسه و طعامه بضعفة الناس، لكيلا يهلک الفقراء من الناس، فإنهم إذا رأوا إمامهم بتلک الهيئة و بذلک المطعم، كان ادعى لهم إلى سلوان لذّات الدنيا، و الصبر عن شهوات النفوس.

و من أحكام القرآن يتخذ الإمام عليه السّلام سياسته الاجتماعية و الاقتصادية و يقول:

«إن اللّه سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير، إلا بما متّع به غنى، و اللّه تعالى سائلهم عن ذلک».

و فى ثنايا أقواله المأثورة، نجد تناوله للفقر من نواحى عديدة، أولها: الناحية الدينية، ثم وجوده الاجتماعى، و يجعل عليه السّلام من الفقر إلى اللّه أصلا، ثم يعرض جوانب الفقر الأخرى، و فى نهجه ما يغنى و ما لا يحاط به بمثل هذا العرض الموجز.

و لكن من المهم القول، أن حياة الإمام على من زاوية التصوف، ينظر إليها بأكثر من زاوية، أهمها جميعا ما يأخذ بالظاهر و يتشبث بإبقاء الصفات و الصلة إلى الحد الذى يضع على لسانه تعريفا للتصوف، ليس فيه أى صفة أو علامة من صفات أو علامات

ص: ١١٠

منهج الإمام فى بلاغته و أفكاره، و إنما هى من صفات المقالات الصوفية. فيروى على لسانه عليه السّلام: التصوف ثلاثة أحرف: الصاد صبر و صدق و صفاء، و الواو ودّ و ودّ و ودّ، و الفاء فرد و فقر و فناء.

و الزاوية الثانية التى ينظر منها، هى زاوية المتخصصين و أصحاب التجربة المقرونة بالنظر، كما هو الحال عند الرئيس أبى على بن سينا فى كتاب الإشارات الذى ينقل عنه ابن أبى الحديد. قال أبو على فى مقامات العارفين: العارفون قد يختلفون فى الهمم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر، على حسب ما يختلف عندهم من دواعى العبر، فربما استوى عند العارف القشف و الترف، بل ربما آثر القشف، و كذلک ربما استوى عنده التفل و العطر، بل ربما آثر التفل، و ذلک عند ما يكون الهاجس بباله استحقار ما عدا الحق، و ربما صغا إلى الزينة، و أحب من كل شىء عقيلته، و كره الخداج و السقط، و ذلک عند ما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الطاهرة، فهو يرتاد إليها فى كل شىء، لأنه مزية حظوة من العناية الأولى، و أقرب إلى أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه، و قد يختلف هذا فى عارفين، و قد يختلف فى عارف بحسب وقتين. انتهى.

و ينقل الصوفية المتأخرون قول العارف باللّه المعروف بالباقى باللّه شيخ السادة النقشبندية فى كتابه (المثوى) عن جعله تكنية النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للإمام على عليه السّلام بأبى تراب- و قصتها معروفة- أصلا يتفق مع خواطرهم و مقاصدهم و معناه: أن التراب إشارة إلى وجود أهل التوحيد و الفناء، فيكون حاصل معنى أبى تراب: أنه عليه السّلام هو الأصل المقتدى به فى هذا المعنى، و المرجع لطائفة الفقراء أرباب الفناء الكمّل.

و من جهة أخرى يحملون معانى الأحاديث و الأخبار النبوية فى الإمام على عليه السّلام على مقاصدهم و طبيعة نهجهم، و هى أحاديث رواها و صحّحها كبار المحدثين من أهل السنّة، و جاءت فى مصنفات علمائهم كمسند الإمام أحمد و منها:

«يا على أن اللّه قد زيّنک بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحب إليه منها، هى زينة الأبرار عند اللّه تعالى فى الدنيا، جعلک لا ترزأ من الدنيا شيئا، و لا ترزأ الدنيا منک شيئا. و وهب لک حب المساكين، فجعلک ترضى بهم أتباعا و يرضون بک إماما، فطوبى لمن أحبّک و صدّق فيک، و ويل لمن أبغضک و كذّب فيک».

و هى نبوءة كشفت عمّا سيقع من أمر، و كيف سيكون الحال بين جنده و محبيه

ص: ١١١

و هم يستميتون من أجل صون الرسالة و حفظ مبادئ العدل فى مواجهة البغى و الأثرة و الجاهلية الجديدة التى تتخذ من الإسلام ستارا و هى ستارا و هى تشيد حكمها و ملكها على الأثرة و الاستغلال، و النهب و القتل.

و إذا عدنا إلى سيرة الإمام الصادق عليه السّلام وجدنا- أن منهجها الفكرى و الدينى الذى شدّ إليه الناس، و جذب نحوه رجالات الأقطار و علماءها، فتتلمذوا على يديه، و تخرّجوا من مدرسته، يتّسم ببناء دقيق، لأنه يتجه إلى بناء المسلم من الداخل، فيتكلم عليه السّلام بألفاظ و مفردات توضّح القصد، كما تسهّل التّأثير و الفعل. و فى مجال الإيضاح و التفسير، يتحدث أبو عبد اللّه الصادق عليه السّلام بصور و بيان يجسّد المطلوب و يجلو ما يخفى على الآخرين. فهو عليه السّلام فى خضم المعترک السياسى و المآسى الكبرى، يتجه إلى داخل النفوس و ما نجم عن معاناة الرعية بأشكالها المختلفة، و يهتم عليه السّلام بطهارة الأرواح و استقامة السلوک.

قال الإمام الصادق:

«المرضى ثلاثة، عن النفس، و عن القلب، و عن الروح. فمرض المنافق عن النفس، و مرض المؤمن عن القلب، و مرض العارف عن الروح. فدواء المنافق دار جهنم، و دواء المؤمن معرفته و حبّه، و دواء العارف لقاؤه و قربه» «١».

و قوله عليه السّلام:

«من خاف اللّه أخاف اللّه منه كل شىء، و من لم يخفف اللّه أخافه اللّه من كل شىء» «٢» يقصد به أن يعلّم الناس أن قوة الحكام الظلمة لا تطال المؤمنين، و أن اللجوء إلى اللّه هو الحصانة و المنجى من كل متسلّط جبّار. و قد اخترنا هذين القولين، لنخلص إلى أن الإمام الصادق عليه السّلام فى حياته قد صبّ جهوده على أمرين، الأول:

النضج و الإرشاد و وعظ الناس و الدعوة لدين الإسلام. و الثانى: التأكيد على السلطان الروحى و العبودية للّه تعالى التى تجعل من أشكال اضطهاد الرعية و ألوان عنف المتجبّرين و قوتهم امتحانا زائلا و مأزقا طارئا، و أن المواجهة الدامية بعد التجارب التى

---

(١) الاثنى عشرية فى المواعظ العددية.

(٢) أصول الكافى.

مرّت بها الأمة و روّع بها الناس، لا تؤدى فى مثل تلک الظروف التى يعيشها إلّا إلى الهلاک على يد الحكام، لذلک سلک مع العباسيين مسلكا يجنّب أهل بيته و شيعته مخاطر سلطانهم.

فلمّا اتخذ رأيه فى عدم لبس السواد ذريعة من قبل الأعداء، أتقاهم بما يزيل التهمة و يحفظ حياته، فأخذ يلبس جبة سوداء. و روى أنه كان يلبس خفا أسودا مبطنا بسواد و فتق مرة ناحية منه و قال: «أما إن قطنه أسود» و أخرج منه قطن أسود، ثم قال عليه السّلام: «بيّض قلبک و ألبس ما شئت» «١».

أما إذا أضفنا الأقوال الأخرى للإمام الصادق، فإن الصوفية لا يكتفون بالتأسيس عليها أحوالا لهم و مقامات، بل إن ما نراه من أحداث طبيعية تحفل بها سيرة الأئمة الطاهرين من أهل البيت. يرون فيها كرامات لتعزيز أقوالهم بأصحابهم، و ادّعاء الأعمال الجليلة لهم.

قال الإمام الصادق عليه السّلام: «من أدخل قلبه صافى حب اللّه شغله عمّا سواه» «٢».

و هو قول من مصادر الصوفية لا يخرج عن مضامين مدرسة الإمام الصادق أو أقواله، إلا أن ما يجعلونه أساسا للمقامات و الأحوال عندهم، و ما يصرفون إليه كلام الإمام عليه السّلام يسيء كثيرا إلى الموقف الدينى و الفكرى الذى اقتضته مصلحة الأمة، و الذى اختطّه الإمام الصادق، و أطلقنا عليه «الدعوة الصامتة» و يظهر أن الصوفية تنسج على نزعتها و تحيک على هواها المقاصد و المعانى، لأن واقع الإمام الصادق و حركته الدائبة و نشاطه المعطاء، يفنّد الغرض الذى يختفى وراء القول بالتخلى أو الخمول. إذ لا يهدأ بحال فى أذهان الشيعة قول الإمام الصادق: «كونوا لنا دعاة صامتين» و اقتران الدعوة بالصمت يشير إلى منهج الصادق فى الابتعاد عن مواجهة الحكام بما يحمى دماء الناس و أعراضهم و وجودهم، فيما أوّلوا بعض أقواله عليه السّلام تأويلات اعتبروها أساسا لأوضاع قادتهم و هو: «عزّت السلامة حتى لقد خفى مطلبها، فإن تک فى شيء فيوشک أن تكون فى الخمول، فإن لم توجد فيه ففى التخلى، و ليس كالخمول، فإن

---

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق.

(٢) الكواكب الدرية.

لم تكن فيه ففى الصمت، فإن لم تكن فيه ففى كلام السلف الصالح، و السعيد من وجد فى نفسه خلوة «١».

و هذا من النصوص التى لعب الخيال فى إيجادها، و كانت نتيجة الغرض الذى.

انطوت عليه نفوس قائليها، فجعلوا من أصل الفكرة فى توخّى السلامة وسط مجمع مائج بالأهوال و المحن و الابتلاءات، و مقتضيات الإمام و مسئولياته تجاه ربه و دينه منوالا لأفكارهم، و تنادى ألفاظ القول على بعدها عن البناء اللغوى و التوجه الوعظى الذى تمتاز به أقوال الإمام الصادق عليه السّلام. و المقارنة بالأصل تظهر الفارق، فقد قال عليه السّلام فى السلامة: «أطلب السلامة أينما كنت، و فى أى حال كنت لدينک و لقلبک و عواقب أمورک فى اللّه، فليس من طلبها وجدها ... و السلامة قد عزّت فى الخلق و فى كل عصر، خاصة هذا الزمان و سبيل وجودها فى احتمال جفاة الخلق و أذيتهم، و الصبر عن الرزايا و حقيقة الموت، و الفرار من أشياء تلزمک رعايتها، و القناعة بالأقل من الميسور، فإن لم يكن؛ فالعزيمة، فإن لم تقدر فالصمت، و ليس كالعزيمة، فإن لم تستطع فالكلام ينفعک و لا يضرّک، و ليس كالصمت، فإن لم تجد السبيل إليه فالانقلاب و

السفر من بلد إلى بلد، و طرح النفس فى بوارى التلف بسرّ صادق و قلب خاشع و بدن صابر، قال اللّه عز و جل: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها.

و انتهز مقسم عباد اللّه الصالحين، و لا تتنافس الأشكال، و لا تدّع فى شىء و إن أحاط به علمک و تحققت به معرفتک، و لا تكشف به سرّک إلّا على أشرف منک فى الدين، و أنى تجد المشرف، فإذا فعلت ذلک أصبت السلامة».

و من أقواله عليه السّلام:

«ثلاثة أشياء لا ينبغى للعاقل أن ينساهنّ على كل حال: فناء الدنيا، و تصرّف الأحوال، و الآفات التى لا أمان لها» «٢».

فهل كانت مثل هذه الأقوال دافعا لأصحابه على اعتزال الدنيا و ترک مهمات الحياة، أم أن الرجل منهم كان يدعو أهل زمانه و يتصدّى لنشر تعاليم دينه و هو محمّل

---

(١) الكواكب الدرية ١/ ٩٥ و صفة الصفوت.

(٢) تحف العقول.

بمهمات الإرشاد و الهداية، مقبل على الدنيا لأنها تربة يزرع بها الإنسان الخير بتمسكه بدينه، و نصرة عقيدة الإسلام، و تولى أهل بيت الرسالة الذين خصّهم اللّه بالإمامة، فجعلهم ينابيع هدى و تقوى، يغذوهم بالعلم، و يمدّهم بالسداد و التوفيق.

قال الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ اللّه تبارک و تعالى أعطى محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شرائع نوح و إبراهيم و موسى و عيسى: التوحيد و الأخلاص و خلع الأنداد، و الفطرة الحنيفية السمحة لا رهبانية و لا سياحة، أحلّ فيها الطيبات، و حرّم فيها الخبائث، و وضع عنهم إصرهم و الأغلال التى كانت عليهم، ثم افترض عليه فيها الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الحلال و الحرام و المواريث و الحدود و الفرائض و الجهاد فى سبيل اللّه و زاده الوضوء» «١».

و ما تراه الشيعة من خصائص أهل البيت لمنزلتهم الدينية و مكانتهم الروحية التى يعزّهم اللّه من أجلها، و يكلؤهم لحماية دينه، يدرجه المتصوّفة فى باب الكرامات الصوفية، فمثلا: موقف المنصور العباسى منه، و مسلک الإمام الصادق عليه السّلام فى اتقاء شره، و ننقله هنا حسب مصنفات رجالهم: عند ما حجّ المنصور سنة سبع و مائة، قدم المدينة، فقال للربيع: ابعث إلى جعفر بن محمد من يأتينا به متعبا، قتلنى اللّه إن لم أقتله. فتغافل الربيع عنه و تناساه، فأعاد عليه فى اليوم الثانى و أغلظ فى القول، فأرسل إليه الربيع. فلما حضر، قال له الربيع: يا أبا عبد اللّه، أذكر اللّه تعالى فإنه قد أرسل لک من لا يدفع شرّه إلا اللّه، و إنى أتخوّف عليک. فقال الإمام: «لا حول و لا قوة إلا باللّه العظيم». و لمّا دخل على المنصور، أغلظ له فى القول و قال: يا عدو

اللّه، اتخذک أهل العراق إماما يجبون إليک زكاة أموالهم، و تلحد فى سلطانى، و تتبع لى الغوائل، قتلنى اللّه إن لم أقتلک. و أحضر الرجل الذى سعى به إلى المنصور، فقال له المنصور: أ حقا ما حكيت لى عن جعفر؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال الإمام الصادق: «استحلفه» فبادر الرجل و قال: و اللّه العظيم الذى لا إله إلا هو عالم الغيب و الشهادة الواحد الأحد، و أخذ يعدّد فى صفات اللّه تعالى. فقال الإمام: «يحلف بما أستحلفه» فقال: حلّفه بما تختار، فقال الإمام: «قل: برئت من حول اللّه و قوّته، و التجأت إلى حولى و قوتى لقد فعل جعفر كذا و كذا». فامتنع الرجل، فنظر إليه

---

(١) الفصول المهمة للحر العاملى، باب إباحة الطيبات.

المنصور نظرة منكرة. فحلف بها. فما كان بأسرع من أن ضرب برجله الأرض و خرّ ميتا. فلما خرج الإمام لحقه الربيع و قال له: يا أبا عبد اللّه رأيتک تحرّک شفتيک، و كلما حركتها سكن غضب المنصور، بأى شىء كنت تحركها؟ قال: «بدعاء جدّى الحسين: يا عدّتى عند شدّتى، و يا غوثى عند كربتى، احرسنى بعينک التى لا تنام، و اكنفنى بركنک الذى لا يرام، و ارحمنى بقدرتک علىّ، فلا أهلک و أنت رجائى، اللهم إنک أكبر و أجلّ و أقدر مما أخاف و أحذر، اللهم بک أدرأ فى نحره، و أستعيذ من شرّه، إنک على كل شىء قدير» «١». و يضيف المناوى إلى هذه الحادثة و هو يقول: و له كرامات كثيرة و مكاشفات شهيرة، منها ما أخرجه الطبرى من طريق ابن وهب قال:

سمعت الليث بن سعد يقول: حججت سنة ثلاث عشرة و مائة، فلما صليت العصر، رقيت أبا قبيس، فإذا رجل جالس يدعو فقال: «يا رب يا رب» حتى انقطع نفسه، ثم قال: «يا حى يا حى» حتى انقطع نفسه، ثم قال «إلهى إنى أشتهى العنب فأطعمنيه، و إن بردى قد خلق فاكسنى» قال الليث رضى اللّه عنه: فما تم كلامه حتى نظرت إلى سلّة مملوءة عنبا و ليس على الأرض يومئذ عنب، و إذا ببردين لم أر مثلهما، فأراد الأكل، فقلت: أنا شريکک لأنک دعوت و أنا أؤمن. قال «كل و لا تخبئ و لا تدّخر» ثم دفع إلىّ أحد البردين، فقلت: لى عنه غنى، فأتزر بأحدهما و ارتدى بالآخر، ثم أخذ الخلقين و نزل، فلقيه رجل فقال: أكسنى يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فدفعهما إليه. فقلت: من هذا؟

فقال: جعفر الصادق «٢». و هى لا شک من وحى الخيال الذى يرجون به أضفاء الواقعية على ما ينسبونه إلى أوليائهم و رجالهم، لأن الحال الذى تصوّر الرواية فيه الإمام الصادق بعيد عن شواهد حاله المعروفة، أو رغباته التى تدور فى طاعة اللّه و مناجاته ربه فيما يهمّ المسلمين و صالح الأمة. فإذا ما قارنّا بين الأحداث و هى تروى بطرقنا، و صورتها و هى تفرّغ فى قوالب خاصة بهم، نجد أن الأمر فيما يتعلق بالإمام الصادق أو غيره من أئمتنا، يمثل لجوء الأئمة إلى اللّه فيما يهمّهم، و لواذهم بقوته و عظمته. فلما قتل داود بن على والى المدينة المعلى بن خنيس مولى الإمام الصادق الأثير عنده، هلک داود تلک الليلة، و أن الإمام الصادق قال فى دعائه: «اللهم إنى أسألک بنورک

---

(١) الشيخ الشبلخى، نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار، بتصرف بسيط. و انظر الكواكب الدرية.

(۲) الكواكب الدرية.

ص: ۱۱۶

الذى لا يطفى، و بعزائمک التى لا تخفى، و بعزّک الذى لا ينقضى، و بنعمک التى لا تحصى، و بسلطانک الذى كففت به فرعون عن موسى» و دعا على داود حتى سمعوه يقول: «الساعة الساعة» فما استتم دعاءه حتى سمعت الصيحة فى دار داود «۱».

و قد قلنا فى الجزء الثانى أن المنصور اقتضت سياسته عند اشتداد ملكه بأن يقضى على الإمام الصادق، و اتخذ شتى الوسائل فى ذلک، فكم مرة يحضره للفتک به، و كانت سلامته فى تلک المواقف أعجوبة، لأن المنصور لا يتورّع عن إراقة الدماء، و لكن عناية اللّه و عينه التى كانت ترعى الإمام دفعت عنه كيده فى كل مرة كان المنصور ينوى بها الفتک بالإمام الصادق.

يحدثنا على بن مسيرة، قال: لما قدم أبو عبد اللّه على أبى جعفر، أقام أبو جعفر مولى له على رأسه، و قال له: إذا دخل جعفر بن محمد فأضرب عنقه. فلما دخل أبو عبد اللّه نظر إلى أبى جعفر و أسرّ شيئا فى نفسه ثم أظهره: «يا من يكفى خلقه كلهم و لا يكفيه أحد، اكفنى شرّ عبد اللّه بن على» فسلّمه اللّه من شرّه و استجاب دعاءه «۲».

و خلاصة القول، أن الإمام الصادق لم يكن يرى التصوّف أو يقصد تأييد ما ظهر من أفكاره فى عصره، بل ما رأته الصوفية و أوّلته و صبّته فى قوالب أفكارها، هى معالم سيرة طاهرة عرف بها أهل البيت فى كل عصر كقادة للأمة و هداة و أئمة. فلذلک لما جاء قوم- ممن يظهرون التزهّد، و يدعون إلى التقشّف- إلى الإمام الصادق، كما رواها الحسن بن على بن شعبة الحرّانى الحلبى فى تحف العقول كان مما خاطبهم به الإمام الصادق عليه السّلام «هاتوا حججكم» فقالوا: إن حجّتنا من كتاب اللّه. قال لهم عليه السّلام: «فأدلوا بها فإنها أحق ما اتبع و عمل به» قالوا: يقول اللّه تبارک و تعالى يخبر عن قوم من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فمدح فعلهم. و قال فى موضع آخر: وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً فنحن نكتفى. فقال الإمام عليه السّلام: «أخبرونى أيها النفر أ لكم علم بناسخ القرآن من منسوخه، و محكمه من متشابهه الذى فى مثله ضلّ من ضلّ و هلک

---

(۱) الكافى ج ۲ ص ۵۵۷ ط ۲.

(۲) الكافى ج ۲ ص ۵۶۱.

ص: ۱۱۷

من هلک من هذه الأمة؟» فقالوا: بعضه، فأما كلّه فلا. فقال لهم عليه السّلام: «من هاهنا أتيتم، و كذلک أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أما ما ذكرتم من إخبار اللّه إيانا فى كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم، فقد كان مباحا جائزا و لم يكونوا نهوا عنه، و ثوابهم منه على اللّه، و ذلک أن اللّه جلّ و تقدّس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخا لفعلهم، و كان نهى اللّه تبارک و تعالى رحمة للمؤمنين لكى لا يضرّوا بأنفسهم و عيالاتهم، فهم الضعفة الصغار و الولدان، و

الشيخ الفان، و العجوز الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع، فإن تصدّقت برغيفى و لا رغيف لى غيره ضاعوا و هلكوا جوعا، فمن ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان و هو يريد أن يمضيها، فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه و عياله، ثم الثالثة على القرابة و إخوانه المؤمنين، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة فى سبيل اللّه». ثم ساق عليه السّلام جملة من أحاديث جدّه النبى الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال بعد أن رواها:

«فهذه أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يصدّقها الكتاب، و الكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين، ثم من قد علمتم فى فضله و زهده سلمان و أبو ذر، فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه، رفع منه قوته لسنته حتى يحضره عطاؤه من قابل، فقيل له: يا أبا عبد اللّه، أنت فى زهدک تصنع هذا و إنک لا تدرى لعلک تموت اليوم أو غدا؟ فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لى البقاء كما خفتم على الفناء، أو ما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هى أحرزت معيشتها اطمأنت. و أما أبو ذر فكانت له نويقات و شويهات يحلبها و يذبح منها إذا اشتهى أهله اللحم، أو نزل به ضيف، أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشاء على قدر ما يذهب عنهم قرم اللحم (الشهوة إلى اللحم) فيقسّمه بينهم، و يأخذ كنصيب أحدهم لا يفضل عليهم، و من أزهد من هؤلاء و قد قال فيهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما قال، و لم يبلغ من أثرهما أن صارا لا يملكان شيئا البتة، كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم و شيئهم، و يؤثرون به على أنفسهم و عيالاتهم ...

أخبرونى لو كان الناس كلهم كما تريدون زهّادا لا حاجة لهم فى متاع غيرهم، فعلى من كان يتصدّق بكفارات الأيمان و النذور و الصدقات من فرض الزكاة، إذا كان الأمر على ما تقولون لا ينبغى لأحد أن يحبس شيئا من عرض الدنيا إلا قدّمه و إن كان به خصاصة، فبئس ما ذهبتم إليه، و حملتم الناس عليه من الجهل بكتاب اللّه و سنة

نبيه، و أحاديثه التى يصدّقها الكتاب المنزل، أو ردّكم إياها بجهالتكم، و تركككم النظر فى غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ و المحكم و المتشابه و الأمر و النهى ...»

إلى أن يقول لهم عليه السّلام:

«فتأدبوا أيها النفر بآداب اللّه للمؤمنين، و اقتصروا على أمر اللّه و نهيه، ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم مما لا علم لكم به، و ردّوا العلم إلى أهله تؤجروا و تعذروا عند اللّه، و كونوا فى طلب الناسخ من القرآن من منسوخه، و محكمه من متشابهه، و ما أحلّ اللّه فيه ما حرّم، فإنه أقرب لكم من اللّه، و أبعد لكم من الجهل، و دعوا الجهالة لأهلها فإن أهل الجهل كثير و أهل العلم قليل، و قد قال اللّه عز و جل: وَ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ».

و إذا كان المتصوّفة لا يتزحزحون عن الخرقة فى انتسابهم إلى الإمام على عليه أفضل الصلاة و السلام، فلا بد أن تكون سيرة زهده و معالم ورعه من الأمور التى يتوهم بها المتصوفة أنهم يحجّون بها غيرهم حتى و إن كان ولده إمام الأمة و علم الهدى

جعفر بن محمد الصادق عليهم السّلام فتكثر الروايات التى تدل على ذلک، و قد أشرنا إلى أن ما رواه الصوفية فى باب الكرامات يبعد عن صفته فى اللباس و أحواله فى المعاش، و من هذه الروايات: أن رجلا قال للإمام الصادق عليه السّلام: أصلحک اللّه، ذكرت أن على بن أبى طالب كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم و ما أشبه ذلک، و نرى عليک اللباس الجيد؟ فقال له الإمام عليه السّلام: «إن على بن أبى طالب صلوات اللّه عليه كان يلبس ذلک فى زمان لا ينكر، و لو لبس مثل ذلک اليوم لشهّر به فخير لباس كل زمان لباس أهله».

و على أى حال، فإن الإمام الصادق قد تزعّم الحركة الدينية و الفكرية فى زمنه، و قاد أنصار العلويين عبر عهدين، و استطاع أن يواجه مشكلة الحكام بما يخفّف عن العلويين أعباء التضحيات و سفک الدماء.

و كانت شخصية المصلح التى تمثّلت به عليه السّلام قد اجتمعت فيها مؤهلات كبرى و صفات عالية، جعلته يحتلّ تلک المكانة السامية و المنزلة المرموقة فى

المجتمع، و احتل موقع القيادة و الأعلمية؛ فاتجهت إليه الأنظار، و قصدته الوفود من كل الأمصار.

و قد شهد فى حياته فترة من العصر الإسلامى اشتدت فيها التحولات السياسية و نمت فيها بذور التطورات الفكرية، و استطاع الإمام الصادق عليه السّلام أن يقف فى زحمة الأحداث و وسط تلک المعتركات على اختلاف صورها، و يترک آثاره فى كل جانب من حياة المجتمع، و يؤثر فى كل ناحية فكرية، فلا غرو أن تكون سيرته مصدر إلهام و معين علم. أما إذا تحكّم الهوى و غلبت الرغبات، فلا عجب أن تخرج شواهد سيرته و أحداث حياته عن إطارها الحقيقى، و تصرف أقواله عن مقاصدها الأصلية، و أن تبرز عبر فترات متفاوتة و متوالية آراء تبغى الإساءة، و تنفضح مقاصدها و أغراضها.

و لا ننسى أن نذكر من يضاف إلى هؤلاء من المستشرقين «١» الذين بثوا سموم دعاواهم و نظرياتهم بين أبناء أمتنا، حتى أن البعض منهم عند ما يرى الجوانب العظيمة فى شخصية الإمام الصادق، يحاول أن يرجعها إلى أصول يونانية. و هو قول نراه من السخف بحيث لا يستحق أى عناء فى الرد.

لقد كان لأبى عبد اللّه الإمام جعفر بن محمد الصادق من البيان و الحكمة ما جعله متميزا فى الفقه، و منهج الوعظ، و خطة الإصلاح.

سئل أبو حنيفة: من أفقه من رأيت؟ قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق، لما أقدمه المنصور بعث إلىّ فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيّئ له من المسائل الشداد. فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إلى أبو جعفر- و هو بالحيرة- فأتيته، فدخلت عليه و جعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لأبى جعفر، فسلّمت عليه و أومأ إلىّ فجلست، ثم التفت إلىّ فقال: يا أبا حنيفة. ألق على أبى عبد اللّه من

(۱) لم نخض فی افتراءات المستشرقین علی شخصیة جابر بن حیان أبی الکیمیاء و تلمیذ الإمام الصادق علیه السّلام و سلوکهم مختلف الوسائل للإساءة إلی أستاذ جابر و إمامه من تشکیک و نسبة إلی الصوفیة أو الإسماعیلیة أو إنکار وجوده و غیرها، و جمیعها لم تؤثر علی مکانة الإمام الصادق، و اتصال جار بمدرسته علیه السّلام و التخرّج علی یدیه. و من الجلیّ أنهم استعظموا أن یکون فی الإسلام رجل کجابر الذی أنکروا وجوده، فکیف لا یهولهم أن یکون فی تاریخنا من هو أعظم من جابر و صاحب فکر تخرّج علیه العلماء. راجع الجزء الثانی من هذا الکتاب.

مسائلک. فجعلت ألقی علیه، فیجیبنی فیقول: «أنتم تقولون کذا، و أهل المدینة یقولون کذا، و نحن نقول کذا» فربما تابعنا و ربما تابعهم، و ربما خالفنا جمیعا، حتی أتیت علی الأربعین مسألة ما أخلّ منها بمسألة. ثم قال أبو حنیفة رحمه اللّه: ألسنا روینا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس «۱».

و للإمام الصادق علیه السّلام بناء بلاغی فی المواعظ یقوم علی عوامل من الفقه و التصویر و البیان، لیجعل منها وسیلة للنفوس و الأفهام، کقوله علیه السّلام: «التقوی علی ثلاثة أوجه: تقوی باللّه فی اللّه، و هو ترک الحلال فضلا عن الشبهة، و هو تقوی خاص الخالص. و تقوی من اللّه، و هو ترک الشبهات فضلا عن الحرام، و هو تقوی الخاص.

و تقوی من خوف النار و العقاب و هو ترک الحرام، و هو تقوی العام. و مثل التقوی کماء یجری فی نهر، و مثل هذه الطبقات الثلاث فی معنی التقوی کأشجار مغروسة علی حافة ذلک النهر من کل لون و جنس، و کل شجرة منها تستمص الماء من ذلک علی قدر جوهره و طعمه و لطافته و کثافته، ثم منافع الخلق من تلک الأشجار و الثمار علی قدرها و قیمتها».

فکان هذا البناء البلاغی مادة للادعاء بتفسیرات صوفیة للقرآن تنسب إلی الإمام الصادق علیه السّلام تولّی إشاعتها و الإقدام علی وضعها الصوفی أبو عبد الرحمن السلمی «۲» فی طبقاته، و فی حقائق التفسیر.

و من رجال الصوفیة الکبار ممن صنّفهم السلمی فی الطبقة الأولی کأبی یزید البسطامی، من راح یتعلق بمناسبة و بدون مناسبة بالاتصال بالإمام الصادق، و یزید فی ذلک و یبالغ، کما راح أبو یزید یأخذ أقوال الأئمة لیصوغها بألفاظه، و علی الأخص أقوال الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام منها: «عرفت اللّه باللّه، و عرفت ما دون اللّه بنور اللّه».

و سئل: ما علامة العارف؟ فقال: أن لا یفتر عن ذکره، و لا یملّ من حقه، و لا یستأنس بغیره.

و هم أرادوا أن یقحموا الإمام الصادق فی حالاتهم، و یدّعون علیه زورا ما

(۱) مناقب الإمام أبی حنیفة للموفق المکی ط ۱ ص ۱۷۳ ج ۱.

(۲) محمد بن الحسين بن موسى الأزدى النيسابورى المتوفى سنة ۴۱۲.

ص: ۱۲۱

درجوا عليه من الحلول أو التجسيم التى كان يغالى بها البسطامى، و من أخفّها قوله:

إنه ضرب الخيمة محاذاة العرش. و أنه يرى اللّه فى المنام، و أنه مرة جلس فى محرابه فمدّ رجله، فهتف به هاتف: من جالس الملوک ينبغى أن يجالسهم بحسن الأدب.

و حكى عنه أنه كان يقول: سبحانى سبحانى.

فيقولون أنه نقل عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام أنه خرّ مغشيا عليه و هو فى الصلاة، فسئل عن ذلک، فقال: «ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها» «۱».

و إذا استعصى عليهم القول، ساقوه عن الإمام الصادق بنصه، ثم ألحقوا به إشارة أو بيانا يفيد ما يقصدون، كذكرهم قول الإمام الصادق: «لقد تجلّى اللّه تعالى لعباده فى كلامه، و لكن لا يبصرون». فيبيّنون بعد النصّ قصدهم بالقول: فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه، فالحدّ: حد الكلام، و المطلع: الترقى عن الكلام إلى شهود المتكلم! مما يوهم بالاعتقاد بالرؤية، و القول فى اللّه بمشابهته عز و جل للمخلوقات من حيث النظر إليه سبحانه كما ينظر الإنسان إلى جسم محدود، تعالى اللّه عن ذلک، و حاشا أئمة أهل البيت و أعمدة الهدى و نواب صاحب الرسالة من قول ذلک.

و السلمى من أكثرهم نقلا للأقوال التى تنسب للإمام الصادق عليه السّلام و هى تتراوح بين الإيغال فى الغوامض و الإشارات على طريقتهم المعهودة، و بين محاكاة الرموز، كذكره لقول الإمام عليه السّلام الحمد للّه: من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد، لأن الحمد حاء و ميم و دال. فالحاء من الوحدانية و الميم من الملک و الدال من الديمومة.

و لقد حسم الإمام الصادق عليه السّلام هذه المسألة بقول يغلق أبواب التأويل و يفضح التقوّل و الادّعاء، إذ قال عليه السّلام: «و اللّه لقد تجلّى اللّه عز و جل لخلقه فى كلامه، و لكنهم لا يبصرون». و نجد أن التعقيب على النص و الإشارات القائمة عليه غريبة و أجنبية لا تؤثر فى عقيدة التنزيه و ردّ التجسيم و التشبيه.

كذلک فإنهم فى النصوص ينتزعون ما يوافق هواهم و مقاصدهم و لا يذكرون النص بكامله، و لا يوردون القول بتفاصيله، فقوله عليه السّلام الذى مرّ بنا و هو يردّد الآية جاء مبتورا، إذ حقيقة قوله: «ما زلت أردّد الآية على قلبى، حتى سمعتها من المتكلم

---

(۱) السهروردى، عوارف المعارف. و الإحياء للغزالى ج ۳ ص ۵۲۰.

ص: ۱۲۲

بها، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته» أى أنه عليه السّلام كان يتدبّر فى وجوه القدرة و جوانب العظمة و دلالة الوجود.

و عن أبى بصير عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: قلت له: أخبرنى عن اللّه عز و جل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال «نعم، و قد رأوه قبل يوم القيامة» فقلت:

متى؟ قال عليه السّلام: «حين قال عز و جل لهم: أ لست بربكم قالوا: بلى» ثم سكت ساعة، ثم قال عليه السّلام: «و إن المؤمنين ليرونه فى الدنيا قبل يوم القيامة، أ لست تراه فى وقتك هذا؟» قال أبو بصير: فقلت له جعلت فداك، فأحدّث بهذا عنك؟

فقال عليه السّلام: «لا، فإنك إذا حدّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله، ثم قدّر أن ذلك تشبيه كفر، و ليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى اللّه عما يصفه المشبّهون و الملحدون».

كما أن الإمام الصادق كان يأمر أصحابه بمنع الزكاة عمن قال بالجسم.

إن التدقيق فى أقوال الإمام جعفر بن محمد الصادق، و الإمعان فى معرفة منهجه فى الوعظ و الإرشاد، يؤدى إلى معرفة ما يرمى إليه الإمام عليه السّلام من إصلاح الأمة و توجيه الرعية بسبل واضحة و ألفاظ جلية، تستمد من القرآن و السنة معانيها و مضامينها، فليس للخيال الذى يفلت من النص أثر فى جوامع كلمه عليه السّلام كما أنه عليه السّلام يتقيد بالنص و مناسبته أو علته، لكى لا يدع للآخرين مجالا يتذرعون به، فيتركون العنان لشطحاتهم و نزعاتهم تنال من أسباب التشريع أو تنحرف عن أغراض التنزيل ينتحلون ما يشاؤون.

و من حق الصوفية أن يثنوا على نظرية الإمام فى المعرفة، و أقواله فى التوبة و محاسبة النفس، لكن ليس من حقهم أن يجعلوا تراثه الفكرى مادة لبناء مصطلحاتهم و مباحثهم، فالإمام تناول كل ما يتعلق بسلوك المؤمن و علاقة المسلم بربه، و أوضح بمزيد من البيان كل ما يتعلّق بوجود المؤمن فى مجتمعه، و علاقة المسلم بإخوانه، فليس هناك من أحاديث الصادق عليه السّلام المأثورة ما يشبه فى صياغته و بنائه بيان الصوفية و صورهم و أخيلتهم، فمنها ما لدينا عن الشيخ الصدوق فى معانى الأخبار، أن الإمام الصادق قال فى قوله عز و جل: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ قال عليه السّلام:

«يقول: أرشدنا إلى الصراط المستقيم، أرشدنا للزوم الطريق المؤدى إلى محبتك و المبلّغ إلى دينك، و المانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك».

ص: ١٢٣

و لأن هذا القول مشهور لدينا و صحيح بسنده لا يكاد يذكر أو يأتى محرّفا، مما يدل على أن أصل أقوالهم هو من نسج الخيال و التأثر بشخصية الإمام الصادق و عظيم منزلته فى عصره. و كذلك غيره من تفاسير الإمام الصادق، و التى إما أن تكون بيانا لدلالة المعنى و شرحا للمفردات القرآنية التى تتعلّق بالقصد و الإرادة. أو شرحا لمناسبتها و حادثتها، كقوله عليه السّلام فى قول اللّه عز و جل: لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ كانت المراضع، مما تدفع إحداهنّ الرجل إذا أراد الجماع تقول: لا

أدعک، إنی أخاف أن أحبل، فأقتل ولدی هذا الذی أرضعه. و کان الرجل تدعوه المرأة فیقول: إن أجامعک فیقتل ولدی. فیدعها و لا یجامعها، فنهی اللّه عز و جل عن ذلک، أن یضارّ الرجل المرأة، و المرأة الرجل».

و روی عنه علیه السّلام تفسیره لقوله تعالی: إِنَّ ناشِئَةَ اللَّیْلِ هِیَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِیلًا قال علیه السّلام: «یعنی بقوله: و أقوم قیلا، قیام الرجل عن فراشه بین یدی اللّه عز و جل لا یرید به غیره».

و قال فی قوله تعالی: وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ یَسْتَغْفِرُونَ «کانوا یستغفرون اللّه فی آخر الوتر، فی آخر اللیل سبعین مرة».

أما غیرها کما فی مورد تفسیر قوله تعالی حکایة عن سلیمان: یا أَیُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّیْرِ یورد المفسّرون روایة الإمام الصادق عن جدّه الإمام زین العابدین علیهما أفضل الصلاة و السّلام قال: «إذا صاح النسر قال: یا ابن آدم، عش ما عشت آخره الموت.

و إذا صاح العقاب قال: البعد من الناس أنس. و إذا صاح القنبر قال: إلهی العن مبغض محمد و آل محمد. و إذا صاح الخطّاف قال: الحمد للّه رب العالمین، و یمد العالمین کما یمد القارئ «۱» و قد أوردوا عن ابن عباس أیضا أن القنبر یقول: اللهم العن مبغض محمد و آل محمد «۲».

و لا نعلّق علی ذلک بشیء، لأننا فی مقام إظهار منزلة أهل البیت، و أنهم ینبوع الأحکام و مناط الإیمان. فلا غرابة أن ینهل الناس منهم فیحلو المشرب و یصفو إذا کان فی وعاء الولایة و الولاء، و فی صحف الدرایة و المعرفة فیقر منها ما کان موافقا

---

(۱) انظر تفسیر الخازن و تفسیر البغوی/ سورة النمل.

(۲) المصدر نفسه ج ۵ ص ۱۱۱.

للأصول و متفقا مع بداهة العقول، و یغفل أو یهمل ما خالف الأحکام و ناقض العقول، و یشمل ذلک کل ما نسب إلی أهل البیت بغضّ النظر عن الصبغة و المذهب.

و لا نلتفت إلی من ینسب إلیه حفظ التفسیر و نسخته، و إنما یهمّنا الادّعاء بوجود تفسیر صوفی للآیات لدی الإمام الصادق علیه السّلام علی طریقة أقوال الصوفیة، و منهجهم فی تأویل النصوص و المغالاة فی الباطنیة، و إلا فلیخبرنا من یدّعی علما، متی أضاف الإمام الصادق کلمة آمین فی نهایة الفاتحة حتی تصبح من جملة ألفاظ و مفردات سورة الفاتحة التی یذکرها التفسیر فیقول: قال جعفر: [«آمین» أی قاصدین نحوک، و أنت أکرم من أن تخیّب قاصدا]. لأن الشیعة فی صلاتهم لا یجوّزون قول آمین فی آخر الحمد و ذلک اتباعا لإمامهم جعفر الصادق و أهل بیت النبوّة.

فمن المسائل الفقهية فى المذهب الجعفرى، أن لا يصل الإمام و لا غيره قراءته «و لا الضالين» بآمين، لأن ذلک يجرى مجرى الزيادة فى القرآن مما ليس منه، و أن الإمام الصادق نهى عنها لأن اليهود و النصارى يقولون فى طقوس صلاتهم «آمين».

و قد تواترت عند غيرهم من المذاهب الإسلامية حتى أصبحت و كأنها من التنزيل، و هو ما كان يخشاه أئمة الشيعة، و نبّهوا إلى عدم جواز ذكرها بعد قراءة الفاتحة لكى لا يسمعها الجاهل فيراها من التنزيل و هى ليست من التنزيل، فإن قال: «آمين» تأمينا على ما تلاه الإمام، صرف القراءة إلى الدعاء الذى يؤمّن عليه سامعه، قال الإمام الصادق:

«إذا كنت خلف إمام فقرأ الحمد و فرغ من قراءتها، فقل أنت: الحمد اللّه رب العالمين و لا تقل آمين».

و كل ما وصلنا من تفسير عن الإمام الصادق فى مصادرنا المعتبرة، لا يتطرق إليه التكلّف الواضح لتحصيل صرف المعانى إلى ما يميل إليه الصوفية، و نرى أن الانتحال واضح و صريح، سواء من جهة النصوص نفسها و ما تدل عليه المقارنة، أو من جهة المصادر التى هى أدنى من الصوفية إلى الإمام الصادق و أوثق فى النقل عنه.

و من الملاحظة البسيطة للنصوص التى جاءت بطرقها الحسنة و إسنادها المعتبر يظهر الفرق بين النوعين.

ذكر الشيخ الطبرسى فى الاحتجاج: عن حفص بن غياث «١» قال: شهدت

---

(١) النخعى توفى سنة ١٩۴ ه خرّج حديثه أصحاب الصحاح. انظر ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

المسجد الحرام و ابن أبى العوجاء يسأل أبا عبد اللّه عليه السّلام عن قوله تعالى: كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ ما ذنب الغير؟ قال: «ويحک هى هى، و هى غيرها».

قال: فمثّل لى ذلک من أمر الدنيا.

قال: «نعم، أ رأيت لو أن رجلا أخذ لبنة فكسرها، ثم ردّها فى ملبنها، فهى هى و هى غيرها».

و هذا فى مورد الاحتجاج على الزنادقة. و ردّ أقوالهم و محاولاتهم فى الطعن و التشكيک، و هى تجمع الوضوح و عمق الدلالة.

أما الأقوال الأخرى للإمام فى التفسير، فهى تظهر أمورا لا يلتفت إليها غير من تمتّع بعلم خاص، و الغرض هنا إيضاح المنهج فى التفسير، و بيان بنائه فى القول، لأن الأمر الأول يحتاج إلى بحث آخر. فقد سئل الإمام الصادق عن قول اللّه عز و جل فى قصة إبراهيم عليه السّلام: قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ قال:

«ما فعله كبيرهم، و ما كذب إبراهيم؟» قيل: و كيف ذلک؟ فقال: «إنما قال إبراهيم:

فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فإن نطقوا فكبيرهم فعل، و إن لم ينطقوا فكبيرهم لم يفعل شيئا، فما نطقوا، و ما كذب إبراهيم عليه السّلام».

و سئل عن قوله تعالى فى سورة يوسف: أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ؟ قال:

«إنهم سرقوا يوسف من أبيه».

فسئل عن قول إبراهيم: فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ. فَقالَ إِنِّى سَقِيمٌ.

قال: «ما كان إبراهيم سقيما، و ما كذب، إنما عنى سقيما فى دينه أى مرتادا».

و فى قوله تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ قال عليه السّلام: «يطاع فلا يعصى، و يذكر فلا ينسى، و يشكر فلا يكفر». إلى غيرها من الأقوال التى تفسّر الآيات، و جميعها ليس فيها تعيين لحالات و أوضاع على حسب الخيال، أو تشبيه و تقريب إلى حدّ التجسيم و التحديد بالجهة، تعالى اللّه سبحانه، و حاشا أئمتنا الأطهار.

و لنلاحظ ادّعاء التفسير الصوفى فى آية: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ و أن الإمام الصادق عليه السّلام قال: هل ينظرون إلا إقبال اللّه عليهم بالعصمة و التوفيق، فيكشف عنهم أستار الغفلة، فيشهدون برّه و لطفه، بل يشهدون البار اللطيف.

و فى تفسير قوله تعالى: وَ طَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ أنه عليه السّلام قال: طهّر نفسك عن

مخالطة المخالفين، و الاختلاط بغير الحق، و القائمين مع فؤاد العارفين، المقيمين معه على بساط الأنس و الخدمة. وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ: الأئمة السادة الذين رجعوا إلى البداية عن تناهى النهاية.

فجميعها من صور الأحوال لديهم، و صياغتها لا تختلف فى شىء عن مقالات رجالهم، بل ما أبعدها عن أقوال الأئمة و مشاهد مناجاتهم للّه، أو تضرّعهم بين يديه بما لا يشعر إلا بالعبودية و تنزيه الله تعالى عن كل مشابهة بالمخلوقات، و التبرؤ عن أدنى ميل إلى الحلول أو الاتحاد أو التجسيم.

و لقد أوضحنا سابقا أن الإمام الصادق احتج على الصوفية فى أمهات أفكارهم و أسس طريقتهم، و رأينا كيف ميّز موقفه، فقد يكون من بين الذين يدخلون عليه جماعة يرون فى الذى عليه الصوفية متفقا مع عبادته و نسكه و أجواء الانقطاع للّه التى يحسّونها فى كل حركة و إشارة. و الإمام الصادق يدعو إلى أن يكون الإيمان و العمل شعار حياة المسلم، فلا تحول عبادة و أداء فريضة عن مسئوليات الحياة العملية، و ينزوى الناس عن حياة مجتمعهم و هى الصعيد الحقيقى للدعوة و البناء.

و نحن شيعة أهل البيت عليهم السّلام و أصحاب المذهب الجعفرى نعلم أن هناك من بين كتبنا ما فيه بعض الأقوال التى تدرج فى التفسير أو تنسب إليه، و هى فى حقيقتها أقوال تنطلق من واقع ولاء يأخذ الصورة التى تطلّ من وراء نص أو حديث، و

يرفعها بوجه تيارات العداء و النصب التى لعبت فى عقول خدم الحكام و عبيد الخلفاء، و على قلة هذه الأقوال أو ندرتها، فما أعتبر منها لا يخرج عن باعث الولاء لأهل البيت و التعبّد ببعض الصور المأثورة، كما قيل فى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ «١». و ليس هنا موضع بحث ذلک، فهو يحتاج إلى سعة فى القول يوفى بالغرض و يوضّح الفرق بين قول لا يقصد به إلا الصورة و ليس الحال و أسباب النزول، و بين النحل أو الادعاء للاستفادة من موقع الإمام الصادق و منزلته العظيمة فى النفوس، و إن كنّا لا ننفى وجود الحب و الولاء لدى أهل الصوفية و ميلهم إلى الإمام الصادق عليه السّلام كما لا تفوتنا

---

(١) و هى مشهورة بسندها عن ابن عباس، و لم يختص بإيرادها الشيعة وحدهم، بل علماء السنة أيضا كالخوارزمى. و هى تشبيهات يساعد عليها اللفظ، و قد أدّت سياسات النّصب و حملات العداء لآل البيت إلى الاستشهاد بها و ذكرها محرّفة.

الإشارة إلى وجود محاولات لإدخال التعابير الصوفية فى العقائد الشيعية و فى مجال التفسير، و هى قائمة على أساس واضح من فهم عقائد أهل البيت و أحكامهم، لذلک فهى لا تتعدى استعارة الألفاظ الصوفية و استعمالها فى الكتابة بسبب من الاتجاه و السلوک فى الحياة، و الرغبة فى الزهد الظاهر و التقشّف الغالب، و هى محاولات تفسيرية متأخرة رأت فى اتجاهها و سلوكها ما يجمعها مع مفاهيم التصوّف و صيغه التعبيرية، و لكنها تعتمد عقائد الإمامية ركنا و أساسا يضبط استعمالها فى الكتابة مما ينسجم مع بيئات الزهد فى خراسان و المشرق، و التى قامت على أساس جهاد النفس و قمع هواها تزكية، لها لتكون أهلا لمعرفة اللّه و حمل رسالة الإسلام و أحكام المصطفى الهادى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو الأساس الذى يمكن أن يعزى إليه، و يوافق القبول روح الزهد فى الدنيا و العزوف عن ملذّاتها و زخرفها، و الإقبال على الآخرة بالطاعات و العمل الصالح من دون انقطاع عن وتيرة الحياة و مسلک العيش و البقاء فى صميم المجتمع.

و نورد بعض أقوال تفسير الإمام الصادق المعروفة بطرقها من مختلف المذاهب الإسلامية، كقوله عليه السّلام: «نحن حبل اللّه الذى قال اللّه فيه: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا». لأن الإمام الصادق عليه السّلام تبوء موقع الإمامة فى ذلک المنعطف الحاسم الذى يشهد غليان الأطماع و تكالب الناس على الدنيا، و اتجاههم إلى الحكام، فكان عليه أن يواجه ذلک بنهجه فى توحيد صفوف الأمة و جمعها حول ما يمثّل روح القرآن و رسالة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يصون كيانها من سيوف الظلمة، و حرمات المؤمنين من تعدّيات الحكام و عقائد الأمة من انحرافات القصور.

لقد كان عليه السّلام يوجّه الناس فى ضوء الأحداث، و يوصى أصحابه بما عليهم أن يقوموا به، و قد يصل به الأمر إلى أن يطلب من أصحابه أن يعتزلوا لأمر يخشى منه إما من جور أو فساد كما فى وصيته لحفص بن غياث: «إن قدرت أن لا تخرج من بيتک فافعل، فإن عليک فى خروجک أن لا تغتاب و لا تكذب و لا تحسد و لا ترائى و لا تتصنّع».

و يجعل الناس على ثقة من زوال البلوى السياسية، و يتّخذ من سلاح الدين وقاية، إذ يقول لسفيان الثورى «١»: «إذا أحزنک أمر من سلطان أو غيره فأكثر من: لا

(۱) الكوفى. ثقة و حافظ و فقيه و حجة. توفى سنة ۱۶۱ ه مرّت ترجمته فى الجزء الأول.

ص: ۱۲۸

حول و لا قوة إلا باللّه. فإنها مفتاح الفرج» «۱».

إن الإمام الصادق يقيم سلطته الروحية على نصوص من القرآن، يسوق تفسيرها و يجهر بها، و قد كانت من أعظم الأخطار التى هددت الأمويين و العباسيين.

و لكنه عليه السّلام يعلن مقاصد الشريعة، و يحرص على إظهار تفاسير النصوص التى تلاعب بها موالى الحكام و أذناب الولاة فى كل عهد و مرحلة. دخل عليه الحسن بن صالح بن حيّ فقال له: يا ابن رسول اللّه، ما تقول فى قوله تعالى: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ من أولو الأمر الذين أمر اللّه بطاعتهم؟ قال «العلماء» فلما خرجوا قال الحسن: ما صنعنا شيئا، أ لا سألناه من هؤلاء العلماء؟ فرجعوا إليه فسألوه، فقال:

«الأئمة منّا أهل البيت».

و نستظهر من تفسير الإمام الصادق أن معتمده فى إمامته، و منزلته الروحية نص صريح يفصح عنه الإمام الصادق بكل ثقة و قدرة، و هو فى سلطانه الروحى هذا غير منازع، فقد أعجز السلطة حصر تأثيره أو حجزه عن الناس، و قد كان من متطلبات خطته فى الإصلاح و قيادته العمل ضد الجائرين. أن يكون منهجه واضحا و قويا و سهلا، حتى أصبح من الممكن التفريق بين ما صدر عنه و ما أسند إليه من غير صحة تحت تأثير مختلف العوامل. و أقوال التفسير المروية عن الإمام الصادق كثيرة جدا، و لا نجد فى ما نقل منها- خلا ما تقول الصوفية- بعدا عن دلالات المعنى و الأغراض القرآنية كقوله عليه السّلام فى تفسير قول اللّه عز و جل: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ: «إن اللّه سبحانه يقول للعبد يوم القيامة: عبدى أ كنت عالما؟ فإن قال نعم، قال له سبحانه: أ فلا عملت بما علمت؟ و إن قال: كنت جاهلا، قال له سبحانه: أ فلا تعلّمت حتى تعمل».

و أيضا ما فى الكافى: قال عليه السّلام: «إذا أراد اللّه بعبد شرّا، فأذنب ذنبا اتبعه بنعمة، لينسيه الاستغفار. و يتمادى بها و هو قوله: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ بالنعم عند المعاصى» ثم قال عليه السّلام فى الاستدراج: «هو العبد يذنب الذنب، فيملى له، و يجدّد له النعم، فيلهيه عن الاستغفار عن الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم».

و خلاصة القول، أن منحى التفسير الصوفى يوافق رغبات أصحابه فى ظروفها كما يوافق اليوم أصحاب النظريات التى تبحث عن أصول العقائد الحلولية و مصادرها

(۱) حلية الأولياء ج ۳ ص ۱۹۳.

اليهودية و المسيحية، فتأتى نسبة التفسير الصوفى زورا ليتلقّفها الذين فى قلوبهم زيغ و أمراض، و يستمدّوا منها أقوالهم فى الطعن بعقائدنا و أئمتنا. و لو تحلّى البعض بيسير من قيم الأمانة، لما نازعوا الأمر أهله، و لأخذوا ببينة دامغة و شواهد ناصعة، إن لم يناد بها الشيعة فإن كتبهم تصرخ فى نفيها و دحضها، و إذا قبلنا من المتصوفة حب آل البيت، فلا يقبل أحد- يحرص على الإسلام و ملته- أن يمدّ الأعداء بما يشفى غليلهم و ضغينتهم، و يجعلوا من آل بيت النبى و عترته- و هم عدل الكتاب- غرضا لأعداء الدين و المستشرقين.

و يجمع هؤلاء ما انتحله المتصوّفة إلى أفانين الغلاة و أقوالهم، ليقيموا و همهم و آراءهم على أحاسيس و تخيّلات تبعد عن واقع الأئمة، فإن النظرة المتزنة و الاطلاع على تاريخ الشيعة و عقائدهم، يكشفان عن الفروق و الاختلافات، و إن التعميم بتأثير عدم التمييز ما هو إلا افتراء محض و خيانة للأمانة التاريخية التى يجب أن يتحلّى بها المختص إن كان من غير أهل الإسلام، و خيانة للأخوّة الدينية إن كان من أهل الشهادة.

فيجمعون نصوص المتصوّفة فى الحلول و الاتحاد إلى نصوص الفرق الأخرى التى يتجاهلون اختلافها فى العقائد عن الشيعة، و ينمّقون التّهم، و هى على هذا النمط الذى قدمناه كثيرة. و غيرها من الكتب الأخرى لغير المتصوفة من الفرق الأخرى، كالنصوص التى تجدها موضوعة على لسان الإمام الصادق عليه السّلام برواية المفضل الجعفى، نذكر منها هذه النبذة القصيرة:

قال المفضل:

أخبرنى يا مولاى عن قصة الحسين كيف اشتبه على الناس قتله و ذبحه كما اشتبه على من كان قبلهم فى قتل المسيح؟ قال الصادق: يا مفضل، هذا سرّ من أسرار اللّه، أشكله اللّه على الناس، فعرفه خاصة أوليائه و عباده المؤمنون المختصّون من خلقه ...

إن الإمام يدخل فى الأبدان طوعا و كرها، و يخرج منها إذا شاء طوعا و كرها، كما ينزع أحدكم جبته و قميصه بلا تكلف و لا ريب ... «۱».

إلى آخر ما فى الكتاب من أقوال باطنية نسجتها الخيالات، و أدّت إليها ظروف

---

(۱) انظر: الهفت الشريف، تقديم و تحقيق مصطفى غالب ط بيروت ۱۹۶۴.

و أوضاع الحركة الباطنية التى سمحت لنفسها بالتغذى من الأوهام، و الابتعاد عن جوهر أفكار الإمام الصادق و تعاليم أهل البيت، فاستقبلها أعداء الإسلام ليحكموا على حركة التشيّع و ما قدّمه الشيعة عبر التاريخ من خلال نصوص الآخرين المختلفة،

و لم يحكّموا العقل، بل غلبهم الحقد و الهوى. غير أن من نواميس الحياة و سنن الكون بأن يعمل العقل و يطلق، فإن عطل فى فترات، و فرضت مصالح الحكام أن يقمع الشيعة و تكبّل اتجاهات النظر و التدبر، فليس للشذوذ عن النواميس و السنن بقاء. و لذلک فمن حق كل نص ناقض العقل أن يردّ أو يهمل، أما التى تخالف الأصول فشأنها أخطر و أعظم.

و مما قدمناه من تفاسير مأثورة، و بطرقها المعتبرة توضح لنا نهج أهل البيت، و طريقة الإمام الصادق عليه السّلام فى بيان وجوه النص و تفسير القرآن، و إذا ما ورد استشهاد بآى من القرآن فى موارد تعين أحوال الأئمة من أهل البيت، فإن المعروف منها بأنها نزلت فى حق أهل البيت، و لم يشک فيها إلا من أفسد قلبه المرض، و شوّه عقله الزيغ، فراح لا يأبه بأقوال الحق و بالإذعان للصدق، حتى و إن كانت من غير الشيعة، بل غلبه التعصّب و صرعه النّصب، فأدّى به جهله إلى الإنكار، و عناده إلى الافتعال، و ما نراه إلا من سلالة الذين ارتوى سيف الإمام على من دمائهم، و اختص بقطع أعناقهم، أو من الذين أعمى اللّه بصيرتهم؛ فضلّوا و حبطت أعمالهم.

أما تلک الجوانب من أحوال أهل البيت عليهم السّلام التى تروى عن الإمام الصادق، فإنها تقوم على التشبيه و التمثيل الذى لا يمنع منه مانع، سيما و أن وجوه الشبه ظاهرة، و أمارات التقارب واضحة، فإن من لم يقرّ بولاية على بن أبى طالب أو ينصب له العداء، ليس أصدق من وصف حاله بأنه: بطل عمله مثل الرماد الذى تجىء الريح فتحمله. و هو أخذ من الآية الكريمة: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ لتصوير الإحباط.

و صفوة القول أن دعاوى الاتجاه الصوفى أو صدور التفسير الذى يتعلق بهذا الاتجاه ما هى إلا تأولات بعيدة بنيت على ظاهر اختص به أهل بيت النبى الأطهار و هو فى حدود واقعهم و حياتهم اليومية يقوم على أساس من القرآن و الإيمان، و لكن أصحاب الاتجاه الصوفى أخذوا ظواهر التقشف و الزهد فى سير أهل البيت و التى تعنى التهيؤ لأعباء المهمات الدينية، و الاستعداد لتحمّل الرسالة، و مواجهة الحياة على

ص: ١٣١

أساس خصائص الوصاية و خصال الإمامة، لا الانقطاع و الاعتكاف الذى تميّز به التيار الصوفى. و لا نذهب بعيدا فنورد ما جاء فى بعض الروايات التى تنص على تبرؤ الإمام الصادق من دعاوى هذه الجماعة، إلا أنه عليه السّلام يشير إلى أنه «سيكون منهم أقوام يدّعون حبّنا، و يميلون إلينا، و يتشبّهون بنا» و يحذّر من ذلک. و كذلک وردت بعض الروايات عن أبنائه الطيبين الأئمة الميامين و الأوصياء من بعده، إذ كان اتجاه التصوّف يتّسع و هو يتّخذ أوصاف العزلة، و يجعل له مظاهر مفتعلة، فيما كان الأئمة من أهل البيت فى مراحل حياتهم يواجهون أوضاع الأمة، و يضطلعون بأعباء الإمامة و الحفاظ على بقاء نهج الحق و الصدق بطرق من الاتجاه إلى اللّه و الاعتماد على تسديده و الانقطاع إليه، تجعلهم موضع خطر يتهدد عروش الطغاة.

ص: ١٣٣

أئمة المذاهب

نعود مرة أخرى إلى الحديث عن أئمة المذاهب لاستكمال جوانب البحث عن حياتهم، و قبل البدء فى الحديث عن شخصيات أئمة المذاهب، لا بد من القول أن لكل شخصية من شخصياتهم مقوّماتها و ميزاتها الخاصة، و لكل منهم سيرة يهتزّ فيها الواقع و تنغمر فيها الحقائق أمام الغلوّ أو التطرّف فى العداء، شأنهم شأن كل ما يرتبط بفترات الانقسام و الاختلاف. لذا أصبح البحث عن حياتهم يتّصف بالصعوبة و التعقيد، و لكنا حاولنا أن نستخرج شخصياتهم فى إطارها العلمى و ظرفها التاريخى دون التأثر بموجات الغلو أو العداء. فهم فى مواقعهم و مراكزهم الحقيقية و الواقعية لم يكونوا بحاجة إلى مثل هذه التيارات لو أن عناصر الفتنة و العداء تعاملت مع سلوكهم و سيرهم و مآثرهم تعاملا نزيها ينبع من الحرص على الإسلام، و الالتزام بمبادئ الإخاء فى الدين، و المحافظة على وحدة الأمة. و لكنا رأينا فيما مرّ كيف عملت المصالح على دفع الأمة إلى أوضاع سيئة، فتفرّق الشمل، و تمزّق الجمع، و اختلطت الأغراض، و الحكام وراء ذلک يتابعهم أقوام غلب عليهم التعصّب و تحكّمت فيهم الأهواء.

و حقّا إنها لأحداث مؤسفة ينزف لها القلب دما، و قد حكم الدين و التاريخ أن الجهل آفة، و من الجهل أن يتحكّم العداء فى نفوس أهل الإسلام و دين الإخاء و الوحدة، و كلنا أمل أن تكون الاستجابة إلى داعى الحق و نبذ التعصّب و مظاهر الجهل الأخرى خاتمة لعهود الانقسام، و نهاية لأغراض الحكام.

و قبل البدء فى البحث عن أئمة المذاهب، لا بد من الإشارة إلى أمر مهم ما زلنا نعانى من نتائجه و آثاره، و قد رأينا فى موضوع البدع و الضلالات كيف أطلقت

و تبودلت من غير دليل واضح، و دون وجود سبب معلوم خروجه على السنة، أو ما علم من الدين بالضرورة، و من التفاصيل التى أوردناها علمنا أن المذاهب قد شملتها حرب الاتهامات، و كان الشيعة دون هذه المذاهب فى أتون الفرقة و الانقسام، يتألب الحكام ضدهم، و يوجّهون إليهم سيوفهم، و قد مرّت السنون و تعاقبت القرون، فإذا الحكام ما زالوا يرون فى الشيعة خطرا، و يؤلّبون عليهم المذاهب الأخرى، فيبذلون الأموال الطائلة، و يستأجرون الأقلام الرخصية. و لو لا مصالح المتحكّمين لرأينا أن الروح الإسلامية التى تجمعنا إلى إخواننا فى الدين و نعيشها فى حياتنا اليومية و فى المحافل و اللقاءات، و ما تقود إليه نظرة الحق و الإنصاف من علاقات تستهين ببعد الديار، و تنائى الأقطار هى الغالبة. و قد عشت علاقات من الودّ و الإخاء تجمعنى مع إخوان علماء و مختصين فى الأقطار الإسلامية، كان سبب تعارفنا هو تبادل الرأى و المناظرة الحرّة، و كم واجهت حروبا من الجهلة المتعصبين الذين تحجّروا و أغلقوا على أنفسهم منافذ الرأى و طريق التدبّر.

و لا نريد هنا أن نهمل ذكر الدوافع الأساسية على نهجنا فى العرض لأئمة المذاهب، فنحن نعترف بالمكانة العلمية و المنزلة التاريخية لكل منهم، و نجهد فى إبراز جوانب حياتهم، و التى تكشف لنا أن أئمة المذاهب بعلمهم و دينهم لم يباشروا بأنفسهم العداء للشيعة، و لم يسهموا فى إقامة العداء بين المذاهب، فإن حدث اختلاف فى الرأى فهو فى مجالس العلماء و أصحاب الشأن، يتم بتقاليد المناظرة و طرق الاحتجاج و يبقى الحكم للحق. كما أن أئمة المذاهب لم يعرف عنهم بعدّ يؤدى إلى العداء، بل كانوا ما بين متلق مباشرة عن الإمام الصادق، أو متعلم من مدرسة أهل البيت و فقههم، و ممن لا يتجاهلون مكانة الصادق و

أهل بيته. و قد كان للحكام أثرهم فى اتجاهات الناس و مشاعرهم، فيما كان الإمام الصادق يتمتع بذلک السلطان الروحى، و يقوم بأعباء الرئاسة الدينية فى إمامته.

و رأينا بعد هذه الفترة من الانقطاع بين صدور آخر جزء من الكتاب و صدور الجزء السابع و الثامن، أن نجعل كل جزء يتضمّن بحثا عن حياة إمامين من أئمة المذاهب.

و نبدأ بالبحث عن حياة الإمام أبى حنيفة:

ص: ١٣٥

أبو حنيفة

: ذكرنا فى الجزء الأول من كتابنا بعضا من جوانب شخصية الإمام أبى حنيفة و عوامل شهرته، و يواجه الباحث فى ذلک أكثر أنواع الإعجاب و أشدّ أشكال العداء. فقد أطلق عليه أنصاره كل ما يخطر ببال من مفردات الإطراء و الإعجاب، فرفعوه إلى مستوى الأنبياء، و فوق درجة الأولياء. بينما هبط خصومه بشخصيته إلى مستوى الدون، فجرّدوه من كل فضيلة، و سلبوه كل ما يؤهله لمنزلة علمية أو مكانة دينية.

و نحن فى خضمّ هذه التناقضات، نستخلص شخصية النعمان كرئيس مذهب و صاحب مدرسة، لنكشف بعض العوامل التاريخية التى بقيت مهملة عن قصد، أو لم تتضح للكثيرين ممن تصدّوا للبحث، و لم يتمثلوا عناصر التاريخ أو يستوعبوا طبيعة الظرف.

و الإمام أبو حنيفة من أقرب الناس إلى أهل البيت، و أكثر أئمة المذاهب اتصالا بالإمام الصادق عليه السّلام و لقد انعكس ذلک بآثاره الواضحة فى أفكاره و مواقفه.

و ما كان الإمام أبو حنيفة ليظهر فى نظر البعض بعيدا عن أهل البيت لو لا نظرة المنصور السياسية. و محاولته التأثير فى مواقف أبى حنيفة و تصرّفاته، و الاستفادة من علمه فى التأثير على مكانة الإمام الصادق عليه السّلام و دفعه إلى خط العداء لآل البيت.

و لقد مرّ أبو حنيفة بظرف يقرب من المحنة، استطاع أن يجتازها، و أن يحمى نفسه من عذاب الحكام و لذعات عنفهم.

تمتع أبو حنيفة بشهرة تظافرت على قيامها عوامل كثيرة، أهمها قدرته فى القياس، و استطاع أن تكون له مدرسة متميزة هى التى خدمت شخصيته، و عملت على شهرته و رفع مكانته، فقد كان أبو حنيفة محور دائرة الخلافات بين أهل الرأى و أهل الحديث، إذ عرف بالرأى و كثرة القياس، مع قلة العمل بالحديث، و قد اشتهرت مدرسته بذلک، و لقيت معارضة شديدة من حملة العلم و أهل الحديث لاقترانها بالرأى و القياس.

و سار أصحاب أبى حنيفة على رأيه، و طبقوه فيما عرض لهم من مسائل. و قام

ص: ١٣٦

تلامذته بنصرة مذهبه، و فی طلیعتهم القاضی أبو یوسف، و بواسطته نالت المدرسة شهرة واسعة. إذ کانت بیده تولیة القضاة، و هو بمنزلة وزیر العدل فی العصر الحاضر فهو لا یولّی إلّا من کان علی مذهبه. کما قام جماعة بنصرة المذهب و نشره، منهم:

زفر بن الهذیل، و محمد بن الحسن الشیبانی، و الحسن بن زیاد اللؤلؤی. و غیر هؤلاء من أهل العراق الذین عرفوا بأهل الرأی کابن سماعة، و عافیة القاضی، و مطیع البلخی و بشر المریسی ... و منشأ تسمیتهم بأصحاب الرأی، هو أن عنایتهم بتحصیل وجه القیاس و المعنی المستنبط من الأحکام و بناء الحوادث علیها، و ربما یقدّمون القیاس الجلی علی أخبار الآحاد کما اشتهر عن أبی حنیفة أنه قال:

علمنا هذا رأی، و هو أحسن ما رأینا، فمن قدر علی غیر ذلک فله ما رأی و لنا ما رأینا «۱».

و جاء عن أبی یوسف أنه قال قبیل وفاته: کلما أفتیت به؛ فقد رجعت عنه «۲».

و جاء عن أبی حنیفة أنه قال لأبی یوسف: ویحک یا یعقوب لا تکتب کلما تسمع منی، فإنی قد أری الرأی الیوم و أترکه غدا، و أری الرأی غدا و أترکه بعد غد «۳».

و قد اشتهر عن أبی حنیفة قوله: لا یحلّ لمن یفتی من کتبی أن یفتی حتی یعلم من أین قلت «۴». و فی روایة: حرام علی من لا یعرف دلیلی أن یفتی بکلامی. و قد زید فی روایة قوله: فإننا بشر نقول القول الیوم و نرجع عنه غدا.

و لقد تشدد أبو حنیفة فی الحدیث، و کان لذلک أسبابه، إذ إن تلک الفترة قد شهدت موجات الوضع فی الحدیث، و لکی یضمن أصحاب المسائل القبول، کانت فتاواهم تساق إلی الناس بصیغ الحدیث بالنص أو بالمعنی أو بغیرها من الطرق التی شاعت، فأصبح الکذب علی الرسول الأعظم سهلا و تکسّب به لإرضاء الحکام، و وضع الأحادیث وفق أهوائهم حتی بلغ الأمر حدا یثیر سخریة الحکام، کما یثیر

---

(۱) فرید وجدی، دائرة المعارف ج ۴ ص ۱۵۶.

(۲) شیخ الأمة لسید الأهل ص ۱۳۸.

(۳) الاجتهاد و المجتهدون ص ۱۰۲.

(۴) الانتقاء لابن عبد البر ص ۱۴۵.

الأذی فی نفوس المؤمنین «۱». و کان أبو حنیفة لا یری أن یروی الحدیث إلا ما حفظه عن الذی سمعه منه، و هی روایة أبو یوسف. أما روایة أبو حمزة فبعضها: سمعت أبا حنیفة یقول: إذا جاء الحدیث الصحیح الإسناد عن النبی علیه السّلام أخذنا به، و

إذا جاء عن الصحابة تخيرنا، و إن جاء عن التابعين زاحمناهم و لم نخرج عن قولهم. و فى أخرى: و ما جاءنا عن أصحابه رحمهم اللّه اخترنا منه و لم نخرج عن قولهم، و ما جاء عن التابعين فهم رجال و نحن رجال «۲». و الأخيرة أقرب إلى حقيقة موقف أبى حنيفة و أخذه بالرأى.

و قد توافر لمدرسة أبى حنيفة أنصار عملوا بالرأى و أخذوا بالقياس، و أعلنوا اختلافهم عن أهل الحديث. فاشتهرت مدرسة الرأى، و ارتبطت باسمه و تزعّم تيارها.

و لأن تلامذة أبى حنيفة و أنصاره كانوا من النشاط و الفعالية بالدرجة الملحوظة؛ فقد استقرت مدرسة الرأى و انتشرت فى العراق.

و هناک خلاف حول الشخص الذى أرسى دعائم مدرسة الرأى و أعلى بنيانها؟

هل هو إبراهيم، أم حمّاد؟ و يذهب بعضهم إلى القول بأن مؤسسها هو الخليفة عمر بن الخطاب. فيقول أحمد أمين: و كان حامل لواء هذه المدرسة عمر بن الخطاب، و أشهر من سار على طريقته عبد اللّه بن مسعود فى العراق، فكان يتعشّق عمر و يتعجب بآرائه. و جاء فى أعلام الموقعين: أن ابن مسعود كان لا يكاد يخالف عمرا فى شىء من مذاهبه.

و قد انطوى عهد عمر إلى أبى موسى عبد اللّه بن قيس الأشعرى على إشارات تحضّ على القياس عند ما قال: الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرک مما ليس فى كتاب و لا سنّة، ثم أعرف الأشباه و الأمثال، و قس الأمور عند ذلک، و أعمد إلى أشبهها بالحق.

---

(۱) نضرب مثلا بأبى البخترى و غيره ممن جاء بعده فى مسألة إقبال خلفاء بنى العباس على تطيير الحمام.

دخل أبو البحترى على هارون و هو يطير الحمام، فقال له: تحفظ فى هذا شيئا؟ فقال: حدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يطير الحمام. و يأتى غيره فيضع بلا حياء حديثا على لسان النبى الأعظم بإضافة «جناح» إلى حديثه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا سبق إلا فى خف أو حافر. ليرضى خليفة آخر من بنى العباس.

(۲) الانتقاء لابن عبد البر.

و مع أن صحة هذا العهد موضع نظر، إلا أنه من أكبر دعائم القول بقدم الرأى عند القائلين به، رغم أن الطرف الآخر ينسب إلى عمر قولا يعارضه.

و قال الشعبى: كان عبد اللّه لا يقنت، و لو قنت عمر لقنت عبد اللّه «۱» و يظهر من هذا أن عمر كان يعمل بالرأى، و هو مؤسس هذه المدرسة، و سار عبد اللّه بن مسعود على منهجه، فكانت فتواه هى فتوى عمر بن الخطاب، فالرأى متحد.

أخذ أبو حنيفة العلم عن حمّاد بن سليمان، و أخذ حمّاد عن إبراهيم النخعى، و أخذ إبراهيم عن علقمة بن قيس، و علقمة هو تلميذ ابن مسعود، فكان إبراهيم لا يعدل بقول عمر و ابن مسعود، و إذا اجتمعا كان قول عبد اللّه أعجب لأنه كان ألطف.

و من هذا اشتهرت مدرسة الرأى فى العراق لأن عبد اللّه بن مسعود كان قد أقام فى الكوفة مدة من الزمن، و كان يفتى الناس و يحدّثهم.

قال أبو عمر الشيبانى: كنت أجلس إلى ابن مسعود حولا لا يقول: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإذا قالها استقلّته الرعدة «۲».

فإذا كان إبراهيم ألزم لأقوال ابن مسعود، فأبو حنيفة كان يلازم أقوال إبراهيم و أقرانه، و لا يجاوز إلا ما شاء اللّه، و كان عظيم الشأن فى التخريج على مذهبه، دقيق النظر فى وجوه التخريجات. و إذا أردت أن تعلم حقيقة ذلك، فلخّص أقوال إبراهيم من كتاب الآثار لمحمد، و جامع عبد الرزاق، و مصنّف أبى بكر بن أبى شيبة، ثم قايسه بمذهبه؛ تجده لا يفارق تلك المحجة إلا فى مواضع يسيرة، و هو فى تلك الموارد اليسيرة لا يخرج عمّا ذهب إليه فقهاء الكوفة «۳».

و لقد أعلنت المدينة غضبها على أهل الرأى و بالأخص الكوفة و العراق بصورة عامة، و من شدّة الصراع و تفاقم الخلافات، تحامل حملة الآثار على أهل العراق.

فقالوا بعدم علمهم بالحديث، الأمر الذى ألجأهم إلى التمسّک بالرأى و العمل بالقياس.

---

(۱) فجر الإسلام ص ۲۴۰ ط ۷.

(۲) نفس المصدر السابق.

(۳) ولى اللّه دهلوى، رسالة الإنصاف. و دائرة المعارف، فريد وجدى ج ۳ ص ۲۰۶.

و قد صدرت عن مالک بن أنس ألفاظ تعبّر عن عمق التأثر، فقد قيل عنه أنه قال: أنزلوهم- أى العراقيين- منزلة أهل الكتاب، لا تصدّقوهم و لا تكذّبوهم، و قولوا آمنا بالذى أنزل إلينا و أنزل إليكم، و إلهنا و إلهكم واحد «۱».

و دخل عليه محمد بن الحسن الشيبانى فسمعه يقول هذه المقالة، ثم رفع رأسه فقال للشيبانى: يا أبا عبد اللّه، أكره أن تكون غيبة، كذلک أدركت أصحابنا يقولون.

و كان مالک إذا نظر إلى أصحاب الرأى من العراقيين يقرأ: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ «٢».

و كان يسمى الكوفة: دار الضرب. يعنى أنها تضع الأحاديث و تخرجها كما تخرج دار الضرب الدراهم و الدنانير.

و قال عطاء لأبى حنيفة: من أين أنت؟

قال: من أهل الكوفة.

قال: أنت من أهل القرية الذين فرّقوا دينهم و كانوا شيعا؟ و إن صدور أمثال هذه الأقوال من رجل كمالک بن أنس- الشخصية الدينية و السياسية فى آن واحد- لها أثرها، و إن شيوع أشياء كهذه لها نتائجها الخطيرة التى تستلزم حشد الجهود و تعبئة القوى لردّ خطر ما ينجم من ورائها من تفاعلات. فكانت مقابلات حادة و مواجهات تتصف بالعنف و الخروج عن قواعد المساجلات العلمية.

و قد كانت شهرة أصحاب الرأى سريعة، استطاعت أن تكون بإزاء مدرسة الحديث بتاريخها و مواقعها، و لما كان أبو حنيفة ينتقى أصحابه و يختارهم فيتعاهدهم بالرعاية و العناية كاختياره لأبى يوسف و رعايته للآخرين، لذا فقد تأثروا به غاية التأثّر، و أصبحوا متفرغين لتطبيق منحى الرأى و الدفاع عنه.

كما كان أبو حنيفة يشجّع الجدل بين تلامذته، و يتركهم يتبادلون الأقوال و الحجج، و قد يستغرق ذلک وقتا طويلا فى جلسة واحدة و بإشراف أبى حنيفة. حتى نبغ تلامذته، و كانوا من أعمدة القياس، و أصبحت صورة حلقة أبى حنيفة فى أذهان الناس تتكون من أجزاء بعضها يكمل بعضا، حتى قال وكيع لرجل قال أخطأ أبو

---

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم و فضله ج ٢ ص ١٥٧.

(٢) ضحى الإسلام ج ٢ ص ١٥٢.

حنيفة: كيف يقدر أبو حنيفة أن يخطئ و معه مثل أبى يوسف و زفر فى قياسهما؟ «١».

و لكن الأمر فى المدينة غيره فى العراق، فقد كانت الصورة تظهر أبا حنيفة و هو يقود حركة القياس. فيروى عن الشافعى رحمه اللّه أنه قال: قيل لمالک بن أنس: هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلا لو كلمک فى هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته.

لقد بلغ أبو حنيفة من حضور الذهن و توقّد الذّكاء مستوى جعله يتغلب على منافسيه بطرقه و قياسه، كابن أبى ليلى، الذى كان اختلافه معه فى المسائل مادة كاملة ضمها مصنف كامل. و منها عند ما اجتمع أبو حنيفة و ابن أبى ليلى عند أبى جعفر المنصور

فسأل ابن أبى ليلى أبا حنيفة عمن باع ثوبا و تبرأ من العيب؟ فقال: إذا برأه فقد برىء. و قال ابن أبى ليلى: لا يبرأ حتى يضع يده على العيب. فلم يزل يدخل عليه أبو حنيفة حتى قال: لو أن امرأة [و ذكر ما يعنى أنها من العباسيين] باعت عبدا و على رأس ذكره برص، أ يجب عليها أن تضع يدها على رأس ذكره؟ فقال ابن أبى ليلى: يجب عليها ذلك. فغضب المنصور عند ذلك و أهانه، فظفر به أبو حنيفة.

لقد كان أبو حنيفة محور دائرة الخلافات، و الهدف الذى يوجه إليه الطعن. و قد حمل العلماء على أهل الرأى حملة شعواء، و أورد أهل الحديث روايات عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ذم الرأى، منها:

«إن اللّه لا ينزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعا، و لكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى أناس جهّال يستفتون برأيهم فيضلّون و يضلّون» «٢».

و حدثوا عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «تفترق أمتى على بضع و سبعين فرقة، أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم، يحرّمون به ما أحلّ اللّه، و يحلّون به ما حرّم اللّه» «٣» و أوردوا عن عمر بن الخطاب قوله: إياكم و أصحاب الرأى، فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها؛ فقالوا بالرأى، فأخلّوا و أضلّوا.

---

(١) تاريخ بغداد ج ١۴ ص ٢۴٧.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عبد البر بطريق عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص.

(٣) أخرجه الحافظ ابن عبد البر بطريق عن ابن مالک الأشجعى.

إلى كثير من الأحاديث التى أوردوها، و الأقوال التى نقلوها عن الصحابة و التابعين و أتباعهم. و اشتد النزاع و تحوّل إلى تعصّب قبلى و تحزّب إقليمى، و أصبح من المحتّم على أصحاب الرأى و على العراقيين و الكوفة بالأخص أن تردّ على تلک الهجمات، و أن تنتصر لوطنها و آرائها.

و على هذا النحو استمر الوضع من تربّص كل فريق بالآخر، فتنابزوا و تقابلوا بانتقاص البعض للبعض، و عيّروا أهل الكوفة بالنبيذ، و أهل المدينة بسماع الغناء.

و اشتدّت عصبية كل قوم لبلدهم، و كان للأدب قسط وافر فى هذا الصراع فى عصر أبى حنيفة و بعده.

قال عمار الكلبى يذم أهل الحديث:

إن الرواة على جهل بما حملوا | مثل الجمال عليها يحمل الودع

لا الودع ينفعه حمل الجمال له | و لا الجمال بحمل الودع تنتفع

و يقول بعضهم:

يحمل أسفارا له و ما درى | إن كان ما فيها صوابا أو خطأ

إن سئلوا قالوا كذا روينا | ما ان كذبناه و لا اعتدينا

و قال بكر بن حماد قصيدة منها:

و كل شياطين العباد ضعيفة | و شيطان أصحاب الحديث مريد

و أثارت هذه القصيدة حميّة كثير من الشعراء المنتصرين لأهل الحديث، فعارضوها بعدة قصائد كابن غياث عبد السلام بن يزيد إذ يقول:

تعرّضت يا بكر بن حمّاد حطة | بأمثالها فى الناس شاب وليد

فذمّک هذا فى المقال مذمّم | و ذمّک هذا فى الفعال حميد

و هى قصيدة طويلة «١».

و منها قول أحمد بن عصفور يعارض ابن حمّاد:

---

(١) جامع بيان العلم و فضله ج ٢ ص ١٢٦.

أيا قادحا فى العلم زند عمائه | رويدا بما تبدى به و تعيد

جعلت شياطين الحديث مريدة ألا إن شيطان الخلال مريد

و جرّحت بالتكذيب من كان صادقا فقولک مردود و أنت عنيد

و مهما كان الشعر فى معركة الرأى و الحديث فإنه لا يبلغ فى تأثيره و فعله ما يصدره أصحاب الحديث أنفسهم و الذين يتصدّون للردّ على أهل العراق و إعلان سخطهم على أبى حنيفة لأنه يتزعم حركة القياس بإزائهم.

و قد أجحف خصومه فى نقده و التحامل عليه و الطعن فى معتقده حتى قالوا عنه: إنه استتيب من الكفر مرتين «١». و إنه إذا جاء الحديث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيخالفه إلى غيره «٢» و قد خالف مائتى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «٣».

و قد حددوا كفره بالقرآن بآيتين، كما ورد عن شريک أنه قال: كفر أبو حنيفة بآيتين من كتاب اللّه ... «٤».

و قد جعلوا وجوده ضررا على الإسلام، و بقاءه هدما للدين و فتكا بالمسلمين، لأنه يهدم الإسلام عروة عروة، و أنه شر مولود ولد فى الإسلام «٥».

و قد أورد الخطيب فى تاريخه، و ابن عبد البرّ فى انتقائه أقوالا كثيرة أطلقها خصومه، و شاعت فى أندية المجتمع، حتى بلغت إلى المنامات و الأطياف، إذ كان لها سوق رائج فى عصور التطاحن المذهبى، و لا أرى داعيا لاستعراض تلک الأقوال مناقشا لها أو مؤيدا. و سنعاود بحث أمرها فى الجزء الثامن.

و على أى حال، فقد دلنا التتبع على أن شخصية أبى حنيفة لمعت بعد أن رسخت قدم تلامذته فى الدولة، و أصبح لهم النفوذ التام عند ما ارتبطوا ارتباطا وثيقا بسياستها، و كان فيهم القضاة و ذوو النفوذ، فانتشر المذهب المنسوب إليه، و اتسعت مدرسته بقوة تلامذته، و قد أدت عوامل التضارب و شدة الخلافات إلى إيجاد جو

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص ١٥٠.

(٢) مختلف تأويل، الحديث ص ٦٣.

(٣) ابن عبد البر، الانتقاء ص ١٥٠.

(٤) الخطيب، تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٧٢.

(٥) الانتقاء ص ١٥٠.

مضطرب حمل بعض الاتباع على أن يضعوا الأخبار، و يختلفوا الحكايات. بل وضعوا كتبا مطولة لإعلاء شأنه. مما أدى بالباحث عنه أن يجد الصعوبة فى بحثه عن الحقيقة الكامنة وراء أكداس من الدعايات. فإذا أردنا الوقوف على حقيقة ما يدّعى له من سعة العلم، و أن الناس عيال عليه، و إنه وضع سبعين ألف مسألة فى الفقه، فإنّا نجد أقرانه و معاصريه لم يعرفوا عنه ذلک، كما أن تلامذته و المنتسبين لمدرسته قد خالفوه فى كثير من الآراء، و ردّوا الكثير من أقواله. و أقوالهم فى جميع الأبواب الفقهية إلى جنب أقواله. فمرة يتّفقون معه، و مرة يخالفونه. و قد بيّنا منزلته فى الحديث، و ما قالوه عنه: بأنه لم يكن صاحب حديث بل قيّاسا. و أنه لم يعرف إلا سبعة أحاديث. و قد وجدنا أكثر الرواة و المحدّثين لم يرووا عنه، و ضعّفه البخارى «١» و ترک حديثه، و كذلک بقية أصحاب الصحاح الستة. و قال يحيى بن معين: لم يكن أبو حنيفة صاحب حديث. و قد مرّت الأقوال فى ذلک. و نحن لا نذهب لتأييدها، لأنها كانت مصوغة بقالب التحامل عليه.

لقد كان أبو حنيفة حريصا على طلب العلم، عرف بقدرته على المناظرة و ذكائه و نباهته، و كان محمد يختلف إلى الإمام الصادق عليه السّلام و يسأله عن كثير من المسائل مع أدب و احترام، و لا يخاطبه إلا بقوله: جعلت فداک يا ابن رسول اللّه. و قد روى أبو حنيفة عن الإمام الصادق. و كان الإمام الصادق ينهاه عن القياس، و يشدّد الإنكار عليه و يقول: «بلغنى أنک تقيس الدين برأيک، لا تفعل فإن أول من قاس إبليس».

و قد علم الإمام الصادق صفات أبى حنيفة و قدراته، فكان عليه السّلام يوجّه إليه المسائل التى تتفق مع ما عرف عن أبى حنيفة من الذكاء. قال له الإمام عليه السّلام: «يا أبا حنيفة ما تقول فى محرم كسر رباعية ظبى؟ قال: يا ابن رسول اللّه ما أعلم فيه. فقال:

أنت تتداهى و لا تعلم أن الظبى لا يكون له رباعية، و هو ثنى أبدا» «٢».

---

(١) كان طعن البخارى فى أبى حنيفة فى كتابه الضعفاء لا يقل نقمة و سخطا عن منهج الخطيب البغدادى على قلة العبارة و موجز القول. و قد كان النسائى فى كتابه الموسوم بالضعفاء و المتروكين أقل سخطا.

(٢) المصايد و المطارد لكشاجم ص ٢٠٢. و وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٢. و مرآة الجنان ج ١ ص ٣٠٥.

و يظهر لنا تاريخ حياة أبى حنيفة، أنه كان من الشخصيات المرموقة فى عصره، و كانت له حلقة درس يرتادها جماعة و فى طليعتهم تلميذه الأول أبو يوسف.

و أصبحوا من بعده علماء و لهم أراؤهم الخاصة و أقوالهم المنفردة عن قوله، و لأن أبا حنيفة قد عرف بالقياس؛ فقد نقم عليه علماء عصره، و شدّدوا عليه النكير. فلم يخضع لواحد منهم إلّا للإمام الصادق عليه السّلام كما يستدل من قوله المشهور: لو لا السنتان لهلک النعمان. و المراد بالسنتين هما اللتان قضاهما فى المدينة مع الإمام الصادق عليه السّلام فى آخر أيامه، و أخذ

عنه العلم، و قد نهاه عن استعمال القياس و قال له: «إنه أول من قاس إبليس» فى قصة طويلة. و مما يدلّ من بعض آثاره أنه ترک القياس، إلّا أن مدرسته ظلّت تأخذ به، و كما اشتهرت مدرسة أبى حنيفة بالقياس، فقد اشتهرت باستعمال الحيل الشرعية، و قد نسبوا له كتاب الحيل الشرعية. و من المستحسن الإشارة لذلک بموجز من البيان لتظهر لنا حقيقة لها أهميتها فى تاريخ حياة الإمام أبى حنيفة. فهل كان أبو حنيفة يستعمل الحيل، و أنه وضع فى ذلک كتابا تداوله الناس، أم أنها نسبة لا أصل لها؟.

الحيلة الشرعية

: الحيلة مأخوذة من الاحتيال، و هى الحذق و جودة النظر، و القدرة على التصرّف.

و أكثر استعمالها فيما فى تعاطيه خبث، و قد تستعمل بما فيه حكمة، و لقد غلب فى العرف اللغوى إطلاقها على ما يكون من الطرق الخفية التى يتوصل بها إلى حصول الغرض، بحيث لا يتفطّن له إلا بنوع من الذكاء و الفطنة، و تنصرف أيضا إلى الطرق الخفية التى يتوصل بها إلى الغرض الممنوع منه شرعا أو عقلا، أو عادة. و يقصد بها الحيل التى تستحلّ بها المحارم، و أطلقها الفقهاء على المخارج من المضايق بوجه شرعى لمن ابتلى بحادثة دينية. و الحيلة ترتبط بالرأى، و حيث كانت مدرسة أبى حنيفة معروفة بالرأى، فقد عرفت هذه المدرسة بالحيل الشرعية. و قد اشتهر عن أحمد بن حنبل أنه قال: هذه الحيل التى وضعها أبو حنيفة و أصحابه، عمدوا إلى السنن فاحتالوا فى نقضها، أتوا إلى الذى قيل إنه حرام احتالوا فيه حتى أحلّوه.

و يظهر من كلمة الإمام أحمد هذه أنهم- أى أصحاب أبى حنيفة- استعملوا الحيل غير الجائزة و الممنوعة شرعا، و قد اهتم المذهب الحنفى من بين المذاهب

ص: ١۴۵

بالحيل، فقد ألفوا كتبا فى الحيلة، و قد نسب لأبى يوسف كتاب فى الحيل «١» و لكنه مفقود الآن، و كذلک لمحمد بن الحسن الشيبانى كتابا فى الحيل رواه عنه معاصره أحمد بن حفص البخارى. و رواه أيضا موسى بن سليمان الجوزجانى المتوفى سنة ٢۴۴ ه كتابا ألّف أحمد بن عمر الشيبانى الخصّاف- أحد قضاة الدولة المتوفى سنة ٢۶١ ه- كتابا فى الحيل، و كثير من الكتب فى هذا الموضوع نسبت إلى الحنفية.

أما أبو حنيفة، فلا يعلم بالضبط أن له كتابا فى الحيل كان أبو حنيفة يستعمله، و قد نسب لابن المبارک أنه قال: من استعمل كتاب الحيل لأبى حنيفة أو أفتى بما فيه؛ فقد بطل حجّه، و بانت منه امرأته.

و لا نعلم مقدار صحة هذا القول من ابن المبارک، فهو من أصحاب أبى حنيفة و مناصريه، و لا ندرى هل أن أبا حنيفة استعمل الحيل الجائزة أم المحرمة. فإن كان الأول، فليس لنا أن نحصر الأمر به، فإن حدّة الذهن و التخلّص من المشاكل لم يكن من امتياز أبى حنيفة وحده، إذ الأمور المشروعة فى الحيل قد سبق العمل بها فى العصر الذى سبق عصر أبى حنيفة. أما إذا كان استعماله للحيل غير الجائزة و هى الاحتيال على حلّية ما هو حرام، أو على إسقاط ما هو واجب أو غير ذلک، فهل يمكننا أن نحمّل أبا حنيفة مسئولية فتح هذا الباب، و لم يصل إلينا كتاب يدل على استعماله للحيل غير الجائزة؟ فهو لم يؤلف فى ذلک

كتابا لا فى الحيل و لا غيرها، أما كتاب العالم و المتعلم فهو كتاب صغير لا يدل على مكانته العلمية و منزلته التى وصفوه بها، و لم يتفق على صحّة نسبته إلى أبى حنيفة.

و ليس ببعيد أن يكون أصحابه قد استعملوا الحيل غير الجائزة و نسبوها لرأيه، كما هو شأنهم فى كل مسائل المذهب، فإنهم يستخرجون المسألة الشرعية حسب نظرهم و رأيهم، و يقولون هذا رأى أبى حنيفة، مستندين إلى قاعدة: أنه يعمل بما صحّ عنده من الحديث. فهم يصحّحون الأحاديث لتقويم فتاواهم، و يسندون الكل لأبى حنيفة. و قد عقد ابن قيم الجوزية فصلا طويلا فى كتابه (أعلام الموقعين) ذكر فيه

---

(١) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١١.

الحيل المحلّلة و الحيل المحرّمة، و ذكر الأخبار فى ذلك، و أفاض فى البيان فأكثر و قال فيما قال:

و المقصود أن هذه الحيل لا تجوز أن تنسب إلى إمام، فإن ذلك قدح فى إمامته، و ذلك القدح يتضمّن القدح فى الأمة، حيث ائتمّت بمن لا يصلح للإمامة، و هذا غير جائز. و لو فرض أنه حكى عن واحد من الأئمة بعض هذه الحيل المجمع على تحريمها، فإما أن تكون الحكاية باطلة، أو يكون الحاكم لم يضبط لفظه، فاشتبه مع بعد ما بينهما. و لو فرض وقوعها منه فى وقت ما فلا بد أن يكون قد رجع عن ذلك.

و ليس الأمر هنا للافتراض و اللّابدية، و إنما المدار على الواقع. فإن الأكثر ينسبون لأبى حنيفة فتاوى بالحيل الممنوعة، كما نسبوا إليه كتابا فى ذلك، و الأمر يحتاج إلى تدقيق و تمحيص، لا للافتراض و اللّابدية.

و قال ابن قيّم: فهذه الحيل و أمثالها لا يحلّ لمسلم أن يأتى بها فى دين اللّه، و من استحلّ الفتوى بهذه، فهو الذى كفّره الإمام أحمد و غيره من الأئمة حتى قالوا: (إن من أفتى بهذه الحيل؛ فقد قلب الإسلام ظهرا لبطن، و نقض عرى الإسلام عروة عروة).

و إلى هذا الحد لم تتعين الفرقة التى اتسعت دائرة الحيل باستعمالها، هل هم الحنيفية فقط؟ أم يشاركهم غيرهم فى ذلك؟ و قد نقل عن بعضهم أنهم قالوا: ما نقموا علينا من أنّا عمدنا إلى أشياء كانت حراما عليهم، فاحتلنا فيها حتى صارت حلالا؟

و قال آخرون منهم: إنّا نحتال للناس منذ كذا و كذا سنة فى تحليل ما حرّم اللّه عليهم.

و لا ندرى من هو القائل، و إلى أى فرقة ينتسب، و إلى أى مذهب يرجع.

قال أحمد بن زهير: كانت امرأة هاهنا بمرو، أرادت أن تختلع من زوجها، فأبى زوجها عليها. فقيل لها: لو ارتددت عن الإسلام لبنت منه. ففعلت، فذكر ذلک لعبد اللّه بن المبارک فقال: من وضع هذا الكتاب فهو كافر، و من سمع به فهو كافر، و من حمله من كورة إلى كورة فهو كافر، و من كان عنده فرضى به فهو كافر. قيل له:

يا أبا عبد الرحمن: إن هذا الكتاب وضعه إبليس؟ قال: إبليس من الأبالسة. و قال النضر بن شميل فى كتاب الحيل ثلاثمائة و عشرون أو ثلاثون مسألة كلها كفر. و ذكر كتاب الحيل لشريک بن عبد اللّه القاضى فقال: من يخادع يخدعه. و قال إسماعيل بن حمّاد: قال القاسم بن معن قاضى الكوفة: كتابكم هذا الذى كتبتموه فى الحيل

كتاب الفجور. و إسماعيل بن حمّاد هو حفيد النعمان بن ثابت أبى حنيفة. و من هنا يظهر أن الكتاب الذى يتضمن الحيل المحرمة هو من وضع الحنيفة، لا من وضع أبى حنيفة نفسه.

قال يزيد بن هارون: لقد افتى أصحاب الحيل بما لو أفتى به النصرانى أو اليهودى كان قبيحا «۱». و نقل عن أحمد بن حنبل عن محمد بن مقاتل قال: شهدت هشاما و هو يقرأ كتابا، فانتهى بيده إلى مسألة فجازها، فقيل له فى ذلک فقال: دعوه.

و كره مكانى، فتطلعت فى الكتاب فإذا فيه: لو أن رجلا لفّ على ذكره حريرة فى شهر رمضان، ثم جامع امرأته نهارا فلا قضاء عليه و لا كفارة «۲».

فالحيلة فى فسخ المرأة النكاح: أن ترتدّ، ثم تسلم.

و الحيلة فى سقوط القصاص عمن قتل أم امرأته: أن يقتل امرأته إذا كان لها ولد منه.

و الحيلة فى سقوط الكفارة عمن أراد الوطى فى رمضان: أن يتغدّى، ثم يطأ بعد الغداء.

و الحيلة لمن أراد أن يفسخ نكاح امرأته و يحرّمها على نفسه على التأبيد: أن يطأ حماته أو يقبّلها.

و الحيلة لن أراد سقوط حدّ الزنا: أن يسكر، ثم يزنى.

و الحيلة لمن أراد سقوط الحج عنه مع قدرته: أن يملّک ماله لابنه عند خروج الركب، فإذا أبعد استردّ ماله.

و الحيلة لمن أراد أن يملک مال غيره بغير رضاه: أن يفسد عليه، أو يغيّر صورته فيملكه، فيذبح شاته، و يشقّ قميصه، و يطحن حبه.

و الحيلة لمن أراد قتل غيره و لا يقتل به: أن يضربه بدبوس أو مرزبة حديد، ينثر دماغه فلا يجب عليه القصاص.

(۱) أعلام الموقعين ج ۳ ص ۱۴۸.

(۲) أعلام الموقعين ج ۳ ص ۱۵۰.

ص: ۱۴۸

و الحيلة لمن أراد أن يسقط عنه حدّ السرقة: أن يدّعى أن المال له، و أن له فيه شركة، فيسقط عنه الحد بمجرد دعواه.

و الحيلة لمن أراد سقوط حدّ الزنا عنه بعد أن يشهد عليه أربعة عدول غير متّهمين، أو أن يصدّقهم فيسقط عنه الحدّ بمجرد تصديقهم.

و الحيلة لمن أراد الصيد فى الأحرام: أن ينصب الشباک قبل أن يحرم، ثم يأخذ ما وقع فيها حال إحرامه بعد أن يحلّ.

هذا بعض ما ذكروه من استعمال الحيل. و قد نقل عن أبى حنيفة أنه يفتى ببعضها كاستئجار الجارية لكنس البيت. و حوادث أخرى مشهورة ذكرتها المصادر.

منها: ما ذكره ابن عبد البر فى الانتقاء عن شريک أنه قال: كنا فى جنازة غلام من بنى هاشم، و قد تبعها وجوه الناس و أشرافهم، فأنا إلى جنب ابن شبرمة أماشيه إذ قامت الجنازة، فقيل: ما للجنازة لا يمشى بها؟ قيل: خرجت أمه والهة عليه سافرة وجهها فى قميص. فحلف أبوه بالطلاق لترجعنّ، و حلفت هى بصدقة ما تملک لا رجعت حتى تصلى عليه، و كان يومئذ مع الجنازة ابن شبرمة و نظراؤه، فاجتمعوا لذلک، و سئلوا عن المسألة، فلم يكن عندهم جواب حاضر. قال: فذهبوا، فدعوا بأبى حنيفة- و هو فى عرض الناس- فجاء مغطّيا رأسه و المرأة و الزوج و الناس وقوف، فقال للمرأة: علام حلفت؟ قالت: علىّ كذا كذا. و قال للزوج بم حلفت؟ قال: بكذا. قال ضعوا السرير فوضع، و قال للرجل تقدّم فصلّ على ابنک. فلما صلّى قال: ارجعى، فقد خرجتما عن يمينكما، احملوا ميّتكم. فاستحسنها الناس.

و كان المنصور يعرف عنه هذه القدرة فى إيجاد المخارج. يروى حمزة بن عبد اللّه الخزاعى أن أبا حنيفة هرّب من بيعة المنصور جماعة من الفقهاء، ثم قال أبو حنيفة: لى فهم أسوة. فخرج مع أولئک الفقهاء، فلما دخلوا على المنصور أقبل على أبى حنيفة وحده من بينهم فقال له: أنت صاحب حيل، فاللّه شاهد عليک أنک بايعتنى صادقا من قلبک؟ قال: اللّه يشهد علىّ حتى تقوم الساعة. فقال: حسبک. فلما خرج أبو حنيفة قال له أصحابه: حكمت على نفسک ببيعته حتى تقوم الساعة؟ قال: إنما عنيت حتى تقوم الساعة من مجلسک إلى بول أو غائط أو حاجة، حتى يقوم من

ص: ۱۴۹

مجلسه ذلک «۱». و على كل حال فقد اشتهر المذهب الحنفى بالعمل بالحيل الشرعية.

يقول الدكتور على عبد القادر: بقى أبو حنيفة فى نظر أتباعه صاحب الفضل فى الحيل المتعلقة بالحلف، و من هنا أخذ الأحناف يذكرون عن إمامهم ماله من حدة ذكاء فى مسائل الحلف، و قد كانت كتب الحنفية فى الحيل قد انتشرت بين الناس، فكان من أثر هذا أن أخذ الشافعية كذلك ينافسونهم فى هذا الميدان، و يؤلفون فى الحيل.

هذا فى رأينا هو الباعث على وجود كتب الحيل فى مذهب الشافعى بعد إن كان إمامهم يحكم عليها بالحرمة أو الكراهة، بالرغم من الاعتراف بصحتها من حيث الظاهر، و قد استمر على مخاصمة الحيل فى المذهب كل من: الغزالى و عبد الرحمن بن زياد. و لكن ابن حجر نازعهم فى هذا فى فتاويه، و بقى رأيه هو الذى عليه العمل فى المذاهب «٢».

و من مسائل الحيل التى كثر الاختلاف بها هى الحيلة على إسقاط حق الشفعة، و قد أقرّت الشريعة الإسلامية حق الشفعة للشريک. و قام الدكتور عبد السّلام ذهنى بتناولها فى كتابه (الحيل المحظور منها و المشروع).

و ذهب بعض العلماء الأول إلى أن القياس يأبى ثبوت حق الشفعة، لأنه يتملک على المشترى ملكا صحيحا له بغير رضاه، و ذلک لا يجوز، فإنه من نوع الأكل بالباطل، و تأييد هذا بقول النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» و لأنه بالأخذ يدفع الضرر على نفسه على وجه يلحق الضرر بالمشترى فى إبطال ملكه عليه، و نقل هذا الوجه عن أبى بكر الأصمّ «٣» و قيل فى الشفعة بأن فيها رفعا لضرر موهوم عند الشفيع، فى مقابل ضرر محقق لدى المشترى «٤». و لذا تجب العناية بالضرر الواقع، و صرف النظر عن الضرر الموهوم. و قيل فيها بأن حكمة الشارع منها اقتضت رفع الضرر عن المكلفين ما أمكن «٥».

---

(١) الانتقاء، ص ١٥٩ و ١٦١.

(٢) نظرة عامة ص ٢٤١.

(٣) انظر: نيل الأوطار.

(٤) ابن عابدين ج ٥ ص ١٤٣.

(٥) أعلام الموقعين ج ٣ ص ٢٤٧.

و قد اختلفوا بجواز التحايل فيها، و صوّروا لذلک صورا منها: إذا ترک البائع قطعة أرض على ملكه بين العقار المبيع و الشفيع حتى لا يستطيع هذا الأخير الادعاء بالجوار. أو أن يهبه تلک القطعة الفاصلة لتحول دون الشفعة بسبب الهبة.

و قال أبو حنيفة و الشافعى بجواز الاحتيال فى الشفعة لإسقاطها، لأنها من الحقوق غير المستحبّة. و قال بذلک مالک، و أحمد، و حجتهم أن الحيلة أمر مستنبط من الكتاب و السنّة؟! و يقول فريق آخر: بعدم جواز الحيلة فى سبيل إسقاط الشفعة، لأن الحيلة إنما هى رخصة لضعفاء المؤمنين، و لأن التحيّل لإبطال الشفعة شرّعت لدفع الضرر. فلو شرّع التحيّل لإبطالها، لكان عودا على مقصود الشريعة بالإبطال، و يلحق الضرر الذى قصد إبطاله «١».

و اتفق علماء المسلمين على ثبوت الشفعة للشريک، أما الشفعة بالجوار فقد اختلفوا على ثلاثة أقوال: فأهل الكوفة يثبتون شفعة الجوار و لو مع تمييز الطريق و الحقوق. و أهل المدينة يسقطونها و لو مع الاشتراک. و أهل البصرة يثبتونها إذا وقع الاشتراک فى حق من حقوق الأملاک.

و على أى حال، فإن هذه المسألة هى من المسائل الهامة التى اشتهرت بها مدرسة أبى حنيفة، و قد ضاعف ذلک تفاقم النقمة عليها و توجيه الانتقاد إليها، و قد نسبوا إلى أبى حنيفة أنه وضع كتابا فى الحيل فهم يستمدّون منه و يأخذون عنه، و لا بد من التحقق من ذلک و ثبوته، و ربما أنهم أخذوا من فتاوى أبى حنيفة و قواعده و زادوا، فسوّغوا استعمال الحيل بشتى أنواعها، كما هو الشأن فى جميع أبواب الفقه المنسوب لأبى حنيفة، فإسناد الفتوى له إنما هو استنتاج يكشف عن رأيه، بمعنى أنه لو عاش أبو حنيفة لكان هو رأيه، أو على قاعدة الترخص منه بقوله: إذا صحّ الحديث فهو مذهبى.

---

(١) أعلام الموقعين ج ٣ ص ٢٢٩. و الميزان للشعرانى ج ٢ ص ٨٧.

صلته مع العلويين

: نشأ أبو حنيفة فى الكوفة، و كانت منبعا للحركات الثورية، فكم من ثورة عارمة قامت ضد سلطة فأخمدتها القوة، و أخرى استطاعت أن تخمد قوة السلطة و تقيم دولة مستقلة زمنا طويلا، و الحركة التى أطاحت بالدولة الأموية كان منشؤها الكوفة، البلدة التى ولد فيها أبو حنيفة و نشأ فيها، و كان يشارک الثوار فى حركاتهم سرا أو علانية، و قد نكل به ابن أبى هبيرة عامل بنى أمية، و ضربه بالسياط.

و عاش أبو حنيفة وسط أحداث سياسية، كان لها الأثر فى نبوغه و معرفة اتجاهه و منحاه السياسى الذى ينتهجه.

و قد تجلّت موهبته، و ظهر نشاطه و ميله للعلويين عند ما ظهر زيد بن على بالكوفة سنة ١٢٤ ه فكان يرى إمامة زيد، و أنه على الحق، فأرسل إليه زيد رسالة مع الفضل ابن الزبير يدعوه إلى بيعته، فلما بلّغه الفضل رسالة زيد، ذكره أبو حنيفة بكل جميل، و ألزم الخروج معه، و قال: لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام الحق، و لكن أعينه بمالى. ثم بعث إليه بالمال و هو ثلاثون ألف درهما، و قيل ثلاثون ألف دينارا، و قال للرسول: أبسط عذرى عنده ..

و سئل أبو حنيفة عن خروج زيد فقال: ضاهى خروج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم بدر.

فقيل له: لم تخلّفت عنه؟ قال: حبستنى عنه ودائع الناس، عرضتها على ابن أبى ليلى فلم يقبل، فخفت أن أموت محمّلا. و كان كلما ذكر خروج زيد بكى.

كما إنه انتصر لمحمد بن عبد اللّه بن الحسن و أخيه إبراهيم، و كان يحثّ الناس على الخروج للحرب مع إبراهيم و كان يقول: غزوة مع إبراهيم أفضل من خمسين حجة بعد حجة الإسلام «١». و كان الإمام أبو حنيفة عند ذكر مصاب محمد النفس الزكية، يفعل كما يفعل عند ذكر استشهاد زيد، فتدمع عيناه ..

و جاءت إليه امرأة فقالت: إن ابنى يريد هذا الرجل- أى إبراهيم- و أنا أمنعه؟

فقال: لا تمنعيه «٢».

و قال أبو إسحاق الفزارى: جئت إلى أبى حنيفة فقلت له: أما اتقيت اللّه! أفتيت

---

(١) المكى ج ٢ ص ٨۴.

(٢) المصدر السابق.

أخى بالخروج مع إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن حتى قتل؟ فقال: قتل أخوك حيث قتل، يعدل قتله لو قتل يوم بدر، و شهادته مع إبراهيم خير له من الحياة «١». فكان إسحاق يبغض أبا حنيفة.

و من هذا نستظهر أن أبا حنيفة معروف بميله للعلويين، و لذا وجه إليه زيد الدعوة للخروج معه، و جاء فى اعتذار أبى حنيفة فى بعض الروايات أنه كان مريضا.

أو أن لديه ودائع للناس ملزم بحفظها أو ردّها، كما أن استفتاء الناس له بالخروج مع إبراهيم، يدلّ على مكانته الاجتماعية فى ذلک المجتمع. و بجانب ذلک، فقد كانت له مكانة سياسية و يد فى الثورة، و قد أرسل رسالة إلى إبراهيم، يشير عليه أن يقصد الكوفة ليعينه الزيدية، و قال: ائتها سرا، فإن من فيها من شيعتكم يبيّتون أبا جعفر فيقتلونه أو يأخذون برقبته فيأتونک به.

و لما توجه إبراهيم لمقابلة عيسى بن موسى- القائد العباسى- و قامت الحرب بينهما، كان أبو حنيفة يدعو الناس للخروج معه. قال أبو نعيم: سمعت زفر بن الهذيل يقول: كان أبو حنيفة يجهر فى أمر إبراهيم جهرا شديدا، و يفتى الناس بالخروج معه. فقلت له: و اللّه ما أنت بمنّته عن هذا، حتى توافى فتوضع فى أعناقنا الحبال «٢».

و حدّث محمد بن الحسن و غيره من أصحابه: أن أبا حنيفة كتب إلى إبراهيم بن عبد اللّه لمّا توجّه إلى عيسى بن موسى: إذا أظفرک اللّه بعيسى و أصحابه فلا تسر فيهم سيرة أبيک فى أهل الجمل، فإنه لم يقتل المنهزم و لم يأخذ الأموال، و لم يتّبع

مدبرا، و لم يذفّف على جريح، لأن القوم لم يكن لهم فئة. و لكن سر فيهم بسيرته يوم صفين، فإنه سبى الذرية، و ذفّف على الجريح لأن أهل الشام كانت لهم فئة، و كانوا فى بلادهم «٣».

فظفر أبو جعفر بكتابه، فكان الهدف الرئيسى من عرض القضاء على أبى حنيفة- بعد مدة- هو اتخاذ وسيلة للقضاء عليه بحجة امتناعه عن معاونة الدولة، و كان أبو

---

(١) المقاتل ص ٢٤٦.

(٢) المقاتل و تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٢٩ و ٣٣٠.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٧.

حنيفة يرى حرمة التعاون معهم لأنهم أئمة جور. و قد كان لأبى حنيفة اتصال بالإمام الباقر عليه السّلام و ولده الإمام الصادق عليه السّلام و يعدّ من تلامذتهما، كما أنه اتصل بعبد اللّه بن الحسن و كان يعدّ من شيوخ أبى حنيفة.

و يقول الأستاذ محمد أبو زهرة

: لقد كان أبو حنيفة يميل إلى أولاد على، و يرى أنهم أحقّ بالخلافة من بنى العباس، و كانت لرابطة العلم تأثير فى ولائه و اتجاهه السياسى، إذ كان تلميذا لعبد اللّه بن الحسن، كما أنه على علاقة وثيقة بزيد و جعفر الصادق، و لذلك لمّا خرج إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن على المنصور، كان هوى أبى حنيفة معه، و لم يكتف بذلك، بل ثبّط أحد قوّاد المنصور- و هو الحسن بن قحطبة- عن الخروج لحرب إبراهيم.

و يبدو تأثير الإمام الصادق على أبى حنيفة من خلال مقاطعته الدولة العباسية، فقد صرّح الإمام الصادق- كما رأينا- بعدم معاونة الظالمين، و قطع الصلة بين الرعية و بين السلطة الحاكمة، و هو ما يسمى ب (العصيان المدنى) «١». فعند ما أراد المنصور أن يختبر طاعته و ولائه عرض عليه القضاء، فامتنع أبو حنيفة. ثم أراد إخراجه، فطلب منه الاشتراك بالعمل فى بناء مدينة بغداد- و هى ما زالت تبنى- فأبى أبو حنيفة.

و أقسم المنصور أن يفعل، و أبو حنيفة يأبى. ثم قبل منه أن يعدّ اللبن فى بناء بغداد، و أبرّ بذلك قسم المنصور «٢» و لكنه لم يثبت هذا القول، و لم يرد فيما ورد عن أبى حنيفة فى أقواله و آرائه.

و على أى حال، فإن أبا حنيفة كان ذا صلة بآل البيت، إذ أخذ عن الإمام محمد الباقر و ولده الإمام الصادق، و عن زيد بن على، و عبد اللّه بن الحسن. و كان يحتجّ بقول الإمام على، و ربما كان يروى عنه بقوله: عن أبى زينب. خشية من الأمويين.

كما أنه لم يسالم الأمويين، و اشترک فی حرکة الشیعة للإطاحة بحکمهم، فقدّم لثورة زید دعما ماليا، کما أن المعروف عنه أنه لم یسالم العباسیین، و لذا فإن فتواه التی کان

---

(۱) انظر الجزء الثانی من الإمام الصادق المذاهب الأربعة.

(۲) تاریخ ابن خلدون ج ۳ ص ۴۱۸.

یفتی بها، و نقده الشدید للأحکام التی کان یصدرها الحکّام کانت تثیر السخط علیه.

فمن ذلک أن المنصور استفتاه فی الذین انتفضوا علیه من أهل الموصل، هل تحلّ له دماؤهم؟ فأجابه أبو حنیفة:

إنهم شرطوا لک ما لا یملکونه، و شرطت علیهم ما لیس لک، لأن دم المؤمن لا یحلّ إلا بثلاث. فقال له المنصور: یا شیخ، القول ما قلت، و لکن لا تفت الناس بما هو شین علی إمامک.

و الحقیقة أن المنصور من خلال إصراره علی تولی أبی حنیفة القضاء یکشف عن نیته فی الإیقاع به، و لیس الأمر إلا العامل السیاسی الذی کان یستفزّ المنصور و یجعله یقدم علی قتل الناس و سفک الدماء. لذا فإن امتناع أبی حنیفة عن تولی القضاء لا یجعل المنصور یقتله هذه القتلة الشیعة، و إنما أرسل المنصور لیحضر أبا حنیفة من الکوفة لیقتله و یرتاح منه لأن أبا حنیفة کان یتعاون مع العلویین، و یساعد الثوار منهم، و یقوّی إبراهیم أحمر العینین. و کان مقام أبی حنیفة فی الکوفة یؤدی إلی إثارة الرأی العام، لأنه مقبول القول عند الناس، ذو حال واسعة من التجارة. فکان المنصور یخشی من اتساع دعوة أبی حنیفة لإبراهیم و أخیه محمد، و طلبه من الکوفة إلی بغداد، و لم یجسر علی قتله علنا «۱».

و علی الجملة فإن میل أبی حنیفة لأهل البیت کان أمرا یبعث السلطة علی العداء له و ترصّد الدوائر به. و سنأتی علی مزید من القول فیه.

یقول الأستاذ محمد أبو زهرة:

(و ننتهی من الکلام أن أبا حنیفة شیعی فی میوله و آرائه فی حکام عصره، أی أنه یری الخلافة فی أولاد علی من فاطمة، و أن الخلفاء الذین عاصروه قد اغتصبوا الأمر و کانوا لهم ظالمین) «۲».

و أن الشیء المهم الذی یلزم أن نقف إمامه وقفة تأمل هو: شهرة أبی حنیفة العلمیة التی اکتسبت طابع الانتشار بعد موته، حتی أصبح مرجعا لملایین المسلمین،

(١) انظر: السيد عفيفى المحامى، حياة الإمام أبى حنيفة.

(٢) أبو حنيفة ص ١۶۵.

ص: ١۵۵

فما هى العوامل التى ساعدته، و أدّت إلى هذا الاشتهار؟ فإنّا إذا لحظنا أبا حنيفة ذاته وجدنا أنه لم يكن له امتياز على كثير من العلماء المبرزين من أقرانه فى عصره، نعم كان مشهورا بالقياس، و هذا ما أوجب نقمة كثير من العلماء عليه.

أما تفوقه العلمى و شهرته، و بقاء مذهبه و انتشاره فى الأقطار الإسلامية، فيرجع إلى شهرة أبى يوسف، فهو تلميذ أبى حنيفة و قد نال أبو يوسف مودّة الرشيد، فكان يحبّه حبّا شديدا و يقول: لو جاز أن أدخلک فى نسبى لفعلت. فكان لأبى يوسف المنزلة و الكلمة النافذة فى الدولة.

و لو لا أبو يوسف لما ذكر أبو حنيفة، و لكن منزلة أبى يوسف فى الدولة، و توليته رئاسة القضاء جعلت ذكر أبى حنيفة ينتشر، و قد التفّ حوله جميع المنتمين لمدرسة أبى حنيفة و تلامذتهم، فكان نشاطهم محسوسا، و نالت أقوالهم الصبغة الرسمية. ثم عمدوا لنشر مذهب أبى حنيفة، فكانوا لا يقرّبون إلّا من كان على طريقتهم فى الاجتهاد و الفتيا، و هم على طريقة أبى حنيفة فى الاستنباط.

و يمكننا أن نعتبر تمكّن أبى يوسف و سلطته التشريعية نقطة بداية وضع أسس المذهب، فتطورت فى المستقبل، إذ وجدت الظروف و الإمكانيات اللازمة.

و على هذا فقط نشط أصحاب أبى حنيفة بتوليتهم القضاء، و نشر أقوال أبى حنيفة و آرائه، و كانوا يسيرون على قواعد مذهبية فى الحديث، و منهم المجتهدون، و أكثرهم ينفرد بقول، و يذهب إلى رأى غير رأى أبى حنيفة.

و قد اعتبروا استنباطهم للمسائل التى لم يكن لأبى حنيفة قول فيها هو رأيه و قوله، كما هو واضح لمن تتبع موارد الاستنباط عندهم، فيرون عن أبى حنيفة أنه قال لأبى يوسف: و يحكم، كم تكذبون علىّ فى هذه الكتب ما لم أقل. و كيفما كان فقد تكوّن المذهب بجهود أصحابه الذين ينتمون لمدرسته، و يعرفون بالانتساب إليه، و كان عددهم ستة و ثلاثين رجلا، و فى طليعتهم أبو يوسف، فهو الذى تزعّم هذه المجموعة، و ساعدته الظروف بأن يتولى منصب رئاسة قضاة الدولة فى إبان قوتها، فقرّب أصحابه و تقرّب الناس إليهم حبّا لما فى أيديهم من الدنيا، فوسّعوا دائرة المذهب، و نشروا الأحكام باسم أبى حنيفة، و توارث تلامذتهم نصرة المبدء و نشر المذهب حتى جاء عصر التطاحن و التكالب على الدنيا، فكان هناک تعصب أعمى،

ص: ١۵۶

و طائفية حمقى، و تحامل بدون مبرر، و مدح بدون لياقة، و شتم بدون ذنب. فاتسعت دائرة الدعوة إلى المذاهب، حتى جاء دور التحجير و الإلزام بالأخذ عن هذه المذاهب دون غيرها، و كان للمذهب الحنفى شأن واسع و ذكر منتشر.

أبو يوسف

: و ليس من المبالغة أن يقول عمار بن أبى مالک: لو لا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة. لأن ارتباطه بالحكم هيأ له نفوذا شخصيا و سياسيا كبيرا ساعد على أن يكون رأيه فى الفقه و مذهبه هو المذهب الرسمى. فأبو يوسف هو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة، و أملى المسائل و نشرها، و بثّ علم أبى حنيفة فى أقطار الأرض «١».

لقد كان أبو يوسف أول من دعى بقاضى القضاة، ولّاه موسى الهادى و هارون الرشيد. و كان يفهم من ذكر (قاضى القضاة) أن المراد به أبو يوسف. و لم يكتف أبو يوسف بنفسه، بل أستخلف ابنه يوسف على الجانب الغربى، فأقره الرشيد على عمله، و قد غلب عليه الاهتمام بشئون الحكام، و لم يكن من الفقه بتلک المنزلة التى تشير الناس إليه، و تضمن له موقعا علميا. فيروى الخطيب البغدادى بسنده قول هلال بن يحيى: كان أبو يوسف يحفظ التفسير و المغازى و أيام العرب، و كان أقل علومه الفقه «٢».

و لهذا كان ما اشتهر من كتبه هو من شئون الحكم أكثر منه أن يكون من قضايا الفقه، فالخراج كان من تنظيمات السلطة، و تخطيط اقتصاد الحكام، و كذلک (الرد على سير الأوزاعى) فليس هو من فقهه، و إنما صنّفه أبو يوسف للرد على الأوزاعى الذى صنف كتابا ردّ فيه على سير أبى حنيفة، و ليس فيه إلا المسائل التى كان أبو يوسف قد تلقّاها على أبى حنيفة. و كذلک الأمالى و هى الطريقة نفسها التى اتبعها فى نشر أصول الفقه من خلال موقعه و اتصاله بالحكام. فكان نفوذ المذهب يستمدّ من نفوذ السلطة. و لأبى يوسف كتب كثيرة دوّن فيها أراؤه و آراء شيخه، ذكرها ابن النديم

---

(١) الخطيب البغدادى ١٤/ ٢٤٦.

(٢) الخطيب و شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٩. و وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٢٥.

منها: كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، كتاب الصيام، كتاب الفرائض، كتاب البيوع، كتاب الخراج، كتاب الوكالة، كتاب الوصايا، كتاب اختلاف الأنصار، كتاب الرد على مالک و غيرها. و له إملاء رواه بشر بن الوليد القاضى يحتوى على ستة و ثلاثين كتابا.

قال رجل لأبى يوسف: رجل صلى مع الإمام فى مسجد عرفة، ثم وقف حتى دفع بدفع الإمام؟ قال: ما له؟ قال: لا بأس به. فقال: سبحان اللّه، قد قال ابن عباس:

من أفاض من عرفة فلا حجّ له، مسجد عرفة فی بطن عرفة؟ فقال: أنتم أعلم بالأحكام، و نحن أعلم بالفقه. قال: إذا لم تعرف الأصل فكيف تكون فقيها؟ «۱».

إن أبا حنيفة قد رعى أبا يوسف رعاية خاصة. و كان يتفقّده و يتعاهده و يمدّه بالمال حتى استغنى و تموّل بعد أن كان فی ضيق و فقر، و كان أبوه ينهاه عن طلب العلم على أبی حنيفة لئلا يؤثر ذلک على رزقهم و تحصيل قوتهم. و يروى أبو يوسف ذلک: (توفی إبراهيم بن حبيب، و خلّفنی صغيرا فی حجر أمی، فأسلمتنی إلى قصّار أخدمه، فكنت أدع القصّار و أمرّ إلى حلقة أبی حنيفة، فأجلس أستمع. فكانت أمی تجیء خلفی إلى الحلقة، فتأخذ بيدی و تذهب بی إلى القصّار. و كان أبو حنيفة يعنی بی لما يرى من حضوری و حرصی على التعلم. فلما كثر ذلک على أمی، و طال عليها هربی، قالت لأبی حنيفة: ما لهذا الصبی فساد غيرک، هذا صبی يتيم لا شیء له، و إنما أطعمه من مغزلی، و آمل أن يكسب دانقا يعود به على نفسه. فقال لها أبو حنيفة: مری يا رعناء هذا هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق) ثم يقول: إنه ضحک عند ما كان يجالس الرشيد و يأكل معه فالوذجة بدهن الفستق.

و قد أشرنا إلى طريقة أبی حنيفة فی الدرس، و كان يقرّب كلا من أبی يوسف و زفر أحدهما عن يمينه و الآخر عن يساره، و يدعهما يتجادلان. و تختتم الروايات عن أستاذية أبی حنيفة بعبارة واحدة لها معناها، إنه كان يضرب بيده على فخذ زفر قائلا:

لا يطمع فی رئاسة فيها أبو يوسف. و هی برواية عمر بن حمّاد بن أبی حنيفة «۲».

و يروى ابن إبراهيم بن عمر عن فراسة أبی حنيفة التی ينظر بها فيرى ما سيصير

---

(۱) الخطيب البغدادی ج ۱۴ ص ۲۵۶.

(۲) الخطيب و ابن العماد فی الشذرات و ابن خلكان.

إليه أبو يوسف: كان أبو حنيفة حسن الفراسة، فقال لداود الطائی: أنت رجل تتخلى للعبادة. و قال لأبی يوسف: تميل إلى الدنيا.

و محمد بن صبيح بن السماک- الذی كان يعظ الرشيد- ينظر إلى موقع أبی يوسف فی السلطان و مكانته فيقول: لا أقول إن أبا يوسف مجنون، و لو قلت ذاک لم يقبل منی، و لكنه رجل صارع الدنيا فصرعته.

و لكنّ شخصية أبی يوسف أثّرت فی النظر إلى المذهب الحنفی أو إلى فقه أبی حنيفة نفسه من ناحية، كما أن روح اتباع الحكام و سيرة الخضوع للسلطة و خلفائها المتجبّرين، عزلت أبا يوسف عن أبی حنيفة و أصحابه الآخرين، لكی يكون متميزا عن مواقف إمامه التی ذكرناها فی الابتعاد عن الحكّام و التعامل معهم بحذر. أو أنها ظلت شيئا من سيرة أبی حنيفة لا تلزم أصحابه، فيما ظل المذهب فی أصوله من اختصاصه و هو فی السلطان، و أصبح جزءا من الحكم حتى قيل: و قد تجد الرجل يطلب

الآثار و تأويل القرآن و يجالس الفقهاء خمسين عاما و هو لا يعدّ فقيها، و لا يجعل قاضيا، فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة و أشباه أبى حنيفة، و يحفظ الشروط فى مقدار سنة أو سنتين، حتى تمر ببابه فتظنّ أنه من بعض العمال، و بالحرى ألّا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان «١».

و الاتجاه الأول يمثله عبد اللّه بن المبارک الذى كان من علمه ما أثّر كثيرا على منزلة أبى حنيفة، و راح يطعن فيه. غير أن أصحاب المذهب عمدوا إلى وضع أقوال مخالفة تماما لما اشتهر عن ابن المبارک، حتى تجدها فى ترجمة أبى حنيفة فى تاريخ بغداد، أو الانتقاء متناقضة متباينة.

فعن عبد الرزاق بن عمر قال: كنت عند عبد اللّه بن المبارک، فجاءه رجل فسأله عن مسألة، فأفتاه فيها. فقال له: قد سألت أبا يوسف فخالفک. فقال له: إن كنت صليت خلف أبى يوسف صلوات تحفظها فأعدها.

كما يروى عن ابن المبارک أنه سئل: أيّما أصدق أبو يوسف أو محمد؟ قال: لا تقل أيهما أصدق، قل أيهما أكذب؟!

---

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٨٧.

و سئل يزيد بن هارون: ما تقول فى أبى يوسف؟ قال: لا تحلّ الرواية عنه، إنه كان يعطى أموال اليتامى مضاربة، و يجعل الربح لنفسه.

أما الذين أسلموا دينهم و دنياهم إلى أهواء الحكام، فيهبّون للدفاع عن أبى يوسف، و إبعاد صلته عن أبى حنيفة، و يختارون لذلک تهمة الجهمية، اتباع الجهم بن صفوان الذى قال من جملة ما قال: بأن لا فعل و لا عمل لأحد غير اللّه تعالى، و إنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين مجازا، و أنه لا يصف اللّه بوصف يجوز إطلاقه على غيره.

قالوا: كان أبو حنيفة جهميا، و كان محمد بن الحسن جهميا، و كان أبو يوسف سليما من الجهم. و هو لأبى الزرعة الرازى.

و عمر الناقد قال: ما أحب أن أروى عن أحد من أصحاب الرأى إلا عن أبى يوسف، فإنه كان صاحب سنّة.

و الدار قطنى كان يقول: هو (أبو يوسف) أقوى من محمد بن الحسن. كما يروى عنه أنه قال: أعور بين عميان.

و لسنا هنا فى معرض ذكر أصحاب أبى حنيفة، و إنما ذكرنا أبا يوسف لغرض بيان علاقته بالسلطان، و انضمامه إلى الحكم على نحو يخالف فيه رأى أبى حنيفة و سيرته. و لذلک نسوق بعضا من أوجه خضوعه لخلفاء بنى العباس، و العمل على إرضائهم، فيما كان يمدّ فى رقعة اتساع مذهبه، و يوسّع من نطاق انتشاره من خلال سلطته و نفوذه، و على طريقة استنباطه و صوغ أفكاره التى وضعت أصول المذهب الحنفى و رسّخت كيانه. و قد ذكر الخطيب البغدادى أن البخارى قال: حكى لنا عن النعمان

أنه قال: (أ لا تعجبون من يعقوب؟ يقول علىّ ما لم أقل). مما يظهر أن أبا يوسف كان يسمح لنفسه فى حياة شيخه أن يستنبط ما يشاء، و يدخل فى المذهب ما يراه. ففى كتاب الخراج يذكر رأى أبى حنيفة، ثم يصرّح برأيه على خلافه، كما أنه لم يكن لأبى حنيفة كتاب مستقل فى الفقه، نعم نسب إليه كتاب (العالم و المتعلّم) و قد بيّنا الاختلاف حوله، و أنه ليس له.

يقول الشيخ محمد الخضرى: و قد حاول بعض الحنفية أن يجعل أقوالهم المختلفة أقوالا للإمام رجع عنها.

ص: ١۶٠

و الحاصل، إن مذهب أبى حنيفة لم يكن هو مجموع أقواله و آرائه، قد رأينا أصحابه ينفردون بأقوالهم. و لكن حاول الحنفية جعل جميع الأقوال منسوبة إليه لأنها على قواعده و أصوله.

يقول ابن عابدين: (إن ما خالف فيه الأصحاب إمامهم الأعظم لا يخرج عن مذهبه، إذا رجّحه المشايخ المعتبرون. و كذا ما بناه المشايخ على العرف الحادث لتغيير الزمان، أو للضرورة، أو نحو ذلک، لا يخرج عن مذهبه أيضا، لأن ما رجّحوه لترجيح دليله عندهم مأذون فيه من جهة الإمام. و كذا ما بنوه عليه من تغيير الزمان و الضرورة، باعتبار أنه لو كان حيا لقال بما قالوه، لأن ما قالوه إنما هو مبنى على قواعده أيضا، فهو مقتضى مذهبه ....) الخ «١».

لقد ابتليت الأمة بحكّام أسرفوا فى البذخ و التمتع من الدنيا، كما أسرفوا فى الظلم و التعدّى على الرعية. و قد قام كل من أهل البيت بما يجب عليه فى نصرة العدل و محاربة الظلم، و بذلوا أنفسهم لتحقيق ما دعا إليه الإسلام بما يكفل للأمة السعادة، لذلک كانوا طعمة لسيوف الظالمين، لأنهم كانوا حربا على الطغاة و الجبارين، و لم يركنوا إلى الظلمة، و لم يتعاونوا معهم امتثالا لأمره تعالى: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ و إذ رأينا اتصال أبى حنيفة بأهل البيت و ميله السياسى إلى حركة زيد الشهيد، و اعترافه بأن الإمام الصادق أفقه الناس، و إقباله على الأخذ عنه، فإن رفض أبى حنيفة العمل للحكام قد يكون من نتائج تمسّكه بنهج أهل البيت فى التباين مع الظالمين و عدم الدخول فيما هم فيه.

و لئن نشأ أبو حنيفة فى أجواء مغرية و ظروف مواتية، فإن ما عاناه كان شاقا و عسيرا، إذ كان عليه أن يوفق بين وجوده وسط تلک الأجواء، و بين اعتقاداته و قناعاته. و اكتشف أن السياسة لها نهجها الثابت فى معاداة أهل البيت بالرغم من تغيّر الرجال و ما تبعثه القربى من احتمالات بعد أن جاء بنو العباس إلى الحكم تحت ستار الرضى من آل محمد، و هم أقرب نسبا و أولى بالبر، فرأى كيف تزهق الأرواح و تداس الكرامات و ترتكب المجازر بحق آل البيت. ثم وقع عليه اختيار السلطة فى أن يكون

---

(١) ابن عابدين، رسم المفتى ص ٢۵.

ص: ١۶١

أداتها فى الإساءة إلى علم الإمام جعفر بن محمد الصادق عند ما كلفه المنصور بأن يحضّر من المسائل ما يتوهّمه صعبا على الإمام الصادق. و كان حقد المنصور على الإمام قد سوّغ له أن يتوسل بأمر ليس للإمام الصادق منازع فيه أو صنو. و نعلم أن

لقاء أبى حنيفة هذا الذى تم بإشراف المنصور، قد فتح لأبى حنيفة مرحلة جديدة فى علمه و سير حياته. فكان لا يدع فرصة تقرّبه من الإمام إلا استغلها خاصة فى الموسم، و ليس بخاف أن الإمام الصادق كان لا يقرّب أحدا إلا أن يكون ذا نفع، حتى أنه أبعد عنه المتقربين إلى الحكام و حرّم الولاية لهم، لأنه عليه السّلام كان يرى: «أن ولاية الجائر دروس الحق كله، و إحياء الباطل كله، و إظهار الظلم و الجور». و مما ورد عنه أيضا:

«العامل بالظلم و المعين له و الراضى به شركاء». و دخل عليه عذافر فقال عليه السّلام:

«بلغنى أنک تعامل أبا أيوب و الربيع، فما حالک إذا نودى بک فى أعوان الظلمة؟» و نهى يونس بن يعقوب عن معاونتهم، حتى على بناء المساجد «١».

و إذا نظرنا إلى الفترة التى برز فيها أبو يوسف، لم نجد من أسباب للبعد عن مواقف أبى حنيفة و التحوّل عن نهجه تحت ظروف الخوف أو الإكراه، و هى فترة خطيرة الأثر فى حياة المسلمين، إذ على يديه أرسيت قاعدة المذهب الرسمى للدولة، و بفعل منصبه كقاضى للقضاة اقترنت بشكل جذرى حركة المذاهب بأغراض السياسة و مشيئة الحكام.

و ليس هناک فارق زمنى كبير يبرّر ما حدث من تفاوت بين سيرة و سلوک رئيس المذهب الذى تعرّض للتعذيب و القتل على يد الحكام، و بين أبرز تلامذته الذى انضمّ إلى الحكّام، فكان واحدا منهم.

و إذا تغيّر الحاكم العباسى بعد المنصور، فيأتى الهادى، ثم الرشيد، فإن أسس السياسة و أغراضها واحدة، و بإزائها نرى مسيرة الأئمة من أهل البيت ثابتة و راسخة، فبعد وفاة الإمام الصادق عليه السّلام قام مقامه فى الإمامة ابنه العبد الصالح «٢» الإمام موسى بن جعفر الكاظم، الذى عانى من أهوال بنى العباس و ظلمهم الأمرين حتى استشهد.

---

(١) للمزيد راجع الجزء الثانى من الكتاب.

(٢) كان الإمام موسى يعرف بالعبد الصالح لكثرة عبادته.

عن صفوان الجمّال قال: دخلت على الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام فقال لى: «يا صفوان، كل شىء منک حسن جميل خلا شيئا واحدا».

قلت: جعلت فداک، أى شىء؟

قال: «كراک جمالک من هذا الرجل»- يعنى هارون- قلت: و اللّه ما أكريته أشرا و لا بطرا، و لا للصيد و لا للّهو، و لكن أكريته لهذا الطريق- يعنى طريق مكة- و لا أتولّاه بنفسى، و لكن أبعث معه غلمانى.

قال: «يا صفوان، أيقع كراک عليهم؟» قلت: نعم جعلت فداک.

قال: «أ تحب بقاءهم حتى خرج كراک؟» قلت: نعم.

قال: «فمن أحب بقاءهم فهو منهم، و من كان منهم فهو كمن ورد النار».

قال صفوان: فذهبت و بعت جمالى.

و قد حاول الرشيد أن يسيء إلى الإمام موسى الكاظم، و على طريقة أسلافه، فاستدعى رجلا ليجمعه بالإمام موسى الكاظم لغرض الإساءة إلى الإمام فى المجلس، و لعلّه يقطعه أو يحرجه، فكانت الغلبة الباهرة للإمام موسى الكاظم.

و لقد عانى الإمام موسى الكاظم منذ زمن خليفة بنى العباس (المهدى) و تعرّض إلى صنوف من التعذيب و الأذى، لأنه كان يمثل لبنى العباس هاجسا و خطرا يتهدد كراسى حكمهم كل حين، لما فى منزلته التى يحتلها فى قلوب الناس من منافسة، و ما يسببه سلطان الإمامة الروحى من عوائق تؤثر على سياستهم و تسلطهم على الرعية.

و قد استدعاه المهدى إلى بغداد فحبسه، فلما كان فى بعض الليالى رأى المهدى الإمام على بن أبى طالب و هو يقول له: «يا محمد فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ فاستيقظ مذعورا، و أمر به، فأخرج من السجن ليلا، فأجلسه معه و عانقه و أقبل عليه، و أخذ عليه العهد أن لا يخرج عليه و لا على أحد من أولاده.

فقال: «و اللّه ما هذا من شأنى، و لا حدّثت فيه نفسى» فقال: صدقت «١».

---

(١) البداية و النهاية ج ١٠ ص ١٨٣.

و أسهم الرشيد بدوره فى اضطهاد أولاد النبى و عترته الطاهرة، إذ حمله خوفه على سلطان بنى أبيه، و حقده على الإمام موسى بن جعفر على أن يذيقه ألوانا من العذاب و التنكيل و أن يدسّ له السم.

و فى معاملة الرشيد للإمام موسى بن جعفر، يتضافر عداء الحكام لمن يرونهم خطرا، و الحقد الشخصى المحض.

ذكر ابن عمار و غيره ممن كانوا على اطلاع: أنه لما خرج الرشيد إلى الحج و قرب من المدينة، استقبله الوجوه من أهلها، و تقدمهم موسى بن جعفر عليهما السّلام على بغلة، فقال له الربيع: ما هذه الدابة التى تلقيت عليها أمير المؤمنين؟ و أنت إن طلبت عليها لم تدرک، و إن طلبت لم تفت؟ فقال عليه السّلام: «إنها تطأطأت عن خيلاء الخيل، و ارتفعت عن ذلة العير، و خير الأمور أوساطها» قال: و لما دخل هارون الرشيد المدينة، توجه لزيارة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معه الناس، فتقدم إلى قبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:

السلام علیک یا رسول اللّه، السلام علیک یا ابن عم- مفتخرا بذلک علیه- فتقدم الإمام فقال: «السلام علیک یا رسول اللّه، السلام علیک یا أبة. فتغیّر الرشید، و تبین الغیظ فیه.

و فی إضافة تبین لنا مبلغ ما کان یحسّه الرشید من خیبة، و ما سببه له ذکر الحقیقة التی عجز عن طمس إشعاعها و فعلها فی النفوس عشرات الحکام. یذکر ابن کثیر أن الرشید قال: هذا هو الفخر یا أبا الحسین. ثم لم یزل ذلک فی نفسه حتی استدعاه فی سنة تسع و ستین و سجنه «۱».

هذا الحاکم الذی هو علی هذه الدرجة من الکراهیة لأهل البیت کان أبو یوسف یعمل جهده علی إرضائه، و یبذل ما فی وسعه للتقرّب من عائلته و أهله، لینعم بما یدرّه علیه ذلک. فلا عجب أن یکون من الرشید بذلک الموقع، و یحبه ذاک الحب الذی تمنّی معه أن یشرکه فی نسبه فقال: لو جاز أن أدخلک فی نسبی لفعلت. و لا عجب أن ینحو أبو یوسف بأول مذهب رسمی للدولة ذلک المنحی فی اتّباع الحکّام من الأمویین و العباسیین فی معاداة اتباع أهل البیت، و تعاطی اتهامات الحکام المعهودة

---

(۱) البدایة و النهایة ج ۱۰ ص ۱۸۳. و الأصح یا أبا الحسن.

للشیعة بأمور هم منها براء. فشبّ فی ظل مذهب أبی یوسف أناس تابعوه علی الارتباط بمثل هؤلاء الخلفاء و إرضائهم.

و مع کل ما هم فیه من نفوذ و جاه، فإنهم لم یأمنوا غدر الخلفاء، و یبقون کبقیة الرعیة معرّضین لنزول الأذی بهم، فحتی أبو یوسف نفسه یصبّ الماء و یتخبّط توقعا لکل مکروه عند ما دعاه الرشید فی إحدی اللیالی «۱». و لننظر ما ذا کان یرید الرشید من أبی یوسف عند ما جاءه هرثمة بن أعین و علی لسان أبی یوسف: (فقلت: تأذن لی أصبّ علیّ ماء و أتحنّط، فإن کان أمر من الأمور کنت قد أحکمت شأنی، و إن رزق اللّه العافیة فلن یضرّ. فأذن لی، فدخلت فلبست ثیابا جددا، و تطیّبت بما أمکن من الطیب، ثم خرجنا فمضینا حتی أتینا دار أمیر المؤمنین الرشید، فإذا مسرور واقف، فقال له هرثمة: قد جئت به؟ فقلت لمسرور: یا أبا هاشم خدمتی و حرمتی و میلی، و هذا وقت ضیق، فتدری لم یطلبنی أمیر المؤمنین؟ قال: لا. قلت: فمن عنده؟ قال عیسی بن جعفر. قلت: و من؟ قال: ما عنده ثالث. قال: مرّ، و إذا صرت إلی الصحن فإنه فی الرواق و هو ذاک جالس، فحرّک رجلک بالأرض، فإنه سیسألک، فقل: أنا. فجئت ففعلت، فقال من هذا؟ قلت: یعقوب. قال: أدخل. فدخلت، فإذا هو جالس و عن یمینه عیسی بن جعفر، فسلّمت فردّ علیّ السلام، و قال: أظننا روّعناک. قلت: إی و اللّه و کذلک من خلفی. قال: أجلس. فجلست حتی سکن روعی، ثم التفت إلیّ فقال: یا یعقوب، تدری لم دعوتک؟ قلت: لا. قال: دعوتک لأشهدک علی هذا، إن عنده جاریة، سألته أن یهبها لی فامتنع، و سألته أن یبیعها فأبی، و اللّه لئن لم یفعل لأقتلنّه. قال: فالتفتّ إلی عیسی، و قلت: و ما بلغ اللّه بجاریة تمنعها أمیر المؤمنین، و تنزل نفسک هذه المنزلة؟ قال فقال لی: عجلت علیّ فی القول قبل أن تعرف ما عندی؟ قلت: و ما فی هذا من الجواب؟ قال: إن علیّ یمینا بالطلاق و العتاق و صدقة ما أملک أن لا أبیع هذه الجاریة و لا أهلها. فالتفت إلیّ الرشید فقال: هل له من ذلک مخرج؟ قلت: نعم! قال: و ما هو؟ قلت یهب لک نصفها، و یبیعک نصفها، فتکون

لم تبع و لم تهب. قال عيسى: و يجوز ذلک؟ قلت: نعم! قال فأشهد أنى قد وهبت له نصفها و بعته النصف الباقى بمائة ألف دينار. فقال: الجارية. فأتى بالجارية و بالمال،

---

(۱) تاريخ الخطيب ج ۱۴ ص ۲۵۰. و وفيات الأعيان ج ۵ ص ۲۴۷.

فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارک اللّه لک فيها. قال: يا يعقوب بقيت واحدة. قلت:

و ما هى؟ قال هى مملوكة و لا بد أن تستبرأ، و و اللّه إن لم أبق معها ليلتى إنى أظن أن نفسى ستخرج. قلت: يا أمير المؤمنين تعتقها و تتزوجها، فإن الحرة لا تستبرأ. قال:

فإنى قد أعتقتها، فمن يزوجنيها؟ قلت: أنا. فدعا بمسرور و حسين، فخطبت و حمدت اللّه، ثم زوجته على عشرين ألف دينار. و دعا بالمال فدفعه إليها ثم قال لى: يا يعقوب انصرف. و رفع رأسه إلى مسرور فقال: يا مسرور. قال: لبيک يا أمير المؤمنين. قال:

أحمل إلى يعقوب مائتى ألف درهم و عشرين تختا ثيابا فحمل معى).

و كان الرشيد يقول لأبى يوسف فى الأحوال التى تتطلب مخرجا: اذهب فاحتل «۱».

و يقول الغزالى فى وصف هذا المنحى بأنه من فتنة الدنيا، فى مساق قوله أن الفقيه فى الزكاة ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان، حتى إذا امتنع عن أدائها، فأخذها السلطان قهرا؛ حكم بأنه برئت ذمته. و حكى أن أبا يوسف القاضى كان يهب ماله لزوجته آخر الحول، و يستوهب مالها إسقاطا للزكاة. فحكى ذلک لأبى حنيفة رحمه اللّه فقال: ذلک من فقهه. و يعقّب الغزالى: صدق، فإن ذلک من فقه الدنيا، و لكن مضرّته فى الآخرة أعظم من كل جناية. و مثل هذا هو العلم الضار «۲».

و لا نظن أن حكم الغزالى متعلّق بهذه الحادثة فحسب، لأنها حادثة تهون أمام بقية الأحداث، و إذا كان الغزالى على غير علم ببقية الحوادث و قال هذا القول، فما الظن به عندئذ؟

و بين حريم القصور العباسية كان أبو يوسف يتمتع بمكانة ما هى إلا امتداد لموقعه عند الرشيد، يذكر الخطيب أن أم جعفر كتبت إلى أبى يوسف: ما ترى فى كذا، و أحب الأشياء إلىّ أن يكون فيه كذا؟ فأفتاها بما أحبّت. فبعثت إليه بحقّ فضة فيه حقاق فضة مطبقات فى كل واحدة لون من الطيب، و فى جام دراهم وسطها جام فيه دنانير. فقال له جليس له: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها» فقال أبو يوسف: ذاک حين كانت هدايا الناس التمر و اللبن.

(۱) تاريخ الخطيب ج ۱۴ ص ۲۵۴.

(۲) إحياء علوم الدين ج ۱ ص ۳۲.

و رويت هذه الحادثة بإضافات أخرى و تفاصيل تولّد فى النفس أحاسيس نكفّ عن التعليق عليها، و ندع الأمر على ما يوحيه، و نتركه على ما تصوّره الأحداث.

و لكن لا بد من الإشارة إلى أن عصور الانحطاط و التردّى التى وقعت بها الأمة على أيدى الحكام و الجبابرة، كانت نتيجة معلومة سلفا لمقدمات لا تقتصر على مبادئ حكم العباسيين، بل تتعدّاها لتستغرق عودة الجاهلية الأولى فى حكم معاوية بن أبى سفيان.

و لهذا قلنا إن أبا حنيفة كان يستغفر اللّه من تركه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و تلك من أهم أوجه الاختلاف بين أبى حنيفة و تلامذته المقرّبين. و من أظهر الصفات التى اكتسبها من هدى آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أن ذلك لم يمنع من أن تشمله النظرة التى ينظر بها إلى أصحابه، فعدّ أبو حنيفة إلى جانب أصحابه ممن اتصلوا بخدمة هارون الرشيد، و قوّوا مذهبهم، و حصل لهم العلم و السلطنة «۱».

و لا بد هنا من التعرّض إلى موقف الأنصار و الخصوم، و استعراض الأقوال فيه و آراء الناس حوله، لنقف على ركام من الأخبار المختلفة و الآراء المتناقضة، فهناك تعصّب و غلوّ فى شخصيته، و إعجاب مفرط فى مواهبه. و هناك نقد مرّ لأعماله، و تحامل شديد عليه، و وصف بما لا يليق بشخصية رئيس مذهب و إمام طائفة.

فطائفة محبّيه و مريديه قد رفعوه إلى منازل النبيين، و زعموا أن التوراة بشّرت باسمه، فذكر اسمه إلى اسم اليهوديين: وهب بن منبّه و كعب الأحبار. و أنه وجد فى بعض الكتب المنزلة صفة ثلاثة رجال من أمة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يفوقون أهل زمانهم فقها و علما «۲».

و أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخبر به قبل ولادته، فروى مشايخهم بسندهم عن أبى هريرة أن رسول اللّه قال: يكون فى أمتى رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتى يوم القيامة «۳».

و عن أبى هريرة أيضا: يكون فى أمتى رجل اسمه النعمان، و كنيته أبو حنيفة هو سراج

(۱) مناقب الشافعى للرازى ص ۱۳۹.

(۲) مناقب الموفق.

(۳) جامع مسانيد الإمام الأعظم ج ۱ ص ۱۴۱.

ص: ۱۶۷

أمتى، هو سراج أمتى «۱». و بسندهم عن ابن عمر: يظهر من بعدى رجل يعرف بأبى حنيفة يحيى اللّه سنتى على يديه.

و يجعل لأمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام نصيب فى ذلک، فبسندهم عن عبد اللّه بن مغفل قال: سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى اللّه عنه يقول: أ لا أنبئكم برجل من كوفان، من بلدتكم هذه، أو من كوفتكم هذه، يكنّى بأبى حنيفة قد ملئ قلبه علما و حكما، و سيهلک به قوم آخر الزمان، الغالب عليهم التنابز، يقال لهم البنانية كما هلكت الرافضة بأبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما «۲».

و كذلک لابن عباس بسندهم عن الضحاک عن ابن عباس قال: يطلع بعد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدر على جميع خراسان يكنّى بأبى حنيفة.

و إذا توصّل أنصاره إلى إشاعة ذلک، غلب الهوى كل ميل للحق، و تحكّم التعصب فى القول، و أغلقوا كلّ منفذ. قال خلف بن أيوب: صار العلم من اللّه تعالى إلى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم صار إلى أصحابه، ثم صار إلى التابعين، ثم صار إلى أبى حنيفة و أصحابه. فمن شاء فليرض، و من شاء فليسخط «۳».

و يرفعونه فوق منزلة الأنبياء، لأن عيسى إذا رجع يقلّده و يحكم بمذهبه، و أن الخضر تعلّم أحكام الشريعة منه.

يقول قاضى زاده: اعلم أن المذهب لا يقلّده من الصحابة و التابعين إلا أبو حنيفة، فإن عيسى لمّا ينزل يحكم بمذهبه «۴».

و لم يأبه المغالون بشىء، فوصفوا إمامهم بصفات لا يمكن تصديقها فى حدود إمكانات البشر، كقراءة القرآن سبعين ألف مرة فى محل واحد، و صلاته فى كل ليلة ركعتين يختم القرآن فى كل ركعة، و صلاته الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة. و قد سوّى الغلوّ و التعصّب بين أبى حنيفة و بين آخرين اندفع أصحابهم فى ادعاء العبادات لرجالهم على هذا النمط.

---

(۱) نفس المصدر. و تاريخ بغداد. و مناقب الموفق.

(۲) جامع المسانيد.

(۳) الخطيب البغدادى.

(۴) جامع الرموز ج ۱ ص ۲.

و مهما بذل الباحث من جهد فی تحلیل الاعتماد علی ما یمجّه الذوق و ینبو عن العقل فلا یتجاوز الهیاج العاطفی و غلیان الهوی، إذ تتصارع الانفعالات و یعمد إلی الإسفاف و الابتعاد عن الحقیقة، و مهما جهد المرء فی مواجهة اضطراب المنفعل، فلا یلق إلا انفعالا و زیادة فی الاضطراب تدفعه إلی الإغراق أکثر و الإسفاف إلی أبعد مما فی ذهنه، و فی نهایة الأمر تصبح الإساءة عن طریق الهوی و الغلو هی الحصیلة الدائمة.

قالوا: إن اللّه خصّ أبا حنیفة بالشریعة و الکرامة. و من کرامته أن الخضر علیه السّلام کان یجیء إلیه کل یوم وقت الصبح و یتعلم منه أحکام الشریعة إلی خمس سنین. فلما مات أبو حنیفة ناجی الخضر ربه و قال: إلهی، إن کان لی عندک منزلة فأذن لأبی حنیفة حتی یعلّمنی من القبر علی حسب عادته حتی أتعلّم شرع محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی الکمال.

فأحیاه اللّه، و تعلّم منه العلم إلی خمس و عشرین سنة. و بعد أن أکمل الخضر دراسته، أمره اللّه أن یذهب إلی القشیری و یعلّمه ما تعلّم من أبی حنیفة. و صنّف القشیری ألف کتاب، و هی لا تزال ودیعة فی نهر جیحون، إلی رجوع المسیح، فیحکم بتلک الکتب. لأنه یأتی فی زمان لیس فیه من کتب شرع محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیتسلم المسیح أمانة نهر جیحون، و هی کتب القشیری «۱».

و فی وفاة أبی حنیفة یذکرون بکاء الجنّ له، و لهم أسانیدهم أن الجن بکت أبا حنیفة لیلة مات، و کانوا یسمعون الصوت و لا یرون الشخص.

ذهب الفقه فلا فقه لکم فاتقوا اللّه و کونوا خلفا

مات نعمان فمن هذا الذی یحیی اللیل إذا ما سدفا

«۲» أما الطائفة الثانیة من معاصریه و غیرهم فقد رموه بالزندقة، و الخروج عن الجادّة، و وصفوه بفساد العقیدة، و الخروج علی نظام الدین، أو مخالفة الکتاب و السنة. و طعنوا فی دینه و جرّدوه من الإیمان «۳».

و قالوا: اجتمع سفیان الثوری، و شریک، و حسن بن صالح، و ابن أبی لیلی

---

(۱) الإشاعة فی أشراط الساعة ص ۱۲۰. و الیاقوتة لابن الجوزی ص ۴۵.

(۲) آکام المرجان للقاضی الشبلی ص ۱۴۹.

(۳) انظر أبو حنیفة، محمد أبو زهرة ص ۵.

فبعثوا إلى أبى حنيفة فقالوا: ما تقول فى رجل قتل أباه، و نكح أمه، و شرب الخمر فى رأس أبيه؟ فقال: مؤمن. فقال ابن أبى ليلى: لا قبلت لک شهادة أبدا. و قال له سفيان الثورى: لا كلمتک أبدا «۱».

و حكى عن أبى يوسف، قيل له: أ كان أبو حنيفة مرجئا؟ قال: نعم. قيل: أين أنت منه؟ قال: إنما كان أبو حنيفة مدرّسا، فما كان من قوله حسنا قبلناه، و ما كان قبيحا تركناه عليه «۲».

و حدّث إبراهيم بن بشار، عن سفيان بن عيينة أنه قال: ما رأيت أحدا أجرأ على اللّه من أبى حنيفة. و عنه أيضا: كان أبو حنيفة يضرب لحديث رسول اللّه الأمثال فيبرره بعلمه «۳».

و عن الوليد بن مسلم قال: قال لى مالک بن أنس: أ يذكر أبو حنيفة فى بلادكم؟ قلت: نعم. قال: لا ينبغى لبلادكم أن تسكن «۴».

و عن الأوزاعى يقول: إننا لا ننقم على أبى حنيفة أنه رأى، كلنا يرى، و لكننا ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيخالفه إلى غيره «۵».

قال ابن عبد البر فى الانتقاء: و ممن طعن عليه و جرحه: محمد بن إسماعيل البخارى، فقال فى كتابه (الضعفاء و المتروكين): أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى، قال نعيم بن حماد: حدثنا يحيى بن سعيد و معاذ بن معاذ، قالا: سمعنا سفيان الثورى يقول: استتيب أبو حنيفة من الكفر مرتين. و قال نعيم الفزارى: كنت عند سفيان بن عيينة، فجاء نعى أبى حنيفة، فقال: .... كان يهدم الإسلام عروة عروة، و ما ولد فى الإسلام مولود أشرّ منه. و قال ابن الجارود فى كتابه (الضعفاء و المتروكين): النعمان بن ثابت جلّ حديثه و هم.

---

(۱) الخطيب ج ۱۳ ص ۳۷۴.

(۲) نفس المصدر.

(۳) الانتقاء لابن عبد البر ص ۱۴۸.

(۴) ميزان الشعرانى ج ۱ ص ۵۹.

(۵) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ۶۳.

و قد روى عن مالک رحمه اللّه أنه قال فى أبى حنيفة نحو ما ذكره سفيان: إنه شرّ مولود ولد فى الإسلام، و أنه لو خرج على هذه الأمة بالسيف كان أهون. و روى عنه أنه سئل عن قول عمر بن الخطاب: بالعراق الداء العضال؟ فقال مالک: أبو حنيفة. و روى ذلک كله أهل الحديث.

و عن وكيع بن الجرّاح أنه قال: وجدت أبا حنيفة خالف مائتى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و قيل لابن المبارک: كان الناس يقولون إنک تذهب إلى قول أبى حنيفة؟ قال: ليس كل ما يقول الناس يصيبون فيه، كنّا نأتيه زمانا و نحن لا نعرفه، فلما عرفناه تركناه «١».

و لقد جمع ابن عبد البر بعضا من أقوال المادحين و الطاعنين أخذنا منها ما تقدم و سواها كثير بإمكان القارئ الرجوع إليها فى الانتقاء، فى مظانّها الأخرى كالخطيب البغدادى الذى طعن علماء الحنفية فيما أورده، و نسبوه إلى التعصب الأعمى، و أجابوا عما ذكره، و ألفوا فى (تأنيب الخطيب على ما ساقه فى ترجمة أبى حنيفة من الأكاذيب). على أن أعظم الأقوال تأثيرا ما ضمّنه مصنّفات أصحاب الصحاح و السنن و التى تتخذ مستمسكا و أصلا يعملان فى النفوس و الأذهان، فكان ما ذكره النسائى عن أبى حنيفة من أكبر ما يرفع فى الحملة ضد أبى حنيفة حيث قال: و قال لنا أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب: و أبو حنيفة ليس بالقوى فى الحديث، و هو كثير الغلط و الخطأ على قلة روايته. ثم يصنّف أصحابه إلى ضعفاء و ثقات «٢» فتضم هذه الأقوال إلى بعضها، و تكون مادة للطاعنين.

و صفوة القول، أن دراسة حياة أئمة المذاهب تقتضى التوقف كثيرا عن ركامات ما أنتجته العاطفة و ما أفرزه التعصب، و كما أسلفنا فليس من سبل الحق و طرق الأمانة الاعتماد على ذلک، إذ لا يجنى أحد إلا أمورا لا تمتّ إلى الحقيقة، و لا صلة لها بالواقع. و هى تسىء أكثر مما تنفع، و تضعّف أكثر مما تعضد، و الطرفان فى غنى عن ذلک لو أخلصوا فى المأخذ، و اتخذوا من خصائص الرجال و مكانات أئمة المذاهب مادة لا يتعدّوها إلى نزغات التعصب أو التحامل الفظّ. فمن محب مغال يفتح أبواب

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص ١٥١. و الخيرات الحسان ص ٧۶.

(٢) كتاب الضعفاء و المتروكين ص ١٢۴.

الخيال و يتخلّى عن الواقع فيسمح لنفسه بإشراک الجن أو المخلوقات الأخرى التى تتخذ وسيلة إلهية فى سياق رسالة نبى أو إظهار معجزة لولى بدونها قد يلحق بالشريعة أذى و قد يصيب دين اللّه الضرر، و من متحامل ناقم يتخلى عن روابط العقيدة و يتناسى و شائج الدين، فيخرج هدفه من حظيرة الإسلام. أما المنامات فأمرها عجب، حيث لا يلتفت أحد من مستخدميها- مادح أو قادح- إلى سخف تعبيرها أو تدنى تأليفها، فظلّت مادة متيسرة لا تكلف ثمنا، يتناولها ذوو الأغراض بيسر و سهولة، و يتلقاها الواقعون تحت تأثير مروّجيها و باعثيها بثقة و استسلام، و تصبح سلاحا بيد العامة، فتهيج على سطح المجتمع لغة المنامات و ما يلحق بها من ادعاءات و كرامات.

أما المصنّفات التى تشتمل على المناقب، فهى جمع لكل ما أشرنا إليه، و أخذ بكل ما راج و كثر، و هى كثيرة، و مع كثرتها فهى لا تهدى السبيل و لا تنير الطريق، إذ أنها- كما يقول الشيخ أبو زهرة- طوائف من الأخبار يسودها المبالغة، و لا يكاد يخلو خبر منها من الإغراق، فتمييز صحيحها من سقيمها يحتاج إلى مقاييس النقد المستقيمة، فأخبارها لا ترفض جملة و لا تؤخذ جملة، إذ هى بلا شک فيها الحق و الباطل، و أخذ الحق من بينها يحتاج إلى نظر فاحص «١».

لقد وجد بعض أتباع أبى حنيفة فى حقيقة كونه فارسيا أمرا غير مرض فحاولوا وضع نسب عربى فقالوا: إن ثابت هو ابن طاوس بن هرمز ملک بنى شيبان.

و قالوا أيضا: إنه من الأنصار، فهو النعمان بن ثابت بن زوطا بن يحيى بن رشاد الأنصارى.

أو أنه تيمى كوفى من رهط حمزة الزيات.

و المشهور من نسب أبى حنيفة أنه: النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه. ولد سنة ٨٠ ه و توفى سنة ١٥٠ ه.

و الذين توقفوا عن التلاعب بحقيقة النسب قالوا: بأنه من نسل أفريدون- من ملوک العجم- و وضعوا لذلک حديث: لو كان العلم فى الثريا لتناوله أبناء فارس، أو قوم من أبناء فارس، فخصّصوا عمومه فى أبى حنيفة.

---

(١) أبو حنيفة ص ٧.

و فى نهجنا هنا تجريد البحث عن حياة أبى حنيفة من زوائد فرضتها الميول و الأغراض المتعددة، فقد غلبت على أكثر كتّاب حياة أبى حنيفة من أتباعه عاطفة قوية، و سيطر عليهم الاندفاع، حتى أنهم لم يتردّدوا فى استخدام الأساطير و الخرافات، فهو إمام الأئمة، و أعلم الأمة، و ما من عالم من علماء الدنيا إلا و هو تحت ختمه، و ما من فقيه إلا و هو عيال عليه، و أنه نودى من زاوية البيت الحرام:

عرفت فأحسنت المعرفة، و خدمت فأخلصت الخدمة، غفرنا لک و لمن اتبعک و لمن كان على مذهبک إلى يوم القيامة «١».

و قد كنا هناک مضطرين إلى ذكر ما أوردوه من أحاديث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مناقشتها، و عند ما وضعناها فى ميزان الاعتبار، لم تحرّک كفة عن مستواها فضلا عن ترجيحها، لأن الدوافع واضحة و الأغراض جليّة، و هى ناجمة عن أوضاع سادت فيها الفرقة و تعرّضت شخصية أبى حنيفة إلى الانتقاد، فنالوا منه، و وصفوه بكل مكروه.

و قد قطعت خطة تأسيس المذاهب شوطا كبيرا على الساحة، و أخذت ترسى دعائمها، فتقتطع من أجزاء المجتمع و تسرى فى أحشائه، و ينشأ جيل و آخر على مثل هذه العلاقات. و عبر كل المراحل تختبئ أغراض الحكام وراء كل جانب من جوانب العداء و الفرقة، كما كانت أغراضهم وراء تصنيف الناس و تقسيم دينهم.

و لقد كانت الخصائص التى تجاهلها الكثيرون و لم يذكروها بحقائق أسمائها و دلالة وجودها فى شخصية أبى حنيفة و مواقفه تمثّل مشكلة للمنصور الدوانيقى «٢» الذى عرف بعدائه للعلويين، و ميل أبى حنيفة و اتصاله بهم معروف، فتعارضت أغراض المنصور و أهدافه فى إدناء أبى حنيفة، و توجيه الأنظار إليه، ليقف بإزاء شخصية الإمام جعفر الصادق، إذ قال له المنصور: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيّئ له من المسائل الشداد «٣». تعارضت هذه الأغراض مع خصائص أبى حنيفة و سلوكه، حتى أنه عجز عن تحويله و إبعاده عن توجيه النقد اللاذع الذى كان شيئا من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر الذى لا يطبقه المنصور

---

(١) مفتاح السعادة ٢/ ٨٢. و مقدمة المناقب للخوارزمى.

(٢) الدوانيقى أو أبو الدوانيق من الألقاب و الكنى التى أطلقت على المنصور لشحّه و بخله.

(٣) المناقب للموفق.

على أصوله، و لا يقوى على مواجهة أهله، الذين قلّ عددهم، و انزوت جموعهم تحت ضغط أفعال الحكّام و سياسة بنى العباس. و هكذا ضاق المنصور بأبى حنيفة، و قرر الخلاص منه، و كان لا بدّ له من سبب ظاهرى يأخذه به أمام الناس، فعرض عليه قضاء بغداد ثانية، و رفضه أبو حنيفة. و وصله بهدية أرسلها إليه، فردّها عليه، فحبسه و ضيّق عليه، و جعل يضربه كل يوم عشرة أسواط، حتى ضرب عشرة و مائة سوطا «١».

إن الأفكار وليدة التجارب، و للبيئة أثرها فى توجيه سلوك الأفراد، و قد كانت لأبى حنيفة تجارب كثيرة، فقد ولد و نشأ فى الكوفة، و هى البلدة العربية التى عرفت بنزعتها الثورية و اتجاهها السياسى ضد الحكم الأموى و ميلها للعلويين، و قد شبّ أبو حنيفة فى عهد الحجاج بن يوسف. فرأى قسوته و استبداده و سيرته السيئة و حكمه القاسى، و معاملته للناس بما لا يطيقونه من الأذى و العسف، و مات الحجاج و عمر أبى حنيفة حينها خمسة عشر عاما، و شاهد ولاة الأمويين يسيرون بالأمة بالجور، و يخالفون نظم الإسلام اتباعا لملوكهم و طبقا لرغباتهم.

و أصبحت الكوفة قاعدة الثورة ضد الظلم الأموى، و مركزا تتجمع فيه القوات الموالية للعلويين و العباسيين معا. أضف إلى ما احتفظت به الكوفة من نشاط فكرى و صراع عقائدى أورثها مشاكل كثيرة، و أصبح مجتمعها مسرحا للخلافات.

و فی عصر أبی حنیفة، نشطت الدعوة العلویة لوجود کتلة شیعیة قویة أثّرت تأثیرا غالبا فی الحرکات الفکریة و السیاسیة، و مع أن الدعوة للثورة کانت مشترکة بین العلویین و العباسیین، فإن الدعایة العباسیة کانت محدودة الأثر بالرغم من استغلال العباسیین لشعار الدعوة إلی آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إقامة تنظیماتهم علی هامش المناداة بالرضا من آل محمد، فتعاطف الناس معهم و دخلوا فی صفوفهم و هم یظنون بهم خیرا، و أنهم لا یختلفون عن الشیعة الذین کانوا یسعون بإخلاص إلی الانتصاف لآل بیت نبیهم الأطهار الذین ینطبق علیهم لفظ آل محمد، و أن الخلافة من أمور الدین، و هم أحق الناس بالقیام بأمر رسالة جدّهم المصطفی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و عند ما نزلت بالأمة کارثة استشهاد سید الشهداء الإمام أبی عبد اللّه

---

(۱) انظر: مقدمة «العالم و المتعلم» للقلعجی و عبد الوهاب الندوی.

الحسین علیه السّلام علی أیدی یزید، کابد الشیعة من نتائجها السیاسیة و النفسیة أهوالا و آلاما دفعتهم إلی مواصلة الجهاد ضد الظلمة و تفجیر الثورات، و کانت السلطة بتجبّرها و طغیانها لا تتورع عن سفک الدماء و إزهاق الأرواح و انتهاک الحرمات، و الشیعة لا یکفّون عن التفانی و تقدیم التضحیات. و لما قامت ثورة زید بن علی، شاع بین الناس من جدید تیار ثورة الإمام الحسین، و انتشر بین صفوفهم نداء نهضة السبط الشهید مرة أخری. فکان أبو حنیفة من المتحمّسین لثورة زید الشهید، و قد مرّ بنا جانب من وجوه انحیازه إلی جانبه، و قد حثّ علی الالتحاق بجیش إبراهیم، کما أفتی بالخروج مع الثوار من أهل البیت بعد أن بایعه «۱».

و جاءت إلیه امرأة فقالت له: إنک أفتیت ابنی بالخروج مع إبراهیم فخرج فقتل.

فقال لها: لیتنی کنت مکان ابنک «۲».

و قال أبو إسحاق الفزاری: جئت إلی أبی حنیفة فقلت له: ما اتقیت اللّه، أفتیت أخی بالخروج مع إبراهیم بن عبد اللّه حتی قتل؟! فقال: قتل أخیک حیث قتل یعدل قتله یوم بدر، و شهادته مع إبراهیم خیر له من الحیاة «۳».

و غیر ذلک من الإجابات و الأقوال- کما ألمحنا إلیه سابقا- و التی تکشف انحیازه للثورة، و تعلّقه بقادتها إلی حدّ تتضح فیه ظروف إقامة أبی حنیفة فی ظل المنصور الذی أقضت مضجعه تلک الثورة، و بقی کأنه یتقلب علی ألسنة النیران أو یبیت علی حسک السعدان، حتی اتّسخت ثیابه، و زری مظهره، و هو یتلظّی یطلب رءوس أهل البیت. و أبو حنیفة یکتب إلی إبراهیم یشیر علیه أن یقصد الکوفة و یقول: ائتها سرا، فإن من هاهنا من شیعتکم یبیتون أبا جعفر فیقتلونه أو یأخذون برقبته فیأتونک به «۴». و یجهّزه بأربعة آلاف درهم لم یکن عنده غیرها «۵» و یقول له:

فإذا لقیت القوم و ظفرت بهم فأفعل کما فعل أبوک فی أهل صفین، أقتل مدبرهم،

(۱) عمدة الطالب ص ۱۰۹.

(۲) مراقد المعارف ۱/ ۹۷. و عمدة الطالب.

(۳) المقاتل ج ۲ ص ۷۱۲.

(۴) المقاتل.

(۵) عمدة الطالب.

ص: ۱۷۵

و أجهز على جريحهم. و لا تفعل كما فعل أبوك فى أهل الجمل، فإن القوم لهم فئة «۱» فلا يفرق بين دولة معاوية و بين دولة المنصور، مما يجعل تقدير خفاء وضعه على المنصور بعيدا. و هو الملک الذى عدّ من دهاة عصره، و قد أخّر تنفيذ حكمه إلى حين الانتهاء من الأوضاع المعقدة و الظروف الشائكة التى يسببها له أهل البيت عليهم السّلام سواء بمكاناتهم الدينية أو سلطانهم الروحى أو حركاتهم الثورية و تصدّيهم لظلمه بحد السيف. و مهما يكن الاختلاف و كثرة الأقوال عن الأسباب التى دعت المنصور إلى الحقد عليه، فمما لا شک فيه أن السبب الأساس الذى يعنى السلطة هو صلة أبى حنيفة بالعلويين و ميله إليهم. و قد مرّ بنا المزيد من ذلک بما لا زيادة عليه فى رأينا «۲».

و يبدو أن مدرسة أبى حنفية- برغم وجوده حيا- كانت تتأثر بالسلطة، يتتلمذ الأصحاب على إمامهم فى العلم و الفقه، و ينفتحون على الحكام و الساسة فى المواقف و السلوک. و قد رأينا مدى التحوّل فى خط أبى يوسف. أما زفر بن الهذيل فيقول:

كان أبو حنيفة يجهر فى أمر إبراهيم جهرا شديدا، و يفتى الناس بالخروج معه. فقلت له: و اللّه ما أنت بمنة عن هذا حتى نؤتى، فتوضع فى أعناقنا الحبال «۳».

و فى الجملة، فإن موقف امتناعه عن تقلّد القضاء من أهم شواهد السلوک الذى تميز بها أبو حنيفة، و هو يشتمل على دلالات لم تغب عن بال المنصور. لأن الرفض يفسد خطة المنصور السياسية التى وضعها لمواجهة نفوذ أهل البيت عليهم السّلام و لذلک فإن فكرة المذاهب الرسمية أو السلطوية لم تلصق بأبى حنيفة، إذ أعاقها رفضه و امتناعه، و إنما ترتبط بأعمدة مدرسته. كذلک فإن امتناع أبى حنيفة عن تولى القضاء يعنى منع التعاون معهم و حجب التأييد عنهم، و ما يحمل ذلک على أنه يرى عدم صحة إمامة المنصور فلا يجوز تولى القضاء لهم. و كيف لا يعتقد ذلک منه، و قد تأثر بأساتذته من سادة أهل البيت، حيث حضر عند الإمام الباقر عليه السّلام المتوفى ۱۱۴ ه زيد الشهيد عليه السّلام المتوفى سنة ۱۲۲ ه و الإمام الصادق عليه السّلام المتوفى سنة ۱۴۸ ه.

(١) مراقد المعارف. و المقاتل. و العمدة.

(٢) انظر ج ١ من الكتاب.

(٣) المقاتل.

و حقيقة الأمر أن جلّ ما تشير إليه أخباره فى هذا المقام يبين منه أنه كان قلبه مع العلويين فى خروجهم أولا على الأمويين، ثم فى خروجهم ثانيا على العباسيين، و كان لا يرى لبنى أمية على أى حال حقا و لا سلطانا من الشرع أو الدين، و لكنه لا يحمل السيف، و لا يثور، لاعتبارات لها مقامها «١».

و يبدو أن ذلک كان مشهورا منه منذ عهد الأمويين، فتوحّدت وسيلة الإيقاع به من قبل النظامين، و اتّخذ القضاء محكا لأنه منصب دينى و سلطة تشريعية تسند إلى من يتميّز بالعلم و المكانة الدينية، فضلا عن أن توليها يعنى التحاق صاحبها بالملوک و الحكام، و قد ألمحنا إلى محنته مع ابن هبيرة والى الأمويين حتى لتكاد تتساوى العقوبة كأنها تصدر عن وال واحد، و ليس ذلک بغريب لأن التهمة واحدة. يروى الحسن بن زياد- صاحب أبى حنيفة- عن أبى حنيفة قال: كان بنو أمية يطلبون الفقهاء للإفتاء، فدعانى واحد منهم و كان أول ما دعيت، و عن يمينه و شماله ابن أبى ليلى و ابن شبرمة، فقال لأحدهما: ما تقول فى امرأة زوّجت نفسها فى عدّتها؟ قال: تفرق و تضرب ضرب النكال، و المهر فى بيت المال. و قال الآخر مثل ذلک. فقال: يا نعمان، ما تقول أنت؟ فاسترجعت و قلت: هذا أول ما دعيت، كيف لا أقول ما أدين به، و قولى فيها قول على رضى اللّه عنه، و بنو أمية لا يذكر عندهم على و لا يفتون برأيه، فقلت: أصلحک اللّه، اختلف فيها بدريّان من أصحابه عليه السّلام فقال عمر رضى اللّه عنه بما قالا، و قال الآخر تفرق، و تتم عدة الأول و عليها عدة مستأنفة من الثانى إذ دخل بها، و عليه المهر بما استحل من فرجها، و لا يجعل فى بيت المال.

قال: من قال هذا؟ قلت: على بن أبى طالب رضى اللّه عنه. قالوا: أبو تراب؟ قلت نعم. فنكس رأسه و قال لأشبه القولين بالحديث ... ا ه. و فى أخرى زيادة قال (ابن هبيرة) بأى القولين تأخذ أنت؟ قال: قلت: عمر عندى أفضل من على، لكن برأى على آخذ.

و جلى أن أبا حنيفة إضافة إلى ما صرح به من خشيته جانب الحاكم الأموى.

و تدرّجه فى الإجابة الحذرة، فإنما بادر إلى تقديم ذكر الأفضلية لتهدئة نفس الحاكم، و من ثم التحوّل إلى الرأى. حكى أن الكردرى يعقبه بالقول: و إنما ذكر حديث

(١) أبو حنيفة لأبى زهرة ص ٣١.

الأفضلية- و إن لم يكن له دخل فى المقصود- لئلا يتهم بالرفض أو الاعتزال، و كان بنو أمية لا يذكر عندهم علىّ، و كل من ذكره عندهم عاقبوه. و كانت العلامة فيه أن يقولوا: قال الشيخ كذا، و كان الحسن البصرى إذا ذكره قال: قال أبو زينب كذا «۱».

و من المعروف عن رأى أبى حنيفة أنه: ما قاتل أحد عليا، إلا و علىّ أولى بالحق منه. عن الحسين بن زياد قال: سمعت أبا حنيفة يقول: لا شک أن أمير المؤمنين عليا إنما قاتل طلحة و الزبير بعد أن بايعاه و خالفاه. و فى رواية أنه قال: و هو (الإمام على) علّم المسلمين السنّة فى قتال أهل البغى «۲».

كما أنه كان يروى عن أسانيده، و يبدو لعلّة لا تعدو الحكام و الإشفاق منهم، و كأنه يهرب من بلائهم، فيروى عن حمّاد قال: قال إبراهيم: علىّ أحبّ إلينا من عثمان «۳» و معلوم علاقة حمّاد و إبراهيم و دورهما فى تكوين مكانة أبى حنيفة و الصلة التى تجمعهم.

و قد حضر أبو حنيفة عند علماء الشيعة، و أخذ عنهم العلم، و روى أحاديثهم، نذكر منهم على سبيل الإشارة لا الاستقصاء:

جابر بن يزيد بن الحارث الجعفى المتوفى سنة ۱۲۸ ه.

حبيب ابن أبى ثابت أبو يحيى بن قيس الكوفى المتوفى سنة ۱۱۹ ه.

فحول بن راشد، أبو راشد النهدى المتوفى ۱۴۱ ه.

عطية بن سعد العوفى المتوفى سنة ۱۱۱ ه.

أجلح الكندى، و قيل اسمه يحيى بن عبد اللّه، و لقبه الأجلح المتوفى سنة ۱۴۵ ه. إسماعيل بن أبى عبد الرحمن بن أبى كريمة المتوفى سنة ۱۲۷ ه.

المنهال بن عمر الكوفى التابعى.

عدى بن ثابت الأنصارى الكوفى المتوفى سنة ۱۱۹ ه.

زبيد بن الحارث الأيامى المتوفى سنة ۱۲۲ ه.

---

(۱) المناقب ۱/ ۱۷۳.

(۲) المناقب للموفق ۲/ ۸۴.

(٣) المصدر السابق.

ص: ١٧٨

و غيرهم من رجال الحديث، و قد خرّج أحاديثهم كبار المحدّثين، و ضمّت كتب الرجال تراجمهم و أسماء من حضر عندهم من العلماء «١».

وفاته

: توفى أبو حنيفة سنة ١٥٠ ه ببغداد، و دفن بالجانب الشرقى بمقبرة الخيزران، و فيها قبر محمد بن إسحاق صاحب السيرة (و كانت قبلا مقبرة للمجوس تسمى أيضا الحضرية) «٢».

و فى سبب وفاته ثلاث روايات:

الأولى: أن أبا حنيفة بقى فى السجن مضيّقا عليه إلى أن وافته المنية.

و الثانية: أن المنصور أخرجه من السجن، و فرض عليه الإقامة الجبرية فى المدينة، و منعه من الاتصال بالناس إلى أن توفى.

و الثالثة: أن المنصور دسّ له السم.

و جميعها تدين الحكام بموته، لإن ذنبه فى نظر المنصور لا يغتفر.

أولاده و أحفاده

: لم يكن لأبى حنيفة عقب مشهور أو ذرية واسعة. أما الشهرة بكنيته (أبى حنيفة) فليست قائمة على اسم لبنت له، فليس له بنت تسمى حنيفة، و إنما كنّى بأبى حنيفة لملازمته لدواة على هيئة خاصة و تعرف بحنيفة، فهو دائما يستصحب تلك الدواة ذات الشكل المستطيل الذى يجلب انتباه الناظر إليه.

و لم نعثر على ولد له غير حمّاد.

و كان حمّاد قد تفقه على يد أبيه، و ولّى قضاء الكوفة بعد القاسم بن معين تلميذ أبى حنيفة.

---

(١) انظر الخلاصة للخزرجى. و ميزان الاعتدال للذهبى. و لسان الميزان لابن حجر. و هداية البارى لشرح صحيح البخارى و غيرها.

(۲) تاريخ جامع الإمام الأعظم للشيخ هاشم الأعظمى ص ۲۱.

ص: ۱۷۹

قال الذهبى: حمّاد بن أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى ضعّفه ابن عدى و غيره من قبل حفظه، و توفى سنة ست و سبعين و مائة.

و كان لحمّاد بن أبى حنيفة ولد يسمى إسماعيل، روى عن أبيه عن جده أبى حنيفة.

قال ابن عدى: ثلاثتهم ضعفاء.

و قد ولّى قضاء الرصافة و قضاء البصرة، و كان عارفا بالقضاء، و مات سنة ۲۱۲ و هو شاب و قد تفقه على يد أبى يوسف. و لم نعثر على شىء له يعتبر.

قبره

: أما قبره فكان أول رواق بنى عليه سنة ۳۷۹ ه و يروى أنه فى سنة ست و ثلاثين و أربعمائة وضع أساس مسجد بالكلس و النورة فى موضع ضريحه، و كان المنفق عليه تركى قدم حاجا.

و يذكر ابن خلكان أن شرف الدين الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمى مستوفى مملكة السلطان ملك شاه السلجوقى بنى على قبر أبى حنيفة مشهدا أو قبة نيابة عن الملوك السلاجقة، و بنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية، و لما فرغ من عمارة ذلك، ركب إليها فى جماعة من الأعيان ليشاهدوها «۱». و يقول ابن الجوزى: و ان حنفيا متعصبا. و كان ذلك سنة ثلاث و خمسين و أربعمائة، فهدم جميع الأبنية التى فى المسجد و ما يحيط بالقبر و بنى القبة، و قد جاء بالقطّاعين و المهندسين، و قدّر لها ألوف، و ابتاع دورا من جوار القبر، و حفر أساس القبة، و كانوا يطلبون الأرض الصلبة، فلم يبلغوا إليها إلا بعد حفر سبعة عشر ذراعا، فى ستة عشر ذراعا فخرج من الحفر عظام الأموات الذين كانوا يطلبون جوار النعمان «۲».

و قد تكوّنت حوله محلة عرفت بمحلة أبى حنيفة، و اسم الأعظمية حادث.

و عنى الأتراك عناية فائقة بالقبر و صاحبه، و بذلوا جهدا كبيرا فى إعلاء شأن

---

(۱) وفيات الأعيان ج ۵ ص ۴۶.

(۲) انظر: المنتظم ج ۸ ص ۲۴۵ و ۲۴۶.

ص: ۱۸۰

المذهب. فلما احتل السلطان سليمان القانونى بغداد سنة إحدى و أربعون و تسعمائة هجرية أقام مسجد الإمام الأعظم و مشهده، و باشر بإصلاح ما تهدّم من قبره أيام الفرس، و بنى عليه قبة و مدرسة، و عمّر فى أطرافها قلعة و اتخذها جامعا و دار ضيافة و حماما و خانا، و عيّن للقلعة محافظا و جنّد لحراستها مائة و خمسين، و وضع فيها معدات كافية. كما بنى مسناة فى الأعظمية لحفظها من الفيضان.

و إضافة إلى قيام الأتراک بتشييد مرقد أبى حنيفة و اهتمامهم بأمره، فقد أعلنوا اتخاذ مذهبه مذهبا رسميا، و أصبحوا يرجعون الناس إليه، و يلزمون الأمة باتباعه، حتى وازى وجود المذهب و مناطق انتشاره حدود و نفوذ العثمانيين و مناطق احتلالهم، و سبب ذلک أنهم وجدوا فى عدم اشتراط القرشية فى الخلافة عند أبى حنيفة مقوّما لاستيلائهم و تحكمهم برقاب المسلمين، فاحتل أبو حنيفة المكانة السامية فى نفوس العثمانيين، و تعلقت به أفئدة العائلة الحاكمة. فنجد أم السلطان عبد العزيز السيدة الصالحة تنذر فى مرضها إن شفاها اللّه عز و جل لتشيدنّ مسجد الإمام الأعظم مجددا «١».

كما كان الحنفية أنصارا للأتراک و اتباعا للباب العالى، ففى مصر وجد منهم نصيرا قويا أطلق يده فى حكم وادى النيل و فى تقرير مصيره، و كان من نتيجة تفضيل السلطات الرسمية لأتباع المذهب الحنفى أن تحوّل إليه كثير من أتباع المذاهب الأخرى «٢».

أحمد بن حنبل ١۶۴- ٢۴١ ه

و نعاود الحديث عن أحمد بن حنبل، و قد رأينا بحث بعض جوانب شخصيته فى هذا الجزء لتقدم الإشارة إليه فى بدء الجزء السابع، و نرجو أن لا يعدّ ذلک خروجا على قواعد الأفضلية أو الرتبة الزمنية، فأنا لا نراها كانت فى يوم مناط إجماع أو إلزام فى غيره أو فى شخصه. كما إن تقديمه لا يعنى خلاف ذلک؟

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية/ مادة الأزهر.

و نتبع منهجنا التحليلى فى نهاية البحث لنكمل ما سلف من إشارة عنه و عن الحنابلة، و نبدأ ببعض المعلومات و الصور عنه.

و قد مرّ بنا شىء من هياج الحنابلة الذين تجاوزوا القصد و ألحقوا بالمسلمين الآخرين البلاء، و نرغب عن الخوض فى عوامل اتخاذ العامة للحنبلية شعارا يوحى بالعناد و التزمّت و الأذى. و نعمل على سوق الأحداث و الاتجاه إلى دراسة شخصية الإمام أحمد فى عناصرها الأساسية، و لا نفيض فى البحث بأكثر مما يقتضيه الغرض.

و أحمد بن حنبل فى مكانته و شهرته، هو نتاج مشكلة (خلق القرآن) و هى المشكلة التى اتخذها المأمون وسيلة لإقامة سلطانه حسب ميوله الفكرية و تكوينه المتأثر بروح العصر، ليواجه ما توارثته العقول و استقر فى الأذهان على أنماط الحكّام و طرق الموجهين و لكن بأساليب قمعية كان ضحيتها الفكر و روح التحرر قبل أن يضحّى بسببها بأى شىء آخر. و لأن الإمام أحمد كان رجل المحنة، و تعرّض إلى الأذى الجسدى و النفسى، و تجرّع آلام السجن؛ اتصلت به عواطف الناس و تعلقت به مشاعرهم، بعد أن وجدوا أنفسهم معرّضين إلى السخط، و قد اضطرب كيانهم، و اهتزت شبكة معتقداتهم التى وجدوا عليها أباءهم و ألفوها عبر عشرات السنين متعارف عليها بين أوساط الحكّام و الخطباء و المتنفذين.

و بدءا نقول: إن نتائج المحنة تركت آثارا قوية لفّت كل جوانب حياة أحمد بن حنبل، و أدت فى كثير من الأحيان إلى الغموض أو التعارض ليتحاشى ما يشبه الهاجس فى الداخل.

و لنرافق أحمد بن حنبل فى ترجمته فهو:

أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى المروزى، كان جده حنبلا واليا من قبل الأمويين على سرخس، و يقال: إنه دخل بعد ذلک فى سلک الدعوة العباسية، فكان من دعاتها المبرّزين، و بذلک فإن الإمام أحمد ينسب إلى جده حنبل، و قد يكون ذلک لوفاة أبيه و نشوئه فى ظل جده أو عمه.

و قد وقع الاختلاف فى موت محمد والد أحمد، هل مات فى مرو، أو أنه نزح

إلى بغداد مع زوجته والدة أحمد و هى: صفية بنت عبد الملک بن سوادة بن هند الشيبانى، و نقل عن أحمد ما يؤيد القول الأول، و أنه قال: قدم أبى من خراسان و أنا حمل، و ولدت هاهنا- ببغداد- و لم أر جدّى و لا أبى، و لا تزوجت إلا بعد الأربعين «١».

نشأ أحمد فى بغداد، و اتجه لطلب العلم، و حضر عند علمائها. و له رحلات متعددة، و اتصل بالشافعى محمد بن إدريس، و حضر عنده كما حضر عند أبى يوسف، فكتب فقه أهل الرأى «٢».

و روى عنه أنه قال: أول ما طلبت الحديث ذهبت إلى أبى يوسف القاضى، ثم طلبنا بعده فكتبنا عن الناس. ثم قال: أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف، و أنا لا أحدّث عنه «٣».

و ذلک أنه رأى أبا حنيفة و أتباعه يقدّمون الرأى «۴» و أقبل أحمد على الحديث حتى عدّ من المحدّثين لا الفقهاء، و هذا ما آثار غضب الحنابلة على الطبرى و غيره من الذين قالوا بهذا الرأى.

و قد مرّ الحديث عن حياة الإمام أحمد منذ نشأته، و رافقناه فى محنته، تلک المحنة التى هبّت عواصفها السياسية و العقائدية، فأحدثت انقساما فى صفوف المسلمين، و ذلک عند ما أعلن المأمون سنة ٢١٨ ه وجوب الاعتقاد بخلق القرآن، و أنه حادث

غير قديم كما يراه المعتزلة و غيرهم، و قد فرض المأمون القول بخلق القرآن بالقوة، و عقد مجلسا للامتحان كما اختار جماعة من الجلّادين الجفاة الذين مرنوا على الضرب بالسياط.

و قد امتحن جماعة من العلماء، فامتنع بعض و أقرّ آخرون.

و قد أوجدت هذه المحنة مشكلة كلامية تحتاج إلى دراسة واسعة فى علم

---

(١) طبقات الحنابلة ١: ۶۳.

(٢) المدخل إلى فقه الإمام أحمد ص ٣٨.

(٣) أحمد بن حنبل لسيد الأهل ص ٣۶.

(۴) نفس المصدر.

الكلام، و بيان المراد من الكلام النفسانى و تعلقه بالذات، و قد تناولتها الأقلام قديما و حديثا، و ربما وقع و هم من بعض من تعرّض لهذه المسألة تاريخيا فسار وراء ظواهر الأقوال، و عبّر عن الخلق بالمعنى اللغوى و هو الكذب، فيقال إنه مخلوق أى مكذوب.

و كان الخليل بن أحمد يمنع أن يوصف الكلام بالمخلوق، و يقول: إن الكلام متى أطلق عليه الخلق فالقصد الكذب، و لهذا يقال: كلام خلقه فلان أى تقوّله. و كان ذلک من رأى الشيعة كما تقدم فى أول الكتاب.

و قد ورد فى كثير من أقوال العرب: اختلق كذا أى كذب فيه. و سئل بعض الفقهاء فى المحنة فقال: أصفه بأنه محدث، و لا أقول إنه مخلوق لقوله تعالى: ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ فمعنى أنه مخلوق و هو غير منزل. و بهذا أخذ العوام فى إثارة البغضاء و إيقاد نار الفتنة و نشر الدعاية ضد المعتزلة بأنهم يذهبون إلى خلق القرآن أى إلى عدم كونه منزلا من اللّه تعالى، و اتسعت شقة الخلاف، و حدث فى صفوف الأمة الانقسام. و كان الإمام أحمد قد امتحن و ثبت، فاجتاز المحنة عند ما اعتلى الحكم المتوكل العباسى، فكان انتصارا لأحمد و لمن اتصل به، و بخروجه باتت المحنة تشمل العامة، فاحتفلت بالانتصار بعواطف هيّاجة و نقمة عارمة طافت على سطحها و ركبت موجها وجوه تضررت مصالحها و تضاءلت مكانتها، فاندفعت بكل ما أوتيت من قدرات إلى تمجيد المتوكل و تعظيمه، و اتبعهم على ذلک بإخلاص أخلافهم.

قال ابن الجوزى: أطفأ المتوكل نيران البدعة، و أوقد مصابيح السنّة، و قد قال من سبقوه: الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق قاتل أهل الردّة حتى استجابوا له، و عمر بن العزيز ردّ مظالم بنى أمية، و المتوكل محا البدع و أظهر السنّة. كما خلقوا له مناقب و

أطيافا، و رفعوا شعار العدالة باسمه و هو أظلم خليفة من بنى العباس، فأسدلوا على ظلمه ستار المدح الزائف، و جعلوا سيئاته حسنات، و أخذ القصّاصون بنشر الأطياف بحقه حيا و ميتا.

أما الإمام أحمد، فإنه أصبح إمام السنّة و بطل الإسلام، و أنه ما قام أحد بأمر الإسلام كما قام به أحمد.

و قالوا: أحمد بن حنبل إمام، و من لا يرضى بإمامته فهو مبتدع ضال.

ص: ١٨۴

و قالوا: أحمد بن حنبل إمام المسلمين و سيد المؤمنين، و به نحيا و نموت، و به نبعث. فمن قال غير هذا فهو من الجاهلين «١».

و جعلوا بغضه كفر، و حبّه من السنّة.

و قالوا: إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل، فأعلم أنه صاحب سنّة و جماعة «٢».

و أسندوا إلى الشافعى أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر. فقيل له:

تطلق عليه اسم الكفر باللّه العظيم؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل قصد الصحابة، و من قصد الصحابة أبغض النبى، و من أبغض النبى كفر باللّه العظيم «٣».

فيكون الناتج من هذه القضية، أن من أبغض أحمد بن حنبل كفر باللّه العظيم. و هذا غريب من الشافعى، إذ يعتمد على نتيجة مقدمة كاذبة.

و قد رأينا فيما تقدم من بيان الإغراق فى المدح من قبل أتباع أئمة المذاهب ما خرجوا به عن طريق المعقول و تجاوزوا فيه حدود المنطق. على أن جولة الحنابلة فى عصر التطاحن المذهبى، خلقت كثيرا من الأمور المناقضة للحقيقة و المخالفة لما يقتضيه واقع الإمام أحمد و سيرته، فقد اندفعوا بصورة واسعة إلى خلق مشاكل فى المجتمع، و أرهبوا الناس، و اضطرب حبل الأمن من جرّاء نشاطاتهم حول نشر مذهبهم مما لا ربط له بإمامهم.

و فى عصر المتوكل كان نشاطهم سياسيا أكثر من أن يكون عقائديا، و قد شدّ المتوكل أزرهم، و أخبر المتوكل بعد موت أحمد أن الحنابلة يكون بينهم و بين أهل البدع (و هم غيرهم من الطوائف) الشر، فقال لصاحب الخبر: لا ترفع إلىّ من أخبارهم، و شدّ على أيديهم فإنهم و صاحبهم من سادة أمة محمد.

و استغل الحنابلة هذه الفرصة، فراحوا فى ذلک الودّ يتنفّسون حرية الكلام

(۱) ذیل طبقات الحنابلة ج ۱ ص ۱۳۶.

(۲) الجرح و التعدیل ج ۱ ص ۳۰۸.

(۳) طبقات الحنابلة ج ۱ ص ۱۳.

و حریة الانتقام من خصومهم أیام المحنة، فلم یسلکوا طریقة أحمد فی حیاته فی الصفح و التجاوز، لأنهم خضعوا لأناس آخرین کان نفعهم فی الأذی و مصلحتهم فی الأضرار، و منه من رأی فی التحول علی ید المتوکل و العودة إلی ما کان علیه الأمر قبل المأمون فرصة تسمح لهم بأن یفعلوا بالآخرین ما فعله المأمون، و هکذا تنتهی محنة لتبدأ أخری.

و قد أخذ المتوکل بإضفاء الطابع الحنبلی علی حکمه من خلال قوله و إذاعته المسائل التی یتمیز بها أحمد، فقسّم الجوائز علی فقهاء و محدّثین، و أجری علیهم الأرزاق، و أشخصهم، و کان فیهم مصعب الزبیری، و إسحاق بن أبی إسرائیل، و إبراهیم بن عبد اللّه الهروی، و عبد اللّه و عثمان ابنا أبی شیبة. و أمرهم المتوکل أن یجلسوا للناس، و أن یحدّثوا بالأحادیث التی فیها الرد علی المعتزلة و الجهمیة، و أن یحدّثوا فی الرؤیة «۱». و هی الأمور التی اشتغل بها أحمد، و أثرت عنه رسالة اشتملت علی آرائه و معتقداته فی البدعة و السنّة و الرؤیة و إجابات ضمّنها أقواله، أشرنا إلیها فیما مضی.

و یبدو أن المتوکل أراد أن یستکمل خطته فی تبنّی المذهب الحنبلی، فعزم علی استقدام أحمد بن حنبل إلی مقرّ ملکه فی سامراء. و هی و إن لم تکن علی طریقة أسلافه، لأن عمله و میله إلی أحمد بن حنبل تتداخل فیه عوامل کثیرة، هی مزیج من مشاعر و أهواء و أغراض. إلا أن أحمد نفسه کان غیر مستعد لمثل هذا العمل، فهو یتردد أو یحذر من مخالفة الحکام لسبب لا یتفق مع الأسباب التی یدعو إلیها أصحاب مبدأ مقاطعة سلطان الظلمة، إذ هو یدعو إلی إطاعة «الإمام» البر و الفاجر مما یجعله بعیدا عن أصحاب الدعوة إلی الثورة علی الظلمة، و یحصر القضیة فی أمور هی من أکبر عوامل الظلم و الجور، و لکنه لا یقرّ بها أسبابا للثورة أو الخروج علی حکم المتسلطین.

کان إسحاق بن إبراهیم من کبار رجال الدعوة العباسیة، فأمره المتوکل بإشخاص أحمد بن حنبل من بغداد إلی سامراء بعد انتهاء المحنة، فأخبره إسحاق

(۱) مناقب أحمد لابن الجوزی ص ۳۵۷.

بذلک، ثم قال لأحمد: أسألک عن القرآن مسألة مسترشد لا مسألة امتحان، و لیکن ذلک عندک مستورا، ما تقول فی القرآن؟ قال أحمد: القرآن کلام اللّه غیر مخلوق.

قال إسحاق: من أین قلت: غیر مخلوق؟

فأجاب أحمد: إن اللّه عز و جل یقول: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ ففرّق بین الخلق و الأمر.

فقال: الأمر مخلوق؟

فقال أحمد: یا سبحان اللّه، أ مخلوق یخلق مخلوقا؟! قال إسحاق: و عمن تحکی أنه غیر مخلوق؟

قال أحمد: جعفر بن محمد الصادق قال: لیس بخالق و لا مخلوق. فسکت إسحاق «۱».

و هذا یدلنا علی شدة التکتّم فی المسألة، و عدم الخوض فی شیء من ذلک، لأنه یؤدی إلی مخالفة رأی السلطة. و هذا الرجل أی إسحاق هو من رجال الدولة یسأل مسترشدا أو یطلب ستر ذلک، لأن إظهاره یجرّه إلی نکال المؤاخذة.

و مهما یکن من أمر، فقد سکت إسحاق مقتنعا بظاهر القول و دلالة اللفظ.

و الغرض أن المسألة هی من المسائل العلمیّة الهامة، و هی علی جانب کبیر من الخطر، فلم یکن هناک مجال لعرض الآراء و استماع الحجج و إقامة البرهان من کلا الطرفین، و بهذا أصبح الأمر فوضی، فقد استساغ المعتزلة حمل خصومهم علی الاعتقاد بالقوة، و لهذا باءت سیاستهم بالخیبة و الخذلان، و انتصرت علیهم قوی العامة التی آثرت التمسک بالسنن و الآثار، و ترک الخوض فی علم الکلام، و تحکیم العقل.

و قامت هناک عاطفة دینیة تدعوا إلی صیانة کتاب اللّه عن الطعن فیه، أو عدم نزوله.

کما حرّفوا مدلول المسألة.

و فی مواجهة المشکلة، کان أحمد یری أن الخوض فی قضیة خلق القرآن لم تکن مطروقة و لیست من السنة، حتی أنه کان یطالب مناظریه بشیء من السنة فیما

---

(۱) ابن الجوزی، مناقب أحمد ص ۳۵۹.

يدعونه إليه. و لا ننكر أن دافع الحرص على قدسية النص كان وراء موقف أحمد و إجاباته، غير أن الإمام أحمد بالغ فى انتهاج النصيّة و الاعتماد على السلف إلى حدّ ألغى فيه فرص التحاور و إمكانية المناظرة، و أدى به إصراره إلى تحاشى الرأى كليا، حتى لكأنه حاول أن يجعل نفسه بعيدا عن الأحداث و لا يقرّ بتحولات الظروف و تطورات الوقائع التى وضع الاجتهاد لمعالجتها و هدى الأمة بالاستنباط من الأصول، و إرشادها باستخراج الأحكام من النصوص، حتى يجد المسلمون فى كتاب اللّه و سنّة نبيّه مصدرا يسع كل ما يجدّ من أحداث، و ينطوى على كل ما يقع من الوقائع.

لقد غلب على الإمام أحمد التقيّد بالنص و الاتباع و التقليد، و لم يدع مجالا للرأى، و كان يتحرّى المسائل على ما سمعه و روى له، و يحذر من إجالة الرأى أو التقدير، و لا يجيب إلا فى مسألة وقعت. فإن كان احتمالا أو توقّعا امتنع، و لا يحفل إن كان ذلک على أشباه الوقائع القريبة، أو بعيدا عنها.

و على يديه وضعت مبادئ ما عرف عن ابن تيمية و ابن قيّم الجوزية من تعنّت و تزمّت. و يثير قولنا هذا- السلفية و الوهابية- و لا شک، لأنهم أخذوا ما رآه الإمام أحمد وقاية و تحصنا. و جعلوه أساسا لمنطقهم القائم على الإفهام بالابتداع، و استسهال إطلاق الكفر على غيرهم، فيما تركوا الكثير من أقوال الإمام أحمد التى تأتى مرادفة للنصوص التى احتوت أصول أفكارهم، منها: أن الرجل لا يخرجه من الإسلام إلا الشرک العظيم، أو ردّ فريضة جاحدا لها فيما أخذوا معتمدا لهم و أصلا قوله: (فمن قال مخلوق فهو كافر باللّه العظيم، و من لم يكفّره فهو كافر) فاستسهلوا تكفير غيرهم. و منهجه فى غلق أبواب النقاش توقّيا و حذرا بقوله: (و لا يقال لم و لا كيف) لأن الأمور التى تبحث العقول عن حقيقتها فى ظل ظروف المحنة يراها ليست من السنن، و الكلام فيها مكروه، بل منهى عنه: (لا يكون صاحبه- و إن أصاب بكلامه السنّة- من أهل السنة حتى يدع الجدال و يسلّم و يؤمن بالآثار) فجعلوا ذلک مسوّغا لجمودهم و انغلاقهم.

و خلاصة القول: إنه تمسّک بالأثر دون تمحيص، و اعتمد على السلف، و حكم بأن من يخالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها؛ فهو مبتدع خارج

عن الجماعة، زائل عن منهج السنة. و اتجه هذا الاتجاه فى حياته، و أخذ به، فتمسّک بحرفية النص و ظاهره، و لا يسمح لنفسه تخريج أو تفسير أو جدل ينمّ عن تصد للاجتهاد، أو تصدّر للإفتاء، و لا يتعدّى الأخذ بالأثر و الجمود على النصوص و العمل بظاهرها. و قد نسب إليه ذلک فى شعر و هو قوله:

يا طالب العلم صارم كل بطّال	و كلّ غاد إلى الأهواء ميّال
و أعمل بعلمک سرّا أو علانية	ينفعک يوما على حال من الحال
و لا تميلنّ يا هذا إلى بدع	تضلّ أصحابها بالقيل و القال
خذ ما أتاک به ما جاء من أثر	شبها بشبه و أمثالا بأمثال

إلا فكن أثريا خالصا فهما تعش حميدا، ودع آراء ضلّال

و قد اتجه إلى الحديث، فروى أنه كان يحفظ ألف ألف حديث، و يأخذ بالضعيف منها و يعلم به إذا لم يكن ما يعارضه، و أصبحت له خبرة بالحديث، وسعة اطلاع جعلت له منزلة بين المحدثين. و إذا صحّ ما كان يحفظه، فإنّا نميل إلى أن تكوينه النفسى قد طغت عليه ملكة الحفظ، و آنس فى نفسه قوتها دون غيرها؟

و ساعدت على ذلک اعتبارات الفترة و نتائج المحنة، و لذلک لم يكن له فى حياته مدرسة فقهية، حتى أن ابن عبد البر لم يجعله مع مالک و الشافعى و أبى حنيفة فى كتابه (الانتقاء فى فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء) و أن عنوان الكتاب ينطوى على هذا القصد، و لا بد أن المالكية على هذا الرأى جميعهم، فإن القاضى عيّاض قال عنه: إنه دون الإمامة فى الفقه، و جودة النظر فى مأخذه.

و قد مرّ بنا ما ذا فعل الحنابلة بابن جرير الطبرى، فهو لم يعدّ مذهبه فى الخلاف بين الفقهاء و قال: إنما هو رجل حديث. و على هذا الرأى غيره من الشافعية.

و من تتبّع سيرة الإمام أحمد، يترجّح لدينا أنه لم يقصد إلى تأسيس مذهب خاص به، و لم يستجب إلى إغراءات السلطان. و لكن تلامذته قد أفرغوا تعاليمه و أقواله بعد موته فى قوالب محدودة هى قواعد و مبادئ لفقه ينسب إلى الإمام أحمد، فتألفت جماعة فقهية كان رجالها أصحابه من ذوى الإحاطة، فكان نشوء المذهب الحنبلى. كما أن المسند كان من جمع ابنه و أصحابه. و يعتقد أحمد أن منحاه فى التقيّد بالحرفية و الظاهر هو المنهج الأقوم و الطريقة المثلى، و يردّ بها على اتجاهات

الرأى و تيارات الجدل. و وضع بذلک المنحى مسوّغا للاحتماء بالتقليد، و مبررا للاتهام بالمروق. و لو قابل الاتجاهات و المدارس الفكرية التى نجمت عنها المسائل التى كره الخوض فيها و أنكر شيوعها، و أدت به إلى المحنة بطرق مماثلة تقابل الحجة بالحجّة، و تعتمد الاستدلال و المنطق؛ لما استغلت أقواله ذلک الاستغلال الذى أطلق العامة من عقالها، فراحت تعرّض أمن الناس للخطر، و تنزل بهم الويلات، و تصف الناس بالكفر.

يقول الإمام أحمد: (الدين إنما هو كتاب اللّه عز و جل، و آثار و سنن و روايات صحاح عن الثقات بالأخبار الصحيحة المعروفة، يصدّق بعضها بعضا حتى ينتهى ذلک إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه و التابعين و تابعى التابعين، و من بعدهم الأئمة المعروفين المقتدى بهم، المتمسّكين بالسنة و المتعلقين بالآثار، لا يعرفون بدعة، و لا يطعن فيهم بكذب، و لا يرمون بخلاف، و ليسوا بأصحاب قياس و لا رأى، لأن القياس فى الدين باطل، و الرأى مثله و أبطل منه، و أصحاب الرأى و القياس مبتدعة ضلّال، إلا أن يكون فى ذلک أثر عمّن سلف من الأئمة) «١».

و هو يرى نفسه دائما متّبعا، فلا يتحدث إلا بما أخبر و حدّث، و يدعو إلى الاتباع: (هذه مذاهب أهل العلم و أصحاب الأثر و أهل السنة و المتمسكين بعروقها المعروفين بها، المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى يومنا

هذا، و أدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز و الشام و غيرهم عليها، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو أعاب قائلها، فهو مبتدع خارج من الجماعة، زائل عن منهج السنة و سبيل الحق) «٢».

أولاده

: ولد لأحمد بن حنبل عدة أولاد و هم صالح و عبد اللّه من أم، و حسن و محمد و سعيد من جارية تسمى حسن، و ولدت له بنتا سمّاها زينب، و قبل ولدت له ولدا رابعا سمّاه حسنا أيضا:

---

(١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٣١.

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن بدران ص ٢٦.

صالح بن أحمد بن حنبل

: ولد سنة ٢٠٣ ه و توفى سنة ٢٦٥ ه و هو أكبر أولاد أحمد، كان راوية لأبيه.

و حدّث كثيرا عن سيرته و أحواله و تاريخ حياته، و يبدو على صالح رفضه لمسلك التقشّف الذى أخذ أبوه به، و عدم القناعة بموقف الانصراف عن الحكام فى أمر المنح و العطايا التى توالت على أحمد فى عهد المتوكل، حتى إنه كان يتصرّف فى الأموال التى يتحرّج فى أخذها بدون موافقة أبيه عند ما يراه يمتنع أن يقدم منها إلى أحفاده «١».

و كذلك عند ما صارحه أبوه فى أن يدع الرزق الذى يأتى من المتوكل فلا يأخذه و لا يوكل فيه أحدا، فرفض ذلك. فقد كان معيلا. و كان الإمام أحمد يدعو له. و كان الناس يكتبون إليه من خراسان- حيث موطنهم الأول- يسأل لهم أباه عن المسائل.

ولّى القضاء بأصبهان، كما ولّى القضاء بطرسوس. نقل إليها من أصفهان. قال صالح: كان أبى يبعث خلفى إذا جاءه رجل زاهد متقشّف لأنظر إليه، يحبّ أن أكون مثلهم، أو يرانى مثلهم. و لكن اللّه يعلم ما دخلت فى هذا الأمر إلا لدين غلبنى، و كثرة عيال «٢».

حدّث عنه ابنه زهير، و روى عنه ابن أخيه محمد بن أحمد بن صالح، و أحمد بن سليمان النجار. و توفى زهير سنة ٣٣٠ ه.

و أما أحمد بن صالح فقد روى عن جده أحمد حديث عائشة: كنت أغتسل أنا و رسول اللّه من إناء واحد.

و لأحمد بن صالح ولد اسمه محمد كان يروى عن عمه زهير، و روى عن أبيه قول عائشة كما ذكره، و رواه عنه الدار قطنى و توفى سنة ٣٣٠ ه.

عبد اللّه بن أحمد بن حنبل

: ولد سنة ٢١٣ ه و توفى سنة ٢٩٠ ه و كان أعلم أولاد أحمد و أكثرهم رواية عنه، و هو الذى جمع مسند أبيه، و زاد فيه كثيرا من الأحاديث التى لم يأخذها عن أبيه، و رواه عنه أبو بكر القطيعى و زاد فيه أيضا، فالمسند يرويه عبد اللّه عن أبيه سماعا،

---

(١) انظر البداية و النهاية ١٠/ ٣٣٨.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ١٧٤. و تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ۶ ص ٣۶۴.

و قسم رواه عن غير أبيه و هو المسمى عند المحدثين بزوائد عبد اللّه، و قسم لم يسمعه من أبيه بل وجده بخطّه، و قسم رواه القطيعى عن غير عبد اللّه و أبيه.

و أول من سمعه منه: حنبل بن إسحاق بن حنبل- و هو ابن عم أحمد- و عبد اللّه بن أحمد، و صالح بن أحمد. قال ابن السماک: حدثنا حنبل بن إسحاق قال: جمعنا أحمد بن حنبل أنا و صالح و عبد اللّه، و قرأ علينا المسند، و ما سمعه منه غيرنا «١».

و ذكر الشيخ محمد أبو زهو فى كتابه (الحديث و المحدّثون) أنه سمع المسند من الإمام أحمد أولاده الثلاثة: صالح و عبد اللّه و حنبل. ثم ذكر رواية ابن السماک (أو السبّاک) و هذا خطأ فإن حنبلا لم يكن ولدا لأحمد، بل هو ولد عمه إسحاق كما ذكره ابن الجوزى و غيره، و جاء فى ترجمته فى طبقات الحنابلة، قال حنبل بن إسحاق:

جمعنا عمى لى و لصالح و لعبد اللّه، و قرأ علينا المسند و ما سمعه منه غيرنا «٢».

و نقل ابن الجوزى عن ابن السمّاک قال: حدثنا حنبل بن إسحاق قال: جمعنا أحمد بن حنبل، أنا و صالح و عبد اللّه، و قرأ علينا المسند و ما سمعه منه غيرنا «٣».

فقول الشيخ أبو زهو أن حنبل من أولاد أحمد خطأ، و ما هو بأول خطأ يرتكبه، و قد أشرنا لكتابه و أخطائه فيما سبق.

و مهما يكن من شىء، فإن عبد اللّه كان أشهر أولاد أحمد بن حنبل، و أكثر رواية عنه، و قد ولّى القضاء فى خلافة المكتفى، و توفى فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٠ ه. و لما مرض قيل له: أين تحب أن تدفن؟ فقال: صحّ عندى أن بالقطيعة نبيا مدفونا، و لأن أكون بجوار نبىّ أحب إلىّ من جوار أبى.

سعيد بن أحمد

: ولد سعيد قبل موت والده بنحو من خمسين يوما، و توفى سنة ۳۰۳ ه و قيل:

بل توفى قبل هذا التاريخ بمدة طويلة فى حياة أخيه عبد اللّه. و قد ولّى سعيد قضاء الكوفة، و أما بقية أولاد أحمد، فلا يعرف من أخبارهم شيء.

---

(۱) مناقب أحمد ص ۱۹۱.

(۲) الطبقات ج ۱ ص ۱۴۳.

(۳) المناقب ص ۱۹۱.

وفاته

: توفى أحمد بن حنبل فى ربيع الأول سنة ۱۴۲ ه و قيل ۱۲ منه، و صلّى عليه الأمير محمد بن طاهر. و دفن بمقبرة باب حرب «۱». و قد وصفوا تشييعه بأنه ما كان فى الجاهلية و لا فى الإسلام جمع أكثر منه، و قد اشترك فيه النساء و الرجال يتبادلون النوح و الصراخ، و أعلن الحنابلة اللعنة على من خالفهم، و علت الهتافات بلعن بشر المريسى و الكرابيسى. فسأل المتوكل عن الكرابيسى «۲» من هو؟ قالوا هو رجل أحدث قولا لم يتقدمه أحد. فأصدر المتوكل أمره إليه بلزوم بيته، فلزمه إلى أن مات.

و ينقل الحنابلة عن يوم الجنازة ما لا يقبله العقل و يقرّه المنطق كقول الوركانى:

أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفا من اليهود و النصارى و المجوس. و وقع المأتم و النوح فى أربعة أصناف من الناس: المسلمين و اليهود و النصارى و المجوس «۳».

و منذ و ورى ابن حنبل، لزم بعض الناس القبر و باتوا عنده، و جعل النساء يأتين، فأرسل السلطان أصحاب المسالح، فلزموا ذلك الموضع حتى منعوهم مخافة الفتنة «۴». و يبدو أن الجنازة تحولت إلى مناسبة أظهر فيها الحنابلة أنفسهم و الدعوة إلى منهجهم و الطعن على غيرهم، حتى قال ابن الجوزى: (فسرّ اللّه المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة لما رأوا من العزّ و علوّ الإسلام، و كبت اللّه أهل البدع و الزيغ و الضلالة).

و يذكر المسعودى أن اجتماع الجنازة كان للعامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس و الضدّ فى الأمور منها: أن رجلا منهم كان ينادى: العنوا الواقف عند الشبهات. و هذا بالضدّ عمّا جاء عن صاحب الشريعة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و كان عظيم من عظمائهم و مقدّم فيهم يقف موقفا بعد موقف إمام الجنازة، و ينادى بأعلى صوته:

(۱) باب حرب تنسب إلى حرب بن عبد اللّه- أحد أصحاب المنصور- أو حرب بن عبد الملک، و إليه تنسب محلة الحربية، و فيها أيضا قبر بشر الحافى.

(۲) المناقب لابن الجوزى ۴۱۷.

(۳) طبقات الحنابلة ۱/ ۱۶.

(۴) المناقب ۴۱۸.

و أظلمت الدنيا لفقد محمد و أظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل

يريد بذلک أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنها أظلمت عند موت ابن حنبل كظلمتها عند موت الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «۱».

و ازدحم الناس على قبر أحمد يتبرّكون به، و يقصدونه للزيارة، و هنا تجدّدت نشاطات الدعايات المذهبية، و طغت موجة المناقبية، و قام القصّاصون و الوعّاظ- الذين هم من قبل الدولة- بنشر خرافات لو كان أحمد حيا لخجل منها و تبرّأ من قائلها. و إليک نموذجا منها:

۱- ادّعى أحدهم أنه زار قبر أحمد، فرأى القبر قد التصق بالأرض، و سمع صوتا من القبر يقول: هذا من هيبة الحق، لأنه عز و جل زارنى فسألته عن سرّ زيارته إيّاى فى كل عام. فقال: لأنک نصرت كلامى ...

۲- أن من يدفن فى مقبرة أحمد يكسى حلّتين من حلل الجنة، و يوضع على قبور مجاوريه قناديل، و من يعذّب يرحم لأجله «۲» و كان فيهم رجل محنث فشمله العفو «۳».

۳- حدّث على بن إسماعيل السجستانى: كأن القيامة قد قامت و كان الناس يزدحمون عن قنطره، لا يترک أحد يجوز حتى يجىء بخاتم، و رجل ناحيه يختم للناس و يعطيهم، فسألت عنه فقالوا: هذا أحمد بن حنبل «۴».

۴- أن أبواب السماء تفتّح لزوّار قبر أحمد بن حنبل، و الملائكة تنزل عليهم بثياب خضر تطير بهم فى الهواء. و كان قبره يقصد للزيارة من ستمائة فرسخ «۵» و لا يتسع المجال لعرض ما ادّعى من منامات و أحلام فى قبر أحمد و زيارته، و عظيم الأثر الذى خلفته الدعاية فى قلوب الناس من تعظيم قبره و التبرک به و تقبيله. و قد سأله رجل فى الرؤيا: لم يقبّل قبر إلا قبرک؟ فأجاب: هذا ليس كرامة لى، و لكن كرامة

(۱) مروج الذهب ۴/ ۱۰۲ و ۱۰۳.

(۲) تاریخ بغداد ج ۱ ص ۲۲.

(۳) ابن الجوزی، المناقب ص ۴۶۳.

(۴) ابن الجوزی، المناقب ص ۴۴۶.

(۵) ابن الجوزی، المناقب ص ۴۸۲.

لرسول اللّه، لأن معی شعرات من شعره، ألا و من یحبنی لم لا یزورنی فی شهر رمضان.

و قد بقی قبر أحمد بن حنبل مقصدا لمحبیه، و یتبرکون بزیارته، و ادّعی أن الماء حار حول قبره عند طغیان دجلة سنة ۷۲۵ ه فغمر جمیع الأمکنة إلّا قبر أحمد، فلم تبلّ الحصر کما یدّعون. و لکن دجلة أعاد الکرة، فاکتسح القبر و ابتلعه، و ذهب به و بآثاره إلی الیوم.

و قد دفن فی مقبرته خلق کثیر، و نقل إلیه من الأماکن النائیة جثث کثیرة لأموات أمثال: عبد المغیث بن زهیر الحربی الحنبلی محدّث بغداد. و من الغریب بل من الشذوذ الفکری أن یوصف هذا الرجل بأنه صالح متدین أمین مجتهد فی السنّة، حافظ زاهد یشبه أحمد بن حنبل، مع اعترافهم بأنه وضع جزء فی فضائل یزید بن معاویة أتی فیه بالموضوعات کما یقول الذهبی «۱».

و من أعیانهم: عبد الرحمن بن الجوزی المتوفی سنة ۵۹۷ ه و صاحب المؤلفات الکثیرة، دفن عند أبیه بباب حرب عند قبر أحمد، و کان یوم تشییعه یوما مشهودا و ذلک فی شهر رمضان، و قد أفطر جماعة من الناس من کثرة الزحام و شدّة الحرّ «۲».

و لعل المسوّغ لإفطارهم اعتقادهم بأن تشییع ابن الجوزی أعظم ثوابا من صیام شهر رمضان، لأنه کان ناصرا للسنّة محاربا للبدعة. و قد وصف بأنه کحاطب لیل، و هو لا یفرّق بین الضارّ و النافع، و الحقّ و البطّال، و کانت مؤلفاته تناقض بعضها بعضا، و هو یورد الشّبه، و لیس له قدرة علی ردّها، و قد نقم علیه العلماء، و لکن لا ینفع ذلک مع تجمع العوام علیه.

و کثیر من العلماء الحنابلة دفنوا عند قبر أحمد تبرکا بجواره، و منهم من نقل إلی مقبرة أحمد بعد مدة من دفنه کسعد اللّه الحنبلی المتوفی سنة ۵۶۴ ه دفن بمقبرة الرباط، ثم نقل بعد خمسة أیام و دفن فی مقبرة أحمد. و کمال الدین بن وضّاح الحنبلی المتوفی سنة ۶۲۷ ه دفن عند رجلی أحمد. و منهم: محمد بن محمد بن

(۱) الشذرات ج ۴ ص ۲۷۵.

(۲) البداية و النهاية ج ۱۳ ص ۳۳۱.

ص: ۱۹۵

الحسين الحنبلى المتوفى سنة ۵۲۷ و نقل إلى مقبرة أحمد بن حنبل سنة ۵۳۴ أى بعد مضى سبع سنوات على موته. و غير هؤلاء خلق كثير أحصينا عددهم بما يقارب الخمسين شخصا. و بطبيعة الحال فإن قبورهم ذهبت فى طغيان دجلة كما سبق و ذكرنا.

و لا بد من التعرّض لما جاء فى لغة العرب المجلد الخامس من السنة الثامنة ما ذكره الدكتور مصطفى جواد: أن عبد الحميد عيادة نشر فى لغة العرب أن فى جامع حاج أفندى- و يسمى مسجد اللالات بمحلة كوك نفر ببغداد أن رخامة فى الجوار الذى يلى الباب، مكتوب عليها ما صورته: (هذا قبر المرحوم المغفور له الدارج فى رحمة اللّه الشيخ المجتهد السيد أحمد من الأربعة المجتهدين و ذلک فى ۱۳ ربيع الأول سنة ۵۶۲ ه) ثم قال: توارد إلى خاطرى أنه قبر الإمام المشار إليه، أى أحمد بن حنبل إذ لا يبعد أنه نقل إلى محله الحالى لسبب غرق بغداد الخ.

و هذا بعيد كل البعد، لأن التاريخ إما أن يكون تاريخ الوفاة أو تاريخ النقل، فتاريخ الوفاة سابق عليه، لأن وفاة أحمد سنة ۲۴۱ ه و أما تاريخ النقل عند الغرق، فهو متأخر عن هذا التاريخ.

و قد نقل لقبر أحمد رجال من الحنابلة بعد هذا التاريخ منهم: كمال الدين على بن وضّاح المتوفى سنة ۶۷۲ ه و فى سنة ۷۶۵ ه دفن القاضى جمال الدين بن خليل الخضرى الحنبلى محدّث بغداد، و فى سنة ۷۶۶ ه دفن الشيخ نور الدين الحنبلى، و فى سنة ۷۸۴ ه دفن أبو طالب عبد الرحمن بن عمر الحنبلى نزيل بغداد.

و الحاصل أن مقبرة أحمد بن حنبل بقيت مدة من السنين مهوى أفئدة الحنابلة، و مقصد الزوار، و تدفن حوله الأموات تدينا و تقربا لنيل ما أعدّ من الجزاء لمن يدفن حوله. فقد أشاع الحنابلة أن من يدفن حول قبر أحمد يكسى حلتين من حلل الجنة، و يوضع على قبر مجاوريه قناديل، و من يعذب يرحم لأجله «۱». إلا أن ذلک القبر قد غمره الفيضان فانهار، و لم يبق له أثر، إذ امتلأت مقبرة أحمد كلها، و لم يسلم منها إلا موضع قبر بشر الحافى لأنه على نشز من الأرض، و كان من يرى مقبرة أحمد بعد أيام

---

(۱) ابن الجوزى، المناقب ص ۴۶۳.

ص: ۱۹۶

من مضى الفيضان ليدهش عند ما يرى القبور قد قلّبت، و جمعت العظام كالتل، جمعها السيل- سيل الماء- و كذلک ألواح القبور «۱».

و قال اليافعى: إن دجلة زادت زيادة مفرطة حتى أخرجت مقبرة أحمد بن حنبل، و دخل الماء فى دهليز البيت، و ذلک فى سنة ٧٢٥ ه. و قال ابن العماد نقلا عن الذهبى: إن مقبرة أحمد بن حنبل غرقت سوى البيت الذى فيه ضريحه، فإن الماء دخل الدهليز علو ذراع، و وقف بإذن اللّه تعالى، و بقيت البوارى عليها الغبار حول القبر.

و لقد علق المرحوم السماوى على هذا القول بقوله:

ألا من عذيرى يا بنى العلم و الحجى	من الياوفى الحنبلى المجلل
يكذّبنى إن قلت قبر ابن فالهم	عليه استدار الماء للمتوكل
و يزعم حارّ الماء ثمّ تجل غبرة	على حصر كانت بقبر ابن حنبل

هذه لمحة موجزة عن السيرة المستمرة فى نقل الأموات و نبشهم بعد دفنهم، و هى باقية حتى يومنا هذا عند إخواننا السنة، فإنهم ينقلون الموتى من الأماكن. فمن مات خارج العراق نقل إليه، و من مات فى العراق فإما أن ينقل إلى بلده و مسقط رأسه، أو يدفن فى مقبرة ولىّ كأبى حنيفة و الإمام الأعظم و الشيخ معروف ببغداد، و البعض ينقل من بغداد إلى مقبرة الخاتونة فى السماوة إن كان من أهلها، و أغلب أهل الجنوب من إخواننا السنّة ينقلون موتاهم إلى بلد الزبير، و دفنهم هناک تبركا بالقبر المنسوب للزبير بن العوّام.

و قد ذكرنا سابقا أن هذه النسبة غير صحيحة، و أن هذا القبر بنى على الظنة و التخمين، كما نص على ذلک بعض المؤرخين «٢».

و من الجدير بالذكر، أن النقل بعد الموت عند المسلمين شائع معمول به منذ الصدر الأول عند جميع الفرق و المذاهب.

و نذكر ما يحضرنا ذكره الآن فمنهم:

---

(١) فيضانات بغداد، الدكتور سوسه ص ٢٢٠.

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب.

١- جعفر بن الفضل بن موسى بن الفرات أبو الفضل المتوفى سنة ٣٩١ ه وزير الديار المصرية، توفى بمصر، فنقل إلى المدينة. يقول ابن عساكر: و خرجت الأشراف إلى لقائه وفاء بما أحسن إليهم، ثم يقول: فحجوا به و طافوا و وقفوا فى عرفات، ثم ردّوه للمدينة، و دفنوه فى دار اشتراها من الأشراف بالمدينة «١». و لا ندرى هل كان ورود جنازته أيام الحج فحجوا به، أم أنهم

خلقوا له حجا و وقفوا بعرفات فی غیر وقت الموسم؟! ۲- القاضی أبو بکر محمد بن الطیب الباقلانی المتوفی سنة ۴۰۴ ه دفن فی داره بنهر طابق، ثم نقل إلی جوار قبر أحمد بن حنبل فی مقبرة باب حرب، و یؤم الناس قبره، و یتبرکون به. یروی أن أحد شیوخ الحنابلة (أبو الفضل التمیمی) حضر یوم وفاته حافیا مع أصحابه، و قعد معهم للعزاء ثلاثة أیام، و کان یزور قبره کل یوم جمعة.

۳- أبو البقاء محمد بن المبارک المعروف بابن الخل الشافعی المتوفی ببغداد سنة ۵۵۲ ه و نقل إلی الکوفة و دفن فیها.

۴- صدر الدین أبو بکر الشافعی خرج من بغداد، فنزل بقریة بین همدان و الکرج، فأصبح میتا، فحمل إلی أصفهان و دفن بسیلان.

۵- و کذلک ولده عبد المطلب مات بهمدان سنة ۵۸۰ ه بعد عودته من الحجاز، و حمل إلی أصفهان، و دفن فیها.

۶- أحمد الحریزی المتوفی سنة ۵۵۰ ه و کان عاملا للمقتضی علی نهر الملک و کان من أظلم العالم، و مع هذا یظهر التدین، و کان یجلس علی السجادة و بیده سبحة یسبّح فیها و یقرأ القرآن، و الناس یعذّبون بین یدیه. و کان یعلّق الرجال بأرجلهم، و النساء بأثدائهن، و یضربون بین یدیه و هو یومی إلی الجلاد: الرأس، الوجه. و قد سئم الناس حیاته، فدخل علیه ثلاثة رجال، فضربوه بالسیوف فمات، و حمل إلی بغداد، و دفن فیها، فأصبح و قد خسف بقبره «۲».

۷- الملک المظفر علی کوجک الترکمانی المتوفی سنة ۶۲۰ ه ملک أربل،

---

(۱) شذرات الذهب ج ۳ ص ۱۳۵.

(۲) شذرات الذهب.

مات فیها فی رمضان، و أوصی أن یحمل إلی مکة فیدفن فی حرم اللّه تعالی، و قال:

استجیر به. فحمل فی تابوت إلی الکوفة، و لم یتفق خروج الحاج فی تلک السنة، فدفن عند أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام.

۸- کمال الدین محمد بن علی الشافعی یعرف بابن الزلمکان المتوفی سنة ۷۲۷ ه بدبیس، و حمل إلی القاهرة، و دفن إلی جوار الشافعی.

۹- إمام الحرمین أبو المعالی الجوینی عبد الملک بن عبد اللّه الفقیه الشافعی المتوفی سنة ۴۷۸ ه و دفن بداره فی نیسابور، ثم نقل منها بعد سنتین.

و كان لموته يوما مشهودا، فلقد أغلقت أبواب البلد، و كشف الناس رءوسهم حتى ما اجترأ أحد أن يغطى رأسه، و صلّى عليه ولده أبو القاسم بعد جهد عظيم من الزحام، و كسر منبره فى الجامع، و قعد الناس للعزاء أياما، و كان طلبته أربعمائة يطوفون فى البلد نائحين عليه «۱» و قد وصف السبكى يوم موته، و أن الطلبة تجوب موكبهم البلد نائحين عليه مكسّرين المحابر و الأقلام، مبالغين فى الصياح و الضجر «۲». و قال الذهبى: استمرت الحالة سنة.

۱۰- أبو الحسين بن سمعون الواعظ المتوفى سنة ۳۸۷ ه و دفن فى داره بشارع العباس، ثم نقل يوم الخميس ۱۱ رجب سنة ۴۲۶ ه و دفن بباب حرب، و كان الباقلانى يقبّل يده لعظيم منزلته. و حكى الخطيب أن ابن سمعون خرج من المدينة الشريفة إلى بيت اللّه، فاشتهى الرطب، فلما كان وقت الإفطار صار الثمر رطبا فلم يأكله، فعاد إليه من الغد فإذا هو تمر.

۱۱- ابن طولون خمارويه بن أحمد حمو المعتضد. فتک به غلمان بدمشق سنة ۲۱۲ ه و حمل تابوته إلى مصر، و دفن عند أبيه بسفح المقطم.

۱۲- محمود بن السلطان ملک‌شاه. مات بأصفهان سنة ۴۸۷ ه و حمل إلى بغداد، و دفن بالنظامية.

۱۳- أحمد بن محمد غلام خليل. المتوفى سنة ۲۷۵ ه ببغداد، و حمل فى

---

(۱) الشذرات ج ۳ ص ۳۶۰.

(۲) الطبقات ج ۳ ص ۲۵۷.

تابوت إلى البصرة. قال الخطيب: غلقت له أسواق مدينة بغداد، و خرج الرجال و النساء لحضور جنازته و الصلاة عليه، فأدرک ذلک بعض الناس وفات بعضهم لسرعة السير به، و دفن بالبصرة، و بنيت عليه قبة.

يذكر الخطيب فى ترجمته عن عبد اللّه النهاوندى: قلت لغلام الخليل: ما هذه الأحاديث الرقائق التى تحدّث بها؟ قال: وضعناها لنرقق بها قلوب العامة. و عن ابن عدى: سمعت عبدان الأهوازى يقول: قلت لعبد الرحمن بن خراش: هذا الحديث الذى يحدّث به غلام الخليل لسليمان بن بلال من أين له؟ قال: سرقه من عبد اللّه بن شيب، و سرقه عبد اللّه بن شبيب من النضر بن سلمة، و وضعه شاذان «۱». و كان أكثر ما يتحدّث به بالموضوعات فى مناقب الصحابة و غيرهم من الرجالات، و يتخذها وسيلة لمعاشه، و من وضعه حديث: (اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر و عمر) «۲».

و هو من المحدّثين و الوعّاظ القصّاصين.

و لا يتّسع المجال لأكثر مما ذكرنا فى هذا الاستطراد الذى لا تخفى دواعيه و أسبابه إذا ما استحضرنا ما شذّ به أقوام جعلوا من أحمد بن حنبل إماما و قدوة، و راحوا يطلقون التهم و التخرّصات فى قضايا الأموات و القبور، و قضية النقل بعد الموت، و ما يتعلق بالدفن أمر معروف منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا، و قد سار عليه السلف و الخلف، فمن ينقل إلى المدينة، و من ينقل إلى دمشق، و من ينقل إلى بغداد، و من ينقل إلى القاهرة، و من ينقل من رمسه القديم إلى مكان آخر كما رأينا من نقل إلى مقبرة أحمد ..

و مقبرة أحمد بن حنبل فى محلة الحربية التى تقع وراء مقابر قريش، و فيها الباب الذى كان بنو شيبان قد اتخذوها مقبرة لمن يموت منهم، ثم لمن يموت من أهل الحديث. فدفن أحمد بن حنبل فى هذا الباب، لأنه إمام الحديث- كما قالوا- و لأنه من بنى شيبان.

أما الحربية أو باب حرب، فقد نسب إلى حرب بن عبد اللّه أو حرب بن عبد

---

(١) تاريخ بغداد ٥/ ٧٩.

(٢) لسان الميزان ١/ ٢٧٢.

الملک أحد قواد المنصور، ثم غلب عليها اسم أحمد فصارت تسمى مقبرة أحمد.

و أصبحت مزارا تهفو إليه قلوب الحنابلة و تعجّ بالدعاء، و بقعة مقدسة توضع فى زوارها المنامات، حتى جرفتها السيول- كما علمنا- و غرق قبر أحمد على اختلاف فى تعيين سنة الغرق فى القرن السادس أو السابع؟

و لما غرق القبر، تحوّل الناس إلى زيارة قبر ولده عبد اللّه فى القطيعة، يؤدّون الزيارات، و يدعون لقضاء الحوائج.

و أحمد بن حنبل هو آخر رؤساء المذاهب وفاة. توفى أبو حنيفة سنة ١٥٠ ه و مالک سنة ١٧٩ ه و الشافعى سنة ٢٠٤ ه ثم أحمد سنة ٢٤١ ه و مذهبه قليل الانتشار، محدود الاتباع. فهو ليس كمذهب أبى حنيفة عددا فى البلاد الإسلامية، و لا كمذهب الشافعى فى مصر.

الحنابلة فى ظل المتوكل

سبق أن أشرنا إلى مشاعر المتوكل تجاه أحمد، و كونها واحدة من عوامل الميل إلى أحمد بن حنبل، إضافة إلى الأغراض السياسية، و قد قلنا إن أحمد لم يستجب تماما لرغبة المتوكل فى (تنصيبه) رئيسا مذهبيا، و لو لا التهمة التى غيّرت مجرى السعى السلطانى إلى ضمّ أحمد فى تلک المرحلة، لاكتملت مقتضيات السياسة فى تبنى أحمد تماما و هو فى حياته، و قد كانت

التهمة خطيرة تهتزّ لها أبدان بنى العباس غيظا، و هى التعاون مع العلويين، فداهموا منزله و منزل ابنه، و دلوا شمعة فى البئر، و وجهوا النسوة ففتشن الحرم، مما أخر فى إعلان المذهب رسميا.

و بعد ثبوت براءته، لم يعد أمام المتوكل من مانع يمنعه من الاهتمام بأحمد اهتماما بالغا، فكان يأمر بالمال، و يتوجّع لما يصيبه، و اقتنع قناعة تامة بأحمد بن حنبل. و يبدو أن الموت عاجله، فاستأنف ما أراد منه فى غيابه.

و لو بحثنا فى اتجاه أحمد بن حنبل و آرائه فى الحكام، لوجدنا أن ابن حنبل يرى أن من صفة المؤمن من أهل السنة و الجماعة: صلاة العيدين و الخسوف و الجمعة و الجماعات مع كل أمير برّ أو فاجر، و الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، و عدم الخروج

ص: ٢٠١

عليهم بالسيف «١». و عند ما داهموا بيته بتهمة، إيوائه علويا كان يقول: ما أعرف من هذا شيئا، و إن لأرى طاعته فى العسر و اليسر و المنشط و المكره و الأثرة. و إنى أتأسف على تخلّفى عن الصلاة فى جماعة، و عن حضور الجمعة و دعوة المسلمين «٢».

و لما جاء المتوكل، أظهر ما يتّفق مع آراء أحمد و معتقداته و منهجه، فأمر بترك النظر و المباحثة فى الجدال، و أمر الناس بالتسليم و التقليد، و الترك لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم و الواثق و المأمون. و أمر شيوخ المحدّثين بالتحديث و إظهار السنة و الجماعة «٣». و أشخص الفقهاء و المحدّثين، و كان فيهم: مصعب الزبيرى، و إسحاق بن أبى إسرائيل، و إبراهيم بن عبد اللّه الهروى، و عبد اللّه و عثمان- ابنا أبى شيبة- فقسّمت بينهم الجوائز، و أجريت عليهم الأرزاق، و أمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس و يحدّثوا بالأحاديث التى فيها الرد على المعتزلة و الجهمية، و أن يحدّثوا بالأحاديث فى الرؤية. فجلس عثمان بن أبى شيبة فى مدينة المنصور، و وضع له منبر، و اجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا من الناس. و جلس أبو بكر بن أبى شيبة فى مسجد الرصافة، و اجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا.

و قد كان من نتائج تقيّد أحمد بالمأثور عنده و تقليده أن يرى الحاكم قد ولاه اللّه. و لذلک نجده يدعو إلى: السمع و الطاعة للأئمة، و أمير المؤمنين البرّ و الفاجر، و من ولّى الخلافة، و من اجتمع الناس عليه و رضوه، و من غلبهم بالسيف حتى صار خليفة و يسمى أمير المؤمنين ا ه.

و لا بد أن تكون للمتوكل أولية فى ذلک بالنسبة للإمام أحمد، فإذا كان يعتقد بالحكام الذين ملكوا الأمر و السلطة بعد الإسلام بعمومهم، فإن المتوكل أولى بكل ما كان يراه و يعتقده، غير أن التردّد و السلوک الذى سلكه أحمد ينمّ عن أمر نستشعر منه الإحراج إن لم يكن به غناء عن الكناية أو التلميح؟ و قد كتب إليه المتوكل بعد أن استيقن من وضعه و قال: إنى أحب أن آنس بقربک و بالنظر إليک، و يحصل لى بركة دعائک. و لكنّا نجده لا يقرب أكل المتوكل، و لا يمسّ منه شيئا. و يطوى صائما حتى

(۱) المدخل إلى فقه أحمد بن حنبل: ۱۹.

(۲) المناقب: ۳۶۰.

(۳) مروج الذهب.

جاع- و هو عند المتوكل- جوعا عظيما، و كاد أن يقتله الجوع. و قد قال بعض الأمراء للمتوكل: إن أحمد لا يأكل لک طعاما، و لا يشرب لک شرابا، و لا يجلس على فراشک، و يحرّم ما تشربه. فقال: و اللّه لو نشر المعتصم، و كلّمنى فى أحمد؛ ما قبلت منه «۱». و يروى أنه كان يتألم من هذا اللقاء و يقول: سلمت منهم طول عمرى، ثم ابتليت بهم فى آخره «۲». فلما ذا هذا الألم؟ و كيف يتفق ذلک مع الدعوة إلى الطاعة و الاستسلام إذا كان الاتصال بالحكام ابتلاء؟ و من يكن سببا فى البلاء لا بد أن حاله على غير ما يدعو إليه الإسلام، و بخلاف ما يستريح إليه المؤمن. بل أن أحمد بن حنبل يرى أن تكريم المتوكل له يجعله فى غم، ففى رواية أن عمّ أحمد قال له: لو دخلت على الخليفة، فإنک تكرم عليه؟ فقال: إنما غمّى من كرامتى عليه.

و نرى الإمام أحمد يصرف همّه إلى ما أحاطه به المتوكل من منح و عطايا، و يصبح شغله الشاغل أن يمنع أهله و عمّه- الذى يرافقه دوما- من أخذها، و يلومهم و يعظهم فى كلام طويل. فيحتجّون عليه بالحديث: «ما جاءک من هذا المال و أنت غير سائل و لا مستشرف؛ فخذه». و أن ابن عمر و ابن عباس قبلا جوائز السلطان. و يقول:

و ما هذا و ذاک سواء. و لو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه و ليس بظلم و لا جور؛ لم أبال.

فكيف يقرّ الظلم و الجور، و تصبح الطاعة من صفات المؤمن؟ و رغم أن أحمد حصر سبب رفضه و ابتعاده عن الحاكم المتوكل بالناحية المالية، فإنه لم يتمكن أن يعزلها عن أسس و حقيقة الحكم القائم. و خلاصة الأمر، أن الإمام أحمد يدعو إلى السمع و الطاعة على الطريقة التى مرّت بنا متأثرا بدعاة السلاطين و سدنة الملوک الذين دسّوا فى الأثر ما ليس له علاقة بمبادئ الإسلام و عدالة السنّة، و يعارض دعوته بسلوكه هذا الذى تقتضيه بدائه العقول، فضلا عن تعاليم الإسلام. ثم لا يتجاوز دائرة السلبية و ضيق المجال الذى يتصرّف فيه إلى رحاب المسئولية الدينية فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر لدى السلطان الجائر باعترافه هو، و ليس هناک ما يمنع من خشية عليه شخصية أو عداء من جانب المتوكل يمكن أن يؤدى به

(۱) البداية و النهاية ۱۰/ ۳۳۹. و المناقب لابن الجوزى ۳۶۹.

(۲) البداية و النهاية.

إلى التلف و الهلاک. فجسور الودّ قائمة، و حبال الوصل ممدودة، و الفترة تشهد سواه ممن يقوم بهذا الواجب. و فی سيرة إسحاق بن حنبل عمّه- ما يشير إلى مخالفة أحمد ليس فی أمر المال فحسب، بل فی نظرته إلى ما يتاح له من عمل.

فيسأله الدخول على الخليفة ليأمره و ينهاه قائلا له: إنه يقبل منک. و هذا إسحاق بن راهويه يدخل على ابن طاهر فيأمره و ينهاه، فيجيبه أحمد بالسلبية التی لا يرجی تغييرها: الدنو منهم فتنة، و الجلوس معهم فتنة، نحن متباعدون منهم و ما أرانا نسلم، فكيف لو قربنا منهم؟ هذا و الإمام أحمد فی ظل دولة تكاد تعلن آراءه و نهجه مذهبا لها، و يتقرّب إليه ملكها بودّ كبير، و ليس للحكام معه عداء أو مع أهله، و لا يشكل وجوده خطرا عليهم.

و هنا نشير إلى منهج أهل البيت النبوی الكرام، و أولاد الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام و نسوق مثالين: أحدهما فی عصر الأمويين، و الآخر فی عهد العباسيين، إذ لم يتخلّ الحكام عنهم فی كلا العصرين، و استمروا فی معاملتهم بقسوة دموية و سياسة لا إنسانية، لأنهم يشكلون خطرا يتهدّد كيانهم الجائر و سلطانهم الظالم.

عن المسئولية الدينية و وجه القيام بها فی العصر الأموی نشير إلى الإمام على بن الحسين زين العابدين، الذی عاش مأساة الطف، و شبّ و جريمة الأمويين تصبغ بالعار كل أوجه الحياة، فسلک طريق الانقطاع إلى اللّه، و توجيه الأمة بالنصح و الإرشاد، و هو فی ظل حكم السلالة الأموية، فيرى أن التارک للأمر بالمعروف و النهی عن المنكر كنابذ كتاب اللّه وراء ظهره، إلّا أن يتّقی تقاة. قيل: و ما تقاته؟ قال:

«يخاف جبارا عنيدا أن يفرط عليه أو أن يطغی» «١».

و عن الضرورة التی تجعل التقية جنّة المؤمن عملا بقوله تعالى: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِکَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِی شَیْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً نحيل إلى ما ضمّه هذا الكتاب من صفحات من سيرة الإمام الصادق عليه السّلام و هو يواجه الطغيان العباسی، و يرى أن التعرّض للدولة قتل للنفس، و اللّه سبحانه و تعالى يقول: وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ فتحامی الحكام، و دعا إلى وقاية الأنفس و حفظ

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٤٠.

الدماء، لأن العباسيين شأنهم شأن من سبقهم من الظلمة لا يتورّعون عن سفک دماء آل البيت بسبب أو بدون سبب. و مع شدّة حذره عليه السّلام تعرّض إلى القتل على يد المنصور تسع مرات، غير أنه عليه السّلام وضع قواعد الدعوة الصامتة، و خاطب أصحابه بأن يكونوا دعاة صامتين لآل البيت، ثم رسم للعلماء و المتكلمين من أصحابه الأدوار، و حدد المسئوليات كما مر بنا فی هذا الجزء من الكتاب و الأجزاء السابقة.

لم يؤثّر تردّد أحمد بن حنبل، فقد كان سلوكا لا يجاوز الأسرة، يجرى كشأن عائلى بحت مناطه المال. أما آراء أحمد السابقة فهى شائعة عن مريديه و معروفة لالتماع شخصه و اشتهار اسمه فى المحنة، و المتوكل يعمل على إلباس عهده صفة الحنبلية، و أحمد يتعاون مع هذا الاتجاه، و يستجيب برغم نفوره من المخالطة؛ إلا أنه كان له الرأى فى الأمور المذهبية، و كان المتوكل يستشيره فى التعيين للقضاء، و يأخذ برأى أحمد كما حدث عند ما بعث المتوكل إلى أحمد يستشيره فى تولية محمد بن شجاع الثلجى من فقهاء الحنفية. فقال: لا، و لا على حارس. و رأى أحمد فيه: إنه مبتدع صاحب هوى «١» و أنفذ إليه المتوكل بصاحب لم يعلمه- و نورد القصة بسياقها و هى جديرة بالبحث و التعليق-: أن له جارية بها صرع، و سأله أن يدعو اللّه لها بالعافية. فأخرج له أحمد نعل خشب بشراك خوص للوضوء، فدفعه إلى صاحب له، و قال له: تمضى إلى دار أمير المؤمنين، و تجلس عند رأس الجارية، و تقول له: يقول لک أحمد أيما أحب إليک، تخرج من هذه الجارية أو أصفع الآخر بهذه النعل؟ فمضى إليه، و قال له مثل ما قال أحمد، فقال المارد على لسان الجارية: السمع و الطاعة، لو أمرنا أحمد أن لا نقيم فى العراق ما أقمنا به، إنه أطاع اللّه، و من أطاع اللّه أطاعه كل شىء. و خرج من الجارية، و هدأت و زوّجت و رزقت أولادا «٢».

و على عهد أحمد بزغ نجم الحنابلة، و طلع فجر ليلهم الدامس بفضل انتصار المتوكل للإمام أحمد. و يحلو للحنابلة أن يصوّروا أحمدا وحيدا فى المحنة، ليتدرّجوا فى غلوّهم، متناسين أن الأمر صنعته أهواء الحكام و أغراض السياسة.

---

(١) المنتظم ٥/ ٥٧.

(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٢٣٣.

فتحوّل البعض عن طريقة السلطة العباسية، و بقى أحمد وحيدا فى أجواء التحوّل و التغيير، مستمسكا بالطريقة التى تهاب البحث و تخشى النقاش، و إن كانت تحرز كنزا و تدّخر ثروة من فهم الكتاب بأى طريقة كانت، و تمثّل السنة بأىّ صورة تمّت، لأن الظاهر القائم على وضوح النص و تحرىّ السبب معين فيّاض يوفّر الحجة و يغنى فى الجدل.

بإسناده قال الميمونى: سمعت على بن المدينى يقول: ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما قام أحمد بن حنبل. قال: قلت له: يا أبا الحسن و لا أبو بكر الصديق؟ قال: و لا أبو بكر الصديق. إن أبا بكر الصديق كان له أعوان و أصحاب، و أحمد بن حنبل لم يكن له أعوان و لا أصحاب ا ه.

سبق أن قدّمنا أن الكرابيسى كان أول ضحايا السلطة بعد جنازة ابن حنبل، و قد بدر من المتوكل من مشاعر التقديس و الإجلال لأحمد بن حنبل ما لم يحظ به أحمد من رؤساء المذاهب الذين سبقوه، فيقول لمحمد بن عبد اللّه بن طاهر: طوبى لک، صلّيت على أحمد بن حنبل.

و بعد موت أحمد اندفع أصحابه تحت شعار- إحياء السنّة و محاربة البدع- إلى إيذاء الناس و الاعتداء على الآخرين. و لمّا تصل الأخبار إلى المتوكل يقول لصاحب الخبر: لا ترفع إليّ من خبرهم شيئا، و شدّ على أيديهم فإنهم و صاحبهم من سادات أمّة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «١».

يقول ابن كثير: (كان المتوكل محببا إلى رعيته، قائما فى نصرة أهل السنة، و قد شبّهه بعضهم بأبى بكر فى قتله (أهل الردة) لأنه نصر الحق و ردّه عليهم حتى رجعوا إلى الدين، و بعمر بن عبد العزيز حين ردّ مظالم بنى أمية، و قد أظهر السنّة بعد البدعة، و أخمد أهل البدع و بدعتهم بعد انتشارها و اشتهارها، فرحمه اللّه).

و تولى الحنابلة- و على رأسهم صالح بن أحمد- نشر المنامات التى تصوّره بأنوار قدسية و بين يدى ربه، لأنه محيى السنة ردا لرعايته و تبنّيه لأمرهم. فقد بلغ الأمر بالمتوكل أنه أرسل جماعات تحصى عدد المصلّين أو المشيعين.

---

(١) المصدر نفسه ١/ ١٥.

و أخذ المتوكل يروّج المنامات عن نفسه على طريقتهم، فيدّعى أنه رأى النبى الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المنام، و قام إليه فقال له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: تقوم إليّ و أنت خليفة. و يعبّر له الحاشية ذلک بقولهم: أبشر يا أمير المؤمنين، أما قيامک إليه فقيامک بالسنة، و قد عدّک من الخلفاء. فيسر بذلک «١».

و هكذا حصرت السنّة فى رعاية الحنابلة، و ترک حبلهم على الغارب يعيثون فى الأرض و يرتكبون ما حمل ابن تيمية- أبا بدعة الوهابية و شيخ مذهبهم- أن يقول: بأنهم أتوا من المنكرات و الإمام أحمد برىء منهم «٢». و هو قول يرمى به إلى نفى المسئولية عن أسلافه، و يفتقر إلى الصحة، لأن رجال أحمد كالمروذى و أصحابه كانوا على رأس العامة يهيّجونهم إذا هدأوا، و يستفزّونهم إذا خمدوا. و قد كانت البداية فى عهد المتوكل، ثم توالت عهود هيمنتهم و تحكمهم و إلزام الناس بأفكارهم المجسّمة و غيرها، حتى بلغ الأمر تهديد من يخالفهم، و استعداء الحكام عليه، و استخدام قوتهم لأغراض مذهبهم. فكان من وجوه ابتلاء الأمة أن يتعرّض كل من لا يرى رأيهم فى التجسيم و الرؤية «٣» للأذى، فى حين يبقى يحيى بن أكثم- و هو من أركان الحكم فى عهد المأمون- على مكانته، و يظل فى منزلته من الخليفة، لأن أحمد بن حنبل راض عنه. قال المأمون ليحيى بن أكثم: من الذى يقول- و هو يعرّض به-:

قاض يرى الحدّ فى الزناء و لا يرى على من يلوط من بأس

قال: أو ما يعرف أمير المؤمنين من قاله؟ قال: لا. قال: يقوله الفاجر أحمد بن أبى نعيم الذى يقول:

حاكمنا يرتشى، و قاضينا يلوط، و الرأس شرّ ما راس

لا أحسب الجور ينقضى، و على ال أمة وال من آل عباس

«۴» و لمّا كان يحيى بن أكثم قاضيا للبصرة، رفع الناس إلى المأمون أنه أفسد أولادهم بكثرة لواطه، و بلغ من إذاعته و مجاهرته باللواط فى بغداد أن المأمون أمره أن

---

(۱) راجع: المناقب لابن الجوزى. و البداية و النهاية. ۱۰/ ۳۵۱.

(۲) قواعد المنهج السلفى ۱۱۳.

(۳) انظر: المنتظم ۶/ ۱۷۲.

(۴) تاريخ الخطيب ۱۴/ ۱۹۶. و مروج الذهب ۴/ ۲۲.

يفرض لنفسه فرضا يركبون بركوبه، و يتصرّفون فى أموره. ففرض أربعمائة غلام مردا اختارهم حسان الوجوه، فافتضح بهم.

قال عبد اللّه بن أحمد بن حنبل: ذكر يحيى بن أكثم عند أبى فقال: ما عرفت فيه بدعة. فبلغت يحيى فقال: صدق أبو عبد اللّه، ما عرفنى ببدعة قط. قال: و ذكر ما يرميه الناس به فقال: سبحان اللّه! سبحان اللّه، و من يقول هذا؟ و أنكر ذلك أحمد إنكارا شديدا «۱».

و على شاكلة يحيى بن أكثم كانت دفّة حكم المتوكل، فلم يكن فى وزرائه و المتقدّمين من كتّابه و قوّاده من يوصف بجود و لا إفضال، أو يتعالى عن مجون و طرب.

يظهر لنا من ذلك أن صفة إحياء السنة التى تعنى الالتزام بأهداب الدين و محاربة الخروج عن أصول الإسلام تخفى تحتها واقعا سيئا كأى حاكم آخر ممن تستروا بالدين و اتخذوا شعائر الإسلام غطاء لجرائمهم. و هذا الواقع بعيد عن أنظار العامة، فهم فى انفعال لا يكاد يخفّ حتى يشتدّ، و انقيادهم إلى الذين أطلقوا هذه الصفة انقياد أعمى، حتى كأن العامة تنظر و تنطق بأنظار و ألسنة النابهين فى تلك الفترة و المتزعمين الذين راحوا يكيلون المدائح للمنقذ المتوكل، و يشيعون الأخبار و المنامات عن جزائه عند اللّه، و مكانته فى الدين، فتأخذ سياسته على أنها السنّة، و يحسب كل ما يصدر عنه من الدين و التقوى، و كان من سمات حكمه الغالبة عداؤه الشديد لآل على، و نقمته الشديدة على الشيعة، و من سوء حظ الأمة أن يتاح للحكام مثل هذه الأدوار ليؤثروا فى العامة بصفاتهم الدينية، و هم فى غفلة عن حقيقة و دوافع من يحكمهم، لأن الوسطاء الذين يقومون بذلك يحجبون بمكاناتهم و منازلهم الدينية الحقيقية، و لا يرغبون فى خروج العامة عن أغراضهم.

حدّث نصر بن على الجهضمى بحديث: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ بيد حسن و حسين فقال: «من أحبنى و أحب هذين و أباهما و أمهما؛ كان معى فى درجتى يوم القيامة» فأمر المتوكل بضربه ألف سوط، فكلّموه بأن الرجل من أهل السنة، و لم يزالوا

---

(١) الطبقات: ١/ ۴١٢.

به حتى تركه، و يعقّب الخطيب البغدادى: إنما أمر المتوكل بضربه لأنه ظنه رافضيا، فلما علم أنه من أهل السنة تركه!! و أصاب أهل البيت فى ظل المتوكل محنة قاسية و بلاء عظيم، و كان الإمام على الهادى يقيم فى المدينة، و يقوم مقام الإمامة و حوله شيعته و أصحابه. فكتب عبد اللّه بن محمد بن داود العباسى إلى المتوكل عن حاله.

فكتب المتوكل إلى الإمام الهادى بالشخوص من المدينة، فشخصه عبد اللّه بن محمد بن داود و معه يحيى بن هرثمة، و قد اضطر إسحاق بن إبراهيم أن يدخله إلى بغداد فى الليل لمّا رأى تشوّق الناس إليه و اجتماعهم لرؤيته، فأقام إلى الليل، و دخل به فى الليل، فأقام ببغداد بعض تلك الليلة، ثم نفذ إلى سرّ من رأى «١». ثم كان من المتوكل فى الإساءة إلى الإمام الهادى ما تجاوز به كل حدّ الأدب و اللياقة.

و شارك المتوكل يزيد بن معاوية فى جريمته النكراء التى سوّدت وجوه بنى أمية و من والاهم إلى يوم الدين، فأمر المتوكل سنة ٢٣۶ ه بهدم قبر أبى الأحرار الإمام الحسين عليه السّلام و محو أرضه و إزالة أثره، و أن يعاقب كل من وجد به.

و لا نعقّب بشىء آخر، فلا مزيد لمستزيد أمام ما تصرخ به شواهد سيرته و أفعاله.

يقول الأستاذ حسن خليفة: و قد كان قاسى القلب، ظالما، حتى أطلق عليه المؤرّخون اسم (نيرون المسلمين) «٢».

أحمد و الشيعة

: كان أحمد فى كلّ ما يعرض له من المسائل يتوجّس من القول فيها، سواء كانت فى مسائل واقعة تدخل فى الخلاف، أو مسائل عامة تمسّ المعاملات و الحياة، حتى قلنا إنه يعانى من هاجس يعبّر عنه هو: العلم الذى علمه، أو المذاهب التى أدرك أصحابها و حدّث بها. مما جعله فى كثير من الأمور يغمض فى الجواب، و يبعد كثيرا عن القطع و الجزم. و قد أسهمت خشيته من السلطان فى إضعاف الأحكام التى تترتب على أفعال المتوكل، كإقدامه على حرث قبر الإمام الحسين عليه السّلام. فلم نعلم له

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٣/ ٢٠٩.

(۲) الدولة العباسية ص ۱۴۷ نقلا عن محمد البيومى: ابن حنبل.

ص: ۲۰۹

موقفا يليق برجل فى منزلته. و بتأثير هذا الموقف راحت توجه الأسئلة إليه: هل يلعن يزيد؟ فقد تظافرت أراؤه السابقة فى إطاعة الحكام و عدم الخروج عليهم مع صمته على التجرؤ على مثل هذه الأسئلة. و أغلب الروايات أنه كان يجيب بلعن يزيد، و يقول:

كيف لا ألعنه من لعنه اللّه فى ثلاث آيات من كتابه العزيز فى الرعد و القتال و الأحزاب.

و أحمد بن حنبل مبالغ فى تقرير شرف الصحبة، فيرى أن الصحابى هو كل من صحب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سنة أو شهرا أو يوما أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه. و هو ما يتّفق مع نزعته فى تقديس السلف، و ميله إلى الأخذ بما عدّ من الأثر، و المشهور الذى تعاهده حكام بنى أمية و بنى العباس بالرعاية و الحماية و الترغيب فى الوضع و الانتحال.

فكان على عهد معاوية الحديث: أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم. و هنا على رأى أحمد، و عملا بهذا الحديث فإن معاوية صحابى و إمام من أولئک الذين يعنيهم فى السمع و الطاعة.

و فى عهد بنى العباس كانوا يجعلون المحدّثين يقولون: معاوية بن أبى سفيان ستر أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإذا كشف الرجل الستر اجترئ على ما ورائه «۱». و اللّه أعلم بدوافع قول أحمد: خير هذه الأمة بعد نبيها أبى بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان. و يتوقف، ثم يجعل الإمام على ضمن أصحاب الشورى: الزبير و طلحة و عبد الرحمن بن عوف و سعد «۲».

و يرى الشيخ محمد أبو زهرة أن أحمد فى ذلک يقف موقفا وسطا بين أبى حنيفة و مالک (فأبو حنيفة فى رواية صحيحة عنه يفضّل عليا على عثمان رضى اللّه عنه ...

و مالک يعدّ السبق فى ثلاثة: أبى بكر و عمر و عثمان، ثم يذكر أن بعدّ ذلک يستوى الناس، أما أحمد فإنه لا يعدّ سيف الإسلام فى سائر الناس، بل يجعله فى أصحاب الشورى الخمسة بعد رفع عثمان رضى اللّه عنه، و الناس بعد ذلک دونهم على مراتب) «۳».

و نحن نرى باعتماد الأقوال الأخرى لأحمد أن أحمد واقع تحت تأثير الخوف من المتوكل الذى كان من أشدّ النواصب و المعادين للإمام على و آل بيته، و هو مشفق

---

(۱) تاريخ بغداد ج ۱ ص ۲۰۹.

(۲) ابن حنبل ص ۱۴۷.

(۳) ابن حنبل ص ۱۴۷.

ص: ۲۱۰

من هذا الطاغی، أو عامل بما دعا إلیه من الطاعة التی یبرّرها لنفسه. فعبد اللّه بن أحمد یسأل أباه: یا أبی، ما تقول فی التفضیل؟ فیقول: فی الخلافة أبو بکر و عمر و عثمان. فیقول عبد اللّه: فعلی بن أبی طالب؟ فیقول أحمد: یا بنی، علی بن أبی طالب من أهل بیت لا یقاس بهم أحد «۱». و لعلنا لو ناقشناه لقال: ذلک ما علمته من السلف فی التفضیل، و أما القول الآخر فهو ما یقتضیه الحق. و عن عبد اللّه أیضا قال: کنت بین یدی أبی جالسا ذات یوم، فجاءت طائفة من الکرخیة، فذکروا خلافة أبی بکر و خلافة عمر و خلافة عثمان فأکثروا، و ذکروا خلافة علی بن أبی طالب فزادوا و أطالوا، فرفع أبی رأسه إلیهم فقال: یا هؤلاء قد أکثرتم القول فی علی و الخلافة، إن الخلافة لم تزیّن علی، بل علیّ زیّنها «۲». و للعلّامة المعتزلی ابن أبی الحدید قول فی ذلک فیقول: و هذا الکلام دال بفحواه و مفهومه: أن غیره ازدان بالخلافة و تممت نقیصته، و إن علیا لم یکن فیه نقص یحتاج إلی أن یتمم بالخلافة، و الخلافة ذات نقص فی نفسها، فتمم نقصها فی ولایته إیاها ...

ثم لا نعدم أن نری أقوالا تومئ إلی ردّه علی زمرة المتوکل و النواصب کقوله:

من لم یثبت الإمامة لعلی فهو أضلّ من حمار «۳».

و علی ذلک، فإن تهمة إیواء العلوی لها مغزی کبیر إن لم تکن حقیقة واقعة، و نحن بذلک لا نرید تحویل صورة أحمد، أو نرمی إلی إخراجه مما هو فیه؟ بل إن الموقف من العلویین هو المعیار الثابت لمن کان مثله فی الزهد و التدیّن.

و ابن حنبل لم یکن منقطعا عن الشیعة، بل کان علی صلة مع رجالهم رغم الإجراءات التی اتخذها المتوکل فی تتبع الشیعة. و ربما وجّه بعض المخلصین للإمام أحمد لوما شدیدا علی اتصاله بمن عرف فی التشیع، فکان جوابه: سبحان اللّه، رجل أحبّ قوما من أهل بیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نقول له لا تحبهم؟ هو ثقة «۴».

کما أنه أخذ العلم عن کثیر من رجال الشیعة و کانوا من شیوخه، و قد ذکرهم ابن

---

(۱) المناقب ۱۶۳.

(۲) المصدر السابق.

(۳) المناقب أیضا.

(۴) تاریخ بغداد ۱۰/ ۲۶۱.

الجوزی فی المناقب، و غیره ممن کتب فی رجال الحدیث، ذکرهم فی تعداد شیوخ أحمد مع ثبوت تشیّعهم. منهم:

- إسماعیل بن أبان الأزدی المتوفی سنة ۲۱۶ ه و هو من شیوخ البخاری و ابن معین أیضا.

- إسحاق بن منصور السلوی المتوفی سنة ۲۰۵ ه خرّج حدیثه أصحاب الصحاح الستة.

- تلید بن سلیمان المحاربی المتوفی سنة ۱۱۰ ه خرّج حدیثه الترمذی و قال فیه أحمد: إن مذهبه التشیع، و لم أر فیه بأسا.

و لسنا هنا فی موضع استقصائهم، و إنما أوردنا أسماءهم کأمثلة. و تسمع عن رحلة أحمد لطلب الحدیث، فقد کانت إلی عبد الرزاق بن همام الصنعانی، و هو من رجال الشیعة و محدّثیهم ترجمه الذهبی: أحد الأعلام الثقات ... و هو خزانة علم، و رحل الناس إلیه: أحمد و إسحاق و یحیی و الذهلی جعفر بن أبی عثمان الطیالسی قال: سمعت ابن معین یقول سمعت من عبد الرزاق کلاما یوما، فاستدللت به علی تشیّعه، فقلت، إن أساتذتک الذین أخذت عنهم کلهم أصحاب سنة: معمر و مالک و ابن جریج و سفیان و الأوزاعی، فعمّن أخذت هذا المذهب؟ فقال: قدم علینا جعفر بن سلیمان الضبعی، فرأیته فاضلا حسن الهدی، فأخذت هذا عنه. و ذکر رجل معاویة فی مجلسه، فقال عبد الرزاق: لا تقذر مجلسنا بذکر ولد أبی سفیان. قال أحمد بن صالح: قلت لأحمد بن حنبل: هل رأیت أحسن حدیثا من عبد الرزاق؟

قال: لا «۱».

و أحمد بن حنبل یقرن عزمه علی الخروج إلی مکة لیقضی حجة الإسلام بالمضی إلی عبد الرزاق إلی صنعاء بعد الحج، و کان یرافقه یحیی بن معین، و یشدّ الرحال علی ذلک، بل إنه یبقی علی نیته و هو یلتقی بعبد الرزاق فی مکّة. و إلیک نص صالح بن أحمد: عزم أبی علی الخروج إلی مکة لیقضی حجة الإسلام، و رافق یحیی بن معین، فقال: نمضی إن شاء اللّه، فنقضی حجتنا، و نمضی إلی عبد الرزاق

---

(۱) میزان الاعتدال ج ۲ ص ۱۲۶- ۱۲۹.

إلی صنعاء نسمع منه. فوردنا مکة، و طفنا طواف الورود، فإذا عبد الرزاق فی الطواف یطوف، فطاف و خرج إلی المقام فصلی رکعتین و جلس، فتممنا طوافنا أنا و أحمد و جئنا و عبد الرزاق جالس عند المقام، فقلت لأحمد: هذا عبد الرزاق قد أراحک اللّه من مسیرة شهر ذاهبا و جائیا و من النفقة. فقال: ما کان اللّه یرانی و قد نویت له نیة أفسدها و لا أتمها «۱».

توفى عبد الرزاق سنة ٢١١ ه و لذلک ترى أن فى مسنده أحاديث تشتمل على فضائل أهل البيت. يقول الأستاذ محمد رجب البيومى فى كتابه (ابن حنبل): (و قد لحظ بعض كتّاب المغرب أن فى مسند أحمد ما يدل على شجاعته الأدبية، فقد ذكر أحاديث تشتمل على فضائل على و آل بيته مما لا نجد نظيرها فى صحيح البخارى، و ذلک فى عصر يضطهد العلويين و يناوئهم، و يقف بالمرصاد لمن ينسب إليهم بعض الخير فى قليل أو كثير ...) و معلوم أن المسند روى عن أولاده و أصحابه، و جمع من قبلهم.

و صفوة القول، أن أحمد فى سعيه و طلبه للحديث و العلم اتصل بالشيعة، و تتلمذ على رجالهم. و إن كانت هذه العبارة لا تغنى عن نتائج البحث و التعمّق فى حياته، و قد اكتفينا بهذا القدر.

خاتمة و خلاصة

رأينا أحمد فى حياته، و رافقناه فى محنته «٢» و ذكرنا بعضا من أخباره و سيرته، و اتضح لنا نهجه و منحاه العلمى، و أن كثيرا من أخباره و ما تتضمن صور عظمته كانت من إغراق الحنابلة فى مدحه، لأن أكثر ما أوردوه فى ذلک هو من وحى الخيال و بدافع التعصب، و قد نوّهنا بالمنامات و غيرها و التى يقصد الحنابلة فى كثير منها ليس إلى رفع منزلة أحمد و تهويل مكانته فحسب؛ بل و إلى خدمة معتقداتهم فى التجسيم. نورد لک منها زيادة، فقد اشتهر عن أحمد الجهر بالرؤية حتى ينقطع نفسه، و الإصرار على ذلک. و راح أحمد يعضّد الرؤية فى الآخرة برؤيا له إذ قال أحمد: رأيت اللّه عز و جل

---

(١) الطبقات ١/ ١٧٥.

(٢) راجع الجزء الرابع من «الإمام الصادق و المذاهب الأربعة».

فى المنام!! فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرّب به المتقرّبون إليک؟ قال: بكلامى يا أحمد «١».

و بإسناده قال أحمد بن محمد الكعدى: رأيت أحمد بن حنبل فى المنام، فقلت: يا أبا عبد اللّه، ما صنع اللّه بک؟ قال: غفر لى، ثم قال: يا أحمد ضربت فىّ؟ قال: قلت: نعم يا رب. قال: يا أحمد، هذا وجهى، فانظر إليه، قد أبحتک النظر إليه!!!! قال عبد اللّه بن الحسين بن موسى: رأيت رجلا من أهل الحديث- توفى- فيما يرى النائم، فقلت له: باللّه عليک ما فعل اللّه بک؟ قال: غفر اللّه لى. فقلت:

باللّه؟ فقال: باللّه إنه غفر اللّه لى. فقلت: بما ذا غفر اللّه لک؟ قال: بمحبتى لأحمد بن حنبل. فقلت: فأنت فى راحة؟ فتبسم و قال: أنا فى راحة و فى فرح «٢».

و يحدث أحد شيوخهم: رأيت رجلا بجامع الرصافة فى شهر ربيع الآخر من سنة ستين و أربع مائة. فسألته فقال: قد جئت من ستمائة فرسخ. فقلت فى أى حاجة؟ قال:

رأيت و أنا ببلدى فى ليلة جمعة كأنى فى صحراء أو فى فضاء عظيم، و الخلق قيام، و أبواب السماء قد فتحت، و ملائكة تنزل من السماء تلبس أقواما ثيابا خضرا و تطير بهم فى الهواء. فقلت: من هؤلاء الذين قد اختصوا بهذا؟ فقالوا لى: هؤلاء الذين يزورون أحمد بن حنبل. فانتبهت و لم ألبث إن أصلحت أمرى، و جئت إلى هذا البلد، و زرته دفعات، و أنا عائد إلى بلدى إن شاء اللّه ا ه. إلى ما هنالک من أمور لا تدخل فى دائرة البحث التاريخى، و هى عندهم من الأسس المعتمدة فى تكوين شخصية أحمد.

فرؤياهم النبى المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- كما يدّعون- و أنه أمرهم باتباع أحمد. هو عندهم كأمره فى اليقظة، و قد أثر ذلک فى التحقيق التاريخى عن ترجمة أحمد.

و انتصار المحدّثين على خصومهم المعتزلة خلق جوا من الاضطراب فى أخباره و سيرته، فتحامل خصومه و مغالاة أنصاره مع إقبال الدولة عليه، أوجد فجوة كبيرة.

كما أن إهمال العامل السياسى من قبلهم أدى إلى تعدّد وجهات النظر فى الواقع

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ٤٩٧.

(٢) الجرح و التعديل ج ١ ص ٣٠٨.

التاريخى، على أن مشكلة خلق القرآن و قيام المأمون بإلزام الفقهاء فى ذلک أوجد مشكلة كلامية تحتاج إلى دراسة واسعة فى علم الكلام، و بيان الكلام النفسانى، و تعلّقه بالذات.

كما أن الأسباب التى دعت المأمون إلى هذا الإلزام، و حملته على نشر ذلک بالقوة كذلک تحتاج إلى دراسة واسعة.

ثم القول بخلق القرآن، هل هو الإحداث، و لا شک أنه محدث، أم أرادوا الخلقة أو التكوين الحادث للكلام و هو من صفات اللّه، و إن صفاته عين ذاته، و قد عرضناها فى هذا الجزء بقدر ما تقتضيه ضرورة البحث.

و غير بعيد أن الحنابلة قد أوهموا على الناس فى هذه المسألة، و جعلوها فى قالب آخر، و أوردوها لهم بصورة ينكرها الجميع، و ذلک بتفسيرهم المخلوق بالمكذوب. فقد ورد فى كثير من أقوال العرب اختلق كذا أى كذب فيه. و قد ورد عن الخليل بن

أحمد- صاحب كتاب العين- أنه كان يمنع أن يوصف الكلام بالمخلوق و يقول: إن الكلام متى وصف بالخلق فالقصد به الكذب، و لهذا يقال:

كلام خلقه فلان أى تقوّله- و قد مر بنا ذلک سابقا-.

و فى أيام المحنة أن بعض الفقهاء لما سئل فى القرآن قال: أصفه بأنه محدث، و لا أقول بأنه مخلوق لقوله تعالى: ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ.

فمعنى أنه مخلوق أى مكذوب و هو غير منزل. و غير بعيد على قوة دعاية الحنابلة و تغلغلهم فى المجتمع أنهم أفهموا الناس بأن المعتزلة يذهبون إلى خلق القرآن أى إلى عدم كونه منزلا من اللّه سبحانه و تعالى. و بهذا هبّت عواصف الغضب على المعتزلة، و انتصر عليهم المحدّثون.

كما لا أستبعد أن أكثر الحنابلة- الذين يقومون بنشر هذه الدعاية- لا يفهمون إلّا المعنى اللغوى، و هو أن المخلوق هو المكذوب، و لم يذهبوا مذهب المعتزلة فى الكلام و ما هو معنى ذلک.

و كيف يستبعد انتشار أمثال هذه الدعاية فى عصر انتشر فيه الجهل و الجمود الفكرى، و أصبح الناس يسير أكثرهم وراء عاطفة عمياء لا يميز بين الحق و الباطل،

و لكن هلم فاعجب من رجل يدّعى الإمام بالتاريخ، و كلّف نفسه كتابة التاريخ الإسلامى، و لكنه محى أكثر مما كتب، و أفسد أشياء كثيرة، و عقد مسائل واضحة.

هذا الرجل هو جرجى زيدان، يعيش فى القرن العشرين، و لكنه يعيش فى عقلية قرون الجهل و الجمود، فهو يذكر لنا فى تاريخه الذى أسماه (التمدن الإسلامى) ٣/ ١٤١ ط ١ أن المأمون تمسّک بمذهب الاعتزال، و قرّب إليه أشياخه، و صرح بأقوال لم يقو هؤلاء على التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء، و فى جملتها القول بخلق القرآن، أى أنه غير منزل.

فأنت ترى أن جرجى زيدان ينسب للمعتزلة إنكار نزول القرآن، و هذا كفر محض، و هو افتراء محض ناشئ من سوء الفهم، و عدم الإلمام بأطراف المسألة، و جهل بالمسائل الكلامية.

و لا نودّ هنا أن نقف مع مؤلف التمدّن الإسلامى فنكشف أخطاءه المتعمدة و غيرها. فنحن قد سجلنا عليه الكثير من ذلک، و يكفى هنا تغييره لهذه المسألة، و تحويلها من الصراع الفكرى الحاد إلى جمود لا يتعدى الخلاف بمفهوم اللفظ اللغوى الذى يجعل المسألة من أبسط المسائل و أوضحها. و إن إطلاق المخلوق على المكذوب أمر لا يحتاج إلى أبحاث علمية و منازعات كلامية بين المعتزلة و المحدثين.

و كما قلنا إن الحنابلة قد انتصروا على خصومهم بما كان لكلمة مخلوق من دلالة، و هى أنه مكذوب. و بهذا استطاعوا أن يحرّكوا شعور المجتمع ضدّهم. و لكن قوة الحكم و عنف المؤاخذة و حمل الناس قسرا على القول بخلق القرآن جعل للمعتزلة قوة يتحصّنون بها. حتى إذا حان الوقت، و زال ذلک الحكم، و تبدّل وضع الدولة؛ فشل المعتزلة فشلا ذريعا، و نالهم الأذى، و نسب الناس إليهم كل قبيح. و كان لثبات أحمد، و للظروف التى ساعدته على ذلک أثر فى طلوع نجمه، بعد أن أفل نجم المعتزلة بقيام المتوكل العباسى، و رفعه للمحنة. و لعل من هذا الفهم لكلمة مخلوق، و اتهام المعتزلة بأنهم ينفون وجوده و تنزيله، كان للمتوكل شأن بين المحدّثين، فجمع العلماء من الفقهاء و المحدثين و كان فيهم- كما مر بنا- مصعب الزبيرى، و إسحاق بن أبى إسرائيل، و إبراهيم الهروى، و عبد اللّه و عثمان ابنا أبى شيبة، فقسمت بينهم الجوائز، و أجريت عليهم الأرزاق، و أمرهم المتوكل أن يجلسوا للناس، و أن يحدّثوا

ص: ٢١٦

بالأحاديث التى فيها الرد على المعتزلة و الجهمية، و أن يحدثوا بالأحاديث فى الرؤية.

فجلس عثمان بن أبى شيبة فى مدينة المنصور، و وضع منبرا، و اجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا. و جلس أبو بكر بن أبى شيبة فى مسجد الرصافة، و اجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفا.

و يلاحظ من هذا أن مشكلة خلق القرآن كانت قضية سياسية بدءا و ختاما، فقد قام المأمون بفرض ما يرتئيه، و حمل الناس قسرا على معتقده، و امتحن الناس بعنف و شدة، فقرّب من يقول بمقالته، و عاقب من يخالفه بألوان العذاب. و على ذلک سار خلفه، و قد حاولوا جعل الاعتقاد بخلق القرآن عقيدة رسمية، فقد كان أحمد بن أبى دؤاد يأمر المعلمين فى الكتاتيب أن يلقنوا الصبيان أن القرآن مخلوق، و أن يصبح ذلک من الدروس التى يلزم تدريسها فى معاهد التعليم، لينشأ الجيل الجديد على عقيدة الاعتزال التى فرضتها الدولة، و امتحن الناس بها.

أما فى النهاية، أى فى دور المتوكل، فكان الأمر كسابقه يتّصف بالقهر و العنف و الشدة، و حمل الناس على ما ترتضيه الدولة من القول: بأن القرآن غير مخلوق.

و هكذا ضاع جوهر المسألة، و ابتعدت عن مقوماتها العلمية و ما تحتاج إليه من دراسة، و تقديم الطرق العلمية نفيا و إثباتا، بل زاد الأمر تعقيدا باستعمال لفظة مخلوق أى مكذوب، و أشيع فى الناس أن المعتزلة يذهبون إلى أن القرآن غير منزل من اللّه تعالى.

و المعروف أن المعتزلة على اختلاف فرقهم و متكلّميهم لم يكن أحد منهم يذهب إلى ما اتهموا به من الطغى فى القرآن و التشكيک فى أنه منزل من عند اللّه، و قد صدروا فى نظريتهم عن الصفات، و منها صفة الكلام التى ترتب عليها قولهم بأن القرآن مخلوق عن إيمان صادق حرصوا فيه على تأكيد وحدانية اللّه و تنزيهه، حتى وسموا بأهل العدل و التوحيد.

و فی عهد المتوکل سار الناس علی غیر هدی و لا وضوح للمسألة، بل کان الأمر سیاسیا و خارجا عن دائرة النزاع العلمی الذی یؤدی إلی نتائج واضحة سلبا أو إیجابا، و لعل أکثرهم یودّ التعرّف علی حقیقة الأمر، و یکتم ذلک خوفا من السلطة.

و من الأحداث ما یصرّح باعتلاج النفوس و ازدحام الأذهان بالتساؤلات التی تدور بین طبقی رحی السلطة و التعنّت. فالإمام أحمد لاینی عن تکفیر من تسوّل له نفسه الاستفسار أو تحرّی الحق، و لا یتردد فی معاملتهم کالمرتدّین، فکلام اللّه غیر

ص: ۲۱۷

مخلوق، و من قال أنه مخلوق فهو کافر باللّه العظیم، و من لم یکفّر قائله فهو کافر، أو إنهم کفار یستتابون.

و استمرّ أصحابه علی نهجه، کما باتت فرص تحکّمهم فی الناس من خلال السلطة أکبر. و ورث أنصارهم هذا المنحی فی التعنّت و التزمّت.

و إلی هنا نتوقف عن الحدیث عن أحمد ... و ننهی الجزء السابع من کتاب «الإمام الصادق» و سیلیه الجزء الثامن بعونه تعالی و توفیقه.

ص: ۲۲۱

الجزء الثامن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَنْزَلَ عَلی عَبْدِهِ الْکِتابَ وَ لَمْ یَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً [الکهف: ۱]- وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْیُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْیَکْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِینَ ناراً [الکهف: ۲۹]- وَ مَنْ یَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِکَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلی [طه: ۷۵]- وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِکَ سَوْفَ یُؤْتِیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ کانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِیماً [النساء: ۱۵۲]- وَ مَنْ یَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ [المائدة: ۵۶]

ص: ۲۲۳

مقدمة و تمهید

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الحمد للّه علی هدایته لدینه، و التوفیق لما دعا إلیه من سبیله، و أصلی علی محمد خاتم الأنبیاء و خیر الخلق، و علی آله الطیبین الطاهرین، و من اتّبعه و والاه.

هذا هو الجزء الثامن من کتابنا (الإمام الصادق و المذاهب الأربعة) و قد أکملته و أنا فی سنّ ألمّت بی الأعراض و الأمراض، و فی حال من الغربة یزید من موانع التواصل بالکتابة و التألیف، و لکنّی تحاملت علی الأیام، و ناجزتها بقوی واهنة و ذهن

مكدود، و أنا مؤمن بأن ضعف البدن و فتور البال يتحوّلان بالإيمان إلى طاقة خلّاقة، و قد قال الإمام الصادق عليه السّلام: «ما ضعف بدن عما قويت عليه النيّة».

و لم يكن الجزء الثامن وحده هو ما انعقدت عليه النيّة، و إنما بين يدى كتبى الأخرى التى لم تر النور بعد، و أمامى تنقيح و إضافة بعض الزيادات إلى ما طبع منها ككتابنا: (مع الحسين فى نهضته). و أنا فى ظرف اقتضى أن أتجه فيه إلى مهمات الإرشاد و واجبات العمل الدينى، فقد واجهت صعيدا يستلزم الجهد الذى يضنى، و فيه كل ما تضمّه القربة إلى اللّه دون بهارج الدنيا و منافع المادة التى تؤثر فى قوة العمل.

و إذا ما استراح الذهن من الأفكار التى تلحّ عليه، تعلّق بماضى الأيام حيث كان الوقت مستغرقا فى البحث و الكتابة، و ما هى إلا أيام تفرغ و فترات تخصص يركض طالب العلم فيها بنهم وراء المعرفة، و يسعى كل يوم للحصول على المادة التى يحتاجها فى بحثه، فإن عدمت فى داره؛ اتجه إلى مجامع الفكر و مؤسسات العلم. فسلام على مدينة العلم، و تحيّة مقرونة بآهة و دمعة و حسرة، و صلوات اللّه على أمير المؤمنين و وصى رسول رب العالمين، صلوات دائمة حتى يتشرّف جسدى بتراب. أرضه، فإن الأيام تمرّ، و العوارض تزداد، و العمر إلى نفاد، و لم تتحقق بعد أمنية العودة.

ص: ٢٢٤

و لقد عانيت كثيرا و أنا أعمل على إكمال الجزء الثامن من كتاب الإمام الصادق فقد رأيت أن ما أكملته من كتب و بحوث- على شدّة حرصى و كثرة متابعتى فى إنجازها- قد ضمّت بعض الأخطاء الإملائية و غيرها التى لا تخلّ بالسياق. فبذلت جهدى فى التصحيح كما حدث فى كتابنا المخطوط: (الجريمة بين الشرع و القانون) و كتاب (العلوى الثائر) و قد كنت أتمتع ببقايا البصر، فكيف الآن و قد أصبحت أعانى من (الزرقاء) معاناة شديدة مما اضطرنى إلى الاعتماد على الإملاء على الأحبة و الأصدقاء، و إذا ما أمسكت بالقلم لأكتب، فإن القدرة لا تتجاوز بضع كلمات. و قد نظرت فيما لفت نظرى من تلك الأخطاء، فوجدتها بسبب النقل و الجمع و التصنيف و نسخها بأكثر من يد. فأرجو مراعاة ما فاق الطاقة و هى فى أواخرها، و النظر فيما عجزت عنه القدرة و هى فى ضعفها، و اللّه ولى التوفيق.

و تصبح الكتابة صعبة و شاقة عند التحوّل إلى طريقة الإملاء على الغير، و البحث فى المصادر بواسطة و عون، أضف إلى ذلك أن ما معى من الكتب و المصادر قليل جدا، و لم يتيسّر فى نطاق العلاقات هنا ما يسدّ الحاجة، فألجأ إلى الذهاب إلى المكتبات للاستعارة، و لم أجد فى هذا المجال ما يقتضى التنويه أو يستحق الشكر إلا ما قدّم لى من يد فى النسخ و الكتابة، أضرع إلى اللّه أن يسدّد و يوفق كل من قدّم يد العون من الأهل و الأصدقاء.

و القصد، فإن هذا الجزء الذى أقدّمه إلى القرّاء كان من أكثر الأجزاء تطلبا للجهد و المعاناة، و كنت عند ما أجد فى نفسى الضعف- بفعل عوامل السن و مقتضيات العمر- اتجه إلى الأعمال الأخرى، فأبحث فيها، و أدوّن مادّتها، لأن هاجس الأجل و انقضاء العمر يحملانى على أن أوزّع ما استشعره من إمكانية على كتبى، و يعلم اللّه أنى أنظر إلى فراقها كما أنظر إلى فراق الأهل، و أرجو لها كما أرجو لهم أن أتركها على حال يمكنها من تحقق الغرض و تحقيق الأمل.

و فی الجزء الثامن من (الإمام الصادق و المذاهب الأربعة) تناولنا أهم المواضیع التی تتعلق بحیاة الإمام الصادق، و بحثنا حیاة الإمام مالک و الإمام الشافعی، بعد أن عدنا إلی الحدیث عن حیاة الإمام أبی حنیفة و الإمام أحمد فی الجزء السابع، و تناولنا بعض الأمور التی لم نبحثها عن أئمة المذاهب الأربعة فی الأجزاء السابقة من الکتاب.

و لأن امتداد حیاة الإمام الصادق علیه السّلام کان عبر عهدین و نظامین للحکم، فقد کانت حیاته غنیّة بالأحداث و التحوّلات و المواقف، کما أن حیاته علیه السّلام قد امتدت

عبر سیرتین و مرحلتین لنظام الإمامة و تاریخ أهل البیت النبوی علیهم أفضل الصلاة و السّلام. فتعلّق جزء منها بحیاة جدّه الإمام زین العابدین علیه السّلام، کما تعلق شطر منها بحیاة أبیه الإمام الباقر علیه السّلام، فکانت حیاته علیه السّلام من هذا الجانب زاخرة بالمواقف و الأفعال و المبادئ، حتی جاءت شخصیته علیه السّلام و أفکاره و تعالیمه علی مستوی من التکامل و النضج، و من العمق و الغنی، ما جعلها مکافئة للأخطار و المهالک التی تحیط بالإمامة و تهدّد الأمة و المجتمع الإسلامی، فقد تسلّم الزعامة الروحیة و تولی الإمامة فی مرحلة شدیدة الصعوبة، و لو لا آثار الإمام الصادق علیه السّلام و ما نتج عن نهجه الفکری و نشاطه العلمی، لکانت آثار النظامین الحاکمین، و نتائج أعمال الطغاة، و ما وجّه إلی الأمة الإسلامیة من ضربات تستهدف عقیدتها و سلوکها من قبل أعداء الدین، قد أسلمت الکیان الإسلامی بکل جوانب وجوده و وجوه بقائه إلی أزمة حادة أو مشکلة مستدیمة. لکن جهد الإمامة، و حکمة استمرار الرسالة فی وصایة الولایة، أبقت جذور العقیدة راسخة، و حفظت أرکان الدین قائمة برغم انشغال حکّام الزمان بحمایة سلطانهم، و انتهاجهم البطش و القسوة، حتی کانت صورة المجتمع الإسلامی محاطة من جهة بظلم الحکام و جبروتهم، و من جهة أخری بأعداء الإسلام و أفکارهم، و من جهة ثالثة بألوان ضعف الإیمان و البعد عن الدین. و یبرز فی قلب هذه الصورة شخصیة المصلح الفذّ و القائد المخلص، فیحیل ظلمات الجهل إلی مشارق أنوار، و یخلق تلک النهضة الفکریة و الحیاة العقلیة التی نهل منها أئمة المذاهب و علماء المسلمین، و التی حصّنت الأمة ضد حرکات الأعداء، و حفظت الفکر من تیارات الإلحاد و الزندقة.

و قد رأیت أن أبدأ الکتاب بشیء من سیرته یلخّص ما بسطنا به القول فی الجزءین الأول و الثانی من الکتاب، و قدّمت عرضا للفترة السیاسیة الزمنیة، و أسماء الملوک الحکام الذین عاصرهم الإمام الصادق علیه السّلام حتی تکون أمام القارئ الذی لم یتهیأ له قراءة أجزاء الکتاب التی ضمّت تفاصیل القول فی هذه الفترة الزمنیة السیاسیة، صورة عن الأحداث و التحولات التی عاشها الإمام الصادق. ثم سقنا نظرة إلی حوادث عصره لتکون عقب الشیء الذی قدّمناه من سیرته متکاملة فی إطار الصورة التی نرید.

و لمّا کنت قد أنهیت کتاب: (حیاة الإمام الصادق) «۱» فقد نهجت فی هذا الجزء

---

(۱) سنقدمه للطبع إن شاء اللّه بعد الفراغ من طبع الجزءین السابع و الثامن من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

على عرض المواضيع التى تتصل بإبراز شخصية الإمام الصادق فى إطار المقارنة أو فى سياق المرحلة السياسية مما لم يدخل فى أغراض الكتابة عن حياة الإمام بشكل منفرد.

و لهذا ضمّ الجزء الثامن عرضا لمنهج العمل عند الإمام الصادق فى مواجهة الطغاة، و المسلک الذى اتبعه عليه السّلام فى تجنيب الأمة المآسى، و إبعاد أنياب الحكّام و مخالبهم عن جسد المجتمع الإسلامى، و الاتجاه إلى المستقبل ببناء النفوس و عمارة الأذهان بذكر اللّه و التمسّک بتعاليم الدين، و هو ما ميّزه ليس على صعيد الأمة الإسلامية، بل و فى داخل الدوحة المحمدية و الشجرة العلوية، حتى استطاع أن يقيم صرحا فكريا شامخا تمثّل فى مدرسته التى انتسب إليها علماء الأمة و رجالها، و أن يجعل من (الدعوة الصامتة) التى وضع بذرتها جدّه الإمام زين العابدين عليه السّلام منهجا و نظاما.

كما تضمّن الجزء الثامن بحثا فى (الدعوة الإسماعيلية) و قد كان ذلک مما تفرّع عن البحث فى أبناء الإمام الصادق عليه السّلام حيث تناولنا موضوع الإمامة بعد الإمام الصادق عليه السّلام و دلائل النص على إمامة ابنه موسى بن جعفر. إلى غيرها من الأمور التى قامت الإسماعيلية على إنكارها، و المواضيع التى تطورت منها، و قد حرصنا على تجنب الخوض فيما يمكن أن يستغنى البحث عنه، و اقتصرنا على القضايا الأساسية فى ابتعاد الدعوة الإسماعيلية عن مذهب الإمام جعفر الصادق و عقائد الشيعة الإمامية، و لم ندخل فى تفاصيل و دقائق ذلک لظرف قدّرناه، فأهملنا الكثير، و لكن لم نقف دون ذكر الحقائق أو الإتيان بالوقائع.

و أخيرا، فلا بد من كلمة سبق أن نوّهت بمعناها فى أكثر من مورد فى ثنايا البحث عن حياة الإمام الصادق، فإن شخصية الإمام الصادق تبقى بحاجة إلى مزيد و مزيد من البحوث و التصانيف، و خاصة أفكاره و تعاليمه التى تضمّ ثروة كبرى.

كما لا بد من القول أن سمو منزلته العلمية و علو مكانته الدينية لا تؤثر فيهما دواعى التعصب أو بواعث الإساءة، فلقد عفى التاريخ ما أراد له أعداؤه من صورة، و أتت الأيام على محاولات الحكام و أنصار الظلمة، و بقيت صورة الإمام الصادق التى يجمع العلماء على إشراقها و نورها. فهو أعلم زمانه، و إمام علماء عصره، و سيّد أمة جده.

و أرجو من اللّه أن لا يكون هذا آخر العهد بخدمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة و السّلام، و أن يمنّ علىّ بالقوة و الطاقة لإكمال المسيرة و تحقيق الآمال، و اللّه من وراء القصد.

الكويت/ محرم الحرام/ ۱۴۰۴

الإمام الصادق شيء من سيرته، و نظرة إلى حوادث عصره

الإمام الصادق هو أعظم شخصية فى عصره و بعد عصره، و سيبقى مثالا للعالم الذى استطاع أن يؤدى للأمة خدمات لم يمحها بعد الزمن و تقلّب الحوادث و اختلاف الظروف. فقد واجه عليه السّلام مسئوليات جسام و مخاطر عظيمة تهدّد مبادئ العقيدة الإسلامية و وجود المجتمع الإسلامى، و تتجلى عظمة الإمام الصادق فى تصدّيه لتلك الأخطار على تعدد مصادرها و اختلاف عناصرها، فلم يهدأ فى صد هجمات الأفكار و موجات التشكيک و الإلحاد.

و لم يقعده الضغط السياسى الذى استعمله أولئک الحكام الذين حاولوا أن يخضعوا لسلطانهم الروح المعنوية التى يتصف بها علماء الإسلام، فيربطوا العلم بعجلة مسيرتهم، و يسخّروا الدّين لأغراضهم.

و قد حفظ التاريخ لنا ملامح شخصية الإمام الصادق واضحة جلية و هو فى خضم ذلک المعترک القاسى. و يبرز دوره عليه السّلام فى الحفاظ على أصالة الفكر الإسلامى، و فى الذود عن كيان الأمة، و فى حماية الرعية من ظلم الحكّام و الطغاة، إلى غير ذلک من جوانب الحياة الإسلامية، و هو فى ذاته هدف السياسة و غاية الحكم، حيث كان الطغاة على اختلافهم يسعون إلى القضاء على شخصيته لما تمثّله من قوة روحية و سلطة دينية.

و من عظيم الآثار و المفاخر الفكرية، أن يتمكن عظيم كالإمام الصادق- و هو على مثل تلک الأخطار و مواجهة سياسة الحكام- من تأسيس مدرسة إسلامية استطاعت أن تطلق الفكر الإسلامى من عقال الجمود، و توسّع دائرة المعرفة بنشر العلوم الإسلامية، و الدعوة إلى التمسّک بتعاليم الدين و أفكار العقيدة الإسلامية حتى

سارت بذكره الركبان، و ازدحمت على مجلسه الوفود من شتى الأقطار، فكان بحق أعلم أهل عصره، و لم يكن هناک أعلم منه. و قد أعلن عليه السّلام للملإ بقوله: «سلونى قبل أن تفقدونى فإنكم لن تجدوا أحدا مثلى» «١».

و قد شهد له علماء عصره من تلامذته و روّاد مجلسه كمالک ابن أنس و أبى حنيفة و السفيانى «٢».

و كان عصره يتّصف بمفارقات أوجدت مشاكل عديدة أثقلت كاهل كل مسلم يحسّ بواجبه تجاه أمته عند ما اصطدمت بأمور محدثة يغلب عليها طابع المصالح الذاتية، و شاعت مظاهر الفساد و ترسّخت اتجاهات الشذوذ عن العقيدة و الابتعاد عن الإسلام، رغم أبراد التديّن التى لبسها الحكام و رسوخ دعائم سلطانهم باسم الدعوة إلى الإسلام و القيام بأمر الخلافة و شئون النظام.

و كان للتحول السياسى الذى شهده عصر الإمام الصادق أثر فى تعقيد الأوضاع و قيام موجة من الاضطراب، هددت أمن المجتمع الإسلامى، و رمت به إلى معترک هام قضى على بقايا استقراره.

و عند ما ظهرت الدعوات المختلفة، و قامت الثورات المتلاحقة، و كلّ يدعى المحاماة عن الدين و الدفاع عن شريعة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وقف الإمام الصادق عليه السّلام وسط تراكم الأحداث و انعطاف الأسباب و حدوث التطورات موقف مسئولية كبرى من حيث التصرف الذى تقتضيه المرحلة و المسئوليات التى تطرحها الظروف القائمة على أهل بيت النبوة،

و العمل المطلوب أمام تلك المشاكل. فهم رجال رضعوا لبن الفضيلة، و تشرّبت دماؤهم العقيدة الإسلامية، و قدّموا فى ميادين الفداء أعظم التضحيات، و بذلوا كل إمكانياتهم فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية. فقد واكبوا تلك الدعوة فى يومها الأول، و عاصروها على مرّ الزمن، حتى باتت لباسهم الحق و سمتهم الأصيلة.

و الإمام الصادق ولد فى مهبط الوحى، و ترعرع فى مهد الرسالة، و تدرّج فى

---

(١) و (٢) الذهبى تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٥٧. و مناقب أبى حنيفة للموفق المكى ج ١ ص ١٧٣. و انظر الجزء الأول و الثانى من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

ربوع النبوة يتفيأ ظلال الإيمان، و يتغذّى تعاليم الإسلام من مصدرها الأول و منبعها الطاهر، و لما قام بأعباء الإمامة كانت الأمة الإسلامية تمرّ فى هذا المنعطف، و تنحدر إلى التفرّق و التمزّق. فوقف الإمام الصادق عليه السّلام موقف المصلح العظيم و الزعيم المحنک، و نظر إلى واقع الأمة و ما يحيط بها من مشاكل و أخطار نظرة متفحّصة و عميقة، فأخذ نفسه بمنهج فكرى و عملى يتعاهد المسلمين بالرعاية و يتكفّلهم بالحماية. و لو لا العناية الإلهية التى تتجلى فى سرّ الإمامة و اختيار صاحب نصها و ولايتها، لما تمكن بشر من النهوض بتلك الأعباء و المسئوليات التى تترتب على الزعامة الدينية و المنزلة الروحية. و يمكننا القول أن عصر الإمام الصادق كان حلقة التواصل فى حياة الأمة الإسلامية.

و هنا نقدم أضواء من سيرته و حياته.

ولادته:

فهو أبو عبد اللّه جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن على زين العابدين، بن الحسين سبط رسول اللّه، بن على بن أبى طالب عليهم السّلام. ولد بالمدينة المنورة يوم الجمعة أو الاثنين عند طلوع الفجر يوم ١٧ ربيع الأول سنة ٨٣ ه و قيل سنة ٨٠ ه و قيل غرة رجب أو غرة شهر رمضان. و المعتمد الأول هو يوم ١٧ ربيع الأول يوم ولادة رسول اللّه كما عليه عمل كثير من المسلمين.

أمه:

أم فروة، و قيل أم القاسم، و اسمها قريبة أو فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر.

أمها: أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر. و كانت أم فروة قد ولدت للإمام الباقر ولدين هما: الإمام الصادق و عبد اللّه أو عبيد اللّه. و أم فروة كانت امرأة ذات معرفة و علم بأمور الدين، أخذت عن الإمام الباقر ما أهّلها لمكانة سامية و دراية كبيرة بالعقيدة و الرسالة، و قد تلقّت عنه أحاديث متنوعة، و روتها عنه.

روى عبد الأعلى حادثة تدل على مكانتها و علمها، قال: رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متنكرة، فاستلمت الحجر بيدها اليسرى، فقال لها رجل ممن يطوفون: يا أمة اللّه أخطأت السنّة؟

ص: ٢٣٠

فقالت: إنّا لأغنياء عن علمک.

أبوها: القاسم بن محمد بن أبى بكر. كان من الفقهاء السبعة، و قد روى له أصحاب الصحاح الستة، كان قريبا من الإمام على زين العابدين و من ثقاته. أما جدّها فهو ربيب أمير المؤمنين الإمام على. و كان منه بمنزلة أحد أولاده، اتصف بالثورة على الانحراف، و لعب دورا مهما فى إبعاد الأذى عن المسلمين.

كنيته و ألقابه:

يكنّى عليه السّلام بأبى عبد اللّه، و يلقب بالصابر و الفاضل و الطاهر «١». و العالم «٢» و أشهر ألقابه الصادق لصدق حديثه، و عرف بذلک، و اشتهر بين علماء عصره و بعده، لأنه ما جرى عليه قط زلل، و لم يتوقف أحد عن رواية حديثه و الأخذ بقوله، و لم يستطع أحد الطعن فى أقواله و روايته. و أما قول البخارى: فى النفس منه شىء، فلم يخرج حديثه، فذلک يعود لنفسية البخارى و ما فيها، و لا يؤثر ذلک على ما أطبق عليه العلماء، و يكاد يكون العصر كله شاهدا، و قد تعرضنا للبخارى فلا حاجة إلى العودة إليه مرة أخرى. فالإمام الصادق (نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره، و كان إماما فى الحديث) «٣».

صفته:

و وصفوه عليه السّلام بأنه ربع القامة، أزهر الوجه، حالک الشعر، أشم الأنف، تكسوه الهيبة، و يعلوه الوقار، حسن المجالسة، كثير النوال. و لم يخل عن ذكر اللّه و الثناء عليه، و كان لا يخلو من ثلاث خصال: إما قائما و إما صائما و إما ذاكرا. كان من أكابر العبّاد و عظماء الزهّاد الذين يخشون ربهم، كثير الحديث عن رسول اللّه، كثير العواد. كان نقش خاتمه (ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه).

و كما أشرنا، نشأ عليه السّلام فى المدينة المنورة عاصمة الإسلام و موطن الصحابة و التابعين. و قد شهدت هذه المدينة أوج عظمة النظام الإسلامى، فهى مهبط الوحى و التنزيل، تقصدها الوفود من جميع الأقطار، و ينتهل منها علماء الأمة.

---

(١) تذكرة سبط ابن الجوزى ص ٣٥١.

(٢) تاريخ ابن واضح.

(٣) سبائک الذهب فى معرفة قبائل العرب.

كان الإمام الصادق يحظى برعاية جدّه لأبيه الإمام على بن الحسين زين العابدين، و هو معلّمه الأول حيث لازمه مدة ثمانى عشرة سنة، فترعرع فى ذلک الجو الذى يفيض بعبق النبوة، و يستلهم دروس التضحية الكبرى، حيث يهزّ الناس أثر الفجيعة و المأساة، و يرتسم على كل وجه ألم المصاب عند ما تطوف ذكرى استشهاد الحسين و خروجه من المدينة، و ذكرى يوم الحرّة و إباحتها، فتلتهب النفوس و ترتبط برابطة الاتصال بآل محمد كلما أوغل الحكام فى الظلم و سفک الدماء و مطاردة الأحرار من المسلمين، و هدم دور الصلحاء و المتعبدين، و ذلک فى العهد الأموى الأسود.

توفى جده الإمام زين العابدين سنة ۹۴ ه فعاش مع أبيه الإمام الباقر الذى كان موضع اهتمام العلماء و موئل الفقهاء، و كانت حلقة درسه تعقد بالمسجد النبوى- و هى المدرسة الكبرى لطلّاب العلم و رجال الحديث- فلا تعقد هناک حلقة إلا بعد انتهاء الباقر من حديثه.

و حضر عنده جمع من الفقهاء أمثال: عمرو بن دينار الجمحى، و عبد الرحمن الأوزاعى، و ابن جريج، و محمد بن المنكدر، و يحيى بن كثير، و زيد بن على.

و خلال تلک الفترة كان الإمام الصادق على اتصال مباشر بالحركة الثورية و النهضة العلمية، و إليه تتجه الأنظار من بعد أبيه لنبوغه و تضلّعه فى الفقه و تبحّره فى الدين، و لكثرة ملازمته لأبيه فى حلّه و ترحاله؛ إذ دخل معه الشام و مكة المكرمة، و ظهرت عليه علائم الفضل و شرف العلم، و عزة النفس و صدق اللهجة، و المهابة و الجود و كرم الأخلاق.

و يقول عمرو بن المقدام: (إذا نظرت إلى جعفر بن محمد، علمت أنه من سلالة النبيين) «۱» حتى إذا وافى أباه الباقر الأجل، و انتقل إلى جوار ربه، قام بأعباء الإمامة و تفرّد بالزعامة، و كانت مدة إمامته أربعا و ثلاثين سنة.

و قد كابد مرارة النكبات الواحدة تلو الأخرى، و عاصر آثار الفجيعة التى منيت بها الأمة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السّلام و إباحة المدينة ثلاثة أيام فى وقعة الحرّة،

---

(۱) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ۲ ص ۹۴. ينابيع المودة للقندوزى الحنفى ص ۴۵۷. و تهذيب التهذيب ج ۲ ص ۱۰۴.

و رمى الكعبة و الاستهانة بحرمة الحرم، كما شاهد موقف عمّه زيد و نهايته المفجعة التى انتهت إليها ثورته.

لقد جرّب الإمام الصادق شراسة السلطة و عنفها و اضطهاد الأمة و الاستهانة بحقوقها و عدم المبالاة بالدماء، فسلک طريقا لمحاربتها و الوقوف بوجهها يحول بين الحكام و بين ما يعملون من أجله فى سياستهم و سلوكهم.

أكد الإمام على نشر الوعى، و حثّ الأمة على التسلح بسلاح العقيدة، فكان رائدا صادقا، و دليلا خبيرا فى مجال العمل و حفظ التراث الإسلامى فى عصر تطور الحركة الفكرية، و التحولات السياسية الحديثة، و أن المكانة الحيوية التى يتبوؤها بمزاياه العالية و غزارة علمه، قد جعل الكثير من الناس يتوقعون منه أن يسهم فى المعترک السياسى الذى اشتد فى عصره و الذى تمخض عن ثورات متتالية.

و ظنوا أنه سيشارک فى أحداث ذلک المعترک، و تعدى موقف الكثيرين من الصمت إلى المصارحة، فحرّضوه على الثورة و البدء بالانتفاضة، ظنا منهم بأن الزمن قد حان لقيام حكومة عادلة و دولة تسير وفق نظام الإسلام و قوانينه، بعد أن تجرّدت الدولة الأموية من كل المقومات الروحية، فعبثت بمقدرات الأمة، و هتكت مقدّسات الإسلام و حرماته، و لا يزال يوم الحسين ماثلا لا يمحى أثره، و صرخته مدوّية على مرّ الزمن، و وقعة يوم الحرّة لا زالت شاخصة أمام الأعين، و حوادثه تحدث عاصفة غضب و هزّة استنكار، و لا تخلو جدران المدينة و لا الحرم الشريف من قطرات الدماء الزكية.

و لكن الإمام الصادق لم يمل إلى جانب من استماله، فهو لم يخدع بالآمال البرّاقة، و لقد عرف نزعات الناس و ميولهم، و طبيعة الموقف الذى يتخذونه، و الغايات التى من أجلها كان تحريضه، و قد زودته تجربته الكبرى و علمه بما وراء الحوادث بالقدرة على تمييز بواعث تلک التحركات، و معرفة مقتضيات الحال، و التى كان يجهلها الكثيرون ممن راحت تضطرب نفوسهم بمشاعر صادقة تتأثر بالأحداث و تنفعل.

فكانت نظرته جوهرية مبنية على استيعاب تام لدور الدين فى الحياة، و مقدار تأثر تلک الجموع به و خضوعهم له.

و قد شخّص خطورة الموقف، و عرف غايات الدعوة و أهداف القادة، فكان رفضه لطلباتهم من أهم ما يحتّمه عليه واجب الدعوة لمصالح الأمة.

ص: ٢٣٣

فقد أدت غلبة المصالح و تنازع الأسر إلى ضياع الناس، و ارتباطهم بما قام فى المجتمع من تيارات منحرفة و مبادئ نفعية تستخدم الإسلام تعديا و ظلما، فكان لا بد من أن يهيء اللّه لهذه الأمة قائدا يمثل المبادئ الحقة، و يكشف- من خلال الالتزام المطلق و النهج الروحى القويم- عقم الحركات التى لا ترى أبعد من المصالح القريبة، و تعجز عن استشفاف الآفاق، و تمثّل النتائج البعيدة. فكان الإمام الصادق فى نظرته العميقة و تحسّسه لضرورات الدعوة و متطلبات استمرار الرسالة. يدعو إلى عدم الإسهام فى الاضطرابات، و حماية المجتمع، و تجنيبه خطر الحروب التى يجنى ثمارها أعداء الدين. و لما عهد عنه من علم و مكانة دينية، فهو مرهوب الجانب يحسب لرأيه ألف حساب. و قد كان تحركه و نشاطه يلقى رعبا فى قلوب أولئک الحكّام كما عبر المنصور عنه بقوله: (بأنه الشّجى المعترض حلقه) لموقفه المؤثر الحساس، و لميل الناس إليه.

وقف الإمام الصادق فى تلک الظروف القاسية موقف الصلابة فى إيمانه، و الثبات فى عقيدته، و الإخلاص فى أداء رسالته، فكان رائدا كبيرا فى مجال مواجهته الفعلية ضد السياسة التى تأخذ آفاقا جديدة، و تلجأ إلى أساليب بعيدة عن روح الإسلام و مبادئه. و قد امتدت حياته عبر عصرين متناحرين سياسيا و فكريا، فقد عاش فى آخر خلافة عبد الملک بن مروان إلى وسط

خلافة المنصور الدوانيقى- العصر العباسى- أى من سنة ۸۳ ه إلى سنة ۱۴۸ ه إذ أدرک من خلافة الأول ثلاث سنين أو ست سنين أى من سنة ۸۰ ه أو ۸۳ ه إلى سنة ۸۶ ه و هى السنة التى توفى فيها عبد الملک بن مروان، و مدة خلافته ثلاث عشرة سنة و أشهر، ثم ملک الوليد بن عبد الملک سنة ۸۶ ه و توفى سنة ۹۶ ه و كانت مدة خلافته تسع سنين و ثمانية أشهر.

ثم ملک أخوه سليمان بن عبد الملک، و توفى سنة ۹۹ ه و كانت مدة خلافته سنتين و ثمانية أشهر.

ثم ملک بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان المتوفى سنة ۱۰۱ ه و مدة خلافته سنتين و ستة أشهر.

و ملک بعده يزيد بن عبد الملک بن مروان المتوفى سنة ۱۰۵ ه و كانت مدة خلافته أربع سنين و شهرا.

ص: ۲۳۴

و ملک بعده هشام بن عبد الملک المتوفى سنة ۱۲۵ ه و كانت مدة خلافته عشرين سنة إلا شهرا.

و ملک بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملک الفاسق المتوفى سنة ۱۲۶ ه و مدة خلافته سنة و ثلاثة أشهر.

و ملک من بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملک المتوفى سنة ۱۲۶ ه.

و ملک بعده أخوه إبراهيم، و لم تطل أيامه، و تنازل لمروان الحمار بن محمد بن مروان بن الحكم سنة ۱۲۷ ه و كان مروان آخر خلفاء بنى أمية، و قتل سنة ۱۳۲ ه و كانت مدته خمس سنين و عشرة أشهر، و هى فترة الانحدار و السقوط التى شهدت حروبا متوالية و ثورات متعددة لتنتهى الدولة الأموية بنهاية مروان.

كانت المدة التى عاصر الإمام فيها هؤلاء الحكّام- الذين سبق ذكرهم من الأمويين- لا تقل عن ثمان و أربعين سنة و هى بأشخاصها و زمانها تكفى لكشف المراحل التى عاشها الإمام الصادق عليه السّلام، و هى حافلة بالمآسى و الويلات التى منيت بها الأمة. إذ انجرف الأمويون وراء شهوات الحكم، و راحوا يسخّرون الدولة لأغراضهم و توطيد نظامهم، فعمّ الظلم جميع الطبقات و كل المسلمين، و لم يسلم من شرّهم إلا من سار فى ركابهم، و جار عن سواء السبيل.

لقد كانت لغة الدم هى السائدة و كانت وسيلة العنف هى المتبعة، و كم من إمام و عالم و فقيه قتل على أيديهم و استشهد فى عهدهم. و أولى الحكم الأموى أهمية بالغة للطالبيين، فرصدوا حركاتهم، و قمعوا كل موقف بينهم لصد العدوان و مواجهة الظلم، و خرّ الشهيد منهم تلو الشهيد، و كان همّهم قتل أعيان العلويين و سحقهم، و النيل من الإمام علىّ، إلا الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى منع سب على عليه السّلام بعد أن كان قد أدخل فى مناهج التعليم، و أعلنوا به على المنابر فى الأندية و المجتمعات، لينشئوا جيلا تربّى على بغض على و أولاده.

قال أبو يحيى السكرى: (دخلت مسجد دمشق فقلت: هذا بلد دخله جماعة من الصحابة، فملت إلى حلقة فيها شيخ جالس، فجلست إليه. فقال له رجل جالس أمامه: من هو على بن أبى طالب؟ فقال الشيخ: خفّاق كان بالعراق، اجتمعت عليه جماعة، فقصد أمير المؤمنين- يعنى معاوية- أن يحاربه، فنصره اللّه عليه.

ص: ٢٣٥

قال يحيى: فاستعظمت ذلک، و قمت فرأيت فى جانب المسجد شيخا يصلّى إلى سارية و هو حسن السمت و الصلاة و الهيئة، فقلت له: يا شيخ، أنا رجل من أهل العراق جلست إلى تلک الحلقة ثم قصصت عليه القصة، فقال الشيخ: فى هذا المسجد عجائب، بلغنى أن بعضهم يطعن على أبى محمد الحجّاج بن يوسف.

فعلى بن أبى طالب من هو؟) «١».

و إذا كان لنا من تعليق على هذه الحادثة، فهو لا يتعدى الصمت الذى يكشف ما فعلته السلطة، و مبلغ الجهل و العداء التى جنّدت له أجهزتها للنيل من الإمام على عليه السّلام، حيث لم يكن الأمر مقصورا على ضرب القوى التى يدفعها إيمانها إلى الوقوف بوجه الظلم، بل راح الأمويون خلال ذلک يذهبون إلى ارتكاب الجرائم و خلق الأهوال. و لقد عانى الناس الضيم و العوز، إذ عملوا على زيادة الخراج، و اتباع الطرق الظالمة، و أخذ الجزية ممن لا تجب عليهم الجزية.

لقد كان الأمويون يرون فى العلويين منافسين أقوياء لهم، يستأثرون بقلوب الناس و حبّهم، و قد حاول جهازهم الدينى و التشريعى و الجنائى أن يعمل على إضفاء صفة التكامل و النضوج و القسوة على الحكم الأموى دون هوادة و بمختلف الأساليب.

و كان العلويون- عبر نشاطهم العلمى و موقعهم الدينى- يتوغّلون فى نفوس الناس، و تنشدّ إليهم الجموع، و تدين لهم بالولاء، إذ تمتعوا بقوة دون دولة، و عاشوا فى منعة دون عنف؛ بل كان سلاحهم الإيمان، و درعهم التقوى، و رغم انتهاء السلطة إلى الأمويين و تمتعهم بالقوة، لم يستطيعوا أن يغيّروا من الموقع الذى يحتله العلويون فى نفوس الناس، فكانت حركاتهم و ثوراتهم المستمرة- رغم نهاياتها المفجعة- تزيد من تقرّب الناس إليهم، و دنو المسلمين منهم.

نظرة إلى حوادث عصره

: و لا بد للباحث عن حياة الإمام الصادق من مواجهة عدة مشاكل تعترض سير البحث و تقف فى طريق المؤرخ لحياة هذا الإمام العظيم.

و هى مشاكل كثيرة متشابكة، تكتنف البحث و تحيط بالموضوع، كما أن هناک

---

(١) المدخل إلى مذهب أحمد بن حنبل ص ٥.

عدة أسئلة تفرض نفسها على الباحث، و تحتاج منه إلى إجابة تكشف عما استتر وراءها من أمور.

المشاكل- كما قلنا- كثيرة، منها: مشكلة الثوار الذين يرمقونه بأبصارهم من بعيد و يأملون إسناد الحكم إليه، و مشكلة النزعات الفكرية و الصراع العقائدى، و مشكلة الغلاة، و لعلها أهم مشكلة تقف فى طريق الباحث، بل أهم مشكلة تعترض سير الحقائق التاريخية، حيث استطاع التلاعب السياسى أن يوجد منها عوامل يتمكن من خلالها تحقيق أغراضه و أهدافه. و سنأتى لعرض موجز فى البيان هنا لأنا قد أوضحنا فى بحثنا الموسع ما يتعلق بهذه المشكلة «۱».

و عصر الإمام الصادق يتصف- دون غيره من عصور الأئمة- بعوامل كثيرة، أهمها: التحول السياسى الذى حصل فى أيامه، بل خلال أهم أدوار حياته، و ذلک بانتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين بعد أن انتصرت ثورتهم باسم أهل البيت عليهم السّلام ذلک التحول الذى أحدث تغييرا جذريا فى المجتمع الإسلامى، و فتح أمام المسلمين آفاقا بعيدة المدى.

و لم تكن نتائج الثورة مجرد انتقال الحكم من أسرة إلى أسرة، بل هى فى الواقع ثورة لها أثرها فى تاريخ الإسلام، تعنى نقطة فاصلة فيه لفعاليتها و آثارها، حيث أحدثت فى المجتمع تغيّرا عميقا و تحولا سياسيا و اجتماعيا اتسعت آثاره.

و لم يكن الإمام الصادق عليه السّلام بالرجل الذى تهمل الأحداث موقفه، أو بمعزل عن ذلک المجتمع أو فى منأى عن التأثر بتلک الحوادث المحيطة به، فهو كفرد يشمله ما يشمل سائر الناس، يعيش مع الأمة و يشاطرها آلامها و يتعرف على أحوالها. و قد كانت الأحداث تنتهى إليه لمكانته الاجتماعية و السياسية، فالثورة قامت على أساس دعوة دينية نظمت تنظيما دقيقا يضمن لها النجاح، و يمكّن جذورها من النمو فى أرض زرعت بجثث الأبرياء و سقيت بدماء الشهداء. و الدعوة قامت تحت شعار أخذ الثأر من مرتكبى المجازر و المظالم بحق العلويين، و كان يقوم ذلک على تنظيم سرّى يعمل بتكتم شديد، و هو يدور حول الدعوة لأهل البيت، و إسناد الحكم إليهم لأنهم أصحابه الشرعيون، و لا بد من الأخذ بثأرهم و الانتصار لمظلوميتهم، لأن الدولة الأموية

---

(۱) انظر الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

عمدت إلى تصفية الحركات العلوية و القضاء على زعمائها بكل وسيلة. و قد جعل السواد لباس الدعاة، و شعارا يرفع العرب إعلانا للحداد على الحسين عليه السّلام، فاندفع الناس لخوض تلک المعارک، لأنها معارک تهدف إلى القضاء على معاقل الظلم و رموز الضلالة و البدع، فانتشرت الدعوة، و كان أبناؤها على اتصال بالإمام الصادق عليه السّلام، و دعاتها أكثرهم يأملون بإسناد الحكم للعلويين. فالعباسيون أنصار دعوة و جنود حركة و ليسوا رؤساء! فالدعوة إسلامية المبدأ، شيعية النزعة، لم يتمكن العباسيون من الإعلان عن نواياهم العدائية تجاه أهل البيت، بل عرفوا كيف يستغلون مشاعر الناس و تعاطفهم مع العلويين، و

تستروا بدعوة الرضا من آل محمد. فسارت الجموع بحماس شديد سعيا وراء هدف سام هو جعل الإمامة فى أهلها الذين يستحقونها بجدارة من أهل بيت النبوة، حتى يصلح اللّه بهم ما فسد من الأمور و ما اختلف فيه الناس.

و فى البيت العلوى رجال يصلحون لتولى الإمامة بظاهرها من حيث الدين و التقوى، و لكن ليس فيهم النص، و لم تكن إليهم الوصية، و إنما كانت لمن شملته العصمة وفاقهم فى الخصال. و كلهم لا ينازع الإمام الصادق موقعه أو مكانته، و عند ما بلغت الأمور- من الجانب السياسى- حدا يساعد على التغيير و التحول فى السلطان، كان الإمام الصادق يمد ببصره إلى ما وراء الأحداث و المصالح القريبة، فما كان من أبناء عمه ممن نظروا إلى التحول و التغيير فى حدوده المحسوسة، إلّا أن طلبوا منه الدخول فى ما عزموا عليه من إعلان الثورة و إسناد الثوار منهم، و لكنه عليه السّلام رفض رفضا باتا.

و قد ذكرنا آنفا أنه طلب من الثوار العلويين التريث فى الأمر- و لأهمية هذا الموضوع سنخصص له بابا آخر نبحث فيه الدقائق و التفاصيل- لأن قضية التفريق بين دواعى الموقفين و اختلاف النظرتين قضية هى من الأهمية بمكان لا تنتهى بانتهاء ظرفها، و لأن الإمام الصادق دفع بجوهرها إلى آفاق واسعة ما زلنا حتى اليوم نعيش حقيقة ذلك الجوهر و واقع تلك النظرة، و سيأتى بحث ذلك قريبا.

و من ملامح النظرة التى اتسم بها الإمام الصادق. أن الأمة تحتاج إلى الرجال فى مجال الإصلاح و الدعوة، و أن المسلمين يواجهون حكاما عتاة و سلاطين متجبرين، فما كان فى عهد الأمويين سيتكرر لأنه عليه السّلام لمس من العباسيين مذهبهم فى توسّل كل الطرق إلى سدّة الحكم و عملهم على الصعود إلى السلطان بوسائل تضمن لهم

ذلك ما دام النظام الأموى قد انحدر إلى نهايته. و فى عهد العباسيين، فقد رأى الإمام الصادق أن قوة النظام الجديد، و وحشية الحكام الجدد ستدفع بالأمة إلى أوضاع سيئة. و ستعود على أهل البيت بفظائع أخرى و مجازر تزهق فيها أرواحهم و تهرق دماؤهم.

أما فى بدء الأمر، و قبل قيام حكم العباسيين، فإن الأوضاع التى ستؤول إليها الأحداث واضحة، فلا بد من انتهاء حكم الأمويين و زوال ظلمهم، و التحول آت بكل الأحوال، و قد رأى الإمام الصادق مبلغ الاستجابة للدعوة، و تعاطف الناس مع الثورة، و الكل فى عينيه مرأى مظالم آل محمد، و مناظر المصائب و المآسى التى حلت بهم على يد الأمويين، فراح الناس يؤيدون الثوار. بيد أن علم الإمامة قد عين هذه الفترات، و قسّم هذه الأدوار. فليس الأمر كما يظن ذوو الأنظار القصيرة من الناس مهما اتسعت تجاربهم و نمت مداركهم، كما أن الثورة ضمت فى تنظيماتها عناصر بعيدة كل البعد عن الأهداف التى من أجلها نظمت الدعوة، و أعلنت الثورة، و قد تستّر وراءها كثير من النزعات المختلفة و الآراء المنحرفة، و هتافاتهم للرضا من آل محمد لم تدفع به إلى تعريض المجتمع الدينى لخطر السياسة الغاشمة، فقد كان أبعد نظرا مما يرى فى النتائج، فهو ينظر بالفكر الثاقب و النظر الدقيق المسدّد من اللّه تعالى لعواقب الأمور، و العلم الشامل، و مراعاة المصلحة العامة، و السير وفق الخطط المحكمة و الآراء السديدة فى تقدير الظروف و مناسباتها.

و هو رأس الأمة و إمام الناس و زعيم العلويين، يرى آيات رعاية اللّه، و يلمس وجوه كلاءته له، ليسلّمه من بطش الطغاة و محاولات الظالمين. عليه دور القيادة، و توجيه دفة السفينة، و ليس العكس.

و هو عليه السّلام لم يندفع وراء تيار الأقوال البرّاقة، و لم يجر فى ميدان السياسة و مخاتلتها، و قد حاول الكثير من أتباعه و غيرهم و خلّص أصحابه و المنتمين إليه أن يثيروا عواطفه عند ما استعرت نار الثورة فى البلاد الإسلامية، و انتشرت تلك الشعارات التى تدعو للرضا من آل محمد.

و سعى بعضهم بكل جهده إلى أن يحمل الإمام و أنصاره على الثورة، و لكنهم كانوا ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية، فتغلب عليهم سلامة النيّة و سرعة التصديق بالأمور الظاهرة كبشر يحكمهم الواقع و التأثر بمجريات الأحداث، و ليس كما يرى الإمام

و هو صاحب الولاية الشرعية و قد خصته العناية الإلهية بالأمر، و جعلت فى شخصه الإمامة، و الوقائع عنده كما قضت بها الحكمة الإلهية و قدّرتها المصلحة الدينية.

دخل عليه سهل بن الحسن الخراسانى فسلّم عليه و قال له: يا ابن رسول اللّه، لكم الرأفة و الرحمة، و أنتم أهل بيت الإمامة، ما الذى يمنعک أن يكون لک حق تقعد عنه؟ و أنت تجد من شيعتک مائة ألف يضربون بين يديک بالسيف؟

و دخل عليه سدير الصيرفى فقال: يا أبا عبد اللّه ما يسعک القعود؟

فقال عليه السّلام: «و لم يا سدير؟» فقال: لكثرة مواليک و شيعتک و أنصارک.

فقال: «يا سدير، و كم عسى أن يكونوا؟» قال: مائة ألف.

فقال الإمام الصادق: «مائة ألف؟!!» قال: نعم «١».

فكان جوابه عليه السّلام من باب الامتناع عن ذلک، و أشار إلى أن تلک الكثرة التى يتخيّل أنها تحقق الأهداف التى يتطلبها واقع الثورة و النهضة بالمسلمين ليست كذلک، لأن أولئک لم يكونوا من الرجال المخلصين الذين تمكنت العقيدة من نفوسهم، اللهم إلا نفر قليل، فلا يمكنه أن يخوض معركة حاسمة كما يريد أولئک الذين حاولوا إثارة حفيظته مع عدم وجود العدة الكافية من المخلصين الذين يمكن الركون إليهم و التعويل عليهم. كما أن أهل البيت الكرام لهم فى كل عصر دور و رسالة، فلقد كانت ثورة الإمام الحسين من أكبر العوامل التى فضحت الردة و عرّت الأمويين، كما أنها أصبحت ينبوع وعى و معين هدى يحمل الناس على الاقتداء بتعاليم الرسالة و الاهتداء بمبادئ العقيدة، و كان من بعد مأساة الطف و ما أثارته فى النفوس أن تجد الأمة من يعزّز فى كيانها ذلک التحوّل و يرسّخ نتائج الثورة، فكانت دعوة الإصلاح و منهج الإرشاد.

و قد بلغ منهج الإصلاح الدينى و الفكرى و الاجتماعى على يد الإمام الصادق درجة من النمو و التكامل، فامتلک قدرة التأثير فى النفوس، و اتصف بالروحانية و الحس الدينى الذى يجتذبها.

---

(١) الكافى ج ٢ ص ٢۴٣.

ص: ٢۴٠

و كان عليه السّلام فى الوقت الذى يحاور فيه دعاة الثورة، يمارس مسئولياته فى وجه السلطة و انحراف الحكّام، و يقاوم نزعات الهدم و موجات القمع و تيارات التشويه و الانحراف.

و كان نهج الحوار طريقة العمل الفكرى لدى الإمام الصادق، تتسم بالشمول وسعة الرأى، و قوة الإقناع التى تقوم على علم ثابت، و رأى سديد. لذا فقد تولّى رد تلک الهجمات، فكان دفاعه عن الإسلام فى درء شبه الزنادقة و الدهرية من أهل الأديان الأخرى قد خلّف ثورة فكرية مهمة ضمّنها عشرات من الكتب.

و كان قد بدأ التنازع فى ذلک العصر بين الفلسفة و بين الإسلام و العقائد التى جاء الإسلام لمحاربتها، و ظهرت بوادر الجدل العقلى، و اتخذ علم الكلام كوسيلة للحجاج.

و كان موقف الإمام الصادق من تلک التيارات و وسط ذلک الجدال و النزاع موقف العالم المنافح عن الدين و المدافع القوى عن العقيدة الذى لا يغلب فى مناظرة و لا ينقطع فى محاورة، و كان لحجّته و وضوح برهانه و رجاحة عقله و قوة استدلاله الأثر الحاسم فى أن يخضع له العقل السليم و يرتاح له الضمير، و تفنيد آراء الأعداء و دحض أفكارهم، و توفير أسس يركن إليها المسلم و يعتمد عليها فى الدفاع عن دينه و عقيدته. و كان يدلى بآرائه أمام خصومه بمنطق يدخل إلى آذان سامعيه فينفذ إلى قلوبهم، فلا يجدون بدّا من التسليم لقوله الحق و منطقه الصائب. و قد حفظ لنا التاريخ خصائص منهج الإمام و ميزات منطقه الذى لا يجارى فى استدلالاته، و لا يغلب فى براهينه؛ بل كان هو المتفوّق و السابق فى كل مضمار.

و بهذه المواقف، و بتلک الشهرة التى نالتها مدرسته، و المهمة التى قام بها أصحابه فى محاربة الإلحاد و الملحدين كان لزاما على دعاة تلک المبادئ الذين دخلوا الإسلام أن يتستروا باعتناقه لبثّ سمومهم، و شعروا بخطر موقف الإمام الصادق و محاربته لكل فكرة من طريق العلم و المنطق، فنظروا إليه نظرة ملؤها الحقد على الإسلام و انتصاره على عقائدهم الفاسدة و أديانهم الباطلة، و لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن المجاهرة بما فى نفوسهم من أضغان و عداوة، و أن انتصارات الإسلام دائمة لأن عقيدته هى مصدر هذه الانتصارات، لجئوا إلى التلبّس، و استخدموا أساليب

ص: ٢۴١

التستر و الادعاء، و اختطوا لأنفسهم طريقا يقوم على وسائل و شعارات لا حظّ لها من الصحة و لا نصيب، يمنّون أنفسهم باستعادة أمجادهم و الوقوف بوجه الإسلام.

و كيف يجديهم ذلک و ينطلى على المؤمنين خداعهم بعد أن ظهرت آثاره فى حربهم و انتشرت أخباره فى صدودهم، فحاولوا عن طريق الدسّ أن ينتصروا لمبادئهم الإلحادية، و توصلوا إلى ما توهموه حلا ناجحا و انتقاما سريعا و ذلک عن طريقين:

الأول: انضمام بعض دعاة الإلحاد إلى مدرسة الصادق ظاهرا، و ادعاء حب أهل البيت نفاقا، لكى يعملوا من الداخل على الفساد و الإفساد.

الثانى: استعمال الكذب و الدسّ على أهل البيت. و من هذا و ذاک كوّنوا طريقا، و صلوا من خلاله إلى غاية فى نفوسهم، و هى إظهار الغلوّ فى أهل البيت، و الغلوّ كما قدّمنا هو أعظم مشكلة اصطدمت بها قافلة التشيّع، و أدهى مصيبة نكبت بها هذه الطائفة، و حركة الغلوّ هى حركة إلحادية منشأها معارضة الإسلام من جهة، و تشويه مذهب أهل البيت من جهة أخرى، لذلک ربط كثير من المؤرخين و الكتّاب بين التشيّع و بين الغلوّ؛ بل ذهب بعضهم إلى وصف التشيّع بالغلوّ. و السبب فى ذلک قصور نظرتهم و عجزهم عن التحلّى بالموضوعية التى تقتضى جهدا لسير تفاصيل و أحداث تلک المرحلة. فليس بين الشيعة و بين الغلاة ما يجمعهم، كيف ذلک و قد كان ظهور دعوات الغلاة و تسللهم قد سبّب لأئمة أهل البيت و قادة الشيعة قلقا و إزعاجا لم يهدأ، حتى أحبطت حركاتهم و فشلت مخططاتهم، و قد تناولنا فى الجزء الرابع من الكتاب جوانب قيام هذه الحركة و اعتبارها مشكلة. و لا غرابة فى وصفها بالمصيبة التى عولجت بجهود الأئمة أهل البيت، و بمزيد الأسف أن يتغاضى البعض عن هذه الحقائق و ينكروا الوقائع و يتلذذوا بالطعن على الشيعة، و هم بذلک ضحايا دعاوى الحكام و المناهضين لأهل البيت سواء من جهة تلقى الدين أو من جهة الأغراض السياسية العمياء التى تريد تشويه الحقائق و قلب الأوضاع و اتهام الأبرياء لإضعاف أثر أهل البيت فى المجتمع و النيل من مكانتهم السامية فى النفوس.

كان دخول الغلاة فى صفوف الشيعة خطوة سياسية أوجدتها عوامل متعددة كما أشرنا إلى ذلک، و فى مقدمتها: النيل من الإسلام. و قد عالج أهل البيت هذه المشكلة الخطرة، فعرفوا الدوافع التى دعت هؤلاء إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، كما اتضحت لهم غايات خصومهم. فكانوا يعلنون للملإ البراءة من الغلوّ و الغلاة، و جاهروا

بلعنهم، و أمروا شيعتهم بالتبرؤ منهم. و تلقى الشيعة تلک الأوامر بالقبول و الامتثال، فأعلنوا البراءة منهم، و ملأوا كتبهم بلعن الغلاة و التبرؤ منهم. و أفتوا بحرمة مخالطتهم، و أجمعوا على نجاستهم، و عدم جواز تغسيل و دفن موتاهم، و تحريم إعطائهم الزكاة، و لم يجوّزوا لمن يقول بالغلو أن يتزوّج بالمسلمة، و لا المسلم أن يتزوج بالمغالية، و لم يورّثهم من المسلمين، و هم لا يرثون منهم.

و لكن يأبى بعض الكتّاب المعاصرين إلّا الإصرار على الخطأ، و الاستسلام للروح الطائفية، و السير فى ركاب العصبية، فيتّبعوا أهوائهم دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء البحث فى حقائق التاريخ، و الاطلاع على وقائعه من مصادرها الصافية.

و هناک قضية أخرى أهملت براهين وضعها، و غضّوا الطرف عن أدلة اختلافها، فتمسكوا بها، و هى: قضية عبد اللّه بن سبأ التى شهدت الوقائع التاريخية بأنها لا تعرف حادثا من تلک الحوادث التى أسندها المؤرخون لعبد اللّه بن سبأ. و قد بسطنا القول فيه

فی عدة مناسبات، فی بحثنا الموسع عن الإمام الصادق فی موارد عدیدة من الأجزاء السابقة، و مواضع کثیرة سقنا خلالها الحجج و الأدلة علی اختلاق شخصیة عبد اللّه بن سبأ.

لقد نسبوا مبدأ التشیّع إلی شخصیة و همیة رسمتها السیاسة فی عصور التطاحن بریشة مصوّر مغرض، بهدف الطعن علی أهل البیت، الذین هبّ علماؤهم لبیان زیفها مبیّنین أن من العار التماشی مع تلک الأسطورة لما فیها من احتقار للأمة و تصغیر لقدرها، عند ما تصوّر قطیعا جری خاضعا لتقبّل تعالیم ذلک الیهودی و هو عبد اللّه بن سبأ المخلوق من أهواء السیاسة و أغراض التطاحن، بهدف تمزیق صفوفها و إذهاب ریحها، و ذلک للتفریق بین الأخ و أخیه.

و علی کل حال لا بد من أن نشیر إلی بعض ما جری للإمام الصادق من محاورات مع أولئک المنحرفین عن الإسلام و دعاة الإلحاد و الزنادقة، و هی محاورات غنیة زخرت بها کتب الکلام و الفلسفة، و سنأتی علی ذکرها فی الباب الخاص بالبحث عن الجوانب الفکریة فی تراث الإمام الصادق و منهج مدرسته. و هنا نذکر ما کان مع الجعد بن درهم الذی نشأ و کلّه دعوة ضلالة و إلحاد، کان یغوی الناس و یضلّهم، و هو من الزنادقة الذین استفحل أمرهم، و قد أراد أن یوهم الناس بما یبدیه من احتیال، فأخذ قارورة و جعل فیها ترابا و ماء، فاستحال ذلک بعد مدة دودا و هواما، فقال

ص: ۲۴۳

لأصحابه: أنا خلقت هذا لأننی کنت سبب کونه. فأرجف بذلک المرجفون، و لمّا بلغ الإمام الصادق ذلک قال علیه السّلام: «لیقل کم هی، و کم الذکران منه و الإناث؟ و لیأمر الذی یسعی إلی هذا أن یرجع إلی غیره» «۱» قال ابن حجر: فبلغه ذلک- أی قول الإمام الصادق- فرجع.

دعوة الغلاة

: و لعل أکثر الدعوات شرّا و أسوأها أثرا و أهمها عند الإمام الصادق هی دعوة الغلاة- کما قدّمنا- الذین طمحوا فی تلک العاصفة الهوجاء إلی بثّ روح التفرقة بین المسلمین، و شاعت أفکارهم تحت ستار حب آل محمد لیصلوا إلی ما یرمون إلیه من إساءة. فبثوا الأحادیث الکاذبة، و أسندوها إلی حملة العلم من آل محمد، و تخلّقوا بأخلاقهم لیعمّوا بها علی أتباع أهل البیت. و جاءوا بمفتریات حملوها علی مبدأ الشیعة، و أراد أکثرهم أن یلبس نفسه لباس قدسیّة، فموّه علی الناس بأن له صلة بالإمام الصادق و علاقة.

و قد أعلن علیه السّلام براءته منهم، و نشر فی العالم الإسلامی کذبهم و زیف أقوالهم و قال:

«لا تقاعدوهم، و لا تواکلوهم، و لا تصافحوهم و لا توارثوهم».

و من هذه الفقرات التی أعلنها علیه السّلام یتبین لنا شدّة اهتمامه بکشف هؤلاء. و قد جعلهم فی عداد الکفّار الذین تحرم مواکلتهم و مصافحتهم، کما أنه علیه السّلام باین بینهم و بین المسلمین بعدم التوارث، فکان فی هذا الموقف من الشدة ما یلزم بالتعرف علی جذور هذه الدعوة و الاطلاع علی أسرار معتقداتها و حقیقة أقوالها. و قد قمنا بما نعتقده وافیا بذلک فی بحثنا عن

هذه الحركة سابقا. و اهتمام الإمام الصادق و حكمه عليهم و عمله على إشاعة هذا الحكم فى الأقطار يدلل على عظيم خطر هذه الحركة، و العمل على فضح ادعائها الحب لأهل البيت. كما أن استقراء عداء الإمام الصادق لهذه الحركة و موقفه منها يقودنا إلى نتائج و دلالات كثيرة منها:

١- إن هذه الحركة تعمد- عن طريق الحب العنيف المصطنع- إلى تشويه العقائد الإسلامية، و إشاعة الكفر و الزندقة تحت ستار الإسلام.

---

(١) لسان الميزان لابن حجر ج ٢ ص ١٠٥.

٢- إن هؤلاء الغلاة تنطوى نفوسهم عن بغض دفين للإسلام و المسلمين، و إنهم قوم يتحيّنون الفرص للانتقام منه و منهم، و قد لمسوا- حسب تجاربهم و اختلاطهم بالعالم الإسلامى- موقع حب أهل البيت من نفوس المسلمين، و عرفوا منزلتهم عند الناس و خضوعهم لهم، فسلكوا طريق حبّهم الادعائى الكاذب تمهيدا لتنفيذ أغراض خبيثة فى نفوسهم، و كان من أهم ما يقومون به: حركة الإساءة لرجال الإسلام، و نسبة أشياء إليهم تحطّ بسمعتهم، كما أنهم يبذلون قصارى جهدهم فى خلق الفوضى فى المجتمع الإسلامى، و بلبلة أفكار الناس بواسطة دعاواهم التى تعارض التوحيد، و تناقض الإيمان. و اختيارهم أشخاص أهل البيت مدخلا لتحقيق مآربهم و أغراضهم. و تلبّسهم بالولاء و ادعائهم التديّن، و لكن حقيقة ما يدّعون و جوهر ما يدعون إليه مناقض للإسلام، و مجاف لعقائد أهل البيت.

٣- إن العناصر التى تبنّت هذه الدعوات الضالة، و التى نشرت الغلو، كانت ممن ضرب الإسلام مصالحهم، و ضيّع عليهم فرص النفوذ إلى أهدافهم، و هدم معالم مجدهم، و سفّه أحلامهم، و ظهر على أديانهم. و بالطبع فإن هؤلاء لا يدينون للإسلام مخلصين، بل يحقدون عليه و إن طال الزمن و بعد العهد، فإنهم لا ينظرون إليه إلا بعين الحقد و الغضب، و يضحّون بكل ما يملكونه فى سبيل نجاح مؤامراتهم ضده.

فما أبعدهم عنه، و ما أشدّ بغضهم لآل محمد، و لكنهم امتزجوا بالمجتمع الإسلامى لأن انفصالهم عنه يجعلهم بمعزل عن تحقيق مآربهم، فتوزعوا كتائب، و تفرقوا جماعات يظهرون حبّ هذا و يقدّسون ذاك، و يحامون عن هذه الشخصية، و ينظّمون إلى ما يعادى الأخرى، و هكذا، و لكن أشد محاولاتهم هى ادّعاء الصلة بأهل البيت، لأن لأهل البيت أثرهم فى الحياة العامة. فهم يميلون إليهم، و يحاربون أعداءهم ادعاء و تسترا ليصلوا إلى أهدافهم من خلال أوسع قاعدة. ثم تأتى الجماعات التى تتجه إلى أقرب الشخصيات إليها فى مجال السياسة أو صعيد الإقليم، فتتعلق بها و تخلع عليها صفات القدسية، و تؤدى لها شعائر العبادة، و ما هى إلا فرق قديمة أتى الإسلام على وجودها و محا ذكرها. و لكن من حملهم سوء حظ الأمة إلى أن يؤرخوا، و يكون لهم دور فى التأثير على الناس لأنهم أتباع الملوك و جنود الظلمة، أهملوا الحركات التى اتخذت من شخصيات عصرها شعارا و هم ليسوا من أهل البيت، و انصبّ جلّ اهتمامهم فيما ابتلى به أهل البيت و شيعتهم من دعاوى الغلاة.

لقد كان فى طليعة حركة الإلحاد و الزندقة رجال لا ينكر أنهم اتصلوا بمدرسة أهل البيت، فانكشف حالهم فيما بعد. و هناك آخرون قد ادعوا الاتصال بتلك المدرسة ليضعوا الأحاديث الكاذبة. و قد أعلن الإمام الصادق كذب هؤلاء و براءته منهم، و كان على رأس هذه الفرقة: المغيرة بن سعيد. فقد كان يدّعى الاتصال بأبى جعفر الباقر، و يروى عنه الأحاديث المكذوبة، فأعلن الإمام الصادق كذبه و البراءة منه، قال الإمام الصادق عليه السّلام لأصحابه فى قوله تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ. تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ قال «هم سبعة: المغيرة بن سعيد، و بنان، و صائد، و الحارث الشامى، و عبد اللّه بن الحارث، و حمزة بن عمارة الزيدى».

و كان المغيرة حاذقا فى وضع الأحاديث، و ماهرا فى الدس و الكذب على أهل البيت، و إليه تنسب عقيدة تأليه الإمام على عليه السّلام و هو أمر لا غرابة فيه إن صحّ. لأن ليس هناك ما يمنع من قول المغيرة بذلك و الدعوة إليه ما دام أحد أركان حركة الغلاة و الألحاد المعادين لأهل البيت، و لكن الأشهر أنه قال أنه مخلوق و لا بد أن معتقداته حملت على ما اعتقدته الخطابية أو تأثروا بهم فعلا، فهم من جنس واحد. يقول الأشعرى: إن المغيرة زعم أنه يحيى الموتى بالاسم الأعظم، و أراهم أشياء من النرنجات و المخاريق «۱».

لقد حمل أئمة أهل البيت سلاح العقيدة كعادتهم فى مواجهة هؤلاء الأعداء الجدد، و اهتموا أشدّ الاهتمام بمقابلة دعاواهم، و إشعار أصحابهم و محبيهم بخروج هؤلاء و كفرهم و شذوذهم. فالباقر عليه السّلام كان يقول: «برىء اللّه و رسوله من المغيرة بن سعيد و بنان بن سمعان، فإنهما كذبا علينا أهل البيت» «۲».

و عن عبد الرحمن بن كثير قال: قال أبو عبد اللّه الصادق عليه السّلام يوما لأصحابه: «لعن اللّه المغيرة بن سعيد، و لعن اللّه يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر و الشعبذة و المخاريق. إن المغيرة كذب على أبى، فسلبه اللّه الإيمان. و إن قوما كذبوا علىّ ما لهم؟ أذاقهم اللّه حرّ الحديد. فو اللّه ما نحن إلا عبيد خلقنا و اصطفانا، ما نقدر على ضرّ و لا نفع، إن رحمنا فبرحمته، و إن عذّبنا فبذنوبنا، و اللّه ما بنا على اللّه

---

(۱) المقالات الإسلامية ج ۱ ص ۷.

(۲) لسان الميزان ج ۱ ص ۷۶.

من حجة و لا معنا من اللّه براءة، و أنا لميتون و مقبورون و منشورون و مبعوثون و موقفون و مسئولون، ما لهم لعنهم اللّه، فلقد آذوا اللّه، و آذوا رسول اللّه فى قبره، و أمير المؤمنين، و فاطمة، و الحسن و الحسين، و ها أنا ذا بين أظهركم أبيت على فراشى خائفا، يأمنون و أفزع، و ينامون على فراشهم، و أنا خائف ساهر وجل».

ثم أراد عليه السّلام أن يلفت نظر العالم الإسلامى إلى قاعدة لها أهميتها فى قبول الرواية عن أهل البيت و العمل بها، لكى يحول دون حملة الكذب و الدسّ عليه و على آبائه الكرام، و يدفع الناس إلى التمحيص و النظر فيما يروى عن الأئمة عليهم السّلام فكان قوله القاعدة أشبه ما تكون بالصرخة التى قصد أن يكون دويّها فى كل نفس، و تبلغ عن طريق أصحابه كل قطر، فقال عليه السّلام: «لا تقبلوا علينا حديثا إلّا ما وافق القرآن و السنة، أو تجدون معه شاهدا من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه اللّه دسّ فى كتب أصحاب أبى أحاديث لم يحدّث بها، فاتقوا اللّه و لا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا و سنّة نبينا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم».

و جملة أقوال الإمام الصادق فى المغيرة، تظهر لنا بوضوح عظيم ألمه و شدة غمّه لما قام به الغلاة، و ما اقترفوه من أكاذيب، و ما اعتقدوه من عقائد الغرض منها الإساءة إلى أهل البيت النبوى الكريم، و خلق الريب و الشكوك فى نفوس الناس. و لقد رأينا وصف الإمام الصادق للحال الذى هو عليه بسبب ما قام به الغلاة فهو عليه السّلام ساهر وجل يهمّه ما يفعله أولئک الكفرة و ما يشيعوه بين الناس من مفتريات و عقائد فاسدة.

لقد قلنا أن مشكلة الغلاة هى من أدهى ما حلّ بتاريخ العقيدة الإسلامية، و من أفظع ما أصاب تاريخ الشيعة، و لو حسنت النوايا و تجرّدت من سخائم الحقد، لنظر إلى المشكلة بعموم نشأتها، لا بخصوص مدّعاها، و بحثت على أساس أغراض أصحابها و بواعث رجالها، فهى إذا دققنا تاريخ نشوئها و مصادر أفكارها، و اعتبر الإنصاف فى القول و روعى الحق، لم تكن حول أهل البيت فحسب- كما أشرنا- بل إن من أصحاب العقائد الفاسدة الذين هاجت فى حناياهم الجذور التى قطع الإسلام عنها ماء الحياة، فرق (الخرمدينية) أصحاب أبى مسلم الخراسانى، و منهم كان بدء الغلو فى القول، و معلوم بعد أبى مسلم عن الإمام الصادق و عدم التقائه به، و إنما كان أبو مسلم من دعاة العباسيين الخلّص الذين بنوا إيمانهم فى الدعوة على أساس ما تعنيه

الدعوة إلى آل البيت بحسب ما يضمره العباسيون و ما وضعوه فى نظامهم السرى، و قد قالت هذه الفرقة: أن الأئمة آلهة. و الأئمة فى مفهومهم ليسوا أئمة الهدى من أهل البيت النبوى الذين انعقدت إليهم الإمامة بالنص و الوصية، و الذين هم قادة الشيعة و رموز هداها. و قالت هذه الفرقة أيضا: أن الأئمة أنبياء، و إنهم رسل، و إنهم ملائكة.

و هم الذين تكلموا بالأظلة و التناسخ فى الأرواح، و هم أهل القول بالدور فى هذه الدار، و إبطال القيامة و البعث و الحساب، و زعموا أن لا دار إلا الدنيا، و أن القيامة هى خروج الروح من البدن و دخوله فى بدن آخر غيره، إن خيرا فخيرا و إن شرّا فشرّا، و أنهم مسرورون فى هذه الدنيا بالأبدان أو معذبون فيها، و الأبدان هى الجنان أو هى النار، و أنهم منقولون فى الأجسام الحسنة الأنسية المنعمة فى حياتهم، و يعذبون فى الأجسام الرديّة المشوّهة من كلاب و قردة و خنازير و حيات و عقارب و خنافس و جعلان محوّلون من بدن إلى بدن معذبون فيها هكذا، فهى نعيمهم و نارهم لا قيامة و لا بعث و لا جنة و لا نار غير هذا على قدر أعمالهم و ذنوبهم و إنكارهم لأئمتهم و معصيتهم لهم. إلى آخر أقوالهم الباطلة و معتقداتهم الفاسدة.

و من فرق الغلاة (الروندية) الذين قالوا: إن أبا مسلم نبى مرسل يعلم الغيب، أرسله أبو جعفر المنصور. و قالوا: إن المنصور هو اللّه، و أنه يعلم سرّهم و نجواهم.

و أعلنوا القول بذلک، و دعوا إليه. و لمّا أمرهم المنصور بالرجوع عن قولهم، قالوا:

المنصور ربنا، و هو يقتلنا شهداء كما قتل أنبياءه و رسله على يد من شاء من خلقه، و أمات بعضهم فجأة و بالعلل و كيف شاء، و ذلک له يفعل ما يشاء بخلقه لا يسأل عمّا يفعل «۱». و كانوا يعينون من انتقلت إليه روح آدم، فيقولون: انتقلت إلى فلان رجل من كبارهم، و أن ربهم الذى يطعمهم و يسقيهم هو المنصور، و أن جبرائيل هو فلان- رجل آخر منهم- و لمّا ظهروا أتوا قصر المنصور، فطافوا حوله، و قالوا: هذا قصر ربنا «۲».

إذا، فإن حقيقة أفكار الغلاة تقوم على بواعث مختلفة و أغراض عديدة، لا تمتّ إلى الإسلام و التوحيد بصلة، و من الصحة بمكان القول بأن أخطر جماعاتهم و أكثرها

---

(۱) فرق النوبختى ص ۳۶ و ۵۲ و ۵۳.

(۲) الفخرى ص ۱۴۳.

ضررا هم أولئک الذين استغلوا الصلة بأهل البيت أو انتحلوها، لأن الدخول على المجتمع الإسلامى من خلال الأئمة و سادة أهل البيت يحدث أثرا سيئا و بليغا فى كيان المجتمع الإسلامى، و يقرّب هؤلاء الكفرة من تحقيق أغراضهم و تنفيذ مآربهم، فلا عجب أن نرى من الأئمة مثل هذا الاهتمام، لأن أمر الغلاة أخافهم و أسهرهم و أفزعهم، فلا بد من مقابلة نشاطهم و ملاحقة أفكارهم دفعا للفتنة و حماية للعقيدة، فكان تشديده على رواية الحديث، و التأكد من صحة ما يروى عن أهل البيت، و ما صحب ذلک من أقوال له عليه السّلام فى فضحهم و كشف حقيقة دعاواهم فى محبة أهل البيت، إذ يقول عليه السّلام: «... و اللّه لو ابتلوا بنا، و أمرناهم بذلک، لكان الواجب أن لا يتقبّلوه، فكيف و هم يرونى خائفا وجلا استعدى اللّه عليهم، و أبرأ إلى اللّه منهم.

إنى امرؤ ولدنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما معى براءة من اللّه، إن أطعته رحمنى، و إن عصيته عذبنى عذابا شديدا».

و قال الإمام الصادق لمرازم- و هو جار بشار الشعيرى أحد دعاة الألحاد و من الغلاة- «يا مرازم، إن اليهود قالوا و وحدوا اللّه، و إن النصارى قالوا و وحدوا اللّه، و إن بشارا قال قولا عظيما، فإذا قدمت الكوفة فأته و قل له: يقول لک جعفر: يا فاسق، يا كافر، يا مشرک، أنا برىء منک».

قال مرازم: فلما قدمت الكوفة، فوضعت متاعى و جئت إليه و دعوت الجارية، و قلت قولى لأبى إسماعيل، هذا مرازم، فخرج إلىّ. فقلت له: يقول لک جعفر بن محمد «يا كافر يا فاسق يا مشرک أنا برىء منک».

فقال بشار: و قد ذكرنى سيدى؟ قال: قلت: نعم ذكرک بهذا الذى قلت لک.

فقال: جزاک اللّه خيرا، و جعل يدعو لى «۱».

لقد أراد الإمام الصادق أن يحفظ تراث أهل البيت أيضا إلى جانب حماية العقيدة، فعمل على ترسيخ قاعدة الرواية عن أهل البيت بشروطها فقال: «فاتقوا اللّه و لا تقبلوا ما خالف قول ربنا و سنّة نبينا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم». و هى القاعدة التى قام عليها منهاج

---

(۱) انظر الجزء الرابع من الكتاب، فصل مشكلة الغلاة. و فيه ذكر رؤسائهم، و عوامل نشأة حركاتهم، و بحث جوانب النقص فى دراسة حركة الغلاة من قبل المؤرخين، و موقف الشيعة و أئمتهم من المغالين، و غيرها من النقاط.

مدرسته فى العلم و الحديث، و التزمت بها التزاما شديدا. و قد قال عليه السّلام مرارا و تكرارا: «حديثى حديث أبى، و حديث أبى حديث جدّى، و حديث جدّى حديث على بن أبى طالب أمير المؤمنين، و حديث على أمير المؤمنين حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و حديث رسول اللّه قول اللّه عز و جل».

أضواء من سيرته عليه السّلام

: قدّمنا فيما سبق نظرة إجمالية لحوادث عصره أو أهمها مما يتعلق بمنهجه الفكرى و مسئولياته الدينية و مهامه المتعددة، و نقتبس الآن بعض الأضواء من سيرته عليه السّلام و نقدم شيئا من الجوانب التى تتصل بالجانب الاجتماعى أو النشاط العام، و العلاقة بين نظرة الفرد المسلم إلى موقعه فى المجتمع، و بين تكوينه الدينى و بنائه الأخلاقى.

لقد عرف الإمام الصادق بحسن البيان و نفاذ البصيرة و كرم الأخلاق و صدق الحديث، و اتجه إلى الفرد و المجتمع، و عنى بالأوضاع الاجتماعية و الخلقية، و معالجة ما يعانى منه المجتمع، و تهيئة وسائل الإعداد و التربية السلوكية و الفكرية، و خلق المناسبات للوعظ و النصح و الإرشاد. و كان مقصده يتخلّص فى قوله عليه السّلام:

«أن يسلم الناس من ثلاثة أشياء كانت سلامة شاملة: لسان السوء، يد السوء، و فعل السوء».

و كان إقبال الناس عليه لانتهال العلم، و اختلافهم إلى مجلسه قد هيأ مناخا دائما للدعوة، و العمل على إبراز الجوانب المهمة التى تتكون منها شخصية المسلم. و من جوانب عظمة شخصية الإمام الصادق و تميّزه فى نهجه الإصلاحى و مسيرته الدينية، مباشرته ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق بنفسه، و عمل ما يراه و يحضّ الآخرين على عمله، و ممارسته فى الحياة، فهو بذلک كان بحق المصلح الاجتماعى العظيم، و المرشد الدينى الكبير. فجعل من نفسه قدوة ليحفّز الآخرين على اتباعه و الاقتداء بفعله. فكان يحثّ على العمل، و يعمل بنفسه، و قد تضافرت الأخبار بأنه كان يعمل بيده و يتّجر بماله.

و قد عالج بالدعوة و العمل ظواهر التكاسل و صور الابتعاد عن طلب الرزق، و ما تطور فى المجتمع بتأثير حب الانقطاع إلى اللّه، و قيام الجدل فى استحباب الانقطاع

ص: ۲۵۰

التام، و ترک مجال العمل و اکتساب الرزق، لأنه یدعو إلى الانشغال، و هو من مقومات الدنیا. و رأى الإمام الصادق أن الإیمان الحق فى أن یغدو المسلم إلى عمله کل یوم، و یکدّ فى تحصیل رزقه، و أن یقوم بدوره فى هذه الحیاة، و یرى أن قیمة الإنسان فى عمله، إذ لم یرض للمسلم البطالة و ترک العمل، و کل ما یدعو إلى الاستهانة بالشخص و تحقیره. و فى الحدیث: «ملعون ملعون من ألقى کلّه على الناس، ملعون ملعون من ترک من یعول به». و قد قرن الإسلام العمل لطلب الرزق للولد و للعیال بما یصلحهم بالجهاد فى سبیل اللّه.

قال الإمام على علیه السّلام: «ما غدوة أحدکم للجهاد فى سبیل اللّه بأعظم من غدوة من یطلب لولده و عیاله ما یصلحهم».

و کان الإمام الصادق یروى ما کان جدّه الإمام زین العابدین یفعله و یقول: «کان على بن الحسین إذ أصبح خرج غادیا فى طلب الرزق، فقیل له: یا ابن رسول اللّه أین تذهب؟

فقال: أتصدّق لعیالى.

قیل له: أ تتصدّق؟

قال: من طلب الحلال، فهو من اللّه عز و جل صدقة علیه» «۱».

و کان علیه السّلام یروى قول جده الإمام زین العابدین علیه السّلام: «ضمنت على ربى ألا یسأل أحد من غیر حاجة إلا اضطرّته المسألة إلى أن یسأل عن حاجته».

و کان یخاطب أصحابه: «إیاکم و سؤال الناس، فإنه ذلّ فى الدنیا، و فقر تعجّلونه، و حساب طویل یوم القیامة».

و على ضوء هذا الإیمان العمیق بالعمل، کان الإمام الصادق یعمل بنفسه لیکون مثالا لغیره. فقد حثّ على طلب الرزق لیرفع من مستوى أخلاقهم و المحافظة على القیم الروحیة لدیهم، فکان یسمّى التجارة و دخول السوق بالعزّ، کما یحدّثنا المعلّى بن خنیس قال: رآنى أبو عبد اللّه و قد تأخرت عن السوق، فقال لى: «أغد إلى عزّک».

---

(۱) فروع الکافى ج ۴ ص ۱۲.

ص: ۲۵۱

و قال لآخر- و قد ترک غدوّه إلی السوق-: «مالی أراک ترکت غدوّک إلی عزّک؟» قال: جنازة أردت أن أحضرها. قال: «فلا تدع الرواح إلی عزّک».

و عن سلیمان بن معلی عن أبیه قال: سأل أبو عبد اللّه عن رجل- و أنا عنده- فقیل: أصابته الحاجة. قال: «فما یصنع الیوم؟» قیل: فی البیت یعبد ربه. قال: «فمن أین قوته؟» قیل: من بعض إخوانه. قال أبو عبد اللّه: «للذی یقوته أشدّ عبادة منه».

و قال لمعاذ- بیّاع الأکسیة عند ما ترک التجارة-: «لا تترکها، فإنّ ترکها مذهبة للعقل، اسع علی عیالک، و إیاک أن یکونوا هم السعاة علیک».

و سأل عن رجل من أصحابه، فقیل: ترک التجارة و قل شیئه. فاستوی الإمام جالسا- و کان متکئا- ثم قال: «لا تدعوا التجارة فتهونوا، اتّجروا بارک اللّه لکم».

و قال معاذ: قلت لأبی عبد اللّه: إنی هممت أن أدع السوق؟ فقال: «إذا یسقط رأیک، و لا یستعان بک علی شیء».

یحدثنا أبو عمرو الشیبانی: قال رأیت أبا عبد اللّه الصادق، و بیده مسحاة یعمل فی حائط له، و العرق یتصبّب منه. فقلت: جعلت فداک أعطنی أکفک. فقال: «إنی أحبّ أن یتأذّی الرجل بحرّ الشمس فی طلب المعیشة».

لقد هدف الإمام علیه السّلام إلی أن یزرع حبّ العمل فی نفوس الناس، و أن یدفعهم إلی الاعتماد علی أنفسهم من خلال الشعور بالمسؤولیة. فإنّ التواکل أو الکسل المتعمّد ظاهرة تحط من قیمة الإنسان، و تکشف عن نقص فی مستوی وعیه و إدراکه، و کلما کان المجتمع ینطوی علی قاعدة واسعة من الأفراد الذین یدرکون قیمة العمل و أهمیته فی الرخاء، و تأکید قدرة الفرد و عدم عجزه؛ کان ذلک مؤشرا إیجابیا علی مستوی الوعی الذی یسود المجتمع، و مدی تحمل الأفراد لمسؤولیاتهم فی حفظ البلد و الدفاع عن عقائدهم، فالإسلام بنظامه رعی حقوق العامل بما لم تأت به أی نظم أخری.

و علی أی حال فقد کان الإمام الصادق یرکّز علی تجسید ضرورة العمل، و توضیح العلاقة بین الإیمان و بین الإنتاج. و لقد هدف الإمام الصادق إلی أن یحبط روح الکسل، و یقضی علی التواکل، لأنه یری فی الفرد العامل أنموذجا للعضو الصالح الذی یؤکد ذاته و موقعه من خلال ما ینتج للمجتمع بما منحه اللّه تعالی من موهبة و حباه من نعمة. و إیضاحا للمقام، و زیادة للمعلومات، نسوق بعض القضایا التی تبعث فی روح المسلم نشاطا لمواصلة عمله علی ضوء سیرة الإمام الصادق علیه السّلام:

ص: ۲۵۲

خرج الإمام الصادق فی یوم شدید الحر، فاستقبله عبد الأعلی- مولی آل سام- فی بعض طرق المدینة فقال: یا ابن رسول اللّه حالک عند اللّه عز و جل، و قرابتک من رسول اللّه، تجهد نفسک فی مثل هذا الیوم!!! فقال علیه السّلام: «یا عبد الأعلی خرجت فی طلب الرزق لأستغنی عن مثلک».

فهو علیه السّلام یضرب لعبد الأعلی المثل الأعلی فی إعزاز النفس الذی یحققه المسلم من وراء العمل، و فی نفس الوقت یعکس أولا أهمیة اعتماد المسلم و استغنائه عن الآخرین مهما کانت منزلته و عظمة رتبته.

و ثانیا: إن استغلال الفرد و کسبه لرزقه یؤکد عزّة نفسه، و یحفظ کرامته، و یعیش سعیدا لا یذلّ لأحد، و لا یستهین بکرامته أحد.

و قد کانت الفترة التی مرّ بها الإمام الصادق قد شهدت نوعا من التطور الفکری الذی نجم عن التفاعل و الحوار بین الحضارات القدیمة و بین الفکر الإسلامی، و أخذ الوضع الاقتصادی بالتدهور نتیجة سیاسة القمع و الضرائب و النهب التی مارسها الحکام لسدّ متطلبات بذخهم و لهوهم، و کذلک الولاة فقد أجهدوا الرعیة یأخذ الأموال من غیر حقها، کما بیّنا ذلک.

و الإمام الصادق فی ذلک العصر حاول أن یقود الأمة إلی کل خیر، و فی هذا المجال بالذات یبذل جهده بأن یجعل من الفرد المسلم فردا متمکنا متجاوزا عوائق الضیق و آلام الفاقة، فقام بتوعیة الناس لمباشرة العمل و تحبیبه للنفوس، و بتنمیة الشعور بالمسؤولیة لکی لا تلجیء الظروف أولئک الأفراد- الذین فقدوا خیرات بلادهم- إلی الاضطرار للاستجداء من السلطة و الرکوع علی أعتابها و الخنوع لها تحت وطأة قسوة ظروف الحیاة و مرارة الجوع.

عن هشام بن سالم قال: کان أبو عبد اللّه إذا أعتم اللیل و ذهب شطره، أخذ جرابا فیه خبز و لحم و دراهم، فحمله علی عنقه، ثم ذهب به إلی أهل الحاجة من أهل المدینة، فقسّم فیهم و لا یعرفونه، فلما مضی أبو عبد اللّه علیه السّلام فقدوا ذاک، فعلموا أنه کان أبا عبد اللّه علیه السّلام.

و عن المعلی بن خنیس «۱» قال: خرج أبو عبد اللّه علیه السّلام فی لیلة قد رشت- أمطرت- و هو یرید ظلة بنی ساعدة، فاتبعته، فإذا هو قد سقط منه شیء فقال:

«بسم اللّه اللهم ردّه علینا». قال: فأتیته فسلّمت علیه.

قال: فقال: «معلی»: قلت: نعم جعلت فداک. فقال لی: «التمس بیدک فما وجدت من شیء فادفعه إلی» فإذا أنا بخبز منتشر کثیر، فجعلت أدفع إلیه ما وجدت، فإذا أنا بجراب أعجز عن حمله. فقلت: جعلت فداک، أحمله علی رأسی؟ فقال:

«لا، أنا أولی به منک، و لکن امض معی» قال: فأتینا ظلة بنی ساعدة، فإذا نحن بقوم نیام، فجعل یدسّ الرغیف و الرغیفین حتی أتی علی آخرهم، ثم انصرفنا. فقلت:

جعلت فداک یعرف هؤلاء الحق؟ فقال: «لو عرفوه لواسیناهم بالدقة- و الدقة هی الملح- إن اللّه تبارک و تعالی لم یخلق شیئا إلا و له خازن یخزنه، إلا الصدقة، فإنّ الرب یلیها بنفسه، و کان أبی إذا تصدق بشیء وضعه فی ید السائل، ثم ارتدّه منه، فقبّله و شمّه ثم ردّه فی ید السائل» «۲».

و إزاء ظاهرة ابتعاد كثيرين عن العمل، و انزوائهم فى بيوتهم منقطعين للعبادة مع تفاقم أزمة العيش، كان عليه السّلام يفضّل العامل على ذلک الفرد المنزوى و المنقطع إلى العبادة. فعند ما قيل له: أن رجلا قال لأقعدنّ فى بيتى، و لأصلينّ و لأصومنّ و لأعبدنّ اللّه، فأما رزقى فسيأتينى.

فقال عليه السّلام: «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجيب اللّه دعاءهم».

فالإمام رغم معرفته بأهمية العبادة، إلا أنها لا تجوز إلا فى موقعها فى حياة الفرد المؤمن، بحيث تكون صلة المؤمن بربّه و هويته و سلوكه. و هوية المؤمن العزّة، و سلوكه العطاء و العمل.

يقول إسماعيل بن جابر «٣» أتيت أبا عبد اللّه، و إذا هو فى حائط (بستان) له، و بيده مسحاة، و هو يفتح بها الماء.

---

(١) مولى الإمام الصادق قتله داود بن على العباسى- والى المدينة- فغصب الإمام الصادق، و دعا على الوالى، فسمعت الصيحة فى داره. انظر الجزء الثانى من الكتاب.

(٢) فروع الكافى ج ۴ ص ٨ و ٩.

(٣) ذكره الشيخ فى الفهرست، و قال: له كتاب ذكر سنده.

و عن الفضل بن أبى قرة «١» قال: دخلنا على أبى عبد اللّه فى حائط له، و بيده مسحاة يفتح بها الماء، و عليه قميص، و كان يقول: «إنى لأعمل فى بعض ضياعى، و إن لى من يكفينى، ليعلم اللّه عز و جل أنى أطلب الرزق الحلال».

و كان عليه السّلام يرمى إلى حمل الناس على الخلال الطيبة و الأخلاق الكريمة ليقوم ذلک المجتمع الذى تسوده قيم التكافل و الإخاء الدينى. فقال عليه السّلام لبعض جلسائه:

«أ لا أخبرک بشىء يقرّب من اللّه، و يقرّب من الجنة، و يباعد من النار؟» فقال: بلى.

قال عليه السّلام: «عليک بالسخاء، فإن اللّه خلق خلقا برحمته لرحمته، فجعلهم للمعروف أهلا و للخير موضعا، و للناس وجها يسعى إليهم لكى يحيوهم كما يحيى المطر الأرض المجدبة، أولئک هم المؤمنون بالآخرة، الآمنون يوم القيامة».

لقد كان الإمام الصادق عليه السّلام مثالا كاملا لدعاة الإصلاح، و علما شامخا من أعلام رجال الصلاح، فهو يأمر بالأخلاق الفاضلة و السجايا الحميدة، و اكتساب الفضائل، و الابتعاد عن الرذائل، فكان من مأثور أقواله: «بنى الإنسان على خصال، فما بنى عليه أنه لا يبنى على الخيانة و الكذب» «٢».

و لا يدخر عليه السّلام النصح عن أحد، و هو من أعظم القادة الذين تحتل سيرتهم مكانة مهمة تنعكس آثارها على الناس و المؤمنين فى ظل دعواتهم إلى الخير، و على مرّ التاريخ.

كان من أهم العوامل الحيوية فى إنجاح الدعوات و استمرارها هو الإيمان المطلق بالمبادئ، و مبادرة القادة للالتزام بها فى خط من التوافق التام بين الدعوة و السلوك، و لقد كان سلوك حملة رسالة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انتشار الإسلام و اتساع رقعته دليلا حيا على إيمانهم العظيم بالدعوة، و من خلال هذا الترابط بين سلوكية القادة و موقف الناس يمكن أن نلحظ على مدى المراحل التاريخية تأثير الرجال البارزين فى نفوس الآخرين، و انجذابهم إلى صفوف الدعوة.

و قد عرف عن الإمام الصادق أقواله الجامعة و توجيهاته الشاملة التى تنير الطريق و تهدى إلى الرشاد، و التى تؤثر فى نفوس و سلوك أصحابه.

---

(١) التفليسى من أصحاب الإمام الصادق، انتقل إلى إرمينيا. له كتاب ذكره الشيخ فى الفهرست.

(٢) حلية الأولياء ج ١ ص ١٩۴.

يقول عليه السّلام: «الصلاة قربان كل تقى، و الحج جهاد كل ضعيف، و زكاة البدن الصيام، و الداعى بلا عمل كالرامى بلا وتر».

و جاء فى وصيته عليه السّلام لعبد اللّه بن جندب: «يا ابن جندب، لو أن شيعتنا استقاموا؛ لصافحتهم الملائكة، و لأظلّهم الغمام، و لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم، و لما سألوا اللّه شيئا إلا أعطاهم. يا ابن جندب بلّغ معاشر شيعتنا و قل لهم لا تذهبنّ بكم المذاهب، فو اللّه لا تنال ولايتنا إلا بالورع و الاجتهاد فى الدنيا، و مواساة الإخوان، و ليس من شيعتنا من يظلم منا بريا».

و قد بيّنا فى عدة مواضع ما يكشف لنا طرفا من الجوانب المهمة من جوانب شخصية الإمام الصادق عليه السّلام و قيامه بالدعوة للإسلام، و التقيّد بتعاليمه، و العمل بأوامره و نواهيه، و الالتزام بالسير على نهج هداه و نور عقيدته فكان التطابق بين المبادئ و بين السلوك من أهم صفات حياته، رغم أن أوضاع عصره تبعث الاضطراب فى الحياة لاشتداد الصراع الفكرى و السياسى. و قد اهتزت أفكار الناس، فوقف موقف البطل المؤمن بعقيدته، الذى أعاد بموقفه التوازن فى الفكر و السلوك لأفراد الأمة و المجتمع، و خفف من الضغوط و الأخطار التى تهدد وجودهما. فقد عانى المجتمع فى هذه المرحلة، و تعرّضت الأمة الإسلامية خلالها إلى سياسات أنهكت الرعية، و إلى حملات معادية مختلفة اللبوس و الإشكال. و الخلاصة فإن مجمل العوامل التى واجهت الأمة، و تعرّض لها المجتمع الإسلامى كانت كافية لانتشار القلق و الاضطراب و توغّل جذورهما، حتى أن الناظر إلى الأحداث- و لو ببساطة و عجالة- يلحظ أن فوق عناصر القلق و مظاهر الاضطراب تنمو و ترتفع صور لحركة العلم و الدعوة الإسلامية تطغى عليها و تكاد تخفيها، و بصور الدعوة الدينية و مظاهر الحركة العلمية يتمثل موقف الإمام الصادق عليه السّلام و بروزه فى مجتمعه، رغم عداء الملوك له، و عملهم الدائم على إنهاء ذكره. فكان أن أكتسب من التجارب- مضافا إلى

جوهر الإمامة- ما جعله يعيّن طرق تحاشى الأمة ضربات الحكام و تجنّب سيوفهم و رماحهم، و احتل موقعا فى وسط الأحداث هو موقع تكامل و خبرة، فإن فى سيرته تتجسد أعلى مستويات الكفاءة و القيادة، إلى جانب علمه و جهاده.

كان عليه السّلام يحرص على أن تكون صلته بأصحابه قوية و مؤثرة. فعن صفوان،

ص: ٢٥۶

عن خالد بن نجيح قال: قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: «أقرءوا من لقيتم من أصحابكم السّلام، و قولوا لهم: إن فلان بن فلان يقرئكم السّلام. و قولوا لهم: عليكم بتقوى اللّه عز و جل، و ما ينال به ما عند اللّه، إنى و اللّه ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد و الاجتهاد، و إذا صلّيتم الصبح و انصرفتم، فبكّروا فى طلب الرزق، و اطلبوا الحلال فإن اللّه عزّ و جل سيرزقكم و يعينكم عليه».

كان فى سيرته و سلوكه يمثل جوانب سامية من التواضع و البساطة مع عظمته و علو شأنه، و كان يعامل الناس بالعطف و التسامح. كل ذلک كان له تأثير فى نفوس تلامذته و مريديه، و قد وقف أمام التيارات السياسية يوم اجتاحت البلاد ثورة من جميع جوانبها، و قد دعاه القادة- كما أسلفنا- إلى تولّى الأمر و إسناد الحكم إليه، كما أن أبا مسلم الخراسانى كتب له يدعوه بأن يدعو الناس إلى بيعته، و ينتزع الأمر من بنى العباس. فأجابه بقوله: «ما أنت من رجالى، و لا الزمان زمانى».

و قبل ذلک رجعت رسل أبى سلمة الخلّال بالخيبة عند ما وجّههم بكتاب الدعوة إلى الإمام الصادق بأن يكون الأمر له دون بنى العباس. فكان جوابه أن أحرق الكتاب أمام الرسل، لأنه كان يقدّر أبعاد المعركة، و ينظر العواقب، و يحاول أن يؤثر فى انفعالات الناس، و يقلل من اندفاعهم على طريق تؤدى نهايتها إلى تعريض المسلمين إلى الأخطار و دفع الأبرياء إلى الموت. و ذلک لأن الظروف غير مواتية، رغم ظاهر مناسبتها و ملائمتها. و سنبحث موضوع موقفه من الثورة مفصلا فى فصل لاحق.

و الغرض، فإن وجوده فى منصب الإمامة و تبوءه موقع القيادة و الإصلاح يجعله أقرب الأطراف إلى حدّ السيوف، و أدناهم إلى شبا الرماح، و هو من أهل البيت الذين ابتلوا بمصالح الرعية، و جعل فيهم دوام الرسالة المحمدية. فمن خصوص أعمالهم مناهضة الظلم، و من صميم دعوتهم رعاية أمور المسلمين، و هم مكلفون بما كتب عليهم و قدّر لهم من وجوه المسئولية و الأفعال.

فكان عليه السّلام يعمل بوحى ذلک، فلا يرى فى ضوء ما يحمله من الأخبار و العلم أن طريق الخلاص فى التعرّض إلى السلطان، بل فى الابتعاد عن مواطن الأذى و موارد الهلكة، و الوقوف بوجه الظلم و الجبارين بوسائل يضمن نفعها، و يؤمن سلامة الناس فيها.

ص: ٢٥٧

كما كان عليه السّلام يشدّد على وحدة الأمة، و يدعو إلى توثيق روابط الإخوة الإسلامية و إلى الألفة و التقارب، و ينهى عن التباغض و التباعد، و يحاول تأليف القلوب بمختلف الطرق، و يدرک أثر التکاتف و التآلف. فبذل ماله للقضاء على کل أسباب الخلاف بين المسلمين و العمل على جمع صفهم و تآلفهم حرصا على وحدة الکلمة.

قال أبو حنيفة- و اسمه سعيد بن بيان- المعروف بسابق الحاج: (مر بنا المفضّل بن عمر و أنا و ختن لی نتشاجر على ميراث فی الطريق، فوقف علينا ساعة ثم قال لنا: تعالوا إلى المنزل، فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم، فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق کل واحد منّا صاحبه، قال المفضل: أما إنها ليست من مالی، و لکن أبا عبد اللّه الصادق أمرنی إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح بينهما و أفتديهما من ماله، فهذا مال أبی عبد اللّه «۱».

فکان عليه السّلام يتّخذ السبل العملية الکفيلة بتحقيق مبادئ الإسلام، و يستعين برجاله لکی يقضی على عوامل الفرقة و مظاهر الشقاق، و يحقق مبدأه الذی سار عليه فی الإصلاح. و دعا إلى عدم التعاون مع السلطة، فنهی عن المرافعة إلى حکّام اتخذوا السلطة غنيمة يستغلونها لأغراضهم، بعد أن أعلن مقاطعتهم، و صرّح على ملأ من الناس بأن يرجعوا إلى سلطة الحق و ميزان العدل فيما ينشأ بينهم من الخلافات، فإن سلطة الحق مفتوحة الأبواب، و مبادئ الدين لا تعطلها عوائق أو ظروف صعبة، إذ الإيمان يرسم الخطوط العامة لدور المؤمن و القائد على السواء، فقال عليه السّلام: «أيّما رجل منکم کانت بينه و بين أخ له مماراة فی حق، فدعاه إلى رجل من إخوانکم ليحکم بينه و بين أخيه، فأبى إلّا أن يرفعه إلى هؤلاء، کان بمنزلة الذين قال اللّه عز و جل فيهم: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاکَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَکْفُرُوا بِهِ».

و عن عمر بن حنظلة- من أصحاب الإمام الصادق- قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة فی دين أو ميراث، فتحاکما إلى السلطان أو إلى القضاة أ يحل ذلک؟

قال الإمام الصادق: «من تحاکم إليهم فی حق أو باطل، فإنما تحاکم إلى

---

(۱) الکافی ج ۲ ص ۲۰۹ ط ۲.

الجبت و الطاغوت المنهی عنه، و ما حکم له به، فإنما يأخذ سحتا و إن کان حقه ثابتا له، لأنه أخذه بحکم الطاغوت، و من أمر اللّه عز و جل أن يکفر به، قال اللّه عز و جل:

يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاکَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَکْفُرُوا بِهِ».

قلت: فکيف يصنعان و قد اختلفا؟

قال عليه السّلام: «ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، و نظر فى حلالنا و حرامنا، و عرف أحكامنا، فليرضيا به حكما، فإنى قد جعلته عليكم حاكما، فإذا حكم بحكم و لم يقبله منه، فإنما بحكم اللّه استخفّ و علينا ردّ. و الرادّ علينا كافر و رادّ على اللّه، و هو على حدّ من الشرک باللّه».

و النوعية التى هدف الإمام إليها، و التعبئة التى قام بها كانت تنزع عن السلطة قاعدتها، و تضع الحواجز بينها و بين الناس، و تكشف للمسلمين انغماس الحكّام فى ملاذّهم، و مدى ابتعادهم عن الإسلام و استعدادهم لإنزال الأذى بالمسلمين، و استخدام قوتهم الغاشمة. فقرر الإمام أن يباشر دعوة الحق، و يقوم بإعداد الأمة، و يتبنى مهمة الإصلاح إلى حين استكمال عوامل الثورة- و لأنه لا يرى ما يراه الآخرون من ملائمة الظرف- أصرّ على هذا النهج حماية لأرواح المسلمين، لأن إعلان الثورة كان يعنى سفک الدماء على أيدى الحكام الذين يتمتعون بالقوة و يتصفون بالقسوة و لا يتورعون عن انتهاک المحارم و إزهاق الأرواح فى سبيل الحفاظ على سلطانهم و صيانة ملكهم، ثم إن النفوس امتلأت جراحا، و الأمر كما تبيّنه الأخبار و تعيّنه الآثار، فالإمامة معقودة لرعاية الدين و حماية العقيدة، و الأحداث تجرى على نماذج من التضحيات، و أمثال من المواقف التى تشحذ الهمم و تؤجج المشاعر، و الخلافة العظمى بإمامتها الروحية تتبوأ المحل الذى وضعها اللّه فيه. و لكل فترة دور و حال.

و على ذلک يفسر الإمام الصادق قول اللّه تعالى: ذلِکَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ فيقول: «إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما أخرجته قريش من مكة، و هرب منهم إلى الغار، و طلبوه ليقتلوه فعوقب، ثم فى بدر عاقب، لأنه قتل عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و الوليد بن عتبة و حنظلة بن أبى سفيان و أبو جهل و غيرهم، فلما قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بغى عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين عليه السّلام و بقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السّلام بغيا و عدوانا و قائلا شعرا:

ليت أشياخى ببدر شهدوا)جزع) الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا و استهلّوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

لست من خندف إن لم أنتقم من بنى أحمد ما كان فعل

قد قتلنا القرم من ساداتهم و عدلناه ببدر فاعتدل

ثم قال تعالى: لينصرنه اللّه. يعنى بالقائم المهدى من ولده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «١»».

و من المعلوم أن التقية كانت من دين الإمام الصادق، جعلها فى مكان من عمله رفيع و بارز لاتقاء شرور الحكام و دفع ظلمهم، إلى ما فيها من الإبقاء على الصلات بالأولياء الحقيقيين الذين يتخذهم المسلمون بإيمان و نص من دين اللّه، و إلا فإن الحديث عن بنى العباس صريح تصرخ به أفعالهم و تصرّح به سياستهم.

و فى سيرة الإمام الصادق تتمثل أيضا الأعمال التى على المصلح الدينى أن يقوم بها، و الاتجاه إلى الإصلاح بالعمل الدينى يقود إلى الإصلاح الاجتماعى و الأخلاقى، و قد قلنا أن الإمام الصادق كان يقرن دعوته بصور عملية حيث يبادر بنفسه إلى العمل لكسب الرزق، و يكفّ نفسه عمّا نهى اللّه عنه، فيجد المسلم فى سلوك الإمام تطابقا تاما و ائتلافا كاملا يجسّد العقائد و المبادئ و الأفكار التى يدعو إليها، فيطمئن الناس إلى صدق النية، و يقبلون على عالم من القول و العمل فيه القربة إلى اللّه لنيل رضاه و فيه السلامة فى الدنيا لنيل السعادة.

سئل عليه السّلام عن قوله تعالى: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ؟ فقال: «إن اللّه سبحانه يقول للعبد يوم القيامة: عبدى، أ كنت عالما؟ فإن قال: نعم. قال له: أ فلا عملت بما علمت؟

و إن قال: كنت جاهلا. قال: أ فلا تعلّمت حتى تعمل؟ فيخصم. فتلك الحجة ...» ا ه.

و يسعى الإمام الصادق عليه السّلام إلى معالجة الشذوذ فى التصرفات التى تحدث بدافع الجهل، فإن كانت لأجل الإساءة إلى الدين و الطعن فى العقائد، فإنها تدخل فى جملة القضايا و الأعمال التى يستهدفها جهده عليه السّلام فى حملة فكرية و عقلية يقابل بها أفكار الزندقة و الألحاد و أهل الأهواء و الآراء. و إذا تحدّث جمع بين التفسير و الوعظ و الوقائع. و إليک ما يضمّ خلاصة ما قدمناه.

---

(١) ينابيع المودة للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزى الحنفى ص ٥١٠.

قال عليه السّلام فى قوله عز و جل: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ «يقول: أرشدنا للزوم الطريق المؤدى إلى محبتک، و المبلّغ إلى جنتک من أن نتّبع أهوائنا فنعطب، و نأخذ بآرائنا فنهلک، فإن من اتبع هواءه و أعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء الناس تعظّمه و تصفه، فأحببت لقاءه من حيث لا يعرفنى لأنظر مقداره و محله، فرأيته فى موضع قد أحدق به جماعة من غثاء العامة، فوقفت منتبذا عنهم، متغشيا بلثام أنظر إليه و إليهم، فما زال يراوغهم حتى خالف طريقهم و فارقهم، و لم يقرّ، فتفرّقت جماعة العامة عنه لحوائجهم، و تبعته أقتفى أثره، فلم يلبث أن مرّ بخباز، فتغفله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت فى نفسى: لعله معامله. ثم مرّ بعده بصاحب رمان، فما زال به حتى تغفله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة، فتعجبت منه، ثم قلت فى نفسى: لعله معامله. ثم أقول: و ما حاجته إذا إلى المسارقة؟ ثم لم أزل أتبعه حتى استقرّ فى بقعة من صحراء. فقلت له: يا عبد اللّه لقد سمعت بک، و أحببت لقاءک، فلقيتک لكنى رأيت منک ما شغل قلبى، و إنى سائلک عنه ليزول به شغل قلبى.

قال: ما هو؟

قلت رأيتک مررت بخباز و سرقت منه رغيفين، ثم بصاحب رمان فسرقت منه رمانتين؟

فقال لی: قبل کل شیء حدثنی من أنت؟

قلت: رجل من ولد آدم من أمة محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قال: حدثنی ممن أنت؟

قلت: رجل من أهل بیت رسول اللّه.

قال: أین بلدک؟

قلت: المدینة.

قال: لعلک جعفر بن محمد بن علی بن الحسین بن أبی طالب علیهم السّلام.

قلت: بلی.

قال لی: فما ینفعک شرف أصلک مع جهلک بما شرّفت به، و ترکک علم جدک و أبیک، لأنه لا ینکر ما یجب أن یحمد و یمدح فاعله.

ص: ۲۶۱

قلت: ما هو؟

قال: القرآن کتاب اللّه.

قلت: و ما الذی جهلت؟

قال: قول اللّه عز و جل: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها و إنی لمّا سرقت الرغیفین، کانت سیئتین. و لمّا سرقت الرمانتین، کانت سیئتین. فهذه أربع سیئات. فلمّا تصدّقت بکل واحد منها کانت أربعین حسنة، أنقص من أربعین حسنة أربع سیئات، بقی ست و ثلاثون.

قلت: ثکلتک أمک، أنت الجاهل بکتاب اللّه، أ ما سمعت قول اللّه عز و جل:

إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ إنک لمّا سرقت رغيفين، كانت سيئتين، و لما سرقت الرمانتين كانت سيئتين. و لما دفعتها إلى غيرها من غير رضا صاحبها كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع، و لم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات. فجعل يلاحينى، فانصرفت و تركته» «۱». ا ه.

الشذوذ فى الأعمال استدعى من الإمام ما رأيناه من ملاحظة و تتبع، أما الوجه الآخر فهو الجهل الحقيقى الذى يدور بين الناس على شكل أشخاص يدّعون العلم بالكتاب و الفهم بالدين، و هو وجه يسبب أخطارا و أخطاء تجرّئ الناس على النصوص و الأحكام، و تضع عراقيل تؤثر فى سير دعوة الإمام الصادق.

و يروى للإمام الصادق تعقيب يبيّن ما ترتّب على ذلک من أضرار فى تاريخ الإسلام، فيقول عليه السّلام: «بمثل هذا التأويل القبيح المستكره يضلّون و يضلّون ..»

فقد لجأ الظالمون و البغاة إلى مثل ذلک و أباحوا لأنفسهم التقوّل على اللّه، و الكذب على النبى الكريم.

لقد اهتم الإمام الصادق بالأصحاب الذين ينقلون عنه الحديث، و بالأقارب الذين يعملون بنهجه فى طبقات المجتمع، و يجنّدون أنفسهم لدعوة الإصلاح و التمسّک بالدين، و يعنى بطريقة مخاطبتهم الناس، و أسلوب حملهم على العمل بالفرائض و الأحكام. قال الإمام الصادق لأحد أصحابه: «وضع الإسلام على سبعة أسهم: على الصبر و الصدق و اليقين و الرجاء و الوفاء و العلم و الحلم. ثم قسم ذلک

---

(۱) معانى الأخبار للصدوق و الاحتجاج.

بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل الإيمان محتمل، و قسم لبعض الناس السهم، و لبعض السهمين، و لبعض الثلاثة أسهم، و لبعض الأربعة أسهم، و لبعض الخمسة أسهم، و لبعض الستة أسهم. فلا تحملوا على صاحب السهم سهمين، و على صاحب السهمين ثلاثة أسهم، و على صاحب الثلاثة أربعة أسهم، و لا على صاحب الأربعة خمسة أسهم، و لا على صاحب الخمسة ستة أسهم، و لا على صاحب الستة سبعة أسهم، فتثقلوهم و تنفّروهم، و لكن ترفّقوا بهم، و سهّلوا لهم المداخل. و سأضرب لک مثلا تعتبر به: إنه كان رجل مسلم، و كان له جار كافر (و فى رواية نصرانى) و كان الكافر يرفق بالمؤمن، فأحب المؤمن للكافر الإسلام، و لم يزل يزيّن الإسلام و يحببه إلى الكافر حتى أسلم، فغدا عليه المؤمن فاستخرجه من منزله، فذهب به إلى المسجد ليصلى معه الفجر فى جماعة، فلمّا صلّى قال له: لو قعدنا نذكر اللّه عز و جل حتى تطلع الشمس. فقعد معه، فقال له: لو تعلمت القرآن إلى أن تزول الشمس و صمت اليوم كان أفضل. فقعد معه و صام حتى صلى الظهر و العصر.

فقال له: لو صبرت حتى تصلى المغرب و العشاء الآخرة. ثم نهضا و قد بلغ مجهوده، و حمل عليه ما لا يطيق. فلما كان من الغد، غدا عليه و هو يريد به مثل ما صنع بالأمس، فدق عليه بابه، ثم قال: أخرج حتى تذهب إلى المسجد. فأجابه: أن انصرف عنى، فهذا دين لا أطيقه» «١».

و عن عقبة بن خالد «٢»: دخلت أنا و المعلّا و عثمان بن عمران على أبى عبد اللّه عليه السّلام فلما رآنا قال: «مرحبا مرحبا بكم، وجوه تحبّنا و نحبّها، جعلكم اللّه معنا فى الدنيا و الآخرة» فقال له عثمان: جعلت فداک. فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام:

«نعم مه» قال: إنى رجل موسر، فقال له: «بارک اللّه لک فى يسارک» و قال: و يجيء الرجل فيسألنى الشيء، و ليس هو إبان زكاتى. فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام: «القرض عندنا بثمانية عشر، و الصدقة بعشرة، و ما ذا عليک إذا كنت كما تقول لا تردّه، فإن ردّه عند اللّه عظيم. يا عثمان، إنک لو علمت ما منزلة المؤمن من ربّه ما توانيت فى حاجته، و من أدخل على مؤمن سرورا، فقد أدخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم» «٣».

---

(١) الاثنى عشرية فى المواعظ العددية للحافظ العيناثى الجزينى.

(٢) عقبة بن خالد الأسدى الكوفى من أصحاب الإمام الصادق.

(٣) الكافى للكلينى.

و بهذه السيرة و التعاليم يقيم الإمام الصادق واقعا محسوسا و معاشا من الألفة و التعاون و التكافل، و فى كل جانب من حياته اليومية عليه السّلام عليه سيماء الدين و صفة الفقه و الدعوة الإسلامية، فلا غرو أن نجده مهوى أفئدة محبى الحكمة، و مقصد طلاب العلم، كما نجده ملجأ المحتاجين، فهو عليه السّلام لا يكتفى بتهيئة أصحابه و محبيه لأداء ما أمر به الإسلام من حقوق للفقراء، بل يجعل من بيته أيضا المقام الأول الذى تجرى فيه تطبيقات أحكام الإسلام و تعاليمه.

جاء إليه عليه السّلام رجل فقال له: يا أبا عبد اللّه، قرض إلى ميسرة. فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام: «إلى غلّة تدرک؟» فقال الرجل: لا و اللّه. قال: «فإلى تجارة تؤوب؟» قال: لا و اللّه. قال: «فإلى عقدة تباع؟» فقال: لا و اللّه. فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: «فأنت ممن جعل اللّه له فى أموالنا حقا». ثم دعا بكيس فيه دراهم، فأدخل يده فيه، فناوله منه قبضة.

و يدعو عليه السّلام إلى أن يسعى المؤمن فى حاجة أخيه، و يظهر شديد اهتمامه فى التكاتف و التكافل الذى دعا إليه الإسلام، و يبيّن جزاء ذلک عند اللّه ليصبح عمل المسلم فى إطار مجتمعه عملا دينيا و له الصفة الشرعية. فمن أقواله عليه السّلام: «قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة، و خير من حملان ألف فرس فى سبيل اللّه».

و كذلک قوله عليه السّلام: «لقضاء حاجة امرئ مؤمن أفضل من ألف حجة متقبلة بمناسكها، و عتق ألف رقبة».

و من المعلوم أن الإمام الصادق فى حضّه على إقامة العلاقات بين المسلمين على مثل هذه الصورة من التعاون و المساعدة، يعالج فى أعماله و أقواله تلك الظاهرة التى أشرنا إليها سابقا من الانصراف إلى الأعمال العبادية، أو الانقطاع عن طلب الرزق تحت تأثير فهم محدود، أو حالة خاصة، و التى تشمل أيضا أداء المناسک و الأعمال الخيرية بقصد التظاهر و تمدّح الناس و السمعة. و هنا محک هام يضعه الإمام عليه السّلام لتوجيه المجتمع إلى الرفاه و التآلف.

و نرى الإمام الصادق يزيد فى القول من ذكر المعروف و فضله ليحبب إلى الناس فعل الخير و يشيعه بينهم، و هو يبدأ بالدعوة إلى المعروف بدون تقييده، فيقول عليه السّلام داعيا أصحابه: «اصنع المعروف إلى كل أحد، فإن كان أهله و إلا فأنت أهله».

ثم يتّجه فى دعوته إلى عمل المعروف بين المؤمنين فيقول: «أيما مؤمن أوصل إلى أخيه المؤمن معروفا، فقد أوصل ذلک إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم».

ص: ۲۶۴

و من صور حثّه على المعروف قوله عليه السّلام: «ليس شىء أفضل من المعروف إلا ثوابه».

ثم يضع الإمام الصادق لهذا العمل- الذى يكشف عن حب الخير فى نفس المؤمن، و عن روح المحبة فى صدر المسلم- شروطا، فيرى أن المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: «تصغيره فى ستره، و تعجيله، فإن المسلم إذا صغّره عظّمه عند من صنعه إليه، و إذا ستره تمّمه، فإذا عجله هنأه، و إن كان غير ذلک محقه و نكده» «۱».

أما الزكاة فإن الإمام الصادق عليه السّلام فيما استفاض عنه من أخبار يشرح وجوبها و علل فرضها، و يبدأ بمن وجبت عليه ليؤدى ما افترض اللّه عليه. قال عليه السّلام لعمّار بن موسى الساباطى «۲»: «يا عمار أنت ربّ مال كثير؟» قال: نعم، جعلت فداک.

قال: «فتؤدى ما افترض اللّه عليک من الزكاة؟» فقال: نعم. قال «فتخرج الحق المعلوم من مالک؟» قال: نعم. قال: «فتصل قرابتک؟» قال: نعم. قال «فتصل إخوانک؟» قال: نعم. فقال «يا عمار إن المال يفنى، و البدن يبلى، و العمل يبقى، و الديّان حىّ لا يموت. يا عمّار أما أنه ما قدمت فلم يسبقک، و ما أخّرت فلن يلحقک» «۳».

و يبيّن الإمام الصادق علّة فرض الزكاة و وجوبها فيقول: «إنما وضعت الزكاة اختبارا للأغنياء، و معونة للفقراء. و لو أن الناس أدّوا زكاة أموالهم، ما بقى مسلم محتاجا و لا مستغنى بما فرض اللّه عز و جل له، و إن الناس ما افتقروا و لا احتاجوا و لا جاعوا و لا عروا إلا بذنوب الأغنياء، و حقيق على اللّه عز و جل أن يمنع رحمته من منع حق اللّه فى ماله. و أقسم بالذى خلق الخلق و بسط الرزق إنه ما ضاع مال فى بر و لا بحر إلّا بترک الزكاة، و ما صيد صيد فى بر و لا بحر إلّا بترک التسبيح فى ذلک اليوم.

و إن أحب الناس إلى اللّه عز و جل أسخاهم كفا، و أسخى الناس من أدّى الزكاة فى ماله، و لم يبخل على المؤمنين بما افترض اللّه عز و جل لهم فى ماله ...» ا ه.

و عن زرارة «۴» و محمد بن مسلم «۵» أنهما قالا لأبى عبد اللّه عليه السّلام: أ رأيت

---

(۱) فروع الكافى ج ۴ ص ۸.

(۲) من أصحاب الإمام الصادق و الإمام الكاظم. أخواه قيس و صباح كانوا جميعهم من الثقات.

(۳) فروع الكافى و من لا يحضره الفقيه للصدوق.

(۴) زرارة بن أعين الشيبانى من أصحاب الإمام الباقر و الصادق قال النجاشى: (شيخ أصحابنا فى زمانه و متقدمهم. قد اجتمعت فيه خلال الفضل و الدين) ابنه محمد ثقة روى عنه جماعة.

(۵) محمد بن مسلم بن رباح أبو جعفر الأوقص الطحّان فقيه ثقة. من أصحاب الباقر و الصادق.

قول اللّه عز و جل: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ أ كلّ هؤلاء يعطى و إن كان لا يعرف؟ فقال: «إن الإمام يعطى هؤلاء جميعا لأنهم يقرّون له بالطاعة». قال زرارة:

قلت: فإن كانوا لا يعرفون؟ فقال: «يا زرارة، لو كان يعطى من يعرف دون من لا يعرف، لم يوجد لها موضع. و إنما يعطى من لا يعرف ليرغب فى الدين، فيثبت عليه، فأما اليوم فلا تعطها أنت و أصحابك إلا من يعرف، فمن وجدت من هؤلاء المسلمين عارفا؛ فأعطه دون الناس» ثم قال: «سهم المؤلفة قلوبهم و سهم الرقاب عام، و الباقى خاص» قال:

قلت: فإن لم يوجدوا؟ قال: «لا تكون فريضة فرضها اللّه عز و جل، و لا يوجد لها أهل» قال: قلت: فإن لم تسعهم الصدقات؟ قال فقال: «إن اللّه عز و جل فرض للفقراء فى مال الأغنياء ما يسعهم، و لو علم أن ذلک لا يسعهم لزادهم، إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة اللّه عز و جل، و لكن أوتوا من قبل من منعهم حقهم، لا مما فرض اللّه لهم، و لو أن الناس أدّوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير، فإما الفقراء فهم أهل الزمانة و الحاجة، و المساكين أهل الحاجة من غير الزمانة، و العاملون عليها هم السعاة، و سهم المؤلفة قلوبهم ساقط بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و سهم الرقاب يعان به المكاتبون الذين لا مأوى له و لا مسكن، مثل:

المسافر الضعيف و مارّ الطريق. و لصاحب الزكاة أن يضعها فى صنف دون صنف متى لم يجد الأصناف كلها» ا ه.

و عن عمار الساباطى قال: قال لى أبو عبد اللّه عليه السّلام «يا عمار الصدقة و اللّه فى السرّ أفضل من الصدقة فى العلانية، و كذلک و اللّه العبادة فى السرّ أفضل منها فى العلانية».

و قال عليه السّلام: «إن الصدقة تقضى الدين، و تخلف البركة».

و تضعنا أقوال الإمام الصادق إزاء الغرض الذى يسعى إليه، و يعمل من أجل تحقيقه، و هو صورة المجتمع المسلم الذى تنفّذ فيه أحكام الإسلام و تطبّق تعاليمه، و هو عليه السّلام فى طريقة الدعوة و أسلوب الحثّ على هدى آبائه الطيبين فى البناء و الصياغة، فنراه يقول ليحبّب الصدقة و يحفّز على التصدّق: «إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان».

ثم يسوق هذه الحادثة: «مرّ يهودى بالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: السام عليک. فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: عليک. فقال أصحابه: إنما سلم عليک بالموت؟ قال: الموت عليک. قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: كذلک رددت عليه. ثم قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إن هذا اليهودى يعتضّه

ص: ۲۶۶

أسود «۱» فى قفاه، فيقتله. قال: فذهب اليهودى، فاحتطب حطبا كثيرا، فاحتمله، ثم لم يلبث أن انصرف. فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ضعه. فوضع الحطب، فإذا أسود فى جوف الحطب عاضّ على عود. فقال: يا يهودى ما عملت اليوم؟ قال: ما عملت عملا إلا حطبى هذا احتملته و جئت به و كان معى كعكتان، فأكلت واحدة و تصدّقت بواحدة على مسكين. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: بها دفع اللّه عنک» «۲».

و من وجوه عمله على سدّ حاجة الفقراء، و ضمان ما يقيم صلبهم بأداء ما أمر به اللّه و دعا إليه الإسلام، مخاطبته أصحابه بما يريد منهم أن يفعلوه. و هو عند ما يصدر منه، فإن الأصحاب و المحيطين به ينظرون إلى قوله نظرة الأمر، لأنه إمام مفترض الطاعة، و هم بظل إمامته يتفيّئون، و بنهج هداه يعملون، فيخاطبهم عليه السّلام: «بكّروا بالصدقة و رغّبوا فيها، فما من مؤمن يتصدق بصدقة يريد بها ما عند اللّه ليدفع بها عنه شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض فى ذلک اليوم، إلا وقاه اللّه شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض فى ذلک اليوم».

و قال عليه السّلام: «استنزلوا الرزق بالصدقة، و حصّنوا أموالكم بالزكاة» «۳».

و بالإسناد عن أبان بن تغلب أنه «۴» أمره أن يقطع الطواف، و يذهب إلى رجل أشار إلى أبان ليرى حاجته. قلت: فأقطع الطواف؟ قال عليه السّلام: «نعم» قلت: و إن كان طواف فريضة؟ قال عليه السّلام: «نعم».

قال: فذهبت معه، ثم دخلت عليه بعد، فسألته، فقلت: أخبرنى عن حق المؤمن على المؤمن؟ قال عليه السّلام: «يا أبان، دعه لا تزده». قلت: بلى، جعلت فداک. فلم أزل أردد عليه.

فقال عليه السّلام: «يا أبان أن تقاسمه شطر مالک» ثم نظر إلىّ فرأى ما دخلنى، فقال: «يا أبان، أ ما تعلم أن اللّه عز و جل قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟» قلت: بلى جعلت فداک.

(۱) الأسود هو العظيم من الحيات.

(۲) فروع الكافى ج ۴ ص ۵.

(۳) حلية الأولياء ج ۳ ص ۱۹۵.

(۴) أبان بن تغلب الربعى من تلامذة الإمام الصادق و أصحابه المقربين. ذكر له ابن النديم كتاب:

معانى القرآن، و القراءات، و كتابا من الأصول على مذهب الشيعة.

فقال: «إذا قاسمته لم تؤثره بعد، إنما أنت و هو سواء، إنما تؤثر إذا أعطيته من النصف الآخر».

و يقول لأصحابه: «إن صدقة الليل تطفئ غضب الرب، و تمحو الذنب العظيم، و تهوّن الحساب. و صدقة النهار تثمر المال و تزيد فى العمر. إن عيسى بن مريم عليه السّلام لمّا أن مرّ على شاطئ البحر رمى بقرص من قوته فى الماء. فقال له بعض الحواريين: يا روح اللّه و كلمته لم فعلت هذا و إنما هو من قوتك؟ فقال: فعلت هذا لدابة تأكله من دوابّ الماء، و ثوابه عند اللّه عظيم».

و يروى عليه السّلام من أحاديث جدّه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ذلك الكثير منها: قال عليه السّلام:

«قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: تصدقوا فإن الصدقة تزيد فى المال كثرة».

و قال عليه السّلام: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إن اللّه لا إله إلّا هو ليدفع بالصدقة الداء و الدبيلة «۱» و الحرق و الغرق و الهدم، و عدّ سبعين بابا من السوء».

فكيف يتوانى المسلم عن ثواب ذلك و فوائده الدنيوية و الأخروية و هو يسمع بأذنيه هذه الأحاديث و الأحداث. و يرى أمام عينيه مبادرة الإمام إلى تطبيق تعاليم الإسلام، و مباشرته بنفسه سدّ حاجة الناس. و يراعى الإمام مشاعر الناس، و منهم طائفة ترى فى أخذ الزكاة حطا من مكانتها، و تخجل أن يكون قبولها إمارة عوز و فقر، فأمر عليه السّلام أن يعطى من يستحيى، و لا تسمّ له الزكاة لكى لا يذلّ المؤمن.

و قال عليه السّلام: «لو يعلم السائل ما عليه من الوزر، ما سأل أحد أحدا. و لو يعلم المسئول إذا منع، ما منع أحد أحدا» «۲».

و نضع آخر قبس من سيرته الكريمة عليه أفضل الصلاة و السّلام أمام القارئ الكريم، و فيها جوامع النظرة و مضامين الفكرة. فعن المعلى بن خنيس «۳» قال: قلت للإمام الصادق عليه السّلام: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: «سبع حقوق و واجبات،

(۱) الدبيلة: الداهية. فى الصحاح: هى مصغرة للتكبير يقال (دبلتهم الدبيلة) أى أصابتهم الداهية.

(۲) فروع الكافى.

(۳) أبو عبد اللّه مولى الإمام الصادق، كان مولى لبنى أسد فى الكوفة. قتله داود بن على والى المدينة، فغضب الإمام الصادق و دعا على داود بن على، فما أستتم دعاءه عليه السّلام حتى سمعت الصيحة فى دار داود.

ما منهنّ حقّ إلّا و هو عليه واجب، إن ضيّع منها شيئا خرج من ولاية اللّه و طاعته، و لم يكن للّه فيه من نصيب» قلت له: جعلت فداک و ما هى؟. قال: «يا معلّى إنى عليک شفيق، أخاف أن تضيّع و لا تحفظ، و تعلم و لا تعمل» قال قلت له: لا قوة إلا باللّه.

قال: «أيسر حق منها أن تحبّ له ما تحبّ لنفسک، و تكره له ما تركه لنفسک. الحق الثانى: أن تجتنب سخطه، و تتبع مرضاته، و تطيع أمره. و الحق الثالث: أن تعينه بنفسک و مالک و لسانک و يدک و رجلک. و الحق الرابع: أن تكون عينه و دليله و مرآته.

و الحق الخامس: أن لا تشبع و يجوع، و لا تروى و يظمأ، و لا تلبس و يعرى. و الحق السادس: أن يكون لک خادم و ليس لأخيک خادم، فواجب أن تبعث خادمک، فيغسل ثيابه، و يصنع طعامه، و يمهد فراشه. و الحق السابع: أن تبرّ قسمه، و تجيب دعوته، و تعود مريضه، و تشهد جنازته، و إذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها، و لا تلجأه أن يسألكها، و لكن تبادره مبادرة. فإذا فعلت ذلک وصلت ولايتک بولايته و ولايتى بولايتک».

و نختم ما يحتمله وسع هذا الفصل بالإشارة إلى تصدّى الإمام الصادق إلى تحقيق هذه الجوانب الحياتية التى تستمد من العقيدة بشعور الزعامة الروحية و قيادة شئون تنفيذ هذه التعاليم، فهو عليه السّلام جعل أمر الحاجة عند المؤمن و مساعدة الضعفاء منهم خاصا به و شأنا يمسّه.

كان عنده جماعة من أصحابه، فقال لهم: «مالكم تستخفّون بنا؟» فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال: معاذ اللّه أن نستخفّ بک أو بشىء من أمرک.

فقال: «إنک أحد من استخفّ بى».

فقال الرجل: معاذ اللّه أن أستخفّ بک.

فقال عليه السّلام: «ويحک أ لم تسمع فلانا- و نحن بقرب الجحفة- و هو يقول لک:

احملنى قدر ميل، فقد و اللّه أعييت. فو اللّه ما رفعت له رأسا، لقد استخففت به، و من استخفّ بمؤمن فبنا استخفّ، و ضيّع حرمة اللّه عز و جل».

و بذلک يجعل عليه السّلام إعانة المؤمن و مساعدة الضعيف على اختلاف وجوههما و أحوالهما متصلا بمنزلته عليه السّلام، و استخدامه لصيغة الجمع تأكيد لعظيم هذا الجانب من حياة المجتمع، و خطر هذا الوجه من العلاقات بين المؤمنين.

ص: ۲۶۹

و إلى هنا نكتفى بما قدمناه من قبسات من سيرة الإمام الصادق، و نظرة سريعة إلى ظروف عصره و أحداثه، فقد ضمّت الأجزاء السابقة من الكتاب مزيدا من البحث و بسطنا فيه القول.

و نتحول الآن إلى مدرسة الإمام الصادق عليه السّلام لنقف على الجهود العلمية التى بذلها عليه السّلام و نتعرف على تفاصيل أخرى عن منهج هذه الجامعة الإسلامية الكبرى التى أمّها علماء الأمة من مختلف الأقطار، و تتلمذ فيها كبار الأئمة، و هى المأثرة العظمى و المفخرة الكبرى التى تدلل بآثارها و نتائج أعمالها على دور الإمام الصادق فى حفظ التراث العلمى الإسلامى و إغنائه.

ص: ۲۷۱

مدرسة الإمام الصادق المنهج و التكوين

تتظافر الروايات على أن عدد الذين تتلمذوا على الإمام الصادق و انتسبوا إلى مدرسته هو أربعة آلاف طالب من مختلف الأقطار، فقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنهم من الثقات على اختلافهم فى الآراء و المقالات فكانوا كذلک، فقد كان عليه السّلام أفضل أهل زمانه، و برز على أقرانه بالفضل و السؤدد فى الخاصة و العامة، و نقل الناس عنه من العلوم ما لم ينقل عن أحد من أهل بيته «۱».

كان الصادق عليه السّلام أفضل الناس و أعلمهم بدين اللّه، و كان أهل العلم الذين سمعوا منه إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم «۲». قال أبو الحسن الوشّاء: (أدركت فى جامع الكوفة تسعمائة شيخ من أهل الدين و الورع كلهم يقول: حدثنى جعفر الصادق). و قد كانت الكوفة و المدينة تضمّان أكبر عدد من هؤلاء لانتشار التشيّع فى الكوفة. و لأن المدينة كانت أرض تكوين و مهد دعوته.

و لا نجد من يجرأ على إنكار مكانة الإمام الصادق فى زمانه و زعامته فى ذلک العصر، و قد عودتنا الأيام أن يكابر الكثيرون و يعاند العديدون استجذاء للحكام و اتّباعا للأهواء و الأحقاد، لأن الحقائق كانت تقمع ما تطويه دخائلهم و تضمّه جوانحهم، فقد كان بيته و مجلسه عليه السّلام يزدحمان بطلبة العلم و أهل الفقه، يقبلون على الإمام للانتهال من معين علمه و حكمته، حتى أن الروايات تصف ضيق داره لعظم الوفود و العلماء من مختلف الأقطار، حتى صعب على أصحابه أن يجدوا لهم مجلسا.

(۱) روضة الواعظين للفتال النيسابورى ج ۱ ص ۲۰۷.

(۲) تاريخ ابن واضح ج ۳ ص ۱۱۵.

و لم يعرف لأحد غيره مثل هذه الشهرة. فقد كان تلاميذه من العراق و مصر و خراسان و حمص و الشام و حضرموت و غيرها.

و قد تصدّر الإمام الصادق حركة المجتمع بجدارة، و تزعم الحركة العلمية بتفرّد، فقد (نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، و انتشر صيته فى جميع البلدان) «۱». و كان ينذر نفسه لهذه الأغراض، و يتّجه إلى الناس قائلا: «سلونى قبل أن تفقدونى، فإنه لا يحدّثكم أحد بعدى بمثل حديثى» «۲». و لذلک: (روى حديثه خلق لا يحصون) «۳». و انتشر فقهه فى الآفاق، و إذا استعصى الحصر و صعب العدّ لتحديد كل من روى عنه عليه السّلام فإن الأربعة آلاف كانوا المتميزين، و إلا فإن الصورة التى لا تقبل المماراة هى شيوع ذكره بين سائر الناس و علوّ مكانته فى نفوس المسلمين على مختلف أصنافهم و أجناسهم. و على ذلک فلا يستغرب أن يعجز الكثير عن إحصاء كل من نقل عنه أو روى حديثه عليه السّلام.

ثم حلقات فقهه من أصحابه و تلامذته المقرّبين و عددهم أربعمائة ممن نبهوا فى العلوم و عرفوا بالفقه، و هم رجال مدرسته و هيئتها العلمية الذين اختصوا بفقه الإمام الصادق، و كانوا من العدالة و الثقة بمكان لا ترقى إليه سهام الحقد و الحسد، و قد ألّفوا فى فقه الإمام جعفر الصادق و الرواية عنه أربعمائة كتاب، و هى الأصول الفقهية للمذهب الجعفرى «۴».

و قد تحرّى الإمام الصادق كفاءة الأصحاب و قدرات المتعلّقين به، و وجّه كلا إلى حيث العمل الذى يتّفق و مواهبه و ينسجم مع استعداده، فكان البعض منهم مختصا بتنفيذ التعاليم التى تتعلق بواقع الأسر و الأفراد، أو تتصل بالظواهر الاجتماعية و العلاقات. و قد مرّ بنا طرف من هذه المهمات التى توكل إليهم فى الفصل السابق و الأجزاء السابقة من الكتاب.

أما الناحية الفكرية- التى تمثل منهج مدرسته- فقد عيّن الإمام الصادق من بين

(۱) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ۱۲۰.

(۲) تذكرة الحفاظ للذهبى ج ۱ ص ۱۵۷.

(۳) خلاصة تذهيب الكمال للخزرجى ص ۵۴.

(۴) انظر التراجم و البحوث الخاصة بهم فى الجزء الثالث و الرابع.

هيئة المدرسة العلمية الرجال الذين توكل إليهم المهمات. و تسند شئون المنهج و تطبيقاته، و هى تتجه إلى الأهداف التالية:

١- مناظرة أهل العقائد الفاسدة.

٢- محاربة أهل الألحاد و الزندقة.

٣- محاورة أهل الكتاب.

۴- مواجهة الفرق الشاذة.

۵- مقاتلة الظلمة بشدة الإنكار عليهم و توجيه الانتقاد إليهم و فضح سياساتهم.

فجعل أبان بن تغلب للفقه، و أمره أن يجلس فى المسجد فيفتى الناس. و كان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التى امتازت باتقاد الذهن و وفور العقل و بعد الغور، و الاختصاص بعلوم القرآن، و هو أول من ألف فى ذلک، و كان فقيها يزدحم الناس على أخذ الفقه عنه، و إذا دخل مسجد المدينة المنورة أخليت له سارية النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيحدّث الناس، و يسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال، ثم يذكر قول أهل البيت، و يسوق أدلته و مناقشته على طريقة الإمام الصادق عليه السّلام فى الإجابة، إذ كان عليه السّلام أعلم الناس باختلاف الناس و أفقههم «١».

و وكل لحمران بن أعين الأجوبة عن مسائل علوم القرآن. و قد كان أحد حملة القرآن، و ممن يحتج بهم فى القراءات، فهو من القرّاء المشهورين، و ممن يعد و يذكر فى كتب القراءة، و كان عالما بالنحو و اللغة، و هو من عائلة مشهورة فى الكوفة و لهم منزلة. و أخوه زرارة- و قد مرت الإشارة إليه فى آخر الفصل السابق- أوكل إليه المناظرة فى الفقه تحت إشراف الإمام الصادق و توجيهه.

و مؤمن الطاق كان للمساجلة فى الكلام. و حمزة بن الطيار للمناظرة فى الاستطاعة و غيرها. و هشام بن الحكم للمناظرة فى الإمامة و العقائد. و كان منهم جماعة يتجوّلون فى الأمصار، أمدّهم الإمام بالأموال.

و تظهر لنا شهادات التاريخ بحق الرجال مكانة الإمام الصادق، و اتجاه الأنظار إليه، و اختلاف الناس إلى مجلسه على اختلاف أغراضهم و مقاصدهم. كذلک تبين لنا المصادر أسلوب الإمام و منهجه و توزيع المهمات على أصحابه و الإشراف على ما

---

(١) انظر مناقب أبى حنيفة للمكى ج ١ ص ١٧٣. و جامع مسانيد أبى حنيفة لقاضى القضاة الخوارزمى ج ١ ص ٢٢٢- ٢٢٣.

يدور فى حلقات درسهم و مجالس مناظراتهم.

ورد رجل من أهل الشام، فاستأذن على الإمام الصادق، و كان معه جماعة من أصحابه، فإذن له. فلما دخل سلّم. فأمره أبو عبد اللّه عليه السّلام بالجلوس ثم قال له:

«حاجتک؟» قال: بلغنى أنک عالم بكل ما تسأل عنه، فصرت إليک لأناظرک.

فقال عليه السّلام: «فيما ذا؟» قال: فى القرآن و قطعه و خفضه و نصبه و رفعه.

فقال عليه السّلام: «يا حمران دونک الرجل».

فقال: إنما أريدک لا حمران.

فقال عليه السّلام: «إن غلبت حمران فقد غلبتنى».

فأقبل الشامى فسأل حمران حتى ضجر و ملّ، و حمران يجيبه.

فقال عليه السّلام: «كيف رأيته يا شامى؟» قال: رأيته حاذقا، ما سألته عن شىء إلا أجابنى فيه.

فقال عليه السّلام: «يا حمران سل الشامى» فما تركه يكثر.

فقال الشامى: أريد يا أبا عبد اللّه أن أناظرک فى العربية.

فقال عليه السّلام: «يا أبان بن تغلب ناظره» فناظره فما ترک الشامى يكثر.

قال الشامى: أريد أن أناظرک فى الكلام.

قال عليه السّلام: «يا مؤمن الطاق ناظره» فسجل الكلام بينهما. ثم تكلم مؤمن الطاق بكلام، فغلبه.

فقال الشامى: أريد أن أناظرک فى الاستطاعة.

فقال عليه السّلام للطيار: «كلّمه فيها».

فكلّمه، فما تركه يكثر.

فقال الشامى: أريد أن أكلمک فى التوحيد.

فقال عليه السّلام لهشام بن سالم: «كلّمه».

فسجل الكلام بينهما، ثم خصمه هشام.

قال الشامى: أريد أن أناظرک فى الفقه.

فقال عليه السّلام: «يا زرارة ناظره». فما ترک الشامى يكثر.

ص: ۲۷۵

قال الشامى: أريد أن أناظرک فى الإمامة.

فقال عليه السّلام لهشام بن الحكم: «كلّمه يا أبا الحكم» فكلّمه فما تركه يديم.

فقال الشامى: كأنک أردت أن تخبرنى أن فى شيعتک مثل هؤلاء الرجال.

فقال عليه السّلام: «هو ذاک ... يا أخا أهل الشام، أمّا حمران فحرفک، فحرت له، فغلبک بلسانه، فسألک عن حرف الحق، فلم تعرفه.

و أما زرارة فقاسک، فغلب قياسه قياسک.

و أما هشام بن الحكم فتكلم بالحق، فما سوّغک ريقک.

يا أخا أهل الشام، إن اللّه تعالى أخذ ضغثا من الحق و ضغثا من الباطل فمغثهما، ثم أخرجهما إلى الناس. ثم بعث أنبياء يفرّقون بينهما. ففرقتهما الأنبياء و الأوصياء، فبعث الأنبياء ليعرّفوا ذلک، و جعل الأنبياء قبل الأوصياء ليعلم الناس من يفضل اللّه و من يختص. و لو كان الحق على حدة و الباطل على حدة كل واحد منهما قائم بنفسه، ما احتاج الناس إلى نبى و لا وصى، و لكن اللّه خلطهما و جعل تفريقهما إلى الأنبياء و الأئمة من عباده».

فقال الشامى: قد أفلح من جالسک.

فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: «إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يجالسه جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل، فيصعد إلى السماء فيأتيه الخبر من عند الجبار، و إن كان ذلک كذلک فهو كذلک» «۱».

و عن يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبى عبد اللّه عليه السّلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال له: إنى رجل صاحب كلام وفقه و فرائض، و قد جئت لمناظرة أصحابک. فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام «كلامک هذا من كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو من عندک؟» فقال: من كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعضه، و من عندى بعضه. فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام: «فأنت إذن شريک رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟» قال: لا. قال: «فسمعت الوحى من اللّه؟» قال: لا. قال: «فتجب طاعتک كما تجب طاعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟» قال لا. قال: فالتفت أبو عبد اللّه

علیه السّلام إلیّ، فقال لی «یا یونس بن یعقوب، هذا قد خصم نفسه قبل أن یتکلم». ثم قال: «یا یونس لو کنت تحسن الکلام کلّمته». قال

---

(۱) رجال الکشی لمحمد بن عمر بن عبد العزیز ص ۱۲۴.

یونس: فیا لها من حسرة. فقلت: جعلت فداک سمعتک تنهی عن الکلام و تقول:

«ویل لأصحاب الکلام یقولون هذا ینقاد و هذا لا ینقاد، و هذا ینساق و هذا لا ینساق، و هذا نعقله و هذا لا نعقله؟» فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام: «إنما قلت: ویل لقوم ترکوا قولی، و ذهبوا إلی ما یریدون به». ثم قال: «أخرج إلی الباب فانظر من تری من المتکلمین فأدخله». قال: فخرجت، فوجدت حمران بن أعین- و کان یحسن الکلام- و محمد بن النعمان الأحول (مؤمن الطاق) و کان متکلما، و هشام بن سالم، و قیس الماصر- و کانا متکلمین- فأدخلتهم علیه، فلما استقرّ بنا المجلس کنّا فی خیمة لأبی عبد اللّه علیه السّلام علی حرف جبل فی طرف الحرم، و ذلک قبل أیام الحج بأیام، أخرج أبو عبد اللّه علیه السّلام رأسه من الخیمة، فإذا هو ببعیر یخبّ فقال: «هشام و رب الکعبة». قال: فظننا أن هشاما رجل من ولد عقیل، کان شدید المحبة لأبی عبد اللّه علیه السّلام، فإذا هشام بن الحکم قد ورد و هو أول ما اختطت لحیته، و لیس فینا إلا من هو أکبر سنّا منه، قال: فوسّع له أبو عبد اللّه علیه السّلام و قال: «ناصرنا بقلبه و لسانه و یده» ثم قال لحمران: «کلّم الرجل»- یعنی الشامی- فکلّمه حمران، فظهر علیه.

ثم قال: «یا طاقی کلّمه». فکلّمه، فظهر علیه محمد بن النعمان.

ثم قال: «یا هشام بن سالم» کلّمه، فتعادیا.

ثم قال لقیس الماصر: «کلّمه» فکلّمه.

و أقبل أبو عبد اللّه علیه السّلام یبتسم من کلامهما، و قد استخذل الشامی فی یده، ثم قال للشامی: «کلّم هذا الغلام»- یعنی هشام بن الحکم- فقال: نعم. ثم قال الشامی لهشام: یا غلام سلنی فی إمامة هذا- یعنی أبا عبد اللّه علیه السّلام- فغضب هشام حتی ارتعد، ثم قال له: أخبرنی یا هذا أ ربّک أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟

فقال الشامی: بل ربی انظر لخلقة.

قال: ففعل بنظره لهم فی دینهم ما ذا؟

قال: کلّفهم و أقام لهم حجة و دلیلا علی ما کلفهم، و أزاح فی ذلک عللهم.

فقال له هشام: فما هذا الدليل الذى نصبه لهم.

قال الشامى: هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

قال له هشام: فبعد رسول اللّه من؟

ص: ۲۷۷

قال: الكتاب و السنّة.

قال له هشام: فهل ينفعنا اليوم الكتاب و السنة فيما اختلفنا حتى يرفع عنّا الاختلاف و مكننا من الاتفاق؟

قال الشامى: نعم.

قال له هشام: فلم اختلفنا نحن و أنت، و جئتنا من الشام تخالفنا، و تزعم أن الرأى طريق الدين، و أنت تقرّ بأن الرأى لا يجمع على القول الواحد المختلفين.

فسكت الشامى كالمفكر، فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام: «مالک لا تتكلم».

قال: إن قلت أنّا ما اختلفنا كابرت، و إن قلت أن الكتاب و السنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، و لكن لى عليه مثل ذلک.

فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام: «سله تجده مليئا».

فقال الشامى لهشام: من أنظر للخلق ربهم أو أنفسهم.

فقال هشام: بل ربهم أنظر لهم.

فقال الشامى: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم و يرفع اختلافهم، و يعيّن لهم حقهم من باطلهم؟

قال هشام: نعم.

قال الشامى: من هو؟

قال هشام: أمّا فى ابتداء الشريعة فرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أما بعد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فغيره.

قال الشامى: و من هو غير النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم القائم مقامه فى حجته.

قال هشام: فی وقتنا هذا أم قبله؟

قال الشامی: بل فی وقتنا هذا.

قال هشام: هذا الجالس- یعنی أبا عبد اللّه علیه السّلام- الذی تشدّ إلیه الرحال، و یخبرنا بأخبار السماء، وراثة عن أب عن جدّ.

قال الشامی: و کیف لی بعلم ذلک؟

قال هشام: سله عما بدا لک.

قال الشامی: قطعت عذری فعلیّ السؤال.

فقال له أبو عبد اللّه علیه السّلام: «أنا أکفیک المسألة یا شامی، أخبرک عن مسیرک و سفرک: خرجت یوم کذا، و کان طریقک کذا، و مررت علی کذا، و مرّ بک کذا.

ص: ۲۷۸

فأقبل الشامی کلما وصف له شیئا من أمره یقول: صدقت و اللّه. ثم قال له الشامی: أسلمت للّه الساعة. فقال له أبو عبد اللّه علیه السّلام: «بل آمنت باللّه الساعة، إن الإسلام قبل الإیمان، و علیه یتوارثون و یتناکحون، و الإیمان علیه یثابون».

قال الشامی: صدقت، فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا اللّه، و أن محمدا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أنک وصی الأوصیاء.

قال: و أقبل أبو عبد اللّه علی حمران فقال: «یا حمران تجری الکلام علی الأثر، فتصیب» فالتفت إلی هشام بن سالم فقال «ترید الأثر و لا تعرف» ثم التفت إلی الأحول (مؤمن الطاق) فقال: «قیّاس روّاغ».

ثم التفت إلی قیس الماصر فقال: «تتکلم و أقرب ما تکون من الحق و الخبر عن الرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ...» و قلیل الحق یکفی من کثیر الباطل، أنت و الأحوال قفازان حاذقان.

قال یونس بن یعقوب: فظننت و اللّه أنه یقول لهشام قریبا مما قال لهما. فقال:

«یا هشام لا تکاد تقع تلوی رجلیک، إذا هممت بالأرض طرت، مثلک فلیکلّم الناس، اتق اللّه الزلّة و الشفاعة من ورائک» «۱».

و يتّضح جليا أن وقوع هذه المناظرة و ما تشتمل عليه من ملاحظات الإمام الصادق عليه السّلام كان فى مبدأ نهوض مدرسة الإمام الصادق بخططها و تنفيذ نهجها، فإن الإشارة إلى عمر هشام تدلّ على أول خطوات المدرسة على طريق العمل العلمى و الفكرى الشاق. إذ ينبغى أن نتخيل أحوال تلك الفترة و ما اعترى الأمة الإسلامية على مختلف المستويات، فإن النهضة العلمية و النشاط الفكرى خلق موجات من الجدل و تيارات من الكلام لم تخضع لحدود، لأن الحكام من العهدين كانوا يشجعون ألوان النشاط الفكرى المتعددة لأغراض تتعلق بمصلحتهم، فما ينجم من تفوق الفكر الإسلامى و امتداد الحركة العلمية، يدخل فى إهاب دولتهم و ينطبع بطابعهم. و لمّا بدأ الإمام الصادق سيرته الشريفة بعد توليه الإمامة جرّد كل ما يستطيع لمعالجة ما يعانى من المجتمع الإسلام و ما يتهدد أمة جده المصطفى عليه أفضل الصلاة و السّلام، و باشر المنهج الروحى و الفكرى المعروف عن أهل البيت، و وضع له قواعد من العمل

---

(١) الإرشاد للمفيد ص ٢٤٠- ٢٤٣.

و أركانا. و كان من أهم صفات منهج المدرسة و كلما يتعلق بها من وسائل مادية و معنوية هو الاستقلال التام عن السلطة و الابتعاد عن مؤثراتها. فرأسها الإمام الصادق عليه السّلام، و موقف الحكام منه معروف، و موقفه من ظلمهم و بطشهم من أبرز ملامح تاريخ الشيعة فى تلك الفترة. أما رجال هذه المدرسة فهم أنصار أهل البيت، و من عرفوا بالولاء و التضحية فى سبيل التشيّع، فتعاهدهم الإمام بإعداد شامل و توجيه مباشر، حتى يكونوا بمستوى ما يعهد لهم من مهمات و يوكل إليهم من أعمال، و كان نصب عينيه أن يكونوا الأسوة و القادة، و أن يقال عنهم: «رحم اللّه جعفر بن محمد ما أحسن ما أدّب به أصحابه».

و بمرور الأيام، نجد أن رجال المدرسة- أو من سمّيناهم بالهيئة العلمية- يتبوؤن مواقعهم بكفاءة عالية، و تمكن باهر. و لأن الإمام الصادق علم استعداد كل منهم و رعى مواهبهم فوجهها إلى ما يجلو فيها القدرة و يصقل الإمكانية، و نتج من ذلك مجموعة من كبار العلماء الذين خدموا الأمة الإسلامية كمجاهدين تحت عين الإمام الصادق، و عكفوا على حفظ تراثه الفقهى و ثروته العلمية فى كتب ضمّت المسائل و الأحكام و التعاليم و الأحاديث يفتخر بها الفكر الإسلامى، و يعتز بها الشيعة.

و يتباهون، لأن دقائق المسائل و غنى الأحكام و وضوح البراهين و الحجج، و بيان العلل و حكمة التشريع؛ تجعل الفقه الجعفرى وعاء العلم الإسلامى، و من الطبيعى جدا أن تأخذ بعض الحكومات بأحكام الفقه الجعفرى لمعالجة بعض المسائل التى تتعلق بأحوال الأفراد لما فيها من رعاية لمصالح الناس و رفع الحرج عنهم، كما فعلت الحكومة المصرية. و كم بين الناس من يلجأ إلى اعتناق المذهب الجعفرى منقادا إلى روح العدل و الصواب.

و القصد، أن تعقيب الإمام الصادق على اتجاه أصحابه فى المحاورة و المناظرة كان على سبيل بلوغ ما يرجوه و ما يسعى إلى تحقيقه بواسطتهم من خلال تبنى المنهج بطرق للحوار و الاستدلال عميقة و مؤثرة. و هو من ناحية أخرى يعدّهم بوصاياه فيقول:

«لا تتكلم فيما لا يعنيک، ودع كثيرا من الكلام فيما يعنيک حتى تجد له موضعا، فربّ متكلّم تكلّم بالحقّ بما يعنيه فى غير موضعه فتعب. و لا تمارينّ سفيها و لا حليما، فإن الحليم يغلبک و السفيه يرديک».

و من أقواله عليه السّلام التى توضّح منهج مدرسته و أسس حركتها العلمية: «دعامة

الإنسان العقل، و بالعقل يكمل، و هو دليله و مبصره و مفتاح أمره».

و يبيّن عليه السّلام أصناف طلبة العلم قائلا:

«طلبة العلم على ثلاثة أصناف، فاعرفهم بأعيانهم و صفاتهم: صنف يطلبه للجهل و المراء، و صنف يطلبه للاستطالة و الختل، و صنف يطلبه للفقه و العقل.

فصاحب الجهل و المراء متعرّض للمقال فى أندية الرجال، يتذاكر العلم و صفة الحلم، قد تسربل بالخشوع، و تخلى عن الورع، فدقّ اللّه من هذه خيشومه.

و صاحب الاستطالة و الختل ذو خب «١» و ملق، يستطيل على مثله من أشباهه، و يتواضع للأغنياء من دونه.

و صاحب الفقه و العقل ذو كآبة و حزن، يعمل و يخشى، وجلا داعيا مشفقا على شأنه، عارفا بأهل زمانه، مستوحشا من أوثق إخوانه».

و مما أوضحه الإمام الصادق عليه السّلام من خصائص منهجه، هو اعتماد العقل مع وجوه ما قام به من حركة علمية و اقتران صفاتها العامة به، و قد كان لذلک أثره فى تجنب المزالق التى يحدثها القياس الذى على الرأى الذى ينزع كثيرا إلى الهوى و الميل. أما العقل فهو من صفات الاكتمال فى شخصية المؤمن، و من مصادر دوام الشرائع و الأحكام. و كبقية القضايا المهمة فى وجود الإنسان المسلم، يعرض الإمام الصادق منزلة العقل: فعن محمد بن سليمان عن أبيه قال: قلت لأبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام: فلان من عبادته و دينه و فضله كذا و كذا؟ قال: فقال: «كيف عقله؟» فقلت: لا أدرى. فقال: «إن الثواب على قدر العقل. إن رجلا من بنى إسرائيل كان يعبد اللّه عز و جل فى جزيرة من جزائر البحر، خضراء نضرة كثيرة الشجر طاهرة الماء، و إن ملكا من الملائكة مرّ به فقال: يا رب أرنى ثواب عبدک هذا. فأراه اللّه عز و جل ذلک. فاستقله الملک، فأوحى اللّه عز و جل إليه أن أصحبه. فأتاه الملک فى صورة أنسى، فقال له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد، بلغنا مكانک و عبادتک بهذا المكان، فجئت لأعبد معک. فكان معه يومه ذلک، فلما أصبح قال له الملک: إن مكانک لنزهة. قال: ليت لربنا حمار لرعيناه فى هذا الموضع، فإن هذا الحشيش

---

(١) الخبّ: الخداع.

يضيع. فقال له الملک: و ما لربک حمار؟ فقال: لو کان له حمار ما کان يضيع مثل هذا الحشيش. فأوحى اللّه عز و جل إلى الملک: إنما أثيبه على قدر عقله» «۱».

بهذا المنهج سعى الإمام الصادق إلى إغناء واقع الأمة، و حملها على الالتزام بالمنهج الإسلامى و السنّة النبوية الشريفة، فقد أثر عن النبى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «قوام المرء عقله، و لا دين لمن لا عقل له». و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «سيد الأعمال فى الدارين العقل، و لكل شىء دعامة، و دعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته لربه».

و يوضح الإمام الصادق للناس نعمة العقل قائلا: «إذا أراد اللّه أن يزيل من عبد نعمة كان أول ما يغيّر منه عقله».

و يقول عليه السّلام: «كمال العقل فى ثلاث: التواضع للّه، و حسن اليقين، و الصمت إلا من خير» عليه السّلام و فى مقابله يضع عليه السّلام «الجهل و يقول: الجهل فى ثلاث: الكبر و شدة المراء و الجهل باللّه. فأولئک هم الخاسرون».

و ما يتعلق بالمختصّين من هيئة مدرسته، فإن صياغة أقواله عليه السّلام تفى بالغاية و الغرض فيقول: «يغوص العقل على الكلام، فيستخرجه من مكنون الصدر، كما يغوص الغائص على اللؤلؤ المستكنة فى البحر» و إن «العاقل إن كلّم أجاب، و إن نطق أصاب. و إن سمع وعى».

و يقيد الإمام الصادق السلوک المتعلق بالمنهج بالعقل فيقول: «التودّد نصف العقل». و يخاطب رجال مدرسته بأن لا يثقلوا على الناس، و لا ينفّروهم، و أن يترفّقوا بهم، و يسهّلوا لهم المداخل. و يقول لهم: «فرغّبوا الناس فى دينكم، و فيما أنتم فيه».

و يراجعه الأصحاب فيما يهمّهم من شئون عملهم فى تطبيق المنهج. فعن إسحاق قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: الرجل آتيه أكلمه ببعض كلامى فيعرفه كله، و منهم من آتيه فأكلمه بالكلام فيستوفى كلامى كله ثم يردّه علىّ كما كلمته، و منهم من آتيه فأكلّمه فيقول: أعد علىّ؟ فقال: «يا إسحاق، أو ما تدرى لم هذا؟» قلت: لا. قال «الذى تكلمه ببعض كلامک فيعرف كله، فذاک من عجنت نطفته بعقله. و أما الذى تكلمه، فيستوفى كلامک: ثم يجيبک على كلامک؛ فذاک الذى ركّب عقله فى بطن أمه. و أما الذى تكلمه بالكلام فيقول: أعد علىّ. فذاک الذى ركّب عقله فيه بعد ما كبر. فهو يقول: اعد علىّ».

---

(۱) بحار الأنوار للمجلسى ج ۱ ص ۸۴.

و يتكفل الإمام الصادق ببيانه و حكمة أقواله إيضاح أهم الخصائص فى خطة العمل و الدعوة فيقول عليه السّلام: «العاقل من كان ذلولا عند إجابة الحق، منصفا بقوله، جموحا عند الباطل، خصما بقوله، يترک دنياه و لا يترک دينه. و دليل العاقل شيئان:

صدق القول و صواب الفعل. و العاقل لا يتحدث بما ينكره العقل، و لا يتعرّض للتهمة، و لا يدع مداراة من ابتلى به، و يكون العلم دليله فى أعماله، و الحلم رفيقه فى أحواله، و المعرفة تعينه فى مذاهبه. و الهوى عدو العقل، و مخالف الحق، و قرين الباطل».

أما إذا أردنا أن نعلم ما هو الطريق إلى تحصيل هذه الملكة، و رعاية هذه النعمة، فإن الإمام الصادق عليه السّلام يجيبنا بوجيز قول و عظيم معنى يغنى عن كل سؤال فيقول: «كثرة النظر فى العلم تفتح العقل».

و لأن الإمام الصادق هو عالم الأمة و صاحب الولاية الشرعية، فقد أقبل عليه الأصحاب فيما يهمّهم و يشغل بالهم، و عرضوا عليه المسائل التى يكثر فيها الجدل، و قصده الكثير للتخلص من الحيرة و الغموض. و كان الإمام الصادق يعلم ما يدور فى زوايا المجتمع من محاورات و أحاديث تسبب ارتباكا و اضطرابا، فانفتح على الناس قائلا: «سلونى قبل أن تفقدونى» فأقبل الناس عليه من مختلف الطبقات و المراتب، و كانوا يجدون عنده علما غزيرا، و خلقا يعجز المرء عن وصفه. لأن شخصية فى علمها و ورعها كشخصية الإمام الصادق لا يقارن بها معاصروه، إنما هناك صور للرعاية الإلهية و الحكمة العليا فى خصال الإمام الصادق عليه السّلام و علمه و تقاه. فحلمه يسع جميع ضروب أهل الأهواء و المقالات و الجدل، و علمه يفيض على كل سائل و طالب علم، حتى فرض على الحذّاق من المتكلمين و الزنادقة و الملحدين و اضطرّهم إلى الإذعان ليشهدوا: (إنه الحليم الرزين العاقل الرصين، لا يعتريه خرق و لا طيش و لا نزف، يسمع كلامنا و يصغى إلينا، و يستعرف حجّتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، و ظننا أنا قد قطعناه؛ أدحض حجتنا بكلام يسير و خطاب قصير، يلزمنا به الحجة.

و يقطع العذر، و لا نستطيع لجوابه ردا).

سأله أبو حمزة عما يقال من أن اللّه جسم.

فقال عليه السّلام: «سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلّا هو، ليس كمثله شىء

و هو السميع البصير، لا يحدّ، و لا يحسّ، و لا تدركه الحواس، و لا يحيط به شىء و لا جسم و لا تخطيط و لا تحديد».

و دخل عليه نافع بن الأزرق فقال: يا أبا عبد اللّه، أخبرنى متى كان اللّه؟

فقال عليه السّلام: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان، سبحان من لم يزل و لا يزال فردا صمدا لم يتخذ صحابة و لا ولدا».

و قال ابن أبى يعفور: سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ فقلت: أما الأول فقد عرفناه، و أما الآخر فبيّن لنا تفسيره.

فقال عليه السّلام: «إنه ليس شيء يبيد أو يتغير و يدخل التغيير و الزوال و الانتقال من لون إلى لون أو من هيئة إلى هيئة، و من صفة إلى صفة، و من زيادة إلى نقصان، و من نقصان إلى زيادة، إلا ربّ العالمين. فإنه لم يزل و لا يزال بحالة واحدة، و هو الأول قبل كل شيء على ما لم يزل، لا تختلف عليه الصفات و الأسماء» «١».

فإن أردنا التعرف على الآثار اللاحقة فى طرق مناظرة أصحاب الإمام الصادق، و كيف استقرّ ما رعاه الإمام و عمل على تحقيقه فى وسائل الحجاج و طرق محاورة أهل الأهواء و الفرق و الأديان، نلمسها واضحة فى أقوالهم و منطق تعرّضهم.

اجتمع هشام بن الحكم فى إحدى رحلاته إلى البصرة بعمرو بن عبيد المتوفى سنة ١۴۴ ه و هو من شيوخ المعتزلة، و تناظرا فى الإمامة. و كان عمرو يذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأمة فى سائر الأعصار. و هشام يذهب إلى أنها نص من اللّه و رسوله على على بن أبى طالب و على من يلى عصره من ولده الطاهرين.

فقال هشام لعمرو بن عبيد: أ ليس قد جعل لک عينين.

قال: بلى.

قال: و لم؟

قال: لأنظر بهما فى ملكوت السماوات و الأرض فأعتبر.

قال: فلم جعل لک سمعا؟

قال: لأسمع به التحليل و التحريم و الأمر و النهى.

---

(١) الفصول المهمة للحر العاملى.

قال: فلم جعل لک فما؟

قال: لأذوق المطعوم، و أجيب الداعى.

ثم عدّد الحواس كلها.

قال: و لم جعل لک قلبا؟

قال: لتؤدى إليه الحواس ما أدركته، فيميّز بين مضارّها و منافعها.

قال هشام: فكان يجوز أن يخلق اللّه سائر حواسک، و لا يخلق لک قلبا تؤدى هذه الحواس إليه؟

قال عمرو: لا.

قال: و لم؟

قال: لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح لها.

فقال هشام: يا أبا مروان- يعنى عمرو- إن اللّه تبارک و تعالى لم يترک جوارحک حتى جعل لها إماما يصحّح لها الصحيح، و يترک هذا الخلق كله لا يقيم لهم إماما يرجعون إليه؟! قال المسعودى: فتحيّر عمرو، و لم يأت بفرق يعرف «۱».

و عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السّلام قال: دخل عمرو بن عبيد البصرى على أبى عبد اللّه عليه السّلام فلمّا سلّم و جلس عنده تلا هذه الآية قوله تعالى: اَلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ ثم أمسک عنه، فقال أبو عبد اللّه «ما أسكتک؟» قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب اللّه. فقال: «نعم يا عمرو، أكبر الكبائر الشرک باللّه، يقول اللّه تبارک و تعالى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ و بعده الأياس من روح اللّه، لأن اللّه تعالى يقول: وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ و الأمن من مكر اللّه، لأن اللّه يقول: فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ و منها عقوق الوالدين، لأن اللّه تعالى جعل العاق جبارا شقيا. و قتل النفس التى حرّم اللّه إلا بالحقّ لأن اللّه تعالى يقول: فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها و قذف المحصنات، لأن اللّه تعالى يقول: اَلَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ إلى قوله: لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ و أكل مال اليتيم ظلما لقوله تعالى: إِنَّ اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً

---

(۱) مروج الذهب ج ۴ ص ۵۵. و علل الشرائع للصدوق ص ۱۹۴. و احتجاج الطبرسى ص ۲۰۰.

و أمالى المرتضى و غيرها.

إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً و الفرار من الزحف، لأن اللّه تعالى يقول:

وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ و أكل الربا: لأن اللّه عز و جل يقول: اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ اَلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِ و السحر لأن اللّه تعالى يقول:

وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً. إِلَّا مَنْ تابَ و اليمين الغموس، لأن اللّه عز و جل يقول: إِنَّ اَلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ و الغلول، يقول اللّه عز و جل: وَ مَنْ يَغْلُلْ

يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ و منع الزكاة المفروضة، لأن اللّه تعالى يقول: فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ و شهادة الزور و كتمان الشهادة، لأن اللّه عز و جل يقول: وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ و شرب الخمر، لأن اللّه عز و جل عدل بها عبادة الأوثان. و ترک الصلاة متعمدا، فقد برىء من ذمة اللّه و ذمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نقض العهد. و قطيعة الرحم، لأن اللّه عز و جل يقول:

أُولئِکَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ.

قال: فخرج عمرو، و له صراخ من بكائه، و هو يقول: هلک من قال برأيه و نازعكم فى الفضل و العلم.

و عن أبى مالک الأحمسى قال: خرج الضحّاک الشارى (الخارجى) بالكوفة فحكم و تسمّى بإمرة المؤمنين، و دعى الناس إلى نفسه.

فأتاه مؤمن الطاق. فلما رأته الشراة وثبوا فى وجهه، فقال لهم: جانح. فأتوا به صاحبهم، فقال له مؤمن الطاق: أنا رجل على بصيرة من دينى، فأحببت الدخول معكم.

فقال الضحّاک لأصحابه: إن دخل هذا معكم نفعكم. ثم أقبل مؤمن الطاق على الضحّاک فقال: لم تبرأتم من على بن أبى طالب، و استحللتم قتله و قتاله؟

قال الضحّاک: لأنه حكم فى دين اللّه.

قال مؤمن الطاق: و كل من حكم فى دين اللّه استحللتم دمه و قتاله و البراءة منه؟

قال: نعم.

قال: فأخبرنى عن الدين الذى جئت أناظرک عليه، لأدخل معک إن غلبت حجتى حجتک أو حجتک حجتى، من يوقف المخطئ على خطأه و يحكم للمصيب

بصوابه؟ فلا بد لنا من إنسان يحكم بيننا، فأشار الضحّاک إلى رجل من أصحابه و قال:

هذا الحكم بيننا، فهو عالم بالدين.

قال مؤمن الطاق: و قد حكّمت هذا فى الدين الذى جئت أناظرک فيه؟ قال:

نعم. فأقبل مؤمن الطاق على أصحاب الضحّاک فقال: إن صاحبکم قد حکّم فی دین اللّه فشأنکم به. فاختلف أصحابه و أسکتوه، و خرج مؤمن الطاق منتصرا «۱».

و کنا فی الأصل قد خصصنا لحملة الإمام الصادق علی الغلاة جزءا من هذا الفصل، غیر أننا وجدنا أن البحث قد یطول و یتعدّی حدود ما نرجو له من عدم التکرار، و اکتفینا بما سبق من بحث لمشکلة الغلاة، و ما قام به الإمام الصادق من دحض لأقوالهم و فضح لمعتقداتهم، و فیه غنی و بیان واف لمنهج الإمام فی ذلک، و قد کان جهده علیه السّلام فی هذا المجال مصحوبا بآلام نفسیة. فهو یواجه أعداء تلبّسوا بروابط و ادّعاءات، و وجد نفسه علیه السّلام هو و آباءه الکرام غایة أولئک الکفرة و غرض مسعاهم.

قلنا إن عصر الإمام الصادق شهد تیارات من الألحاد و الزندقة و غیرها، و قد کانت حرکة الزندقة ذات خطر شدید، لأنها عبارة عن تنظیم اجتمع فیه حذّاق الکلام و الخائضون فی المقالات و المذاهب، و وضعوا لأنفسهم خطة لإفساد العقائد، و زرع الشکوک فی نفوس المؤمنین. و قد لفتت شخصیة الإمام الصادق انتباههم و راحوا فی مناسبات عدیدة یقصدونه و هم علی کفرهم، فیخرجون مقطوعین مدحورین.

و کان من أبرز قادتهم ابن أبی العوجاء «۲» و قد أشرنا إلیه فی أکثر من مورد سابقا و فی أجزاء الکتاب السابقة. و قد اجتمع مرّة هو و نفر من الزنادقة منهم: ابن طالوت، و ابن الأعمی، و ابن المقفع فی الموسم بالمسجد الحرام، و کان الإمام الصادق فیه إذ ذاک یفتی الناس، و یفسّر لهم القرآن، و یجیب عن المسائل بالحجج و البینات. فقال القوم لابن أبی العوجاء: هل لک فی تغلیط هذا الجالس، و سؤاله عما یفضحه عند

---

(۱) انظر: رجال الکشی. و مناقب ابن شهر أشوب المازندرانی.

(۲) یذکر الشیخ الصدوق أن ابن أبی العوجاء دخل مکة تمرّدا و إنکارا علی من یحجّ، و کان یکره العلماء مسائلته إیاهم و مجالسته لهم لخبث لسانه و فساد سریرته.

هؤلاء المحیطین به، فقد تری فتنة الناس به، و هو علّامة زمانه.

فقال لهم ابن أبی العوجاء: نعم. ثم تقدم، ففرّق الناس، فقال: یا أبا عبد اللّه إن المجالس أمانات، و لا بد لکل من کان به سعال أن یسعل، أ فتأذن لی فی السؤال؟

فقال له أبو عبد اللّه علیه السّلام: «سل إن شئت».

فقال له ابن أبى العوجاء: إلى كم تدرسون هذا البيدر، و تلوذون بهذا الحجر، و تعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب و المدر، و تهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟

من فكر فى هذا أو قدّر، علم أنه فعل غير حكيم و لا ذى نظر، فقل فإنک رأس هذا الأمر و سنامه، و أبوک أسّه و نظامه.

فقال له الصادق عليه السّلام: «إن من أضلّه اللّه و أعمى قلبه استوخم الحق فلم يستعذبه، و صار الشيطان وليّه و ربّه، يورده مناهل الهلكة و لا يصدره، و هذا بيت استعبد اللّه به خلقه ليختبر طاعتهم فى إتيانه، فحثّهم على تعظيمه و زيارته، و جعله قبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، و طريق يؤدى إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال و مجمع العظمة و الجلال، خلقه اللّه تعالى قبل دحو الأرض بألفى عام، فأحق من أطيع فيما أمر، و انتهى عما زجر اللّه المنشئ للأرواح و الصور».

فقال له ابن أبى العوجاء: ذكرت يا أبا عبد اللّه، فأحلت على غائب.

فقال الإمام الصادق عليه السّلام: «كيف يكون يا ويلک غائبا من هو مع خلقه شاهد، و إليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم، و يعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان، و لا يشتغل به مكان، و لا يكون له مكان أقرب من مكان، تشهد له بذلک آثاره، و تدل عليه أفعاله. و الذى بعثه بالآيات المحكمة و البراهين الواضحة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جاءنا بهذه العبادة، فإن شككت فى شىء من أمره فاسأل عنه أوضحه لک.

فأبلس ابن أبى العوجاء، و لم يدر ما يقول، فانصرف من بين يديه. فقال لأصحابه: سألتكم أن تلتمسوا لى خمرة، فألقيتمونى على جمرة.

قالوا له: أسكت، فو اللّه لقد فضحتنا بحيرتک و انقطاعک، و ما رأينا أحقر منک اليوم فى مجلسه.

فقال لهم: ألى تقولون هذا؟ إنه ابن من حلق رءوس من ترون، و أومأ إلى أهل

الموسم «١».

و فى رواية الطبرسى زيادة: أن ابن أبى العوجاء قال: فهو فى كل مكان؟ أ ليس إذا كان فى السماء كيف يكون فى الأرض؟ و إذا كان فى الأرض كيف يكون فى السماء؟ فقال الإمام الصادق عليه السّلام: «إنما وصفت المخلوق الذى إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان، و خلا منه مكان، فلا يدرى فى المكان الذى صار إليه ما حدث فى المكان الذى كان فيه. فأما اللّه العظيم الشأن، الملک الديّان، فلا يخلو منه مكان، و لا يشتغل به مكان، و لا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان».

و عن هشام بن الحكم قال: كان زنديق بمصر يبلغه عن أبى عبد اللّه عليه السّلام علم، فخرج إلى المدينة لينا ظره. فلم يصادفه بها. و قيل: هو بمكة. فخرج إلى مكة و نحن مع أبى عبد اللّه عليه السّلام فانتهى إليه- و هو فى الطواف- فدنا منه و سلّم.

فقال له أبو عبد اللّه: «ما اسمک؟» قال: عبد الملک.

قال: «فما کنیتک؟» قال: أبو عبد اللّه.

قال أبو عبد اللّه علیه السّلام: «فمن ذا الملک الذی أنت عبده، أمن ملوک الأرض أم من ملوک السماء؟ و أخبرنی عن ابنک أعبد إله السماء، أم عبد إله الأرض؟» فسکت.

فقال أبو عبد اللّه: «قل». فسکت.

فقال: «إذا فرغت من الطواف فأتنا». فلما فرغ أبو عبد اللّه علیه السّلام من الطواف أتاه الزندیق. فقعد بین یدیه، و نحن مجتمعون عنده، فقال أبو عبد اللّه علیه السّلام:

«أ تعلم أن للأرض تحتا و فوقا؟».

فقال: نعم.

قال: «فدخلت تحتها؟».

قال: لا.

قال: «فهل تدری ما تحتها؟».

---

(۱) علل الشرائع. و الإرشاد. و الاحتجاج.

قال: لا أدری، إلا أنی أظن أن لیس تحتها شیء.

فقال أبو عبد اللّه: «فالظن عجز ما لم تستیقن». ثم قال له: «فصعدت إلی السماء؟».

قال: لا.

قال: «أ فتدری ما فیها؟».

قال: لا.

قال: «فالعجب لک، لم تبلغ المشرق، و لم تبلغ المغرب، و لم تنزل تحت الأرض، و لم تصعد إلى السماء، و لم تخبر ما هناک فتعرف ما خلفهن، و أنت جاحد بما فيهن، و هل يحجد العاقل ما لا يعرف؟».

فقال الزنديق: ما كلمنى بهذا غيرک.

قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: «فأنت من ذلک فى شک، فلعل هو، و لعل ليس هو».

قال: و لعل ذلک.

فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: «أيها الرجل، ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، و لا حجة للجاهل على العالم. يا أخا أهل مصر، تفهّم عنّى، أ ما ترى الشمس و القمر و الليل و النهار يلجان و لا يستبقان، يذهبان و يرجعان، قد اضطرا ليس لهما مكان إلا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعان؟ و إن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهارا و النهار ليلا؟ اضطرا و اللّه يا أخا مصر، أن الذى تذهبون إليه و تظنون من الدهر، فإن كان هو يذهبهم فلم يردّهم؟ و إن كان يردّهم فلم يذهب بهم؟

أ ما ترى السماء مرفوعة، و الأرض موضوعة، لا تسقط السماء على الأرض، و لا تنحدر الأرض فوق ما تحتها، أمسكها و اللّه خالقها و مدبّرها».

قال: فآمن الزنديق على يدى أبى عبد اللّه. فقال عليه السّلام: «هشام خذه إليک و علّمه».

و من الزنادقة الذين تظهر أسماؤهم كثيرا غير ابن أبى العوجاء هو: أبو شاكر الديصانى. منها ما يرويه الطبرسى و الشيخ المفيد: أنه دخل مرة على أبى عبد اللّه و قال: يا جعفر بن محمد دلّنى على معبودى.

فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: «اجلس. من أقرب الدليل على ذلک ما أظهره. لک ثم دعى ببيضة، فوضعها فى راحته، فقال أبو عبد اللّه: «يا ديصانى، هذا حصن

مكنون، له جلد غليظ، و تحت الجلد الغليظ جلد رقيق، و تحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة، و فضة ذائبة. فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة، و لا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهى على حالها، لا يخرج منها خارج مصلح، فيخبر عن صلاحها، و لا يدخل إليها داخل مفسد فيخبر عن فسادها. لا يدرى للذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس. أ ترى له مدبرا؟».

قال: فأطرق مليا ثم قال: أشهد أن لا إله إلا اللّه، وحده لا شريک له، و أشهد أن محمدا عبده و رسوله، و أنک إمام و حجة من اللّه على خلقه، و أنا تائب مما كنت فيه.

و ما دمنا لا نقصد الإحاطة بكل ما جرى بين الإمام الصادق و بين حركة الزنادقة، فإنها من الكثرة و السعة بحيث يضيق بها ما خصصناه لموضوع البحث فى منهج الإمام الصادق و منشأ مدرسته الفكرية؛ فإننا نكتفى بهذا القدر و هى مبسوطة فى مظانها.

و يتجه منهج الإمام الصادق إلى المسألة الثانية بعد التوحيد و الاستدلال على وجود الخالق فى مواجهة شكوك الملحدين و أقوال الزنادقة، و هى مسألة الإمامة، أو السلطة الروحية، فيقول عليه السّلام:

«نحن نزعم أن الأرض لا تخلو من حجة، و لا تكون الحجة إلا من عقب الأنبياء. ما بعث اللّه نبيا قط من غير نسل الأنبياء، و ذلک أن اللّه شرع لبنى آدم طريقا منيرا، و أخرج من آدم نسلا طاهرا طيبا، أخرج منه الأنبياء و الرسل هم صفوة اللّه و خلّص الجوهر، طهروا فى الأصلاب، و حفظوا فى الأرحام، لم يصبهم سفاح الجاهلية و لا شاب أنسابهم، لأن اللّه عز و جل جعلهم فى موضع لا يكون أعلى درجة و شرفا منه. فمن كان خازن علم اللّه و أمين غيبه و مستودع سره و حجته على خلقه و ترجمانه و لسانه، لا يكون إلا بهذه الصفة. و الحجة لا يكون إلا من نسلهم، يقوم مقام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الخلق بالعلم الذى عنده و ورثه عن الرسول. إن جحده الناس سكت، و كان بقاء ما عليه الناس قليلا مما فى أيديهم من علم الرسول على اختلاف منهم فيه، قد أقاموا بينهم الرأى و القياس. و إنهم إن أقرّوا به و أطاعوه و أخذوا عنه، ظهر العدل و ذهب الاختلاف و التشاجر، و استوى الأمر و أبان الدين، و غلب على الشک اليقين. و لا يكاد أن يقرّ الناس به و لا يطيعوا له أو يحفظوا له بعد فقد الرسول.

و ما مضى رسول و لا نبى قط لم يختلف أمته من بعده. و إنما كان علة اختلافهم على الحجة و تركهم إياه».

قال: فما يصنع بالحجة إذا كان بهذه الصفة؟

قال: «قد يقتدى به و يخرج عنه الشىء بعد الشىء مكانه منفعة الخلق و صلاحهم، فإن أحدثوا فى دين اللّه شيئا أعلمهم، و إن زادوا فيه أخبرهم، و إن نفدوا منه شيئا أفادهم ..» ا ه.

تلک هى قاعدة المنهج و أصل الدعوة، و هى محفوفة بالصعاب و العوائق، و ما يسّره اللّه له من علم و زوّده به من رفعة و خصال، و ما اختصه به من مزايا الإمامة، كافية لقيام الحجة بالأمر و ظهورها فى الواقع، لكن سبيلها وعر، و قد امتلأت الآفاق بالأخطار و أحاطت الصعاب سيرة الإمام من كل الجهات، و لذلک فإن الرسالة بغاية الصعوبة، و قد أشار الإمام الصادق مرارا إلى المصاعب التى تكتنفه، و إلى ما يحيط بالدعوة. روى المفضل بن عمر أن الإمام الصادق قال:

«إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلّا: صدور مشرقة، و قلوب منيرة، و أفئدة سليمة، و أخلاق حسنة. لأن اللّه تعالى قد أخذ على محبّنا الميثاق، فمن وفى لنا؛ و فى اللّه له بالجنة، و من أبغضنا و لم يؤدّ إلينا حقّنا فهو فى النار، و إنّ عندنا سرّا من اللّه ما كلف اللّه أحدا غيرنا ذلک. ثم أمرنا بتبليغه، فبلّغناه، فلم نجد له أهلا و لا موضعا و لا حملة يحملونه، حتى خلق اللّه لذلک

قوما خلقوا من طينة محمد و ذريته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من نورهم، صنعهم اللّه بفضل صنع رحمة، فبلّغناهم عن اللّه ما أمرنا، فقبلوه و احتملوا ذلک و لم تضطرب قلوبهم، و مالت أرواحهم إلى معرفتنا و سرّنا، و البحث عن أمرنا.

و إن اللّه خلق أقواما للنار، و أمرنا أن نبلّغهم ذلک، فبلغناهم، فاشمأزّت قلوبهم منه، فنفزوا عنه، و ردّوه علينا، و لم يحتملوه، و كذّبوا به، و طبع اللّه على قلوبهم؛ ثم أطلق ألسنتهم ببعض الحق، فهم ينطقون به لفظا، و قلوبهم منكرة له ...» ا ه.

و ينيط عليه السّلام أغلب مناظراته و أقواله التى تنعكس عن منهجه بهذا المقصد، فعند ما يتحدث عليه السّلام عن التفاضل بالتقوى، و أن ولد آدم كلهم سواء فى الأصل، و يردّ على أقوال من يتحرّى مظانّ التدافع و شبه الوهن كما يوهمه الشيطان، يقول عليه السّلام:

«نعم، إنى وجدت أصل الخلق التراب، و الأب آدم، و الأم حواء، خلقهم إله

واحد، و هم عبيده. إن اللّه عز و جل اختار من ولد آدم أناسا طهّر ميلادهم، و طيّب أبدانهم، و حفظهم فى أصلاب الرجال و أرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء و الرسل فهم أزكى فروع آدم، فعل ذلک لأمر استحقوه من اللّه عز و جل، و لكن علم اللّه منهم حين ذرأهم أنهم يطيعونه و يعبدونه و لا يشركون به شيئا، فهؤلاء بالطاعة نالوا من اللّه الكرامة و المنزلة الرفيعة عنده، و هؤلاء الذين لهم الشرف و الفضل و الحسب. و ساير الناس سواء، إلا من أتقى اللّه أكرمه، و من أطاعه أحبه، و من أحبه لم يعذبه بالنار».

و توحى النظرة فى حدود مدرسة الإمام الصادق و ضروب مساعى أصحابه، باستقرار الأمر و استتباب الحال، لأن مظاهر العمل تجرى بنظام واسع حتى كأن الحكام لا وجود لهم. و ذلک ما يدعو إلى التأمل فى سرّ هذه القوة، و إلى التفكر- لمن يراودهم الشک- فى أصل هذه القدرة و قيامها كسلطة قواعدها فى القلوب و الصدور، و تعتمد تسديد اللّه لها و تأييده، و تضع سياساتها فى مجال الطاعة و العبودية للخالق الواحد. و قد تقدّم كثير من الموارد فى ما مضى من الكتاب عن الحالات التى كان سلاح الإمام الصادق فيها هو اللجوء إلى اللّه و التوكل عليه. و قد جعل الإمام الصادق ذلک من أهم مكوّنات منهجه، فيقول لبعض أصحابه: «إذا خفت امرأ يكون، أو حاجة تريدها، فابدأ باللّه عز و جل، فمجّده، واثن عليه كما هو أهله، و صلّ على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اسأل حاجتک، و تباک و لو مثل رأس الذباب، إن أبى عليه السّلام كان يقول:

إن أقرب ما يكون العبد من الربّ عز و جل و هو ساجد باک» «١».

و سئل عليه السّلام: ما العلّة التى من أجلها لا يصلى الرجل و هو متوشح فوق القميص؟ فقال عليه السّلام: «لعله التكبر فى موضع الاستكانة».

أما الغرض ذاته، فإن الإمام الصادق يصف واجباته بشرح يدخل فى عوالم العبودية للّه التى تؤدى إلى إشعار المؤمن بالقوة و التفوق فى وسط ذلک الخضمّ من الأحداث.

ففی الرکوع یقول علیه السّلام: «لا یرکع عبد اللّه رکوعا علی الحقیقة؛ إلّا زیّنه اللّه بنور بهائه، و أظلّه فی ظل کبریائه، و کساه کسوة أصفیائه. و الرکوع أول، و السجود ثان، فمن أتی بمعنی الأول صلح للثانی. و فی الرکوع أدب، و فی السجود قرب، و من لا یحسن الأدب لا یصلح للقرب، فارکع رکوع خاشع للّه عز و جل بقلبه، متذلل

---

(۱) جواهر الکلام ج ۱۱ ص ۷۳.

و جل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن علی ما یفوته من فائدة الراکعین».

و فی السجود یقول علیه السّلام:

«ما خسر و اللّه تعالی قط من أتی بحقیقة السجود و لو کان فی العمر مرة واحدة، و ما أفلح من خلا بربه فی مثل ذلک الحال شبیها بمخادع نفسه، غافل لاه عمّا أعدّ اللّه تعالی للساجدین من أنس العاجل و راحة الآجل، و لا بعد عن اللّه تعالی أبدا من أحسن تقرّبه فی السجود، و لا قرب إلیه أبدا من أساء أدبه و ضیّع حرمته بتعلیق قلبه بسواه فی حال سجوده. فاسجد سجود متواضع للّه ذلیل، علم أنه خلق من تراب یطأه الخلق، و أنه رکّب من نطفة یستقذرها کل أحد، و کوّن و لم یکن. و قد جعل اللّه معنی السجود سبب التقرب إلیه بالقلب و السرّ و الروح، فمن قرب منه بعد من غیره. أ لا تری فی الظاهر أنه لا یستوی حال السجود إلا بالتواری عن جمیع الأشیاء، و الاحتجاب عن کل ما تراه العیون. کذلک أراد اللّه تعالی أمر الباطن، فمن کان قلبه متعلقا فی صلاته بشیء دون اللّه فهو قریب من ذلک الشیء، بعید عن حقیقة ما أراد اللّه منه فی صلاته.

قال اللّه تعالی: ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَیْنِ فِی جَوْفِهِ و قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «قال اللّه عز و جل ما اطّلع علی قلب عبد فأعلم فیه حبّ الإخلاص لطاعتی لوجهی و ابتغاء مرضاتی، إلّا تولّیت تقویمه و سیاسته. و من اشتغل فی صلاته بغیری فهو من المستهزئین بنفسه، و اسمه مکتوب فی دیوان الخاسرین».

أما التشهد فی الصلاة فیصفه علیه السّلام:

«التشهد ثناء علی اللّه، فکن عبدا له فی السرّ، خاضعا له فی الفعل، کما أنک عبد له فی القول و الدعوی. و صل صدق لسانک بصفاء صدق سرّک، فإنه خلقک عبدا، و أمرک أن تعبده بقلبک و لسانک و جوارحک، و أن تحقق عبودیتک له و ربوبیته لک، و تعلم أن نواصی الخلق بیده، فلیس لهم نفس و لا لحظة إلا بقدرته و مشیّته، و هم عاجزون عن إتیان أقل شیء فی مملکته إلا بإذنه و إرادته. قال اللّه عز و جل:

وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ ما یَشاءُ وَ یَخْتارُ ما کانَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ فکن للّه عبدا شاکرا بالقول و الدعوی، و صل صدق لسانک بصفاء سرّک، فإنه خلقک، فعزّ و جلّ أن تکون إرادة و مشیة لأحد إلا بسابق إرادته و مشیته، فاستعمل

العبودية فى الرضا بحكمته، و بالعبادة فى أداء أوامره. و قد أمرک بالصلاة على حبيبه محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأوصل

ص: ۲۹۴

صلاته بصلاته، و طاعته بطاعته، و شهادته بشهادته. و انظر ألّا تفوتک بركات معرفة، حرمته فتحرم عن فائدة صلاته. و أمره بالاستغفار لک و الشفاعة فيک إن أتيت بالواجب فى الأمر و النهى و السنن و الآداب، و تعلم جليل مرتبته عند اللّه عز و جل».

و قبل أن نأتى إلى التسليم أو استقبال القبلة، فإن ما يطلع عليه المؤمن فى عالم العبودية من وجوه الحرية و مظاهر العزّة و أسباب القوة، و ما يراه فى دنيا الطاعة من أشكال النفع و عوامل السيادة، و بواسطة بيان الإمام الصادق و بنائه اللغوى و صياغته البلاغية، يلمس المسلم فى ظل الظرف أن عالم الإمامة و منهج الحجة هو الطريق إلى الصميم و الغور، و أن عالم السلطان و سياسة خلفاء الزمان هو فى الشكل و المظهر، و الأول فيه من القوة و المنعة ما يكسر السيوف، و يبطل مكايد الحكام، لأنه متصل باللّه و متعلق بهداه.

و لهذا رأينا الإمام الصادق- كما فى رواية عمّار الساباطى- ينهى أن يتوشّح الإمام. و فى رواية أخرى عن الهيثم بن واقد أن الإمام قال: «إنما كره التوشّح فوق القميص لأنه من فعل الجبابرة».

و أى مؤمن مسلم يستغنى على مرّ الدهور عن أضواء الصادق عليه السّلام؟ و هو يقود الألباب، و يوجه النفوس إلى عوالم الإسلام و روحانية الرسالة المحمدية التى استملى منها قواعد منهجه، و استمد من بهائها لوائح نهجه. و ما أوردناه متعلق بالأجزاء القليلة التى اخترناها، أما غيرها من أقوال الإمام الصادق فهى من السعة و الكثرة بحيث قامت عليها أصول كتب الفقه الشيعى، و أغنت مصنّفات علمائهم عبر المئات من السنين، و ضمّت أبواب الصلاة بيان علل الأركان و الركعات و الأحكام المتعلقة بها، و ما إليها من مستحبات و مبطلات، و كافة المسائل المتعلقة بها مما يحمل المسلم إلى بحر زخّار بالعلم و الهداية.

فى التسليم يقول الإمام الصادق عليه السّلام:

«معنى التسليم فى دبر كل صلاة: الأمان، أى من أتى أمر اللّه و سنّة نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاضعا له خاشعا منه؛ فله الأمان من بلاء الدنيا، و البراءة من عذاب الآخرة. و السّلام اسم من أسماء اللّه تعالى، أودعه خلقه ليستعملوا معناه فى المعاملات و الأمانات، و تصديق مصاحبتهم فيما بينهم، و صحة معاشرتهم. فإن أردت أن تضع السّلام

ص: ۲۹۵

موضعه، و تؤدى معناه، فاتق اللّه تعالى ليسلم منک دينک و قلبک و عقلک، ألّا تدنسها بظلمة المعاصى. و لتسلم منک حفظتک ألا تبرمهم و تملّهم و توحشهم منک بسوء معاملتک معهم، ثم مع صديقک، ثم مع عدوک. فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب

إليه فالأبعد أولى، و من لا يضع السّلام مواضعه فلا سلام و لا إسلام و لا تسليم، و كان كاذبا فى سلامه و إن أفشاه فى الخلق».

أما الاستقبال، فإن الإمام الصادق يجعله خروجا من مشاغل الدنيا و همومها، و تطلّعا إلى عالم اللّه: «إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا و ما فيها، و الخلق و ما هم فيه، و استفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن اللّه تعالى، و عاين بسرّك عظمة اللّه عز و جل، و اذكر وقوفك بين يديه، قال اللّه تعالى: هُنالِکَ تَبْلُوا کُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ وقف على قدم الخوف و الرجاء».

إذا من المكوّنات الأساسية للمدرسة و المنهج هو العمل على الطاعة، و الدخول إلى عالم العبودية المطلقة للّه، و فى ذلک سرّ هذا التكامل فى المنهج و القوة فى الموقف إذا نظرت إلى ذلک العصر بنظرة العموم، من حيث أن الدنيا موضع ابتلاء لامتلائها بالمفاسد و الأهواء التى لها سلطان على الأنفس فى كل الأحوال، إلّا من رحم اللّه، فقاده إلى الإيمان و هداه إلى الحجة. أما إذا نظرت إلى العصر بخصائصه و أحواله، فهو ملئ بالأحداث كما رأيت، فإن وضعنا مدرسة الإمام الصادق وسط هذه الأحداث، وجدنا أن المدرسة فى معركة لا تهدأ، و جهاد لا يفتر. و قد جلبت شهرة الإمام الصادق و شيوع ذكره أفرادا من الناس لهم أغراض مختلفة، فمنهم الباحث عن الحق الذى يرجوه لشفاء نفسه مما ألم بها لتعرّضها إلى الأفكار و الأقوال التى يموج بها المجتمع، و منهم المتبحّر فى علوم الكلام و فنون الفكر و مذاهب الأولين، و منهم الملحد الزنديق، إلى غيرهم من الأصناف. و الكثير منهم يتّصل بفرقة و ينتمى إلى مذهب، فالحرورية و غيرها ما زالت فى ثنايا المجتمع تعمل بفسادها، و العثمانية و نحوها موغلة فى جسم الأمة بعنادها، و المعتزلة و أصنافها متسابقة فى المضمار ساعية إلى الانتصار، و الجبرية و سلطانها تؤثر فى النفوس بأفكارها.

و قد مرّ بنا ذكر أغلبها فى معرض أقوال الإمام الصادق و أجوبته، أو مناظرات أصحابه، و حصرنا علاقة الإمام الصادق بالمعتزلة فى أجواء هذا العصر بالجانب الذى يتعلق بموقف الإمام الصادق من الحكام و الظلم كما سيأتى. أما أقوالهم الأخرى

و أهمها: أن الإنسان يخلق أعماله، و أن ليس للّه فى ذلک صنع أو تقدير. و يقابلهم الجبرية الذين ينفون قدرة الإنسان، و يضيفون الفعل إلى اللّه حقيقة و إضافة.

ففى وسط احتدام الجدل فى ذلک، و تحكّم العناد و الانفعال، قال الإمام الصادق مقالة الحق التى تقوم على حقائق التنزيل و دلائل الواقع، فقال عليه السّلام: «لا جبر و لا تفويض. لأن اللّه أعدل من أن يجبرهم على المعاصى ثم يعذّبهم عليها».

و كان ذلک فى مبدأ ظهور الجدل فى هذه المسألة، و بقى قوله عليه السّلام قاعدة ثابتة و عقيدة راسخة. فالإمام على بن موسى الرضا عند ما يسأل عن قول جدّه الصادق عليه السّلام و ما معناه؟ يقول الرضا: «من زعم أن اللّه عزّ و جل فعل أفعالنا، ثم يعذبنا عليها؛ فقد قال بالجبر. و من زعم أن اللّه عزّ و جل فوّض أمر الخلق و الرزق إلى حججه؛ فقد قال بالتفويض. فالقائل بالجبر كافر، و القائل بالتفويض مشرک» «۱».

و القصد أن تلک الفترة التی عاشها الإمام الصادق شهدت مقالات و اعتقادات و آراء شتی وجدت طریقها إلی عقول الناس، و تباینت آثارها، و اختلف أثرها. و من الحق فإن العنایة الإلهیة فی توجیه الإمامة و نهوض الإمام الصادق بأعباء مسئولیاتها قد حفظ تماسک الأمة و بقاء معتقداتها الأصلیة، و لا یمکن أن نتصوّر شخصا أو جهات متعددة- و إن تظاهرت و اتحدت- بقادرة علی القیام بمثل هذه المهمة، و مواجهة ما یجری علی الساحة و ما یزرع فیها من أفکار، غیر من یشرق بنور النبوة و یفرغ من معین حکمتها عالما بأسرار الملة، عارفا بدقائق الحکمة الإلهیة، محیطا بتاریخ الشرائع و الأدیان و الأمم کالإمام الصادق علیه السّلام. فتجد فی کل رأی حجة، و فی کل إجابة له مستند یناسب القول و یدعمه.

فعند ما یسأله أعداء الإسلام: کیف یجیء من لا شیء شیء؟ یقول علیه السّلام:

«إن الأشیاء لا تخلو إما أن تکون خلقت من شیء أو من غیر شیء، فإن کان خلقت من شیء کان معه، فإن ذلک الشیء قدیم، و القدیم لا یکون حدیثا، و لا یفنی و لا یتغیّر. و لا یخلو ذلک الشیء من أن یکون جوهرا واحدا و لونا واحدا. فمن أین جاءت هذه الألوان المختلفة و الجواهر الکثیرة الموجودة فی هذا العالم من ضروب شتی؟

و من أین جاء الموت إن کان الشیء الذی أنشئت منه الأشیاء حیا؟ و من أین جاءت

---

(۱) روضة الواعظین.

الحیاة إن کان ذلک الشیء میتا؟ و لا یجوز أن یکون من حی و میت قدیمین لم یزالا، لأن الحی لا یحیی منه میت و هو لم یزل حیا. و لا یجوز أیضا أن یکون المیت قدیما لم یزل لما هو به من الموت، لأن المیت لا قدرة له و لا بقاء».

و فی مورد الردّ علی القول بأن الأشیاء أزلیة. قال علیه السّلام:

«هذه مقالة قوم جحدوا مدبّر الأشیاء، فکذّبوا الرسل و مقالتهم، و الأنبیاء و ما أنبئوا عنه، و سمّوا کتبهم أساطیر، و وضعوا لأنفسهم دینا بآرائهم و استحسانهم. إن الأشیاء تدل علی حدوثها: من دوران الفلک بما فیه، و هی سبعة أفلاک. و تحرّک الأرض و من علیها، و انقلاب الأزمنة، و اختلاف الوقت، و الحوادث التی تحدث فی العالم: من زیادة و نقصان و موت و بلی، و اضطرار النفس إلی الإقرار بأن لها صانعا و مدبّرا. أ لا تری الحلو یصیر حامضا، و العذب مرّا، و الجدید بالیا، و کلّ إلی تغیر و فناء» «۱».

و نورد هنا أمثلة بسیطة للإشارة فحسب و لیست للاستقصاء و الإحاطة لیحصل للقارئ ما یومیء إلی أغوار العلوم التی قامت علیها شخصیة الإمام الصادق علیه السّلام لأن الإحاطة بالجانب العلمی من شخصیته علیه السّلام و آثاره فی منهجه، أکبر من اختصاص فصل من الفصول، بل هو أکبر مما علیه وسع الطاقة.

فانظر إلى قوله عليه السّلام: «إنى رأيت الرجل الماهر فى طبّه إذا سألته لم يقف على حدود نفسه، و تأليف بدنه، و تركيب أعضائه، و مجرى الأغذية فى جوارحه، و مخرج نفسه، و حركة لسانه، و مستقرّ كلامه، و نور بصره، و انتشار ذكره، و اختلاف شهواته، و انسكاب عبرته، و مجمع سمعه، و موضع عقله، و مسكن روحه، و مخرج عطسته، و هيج غمومه، و أسباب سروره، و علة ما حدث فيه من بكم و صمم و غير ذلک. لم يكن فى ذلک أكثر من أقاويل استحسنوها، و علل فيما بينهم جوّزوها».

و لكنه عليه السّلام يحتجّ بعلمه بتأليف الأبدان و حكمة الخلق فى أمور الفقه بقصد التنبيه على تجنّب القول فى الدين بالرأى. و يصرّح أن علمه أخبره به أبوه عن جدّه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إن اللّه تعالى بمنّه و فضله جعل لابن آدم الملوحة فى العينين

---

(١) الاحتجاج للطبرسى.

لأنهما شحمتان، و لو لا ذلک لذابتا. و جعل المرارة فى الأذنين من الدواب، فإن دخلت دابة و التمست الدماغ، فإذا ذاقت المرارة التمست الخروج. و جعل الحرارة فى المنخرين يستنشق بهما الريح، و لو لا ذلک لأنتن الدماغ. و جعل العذوبة فى الشفتين يجد بهما استطعام كل شىء، و يسمع الناس بهما حلاوة منطقه».

و تكشف الأسئلة التى توجّه إليه عن نمط من الفكر، متأثر بنتائج الاطلاع على مدارس القدماء و فلسفة الأولين، و هم فى تردّدهم و قصدهم الإمام الصادق كانوا يستشعرون ضعف أقوالهم و بطلان حججهم، فيزدادون إلحافا.

روى أن المفضّل لما سمع من ابن أبى العوجاء بعض ما رشح منه من الكفر و الإلحاد، لم يملک غضبه فقال: يا عدو اللّه، ألحدت فى دين اللّه و أنكرت البارى ...

قال له ابن أبى العوجاء: يا هذا، إن كنت من أهل الكلام كلّمناک، فإن ثبتت لک الحجة تبعناک. و إن لم تكن منهم فلا كلام لک، و إن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا و لا بمثل ذلک يجادلنا. و لقد سمع من كلامنا أكثر ما سمعت، فما أفحش فى خطابنا، و إنه الحليم الرزين العاقل الرصين، لا يعتريه خرق و لا طيش و لا نزق، يسمع كلامنا و يصغى إلينا، و يستعرف حجّتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، و ظننا أننا قد قطعناه، أدحض حجّتنا بكلام يسير و خطاب قصير، يلزمنا الحجة، و يقطع العذر، و لا نستطيع لجوابه ردا.

سألوا الإمام الصادق: فيم استحق الطفل الصغير ما يصيبه من الأوجاع و الأمراض صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلا ذنب عمله و لا جرم سلف منه؟

قال عليه السّلام: «إن المرض على وجوه شتى: مرض بلوى، و مرض عقوبة، و مرض جعل للفناء. و أنت تزعم أن ذلک من أغذية ردية و أشربة و بيّة، أو من علة كانت بأمه. و تزعم أن من أحسن السياسة لبدنه، و أجمل النظر فى أحوال نفسه، و عرف

الضارّ مما يأكل من النافع لم يمرض. و تميل فى قولک إلى من يزعم: أنه لا يكون المرض و الموت إلا من المطعم و المشرب؟ قد مات أرسطوطاليس معلم الأطباء، و أفلاطون رئيس الحكماء، و جالينوس شاخ و دقّ بصره، و ما دفع الموت حين نزل بساحته، و لم يألوا حفظ أنفسهم و النظر لما يوافقها. كم مريضا زاده المعالج

ص: ٢٩٩

سقما، و كم من طبيب عالم، و بصير بالأدواء و الأدوية ماهر مات، و عاش جاهل بالطب بعده زمانا، فلا ذاک نفعه علمه بطبّه عند انقطاع مدته و حضور أجله، و لا هذا ضرّه الجهل بالطب مع بقاء المدة و تأخر الأجل».

ثم قال عليه السّلام: «إن أكثر الأطباء قالوا: إن علم الطب لم تعرفه الأنبياء، فما نصنع على قياس قولهم بعلم زعموا ليس تعرفه الأنبياء الذين كانوا حجج اللّه على خلقه و أمناءه فى أرضه و خزّان علمه، و ورثة حكمته، و الإدلاء عليه، و الدعاة إلى طاعته. ثم إنى وجدت أن أكثرهم يتنكب فى مذهبه سبل الأنبياء، و يكذّب الكتب المنزلة عليهم من اللّه تبارک و تعالى. فهذا الذى أزهدنى فى طلبه و حامليه» ... ا ه.

و يظهر لنا من أجوبة الإمام الصادق عليه السّلام و مناظراته، أن المسائل التى احتوتها لم تترک ضربا من التساؤل و التفكر يتعلق بعلم أو تاريخ أو دين أو فقه إلّا و أشبعته إيضاحا و بيانا، و يجرى الكلام فى منهج يعتبر القصد و يراعى الغرض، لأن طريقة الاحتجاج و الردّ فى منهج الإمام الصادق هى غير طريقة الإرشاد و النصح و التعليم، و علامات كل منهما واضحة.

روى محمد بن مسلم و الحلبى عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام فى قول اللّه عز و جل: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِ فقال: «إن اللّه عز و جل اشترط على الناس شرطا، و شرط لهم شرطا، فمن وفى له وفى اللّه له». فقالا له: فما الذى اشترط عليهم، و ما الذى شرط لهم؟ فقال:

«أما الذى اشترط عليهم، فإنه قال الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث و لا فسوق و لا جدال فى الحج. و أما الذى اشترط لهم، فإنه قال: فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، و من تأخر فلا إثم عليه لمن أتقى. فقال: يرجع و لا ذنب له».

فقالا: أ رأيت من أبتلى بالفسوق ما عليه؟ قال: «لم يجعل اللّه عز و جل له حدا، يستغفر اللّه و يلبى». فقالا: فمن أبتلى بالجدال فما عليه؟ فقال: «إذا جادل فوق مرتين، فعلى المصيب دم يهريقه شاة و على المخطئ بقرة» ا ه.

و حين يتدرج الزنادقة و الملحدون فى محاورته، و يسأله المشككون و الكفار بكل ما يعنّ لهم، ترى جوابه عليه السّلام بشىء من الإيجاز المذهل الذى يجمع أطراف المعرفة و يضمّ الأدلة الشافية.

ص: ٣٠٠

فمن جملة حوار طويل. يسأل عليه السّلام: فما قصة مانى؟

و يجيب عليه السّلام: «متفحّص أخذ بعض المجوسية فشابها ببعض النصرانية، فأخطأ الملّتين، و لم يصب مذهبا واحدا منهما، و زعم أن العالم دبّر من إلهين نور و ظلمة، و إن النور فى حصار من الظلمة على ما حكينا منه، فكذّبته النصارى، و قبلته المجوس».

قال: فأخبرنى عن المجوس، أ فبعث اللّه إليهم نبيا؟ فإنى أجد لهم كتبا محكمة و مواعظ بليغة، و أمثالا شافية، يقرّون بالثواب و العقاب، و لهم شرايع يعملون بها.

قال عليه السّلام: «ما من أمة إلا خلا فيها نذير. و قد بعث إليهم نبى بكتاب من عند اللّه فأنكروه و جحدوا كتابه».

قال: و من هو، فإن الناس يزعمون أنه خالد بن سنان؟

قال: «إن خالدا كان عربيا بدويا، ما كان نبيا، و إنما ذلک شيء يقوله الناس».

قال: أفزردشت؟

قال: «إن زردشت أتاهم بزمزمة، و ادعى النبوة، فآمن منهم قوم و جحده قوم، فأخرجوه، فأكلته السباع فى برية من الأرض».

قال: فأخبرنى عن المجوس، كانوا أقرب إلى الصواب فى دهرهم أم العرب؟

قال عليه السّلام: «العرب فى الجاهلية كانت أقرب إلى الدين الحنيفى من المجوس، و ذلک أن المجوس كفرت بكل الأنبياء و جحدت كتبهم و أنكرت براهينهم.

و لم تأخذ بشيء من سننهم و آثارهم. و إن كيخسرو- ملک المجوس فى الدهر الأول- قتل ثلاثمائة نبى، و كانت المجوس لا تغتسل من الجنابة، و العرب كانت تغتسل من الجنابة، و الاغتسال من خالص شرائع الحنيفية. و كانت المجوس لا تختن، و هو من سنن الأنبياء، و أول من فعل ذلک إبراهيم خليل اللّه، و كانت المجوس لا تغسل موتاها و لا تكفنها، و كانت العرب تفعل ذلک. و كانت المجوس ترمى الموتى فى الصحارى و النواويس، و العرب تواريها فى قبورها و تلحدها و كذلک السنّة على الرسل، إن أول من حفر له قبر آدم أبو البشر و ألحد له لحد. و كانت المجوس تأتى الأمهات و تنكح البنات و الأخوات، و حرمت ذلک العرب. و أنكرت المجوس بيت اللّه الحرام و سمّته

بيت الشيطان، و العرب كانت تحجّه و تعظّمه و تقول: بيت ربنا. و تقرّ بالتوراة و الإنجيل و تسأل أهل الكتب، و تأخذ. و كانت العرب فى كل الأسباب أقرب إلى الدين الحنيفى من المجوس ...».

قال: فإنهم احتجوا بإتيان الأخوات أنها سنّة آدم.

قال: «فما حجتهم فی إتیان البنات و الأمهات «۱»، و قد حرّم ذلک آدم، و کذلک نوح و إبراهیم و موسی و عیسی و سائر الأنبیاء و کل ما جاء عن اللّه عز و جل».

قال: و لم حرّم اللّه الخمر، و لا لذة أفضل منها؟

قال: «حرّمها لأنها أم الخبائث و أسّ کل شر، یأتی علی شاربها ساعة یسلب لبّه، و لا یعرف ربه، و لا یترک معصیة إلا رکبها، و لا حرمة إلا انتهکها، و لا رحما ماسة إلا قطعها، و لا فاحشة إلا أتاها. و السکران زمامه بید الشیطان إن أمره أن یسجد للأوثان سجد، و ینقاد حیثما قاده».

قال: فلم حرّم الدم المسفوح؟

قال: «لأنه یورث القساوة. و یسلب الفؤاد رحمته، و یعضّ البدن، و یغیر اللون، و أکثر ما یصیب الإنسان الجذام یکون من أکل الدم».

---

(۱) معلوم أن الإمام الصادق علیه السّلام ساق الزواج بالمحارم من البنات و الأمهات فی الاستدلال لیکون الردّ أشمل، فقد بیّن علیه السّلام خطأ القول بأن اللّه أوحی إلی آدم أن یزوج بناته بنیه، و روایة زرارة بن أعین أن الإمام الصادق سئل عن ذلک فأجاب:

«تعالی اللّه عن ذلک علوا کبیرا یقول من قال هذا: بأن اللّه عز و جل خلق صفوة خلقه و أحبائه و أنبیائه و رسله المؤمنین و المؤمنات و المسلمین و المسلمات من حرام، و لم یکن له من القدرة ما یخلقهم من حلال. و قد أخذ میثاقهم علی الحلال الطهر الطاهر الطیب. إن اللّه أمر القلم، فجری علی اللوح المحفوظ بما هو کائن إلی یوم القیامة قبل خلق آدم بألفی عام، و إن کتب اللّه کلها فیما جری فیها العلم فی کلها تحریم الإخوة مع ما حرم. لما قتل قابیل هابیل جزع آدم علی هابیل جزعا قطعه عن إتیان النساء، ثم تخلی ما به من الجزع، فغشی حواء فوهب اللّه له شیئا وحده و لیس معه ثانی. ثم ولد له من بعد شیت یافث لیس معه ثانی، فلما أدرکا و أراد اللّه عز و جل أن یبلغ بالنسل ما ترون، و أن یکون ما قد جری به القلم من تحریم ما حرّم اللّه عز و جل من الأخوات علی الإخوة أنزل بعد العصر فی یوم الخمیس حوراء من الجنة، فأمره اللّه عز و جل أن یزوجها من شیت، فزوجها منه. ثم أنزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنة، فأمره اللّه عز و جل أن یزوجها من یافث. فزوجها منه ...» الروایة.

قال: فالمیتة لم حرّمها؟

قال علیه السّلام: «فرقا بینها و بین ما یذکر اسم اللّه علیه، و المیتة قد جمد فیها الدم، و تراجع إلی بدنها، فلحمها ثقیل غیر مرىء، لأنها یؤکل لحمها بدمها.

و أخيرا فإن الإنسان يجد نفسه و هو يبحث فى منهج الإمام الصادق و مدرسته العلمية عاجزا عن تخيّل حدّ يعتقد أن الوقوف عنده يكون ختاما مناسبا لما بدأه، لأن شخصية كالإمام الصادق، لا يفى الكلام على نهجها العلمى و ما تركته من مآثر مثل هذا الجهد المتواضع.

ص: ٣٠٣

الإمام الصادق و موقفه من الحكام الظالمين

وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ [هود: ١١٣].

وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ [المائدة: ۴۵].

من أبرز سمات تاريخ أهل البيت، و أظهر خصائص سيرهم، هو النهى عن الظلم و محاربة الظالمين. و قد قام رجال أهل البيت النبوى بما يجب عليهم من نصرة العدل و الوقوف بوجه الطغاة، و كانت مواقفهم كما تقتضيه المصلحة الدينية و تحتمه ضرورات الرسالة و الدعوة.

كانوا عليهم السّلام يعظمون على الإنسان ارتكاب العدوان على الغير و ظلم الناس، فهذا إمام أهل العدل أمير المؤمنين عليه السّلام يقول: «و اللّه لئن أبيت على حسک السعدان مسهدا، أو أجرّ فى الإغلال مصفدا؛ أحبّ إلىّ من أن ألقى اللّه و رسوله ظالما لبعض العباد و غاصبا لشىء من الحطام».

و قد اتفقت الشرائع و تطابقت الأديان كما تسالمت العقول على قبح الظلم، فسعى سيد الخلق و خاتم النبيين محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى إرساء قواعد العدل فى حياته، و تأكيد مبادئ المساواة على عهده، ثم وضع الناس فى صورة ما ستكون عليه الحال و ما ستؤول إليه. فعن كعب بن عجرة قال: قال لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أعيذک باللّه يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدى، من غشى أبوابهم و صدّقهم فى كذبهم، و أعانهم على ظلمهم فليس منى و لست منه، و لا يرد علىّ الحوض. و من لم يغش أبوابهم و لم يصدّقهم فى كذبهم، و لم يعنهم على ظلمهم فهو منى و أنا منه، و سيرد علىّ الحوض» «١».

---

(١) تيسير الوصول للشيبانى ج ٢ ص ۴٠.

ص: ٣٠۴

و قد خرج الإمام أحمد و الترمذى و النسائى و ابن حيان فى صحيحه ذلک.

مرحلة الثورة و مرحلة الدعوة

: و قد كان من عظيم منزلة أهل البيت عند اللّه و خطورة شأنهم أن يكونوا مناط الرسالة و وسيلة استمرار الدعوة، فكانت الإمامة مشتملة على صفات العصمة التى تفيض بنور من الجلالة و بسلطة من النبوة حتى تكون الدعوة فى حفظ و تبقى فى حرز، و للأئمة من أهل البيت أدوارهم و مهمّاتهم التى ينهضون بها فى كل مرحلة، فكان صلح الحسن حماية للأمة، بعد ما أظهرت الوقائع أن سياسة الختل و حكم الطلقاء هيمنا على الناس و أفسدا النفوس، و أن معسكر العراق غلبت عليه أهواء أهل النفوس المريضة و الهمم الضعيفة، و بات المخلصون قلة لا يرجى بهم نصر، فهادن الحسن بشروط معروفة، و استقبلها معاوية بنيّة العذر و الخيانة.

ثم كانت ثورة الإباء و نهضة الإيمان على يد أبى الشهداء الإمام الحسين، التى قامت منذ ساعة خروج الحسين من المدينة على بيّنة كاملة و صورة واضحة من التفاصيل و المجريات، فلا بد من تلك الدماء و التضحيات للوقوف بوجه الانحراف و الردّة و ترسيخ مبادئ العقيدة فى النفوس، و قد كانت الجولة الثانية بين الوثنية التى اضطرت إلى الإسلام لتسلم، و بين رسالة محمد، و كان من نتائج هذه الجولة أن تسفك دماء أهل بيت محمد، و تسبى نساؤه و ذراريه، و ترتكب أمية تلك المجزرة، و كان ذلك كله وفق تخطيط السماء لمسيرة البشرية و سلسلة الرسل و الأنبياء و الأوصياء عبر التاريخ.

روى أحمد، و أخرج البغوى فى معجم الصحابة، و الطبرانى عن أنس قال:

استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأذن له. و كان فى يوم أم سلمة، فقال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأم سلمة: «احفظى الباب لا يدخل علينا أحد، فبينما هى على الباب، إذ دخل عليه الحسين فاقتحم يتوثب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فجعل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يلثمه و يقبّله» فقال له الملك: أ تحبه؟ قال «نعم» قال: إن أمتك ستقتله، و إن شئت أريتك المكان الذى يقتل به. فأراه إيّاه، فجاء بطينة حمراء، فأخذتها أم سلمة فصرّتها فى خمارها.

قال ثابت: بلغنا أنها كربلاء «١».

---

(١) مسند أحمد ج ٢.

و أخرج الطبرانى عن أبى الطفيل قال: استأذن ملك القطر بأن يسلّم على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى بيت أم سلمة، فقال: «لا يدخل علينا أحد» فجاء الحسين فدخل، فقالت أم سلمة: هو الحسين. فقال: «دعيه» فجعل يعلو رقبة رسول اللّه و يعبث به، و الملك ينظر. فقال الملك: أ تحبه يا محمد؟ قال: «أى و اللّه إنى لأحبه» قال: أما أن أمتك ستقتله، و إن شئت أريتك المكان. فقام بيده فتناول كفا من تراب، فأخذت أم سلمة التراب، فصرّته فى خمارها، فكانوا يرون أن ذلك التراب من كربلاء «١».

و عن عبد اللّه بن نجى عن أبيه أنه سافر مع الإمام على- و كان صاحب مطهرته- فلما جاءوا نينوى و هو منطلق إلى صفين نادى على: «صبرا أبا عبد اللّه، صبرا أبا عبد اللّه لشط الفرات» قلت: و من ذا أبو عبد اللّه؟ قال الإمام: «دخلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عيناه تفيضان، فقلت: يا نبى اللّه، أغضبک أحد، ما شأن عينيک؟

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: بلى قام من عندى جبريل قبل، فحدثنى أن الحسين يقتل بشط الفرات، و قال: هل لک أن أشمّک من تربته؟ فقلت: نعم. فمدّ يده، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملک عينى أن فاضتا «٢»».

و لذلک ترى الحسين يجيب من يريده على العدول عن مواجهة بنى أمية بالقول:

«و مهما يقض اللّه يكن». فهو عليه السّلام يعلم رسالته كيف تكون و ما هو مقدم عليه، و لا بد من مقاومة الظلم، بعد أن أدى البغى على أبيه و أخيه عليهم السّلام إلى قوة غاشمة و سلطان جائر. فكان يردّ على ابن عباس: «لأن أقتل و اللّه بمكان كذا أحب إلىّ من أن استحل بمكة». و فى لفظ: «أحب إلىّ من أن يستحلّ بى حرم اللّه و رسوله» «٣».

و أتاه رجل من مشايخ العرب فقال له عليه السّلام: أنشدک اللّه تعالى إلا انصرفت، فو اللّه ما تقدم إلّا على الأسنّة و حدّ السيوف، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليک لو كانوا كفوک مئونة القتال و وطئوا لک الأمور، و قدمت من غير حرب كان ذلک رأيا، و أما على هذه الحالة التى ترى فلا أرى لک أن تفعل.

فقال له الحسين عليه السّلام: «لا يخفى علىّ شىء مما ذكرته، و لكنى صابر محتسب حتى يقضى اللّه أمرا كان مفعولا» «٤».

---

(١) الحبائک فى أخبار الملائک للسيوطى ص ۴۴ و ۴۵.

(٢) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ج ۶ ص ۴۰۱. و المعجم الكبير للطبرانى ج ٣ ص ١٠۶.

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ۶۵. و الكبير للطبرانى ج ٣ ص ١٩٩.

(۴) نور الأبصار للشبلنجىّ ص ١٢٩.

و قال الحسين عليه السّلام فى وصيته لأخيه محمد بن الحنفية:

«إنى لم أخرج أشرا و لا بطرا و لا مفسدا و لا ظالما، و إنما خرجت أطلب الإصلاح فى أمة جدّى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أريد أن آمر بالمعروف و أنهى عن المنكر، و أسير بسيرة جدّى محمد، و سيرة أبى على بن أبى طالب. فمن قبلنى بقبول الحق فاللّه أولى بالحق، و من ردّ علىّ هذا، صبرت حتى يقضى اللّه بينى و بين القوم بالحق و يحكم بينى و بينهم و هو خير الحاكمين» «١».

و يستشهد الحسين عليه السّلام هو و أصحابه، و تجرى تلک الفظائع، و يرتکب آل أبى سفيان قبائح لم تعهد حتى فى الجاهلية، و قد أحزنت قلوب أهل الكتاب، و توجّع لها أصحاب الشرائع و الملل الأخرى. و بثورة الطف حيل بين أمية و بين العودة بالحكم إلى الجاهلية و الارتداد بالأمة إلى الشرک، لأن مظاهر الفداء و صور البطولة و التضحية التى زخرت بها سيرة الإمام الحسين، و ظهرت ببهائها على أرض كربلاء بإزاء قوات الشرک و الضلالة جدّدت مسيرة الجهاد و أحيت فى النفوس روح الرسالة، و وضعت الأمة على طريق الهداية و الحق «٢».

الإمام زين العابدين

: و لننظر إلى نهاية المعركة بين الثورة و بين الظالمين، فإن أشكال الحقد التى انطوت عليها نفوس الظالمين و أعوانهم، و مشاعر الحقد و العداء التى تجسدت بتلک الفظائع و الانتهاكات. لا يمكن أن يقف أمامها مرض فتى للحسين و يمنعها من قتله.

فكل الأفعال تشهد بانعدام الذمة، و خلوّهم من الرحمة، و تجرّدهم من الأخلاق. فلم يسلم طفل الحسين الرضيع عبد اللّه، فقتلوه بسهم، و كان أبوه يطلب الماء له.

و تجرءوا بكل خسّة على انتهاک حرمة الخدور، فأفزعوا ربّات الحجال و الطهر و العفاف، و يمسک القلم هنا استعظاما.

أقول: نحن مع صفحة من صفحات العناية الربانية لتحفظ الإمام على بن الحسين و يخرج من المعركة، و هو مملوء بالحزن و الآلام، و ينجيه اللّه من المواقف الأخرى التى أعقبت المعركة. فقد أمر ابن زياد بقتل الإمام لو لا تدخل بطلة الطف

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمى.

(٢) انظر كتابنا: مع الحسين فى نهضته، بيروت ١٣٩۴ ه و فيه تبادلنا الأحداث بتبسيط و يسر.

العقيلة زينب و قالت له: «حسبک من دمائنا، أسألک باللّه إن قتلته إلا قتلتنى معه» فتركه «١».

و كان الإمام الحسين عليه السّلام قد أخبر بنجاة الإمام زين العابدين من مذبحة كربلاء، و برعاية اللّه لولده على من سيوف الأمويين و محاولاتهم حفظا لمقام الإمامة التى أعدّ لها و تهيأ و تأهب فى ظل السبط المنتجب. و قد ذكر الطبرى فى دلائل الإمامة كما فى رواية السيد ابن طاوس فى اللهوف إشارة الإمام الحسين إلى مصرع أصحابه، و أنه لا ينجو منهم إلا ولده على عليه السّلام «٢».

و فى رواية المقتل: أن الإمام الحسين منع زين العابدين من أن يشترک فى قتال الفجرة أعوان الأمويين و جنودهم، فقد حاول الإمام زين العابدين- لما رأى وحدة أبيه- أن يقاتل برغم مرضه، فمنعه الإمام الحسين رعاية لأمر اللّه فى بقاء الرسالة فى نسل

النبی المصطفی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فلا اعتبار لمحاولات الاعتذار التی سلکها بعض المؤرخین لتبریر تولی من أسهم فی جریمة قتل آل محمد و الأجهاز علی أبناء بیت النبوة إرضاء للحکام و عصبیة للإماء الذین ینتسب إلیهم قادة محاربی العترة الطاهرة و رسالتهم السماویة، فیتقولون أن عمر بن سعد قال یوم کربلاء: لا تعرضوا لهذا المریض «۳».

و سرعان ما تقلّد الإمام زین العابدین أعباء الإمامة، و نهض بمهمات الدعوة، فوقف بصلابة و هو فی بلاط أمیة و فی عاصمة ملکها. و به تبدأ مرحلة الدعوة فی ظل آثار ثورة أبیه الشهید، فالدماء التی أهرقت فی کربلاء سرت بأوصال التاریخ و شرایین الأیام، فإن بقی للأمویین الظالمین ذکر فهو؛ لا یمت للعقیدة بصلة، و إنما فی ظل الحکم و السلطان، و ما ینمو فی ضلالهما من المظالم و المفاسد. أما ثورة الحسین فهی إطار العقیدة الإسلامیة، و مدخل انتصار العقیدة فی النفوس فی ظل الإمامة و الولایة.

لما أراد یزید من الإمام زین العابدین أن یصعد المنبر و یتکلم بما یریده، قال یزید: أصعد المنبر فأعلم الناس حال الفتنة و ما رزق اللّه أمیر المؤمنین من الظفر. فقال الإمام علی زین العابدین: «ما أعرفنی بما ترید».

---

(۱) الطبقات الکبری ج ۵ ص ۲۱۲.

(۲) اللهوف ص ۲۶.

(۳) انظر سیر أعلام النبلاء للذهبی ج ۴ ص ۳۸۸.

فصعد المنبر، فحمد اللّه و أثنی علیه. و صلی علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثم قال: «أیها الناس من عرفنی فقد عرفنی، و من لم یعرفنی فأنا أعرّفه بنفسی. أنا ابن مکة و منی، أنا ابن المروة و الصفا، أنا ابن محمد المصطفی، أنا ابن من لا یخفی. أنا ابن من علا فاستعلا، فجاز سدرة المنتهی، فکان من ربّه قاب قوسین أو أدنی». فضج أهل الشام بالبکاء حتی خشی یزید أن یرحل من مقعده، فقال للمؤذن: أذّن. فلما قال المؤذن:

اللّه أکبر، اللّه أکبر. جلس علی بن الحسین علی المنبر. فقال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا اللّه و أشهد أن محمدا رسول اللّه. بکی الإمام زین العابدین علیه السّلام ثم التفت إلی یزید فقال:

«یا یزید هذا أبی، أم أبوک؟» قال: بل أبوک، فأنزل.

فنزل علیه السّلام فأخذ بناحیة باب المسجد، فلقیه مکحول- صاحب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- فقال:

کیف أمسیت یا ابن رسول اللّه؟

قال علیه السّلام: «أمسینا بینکم مثل بنی إسرائیل فی آل فرعون، یذبّحون أبنائهم و یستحیون نساءهم، و فی ذلکم بلاء من ربکم عظیم «۱»».

و فی أشهر الروایات، أن المنهال بن عمرو لقی الإمام زین العابدین فی دمشق فقال له: کیف أمسیت یا ابن رسول اللّه قال: «أمسینا کمثل بنی إسرائیل فی آل فرعون یذبّحون أبناءهم و یستحیون نسائهم. یا منهال أمست العرب تفتخر علی العجم بأن محمدا منها، و أمست قریش تفتخر علی سائر العرب بأن محمدا منها، و أمسینا معشر أهل بیته و نحن مقتولون مشرّدون، فإنا للّه و إنا إلیه راجعون مما أمسینا فیه» «۲».

هکذا کانت بدایة مسیرة الإمام زین العابدین، و هکذا کان بدء إمامته و منهج دعوته. و کانت فترة إمامته أربعا و ثلاثین سنة، أدرک الإمام الصادق سنوات منها.

قال الإمام الباقر علیه السّلام: «إن أبی علی بن الحسین علیه السّلام ما ذکر نعمة اللّه علیه إلّا سجد، و لا قرأ آیة من کتاب اللّه عز و جل فیها سجود إلا سجد، و لا دفع اللّه تعالی عنه سوءا یخشاه أو کید کاید إلا سجد، و لا فرغ من صلاة مفروضة إلا سجد،

---

(۱) الاحتجاج للطبرسی ج ۲ ص ۲۹.

(۲) مثیر الأحزان للشیخ ابن نما الحلی ص ۸۴ و اللهوف للسید ابن طاوس ص ۸۱.

و لا وفّق لإصلاح بین اثنین إلا سجد، و کان أثر السجود فی جمیع مواضع سجوده، فسمی السجّاد لذلک».

و عنه علیه السّلام أیضا قال: «کان لأبی علیه السّلام فی موضع سجوده آثار ناتئة، و کان یقطعها فی السنة مرتین فی کل مرة خمس ثفنات، فسمّی ذا الثفنات لذلک».

قال الزهری: ما رأیت قرشیا أفضل من علی بن الحسین. و قال: بلغنی أنه کان یصلی فی الیوم و اللیلة ألف رکعة إلی أن توفی، و سمّی زین العابدین لکثرة عبادته.

و کان الزهری إذا ذکر علی بن الحسین یبکی.

و سیأتی ذکر علاقة الزهری بالإمام زین العابدین، و قد انخرط الزهری فی حاشیة الملوک و التحق بالأمویین فی مقر ملکهم بالشام «۱».

و عن سفيان بن عيينة قال: حج زين العابدين، فلما أحرم اصفرّ لونه، و عرضت عليه الرعدة، و لم يستطع أن يلبّى، فسئل عنه؟ قال: «أخشى أن أقول: لبيک. فيقول:

لا لبيک» فلما لبّى غشى عليه، و سقط من راحلته، فلم يزل يعترضه ذلک حتى قضى حجّه «۲». قال رجل لسعيد بن المسيب: ما رأيت أحدا أورع من فلان. قال: فهل رأيت على بن الحسين؟ قال: لا. قال: ما رأيت أحدا أورع منه.

قال طاوس: سمعته و هو ساجد عنه الحجر يقول: «عبيدک بفنائک، سائلک بفنائک». قال طاوس: فو اللّه ما دعوت بها فى كرب إلا كشف عنى.

قال محمد بن إسحاق: كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون و من يعطيهم، فلما مات على بن الحسين فقدوا ذلک، فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم فى الليل بما يأتيهم به، و لما مات وجدوا فى ظهره و أكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل و المساكين فى الليل. و كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة و لا يدرون بذلک حتى مات «۳». ففقد أولئک ما كان يأتيهم من معاش، لذا كانت آثار جراب الدقيق على جسده الطاهر «۴».

و لا بد من القول أن الإمام زين العابدين يلقى ربه و على ظهره آثار تقواه

---

(۱) انظر الجزء الثانى من الكتاب.

(۲) ينابيع المودة. و تذكرة سبط ابن الجوزى.

(۳) البداية و النهاية ۹ ص ۱۰۵. و تذكرة سبط ابن الجوزى. و ينابيع المودة. و الإتحاف. و نور الأبصار.

(۴) صفة الصفوة ج ۲ ص ۵۴.

و صلاحه، كما يلقى ربه و على ظهره آثار مظلمته و جريمة بنى أمية، و كان مرأى آثار الجامعة فى عنقه عليه السّلام، و آثار جرح القيد فى ساقيه قد أبكى ولده الإمام الباقر لمّا وضعه على المغتسل. و كيف تندمل تلک الجراح و الأمويون على كراسى الحكم، و دستورهم ظلم أهل البيت؟ فعبد الملک بن مروان على نهج يزيد يحمل الإمام زين العابدين مقيدا من المدينة و يثقله حديدا «۱».

ينقل شيخنا المفيد رحمه اللّه فى الإرشاد و مصادر كثيرة أخرى قول الإمام زين العابدين: «أحبونا حبّ الإسلام، فما زال حبّكم لنا حتى صار شيئا علينا» «۲». و يأتى مجرّدا دون الإشارة إلى بواعث مثل هذا القول، و هى أن عصره عليه السّلام شهد بدايات ظهور أقوال الغلاة، و ما تحدّثنا عنه فى مشكلة الغلاة فى الأجزاء السابقة «۳» و المتعلق بالأفراد الذين كانت لهم علاقة

وصلة بالأئمة الأطهار، و سقطوا فى درک الغلو و الإساءة إلى أهل البيت، يتصل وجودهم بهذه الفترة، و قد عظم أمرهم و اشتد فى زمن الإمام الباقر و الصادق.

و تشعر الروايات الأخرى بردّ الإمام زين العابدين مزاعم هؤلاء و كفرهم، فيروى أنه قال لهم: «ما أجرأكم و أكذبكم على اللّه، نحن من صافى قومنا، فحسبنا أن نكون من صالحيهم». و من اللازم تقييدها بأسبابها، ليبطل تعميم الرواية لأغراض سيئة و خبيثة. و الرواية التى تطلق هى: أنه مرض عليه السّلام فدخل عليه جماعة من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعودونه، فقالوا: كيف أصبحت يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فدتک أنفسنا؟

قال «فى عافية، و اللّه المحمود على ذلک. فكيف أصبحتم أنتم جميعا؟» قالوا:

أصبحنا و اللّه يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم محبّين وادّين. فقال لهم عليه السّلام: «من أحبنا للّه أسكنه اللّه فى ظل ظليل يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، و من أحبنا يريد مكافأتنا كافأه اللّه عنا الجنة، و من أحبنا لغرض دنيا آتاه اللّه رزقه من حيث لا يحتسب» «۴».

و ليس من قصدنا التوسّع فى البحث عن حياة الإمام السجاد زين العابدين، و إنما الإشارة إلى ما يقتضيه المقام فى بيان مراحل عمل الإمامة و وجوه رسالتها، فكما أن

---

(۱) تذكرة سبط ابن الجوزى. و ينابيع المودة للقندوزى.

(۲) الإرشاد ص ۲۳۸. و راية ابن كثير عن يحيى بن سعيد: «حتى صار علينا عار ...»

(۳) انظر الجزء الثانى و الثالث عن الكتاب.

(۴) الفصول المهمة لابن الصباغ.

حياة الإمام زين العابدين تتصل بحياة عمّه الإمام الحسن، و حياة أبيه الإمام الحسين، كذلک فإن حياة الإمام الصادق عليه السّلام تتصل بحياة الإمام زين العابدين و حياة أبيه الإمام الباقر.

و نختار من أنوار سيرته و عبق ذكره هذه الآثار القليلة و هى غيض من فيض، لأن سيرته عليه السّلام و وقائع عصره حافلة بكل ما يعنى من الجلالة و العظمة، بحيث يكتشف الباحث أن أهل هذا البيت لهم دور بإزاء انجرار الناس إلى السلطان و التهافت على الدنيا، و أن ذلک الدور هو الذى أبقى على الأصول و القواعد الدينية و الشرعية.

لقد جسّد عليه السّلام وقع المأساة التى اجتازها فقال كلمته: «فقد الأحبة غربة» و كان صوته عليه السّلام يسمع فى جوف الليل و هو يقول: «أين الزاهدون فى الدنيا، الراغبون فى الآخرة».

و هو من خشية اللّه يمنع نفسه من ضرب ناقته، فقد روى أنه حج مرة فالتاءت الناقة عليه فى سيرها، فأشار إليها بالقضيب، ثم قال «آه لو لا القصاص» و ردّ يده عنها.

قال عليه السّلام مبيّنا ولايته الدينية و سلطته الروحية:

«نحن أئمة المسلمين و حجج اللّه على العالمين، و سادة المؤمنين و قادة الغرّ المحجلين، و موالى المؤمنين، و نحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، و نحن الذين بنا يمسك اللّه السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، و بنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، و بنا ينزل الغيث، و بنا ينشر الرحمة و يخرج بركات الأرض، و لو لا ما فى الأرض منّا لساخت بأهلها» «١».

ثم يقول عليه السّلام قولا لرجل يعيّن فيه مسلك الناس إلى نيل الولاية: «بلّغ شيعتنا أنّا لا نغنى عنهم من اللّه شيئا، و أن ولايتنا لا تنال إلا بالورع».

و يقول عليه السّلام لجابر الجعفى: «بلّغ شيعتى منّى السّلام، و أعلمهم أنه لا قرابة بيننا و بين اللّه عز و جل، و لا يتقرب إليه إلا بالطاعة. يا جابر، من أطاع اللّه و أحبنا فهو ولينا، و من عصى اللّه لم ينفعه حبنا، و من أحبنا و أحب عدوّنا فهو فى النار. يا جابر

---

(١) روضة الواعظين. و احتجاج الطبرسى.

من هذا الذى سأل اللّه تعالى فلم يعطه، و توكل عليه فلم يكفه، و وثق به فلم ينجه. يا جابر أنزل الدنيا منک كمنزل نزلته، فإن الدنيا للتحويل عنها، و هل الدنيا إلا دابة ركبتها فى منامک، فاستيقظت و أنت على فراشک؟ هى عند ذوى الألباب كفيء الظلال، لا إله إلا اللّه إعذار لأهل دعوة الإسلام، و الصلاة تثبيت للإخلاص و تنزيه عن الكبر، و الزكاة تزيد فى الرزق، و الصيام و الحج لتسكين القلوب، و القصاص و الحدود لحقن الدماء، فإن أهل البيت نظام الدين. جعلنا اللّه و إياكم من الذين يخشون ربهم بالغيب و هم من الساعة مشفقون».

و من أقواله ما يعتبر من أهم أركان دعوته و قواعد نهجه كقوله: «التارک للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كالنابذ كتاب اللّه وراء ظهره، إلّا أن يتّقى منهم تقاة» قالوا: و ما تقاة؟ قال: «يخاف جبارا عنيدا أن يسطو عليه و أن يطغى».

و روى الطبرانى عنه أنه قال عليه السّلام: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ليقم أهل الفضل. فيقوم ناس من الناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة. فتلقّاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: قبل الحساب؟ قالوا: نعم. قالوا:

من أنتم؟ قالوا نحن أهل الفضل. قالوا: و ما كان فضلكم؟ قالوا: كنّا إذا جهل علينا حلمنا، و إذا ظلمنا صبرنا، و إذا أسيء إلينا غفرنا. قالوا لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. ثم ينادى مناد: ليقم أهل الصبر، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة. فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلک فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: فما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة اللّه، و صبّرناها عن معصية اللّه، و صبّرناها على البلاء. فقالوا لهم: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين. ثم ينادى المنادى: ليقم جيران اللّه فى داره، فيقوم ناس من الناس و هم قليل، فيقال لهم:

انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلک، فيقولون: بم استحققتم مجاورة اللّه عز و جل فى داره؟ فيقولون: كنّا نتزاور فى اللّه و نتجالس فى اللّه و نتباذل فى اللّه عز و جل. فيقال لهم: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين» «١».

و إذا ما دخل الحرم كان عبيد بنى أمية يؤذونه. يذكر ابن سعد: كان الإمام زين العابدين يمشى إلى الحجار، و كان له منزل بمنى، و كان أهل الشام يؤذونه، فتحوّل

---

(١) البداية و النهاية.

إلى قرين الثعالب أو قريب من قرين الثعالب، و كان يركب. فإذا أتى منزله مشى إلى الجمار «١».

و لم تتمكن سياسة البغاة من الحدّ من أثر الإمام زين العابدين أو تأثيره فى النفوس، و لم يخف وجوده فى مواطن العلم و نبوغه فى حلقات الفقه و الحديث. فهو بما حباه اللّه و بما أورثه من وصاية و سداد لا يرقى إلى عتبة علمه أو درجة كماله أحد من أصحاب الفقه و الحديث و الفتوى و الدين. و كان الإمام زين العابدين- و هو فى دوائر التضييق التى يخلقها الحكام الأمويون- يتصدّى لدوره الإيمانى، و يدعو إلى إمامته فيقول: «فمن سلّم لنا سلم، و من اقتدى بنا هدى، و من يعمل بالقياس و الرأى هلک، و من وجد فى نفسه شيئا مما نقوله أو نقضى به حرجا، كفر بالذى أنزل السبع المثانى و القرآن العظيم».

و يبقى فى وسط مدينة جدّه و مهبط الوحى تنوشه سهام الأمويين و تنبحه كلابهم، فكان الإمام زين العابدين يذكر حال من مسخهم اللّه قردة من بنى إسرائيل و يحكى قصتهم، فلما بلغ آخرها قال: «إن اللّه تعالى مسخ أولئک القوم لاصطيادهم السمک، فكيف ترى عند اللّه عز و جل يكون حال من قتل أولاد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هتک حريمه؟

إن اللّه تعالى و إن لم يمسخهم فى الدنيا، فإن المعدّ لهم من عذاب الآخرة أضعاف أضعاف عذاب المسخ». فقيل له: يا ابن رسول اللّه، فإنّا قد سمعنا منک هذا الحديث.

فقال لنا بعض النصّاب: فإن كان قتل الحسين باطلا فهو أعظم عند اللّه من صيد السمک فی السبت، أ فما کان اللّه غضب علی قاتليه کما غضب علی صيادی السمک؟

قال الإمام زين العابدين عليه السّلام: «قل لهؤلاء النصّاب: فإن کان إبليس معاصيه أعظم من معاصی من کفر بإغوائه، فأهلک اللّه من شاء منهم کقوم نوح و فرعون و لم يهلک إبليس، و هو أولی بالهلاک، فما باله أهلک هؤلاء الذين قصروا عن إبليس فی عمل الموبقات، و أمهل إبليس مع إيثاره لکشف المحرمات، أ ما کان ربنا عز و جل حکيما تدبيره حکمة فيمن أهلک و فيمن استبقی؟ فکذلک هؤلاء الصائدون فی السبت، و هؤلاء القاتلون للحسين. يفعل فی الفريقين ما يعلم، أنه أولی بالصواب و الحکمة، لا يسأل عمّا يفعل و عباده يسألون».

---

(۱) الطبقات الکبری ج ۵ ص ۲۱۹.

کما واجه عليه السّلام أنصار البغاة و أتباع الطلقاء، فقد جاءه رجل من أهل البصرة و قال له: يا علی بن الحسين، إن جدّک علی بن أبی طالب قتل المؤمنين. فهملت عينا علی بن الحسين دموعا حتی امتلأت کفّه منها. ثم ضرب بها علی الحصی.

ثم قال:

«يا أخا أهل البصرة، لا و اللّه ما قتل علیّ مؤمنا، و لا قتل مسلما، و ما أسلم القوم و لکن استسلموا و کتموا الکفر و أظهروا الإسلام، فلما وجدوا علی الکفر أعوانا أظهروه، و قد علمت صاحبة الجدب و المستحفظون من آل محمد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أن أصحاب الجمل و أصحاب صفين و أصحاب النهروان لعنوا علی لسان النبی الأمی و قد خاب من افتری».

فقال شيخ من أهل الکوفة: يا علی بن الحسين، إن جدّک کان يقول: «إخواننا بغوا علينا».

فقال الإمام زين العابدين عليه السّلام: «أ ما تقرأ کتاب اللّه وَ إِلی عادٍ أَخاهُمْ هُوداً فهم مثلهم، أنجی اللّه عز و جل هودا و الذين معه و أهلک عادا بالريح العقيم».

و قد تعرّض له البعض بالإساءة فأغلظوا له القول و أساءوا معه الأدب، فکان ردّه عليهم آية من آيات خلقه و محمود صفاته.

و لم تنل من هيبته و لا مکانته جميع الأفعال التی اعترضته، فقد کان الإمام علی بالمدينة محترما معظما «۱» و کان الناس يقبّلون يده «۲».

فهو ممن من اللّه عليهم بالهداية التامة و العصمة الخالصة، و جعلهم فی الأرض أصحاب الولاية و حملة الرسالة و حماة الشريعة، إليهم الأمر، و فيهم العلم و النبوة، و قد حفظ اللّه الإمام زين العابدين من مکائد البغاة و سيف يزيد بن معاوية إبقاء

لنور الرسالة و صيانة للشريعة فى عهد تغلّب فيه الطلقاء، و تحكّم فيه الفسّاق، فترك الإمام زين العابدين و هو يكابد النكبة و يواجه أقسى محنة أثارا كبرى فى السلوك و الفكر فى العمل و الذكر.

---

(١) ابن كثير ج ٩ ص ١٠٤.

(٢) القعد الفريد ج ١ ص ١٨٠.

كان الإمام على بن الحسين عليه السّلام يتّصف بصفات الإمامة و يتحلّى بخلق النبوة. إذا مشى لا تجاوز يده فخذه و لا يخطر بيده «١» و يخشى أن يؤذى أى مخلوق فى زمن ديست فيه المقدسات و انتهكت الحرمات و أسفرت الأيام عن أحقاد جاهلية و عودة إلى الشرك خمدت زمنا ثم هبّت و هاجت تكالبا على الدنيا و لجوءا إلى القوة و إسرافا فى الجبرية و التسلط، فكان عليه السّلام إذا سار فى المدينة على بغلته لم يقل لأحد: الطريق. و يقول: «هو مشترک، ليس لى أن أنحّى عنه أحدا».

و كان عليه السّلام مهتما بمصالح الأمة و دفع شرور الحكام عنها، فكان يفكر بأحوال الناس أيام أحداث الحرم و حركة ابن الزبير «٢».

و لما قامت ثورة المدينة المنورة ضد الأمويين، و أخرج أهلها عامل يزيد عثمان بن محمد بن أبى سفيان، و أظهر و أخلع يزيد بن معاوية سنة ثلاث و ستين، طلب مروان بن الحكم من الإمام زين العابدين أن يترک نساءه عنده، و قد كان مروان قد كلّم عبد اللّه بن عمر بذلک فأبى ابن عمر أن يفعل. قال مروان للإمام زين العابدين: أن لى رحما و حرمى تكون مع حرمک، فقال: «أفعل» فبعث بحرمه «٣».

و هكذا هى أخلاق أولاد النبيين و حجج اللّه على خلقه، لا كما فعل مروان و أهله بحرم رسول اللّه و ما صنعوا بأهل بيته. و ما يدّعيه الطبرى من صداقة كانت بينهما قديمة لا نصيب له من الصحة، كما أنها ليست من أشكال العلاقات التى استحالت بحلم الإمام و عظيم خلقه من روح العداوة إلى الاحترام و الاعتراف بمنزلة الإمام. كقصة ذلک الرجل الذى سب الإمام زين العابدين و هو خارج من المسجد، فأراد العبيد أن يثوروا به «٤» ففى رواية الشبلخى عن درر الأصداف: بالغ فى سبّه و أفرط، فعاد إليه العبيد و الموالى، فكفّهم عنه، و أقبل عليه و قال له: «ما ستر عنک من أمرنا أكثر، أ لک حاجة نعينک عليها؟» فاستحيا الرجل، فألقى إليه خميصة، و ألقى إليه خمسة آلاف درهم. فقال: أشهد أنک من أولاد المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و فى رواية ابن كثير: فكان الرجل بعد ذلک إذا رآه يقول: إنک من أولاد الأنبياء.

---

(١) انظر الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٢١٢- ٢٢٠.

(٢) الإتحاف للشبراوى ص ٥٠ و ابن كثير.

(۳) تاريخ الطبرى ج ۷ ص ۷.

(۴) صفة الصفوة ج ۲ ص ۵۶.

ص: ۳۱۶

و لا نظن أن يصدر مثل ذلک من الطريد بن الطريد، و إنما مروان و غيره من الأمويين يعلمون أن آل عبد المطلب أقرب إلى شرائع السماء و أخلاق الأنبياء، و هو و غيره من الأمويين ألصق بطبائع السوقة و أخلاق أهل الغدر، فلاذ بمكانة أهل البيت، و دفع بحرمه إلى حمى حرمتهم، أولئک الذين أذهب اللّه عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا. و ما هو إلّا العدو الحاقد الذى يرى فى على و ولده صورة النبى الأعظم الذى فضح أباه و أبعده ليخلص المسلمين من شرّه، فلما كان واليا على المدينة لمعاوية كان يسبّ عليا كل جمعة على المنبر، و قال له الحسن عليه السّلام: «لقد لعن اللّه أباک الحكم، و أنت فى صلبه على لسان نبيه» «۱».

فمن أين قدم الصداقة بين زين العابدين و مروان بن الحكم، و الأخير من أكثر الأمويين تشفّيا بقتل الإمام الحسين «۲» ينقل الشيخ ابن نما عن تاريخ البلاذرى: أنه لما وافى رأس الحسين عليه السّلام المدينة. سمعت الواعية من كل جانب، فقال مروان بن الحكم:

ضربت دوسر فيهم ضربة أثبتت أوتاد حكم فاستقرّ

ثم أخذ ينكت وجهه بقضيب و يقول:

يا حبّذا بردک فى اليدين و لونک الأحمر فى الخدين

كأنه بات بمجسدين شفيت منک النفس يا حسين

«۳» و تحسين صورة هؤلاء الطرداء و أبناء الطلقاء لا تغيّر واقع الأمر و حقيقة التصرّف الجاهلى الذى واجهوا به أهل بيت النبوة، فنرى كبار من تولّى هذه المهمة لا يفلح

---

(۱) ابن كثير ج ۸ ص ۲۵۹.

(۲) و كذلک الأمر فيما يدّعيه الذهبى فى تذكرة الحفّاظ من وجود ودّ فى قلب عبد الملک بن مروان و أن زين العابدين كان أحب بنى هاشم إلى عبد الملک (ج ۱ ص ۷۰)- و ابن كثير فى البداية و النهاية (ج ۹ ص ۱۰۴)- و ابن عبد ربه فى العقد (ج ۱ ص ۲۶۸) فمن المشهور عداؤه و محاولته الإساءة إلى الإمام زين العابدين فى كل مرة، و الصحيح لجوء عبد الملک إلى

التشبّه بسلطة الإمام للتدليس و التلبّس بها أمام ملک الروم، فکتب إلی الحجاج أن یتوعّد و یتهدّد الإمام زین العابدین و أخذ جوابه، فکاتب عبد الملک بما قاله الإمام زین العابدین إلی الحجاج و بعث به إلی ملک الروم علی أنه صادر منه.

(۳) مثیر الأحزان.

فیما أخذ به نفسه، و یعثر و یسقط ما یحمله من أکاذیب. فقد عرف الإمام زین العابدین بالانقطاع إلی اللّه، و الإکباب علی العبادة بعد مذبحة الطف و قتل الأحبة، فکانت میاسم التقوی و سمات الإیمان فی وجهه و جسمه، فأطلق علیه: السجاد و ذی الثفنات. و من المعلوم أن مواصلته العبادة و مداومته علی الأدعیة و الأذکار لم یترک حیزا لما کان یشغل بال الملوک من الأمویین و العباسیین بدواعی الشهوة. و نورد هنا أنموذجا سار علیه الذهبی فی الترجمة للأعلام فی (سیر أعلام النبلاء) حیث یورد ما یخالف الحقائق فی کثیر من الموارد، فیردّ المفضوح منها الذی لا یمکن السکوت عنه فی بعضها، و لا یقوم بشیء فی کثیر منها یقول: (قال الأصمعی: لم یکن له عقب- یعنی الحسین- إلا من ابنه علی، و لم یکن لعلی بن الحسین ولد إلا من أم عبد اللّه بن الحسن و هی ابنة عمه. فقال له مروان: أری نسل أبیک قد انقطع، فلو اتخذت السراری لعلّ اللّه أن یرزقک منهن. قال: قال ما عندی ما اشتری. قال: فأنا أقرضک، فأقرضه مائة ألف، فاتخذ السراری و ولد له جماعة من الولد، ثم أوصی مروان لما احتضر أن لا یؤخذ منه ذلک المال). و یعقّب الذهبی: إسنادها منقطع، و مروان ما احتضر، فإن امرأته غمته تحت و سادة هی و جواریها ... الخ «۱». و قیل سمیة و هی أم خالد بن یزید بن معاویة، أضمرت له السوء بعد أن وجّه لابنها کلمات بذیئة ساقطة.

و یذکر المسعودی أن أسباب ثورة أهل المدینة کانت: جور یزید و عمّاله و ما عمّهم من ظلم و ما ظهر من فسقه من قتله ابن بنت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ما أظهر من شرب الخمور و سیره بسیرة فرعون.

و قد انتقم یزید من أهل المدینة، و أمر بإباحتها، فکانت مذبحة الحرّة التی قتل فیها أکثر من أربعة آلاف ممن أحصوا من بنی هاشم و سائر قریش و الأنصار و من سائر الناس. و قیل حتی أن الأقدام ساخت فی الدم.

و دعا مسلم بن عقبة- المسرف فی القتل و الدماء- الناس للبیعة علی أنهم خول لیزید بن معاویة یحکم فی دمائهم و أموالهم و أهلیهم ما شاء «۲».

---

(۱) السیر ج ۴ ص ۳۹۰.

(۲) الطبری ج ۷ ص ۱۳.

أو أن كل من استبقاه من الصحابة و التابعين على أنه عبد قن ليزيد، إلا الإمام على زين العابدين «۱» و قد أورد ابن أبى الحديد ما ينافى الحقيقة، و يبدو أنها من جملة ما حواه و جمعه بدون تحقق و تدبر، فكانت بقية روايته للحادث نقلا عنه كتبة السلطان و مؤرخى الدولة الذين لا تهمّهم الحقائق، و لا يهتمون بالنظر إلى الحادثة فى إطار الواقع.

و أقرب الروايات و أصدقها تروى أن الإمام زين العابدين قد لاذ بقبر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يدعو. فأتى به إلى مسرف- و هو مغتاظ عليه- فتبرأ منه و من آبائه، فلما رآه و قد أشرف عليه ارتعد، و قام له، و أقعده إلى جانبه و قال له: «سلنى حوائجک». فلم يسأله فى أحد ممن قدّم إلى السيف إلا شفعه فيه، ثم انصرف عنه. فقيل لعلى: رأيناک تحرک شفيتک، فما الذى قلت؟ قال: «قلت: اللهم ربّ السموات السبع و ما أظللن، و الأرضين السبع و ما أقللن، ربّ العرش العظيم، ربّ محمد و آله الطاهرين، أعوذ بک من شرّه، و أدرأ بک فى نحره، أسألک أن تواتينى خيره، و تكفينى شره». و قيل لمسلم: رأيناک تسبّ هذا الغلام و سلفه، فلما أتى به إليک رفعت منزلته؟ فقال: ما كان ذلک لرأى منى، لقد ملئ قلبى منه رعبا «۲».

و قد حرسته عين اللّه و رعته، و جعلت لهيبة الإمامة فى شخصه سلطة أقوى من سلطة الحكام. فهذا هشام بن إسماعيل المخزومى والى المدينة فى عهد عبد الملک كان يؤذى الإمام زين العابدين و يشتم عليا على المنبر و ينال منه، فلما ولى الوليد بن عبد الملک عزله و أمر به أن يوقف للناس. قال هشام: و اللّه ما أخاف إلا من على بن الحسين إنه رجل صالح يسمع قوله، فأوصى على بن الحسن أصحابه و مواليه و خاصته أن لا يتعرّضوا لهشام، ثم مرّ على فى حاجته فما عرض له، فناداه هشام و هو واقف للناس: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ «۳».

و ردّد هذه الآية أيضا الزهرى لمّا قارف ذنبا.

قال له الإمام زين العابدين: «يا زهرى قنوطک من رحمة اللّه التى وسعت كل

---

(۱) شرح نهج البلاغة ج ۱ ص ۳۰۶.

(۲) مروج الذهب ج ۳ ص ۷۹ و ۸۰.

(۳) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ۵ ص ۲۱۹. و تذكرة سبط ابن الجوزى ص ۳۳۸.

شىء أعظم من ذنبک». فقال الزهرى: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ و كان يقول: على بن الحسين أعظم الناس علىّ منه «۱».

و الزهرى أحد تلاميذ الإمام زين العابدين، و بسبب ذلک أصبحت له مكانة فى علم الحديث حتى قال ابن أبى شيبة: أصحّ الأسانيد (كلها) الزهرى عن على بن الحسين عن أبيه عن جدّه.

و لكن الأيام حملته إلى بلاط بنى أمية، فأصبح من بطانة عبد الملک و من عاصرهم من الملوک من بعده. و ولّاه يزيد بن عبد الملک القضاء، و كتب عمر بن عبد العزيز يوصى بالأخذ عنه. و يبدو أنه غلّب مقتضيات الدنيا على واجبات الدين و العلم، فظهر منه بسبب علقته ببنى أمية انحراف عن أهل البيت يتمثّل فى المجاراة و السكوت عن الظلم. و يروى عنه أنه فى بعض المواقف لم يذهب إلى مجاراة بنى أمية فى تأويلهم القرآن و تلاعبهم به كما فى حادثة دخول سليمان بن يسار على هشام فقال له: يا سليمان من الذى تولى كبره منهم؟ يعنى قوله تعالى: وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ فقال ابن سلول: قال كذبت، بل هو على، فدخل ابن شهاب فقال: يا ابن شهاب، من الذى تولى كبره؟ قال ابن أبىّ. فقال له: كذبت بل هو على. قال: أنا أكذب ...؟ الخ «٢».

و لم يتأثر عن طريق الرواية للمضاهاة و للتمويه على الحقيقة التى هى من أكبر حقائق الإسلام فى كون الإمام على أول الناس إسلاما، فكان ابن شهاب و جماعة من المحدثين و العلماء يقولون: أول من أسلم من الرجال على «٣».

و الغرض أن الإمام زين العابدين تعقّب الزهرى بالنصح و الإرشاد، فقد كتب إليه رسالة يعظه فيها و يحذّره الحكام الذين استمالوه و قرّبوه لأغراضهم. و قد عكست الرسالة عمل الإمام زين العابدين على تجريد الحكّام من المظاهر الدينية. و اصطناع من عرف بالعلم و الرواية للتستر على باطلهم و تمويه أفعالهم.

و مما جاء فى رسالة الإمام زين العابدين إلى الزهرى:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٥ ص ٢١٤.

(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبى ج ٥ ص ١٤٥ و ١٤٩.

(٣) انظر الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة ج ٣ ص ٢٩.

«كفانا اللّه و إياک من الفتن، و رحمک من النار، فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفک أن يرحمک، فقد أثقلتک نعم اللّه بما أصحّ من بدنک و أطال من عمرک، و قامت عليک حجج اللّه بما حمّلک من كتابه، و فقّهک فيه من دينه، و عرّفک فيه من سنّة نبيه، فانظر أى رجل تكون غدا إذا وقفت بين يدى اللّه، فسألک عن نعمه عليک كيف رعيتها ... و لا تحسبنّ اللّه قابلا منک بالتعذير، و لا راضيا منک بالتقصير. هيهات هيهات .. ليس كذلک أخذ على العلماء فى كتابه إذ قال: لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ.

و اعلم أن أدنى ما كتمت و أخفّ ما احتملت أن آنست وحشة الظالم، و سهّلت له طريق الغىّ بدنوک منه حين دنوت، و إجابتک له حين دعيت. فما أخوفنى بإثمک غدا مع الخونة. و أن تسأل عما أخذت بإعانتک على ظلم الظلمة أنک أخذت ما ليس لک ممن أعطاک. و دنوت ممن لم يردّ على أحد حقا و لم تردّ باطلا حين أدناک، و أحببت من حادّ اللّه. أو ليس بدعائه

إياک حين دعاک جعلوک قطبا أداروا بک رحى مظالمهم، و جسرا يعبرون عليک إلى بلاياهم، و سلّما إلى ضلالهم، داعيا إلى غيّهم سالكا سبيلهم، يدخلون بک الشک على العلماء، و يقتادون بک قلوب الجهّال إليهم، فما أقل ما أعطوک قدر ما أخذوا منک، و ما أيسر ما عمروا لک فكيف ما خربوا عليک؟

فانظر لنفسک فإنه لا ينظر إليها غيرک، و حاسبها حساب رجل مسئول، و انظر كيف شكرک لمن غذّاک فى نعمه صغيرا أو كبيرا. فما أخوفنى عليک أن تكون كما قال اللّه تعالى فى كتابه: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ «١»».

و لا يفوتنا أن ننوّه برسالة الحقوق التى اشتملت على تصنيف دقيق و تبويب جامع لما يهمّ المرء من أمور دينه و دنياه و مجتمعه و عائلته، و هى تتولى بيان علم الإمام زين العابدين، و نظرته إلى ما عهد إليه فى ولاية الإمامة و الخلافة الكبرى. كما تتولى (الصحيفة السجادية) بيان طرق الانقطاع إلى اللّه و الاعتماد على الخالق، و اللجوء إلى قوته، و إذا كانت الصحيفة (زبور آل محمد) فرسالة الحقوق (منهاج آل محمد) و هى من أكثر مآثر آل محمد حاجة إلى البيان و البحث.

و قد حفظ لنا التاريخ أقواله عليه السّلام التى يجد الناس على مختلف مشاربهم فيها صورة الإمام الهادى و الخليفة الداعى الذى ينظر إلى الوجود بمنظار العقيدة، و يصف الدنيا كما هى حقيقتها إذا ما تمكن الهدى من النفس و أسبغ عليها الإيمان أبراده.

---

(١) تحف العقول لابن شعبة.

قال لجابر الجعفى: «يا جابر إنى لمحزون، و إنى لمشتغل القلب» قلت: و ما حزنک و ما شغل قلبک؟ قال: «يا جابر، إنه من دخل قلبه صافى خالص دين اللّه، شغله عما سواه. يا جابر ما الدنيا، ما عسى أن تكون؟ هل هو إلا مركب ركبته، أو ثوب لبسته، أو امرأة أصبتها. يا جابر، إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها، و لم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، و لم يصمّهم عن ذكر اللّه ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، و لم يعمهم عن نور اللّه ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار. إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، و أكثرهم لک معونة، إن نسيت ذكّروک، و إن ذكرت أعانوک. قوّالين بحقّ اللّه، قوّامين بأمر اللّه. فانزل الدنيا كمنزل نزلت به و ارتحلت عنه، أو كمال أصبته فى منامک، فاستيقظت و ليس معک منه شىء، و احفظ اللّه فى ما استرعاک من دينه و حكمته» «١».

و يتتبع عليه السّلام أمراض المجتمع، و يعمل على إصلاح العلاقات، و إقامة مودة بين النفوس. سمع رجلا يغتاب آخر فقال عليه السّلام: «إن لكل شىء إداما، و إدام كلاب النار الغيبة». و قال عليه السّلام: «نظر المؤمن فى وجه أخيه المؤمن للمودة و المحبة عبادة». و قال أيضا: «من كمال العقل كفّ الأذى، فإن فيه راحة للبدن آجلا و عاجلا».

و يحذّر عليه السّلام من العداوة: فيقول: «لا تعادينّ أحدا و إن ظننت أنه لا يضرّک».

إن الإمام زين العابدين باشر مرحلة الدعوة بعد مرحلة الثورة، و هو على هدى من رسالته و بيّنة من أمره. و من يتوهم أن الأمر عدول عن الثورة و ترک للجهاد، فليس له علم بأسرار الإمامة و مكاشفات الولاية، كالذى كان من عبّاد البصرى عند ما لقى الإمام زين العابدين فى طريق مكة فقال له:

يا على بن الحسين، تركت الجهاد و صعوبته، و أقبلت على الحج و لينه، و إن اللّه عز و جل يقول: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ- إلى قوله- وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ؟

فقال الإمام زين العابدين: «إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج».

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى.

و خلاصة القول، فإن الإمام زين العابدين الذى كان لا تبرح ذاكرته مأساة الطفّ، و يديم البكاء حتى قال: «إن يعقوب عليه السّلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف، و لم يعلم أنه مات. و إنى رأيت بضعة عشر من أهل بيتى يذبحون فى غداة واحدة، فترون حزنهم يذهب من قلبى أبدا؟» يحمل أعباء الإمامة فى ظروف أدّت بالحكام إلى أن يرتكبوا جريمتهم النّكراء بحق أهل بيت النبى. و لمّا سئل: كيف أصبحت؟ قال عليه السّلام: «أصبحنا فى قومنا بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون، يذبّحون أبناءنا، و يلعنون سيدنا و شيخنا على المنابر، و يمنعونا حقّنا» «١».

و لقد كانت فترة إمامته فترة صعبة و حرجة لم يتغير من السياسة شىء، بل إن المجازر اتسعت و طالت الحرمين، فيشكو بثّه و يدعو ربه: «حتى عاد صفوتک و خلفائک مغلوبين مقهورين مبتزّين يرون حكمک مبدّلا و كتابک منبوذا و فرائضک محرّفة عن جهات أشراعک، و سنن نبيک متروكة. اللهم العن أعداءهم من الأولين و الآخرين، و من رضى بفعالهم و أشياعهم و أتباعهم» و فى وسط ذلک كان عليه أن يمضى فى رسالته بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و يحدّث الناس بحديث جده.

فكانت فيما يهمّهم من أمور دينهم و أحكام شريعته، و تبصيرهم بالمصلحة و ما يعود عليهم بالنفع و البقاء.

و إذا كانت هذه الأوضاع التى يعيشها قد حالت دون أن يتّخذ حلقة، إذ كيف يتسنّى له العمل كالآخرين و هو مثقل بهذه الأعباء و الأحزان و الهموم، فإن مآثره فى الفكر و العمل كانت قدوة الصالحين، و أسوة الزهّاد المتعبّدين، و منهجه فى الحياة مثل للأئمة الطاهرين فى أن يكون الدين غاية الدعوة و العدل عمادها، فكانت وصيته إلى ولده، و وصيّه الإمام الباقر عليه السّلام: «يا بنى أوصيک بما أوصانى به أبى، فقد قال لى:

يا بنى إياک و ظلم من لا يجد عليک ناصرا إلا اللّه».

و من وصاياه لخليفته الإمام الباقر ما يزن به أصناف الناس، و يرسم صور تصرّفاتهم بميزان العاقل الحكيم و بريشة الخبير المفن. قال الإمام الباقر «أوصانى أبى قال:

لا تصحبنّ خمسة، و لا تحادثهم و لا ترافقهم فى طريق. قال: قلت: جعلت فداءک يا أبت من هؤلاء الخمسة؟

---

(١) تذكرة سبط ابن الجوزى.

قال: لا تصبحنّ فاسقا، فإنه يبيعک بأكلة فما دونها.

قال: قلت: يا أبة، و ما دونها؟

قال: يطمع فيها ثم لا ينالها.

قال: قلت: يا أبة، و من الثانى؟

قال: لا تصحبنّ البخيل، فإنه يقطع بک فى ماله أحوج ما كنت إليه.

قال: قلت: يا أبة: و من الثالث؟

قال: لا تصحبنّ كذابا، فإنه بمنزلة السراب يبعد منک القريب، و يقرّب منک البعيد.

قال: قلت: يا أبة و من الرابع؟

قال: لا تصحبنّ الأحمق، فإنه يريد أن ينفعک فيضرّک.

قال: قلت: يا أبة و من الخامس؟

قال: لا تصحبنّ قاطع رحم، فإنى وجدته ملعونا فى كتاب اللّه فى ثلاث مواضع» «١».

و يروى أن نقش خاتمه عليه السّلام كان «علمت فأعمل» و كفى بذلک دلالة على سبيل العصمة و منهج الإمامة و بيان حاله من التقوى و الإيمان.

استشهد عليه السّلام مسموما بأمر من الوليد بن عبد الملک سنة ٩٥ ه.

الإمام الباقر:

تولى الإمام الباقر الإمامة فى عصر قوة الدولة الأموية و امتداد سلطانها و شدّة نفوذها، و لم يمنعه ذلک من دعوته الدينية و عمله فى نشر تعاليم الإسلام و الاضطلاع بمهام الإمامة «۲». بل اتجه إلى العلوم الدينية و الحثّ على التمسّک بالدين، و جعل لدعوته أسلوبا يظهر الحقائق التى حاول الأمويون إخفاءها. و لقد ازدحم العلماء على أبواب مدرسته و انتشروا فى الآفاق يحملون عنه أصدق الحديث.

---

(۱) صفة الصفوة ج ۲ ص ۵۶ و ۵۷.

(۲) عقدنا فى الجزء الثانى فصلا عن حياة الإمام الباقر (الإمام الصادق فى ظل أبيه الباقر) ضمّ نبذا من سيرته، و إشارات إلى مدرسته و تلاميذه، و نتناول هنا بعض الأمور التى لم نتعرض لها، متحاشين التكرار و الإعادة إلا للضرورة.

و كان عصره يشهد بداية نشاط الآراء و الأقوال التى تعددت مصادرها و تباينت أغراضها، و أهل البيت فى صميم هذا النشاط موضع اهتمام القائمين به و الساعين إليه، لأنهم يريدون أن يكون للدين فى آرائهم ممسک و لأقوالهم مرجع، أو لأنهم من أهل الفرق و البدع الذين يرمون إلى التشكيک و الطعن، فقصده العلماء للسؤال و كشف الحقائق كعمرو بن عبيد، و الحسن البصرى و نافع مولى ابن عمر «۱» و غيرهم ممن يطول ذكرهم. و لكن نورد هنا ما كان من عمرو بن عبيد- شيخ المعتزلة- عند ما و فد على الإمام الباقر عليه السّلام ليسأله لا لغرض طلب العلم، و إنما بوهم أن يفاجئ الإمام الباقر بما يعجز عن الإجابة عنه، فقال له عمرو:

جعلت فداک ما معنى قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا ما هذا الرتق؟

قال الإمام الباقر: «كانت السماء رتقا لا تنزل القطر، و كانت الأرض رتقا لا تخرج النبات، ففتق اللّه السماء بالقطر، و فتق الأرض بالنبات» فانقطع عمرو، و مضى ثم عاد إليه فقال:

خبرنى عن قوله تعالى: وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوى ما غضب اللّه؟ فقال له أبو جعفر عليه السّلام: «غضب اللّه تعالى عقابه. يا عمرو، و من ظن أن اللّه يغيره شىء فقد هلک».

و دخل عليه أعرابى، و قيل رجل من الخوارج- و لا فرق فهم من أشدّ الأعراب بعدا عن الدين- و قال له: هل رأيت اللّه حين عبدته؟ فقال: «لم أكن لأعبد من لم أره». قال: فكيف رأيته؟ قال: «لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، و رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرک بالحواسّ، و لا يشبّه بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا يجوز فى القضيات. ذلک اللّه الذى لا إله إلا هو» فقال الأعرابى: اللّه أعلم حيث يجعل رسالته «۲».

و مما يحسب الآن من أعمال مجيدة فى مجال الملک و تعريف مظاهر السلطان و سک العملة، فهو فى حقيقته يعود لإمامنا الباقر عليه السّلام. فعبد الملک بن مروان تعاطى العلم، و انخرط فى سلک الفقه و الرواية، حتى جاءته فرصة التحكّم و التسلّط، فتخلّى عن الحديث و ما يقتضيه تعاطى العلم من سمات دينية، و تحوّل إلى الدم

---

(١) انظر احتجاج الطبرسى. و البحار ج ۴. و الكافى فى احتجاجات الصادق.

(٢) زهر الآداب ج ١ ص ٧٧.

و الظلم، و هو يستشعر منزلة أهل البيت و مكانتهم، فكان يلجأ إليهم فى أكثر الأمور التى تهمّه، و يبدو أن عداوته تدفعه إلى إخفاء ما يرجوه منهم، لأن التظاهر باللجوء إلى أهل البيت يسىء إليه كثيرا. لمّا كتب ملک الروم لعبد الملک بن مروان يتهدّده أن يذكر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الدنانير بما يكرهون، فعظم ذلک على عبد الملک، و استشار الناس فلم يجد عند أحد منهم رأيا «١» فقال له روح بن زنباع: إنک لتعلم المخرج من هذا الأمر. و لكنک تتعمد تركه. فقال: ويحک من؟ فقال: عليک بالباقر من أهل بيت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. قال: صدقت، و لكنه ارتجّ الرأى فيه.

فكتب إلى عامله بالمدينة: أن أشخص إلى محمد بن على بن الحسين مكرّما، و متّعه بمائة ألف درهم لجهازه، و بثلاثمائة ألف لنفقته، و أرح عليه فى جهازه و جهاز من يخرج معه من أصحابه. و حبس عبد الملک رسول ملک الروم إلى موافاة الإمام الباقر، فلما وافاه، أخبره الخبر. فقال له الإمام الباقر: «لا يعظم عليک، فإنه ليس بشىء من جهتين:

إحداهما: إن اللّه عز و جل لم يكن ليطلق ما تهدّد به صاحب الروم فى رسول اللّه عليه السّلام.

و الثانى: وجود الحيلة فيه».

قال: و ما هى؟

قال: «تدعو بصاغة، فيضربون بين يديک سككا للدراهم و الدنانير، و تجعل النقش عليها سورة التوحيد» «٢».

و يتلبّس عبد الملک بما يصدر عن الإمامة، و يتطفّل على منهجها، و قد أشرنا إلى ذلک سابقا، و يستخدم عماله- عمال السوء و البغى- للاتصال بمقام أهل البيت و تلقّى ما يصدر عنهم للتظاهر به أو استعماله فى معالجة ما هم فيه. و قد مرّ بنا قبل قليل كيف فعل عبد الملک لمّا كتب ملک الروم يتوعّده، فضاق عليه الجواب. و كتب إلى الحجاج- و هو إذ ذاک على الحجاز- أن أبعث إلى على بن الحسين، فتوعّده و تهدّده، و أغلظ له. ثم أنظر ما ذا يجيبک، فاكتب به إلىّ. ففعل الحجاج ذلک، فقال

(۱) شذور العقود للمقريزى ص ۷.

(۲) حياة الحيوان للدميرى ج ۲ ص ۵۵. و المحاسن و المساوئ للبيهقى. و العقد المنير ص ۱۸.

و هامش شذور العقود ص ۷.

له على بن الحسين عليه السّلام: «إن للّه فى كل يوم ثلاثمائة و ستين لحظة، و أرجو أن يكفينيک فى أول لحظة من لحظاته» و كتب بذلک إلى عبد الملک. فكتب به إلى صاحب الروم كتابا فلمّا قرأه قال: ليس هذا من كلامه، هذا من كلام عترة نبى «۱».

و القصد، أن رجال الحكم الأموى نظروا إليه نظرة تهيّب و تحفظ، و وقفوا أمام نشر تعاليمه و انتشار ذكره و عارضوها، لأن ذلک يهدّد ملكهم، فسلكوا كل سبيل للإساءة، و قد كان هشام بن عبد الملک من أكثرهم بغضا و أشدهم عداوة لآل البيت النبوى الكريم.

حج هشام بن عبد الملک، فدخل المسجد الحرام متكئا على يد سالم مولاه و الإمام الباقر جالس فى المسجد الحرام، فقال له سالم: يا أمير المؤمنين هذا محمد بن على بن الحسين عليهم السّلام. قال هشام: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم.

قال: اذهب إليه فقل له: يقول لک أمير المؤمنين ما الذى يأكل الناس و يشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فقال له الإمام أبو جعفر: «يحشر الناس على مثل قرص النقى، فيها أنهار متفجرة يأكلون و يشربون حتى يفرغ من الحساب» فرأى هشام أنه قد ظفر به، و إن فى ذلک فرصة لإشاعة حاله، لينفر عنه أهل العراق. فقال: اللّه أكبر، اذهب فقل له: يقول لک ما أشغلهم عن الأكل و الشرب يومئذ؟ فقال له أبو جعفر عليه السّلام: «هم فى النار أشغل، و لم يشغلوا عن أن قالوا أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ. فسكت هشام «۲».

و ليس أقبح من بذاءته و هو يتنمّر على الإمام الشهيد زيد بن على، و ينال من أخيه الإمام الباقر و يقول له: ما يصنع أخوک البقرة؟!.

فيجيبه الإمام زيد: سمّاه رسول اللّه الباقر، و تسمّيه البقرة؟ لشد ما اختلفتما، لتخالفنّه فى الآخرة كما خالفته فى الدنيا، فيرد الجنّة و ترد النار «۳».

و لما انصرف هشام من حجّه أنفذ إلى عامل المدينة بإشخاص الإمام الباقر و ولده الصادق، و أبقاهم ثلاثة أيام، و أذن لهم فى اليوم الرابع. و بقى على هذه السياسة التى تستهدف الإساءة و القضاء على الإمام الباقر.

(۱) تاريخ ابن واضح ج ۳ ص ۴۷.

(۲) الإرشاد و الإتحاف. و روضة الواعظين.

(۳) انظر طرق الحديث النبوى إلى جابر بن عبد اللّه الأنصارى: «يوشک أن تبقى، حتى تلقى ولدا لى من الحسين يقال له: محمد. يبقر العلم بقرا، فإذا لقيته فأقرأه منى السّلام» فى الجزء الثانى من الكتاب.

ص: ۳۲۷

و لما بدرت من الحكّام الأمويين بادرة على يد عمر بن عبد العزيز، تغيّرت العلاقة بين السلطة و بين الأئمة. فنرى عمر بن عبد العزيز يطلب من الإمام الباقر أن يوصيه بما ينفعه فى آخرته و دنياه، فقال له عليه السّلام: «أوصيک أن تتخذ صغير المسلمين ولدا، و أوسطهم أخا، و أكبرهم أبا. فارحم ولدک، و صل أخاک، و برّ والدک. و إذا صنعت معروفا فربّه» (أى أدمه).

و دخل عمر بن عبد العزيز المدينة و اجتمع بالإمام الباقر عليه السّلام فأوصاه الإمام بقوله:

«إنما الدنيا سوق من الأسواق، يبتاع فيها الناس ما ينفعهم و ما يضرّهم، و كم قوم ابتاعوا ما ضرّهم فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا ملومين، و لما لم يأخذوا ما ينفعهم فى الآخرة. فقسّم ما جمعوا لمن لم يحمدهم، و صاروا إلى من لم يعذرهم. فنحن و اللّه حقيقون أن ننظر إلى تلک الأعمال التى نتخوف عليهم منها، و اتق فى نفسک اثنتين: إلى ما تحب أن يكون معک إذا قدمت على ربک فقدّمه بين يديک. و انظر إلى ما تكره أن يكون معک إذ قدمت على ربک فارمه وراءک. و لا ترغبنّ فى سلعة بارت على من كان قبلک فترجو أن يجوز عنک. و افتح الأبواب و سهّل الحجاب و أنصف المظلوم و ردّ المظالم. ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان باللّه: من إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل، و من إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، و من إذا قدر لم يتناول ما ليس له».

و لقد كانت فترة عمر بن عبد العزيز يقظة و عى بما ألمّ بالأمة من جور الأمويين و ما لحق بالمسلمين بفعل ظلمهم، حاول فيها أن يضفى على سلطان بنى أبيه شيئا من أبراد التقى و أثواب الدين، و لكن هيهات له ذلک، لأن أساس الملک قائم على الظلم، و تاريخ بنى أمية بعمومه تاريخ شذوذ و انحراف، و لكن الأيام حفظت لعمر بن عبد العزيز ما رفع من سنّتهم السيئة، و ما بدر منه من عدل.

أما الإمام الباقر عليه السّلام فقد أفاض على ابن عبد العزيز من إشراق الإمامة و معين الخلافة الكبرى، فأعطاه تلک الصورة الرائعة عن الحكم و سياسة الرعية، و الإمام أدرى بأن عمر لا يحقق ما يوصيه به لأسباب كثيرة.

و الإمام الباقر فى إمامته و منزلته بين شيعته، يعمل بمنهج الدعوة فى التفريق بين

ص: ۳۲۸

السلطان الزمنى و السلطة الروحية فى الإمامة. روى الصدوق بسنده عن جابر عن الإمام الباقر عن أبيه عليهم السّلام أنه قال: «إذا كان أول يوم من شهر شوال نادى مناد: أيها المؤمنين اغدوا إلى جوائزكم» ثم قال أبو جعفر عليه السّلام: «يا جابر، جوائز اللّه عز و جل ليست كجوائز هؤلاء الملوك». و روى أيضا بسنده عن عبد اللّه بن سنان عن الإمام الباقر أنه قال: «يا عبد اللّه ما من عيد للمسلمين أضحى و لا فطر، إلا و هو يجدّد لآل محمد فيه حزن» قال: قلت: و لم؟ قال: «لأنهم يرون حقهم فى يد غيرهم» «١».

و لقد انضم إلى الإمام الباقر من التابعين و غيرهم رجال من الثقات و العلماء و الفقهاء ممن احتج بهم رجال الصحاح الستة، و أجمعوا على تقدمهم و شهرتهم «٢» و أصبح لأصحاب الإمام الباقر منزلة و أثر فى الحياة العلمية يومئذ، و كان الإمام يوجّههم لإفتاء الناس، فكان يقول لأبان بن تغلب: «إنى أحب أن أرى فى شيعتى مثلك» بعد أن أمره أن يجلس فى مسجد المدينة و يفتى الناس.

و ازدهرت مدرسة الإمام الباقر بفكره عليه السّلام و توجيهه، إذ جذب علمه الرجال من مختلف الأقطار الإسلامية، و توجه إلى مدرسته الرواة. ينقل سبط ابن الجوزى عن ابن سعد: كان (الإمام الباقر) عالما عابدا ثقة، روى عنه الأئمة أبو حنيفة و غيره. قال أبو يوسف: قلت لأبى حنيفة: لقيت محمد بن على الباقر؟ فقال: نعم، و سألته يوما فما رأيت جوابا أفخم منه. و قال عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علما منهم عند أبى جعفر، لقد رأيت الحكم عنده كأنه (عصفور) مغلوب، و يعنى بالحكم:

الحكم به عيينة، و كان عالما نبيلا جليلا فى زمانه «٣». و فى رواية: رأيت الحكم عنده كأنه متعلم «٤». و يقول القندوزى: قال بعضهم: ما رأيت العلماء كانوا أقل علما إلا عند الإمام الباقر.

و يبين الإمام عليه السّلام كيف تكون النسبة بين مقومات الشخصية العلمية فيقول:

«إنى لأكره أن يكون مقدار لسان الرجل فاضلا على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله» «٥».

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج ٢ ص ٦٢.

(٢) انظر تلامذة الإمام الباقر و رواة حديثه فى الجزء الثانى.

(٣) تذكرة الخواص ص ٣٤٧.

(٤) البداية و النهاية ج ٩ ص ٣١١.

(٥) شرح ابن أبى الحديد ج ٢ ص ١٩١.

و خلاصة القول: إن علم الإمام الباقر و عظيم منزلته الدينية جعلا منه قائدا روحيا اتجهت إليه الأنظار و مالت إليه القلوب، فاحتل منها ذلک المكان السامى و المنزلة الرفيعة. و قد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تراثه الفكرى، فقد كان يفيض على سامعيه من الخواطر و الحكم متوجها بالنصح و الإرشاد لمجتمعه.

و قد كان عليه السّلام يؤدب أصحابه بآداب الإسلام و يحثّهم على الطاعة و مكارم الأخلاق. فمن وصيته لجابر الجعفى: «و اعلم أنک لا تكون لنا وليا حتى لو اجتمع عليک أهل مصرک و قالوا: إنک رجل سوء. لم يحزنک ذلک. و لو قالوا أنک رجل صالح. لم يسرّک ذلک. و لكن أعرض نفسک على كتاب اللّه، فإن كنت سالكا سبيله زاهدا فى تزهيده راغبا فى ترغيبه خائفا من تخويفه فاثبت و أبشر. فإنه لا يضرک ما قيل فيک» و قد مرّ ذكرها فى الجزء الثانى.

و ينبه عليه السّلام اتباعه إلى جوهر التشيع و معدن الولاء لأهل البيت كما فى رواية جابر عن أبى عبيدة الحذّاء قال عليه السّلام: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا و طمعا. لعلک ترى أن القوم لم يكونوا ينامون؟» قال: قلت: اللّه و رسوله و ابن رسوله أعلم. قال: فقال: «لا بد لهذا البدن من أن تريحه حتى يخرج نفسه، فإذا خرج النفس استراح البدن و رجع الروح فيه قوة على العمل، فإنما ذكرهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا و طمعا أنزلت فى أمير المؤمنين عليه السّلام و أتباعه من شيعتنا، ينامون فى أول الليل، فإذا ذهب ثلثا الليل أو ما شاء اللّه، فزعوا إلى ربهم راغبين مرهبين طامعين فيما عنده، فذكرهم اللّه فى كتابه، فأخبرک اللّه بما أعطاهم أن أسكنهم فى جواره، و أدخلهم فى جنته، و آمن خوفهم، و أذهب رعبهم» قال قلت: جعلت فداک، إن أنا قمت فى آخر الليل أى شىء أقول إذا قمت؟ قال:

«قل الحمد للّه رب العالمين، و الحمد للّه الذى يحيى الموتى و يبعث من فى القبور.

فإنک إذا قلتها ذهب عنک رجز الشيطان و وسواسه إن شاء اللّه».

و يتحسّس ظروف الإرهاب الأموى و أصناف البلاء و ألوان الرعب التى خيّمت على قلوب محبى أهل البيت بعد سياسة معاوية و يزيد و بقية الأمويين فيقول: «إن اللّه يلقى فى قلوب شيعتنا الرعب. فإذا قام قائمنا و ظهر مهديّنا كان الرجل منهم أجرأ من ليث و أمضى من سيف». و ذلک ليجعل أمر الحكام الظلمة غير دائم، و أن الإمامة نظامها سماوى مبشّر به من النبى الأعظم و يقول: الإيمان ثابت فى القلب، و اليقين

خطرات، فيمرّ اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر الحديد و يخرج منه، فيصير كأنه خرقة بالية، و ما دخل قلب عبد شىء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه» «١».

و قال عليه السّلام: «اصبر للنوائب، و لا تتعرض للحقوق، و لا تعط أحدا من نفسک ما ضرّه عليک أكثر من نفعه» «٢».

و يتصدّى لمهماته و قيامه بالدعوة لأن اللّه عز و جل قال: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ فيقول عليه السّلام: «نحن أهل الذكر».

و قال عليه السّلام: «شيعتنا من أطاع اللّه عز و جل و أتقاه». لكنه عليه السّلام يبين شرط هذه الطاعة، فيقول صلوات اللّه عليه: «أما لو أن رجلا قام ليله و صام نهاره و تصدق بجميع ماله و حج جميع دهره و لم يعرف ولاية ولى اللّه فيواليه و تكون جميع أعماله بدلالته ما كان له على اللّه حق فى ثوابه و لا كان من أهل الإيمان» و قال عليه السّلام:

«إياكم الخصومة فإنها تفسد القلب، و تورث النفاق».

لقد كان الإمام الباقر يبنى النفوس بالإيمان و يربيها على تعاليم الإسلام، و يوجه الأنظار إلى حق الإمامة و سلطة الخلافة الكبرى الدينية التى تقوم على القاعدة الدينية و الأصول الشرعية.

روى عنه عليه السّلام أن قوما أقبلوا من مصر، فمات رجل فأوصى إلى رجل بألف درهم للكعبة، فلما قدم مكة سأل عن ذلك، فدلوه على بنى شيبة، فأتاهم، فأخبرهم الخبر، فقالوا: قد برئت ذمتک ادفعها إلينا. فقام الرجل فسأل الناس، فدلوه على الإمام الباقر. قال الإمام عليه السّلام: «فأتانى فسألنى، فقلت له: إن الكعبة غنية عن هذا، انظر إلى من أمّ هذا البيت و قطع، أو ذهبت نفقته، أو ضلّت راحلته، أو عجز أن يرجع إلى أهله فادفعها إلى هؤلاء الذين سمّيت لک» قال: فأتى الرجل بنى شيبة، فأخبرهم بقول الإمام عليه السّلام فقالوا: هذا ضال مبتدع، ليس يؤخذ عنه، و لا علم له، و نحن نسألک بحق هذا البيت و بحق كذا و كذا لما أبلغته عنّا هذا الكلام. قال: فأتيت أبا جعفر محمد عليه السّلام فقلت له: لقيت بنى شيبة فأخبرتهم، فزعموا أنک كذا و كذا، و أنک لا علم لک. ثم سألونى باللّه العظيم لما أبلغک ما قالوا. قال: «و أنا أسألک بما سألوک لما أتيتهم فقلت لهم: إن من علمى لو وليت شيئا من أمور المسلمين لقطعت

---

(١) البداية و النهاية.

(٢) تاريخ ابن واضح.

أيديهم، ثم علقتها فى أستار الكعبة، ثم أقمتهم على المصطبة، ثم أمرت مناديا ينادى: ألا إن هؤلاء سرّاق اللّه فاعرفوهم».

ثم تأتى مرحلة الدعوة فى عهد الإمام الصادق بعد أن تولى الإمامة و تبوء مكان الزعامة بعد مرافقة للإمامة فى أحداثها، و إعداد لدوره و عهده فى ظلالها. و قد مرّ بنا فى أجزاء الكتاب السابقة فصول من حياته عليه السّلام، و علمنا اتجاهه إلى حفظ شريعة الإسلام و دعوته إلى التمسّک بأحكام الدين. و قد تلقى الإمام الصادق انتقال الإمامة إليه و هو يمتلک تجربة غنية و دراية تامة بطبيعة الأحداث و تصاريف الأيام، فظهرت حكمته و بدت حنكته، و قد كانت أيام حياته من أشدّ الأيام صعوبة و هو يتحمل أعباء الدعوة و يقوم بواجبات الإمامة، كان فيها التحوّل السياسى من جهة إلى جهة، و كان فيها النمو الفكرى و اتساع الخلاف، و علو موجات الآراء المقالات، و كان فيها إيغال الحكام الجدد بدماء آل البيت و اضطراب أنحاء البلاد الإسلامية. إلى غيرها من الظروف، و ما انطوت عليه من محن و مآزق و معتركات.

روى الشيخ المفيد بسنده عن أبى الصباح الكنانى قال: نظر أبو جعفر عليه السّلام إلى ابنه أبى عبد اللّه عليه السّلام فقال: «ترى هذا، هذا من الذين قال اللّه عز و جل:

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ».

و الإمام الصادق هو السادس من الذين يخلفون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أمور شريعته و حفظ رسالته، و الذين أخبر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنهم بطرق أهل السنّة أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «فى كل خلف من أمتى عدول من أهل بيتى، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين، و انتحال المبطلين، و تأويل الجاهلين. ألا و إن أئمتكم وفدكم إلى اللّه عز و جل، فانظروا من توفدون» «١». و إلى جانب النص على إمامته و الوصية، فقد كان الإمام الصادق أعلم أهل زمانه و أجلّهم قدرا و أعلاهم منزلة، فاختص بالقيام بالنظر فى مصالح المسلمين الدينية، و قد رأينا أنه عاش فى صميم الأحداث و الوقائع التى مرّت بأهل البيت عليهم السّلام و وعى وجوهها و طابعها الذى كانت عليه. فأحاط بالأخبار و تزوّد بالآثار، فكان كل قول منه عن علم مسبق، و كل أمر سار عليه يعلم ما يقضى إليه كأن العواقب ترتسم فى مرآة أمامه.

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ٩٠.

فكان أن اتجه إلى محاربة الظالمين، و سار على هدى الإمامة و نهج آبائه فى الدعوة إلى أحكام القرآن و تعاليم الإسلام فى المودة و العدل و مكارم الأخلاق.

فأمر الإمام الصادق بعدم التعاون مع حكام الظلم و الانحراف. فقال: «العامل بالظلم و المعين له و الراضى به شركاء».

و سأله رجل من أصحابه عن البناء لهم و كراية النهر؟ فأجابه عليه السّلام: «ما أحبّ أن أعقد لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاء و لا مدّة بقلم، إن أعوان الظلمة يوم القيامة فى سرادق من نار حتى يحكم اللّه بين العباد» «١».

و سئل عليه السّلام عن رجلين من أصحابه يكون بينهما منازعة فى دين أو ميراث، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاء، أ يحلّ ذلك؟ فقال عليه السّلام: «من تحاكم إلى الطاغوت فحكم له، فإنما يأخذ سحتا و إن كان حقه ثابتا، لأنه أخذ بحكم الطاغوت و قد أمر أن يكفر به». قيل: كيف يصنعان؟ قال عليه السّلام: «انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا، و نظر فى حلالنا و حرامنا، و عرف أحكامنا، فارضوا به حكما؛ فإننى قد جعلته عليكم حاكما، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه، فإنما بحكم اللّه استخفّ، و علينا ردّ، و الرادّ علينا كالراد على اللّه» «٢».

و سئل عليه السّلام عن قاض بين قريتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق؟

فقال: «ذلک السحت» «٣».

و يتكلم عليه السّلام بسلطة الولاية و الخلافة الدينية التى اختص بها، فيقول فى حديثه لعمّار بن أبى الأحوص عن الإسلام و إنه وضع على سبعة أسهم، و قد مرّ ذكره عند الحديث عن سيرته عليه السّلام فى أول هذا الجزء فقال فى آخره: «فلا تخرقوا بهم، أ ما علمت أن إمارة بنى أمية كانت بالسيف و العسف و الجور، و إن إمامتنا بالرفق و التآلف و الوقار و التقية و حسن الخلطة و الورع و الاجتهاد، فرغّبوا الناس فى دينكم و فيما أنتم فيه» «۴».

---

(۱) راجع الجزء الثانى، فصل: الإمام الصادق مدرسته و تعاليمه.

(۲) الوسائل صفات القاضى ج ۱۸ و الاحتجاج للطبرسى ج ۲.

(۳) الوسائل.

(۴) المواعظ العددية.

و الإمام الصادق فى دعوة الإمامة يعطى لنهج الدعوة مجالا فى التطبيق هيأته شهرة الإمام العلمية، و إقبال الناس عليه، و تأثر المجتمع به لينشأ مجتمع الإمامة بخصائصه. عن محمد بن على الحلبى قال: استودعنى رجل من موالى بنى مروان ألف دينار، فغاب فلم أدر ما أصنع بالدنانير، فأتيت أبا عبد اللّه الصادق عليه السّلام فذكرت ذلک له و قلت: أنت أحق بها. فقال: «لا، لأن أبى كان يقول: إنما نحن فيهم بمنزلة هدنة، نؤدى أمانتهم، و نردّ ضالّتهم، و نقيم الشهادة لهم و عليهم، فإذا تفرّقت الأهواء لم يسع أحد المقام» «۱».

و يرد ذلک فى مورد التأكيد على أداء الأمانات، فيظهر فى سياقها خصائص مجتمع الإمامة و سمات الدعوة. و نحوها رواية الحسين الشيبانى أنه قال للإمام الصادق: إن رجلا من مواليک يستحلّ مال بنى أمية و دماءهم، و أنه وقع له عنده وديعة؟ فقال عليه السّلام: «أدّوا الأمانات إلى أهلها و إن كانوا مجوسا، فإن ذلک لا يكون حتى يقوم قائمنا فيحلّ و يحرّم». لأن ذلک من حقوق الأشخاص، و يندرج فى باب الأمانة التى يجب الحرص عليها لضمان الأمن فى المجتمع، أما الأعمال التى تتعلق بالعدل و لها مساس بمصلحة المجتمع، فتكون من الحقوق العامة، و أمرها إلى الإمام الصادق يحكم فيها بحكم الدين.

و يبين الإمام الصادق ولايته فيقول: «الناس كلهم يعيشون فى فضل مظلمتنا، إلا أنّا أحللنا شيعتنا من ذلک» «۲».

و عن عمر بن أذينة قال: رأيت أبا سيار مسمع بن عبد الملک بالمدينة، و قد كان حمل إلى أبى عبد اللّه عليه السّلام مالا فى تلک السنة فردّه عليه، فقلت له: لم ردّ عليک أبو عبد اللّه عليه السّلام المال الذى حملته إليه؟ فقال: إنى قلت له حين حملت إليه المال: إنى كنت وليت الغوص، فأصبت أربعمائة ألف درهم، و قد جئت بخمسها ثمانين ألف درهم، و كرهت أن أحبسها عنک، أو أعرض لها و هى حقک الذى جعله اللّه لک فى أموالنا؟ فقال: «و مالنا من الأرض و ما أخرج اللّه منها إلا الخمس؟ يا أبا سيّار، الأرض كلها لنا ما أخرج اللّه منها من شىء فهو لنا» قال قلت له: أنا أحمل

(۱) تذكرة الفقهاء للعلامة الحلى – كتاب الأمانات.

(۲) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق.

إليک المال كله. فقال لى: «يا أبا سيّار قد طيّبناه لک، و أحللناک منه، فضمّ إليک مالک، و كلّ ما فى أيدى شيعتنا من الأرض فهم فيه محلّلون، و يحلّ لهم ذلک إلى أن يقوم قائمنا» ا ه.

و تمضى الإمامة على عهد جعفر بن محمد الصادق فى إقامة سلطانها الروحى و مجتمعها الدينى، و ينتصب الإمام فى وسط عالم ينوء بالجور و أفعال الطغاة، يتصرف بما أوجبته الأحكام من حقوق للولاية الدينية و الإمامة الشرعية، و فيما هو حق للإمام.

عن عبد العزيز بن نافع قال:

طلبنا الإذن على أبى عبد اللّه عليه السّلام و أرسلنا إليه، فأرسل إلينا: «ادخلوا اثنين اثنين» فدخلت أنا و رجل معى، فقلت للرجل: أحب أن تستأذنه بالمسألة، فقال:

نعم. فقال له: جعلت فداک: إن أبى كان ممن سباه بنو أمية، و قد علمت أن بنى أمية لم يكن لهم أن يحرّموا و لا يحللوا، و لم يكن لهم مما فى أيديهم قليل و لا كثير، و إنما ذلک لكم، فإذا ذكرت الذى كنت فيه دخلنى من ذلک ما يكاد يفسد علىّ عقلى. ما أنا فيه؟ فقال له عليه السّلام: «أنت فى حلّ مما كان من ذلک، و كلّ من كان فى مثل حالک من ورائى فهو فى حلّ من ذلک» قال: فقمنا و خرجنا، فسبقنا معتّب «۱» إلى النفر القعود الذين ينتظرون إذن أبى عبد اللّه عليه السّلام فقال لهم: قد ظفر عبد العزيز بن نافع بشىء ما ظفر بمثله أحد قط. فقيل له: و ما ذاک؟ ففسّره لهم. فقام اثنان، فدخلا على أبى عبد اللّه عليه السّلام فقال أحدهما: جعلت فداک، إن أبى كان من سبايا بنى أمية، و قد علمت أن بنى أمية لم يكن لهم من ذلک قليل و لا كثير، و أنا أحب أن تجعلنى من ذلک فى حلّ؟ فقال: «و ذلک إلينا؟» ما ذلک إلينا، مالنا أن نحلّ و لا أن نحرّم. فخرج الرجلان، و غضب أبو عبد اللّه عليه السّلام فلم يدخل عليه أحد فى تلک الليلة إلا بدأه أبو عبد اللّه عليه السّلام فقال: «أ لا تعجبون من فلان، يجيئنى فيستحلّنى من ما صنعت بنو أمية، كأنه يرى أن ذلک إلينا!». و لم ينتفع أحد فى تلک الليلة بقليل و لا كثير إلا الأوّلين، فإنهما عنيا بحاجتهما. و ذلک لأن الأوّلين كانا قد سئلا فيما هو من حق الإمام و ما يقع فى باب ما أوجبه اللّه للقائمين بالأمر من أهل بيت النبوة.

و من عموم الأخبار، يبدو لنا بوضوح أن الإمام الصادق وضع السلطة الروحية

(۱) أحد الموالى القائمين بخدمة الإمام الصادق، روى عنه الأصحاب، و هو ثقة.

التی تقوم علی الإیمان بالعقیدة فی مواجهة کیان الملک و السلطان الزمنی الذی یتلبّس بالدین، و یدّعی الولایة معتمدا علی زبانیة الجور و لعقة الصحون ممن یتزیّون بزی الفقه و لباس العلم، و لهذا کان الإمام الصادق ینبه علی أولئک الذین یرتضون لأنفسهم أن یکونوا بالمحل الذی نبّه علیه جدّه الإمام السجاد فی رسالته إلی الزهری و هو فی ظل الأمویین.

یذکر هشام بن عباد أنه سمع الإمام الصادق یقول: «الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأیتم الفقهاء قد رکنوا إلی السلاطین فاتهموهم» «۱». و قد یحسب الذهبی نفسه قد أتی بشیء بقوله: مناقب جعفر کثیرة، و کان یصلح للخلافة لسؤدده و فضله و علمه و شرفه.

فذلک ما علیه النص، و ما تواترت به الروایات، إلا أنها الخلافة الکبری فی الدین، و لیست خلافة الملک و القوة، تلک الخلافة التی فیها دوام الرسالة و بقاء الدعوة، و لها هیئاتها و رجالها من أهل العلم و الفقه الذین یعظم أمر انحرافهم علی الأئمة، و رکونهم إلی الطغاة، لأن سلطان الدین لسعادة البشریة و رعایة مصالح الأمة و دفع الضرر عنها، فحرص الأئمة علیهم السّلام علی إبعاد شئون الدین من علم وفقه و حدیث و سائر وجوه الکیان الروحی للإسلام عن السلطان القائم علی القهر و انتهاک الحرمات.

إنه علیه السّلام أدار إمامته علی قواعد الإصلاح و الإرشاد و إقامة مجتمع دینی مستقل بروحیته عن مبادئ السیاسیة و قیم الملک الدنیوی، لا یتصل بالسلطان الزمنی إلا بقدر الضرورة أو تحت تأثیراتها. و أراد أن یکون القضاء بحکم اللّه بین شیعته و مریدیه، و ینأی عن دواوین الحکّام و عمّال الملوک الذین یندر فیهم وجود من یلتزم الحق و لا یغلّب مصلحته الشخصیة علی مصالح الناس. فراح یقول علیه السّلام- کما مر بنا قبل قلیل-: «من تحاکم إلیهم فی حق أو باطل، فإنما تحاکم إلی الجبت و الطاغوت المنهی عنه، و من أمر اللّه أن یکفر به».

و جعل علیه السّلام من المتخاصمین من کان قد روی حدیث أهل البیت و نظر فی حلالهم و حرامهم و عرف أحکامهم هو الحکم و قال: «فلیرضیا به حکما، فإنی قد جعلته علیهم حاکما» و أن الحکم ما حکم به أعدلهما و أفقههما، و أصدقهما فی الحدیث و أورعهما، فإن لم یتیسر للمتخاصمین، و هما علی صفة الولاء للإمام و التعلّق

---

(۱) الذهبی: تاریخ الإسلام ج ۶ ص ۴۸.

بحبل ولایته، و لم یظهر لهما ممسک یقدم لهما الحکم، فیأمرهما الإمام بالتوقف عنده حتی یلقیا الإمام، فإن الوقوف عند الشبهات خیر من الاقتحام فی الهلکات.

و لم ترهب الإمام الصادق علیه السّلام عداوات الحکام و الإحن الحی تملأ نفوسهم، و قام بمسئولیته فی أداء الرسالة و توجیه الأمة إلی ما فیه خیرها و سعادتها.

فانقادت إليه النفوس، و آمنت بإمامته، فكان اتجاه الناس إلى حضرته لا يقارن به تهافت العامة على أبواب الحكام، بل تسمو العلاقة عن مثل هذا الانحدار، و الأمر واضح بين الاتجاهين بفروقهما، فمع الإمام دين و تقوى، و مع الحكام دنيا و طمع.

قال إسحاق بن إبراهيم: كنت عند أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال: يا ابن رسول اللّه، أنا من مواليكم، و بينى و بينكم شقّة بعيدة، و قد قلّ ذات يدى، و لا أقدر أن أتوجه إلى أهلى، أ لا أن تعينونى؟ فنظر أبو عبد اللّه و قال: «أ ما تسمعون ما يقول أخوكم؟ إنما المعروف ابتداء، فأما ما أعطيت بعد ما سأل؛ إنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه، أ فيبيت ليلته متأرّقا متململا بين اليأس و الرجاء، لا يدرى أين يتوجه بحاجته فيعزم على القصد إليک، فأتاک و قلبه يجب، و فرائصه ترتعد، و قد نزل دمه فى وجهه، و بعد هذا فلا يدرى أ ينصرف من عندک بكآبة الرد، أم بسرور النجح، فإن أعطيته رأيت أنک قد وصلته، و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

و الذى فلق الحبة، و برأ النسمة، و بعثنى بالحق نبيا لما يتجشّم من مسألته إياک أعظم مما ناله من معروفک».

و على أى حال، فإن سلطان الإمامة أصبح له كيان روحى معروف يقصده الناس من كل الأقطار، و تؤمن من كل البلدان. يروى عبد الرحمن بن سيّابة: لما هلک أبى سيابة، جاء رجل من إخوانه إلىّ فضرب الباب على، فخرجت إليه، فعزّانى و قال:

هل ترک أبوک شيئا؟ فقلت له: لا. فدفع إلىّ كيسا فيه ألف درهم و قال لى: أحسن حفظها و كل فضلها. فدخلت على أمى و أنا فرح، فأخبرتها، فلما كان بالعشى أتيت صديقا كان لأبى فاشترى لى بضائع سابرى، و جلست فى حانوت، فرزق اللّه فيها خيرا كثيرا. و حضر الحج، فوقع فى قلبى، فجئت إلى أمى و قلت لها: قد وقع فى قلبى أن أخرج إلى مكة. فقالت لى: فردّ دراهم فلان عليه فهاتها، و جئت بها إليه، فدفعتها إليه فكأنى وهبتها له فقال: لعلک استقللتها فأزيدک؟ قلت: لا، و لكن قد وقع فى قلبى الحج فأحببت أن يكون شيئک عندک. ثم خرجت و قضيت نسكى. ثم رجعت إلى المدينة فدخلت مع الناس على أبى عبد اللّه عليه السّلام و كان يأذن إذنا عاما، فجلست فى

مآخير الناس و كنت حدثا، فأخذ الناس يسألونه و يجيبهم، فلما خفّ الناس أشار إلىّ، فدنوت إليه، فقال لى: «أ لک حاجة؟» فقلت له: جعلت فداک، أنا عبد الرحمن بن سيّابة. فقال لى: «ما فعل أبوک؟» فقلت: هلک. قال: فتوجّع و ترحّم، ثم قال لى:

«أ فترک شيئا؟» قلت: لا. قال: «فمن أين حججت؟» قال: فابتدأت فحدثته بقصة الرجل، فما تركنى أفرغ منها حتى قال لى: «فما فعلت فى الألف؟» قلت: رددتها على صاحبها، فقال لى: «قد أحسنت». و قال لى: «إلا أوصيک؟». قلت: بلى جعلت فداک، قال «عليک بصدق الحديث و أداء الأمانة» الرواية ...

قال أبو ربيع الشامى: دخلت على أبى عبد اللّه عليه السّلام و البيت غاصّ، فيه الخراسانى و الشامى و من أهل الآفاق، فلم أجد موضعا أقعد فيه، فجلس أبو عبد اللّه متكئا ثم قال: «يا شيعة آل محمد، إنه ليس منّا من لم يملک نفسه عند غضبه، و من لم

يحسن صحبة من صحبه، و مخالفة من خالفه، و مرافقة من رافقه. يا شيعة آل محمد، اتقوا اللّه ما استطعتم، و لا حول و لا قوة إلا باللّه العظيم».

و القصد هنا من تقديم الروايتين بيان اتجاه الأنظار إلى الإمام الصادق و مدى اتساع دعوته و إقبال الناس عليه، و هو يتمتع بكيان روحى يفوق فى تأثيره سلطان القوة و نفوذ الحكم، و هو عليه السّلام يعيّن خصائص هذا الكيان المستقل و الذى يشتمل على الوجود العلمى لمدرسته، و على النشاط الفكرى لجماعته، و يبيّن استقلالها و تفرّدها عن الحكام بالمصدر و المضمون. قال أبو بصير: سمعت أبا عبد اللّه الصادق يقول:

«اتقوا اللّه، و عليكم بالطاعة لأئمتكم، قولوا ما يقولون، و اصمتوا عمّا صمتوا، فإنكم فى سلطان من قال اللّه تعالى: وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ فاتقوا اللّه، فإنكم فى هدنة، صلّوا فى عشائرهم، و اشهدوا جنائزهم، و أدّوا الأمانة إليهم، و عليكم بحج البيت؛ فإن فى إدمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم و أهوال يوم القيامة».

ثم يصف الإمام الصادق الطوائف التى يختلف عنها و ينفصل اتجاهه عن اتجاهها و يقول: «إنى لأرجو النجاة لهذه الأمة لمن عرف حقنا منهم إلا لأحد ثلاث:

صاحب سلطان جائر، و صاحب هوى، و الفاسق المعلن.

أما توجيهاته عليه السّلام و وصاياه لأصحابه فمنها: «اجعلوا أمركم هذا للّه و لا تجعلوه للناس، فإنه ما كان للّه فهو للّه، و ما كان للناس فلا يصعد إلى السماء، و لا

تخاصموا بدينكم، فإن المخاصمة ممرضة للقلب، إن اللّه عز و جل قال لنبيه عليه السّلام:

أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. ذروا الناس فإن الناس قد أخذوا عن الناس، و إنكم أخذتم عن رسول اللّه و عن على و لا سواء، و إنى سمعت أبى يقول:

إذا كتب اللّه على عبد أن يدخله فى هذا الأمر كان أسرع إليه من الطير إلى وكره».

إن أهل البيت عليهم السّلام جوّزوا الولاية إذا كان فيها صيانة العدل و إقامة حدود اللّه، و الإحسان إلى المؤمنين و السعى فى الإصلاح و مناصرة المظلومين و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. فإلى جانب الأحاديث الواردة عن الأئمة عليهم السّلام التى تبيّن ما على الولاة و الموظفين ممن لهم من الأمر شىء، فإن مشاعر الناس التى هاجت للمظالم التى لحقت بأل البيت و قيام الدعوة إلى الرضا من آل بيت النبى محمد، تخلق البواعث على الظهور فى مواجهة الظالمين إلى السيف و اعتباره وسيلة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، أما فعل الإمامة و توجيه صاحب الأمر الشرعى فيتمثل فى جوانب من دعوة الإمام الصادق

فی قوله: «من تولی أمرا من أمور الناس فعدل، و فتح بابه و رفع ستره، و نظر فی أمور الناس کان حقا علی اللّه عز و جل أن یؤمّن روعته یوم القیامة و یدخله الجنة».

و قال علیه السّلام:

«إذا أراد اللّه برعیته خیرا جعل لها سلطانا رحیما، و قیّض له وزیرا عادلا» «۱».

و کان عبد اللّه النجاشی والیا للمنصور علی الأهواز، و کان یری رأی الزیدیة، و قدم المدینة و دخل علی الإمام الصادق، و سأله بمسائل عدیدة، فخرج منه و قد عدل عن رأیه و قال: هذا عالم آل محمد، و لا زال یراسل الإمام و یسأله عن أهم الأمور و ما یقرّبه إلی اللّه و إلی رسوله و هو بعمله فی الولایة «۲». فبعث إلیه برسالته المشهورة و هی المیثاق الدائم الذی علیه سیرة الأئمة الطاهرین. و من جوابه علیه السّلام: «اعلم أن خلاصک و نجاتک فی حقن الدماء و کفّ الأذی عن أولیاء اللّه و الرفق بالرعیة، و التأنی و حسن المعاشرة مع لین فی غیر ضعف و شدّة فی غیر عنف».

«یا عبد اللّه إیاک أن تخیف مؤمنا، فإن أبی محمد حدّثنی عن أبیه عن جدّه

---

(۱) روضة الواعظین.

(۲) انظر الجزء الثانی و الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

علی بن أبی طالب أنه کان یقول: من نظر إلی مؤمن نظرة لیخیفه بها أخافه اللّه یوم لا ظل إلا ظلّه».

و ذکر الحلوانی فی نزهة الخاطر، أن کاتب المهدی المعروف بأبی عبد اللّه سأل الإمام الصادق عمّا یستطیع به مداراة السلطان و تدبیر أمره، فأجابه الإمام علیه السّلام بما یرشده لذلک، و شرح له طرق السلوک فی مداراة السلطان، و أوصاه بأمور هامة، و نصحه فی أشیاء کثیرة. و لا یخفی أن السائل کان کاتبا للمهدی و هو فی ولایة عهده. و کان ممن یوالی أهل البیت شأنه شأن کثیر من القوّاد و الأمراء و الکتّاب الذین دخلوا فی سلطان بنی العباس لمساعدة الضعفاء، و دفع الظلم عنهم قدر استطاعتهم بعد أن کان أساس التحاقهم بهم هو الظنّ بأنّ سلطانهم قام لنصرة آل البیت و الرضا منهم.

أما ولاة الجور فی عموم حکمهم و نظام سلطانهم، فإن الإمام الصادق سنّ قاعدة التعامل معهم و التعاون و إیاهم فی حدود الضرورة، و الإلجاء لدفع ضررهم و شرّهم، و اتقاء ظلمهم، فقال علیه السّلام و هو یجیب سائله عن جهات معاش العباد التی فیها الاکتساب و التعامل بینهم و وجوه النفقات:

«جميع المعايش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات، و يكون منها حلال من جهة، و حرام من جهة.

فأول هذه الجهات الأربعة: الولاية، ثم التجارة، ثم الصناعات، ثم الإجارة.

و الفرض من اللّه تعالى على العباد فى هذه المعاملات: الدخول فى جهات الحلال، و العمل بذلک الحلال منها، و اجتناب جهات الحرام.

فإحدى الجهتين من الولاية، ولاة العدل الذين أمر اللّه بولايتهم على الناس.

و الجهة الأخرى ولاية ولاة الجور، فوجه الحلال من الولاية ولاية الوالى العادل، و ولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالى العادل بلا زيادة و لا نقصان. فالولاية له و العمل معه، و معونته و تقويته حلال محلل.

و أما وجه الحرام من الولاية فولاية الوالى الجائر، و ولاية ولاته، فالعمل لهم و الكسب معهم بجهة الولاية لهم محرم حرام، معذّب فاعل ذلک، على قليل من فعله أو كثير. لأن كل شىء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر، و ذلک أن فى

ولاية الوالى الجائر دروس الحق كله، فلذلک حرّم العمل معهم و معونتهم و الكسب معهم إلا بجهة الضرورة، نظير الضرورة إلى الدم و الميتة» «١».

و هنا مقتضى القاعدة إقامة المعاملات ليس على أساس الإقرار بشرعية سلطانهم و ولايتهم، و لا على أساس التعاون معهم فى كل شأن و فى كل ما يأمرون به، و إنما الأمر هدنة تقدم فيها الروابط و الصلات الاجتماعية، و ما اتصل بالولاية فيجرى مجرى الضرورة و أحكامها التى لا تتعدى الحدود التى أباحها الشرع فى دفع الهلاک و المضرّة، و قد جعل الإمام الصادق لذلک كفارة من جنس العمل، فقال عليه السّلام:

«كفارة عمل السلطان: قضاء حوائج الإخوان».

و هناک بعض الأقوال للإمام الصادق التى تتعلق بهذه القاعدة كقوله: «من عذر ظالما بظلمه؛ سلّط اللّه عليه من يظلمه. و إن دعا لم يستجب له، و لم يؤجره اللّه على ظلامته».

قوله عليه السّلام: من ولّى شيئا من أمور المسلمين و ضيّعه، ضيّعه اللّه» و قوله: «من ظلم مظلمة أخذ بها فى نفسه أو فى ماله أو فى ولده».

و فى وصيته إلى محمد بن على بن النعمان- مؤمن الطاق-:

«إن من كان قبلكم كانوا يتعلّمون الصمت و أنتم تتعلمون الكلام. كان أحدهم إذا أراد التعبّد يتعلم الصمت قبل ذلک بعشر سنين، فإن كان يحسنه و يصبر عليه تعبّد، و إلا قال: ما أنا لما أروم بأهل».

«إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء، و صبر فى دولة الباطل على الأذى، أولئک النجباء الأصفياء الأولياء حقا و هم المؤمنون. إن أبغضكم إلىّ المتراسون المشّاءون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم ليسوا منى و لا أنا منهم. إنما أولیائى الذين سلّموا لأمرنا، و اتبعوا آثارنا».

«و اقتدوا بنا فى كل أمورنا ... يا ابن النعمان، إذا كانت دولة الظلم فامش و استقبل من تتقيه بالتحية، فإن المعترض للدولة قاتل نفسه و موبقها، إن اللّه يقول:

وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ «٢».

---

(١) تحف العقول.

(٢) تحف العقول.

و يبدو جليا أن الإمام يحذر من مواجهة دولة الظلم، لأن رجالها فى كلا العهدين انطوت نفوسهم على كره شديد لأهل البيت خصوصا، و حقد أسود لكل مناصر لهم فى دعوتهم إلى إقامة الحق و إطفاء الباطل، و ما زال الإمام تحفّه المخاطر و تبقى بكل وسيلة محاولات الظلمة للقضاء على ذكر أهل بيته ورثة علم المصطفى، هذا و الأمر موصول كما جرت به الأقدار و أراده اللّه، فدولة الظلم بإزائها دعوة الحق و حملة الإيمان التى يقوم بها حجج اللّه المكلّفون بالخلافة الدينية حتى يقضى اللّه بخروج حجته القائم، فكان الإمام الصادق كثيرا ما يقول:

»لكل أناس دولة يرقبونها و دولتنا فى آخر الدهر تظهر«

«١».

و يقول عليه السّلام:

«إذا قام القائم عليه السّلام، دعا الناس إلى الإسلام جديدا، و هداهم إلى أمر قد دثر، و ضلّ عنه الجمهور، و إنما سمّى المهدى مهديا لأنه يهدى إلى أمر مضلول عنه و سمى القائم لقيامه بالحق».

و من قوله عليه السّلام:

«إذا أذن اللّه تعالى للقائم فى الخروج، صعد المنبر و دعا الناس إلى نفسه، و ناشدهم باللّه، و دعاهم إلى حقّه، و أن يسير فيهم بسيرة رسول اللّه، و يعمل فيهم بعمله، فيبعث اللّه جبرئيل عليه السّلام حتى يأتيه، فينزل على الحطيم، ثم يقول له: إلى أى شىء تدعو؟ فيخبره القائم. فيقول جبرئيل: أنا أول من يبايعک، فيمسح على يده، و قد وافاه ثلاثمائة و بضعة عشر إلى المدينة».

و قال عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى: ذلِکَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِیَ عَلَیْهِ لَیَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ «إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما أخرجته قريش من مكة، و هرب منهم إلى الغار، و طلبوه ليقتلوه فعوقب. ثم فى بدر عاقب لأنه قتل عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و الوليد بن عتبة و حنظلة بن أبى سفيان و أبو جهل و غيرهم، فلما قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بغى عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين عليه السّلام و بقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السّلام بغيا و عدوانا، و القائل شعرا:

---

(١) روضة الواعظين ص ٢١٢ و ٢٦٧.

ليت أشياخى ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا و استهلّوا فرحا	ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لست من خندف إن لم أنتقم	من بنى أحمد ما كان فعل
قد قتلنا القوم من ساداتهم	و عدلناه ببدر فاعتدل

ثم قال تعالى: لَیَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ يعنى بالقائم المهدى من ولده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «١» و يروى عن أبيه الباقر عليه السّلام فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصَّالِحُونَ هم القائم و أصحابه.

ثورات العلويين

: و بمرور الأيام تزداد الشقّة بين حملة الرسالة و بين حكام الأمة بالباطل بعدا، و تصبح سيرة العلويين مآثر خالدة من التضحيات و البطولة التى تحيى فى النفوس مبادئ العدل و عقائد الإيمان، و قد بات أساس حكم الأمويين معروفا، و سياستهم واضحة فى قيامها على استهداف شخصية أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب، و النيل من مكانته فى النفوس بعد أن أمّن معاوية التأثير فى العوام و الجهلة من أهل الشام، ممن تحكمهم الأطماع و المنافع و بواسطة علماء السوء الذين جعلوا لباس صحبة معاوية للنبى محمد و غيره من الطلقاء ستارا للجاهلية التى استسلمت يوم الفتح، و أعطت عن يد صاغرة لتهدأ إلى حين، و قد وضعت فى حسابها مسايرة الأحداث و مماشاة الإسلام، فكانت تلک الأحداث التى اتجهت إلى إبعاد أهل بيت النبوة عن

منازلهم الحقيقية و مراكزهم التى أرادها اللّه لهم، لتأمين دوام الدعوة و بقاء الرسالة على أصولها و مبادئها، و كلما اتسعت مجالات الانحراف عن قواعد الإسلام و أحكامه، أصبحت الدعوة إلى مقاومة الباطل و القضاء على الانحراف شديدة تنطلق بها الحناجر، و تزهق من أجلها الأرواح و تهرق الدماء، و قد جعل اللّه لأمناء دعوة الإسلام فى مواجهة الباطل و الضلال أزمانا هم بالغوها بما عهد إليهم، و جرت به مقاديرهم التى تمضى فى مسلك الإمامة و الخلافة الكبرى.

غير أن العلويين و قد باتوا فى مواجهة الجاهلية بأصنافها و الباطل بطوائفه، كانوا سياج الإمامة و جندها، فملئوا الأرض بآثار التقوى و شواهد الحق، و وضعوا نصب

---

(١) ينابيع المودة للقندوزى الحنفى ص ٥١٠.

أعينهم ما قدّر لأهل بيتهم و ما وضع فى أعناقهم و ما وجب على أمتهم من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر. و هم قدوة الناس و قادتها تتطلع إليهم النفوس فى المهمات، و تشرئب إليهم الأعناق فى الملمات، فلمّا وجدوا أن أميّة لا تقف عند حد فى عدائها لأهل البيت، و لا ترعوى و تترك المجاهرة بالضلال و المعالنة بالباطل، نهضوا بنداء أبيهم الحسين مرة أخرى، و أعادوا صفحات البطولة و الفداء.

و قد سلك الأمويون مسلكا حاولوا فيه تشتيت العلويين و تمزيق صفوفهم، بعد أن أحاطوهم بما يبقى نشاطهم تحت أعين عمّالهم، بتوجيه رقابة شديدة، و الاحتيال للتقرب منهم طمعا فى إزالة صفات النقمة و الابتعاد عن حكم الأمويين. تلك الصفات التى تضعف موقع الأمويين فى النفوس التى تتقرب منها، و تلهب المشاعر فى القلوب التى تقف إلى صف أهل البيت.

و قد كان هشام بن عبد الملك يزيدا آخر فى سلسلة الطغاة الأمويين، اتسم بكل قبائحه، و اتصف بالبذاءة و الحقد و اللؤم، و قد أدت السياسة التى يتبعها إلى أن يسمع ما يكشف الغشاوة و يزيلها عن عينيه لما دخل عليه الشهيد زيد بن على فقال له: ليس أحد من عباد اللّه دون أن يوصى بتقوى اللّه سبحانه، و لا أحد فوق أن يوصى بتقوى اللّه سبحانه، و أنا أوصيك بتقوى اللّه.

فقال هشام: أنت زيد المؤمّل للخلافة، الراجى لها، و ما أنت و الخلافة، لا أم لک، و أنت ابن أمة.

فقال زيد: لا أعلم أحدا أعظم منزلة عند اللّه من نبى بعثه و هو ابن أمة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام ما يقصرک برجل جدّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أبوه على بن أبى طالب.

فوثب هشام و وثب الشاميون و دعى قهرمانه و قال: لا يبيتن هذا فى عسكرى الليلة. فخرج زيد عليه السّلام و هو يقول لهشام: أخرج ثم لا ترانى إلا حيث تكره. ثم قال هشام: أ لستم تزعمون أن أهل هذا قد بادوا، و لعمرى ما انقرض من حقل هذا خلفهم «١».

و كانت قضية الخلاف فى أوقاف الإمام على و ولايتها مدخلا عتّبته أرجل

---

(١) للمزيد انظر الجزء الأول ص ١٢٤- ١٢٧ و قد ضمّ كتابنا الذى أنجزناه (العلوى الثائر) ترجمة و بحثا عن الشهيد زيد.

الأمويين الدنسة، و امتدت من طريقه أيديهم القذرة لإذكاء الخصومة بين بنى الحسين و بنى الحسن. و لا ندخل فى تفاصيل هذا الخلاف الذى أسهبت المصادر فى ذكرها و الكثير منها يحتاج إلى تدقيق و أناة فى النظر، لتبيّن دور الأمويين فى كل ما نسب إلى أىّ من الطرفين، و عندى أن هذه السبيل التى سلكها الأمويون كان الغرض منها حمل العلويين على اللجوء إلى بنى أمية، و فى ذلك خدمة لسياستهم، إذ تظهر العلويين بمظهر الاعتراف بسلطان الأمويين و التحاكم إليهم، و قد أبطل الطرفان ما استتبع ذلك من سياسة و أغراض أرادها الأمويون، فقد فطن عبد اللّه بن الحسن و زيد بن على لشماتة الوالى بهما، فذهب عبد اللّه ليتكلم، فطلب إليه زيد فسكت، و قال زيد للوالى: أم و اللّه لقد جمعتنا لأمر ما كان أبو بكر و عمر ليجمعانا على مثله، و إنى أشهد اللّه أن لا أنازعه إليك محقّا و لا مبطلا ما كنت حيا. ثم قال لعبد اللّه: انهض يا ابن عم. فنهضا و تفرّق الناس «١». و قد كان من فعل الوالى لشدّ الأنظار إلى هذا الخلاف إن كانت المدينة تغلى كالمرجل، يقول قائل كذا، و قائل كذا، قائل يقول قال زيد كذا، و قائل يقول قال عبد اللّه كذا.

و يتخوّف هشام بن عبد الملك من دخول زيد العراق، فيكتب إلى عامله (أنه رأى زيدا رجلا جدلا لسنا خليقا لتمويه الكلام و صوغه، و اجترار الرجال بحلاوة لسانه و بكثرة مخارجه فى حججه، و ما يدلى به عند لدد الخصام من السطوة على الخصم بالقوة الحادة لنيل الفلج) و هشام بذلك يفصح عن خذلان منطقه و عجزه عن الوقوف أمام كلام زيد الذى يستمد من القرآن حججه، فيملأ قوله آيات بينات، و يستملى من الحقائق لغته، أما السطوة فهى من فيض النبوة و تسديد اللّه مما منع منه هشام و أهله لفسقهم و ظلمهم. فتراه مذعورا يكتب إلى عامله بهذا، و منه: (فعجّل بإشخاصه- أى زيد- إلى الحجاز، و لا تخله و المقام قبلك، فإنه إن أعاره القوم أسماعهم فحشاها من لين لفظه و حلاوة منطقه مع ما يدلى به من القرابة برسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وجدهم ميّلا إليه).

ثم قامت ثورة الشهيد زيد فى سنة ١٢٤ ه على اختلاف فى الروايات، منها إحدى و عشرين و مائة و ما بين ذلك. فلما خفقت الراية على رأسه قال: (الحمد للّه الذى أكمل لى دينى، و اللّه إنى كنت أستحيى من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن أرد عليه الحوض

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ٢٦٢.

غدا و لم آمر فی أمته بمعروف و لا أنهی عن منکر) «۱».

و حینما أخبر الإمام الصادق علیه السّلام عن مقتله و ما جری علیه، بکی بکاء شدیدا و قال: «إنا للّه و إنا إلیه راجعون، عند اللّه احتسب عمی» ثم قال: «مضی و اللّه شهیدا، کشهداء استشهدوا مع رسول اللّه و علی و الحسین». و قال علیه السّلام: «فلعن اللّه قاتله و خاذله، و إلی اللّه أشکو ما نزل بأهل بیت نبیه بعد موته، و نستعین اللّه علی عدوّنا و هو المستعان» «۲».

و هکذا حلّت بالمسلمین فاجعة أخری، و إن کان أمرها معروفا فیما کان لدی الأئمة الأطهار من علم، إذ قال له أبوه الإمام زین العابدین: «أعیذک باللّه أن تکون زیدا المصاب بالکناسة». و بلفظ: «أعیذک باللّه أن تکون صلیب الکناسة».

و ثورة الشهید زید هی من مقتضیات الحال، و من الأعمال التی تنجم عن جور الحکام و ظلمهم لآل بیت النبی محمد، و هی إحیاء للحق، و عمل بأمر اللّه فی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر. و لذلک قال الإمام الصادق: «إن زیدا کان عالما، و کان معروفا، و لم یدعکم إلی نفسه، و إنما دعاکم إلی الرضا من آل محمد. و لو ظهر لوفی بما دعاکم إلیه، إنما خرج علی سلطان مجتمع ینقضه».

و ما اعتقده البعض من إمامته کان سببه (خروجه بالسیف یدعو إلی الرضا من آل محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فظنّوه یرید بذلک نفسه و لم یکن یریدها به، لمعرفته باستحقاق ابن أخیه (الصادق) علیه السّلام للإمامة من قبله، و وصیته عند وفاته إلی أبی عبد اللّه علیه السّلام) «۳».

و قول زید بن علی مشهور: (فی کل زمان رجل منّا أهل البیت، یحتج اللّه به علی خلقه، و حجة زماننا ابن أخی جعفر، لا یضلّ من تبعه، و لا یهتدی من خالفه) «۴».

و قد کان وقع المأساة عظیما فی نفس الإمام الصادق، و أثرها شدیدا فی نفسه، فلما بلغه قول الحکم بن عباس الکلبی:

صلبنا لکم زیدا علی جذع نخلة و لم أر مهدیّا علی الجذع یصلب

---

(۱) عمدة الطالب ص ۲۵۶. و صحاح الأخبار لأبی المعالی الرفاعی ص ۳۶.

(۲) انظر الجزء الرابع من هذا الکتاب.

(۳) الإرشاد ص ۲۵۱.

(۴) المناقب لابن شهر أشوب ج ۲ ص ۱۴۷. و انظر الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

رفع الإمام يديه إلى السماء و قال: «اللهم سلّط عليه كلبا من كلابک» فبعثه بنو أمية إلى الكوفة، فافترسه الأسد فى الطريق، فبلغ الإمام ذلک فخرّ ساجدا و قال:

«الحمد للّه الذى أنجزنا وعده» «۱».

و يستفاد من الروايات أنه عليه السّلام جلس للعزاء، و دخل الناس عليه يعزّونه.

يقول فضيل الرسان: دخلت على جعفر بن محمد أعزّيه عن عمّه زيد، ثم قلت له:

أ لا أنشدک شعر السيد- الحميرى-؟ فقال: «أنشد». فأنشدته:

فالناس يوم البعث راياتهم	خمس فمنها هالک أربع
قائدها العجل و فرعونهم	و سامرىّ الأمة المفظع
و مارق من دينه مخرج	أسود عبد لكع أو كلع
و راية قائدها وجهه	كأنه الشمس إذا تطلع

و روى الشيخ أبو نصر البخارى عن محمد بن عمير أنه قال: قال عبد الرحمن ابن سيّابة: أعطانى جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام ألف دينار، و أمرنى أن أفرّقها فى عيال من أصيب مع زيد، فأصاب كل رجل أربعة دنانير «۲».

و تكفل الإمام الصادق بالحسين بن زيد، و ربّاه و علمه. أما يحيى فخرج إلى المدائن، ثم إلى الرى، و منها إلى نيسابور و سرخس، حتى قتل بالجوزجان.

يروى عمير بن متوكل الثقفى عن أبيه قال: لقيت يحيى بن زيد بن على عليه السّلام و هو متوجه إلى خراسان بعد قتل أبيه، فسلّمت عليه، فقال لى: من أين أقبلت؟ قلت من الحج. فسألنى عن أهله و بنى عمه بالمدينة، و أخفى السؤال عن جعفر بن محمد عليه السّلام فأخبرته بخبره و خبرهم و حزنهم على أبيه زيد بن على، فقال لى: قد كان عمى محمد بن على عليه السّلام أشار على أبى بترک الخروج، و عرّفه إن هو خرج و فارق المدينة ما يكون إليه مصير أمه، فهل لقيت ابن عمى جعفر بن محمد عليه السّلام؟ قلت: نعم. قال: فهل سمعته يذكر شيئا من أمرى؟ قلت نعم. قال:

بم ذكرنى؟ خبّرنى. قلت: جعلت فداک ما أحب أن أستقبلک بما سمعته منه. فقال:

أ بالموت تخوفنى؟ هات ما سمعته. فقلت: سمعته يقول: إنک تقتل و تصلب كما قتل

(۱) الكواكب الدرية للمناوى و نور الأبصار للشبلنجىّ ص ۱۴۷.

(۲) عمدة الطالب و صحاح الأخبار. و رجال الشيخ محمد طه نجف فى ترجمة عبد الرحمن.

أبوک و صلب. فتغير وجهه و قال: يمحو اللّه ما يشاء و يثبت و عنده أم الكتاب، يا متوكل إن اللّه عز و جل أيد هذا الأمر بنا، و جعل لنا العلم و السيف، فجمعنا لنا و خص بنو عمنا بالعلم وحده «۱». فقلت: جعلت فداک، إن رأيت الناس إلى ابن عمک جعفر عليه السّلام أميل منهم إليک و إلى أبيک؟ فقال: إن عمى محمد بن على و ابنه جعفرا عليهما السّلام دعوا الناس إلى الحياة، و نحن دعوناهم إلى الموت. فقلت: يا ابن رسول اللّه أهم أعلم أم أنتم، فأطرق إلى الأرض مليا، ثم رفع رأسه و قال: كلنا له علم، غير أنهم يعلمون كلما نعلم، و لا نعلم كلما يعلمون. ثم قال: أ كتبت من ابن عمى شيئا؟ قلت: نعم «۲».

و تنتشر ثورات العلويين و تمتد، فهم سلالة أمير أهل العدل و يعسوب الدين و أول المسلمين إسلاما الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام و هم جند الدعوة و رجال الحق و الآباء الذين يأبون الضيم و يأنفون الاستكانة للظالمين. و قد ارتكب الأمويون من المجازر و المظالم ما يهزّ ضمائر أهل الذمة و أصحاب الملل و الشرائع الأخرى فضلا عن استثارتها مشاعر المؤمنين و استهوالهم ما حدث، و جنّدوا كل ما تحت أيديهم للقضاء على ذكر الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام و قتل و تشريد أهل بيته و أصحابه و شيعته، فكانت النفوس تغلى بنار النقمة، و لما أخذت دولة الأمويين تنحدر إلى نهايتها و يظهر ضعفها، نمت حركة التحوّل و التغيّر فى ظل الاتجاه الذى تنحدر إلى نهايتها و يظهر ضعفها، نمت حركة التحوّل و التغيّر فى ظل الاتجاه الذى اتخذه العلويون، و كانت مظالمهم مادة الحركة و مدارها. يقول أبو الفرج: فكان أول ما يظهرونه فضل على بن أبى طالب و ولده و ما لحقهم من القتل و الخوف و التشريد، فإذا استتب لهم الأمر ادعى كل فريق منهم الوصية لمن يدعو إليه «۳». و قد ذكرنا و بيّنا فى الأجزاء السابقة من الكتاب أن العباسيين دخلوا فى ثنايا هذه الدعوة، و أظهروا ما أظهر الآخرون و هم فى قرارات أنفسهم يخفون وراء الدعوة إلى الرضا من آل محمد أطماعا خاصة، و أغراضا سلطوية لو أبدوها للفظهم الناس من بين صفوفهم و رفضهم كافة بنى هاشم.

(۱) سيأتى ذكر سيف النبى محمد و وجوده عند الإمام الصادق بعد قليل إن شاء اللّه.

(۲) وردت الرواية فى التقديم للصحيفة السجادية، و إنما سقتها هنا للتدليل على أن العلم الذى يختص به الإمام لا ينازع حتى أن يحيى باستفساره الأخير كان يطلب التواصل مع ما يصدر عن الإمام الصادق.

(۳) مقاتل الطالبيين ص ۲۳۳.

و كان اجتماع الأبواء «۱» و حضره جماعة من بنى هاشم، فقال صالح بن على:

قد علمتم أنكم الذين تمدّ الناس أعينهم إليهم، و قد جمعكم اللّه فى هذا الموضع، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تعطونه إياها من أنفسكم، و تواثقوا على ذلک حتى يفتح اللّه و هو خير الفاتحين.

و يروى أبو الفرج أن أبا جعفر المنصور قال: لأى شىء تخدعون أنفسكم، و و اللّه لقد علمتم ما الناس إلى أحد أميل أعناقا و لا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى- يريد محمد بن عبد اللّه بن الحسن- و إذا نظرت فإن أبا جعفر ثانى الخلفاء العباسيين و ممن أسسوا الدولة العباسية و هو قاتل محمد بن عبد اللّه النفس الزكية و أخيه إبراهيم، و لكنه يومئذ لا يعدّ له وزن و لا تحسب له قيمة، بل هو ليس بشىء إذا ما قورن بمحمد النفس الزكية بفقهه و ورعه وجوده. و قد أظهر ذلک لأمر، بل أكثر منه ما يحدث به عمير بن الفضل الخثعمى، قال:

رأيت أبا جعفر المنصور يوما، و قد خرج محمد بن عبد اللّه بن الحسن من دار ابنه، و له فرس واقف على الباب مع عبد له أسود، و أبو جعفر ينتظره، فلما خرج وثب أبو جعفر فأخذ بردائه حتى ركب، ثم سوّى ثيابه على السرج، و مضى محمد فقلت- و كنت حينئذ أعرفه و لا أعرف محمدا-: من هذا الذى أعظمته هذا الإعظام حتى أخذت بركابه، و سوّيت عليه ثيابه؟ قال: أو ما تعرفه؟ قلت: لا. قال: هذا محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن، مهديّنا أهل البيت.

و قد علمنا سابقا كيف كان الإمام الصادق يبين مسألة المهدى، كما أن حقيقة هذه الدعوى من جهة الأغراض السياسية معلومة، أما حقيقتها من جهة العلويين فليست محققة و لا مضمونة الصحة، لأن الحسينيين- من آباء عبد اللّه و ابنه محمد- لم يدّع أحد منهم الإمامة، و قد قضى الحسن المثنى و لم يظهر منه ما يخالف النص و الولاية، و حاشاهم ذلک، فظهور الفضل فى أبناء عمهم جلى (و إلا فمن يخفى عليه فضل زين العابدين على بن الحسين السجّاد عليه السّلام على الحسن بن الحسن و عبد اللّه بن الحسن. و فضل الباقر محمد بن على عليه السّلام على محمد بن

---

(۱) موضع بين مكة و المدينة.

عبد اللّه بن الحسن و إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن) «۱» أما الإمام الصادق فلا يمكن أن ينعقد أمر يخص الأمة و مصالح المسلمين دون رأيه، فهو الذى يمثل الإمامة و له بين الناس الأثر البالغ. و لما اجتمع بنو هاشم، و خطبهم عبد اللّه بن الحسن، فحمد اللّه و أثنى عليه قال: إنكم أهل البيت قد فضّلكم اللّه بالرسالة و اختاركم لها، و أكثركم بركة يا ذرية محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. إلى آخر الخطبة التى قال فيها: فهلم نبايع محمدا، فقد علمتم أنه المهدى. فلا يعتقد منه الظاهر من القول، لأن كثيرا من الروايات عن عبد اللّه نفسه تدفع ذلک، منها رواية المقانعى بسنده عن محمد بن بشر قال: قال رجل لعبد اللّه بن الحسن: متى يخرج محمد؟ قال: لا يخرج حتى أموت. و هو مقتول.

و كان عمرو بن عبيد ينكر أن يكون محمد بن عبد اللّه هو المهدى و يقول:

كيف و هو يقتل؟

و إذا سلّمنا صحة القول، فلا وجه له إلا التيمن باسم المهدى، أو الإشارة إلى صفة محمد فى الهداية و الورع، كتسمية (النفس الزكية) التى هى أوضح و لا تفضى إلى لبس، و كذلک وصفه بالشبه.

و بعد أن انتهى عبد اللّه بن الحسن من خطبته فى الاجتماع قالوا: لم يجتمع أصحابنا بعد، و لو اجتمعوا فعلنا، و لسنا نرى أبا عبد اللّه جعفر بن محمد «٢».

و فيما وراء العلويين كان العلماء و أصحاب الفكر كالمعتزلة الذين كانوا أبرز الجماعات الفكرية فى هذه الفترة، بلغ من شهرتهم أن نسبوا الإمام زيد إلى حركتهم، و كذلک محمد النفس الزكية، و هى نسبة لا أساس لها من الواقع، و لا تتم فى إطار المنطق، لأن الأولى أن ينسب بعض وجوه فكر المعتزلة إلى هذين الرجلين لا العكس.

يروى عبد الكريم بن عتبة الهاشمى قال: كنت عند أبى عبد اللّه عليه السّلام بمكة إذ دخل عليه أناس من المعتزلة، فيهم: عمر بن عبيد، و واصل بن عطاء،

---

(١) انظر المسائل الجارودية فى تعيين الخلافة و الإمامة فى ولد الحسين بن على عليه السّلام للشيخ المفيد ص ٥٢.

(٢) مقاتل الطالبيين.

و حفص بن سالم و أناس من رؤسائهم. و ذلک أنه حين قتل الوليد، و اختلف أهل الشام بينهم فتكلموا فأكثروا، و خطبوا فأطالوا.

فقال لهم أبو عبد اللّه جعفر بن محمد عليه السّلام: «إنكم قد أكثرتم علىّ فأطلتم، فاسندوا أمركم إلى رجل منكم، فليتكلم بحجتكم أو ليوجز».

فاسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فأبلغ و أطال. فكان فيما قال أن قال: قتل أهل الشام خليفتهم، و ضرب اللّه بعضهم ببعض، و تشتّت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلا له دين و عقل و مروة و معدن للخلافة و هو محمد بن عبد اللّه بن الحسن، فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه، ثم نظهر أمرنا معه، و ندعو الناس إليه، فمن كنا معه كان منّا، و من اعتزلنا كففنا عنه، و من نصب لنا جاهدناه و نصبنا له على بغيه و نردّه إلى الحق و أهله، و قد أحببنا أن نعرض ذلک عليک، فإنه لا غنى بنا عن مثلک لفضلک و لكثرة شيعتک «١». و جرت بذلک مناظرة احتج فيها الإمام بما عهد عنه من الوضوح و السطوة و الفلج، و لو لا أخذنا بالإيجاز و

تجاوزنا فی هذا الفصل ما قرر له من حدود لأوردناها بطولها لغناها و شمولها، و لکن نکتفی بما ختم به الإمام الصادق قوله، إذ أقبل علی عمرو و قال:

«اتّق اللّه یا عمرو، و أنتم أیها الرهط فاتقوا اللّه، فإن أبی حدثنی- و کان خیر أهل الأرض و أعلمهم بکتاب اللّه و سنة رسوله- أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: من ضرب الناس بسیفه و دعاهم إلی نفسه، و فی المسلمین من هو أعلم منه فهو ضال متکلّف».

و الظاهر أن بنی هاشم عقدوا أکثر من اجتماع، منها ما حضره الإمام الصادق، و منها ما لم یحضره، و النوع الأخیر حال دون انعقاد أمرهم علی شیء لغیاب الإمام عنه. أما أن یکون اجتماعا واحدا، و هو ما تشعر به روایة ابن الطقطقی فهو بعید، و لا بد أن ابن الطقطقی جمع الأحداث فی مدلول واحد، و من الخیر إیراد روایته:

یقول ابن الطقطقی: کان بنو هاشم الطالبیون و العباسیون قد اجتمعوا فی ذیل دولة بنی أمیة، و تذاکروا حالهم و ما هم علیه من الاضطهاد، و ما قد آل إلیه أمر بنی أمیة من الاضطراب، و میل الناس إلیهم و محبتهم لأن تکون لهم دعوة، و اتفقوا علی أن یدعوا الناس سرا، ثم قالوا: لا بد لنا من رئیس نبایعه. فاتفقوا علی مبایعة النفس

---

(۱) الاحتجاج للطبرسی.

الزکیة محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علی بن أبی طالب علیهم السّلام و کان محمد بن سادات بنی هاشم و رجالهم فضلا و شرفا و علما، و کان هذا المجلس قد حضره أعیان بنی هاشم من علویهم و عباسیهم، فحضره من أعیان الطالبیین: الصادق جعفر بن محمد علیهما السّلام، و عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علی بن أبی طالب، و ابناه محمد النفس الزکیة و إبراهیم قتیل باخمری و جماعة من الطالبیین. و من أعیان العباسیین: السفاح و المنصور و غیرهما من آل العباس. فاتفق الجمیع علی مبایعة النفس الزکیة، إلا الإمام جعفر بن محمد الصادق ... الخ «۱».

و الغرض فإن العباسیین حاولوا دفع العلویین بالاتجاه الذی یمکنهم من تحقیق أغراضهم، و زجّهم فی المعترک السیاسی، لأنهم یعلمون بالخطة التی اختطها الإمام الصادق لنفسه و لأبناء عمومته، من الانعزال عن تلک الاتجاهات، و الاحتفاظ بمرکزهم الدینی، لأن الظروف غیر مؤاتیة للثورة، و کل شیء یقع قبل أوانه یؤدی به التعجیل إلی الفشل، و لکن العباسیین استطاعوا صدع الصف العلوی بجلب البعض إلیهم من بنی الحسن.

و یذکر أبو الفتح الشهرستانی- بعد ذکره لمقتل یحیی بن زید و محمد و إبراهیم (رض)- أن الإمام الصادق علیه السّلام أخبرهم بجمیع ما تمّ علیهم، و عرّفهم أن آباءه علیه السّلام أخبروه بذلک کله، و أن بنی أمیة یتطاولون علی الناس حتی لو طاولتهم الجبال لطالوا علیها، و هم یستشعرون بغض أهل البیت، و لا یجوز أن یخرج واحد من أهل البیت حتی یأذن اللّه تعالی بزوال

ملكهم. و كان يشير إلى أبى العباس و أبى جعفر ابن محمد بن على بن عبد اللّه بن العباس: «أنا نخوض الأمر حتى يتلاعب بها هذا و أولاده» إشارة إلى المنصور «٢».

و صفوة القول أن الإمام الصادق هو الوحيد الذى لا يقع تحت تأثير المنافع القريبة و المصالح الظاهرة، فهو الإمام الذى أهّله اللّه للقيادة و العلم بعواقب الأمور، و استشفاف ما وراء الحوادث، فلم يخدع بتلك المغريات و يعرّض نفسه و أهل بيته، بل المجتمع الإسلامى كله لخطر لا قبل لهم على دفعه.

---

(١) الفخرى ص ١۴۶ و ١۴٧.

(٢) الملل و النحل ج ٢ ص ٢۵٢- ٢۵٣.

ذكر كثير من المؤرخين أن أبا سلمة «١» كاتب ثلاثة من أعيان العلويين و هم:

جعفر بن محمد الصادق، و عمر الأشرف بن زين العابدين. و عبد اللّه المحض، و أرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمد بن عبد الرحمن بن أسلم مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال أبو سلمة للرسول: العجل العجل، فلا تكونن كوافد عاد. و قال له: أقصد أولا جعفر بن محمد الصادق، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين، و إن لم يجب فالق عبد اللّه المحض، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر، و إن لم يجب فالق عمرا:

فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولا، و دفع إليه كتاب أبى سلمة، فقال الإمام عليه السّلام: «مالى و لأبى سلمة؟ و هو شيعة لغيرى» فقال له الرجل: اقرأ الكتاب.

فقال عليه السّلام لخادمه: «أدن السراج منّى» فأدناه. فوضع الكتاب على النار حتى احترق، فقال الرسول: أ لا تجيبه؟ قال عليه السّلام: «قد رأيت الجواب، عرّف صاحبك بما رأيت».

فخرج الرسول من عنده، و أتى عبد اللّه بن الحسن، و دفع إليه الكتاب و قرأه، و ابتهج، فلما كان غد ذلك اليوم الذى وصل إليه فيه الكتاب، ركب عبد اللّه حتى أتى منزل أبى عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق، فلما رآه أبو عبد اللّه أكبر مجيئه و قال:

«يا أبا محمد (كنية عبد اللّه المحض) أمر ما أتى بك؟» قال: نعم هو أجلّ من أن يوصف. فقال له: «و ما هو يا أبا محمد؟» قال: هذا كتاب أبى سلمة يدعونى إلى الخلافة، و قد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان. فقال له أبو عبد اللّه: «يا أبا محمد، و متى كان أهل خراسان شيعة لك؟» أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان، و أنت أمرتهم بلبس السواد؟ و هؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجّهت فيهم؟ و هل تعرف منهم أحدا؟» فنازعه عبد اللّه بن الحسن الكلام إلى أن قال: إنما يريد

القوم ابنى محمدا لأنه مهدى هذه الأمة. فقال أبو عبد اللّه جعفر الصادق: «ما هو مهدى هذه الأمة، و لئن شهر سيفه ليقتلنّ» «٢».

---

(١) انظر ترجمته فى الجزء الرابع من هذا الكتاب.

(٢) إن عدم احتجاج الإمام الصادق بالمعروف من الأحاديث عن القائم المهدى، و ردّ قول عبد اللّه بالنصوص التى يعرفها عبد اللّه أيضا، يحمل على الاعتقاد بأن القول بمهدية محمد ليس بما يعنيه الاعتقاد الحقيقى بالإمام المهدى، و إنما لأغراض جذب الناس إليه و زيادة التعريف به.

فقال عبد اللّه: كان هذا الكلام منك لشيء؟ فقال الصادق: «قد علم اللّه أنى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم، فكيف أدّخره عنك، فلا تمنّ نفسك بالأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء. و قد جاءنى مثل الكتاب الذى جاءك» «١».

لقد بذل الإمام لأبناء عمه النصح، و جهد أن يجنّبهم المهالك، و يبصّرهم بعاقبة ما يقدمون عليه، بعد أن مرّت الأيام، و حدث التحوّل السياسى. فقد جاءت محاولة أبى سلمة متأخرة، لذا نرى الإمام الصادق عليه السّلام يشير إلى أبى مسلم و أهل خراسان و لبس السواد، فكان عليه أن يحذّر الحسينيين، فلقى منهم استنكارا و اتهاما.

و لكنه عليه السّلام كان يرى ما لا يرونه، و يعجزون عن معرفته، حتى كأن العواقب و مجريات الأحداث القادمة يقرأها فى كتاب أمامه.

كما إنه عليه السّلام لم يكشف من قبل عن رأيه فى صور من التقرب كانت تبدر من أبناء عمومته تجاه الحكام الظلمة و التقائهم بالأمويين، فيما كان عليه السّلام مشغولا بالواجبات الدينية و معالجة ما يعانى منه المسلمون، و حماية نفسه و شيعته من سلطان الجور و حكم الطغاة، فلما قتل زيدا يوسف بن عمرو صلب جثته بالكناسة، و بعث برأسه مع شبّة بن عقال، و كلّف آل أبى طالب البراءة من زيد، و قام خطباؤهم، فكان أول من قام عبد اللّه بن الحسن، فأوجز فى كلامه، ثم جلس. و قام عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر، فأطنب «٢». و إن صحّ ذلك، ففيه تجاوز لمقتضيات الحيطة و ضرورات التقية.

و إن الإمام الصادق فى كيانه الروحى و الفكرى كان على نهجه فى عدم التقرب إلى الحكام و الالتقاء معهم إلا فى حدود دفع الخطر و الهلاك، و كانت مصيبة زيد- كما أشرنا- قد آلمته كثيرا و أحزنته، و لكنه عليه السّلام أظهر موقع ثورة زيد و الموقف منها. و لما بدأت فى ظل العباسيين بوادر ثورة جديدة هى ثورة النفس الزكية بعد جهده فى حملهم على العدول عن فكرة التعرّض لبنى العباس بدولتهم، و أن فى طرق الإصلاح سعة، و الدعوة بين المسلمين بمبادئ العدل و الإيمان هى أمان الأمة. و من نتائج منهج الإمام أن يكون المسلم على علم بانحراف الحكام، و يتعقب جورهم و فسادهم و باطلهم بالقول و الوعى، حتى كانت بيئة مدرسته عليه السّلام و أوضاع حياته

(۱) الآداب السلطانية ص ۱۳۷. و مروج الذهب ج ۳ ص ۲۶۹.

(۲) زهر الآداب ج ۱ ص ۷۹.

إطارا لسلطة الإمامة الروحية التى لها فى الأحداث رأى يصيب كبد الحقيقة، فرأى الإمام أن البيت العلوى مقبل على مأساة أخرى سيقدّم فيها الدماء و الأرواح، و كان عليه أن يسعى إلى حفظ هذه الدماء و حماية أهله، فأتى محمدا النفس الزكية و قال له:

«تحب أن يصطلم أهل بيتک؟» و لو لا حرصه على ذلک لكان أول من يعلن الثورة، و لكن كيف يدفع بأهله و الناس إلى التهلكة؟ و لقد كان عليه السّلام من وفائه لأغراض العدل أن ترک ولديه موسى و عبد اللّه، و لم يبخل بهما على الثورة العلوية التى أدى استئثار العباسيين و تنصلهم من أقرب الناس إليهم إلى إصرار محمد و اندفاعه فى الخروج لأنه يرى نفسه صاحب الأمر و المنصور قد بايع له.

كما كان الإمام يرمى إلى أن يحفظ مكانة البيت العلوى الذى تمثلت به القيادة الروحية. غير أن حقد المنصور قد وجد الذريعة للاعتداء على مكانة أهل البيت و سفک دمائهم، فعن الحسين بن زيد: إنى لواقف بين القبر و المنبر، إذا رأيت بنى الحسن يخرج بهم من دار مروان مع أبى الأزهر، يراد بهم الربذة. فأرسل إلىّ جعفر بن محمد فقال: «ما وراءک؟» قلت: رأيت بنى الحسن يخرج بهم فى محامل.

فقال: «أجلس» فجلست. قال: فدعا غلاما له، ثم دعا ربّه كثيرا، ثم قال لغلامه:

«اذهب، فإذا حملوا فات فأخبرنى». قال: فأتاه الرسول فقال: قد أقبل بهم. فقام جعفر، فوقف وراء ستر شعر أبيض من ورائه، فطلع بعبد اللّه بن الحسن و إبراهيم بن الحسن و جميع أهلهم، كل واحد منهم معادله مسوّد «۱» فلما نظر إليهم جعفر، هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته، ثم أقبل علىّ فقال: «يا أبا عبد اللّه و اللّه لا تحفظ للّه حرمة بعد هؤلاء، و اللّه ما وفت الأنصار و لا أبناء الأنصار لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما أعطوه من البيعة على العقبة» «۲».

و نال حقد المنصور من الإمام الصادق نفسه؛ بل انفلت عداؤه، و حدث ما كان يخشاه الإمام، فكلّم الإمام بكلام غليظ و نهره و قال: يا جعفر، قد علمت بفعل محمد بن عبد اللّه الذى تسمّونه النفس الزكية، و ما نزل به، و إنما انتظر الآن أن يتحرک منكم أحد فألحق الصغير بالكبير «۳».

(۱) أى أن كل واحد منهم جلس على الجهة الأخرى من محمله شخص من العباسيين أو أنصارهم الذين يلبسون السواد شعارا لهم- للمعادلة فى حفظ استقرار المحمل-.

(۲) الطبرى ج ۹ ص ۱۹۴. و مقاتل الطالبين ۲۱۹.

(۳) نور الأبصار.

ص: ۳۵۵

و عن على بن عمر بن على قال: سمعته- أى الإمام الصادق- حين أمره أبو جعفر أن يسير إلى الربذة فقال: «يا على ... سر معى» فسرت معه إلى الربذة، فدخل على أبى جعفر، و قمت أنتظره، فخرج علىّ جعفر و عيناه تذرفان، فقال لى: يا على ما لقيت من ابن الخبيثة، و اللّه لا أمضى، ثم قال: رحم اللّه ابنى هند، إنهما إن كانا لصابرين كريمين. و اللّه لقد قضيا و لم يصبهما دنس ... ا ه.

و نحن إذا نظرنا فى التاريخ لرأينا أن سنة معاوية و سياسة الحجاج باقيتان متأصلتان فى الملك رغم التحول السياسى. فالمنصور بعد مذبحة أحجار الزيت التى استشهد فيها محمد النفس الزكية، و مذبحة باخمرى التى استشهد فيها أخوه إبراهيم يقول لجلسائه: تاللّه ما رأيت رجلا أنصح من الحجاج لبنى مروان. فقام المسيّب بن زهير الضبى فقال: يا أمير المؤمنين ما سبقنا الحجاج بأمر تخلّفنا عنه، و اللّه ما خلق على جديد الأرض خلقا أعزّ علينا من نبينا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك و فعلنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟ فقال له المنصور: اجلس لا جلست «۱».

قال الأصمعى: أحضر يوما إلى أبى جعفر هريسة الفستق، و معها مصارين الدجاج محشوة بشحم البط و السكر و دهن الفستق. فقال: إن إبراهيم و محمد أرادا أن يسبقانى إلى هذا، فسبقتهما إليه.

و ذكر أيضا أن المنصور هيئت له عجة من مخ و سكر، فاستطابها فقال: أراد إبراهيم أن يحرمنى هذا و أشباهه «۲».

لقد كان الإمام الصادق يقول: «إن اللّه أخبر نبيه بما يلقى أهل بيت محمد و أهل مودتهم و شيعتهم» و الإخبار هذا اشتملت عليه علوم الإمامة التى وصلت إلى الإمام الصادق بالوصاية و النص.

و قد كان الإمام على وارث علم محمد و سلاحه، و هما مع الإمامة و من علاماتها أن من صار إليه السلاح أوتى الإمامة، للدلالة على الأهلية بالخلافة عن الرسول فى الرئاسة الدينية و الزعامة الروحية. كذلك درعه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لامته و مغفرته.

و لذلك كان الادعاء بحيازة عبد اللّه بن الحسن لهذا السيف من ضروب الدعاوى لهم

---

(۱) مروج الذهب.

(۲) مروج الذهب ج ۳ ص ۳۰۹.

كقضية التشبّه بالمهدى، و نفى الإمام الصادق ذلک قائلا: «... ما رآه عبد اللّه بعينيه، و لا بواحدة من عينيه، و لا رآه أبوه. اللهم إلّا أن يكون رآه عند على بن الحسين عليه السّلام ... إن عندى لسيف رسول اللّه، و إن عندى لراية رسول اللّه و درعه و لامته و مغفرته» «۱».

و خلاصة القول، فإن موقف الإمام الصادق من الحكام الظالمين هو الموقف الذى يثير فى نفوس الحكام المخاوف، و يخلق لهم المصاعب من خلال بناء النفوس و الأفكار على قيم العدل و شجب الباطل و الفساد، و العمل على تحقيق علاقات فى التعامل بين الأفراد تسودها روح المحبة و الإخاء و عزة النفس و الإباء. دخل عليه رجل فقال: يا ابن رسول اللّه أخبرنى بمكارم الأخلاق؟ فقال عليه السّلام: «هى العفو عمن ظلمک، و صلة من قطعک، و إعطاء من حرمک».

و قال يوما لأصحابه:

«إنّا لنحبّ من كان عاقلا فهما حليما مداريا صبورا صدوقا وفيا، إن اللّه عز و جل خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كان فيه، فليحمد اللّه على ذلک. و من لم تكن فيه فليتضرّع إلى اللّه عز و جل و ليسأله إياها».

و قال غير مرة: «ما قدّست أمة لم تأخذ لضعيفها من قويّها بحقّه».

و قال عليه السّلام: «اتقوا اللّه و اعدلوا، فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون» فيسعى عليه السّلام إلى تحقيق العدل فى السلوک و التعامل و التزام العباد أولا فيما بينهم بذلک، لأن الإصلاح بالأقوال و المواعظ الخلقية و الاجتماعية لا تحقق أثرها، إلا إذا كانت الأعمال مظاهرها. فوضع العمل الصالح و العدل و الخلق الطيب قواعد لدعوته فى مكافحة الظلم بكافة أنواعه و الوقوف إلى جانب المظلومين، ليظهر بذلک خطأ أولئک الذين اغتصبوا حقوق الأمة و ترأسوا عليها، و قد انحرفوا كل الانحراف عن مبادئ الإسلام و تعاليمه «۲».

و لقد أراد بعض أصحابه- كما ذكرنا فى أول هذا الجزء- حمله على إعلان الثورة، و ذكروا له أن مائة ألف يضربون بين يديه. فرفض لأنه يعوّل على دعوته فى هزّ

---

(۱) انظر إرشاد المفيد و احتجاج الطبرسى.

(۲) انظر الإمام الصادق، الدعوة الصامتة، الجزء الرابع من هذا الكتاب.

أركان الظالمين، و يرى مواصلة الجهاد بالطرق التى تضمن سلامة المجتمع و حماية أبناء الأمة الإسلامية من الملوک الذين لا تخفّ شهوتهم للدماء، و لا يفتر ظلمهم للرعية و انتهاک الحرمات و سلب الأموال و الحقوق.

لقد كان عليه السّلام يولى العدل أهمية كبرى، و يسعى إلى فضح سيرة الملوک الذين تسلّطوا على رقاب الأمة و أعوانهم الظلمة، و يكشف حقيقة حكمهم و واقع نظامهم الذى تلبّس بالإسلام و تستر بشعاراته. فعند ما تمرّ الأيام و تحدث فى بعض النفوس الصحوة ممن ارتضت إقرار الظلم و مساعدة الجبارين، يجعل الإمام ضمان حقوق الأمة و معالجة ما لحق بها من الظلم هو الأصل فى السلامة و العودة إلى جادة الدين.

فقد جاءه رجل ممن عمل للأمويين، و كان فى معاونة الحجاج، فقال الإمام عليه السّلام:

إنى لم أزل واليا منذ زمن الحجاج إلى يومنا هذا، فهل لى من توبة؟ فسكت الإمام عليه السّلام. ثم أعاد عليه الرجل، فقال عليه السّلام: «لا، حتى تؤدى إلى كل ذى حق حقه» «١».

و الذين شاركوا فى سلب أموال المسلمين، كانوا لا يجدون من الإمام الصادق عليه السّلام ذلک التسامح الذى يظهره غير أهل البيت عليهم السّلام فى إبقاء الصبغة الدينية على حكم الظلمة و الفساق، و هو تسامح على حساب العقيدة و الأحكام ليكون إزهاق الأرواح تأويلا، و سلب الأموال و انتهاک حرمات المسلمين اجتهادا. و لكنها عند الإمام الصادق حفظ الدين، و صون الحقوق و المصالح، و الحكم بما أمر اللّه و رسوله. سئل عليه السّلام عن رجل أصاب مالا من عمّال بنى أمية و هو يتصدق منه و يصل قرابته و يحج ليغفر له ما اكتسب و يقول: إن الحسنات يذهبن السيئات. فقال الإمام عليه السّلام: «إن الخطيئة لا تكفّر الخطيئة، و إن الحسنة تحطّ الخطيئة». فقيّد الإمام الصادق الفعل الذى يعين على التوبة بالحسنة، و أن يكون خالصا ليس من جنس أموال الظلمة و أعمالهم، و أن بالطيب من الأفعال تحط الخطيئة. فكل ما يتصل بحال السلطان الظالم الغشوم و واقع ملكه قائم على غير هدى الإسلام و تعاليمه، فلا يمتّ إلى عمل الخير بصلة، و لا يحصل من الاتصال به حسنة تنال من اللّه القبول و تمحى بها السيئات.

---

(١) انظر الفصول المهمة للحر العاملى، باب جهاد النفس.

رؤساء المذاهب

مالک بن أنس

و نعود إلى الحديث عن المذاهب الأربعة و رؤسائها. و نبدأ فى البحث عن حياة الإمام مالک بن أنس.

و تختلف المصادر فى سنة ولادته، و لم تقطع كتب المناقب بصحة أحدها، فظل الاختلاف فى سنة مولده كالاختلاف فى مدة حمله. فقيل أنه ولد سنة ٩٠ ه، و قيل سنة ٩٣ ه، و قيل سنة ٩٤، أو ٩٥، أو ٩٦ فى المدينة المنورة. كما قيل فى مدة بقائه فى بطن أمه: سنتين، أو ثلاث، أو أربع. و قد تناولنا ذلک فى القسم السابق من حياة مالک الذى تضمنه الجزء الثانى من الكتاب.

من هو الإمام مالک

: هو أبو عبد اللّه بن أنس بن مالک بن أبى عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن عمر بن الحارث، و هو ذو أصبح من حمير بن سبأ و هى قبيلة يمنية، و أمه أزدية و هى العالية بنت شريک «١».

و طعن فى صحة هذا النسب، فقال محمد بن إسحاق: إن مالكا و أباه و جده و أعمامه موالى لبنى تيم بن مرة «٢».

و قد ادعى أن حصول هذه الشبهة فى نسب مالک و عدم كونه عربيا أن مالک بن أبى عامر قدم المدينة متظلما من بعض ولاة اليمن، فمال إلى بعض بنى تيم بن مرّة فعاقده، و صار معهم. و يلزم من ذلک أنه حليف ليصرف معنى المولى إلى المناصرة.

---

(١) و قيل الغالية بالغين المعجمة.

(٢) الانتقاء لابن عبد البراص.

و ليس الطعن مقتصرا على ابن إسحاق، فإن ابن شهاب أستاذ مالک حدّث عن أبى سهيل نافع بن مالک- عم مالک بن أنس- فقال: حدثنى نافع بن مالک مولى التيميين.

كما يروى ابن عبد البر عن البخارى بسند عن نافع بن مالک بن أبى عامر قال:

قال لى عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد اللّه و هو ابن أخى طلحة: هل لک إلى ما دعانا إليه غيرک فأبينا عليه، أن يكون هدمنا هدمک و دمنا دمک ترثنا و نرثک؟ و ينسب هذا إلى الربيع بن مالک- عم مالک- أيضا.

و كما طعن فى أبى مالک و عدم صحة عروبته، فكذلک الحال فى أمه العالية، و قيل إنها طليحة مولاة عبيد اللّه بن معمر. حكاه القاضى عيّاض «١» و ابن عائشة.

و قال ابن عمران التميمى: ما بيننا و بينه نسب، إلا أن أمه مولاة لعمى عثمان بن عبد اللّه «٢».

و قد أثّرت هذه الأقوال على مالک، و كانت السبب فى تكذيب مالک لمحمد بن إسحاق و طعنه عليه «٣». و لما بلغ مالک قول ابن شهاب قال: ليته لم يرو عنه شيئا «٤».

عصر مالک و علمه

: قلنا فیما مرّ من الأجزاء السابقة، إن النزاعات الفقهیة و المشکلات التی طرأت کانت سببا فی ظهور الأسماء، و تغلّب جماعة دون أخری. و قد کان النزاع بین أهل العراق و بین أهل الحجاز سببا فی ظهور مدرسة الرأی و مدرسة الحدیث، و تزعّم أبی حنیفة للأولی، و تزعّم مالک للثانیة. و کانت مصالح الحکام قد اقتضت أن تقف إلی جانب أبی حنیفة، و تشدّ أزر أصحابه، و تقدّم الموالی لتحط من قیمة العرب. ثم اقتضت أن توجّه الأنظار إلی مالک و تتبناه و تجعل منه إمام الدولة المطاع.

ثم لعب الغلوّ دوره فی تعزیز اتجاه کل من الطرفین، فوضعت الأحادیث و المنامات علی لسان النبی محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما فی حدیث: یکون فی أمتی رجل اسمه

---

(۱) تزیین الممالک فی مناقب الإمام مالک للسیوطی ص ۴.

(۲) الدیباج المذهب لابن فرحون ص ۱۷.

(۳) الانتقاء ص ۱۱.

(۴) الدیباج المذهّب.

النعمان و کنیته أبو حنیفة هو سراج أمتی، هو سراج أمتی، هو سراج أمتی «۱». و غالطوا الحقائق فقالوا: إن أهل الکوفة کلهم موالی لأبی حنیفة- أی عبید- فأعتقهم «۲».

یریدون نفی حقیقة أن أبا حنیفة کان مولی لبیت من بیوت الکوفة و کان لهم ولاؤه.

و قد دخل التعصب فی إطار الأشخاص و تقدیس الرؤساء، لأن الأحوال أدّت إلی اصطناع المذاهب و تعیین الرؤساء، و راح الناس فی ظل التنازع و التعصّب یلتحمون بالطائفة التی شبّوا فی أفیائها و عاشوا بأوساطها، و قد لجأ المالکیة إلی حدیث عالم المدینة، فإن کان صحیحا، فأین ذهب عن مالک فی حینها لیحتج به لنفسه؟

و ذلک أول ما یتبادر، لأن عموم حدیث مالک و غایة جهده أن یجعل موقع المدینة و منزلتها الشرعیة فی المکان الأول، و عمل أهل المدینة متبعا بحکم تشرّفها بهجرة الرسول محمد و هبوط الوحی، و مکانة المدینة تجیب علیها السرائر و تعبّر عنها المشاعر قبل أن تنص علیها الأقوال و الأفعال، إلا أنها جعلت فی صیغة یلتمس بها الظفر و الفلج فی وجوه و موارد هی من التصرف و السلوک، و لیس من مضامین العلم أو أغراض الشریعة المحضة.

لقد جعلوا من الحديث النبوى معتمدا فى ترجيح المذهب المالكى من خلال ترجيح شخصية مالک و انطباقه عليه وحده، و هو أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: يوشک أن تضرب الناس أكباد الإبل فى طلب العلم. و فى رواية: يلتمسون العلم، فلا يجدون عالما أعلم. و فى رواية: أفقه من عالم المدينة. و فى رواية: من عالم بالمدينة. و فى بعضها: آباط الإبل، مكان: أكباد الإبل. و قد رواه البخارى عن ابن جريج موقوفا على أبى هريرة، و محمد بن عبد اللّه الأنصارى عن ابن جريج، و رواه أيضا المقبرى عن أبى هريرة: لا تنقضى الساعة حتى يضرب أكباد الإبل من كل ناحية إلى عالم المدينة يطلبون علمه. و خرّجه النسائى مرفوعا إلى أبى هريرة: يضربون أكباد الإبل و يطلبون العلم و لا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة. و روى عن أبى موسى الأشعرى بلفظ: يخرج ناس من المشرق و المغرب فى طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة. إلى آخر الروايات التى ذكرها كتّاب المناقب كابن فرحون.

---

(١) جامع مسانيد أبى حنيفة ج ١ ص ١٥.

(٢) مناقب أبى حنيفة للمكى ج ١ ص ١٧٤.

و قد قلنا فى القسم الأول، إن الحديث لا يخلو من خدشة فى السند، فإن أبا الزبير- و هو أحد رواة هذا الحديث- قد تكلموا فيه و طعنوا.

كما أن صرف الحديث إلى إرادة مالک دون غيره يبقى ضعيفا و لا يتجه. لأن الحديث يراد به المنزلة العلمية للمدينة أولا، و لرجل العلم فيها ثانيا الذى عيّن بصفات عامة تدور مع حركتها العلمية و منزلتها، و لا يتمكن شيوخ المالكية من نفى ذلک و هم يسوقون الحديث، فابن فرحون يذكر تأويل محمد بن إسحاق المخزومى: (ما دام المسلمون يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة، كان بها أو بغيرها، فيكون على هذا سعيد بن المسيب- كما يرى- لأنه النهاية فى وقته. ثم من بعده غيره ممن هو مثله من شيوخ مالک، ثم بعدهم مالک، ثم بعده من قام بعلمه و كان أعلم أصحابه بمذهبه، ثم هكذا، ما دام للعلم طالب و لمذهب أهل المدينة إمام، و يجوز على هذا أن يقال هو ابن شهاب فى وقته، و العمرى فى وقته، و مالک فى وقته).

و تعلّق المالكية بدار الهجرة و شهادة السلف. قال القاضى عبد الوهاب: لا ينازعنا فى هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب، إذ ليس منهم من له إمام من أهل المدينة فيقول هو إمامى. و نحن نقول إنه صاحبنا بشهادة السلف له، و بأنه إذا أطلق بين العلماء قال عالم المدينة و إمام دار الهجرة فالمراد به مالک دون غيره من علمائها، و قال القاضى عياض: فوجه احتجاجنا بهذا الحديث من ثلاثة أوجه، الأول: تأويل السلف أن المراد به مالک، و ما كانوا ليقولوا ذلک إلا عن تحقيق. الثانى: شهادة السلف الصالح له و إجماعهم على تقديمه يظهر أنه المراد إذا لم تحصل الأوصاف التى فيه لغيره و لا أطبقوا على هذه الشهادة لسواه. الثالث: ما نبّه عليه بعض الشيوخ أن طلبة العلم لم يضربوا أكباد الإبل من شرق الأرض و غربها إلى عالم، و لا رحلوا إليه من الآفاق رحلتهم إلى مالک «١».

و قد ذكرنا طائفة من العلماء فى ذلک الوقت هم من شيوخ مالک و أعلم منه «۲» كربيعة الرأى بن أبى عبد الرحمن، و الذى أراده العباسيون فى مطلع دولتهم أن يدلى

---

(۱) شرح الموطأ للزرقانى ج ۱ ص ۴.

(۲) انظر الجزء الثانى من الكتاب.

بدلوه بين الدلاء فى تعضيد دولتهم و خدمتهم. و يروى مالک عن سيرة أستاذه: لما قدم ربيعة بن أبى عبد الرحمن على أمير المؤمنين أبى العباس أمر له بجائزة، فأبى أن يقبلها، فأعطاه خمسة آلاف درهم يشترى بها جارية حين أبى أن يقبلها، فأبى أن يقبلها. قال ابن وهب: و حدثنى مالک عن ربيعة قال: قال لى حين أراد الخروج إلى العراق: إن سمعت أنى حدثتهم شيئا أو أفتيتهم، فلا تعدّنى شيئا. قال: فكان كما قال، لما قدمها لزم بيته فلم يخرج إليهم و لم يحدّثهم بشىء حتى رجع «۱». و لا بد أن روايته عن سيرة أستاذه جاءت عقب وفاة ربيعة، و مالک لم يتحول بعد إلى صف العباسيين و يتخلى عن ميوله و عواطفه السابقة التى تشده إلى الأمويين و تجعله يتغاضى عن جرائمهم و ما فعلوا بالحرمين و ما ارتكبوا من مجازر بحق أهل المدينة، فهو يبنى تفوقه و يرجح نفسه بانتسابه إلى المدينة، و يرى أن ينقاد غيره إليه كما يقول فى رسالته إلى الليث بن سعد «۲»:

(اعلم رحمک اللّه أنه بلغنى أنک تفتى الناس بأشياء مختلفة، مخالفة لما عليه الناس عندنا و ببلدنا الذى نحن فيه، و أنت فى أمانتک و فضلک، و منزلتک من أهل بلدک، و حاجة من قبلک إليک، و اعتمادهم على ما جاء منک حقيق بأن تخاف على نفسک، و تتبع ما ترجو النجاة باتباعه، فإن اللّه تعالى يقول فى كتابه: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ و قال تعالى: فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، و بها نزل القرآن، و أحلّ الحلال و حرّم الحرام ...) الخ رسالته.

قال أبو مصعب: قدم علينا ابن مهدى «۳» فصلّى خلف مالک، و وضع رداءه بين يدى الصف، فلما سلّم الإمام رمقه الناس بأبصارهم، فقال مالک: من هنا من

---

(۱) تاريخ بغداد ج ۲ ص ۴۲۵.

(۲) أبو الحرث- الحارث- ابن عبد الرحمن الفهمى من أصبهان، ولد بمصر سنة أربع و ستين، روى عن الزهرى و عطاء و نافع كانت له حظوة و خضع القضاء لأوامره، فكان إذا رابه من أحد شىء كاتب فيه فيعزل، و فى الشذرات أن المنصور أراده لولاية مصر، فأبى و تولى قضاءها.

(۳) هو الحافظ عبد الرحمن بن مهدى بن حسان الأزدى، مولاهم أبو سعيد البصرى اللؤلؤى روى عن شعبة و الثورى و مالک، وثقه أبو حاتم و أحمد، قال القواريرى: أملى علينا ابن مهدى عشرين ألفا من حفظه، كان يحج كل سنة، توفى سنة ۱۹۸ ه.

ص: ۳۶۶

الحرس؟ فجاءه نفسان. فقال: خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه. فحبس، فقيل له:

إنه ابن مهدى. فوجه إليه و حضر عنده فقال له: أ ما خفت اللّه و اتقيته إن وضعت ثوبک بين يديک فى الصف و أشغلت المصلين بالنظر إليه، و أحدثت فى مسجدنا شيئا ما كنا نعرفه، و قد قال النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من أحدث فى ديننا شيئا فعليه لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين «۱».

و يروى كتّاب مناقب مالک، أن أمه قالت له: اذهب إلى ربيعة، فتعلّم من أدبه قبل علمه. قال مالک: كان لى أخ فى سن ابن شهاب «۲» فألقى أبى يوما علينا مسألة، فأصاب أخى و أخطأت، فقال لى أبى: ألهتک الحمام عن طلب العلم. فغضبت، و انقطعت إلى ابن هرمز «۳» سبع سنين. و فى رواية ثمان سنين لم أخلطه بغيره، و كنت أجعل فى كمى تمرا و أناوله صبيانه و أقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول! يريد أن ينفرد بالشيخ و لا يشاركه أحد بمجلسه، و لا بد أن الصبيان قالوا بما أراد لهم أن يقولوا.

و يذكر مالک مدة اختلافه إلى ابن هرمز ثلاثين سنة، فيشير إلى المدة دون ذكر ابن هرمز كما أراد، و الناس تعرف منه الإشارة.

كذلک أخذ مالک عن نافع مولى بن عمر، و قال: كنت آتى نافعا نصف النهار و ما تظلنى الشجر من الشمس، أتحيّن خروجه، فإذا خرج أدعه ساعة كأنى لم أره، ثم أتعرض له فأسلّم عليه و أدعه، حتى إذا دخل البلاط أقول له: كيف قال ابن عمر فى كذا و كذا؟ فيجيبنى، ثم أحبس عنه، و كان فيه حدّة، و كنت آتى ابن هرمز من بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل.

و القصد أن مالكا أراد أن يتهيأ للفتيا، و أن يتأهل للحديث. و لكن موهبة الحفظ و الذاكرة عنده كانت أظهر من غيرها، فيروى أنه قال: (حدثنى ابن شهاب أربعين حديثا و نيفا فيها حديث السقيفة، فحفظت، ثم قلت: أعدها علىّ فإنى نسيت النيف.

فأبى، فقلت: أ ما كنت تحب أن يعاد عليک؟ قال: بلى. فأعاد، فإذا هو كما حفظت). و اشتهر عنه ذلک و كان من أخص صفاته. يقول سفيان بن عيينة: دارت

---

(۱) الاعتصام ج ۲ ص ۶۸. و المدارک ص ۱۳۰.

(۲) و (۳) انظر ترجمتهما فى الجزء الثانى.

ص: ۳۶۷

مسألة فی مجلس ربیعة. فتکلم فیها ربیعة. فقال مالک: ما تقول یا أبا عثمان؟ فقال ربیعة: أقول فلا تقول، و أقول إذ لا تقول، و أقول فلا تفقه ما أقول. و مالک ساکت، فلم یجب بشیء و انصرف «۱».

و أخرج الخطیب عن إبراهیم المزنی قال: حججت سنة، فأتیت المدینة، فحدثنی إسماعیل بن جعفر الخیاط فقال: نزلت بی مسألة، فأتیت مالکا فسألته فقال:

انصرف حتی أنظر فی مسألتک. فانصرفت و أنا متهاون بعلمه، و قلت: هذا الذی تضرب إلیه المطی لم یحسن مسألتی. فأتانی آت فی منامی فقال: أنت المتهاون بعلم مالک، أما إنه لو نزل بمالک أدق من الشعر، و أصلب من الصخر، لقوی علیه باستعانته علیه بما شاء اللّه لا حول و لا قوة إلا باللّه العلی العظیم «۲».

و قد لجأ مالک إلی المنامات بنفسه، فکان یقول: ما بتّ لیلة إلا رأیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «۳». و عن خلف بن عمر: دخلت علی مالک فقال لی: انظر ما تری تحت مصلای. فنظرت فإذا أنا بکتاب، قال: اقرأه. فإذا فیه رؤیا رآها له بعض إخوانه. فقال: رأیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المنام فی مسجده قد اجتمع الناس علیه، فقال لهم: إنی قد خبأت لکم طیبا و علما، و أمرت مالکا أن یفرّقه علی الناس. فانصرف الناس و هم یقولون: إذن ینفذ مالک ما أمره رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، ثم بکی، فقمت عنه «۴».

و قال محمد بن رمح: حججت مع أبی و أنا صبی لم أبلغ الحلم، فنمت فی مسجد النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین القبر و المنبر، فرأیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد خرج من القبر متکئا علی أبی بکر و عمر رضی اللّه عنهما، فسلّمت علیهم، فردوا علیّ السلام، فقلت: یا رسول اللّه، أین أنت ذاهب؟ فقال أقیم لمالک الصراط المستقیم. فانتبهت، فأتیت أنا و أبی مالکا، فوجدنا الناس مجتمعین علیه، و قد أخرج لهم الموطأ أول ما خرج «۵».

و قال محمد بن رمح أیضا: رأیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المنام منذ أربعین سنة فقلت:

---

(۱) الدیباج ص ۲۱.

(۲) مناقب مالک للسیوطی ص ۱۲.

(۳) حلیة الأولیاء ج ۶ ص ۳۱۷.

(۴) مناقب مالک ص ۸. و حلیة الأولیاء ج ۶ ص ۳۱۷.

(۵) مناقب مالک لعیسی بن مسعود الزواوی ص ۱۷.

يا رسول اللّه مالک و اللیث یختلفان فی المسألة؟ فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: مالک مالک ورث جدّی یعنی إبراهیم «۱».

و قال بشیر بن أبی بکر: رأیت فی النوم أنی دخلت الجنة، فرأیت الأوزاعی و سفیان الثوری، و لم أر مالک بن أنس. فقلت أین مالک؟ قالوا: و أین مالک؟ رفع مالک رفع مالک. فما زال یقول: و أین مالک، و أین مالک، رفع مالک حتی تسقط قلنسوته «۲».

و روی أبو نعیم عن إبراهیم بن عبد اللّه قول إسماعیل بن مزاحم المروزی قال: رأیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المنام فقلت: یا رسول اللّه من نسأل بعدک؟ قال: مالک بن أنس «۳».

و عن مصعب بن عبد اللّه الزبیری قال: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذ أتاه رجل فقال: أیّکم مالک؟ فقالوا: هذا. فسلّم علیه، و اعتنقه، و ضمه إلی صدره و قال: و اللّه لقد رأیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم البارحة جالسا فی هذا الموضع، فقال: ائتوا بمالک. فأتی بک ترعد فرائصک، فقال: لیس بک بأس یا أبا عبد اللّه. و کنّاک و قال: اجلس.

فجلست. قال: افتح حجرک. ففتحته، فملأه مسکا منثورا، و قال: ضمه إلیک، و بثّه فی أمتی. قال: فبکی مالک و قال: الرؤیا تسر و لا تغر و إن صدقت رؤیاک فهو العلم الذی أودعنی اللّه «۴».

و یطول بنا المقام لو أحصینا الرؤی و المنامات و ما تفیض به الأحلام. و قد أوردنا بعضا مما کان علی عهد مالک نفسه، و بذلک أصبح من حقهم أن یعتمدوا المنامات رکنا، و یلجأ و إلیها فیما یریدون ترجیحه و شیوعه، و خلاصة القول؛ إن مالکا عرف بالحفظ و الذاکرة، فاتجه إلی المنحی الذی یتفق مع موهبته، ثم ظهر منه کراهیة للسؤال، فمال إلی استخدام سلاح الاتهام بالبدعة. و غالبا ما یظن بالسائل أنه یرید المغالطة، و یقوم بردّه بهذه الآیة: وَ لَلَبَسْنا عَلَیْهِمْ ما یَلْبِسُونَ و الحال یقتضی التهیؤ للمناظرة، و الإقبال علی الحوار، لأن الفترة قد شهدت بوادر اتساع الأقوال فی الصفات و إثباتها أو تعطیلها، و لیس من الحکمة فی شیء الزجر دون اقناع، أو التعنیف و ترک الحجاج، مما یترک فی نفس السائل الحیرة، أو یؤکد فی عقله المیل و من ثم الانجراف.

---

(۱) و (۲) الجرح و التعدیل ج ۱ ص ۲۸.

(۳) حلیة الأولیاء ج ۶ ص ۳۱۷.

(۴) الانتقاء ص ۳۹. و شرح الموطأ للزرقانی ج ۱ ص ۴.

يروى حفص بن عبد اللّه قال: كنّا عند مالک، فجاء رجل، فقال: يا أبا عبد اللّه الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى كيف استوى؟ فقال: الكيف غير معقول، و الاستواء غير مجهول، و الإيمان به واجب، و السؤال عنه بدعة. و أظنک صاحب بدعة.

و أمر به، فأخرج.

و الجواب بلا أدرى أهون بكثير حتى و إن بات قاعدة يورثها مجلسه، فلا عيب فى ذلک، لأن السائل يتحرى عند غيره الإجابة، و هو المعروف عن مالک أيضا، فعن الهيثم بن جميل قال: شهدت مالكا سئل عن ثمان و أربعين مسألة، فقال فى اثنين و ثلاثين منها: لا أدرى. و غالبا ما يلجأ إلى (لا أدرى) فعن ابن وهب أنه قال: لو شئت أن أملأ ألواحا من قول مالک (لا أدرى) فعلت «١» و من علماء المالكية من يتعجب من قول لا أدرى «٢».

إن عصر مالک كان من أكثر العصور ازدهارا، و قد أصبحت المدينة موطنا للعلم و موئلا لطلابه من مختلف الأقطار الإسلامية، و امتازت بالتمسّک بالحديث فى مقابلة العراقيين و امتيازهم بالرأى و القياس، و عظم العداء بين البلدين، و أدى إلى اتهامات و خصومات ابتعدت كثيرا عن العلم.

كان أبو سعيد الرأى يمارى أهل الكوفة، و يفضّل أهل المدينة، فجاءه رجل من أهل الكوفة و اسمه شرشيرا و قالوا كلب فى جهنم يسمى شرشيرا فقال:

عندى مسائل لا شرشير يعرفها — إن سيل عنها و لا أصحاب شرشير

و ليس يعلم هذا الدين يعلمه — إلا حنيفية كوفية الزور

لا تسألن مدينيا فتكفره — إلا عن البم و المثنى و الزير

فكتب أبو سعيد إلى أهل المدينة: إنكم قد هجيتم، فردّوا. فردّ عليه رجل من أهل المدينة يقول:

لقد عجبت لغا و ساقه قدر — و كل أمر إذا ما جمّ مقدور

قالوا المدينة أرض لا يكون بها — إلا الغناء و إلّا البم و الزير

لقد كذبت لعمر اللّه إن بنا — قبر النبى و خير الناس مقبور

«٣»

---

(١) المناقب للسيوطى ص ١٢ و ص ١٦. و حلية الأولياء ج ۶ ص ٣٢٣.

(۲) انظر المجلد الأول/ الجزء الثانى من هذا الكتاب.

(۳) العقد الفريد ج ۳ ص ۴۰۸.

أما فى المدينة، فكان مالک بمنزلته يوجه الناس ضد أهل العراق، و كان يقول لرجل من أهل الكوفة: لم يأخذ أوّلونا عن أوّليكم، فكذلک لا يأخذ آخرونا عن آخريكم. و وصفها مالک بدار الضرب، فقال: هى دار الضرب، يضربون بالليل ما ينفقون. و كان ينسب إلى ربيعة القول: ما رأيت عراقيا تام العقل.

و نسب إلى أحد علماء المدينة قوله: كأن النبى الذى بعث إلينا غير النبى الذى بعث إليهم.

و كان يقال بالمدينة: اتركوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب، فلا تصدّقوهم و لا تكذّبوهم «۱».

و فى وسط هذه المنازعات و الخصومات التى استباحت الكثير من عصم الإيمان و روابط العقيدة، كانت مدرسة الإمام الصادق تفيض بإشراقها من علم أهل بيت النبوة، و تغنى بإلهامها عقول العلماء، فكان الإمام الصادق محيطا بموارد النزاع و عارفا بوجوه الخلاف بصورها على المسائل و الآراء، و صبغتها التى مضت عليها فى المجالس و الحلقات. و يجرى علمه فى أوساط الأمة بأصوله من الكتاب و أدلته من السنّة، بشمول لا يتهيأ لبشر، و دراية يعجز عنها غيره، فكان أفقه الناس و أعلم أهل زمانه.

و كان أبو جعفر المنصور أول ما أراد أن يجعل أبا حنيفة وسيلته فى التأثير على مكانة الإمام الصادق فى النفوس و النيل من منزلته العلمية، و ذلک قبل أن يتحول إلى الإمام مالک.

قال الحسن بن زياد اللؤلؤى: سمعت أبا حنيفة- و سئل من أفقه من رأيت-؟

قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق، لمّا أقدمه المنصور بعث إلى فقال:

يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيّئ له من المسائل الشداد، فهيأت له أربعين مسألة. ثم بعث إلىّ أبو جعفر و هو بالحيرة، فأتيته، فدخلت عليه، و جعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لأبى جعفر، فسلّمت عليه، و أومأ إلى فجلست، ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد اللّه هذا أبو حنيفة. فقال: «نعم» ثم اتبعها: قد أتانا، كأنه

---

(۱) مناقب الزواوى ص ۵۵- ۵۶- ۵۷.

كره ما يقول فيه قوم أنه إذا رأى الرجل عرفه، ثم التفت إلى فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبى عبد اللّه من مسائلک. فجعلت ألقى عليه، فيجيبنى فيقول: «أنتم تقولون كذا، و أهل المدينة يقولون كذا، و نحن نقول كذا» فربما تابعنا، و ربما تابعهم، و ربما خالفنا جميعا، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ما أخل منها بمسألة. ثم قال أبو حنيفة: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس ... ا ه «١».

و مما علم من منهج الإمام الصادق و منطق قوله، فإن تفسير الكتاب عنده ليس بالأخذ من الغير، و الحديث هو بإسناد آبائه الطيبين. فمن المؤكد هنا أن المسائل التى كانت عدة السلطان أبى جعفر و سلاحه فى مواجهة الإمام الصادق كان يعرضها الإمام الصادق على مصادره و أصوله و يناقشها، فما وافق منها حسبه أبو حنيفة متابعة، و ليس الأمر كذلک. لأن الإمام الصادق فى علمه لا يتّبع إلّا القرآن و سنّة النبى و الأئمة من أهل بيته، أما المخالفة فأمرها معروف.

و كما رأينا فإن مالكا كان من طلاب مدرسة الإمام الصادق و من تلاميذه، قال مالک عن صلته بالإمام الصادق: (جعفر بن محمد اختلفت إليه زمانا، فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلّ، و أما صائم، و إما يقرأ القرآن) «٢».

و قوله: (ما رأت عين، و لا سمعت أذن، و لا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علما و عبادة و ورعا) «٣» و قال مالک: (لقد كنت أرى جعفر بن محمد و كان كثير الدعابة «۴» و التبسّم، فإذا ذكر عنده النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اصفرّ، و ما رأيته يحدّث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا على طهارة، و لقد اختلفت إليه زمانا، فما كنت

---

(١) المناقب للموفق المكى ج ١ ص ١٧٣. و سير أعلام النبلاء ج ۶ ص ٢٥۶.

(٢) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١٠۴.

(٣) المجالس السنية للعاملى ج ۵. و التوسل و الوسيلة لابن تيمية ص ۵٢.

(۴) تروى عند بعض المالكية «كثير المزاح» و لا نستغرب الوصف بالمزاح أو الدعابة، لأن عمر بن الخطاب وصف بها الإمام على، و كان قوله موضع نظر ورد، إلا أن يبتدع بها اصطلاحا و يحدث بها مسمى جديد فيكون معناها التقوى و شدة الالتزام بالدين، أو حسن الخلق و المعاشرة، فإن كان القصد ظاهر معناها، فهى من الفلتات، و لا يحمل عليهما إلا قصد الإساءة و النيل، و دون ذلک عصمة اللّه و رعايته من دين راسخ و علم وافر و منزلة سامية و خصائص عالية هى الغاية فى الكمال و النهاية فى الرفعة.

أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلّيا أو صائما و إمّا يقرأ القرآن. و لا يتكلم فيما لا يعنيه و كان من العلماء و العبّاد الذين يخشون اللّه عز و جل) «١».

و من المحدثين كثير يحملهم التقليد و التعصب على إغفال الجوانب المهمة فى اختلاف مالک إلى الإمام الصادق و الأخذ عنه و الرواية له، و يخال بعضهم كمصطفى الشكعة أن إظهار الصحبة يؤدى إلى المقارنة بينهما بميزان الاستواء و التعادل، و ليس الشكعة أول من يفعل ذلک، و لا هذه أول النزعات المعلنة، فقد علمناها منه فى كتبه السابقة، و قد وصلنى كتابه (الأئمة الأربعة) فأثار فى نفسى تساؤلات كثيرة، و كلما تصفّحته كثرت الملاحظات و تعدّدت المؤاخذات، و لو أشرت إلى بعضها لطال بنا الحديث، نرجو اللّه أن ييسر و يعين لتحرير الردّ عليه، فقد بنى كتابه فى الطعن على الشيعة على أساس الوهم و الادعاء الباطل بوجود «التشيع المذهبى» و هى مقولة فتن بها الناظرون إلى التاريخ بمنظار الهوى و مصطلحات السياسة، ممن عظم عليهم كون التشيع وعاء الإسلام و إطاره، و أن رجاله و قادته هم سادة العرب و فرسانها رفعهم اللّه بعز الإسلام إلى موكب الدعوة و جيش الولاء لصاحب الرسالة النبى الهادى المصطفى، و نبذوا حمية الجاهلية و نعرات القبلية، فأصبحوا دعاة حق و حملة رسالة يتهافتون على الموت فى سبيلها.

و مهما كان من أمر الشكعة فهو لا يقوى على إنكار الحقائق الناصعة التى تقود إليها و تنتهى جهوده فى البحث عن الأئمة الأربعة فيقول: (و لم يكن مالک و أبو حنيفة وحدهما الآخذين من فيض الإمام جعفر من بين أئمة أهل السنّة، و إنما أخذ عنه و اتصل به السفيانان الثورى و ابن عينية و شعبة بن الحجاج و غيرهم) «٢».

و مما يقوله الشكعة: لقد تأثر مالک بكثير مما فى جعفر. تأثر به فى الحديث فروى له، و لقد ضمّن مالک كتابه «الموطأ» عددا من الأحاديث التى رواها. و لقد تأثر به مالک فى أنه لم يجلس ليحدّث حديث رسول اللّه إلا و هو على الطهارة. و القصد أننا أردنا الإشارة إلى كتاب الشكعة، و نتركه أمل تحرير الردّ عليه و إلحاقه بالمناقشات المجموعة.

---

(١) مناقب الزواوى ص ٣٣ و ٣٤.

(٢) د. مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ٣١٧، مصر ١٩٧٩.

أما تأثر مالک بالإمام الصادق فإن مجالاته واسعة، و لقد استمر المالكية على تعضيد مذهبهم بعد وفاة إمامهم، معتمدين على حضور مالک عند الإمام الصادق و الاستماع إلى حديثه، و تلقّى تعاليمه فى مدرسته، فسمحوا لأنفسهم أن يتخيلوا أمورا لتكون لهم شهادة تؤيد المذهب، فادّعوا أن الإمام الصادق أوصى إلى مالک عند وفاته، و رووا عنه أنه دخل عليه قوم من أهل الكوفة فى مرضه الذى توفى فيه، فسألوه أن ينصّب لهم رجلا يرجعون إليه فى أمر دينهم، فقال: عليكم بقول أهل المدينة، فإنها تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد، عليكم بآثار من مضى، فإنى أعلمكم أنى متبع غير مبتدع، عليكم بفقه أهل الحجاز، عليكم بالميمون المعين المبارک فى الإسلام، المتبع آثار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد امتحنته فوجدته فقيها فاضلا متبعا مريدا لا يميل به الهوى، و لا تزدريه الحاجة، و لا يروى إلا عن أهل الفضل من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن اتبعتموه أخذتم بحظكم من الإسلام، و إن خالفتموه ضللتم و هلكتم، أ لستم تقولون إنى هيئ من العلم غير محتاج إلى أحد من الخلق؟ فإنه قد أخذ عنى كل ما يحتاج إليه، فلا يميل بكم الهوى فتهلكوا، إنى أحذركم عذاب اللّه يوم القيامة، يوم لا

ينفع مال و لا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم، أحذركم، فقد أرشدتكم إلى رجل نصّبته لكم، فإنه أمين، مولود فى زمانه، قالوا: من هو بيّنه لنا؟ قال: ذلک مالک بن أنس، عليكم بقول مالک. ثم رفع يديه إلى السماء و قال: اللهم إنى برىء من ظنّهم و تخرّصهم و من رواة السوء منهم، اللهم إنک تعلم أنه قد قيل عن عيسى بن مريم ما لم يقل، و روى عن مالک ما لم يكن، و قيل عن عزيز ما لم يقل، و روى عنه ما لم يكن، و قيل عن على بن أبى طالب ما لم يقل، و روى عنه ما لم يكن، فمن روى عنّى ما لم نقل، فعليه لعنة اللّه و لعنة اللاعنين و الملائكة و الناس أجمعين «١».

و الرواية صريحة الوضع، نقلناها كاملة للتدليل على مسلک النزاع و الخصام فى استحلال الوضع، و التماس الظفر بالإقرار بالوقائع العلمية للبناء عليها فى مورد، و إنكارها و تجاهلها فى مواضعها الأصلية، لأنها فى سياقها حجة لغيرهم. و صفوة القول، فإن أصحاب الحديث أرادوا أن يثقلوا موازينهم بهذه المبتدعات، حتى اضطرهم الأمر إلى الوضع لادناء مالک من منزلة الإمام الصادق، و وضعه فى التأهل

---

(١) المناقب للزواوى ص ١٠.

لاحتلال تلک المنزلة بعد وفاته، و لتكون له الرئاسة بوصية و عهد من الإمام الصادق، و ذلک من الجهل بمكان فإذا اتسع المجلس لمالک فى مجال التلمذة و الأخذ العلمى، فلا تتسع الوصاية له أو لغيره من الناس إلا من نص عليه فى خبر الإمامة، و جاء ذكره فى آثار الولاية المحفوظة و المعهودة عند أولياء الأمر من الأئمة الهداة المعصومين.

و كذلک فإن كتّاب المناقب جعلوا من اسم الإمام الصادق وسيلة لإضفاء القدسية على سيرة مالک كما فعل القاضى عياض بدعواه أن الإمام الصادق قال: قيل لمالک اخترت مقامک بالمدينة و تركت الريف و الخصب؟ فقال: و كيف لا أختاره و ما بالمدينة طريق إلا سلک عليها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جبريل عليه السّلام ينزل عليه من عند رب العالمين فى أقل من ساعة «١». و لا نعلم مناسبة لذلک و لا وجها، و الدعوى لا تساعد المالكية فى تشبّثهم بدار الهجرة لأن الإمام الصادق أعرق أصلا و علما فيها.

و بالجملة فإنا قد اعتمدنا فى بيان منازل رؤساء المذاهب على أقوال معاصريهم و أقرانهم من العلماء، فإن فعلنا لا نجد ما يدل على امتيازه و تفرّده بخصائص تؤهله للمرجعية دون غيره، و قد ذكرنا الكثير منها لتكوين الاطلاع و العلم اللازم للموازنة و المقارنة بين شخصيات رؤساء المذاهب و أئمتها.

سئل أحمد بن حنبل عن مالک؟ فقال: حديث صحيح و رأى ضعيف «٢».

قال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالک، لكن الحظوة لمالک «٣».

قال الشافعى: الليث أفقه من مالک إلا أن أصحاب لم يقوموا به.

و فی روایة: اللیث أفقه من مالک إلا أنه صنیعة أصحابه «۴».

و قال سعید بن أیوب: لو أن اللیث و مالکا اجتمعا، لکان مالک عند اللیث أبکم، و لباع اللیث مالکا فیمن یرید «۵» و قد اطلعنا- سابقا- علی بعض رسالة مالک إلی اللیث و منها:

ثم کان التابعون من بعدهم یسلکون تلک السبیل، و یتّبعون تلک السنن، فإذا کان الأمر بالمدینة ظاهرا معمولا به، لم أر لأحد خلافه للذی فی أیدیهم من تلک

---

(۱) ترتیب المدارک ج ۱ ص ۵۹.

(۲) مناقب الشافعی للفخر الرازی.

(۳) و (۴) شذرات الذهب ج ۱ ص ۲۸۸.

(۵) الرحمة الغیثیة لابن حجر ص ۶. و تذکرة الحفاظ ج ۱ ص ۲۰۹.

الوراثة التی لا یجوز انتحالها و لا ادعاؤها، و لو ذهب أهل الأمصار یقولون: هذا العمل ببلدنا، و هذا الذی مضی علیه من مضی لم یکونوا فیه من ذلک علی ثقة، و لم یکن لهم من ذلک الذی جاز لهم.

و کان من ردّ اللیث علی مالک: إن کثیرا من أولئک السابقین الذین عناهم بقول اللّه تعالی: وَ السّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِینَ وَ الْأَنْصارِ خرجوا إلی الجهاد فی سبیل اللّه ابتغاء مرضاة اللّه، فجندوا الأجناد، و اجتمع إلیهم الناس، فأظهروا بین ظهرانیهم کتاب اللّه و سنّة نبیّه. و أن أصحاب رسول اللّه قد اختلفوا بعده فی الفتیا فی أشیاء کثیرة، و یقول له:

(و لو لا أنی قد عرفت أن قد علمتها لکتبت بها إلیک. ثم اختلف التابعون فی أشیاء بعد أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سعید بن المسیب و نظراؤه أشد الاختلاف، ثم اختلف الذین کانوا من بعدهم، فحضرتهم بالمدینة، و رأسهم یومئذ ابن شهاب و ربیعة بن أبی عبد الرحمن، و کان من خلاف ربیعة لبعض من قد مضی ما قد عرفت و حضرت و سمعت قولک) مشیرا إلی تلمذته علیهما و حضوره عندهما.

و سأل علی بن المدینی یحیی بن سعید: أیما أحبّ إلیک، رأی مالک أو رأی سفیان؟ قال: رأی سفیان، لا یشک فی هذا.

و قال: سفیان فوق مالک فی کل شیء.

و دخل عليه محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة- و هو حدث- فقال: ما تقول فى جنب لا يجد الماء إلا فى المسجد؟ فقال مالک: لا يدخل الجنب المسجد. قال:

فكيف يصنع و قد حضرت الصلاة و هو يرى الماء؟ قال: فجعل مالک يكرر: لا يدخل الجنب المسجد. فلما أكثر عليه قال له مالک: فما تقول أنت فى هذا؟ قال: يتيمم و يدخل فيأخذ الماء من المسجد و يخرج فيغتسل. قال: من أين أنت؟ قال: من أهل هذه- و أشار إلى الأرض- فقال: ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه. فقال: ما أكثر من لا تعرف؟ ثم نهض. قالوا لمالک: هذا محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة. فقال:

محمد بن الحسن، كيف يكذب و قد ذكر أنه من أهل المدينة؟ قالوا: إنما قال من أهل هذه، و أشار إلى الأرض. قال: هذا أشدّ علىّ من ذلک «۱».

و إذا عدنا إلى الحديث و اعتمدنا رأى أحمد بن حنبل بعد أن اطلعنا على وصفه

---

(۱) تاريخ بغداد ج ۲ ص ۱۷۴ و ۱۷۵.

مالكا بالضعف فى الرأى، فإن أحمد يقول: كان مالک من أثبت الناس، و كان يخطئ «۱».

و هو فى جميع الأحوال لا يسلم سنده و لا يخلو طريقه من اختلاف، و لذلک يرجح الحفاظ فى كثير من الأحاديث سند غيره كما فى حديث «أنا و كافل اليتيم فى الجنة ... الحديث» فرجح أبو زرعة و أبو حاتم سند ابن عيينة على رواية مالک «۲».

و قد اختار مالک حبيب بن أبى حبيب الورّاق كاتبا له، و هو معروف بالكذب و متروک. قال ابن حبان: كان يورق بالمدينة على الشيوخ، و يروى عن الثقات الموضوعات كان يدخل عليهم ما ليس من حديثهم. و قال ابن معين: كان يقرأ على مالک و يتصفّح ورقتين ثلاثة، فسألونى عنه بمصر، فقلت: ليس بشىء. و قد كذّبه أبو داود و آخرون، و هو متروک إلا أنه كان قريبا من مالک، و جعله وسيلة عرضه للحديث «۳».

مالک بين الأموية و العباسية

: لقد اتصف مالک بميول أموية واضحة، و قد رأينا أنه أدرک من العهد الأموى أربعين سنة، و من العهد العباسى أكثر من ذلک. و لا بد أن هذه الميول كانت متوارثة فى عائلته منذ جد أبى مالک، و هو أبو عامر الذى برز من بيت مالک بسبب دعاوى الصحبة التى ليست بشىء، و لكن أبرز أعمال جد أبى مالک كونه أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ليلا إلى قبره «۴»، و هى رواية يبادر بها أبو عامر قال: (كنت أحد حملة عثمان حين قتل، حملناه على باب، و إن رأسه لتقرع الباب لإسراعنا به، و إن بنا من الخوف لأمرا عظيما، حتى وارياه فى قبره فى حش كوكب).

أما الرواية عن عبد اللّه بن ساعدة فهى: لبث عثمان بعد ما قتل ليلتين، لا يستطيعون دفنه، ثم حمله أربعة: حكيم بن حزام و جبير بن مطعم و نيّار بن مكرم و أبو جهم بن حذيفة «۵». فأين جدّ أبى مالک؟

---

(۱) شرح علل الترمذى ج ۱ ص ۴۳۷.

(۲) أيضا ج ۲ ص ۸۴۲.

(۳) تهذيب التهذيب ۲/ ۱۸۱. و ميزان الاعتدال ۱/ ۲۱۰. و المجروحين لابن حبان ۱/ ۲۶۰. و شرح علل الترمذى ۲/ ۸۳۰.

(۴) مناقب السيوطى ص ۴.

(۵) الطبرى ج ۵ ص ۱۴۴.

أما مالک، فإن حرصه و توخّيه فى الرواية أدّياه إلى أن يكون ركيزة لحديث موضوع فى معاوية أخذه عن أستاذه نافع، عن ابن عمر و هو: كنت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأهدى إليه سفر جل، فأعطى أصحابه واحدة واحدة، و أعطى معاوية ثلاث سفرجلات و قال: ألقنى بهنّ فى الجنة.

و يتقلد مالک حديث الوضوء من مسّ الذكر، و بإسناده مروان و بسرة بنت صفوان و أنها سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول إذا مسّ أحدكم ذكره فليتوضأ. و بسرة مجهولة لم تكن صحبتها أو مكانتها إلا من صنع الأمويين و حاشيتهم، و لكن مالک بن أنس يرى مكانتها فى علاقتها بالأمويين، لذا فهى مقبولة عنده و غير مجهولة، و لا يفيد طعن رجال الحديث فى روايتها و قلة صحبتها- إن وجدت- فيقول مالک: أ تدرون من بسرة بنت صفوان؟ هى جدة عبد الملک بن مروان أم أمّه فاعرفوها «۱» فكأن (إمام المدينة) نسى الزرقاء؟!! و يتبع الأمويين بميوله، و يتمنى أن يكون فى المدينة مثل عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس، و يقول مالک: ليت أن اللّه زيّن حرمنا بمثله «۲» كأن لم يكف ما فعل أسلاف الدّاخل و أبناء معاوية الأول من جرائم، و ما انتهكوا من حرمات، حتى كان الرجل من أهل المدينة بعد وقعة الحرّة إذا زوّج ابنته لا يضمن بكارتها، و يقول:

لعلها قد افتضّت فى وقعة الحرة «۳». و المدينة التى يحتج بفضلها مالک و يسعى إلى أن يقتدى به الآخرون لأن فيها الصحابة و هو من أهلها أيضا، ختم الحجاج أعناق الصحابة من أهلها كجابر بن عبد اللّه الأنصارى و أنس بن مالک و سهل بن سعد الساعدى ليذلّهم.

أما رأيه فى التفضيل، فهو من آثار هذه الميول. فهو يرى أن الإمام عليا كسائر الصحابة. روى مصعب- و هو أحد تلامذة مالک- أنه سأل مالكا:

من أفضل الناس بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ فقال مالک: أبو بكر قال:. ثم من؟

قال: عمر. قال: ثم من؟ قال: عثمان. قال: ثم من؟ قال: هنا وقف الناس.

---

(۱) كتاب الاعتبار لابن حازم الهمذانى ص ۴۳.

(۲) مالک لأمين الخولى ص ۲۰۰ نقلا عن شرح العيون لابن نباته.

(۳) الفخرى ص ۱۰۷.

و لكنه أخذ يتردّد فى ضمّ عثمان إلى الشيخين لأنه التحق بركب العباسيين فيما بعد- كما سيأتى- و سار على ما يسير عليه المنصور فى ذلک، فإنه لما دخل عليه مالک قال له المنصور: من أفضل الناس بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ قال مالک: أبو بكر و عمر. فقال المنصور: أصبت، و هذا رأى أمير المؤمنين- يعنى نفسه- و كانت موافقة مالک للمنصور و اتباعه السلطة من المحفزات على اتخاذ مالک عالما لها.

قال الشيخ أبو زهرة: إن مالكا يخالف بذلک- أى التفصيل- إمامين آخرين عاصراه: أحدهما أسنّ منه و مات قبله و هو أبو حنيفة. و ثانيهما أصغر منه و هو تلميذه الشافعى. فإن أبا حنيفة لا يعد عليا كسائر الناس بل «يرفعه» إلى مرتبة الراشدين من الخلفاء، و يقدمه فى الترتيب على عثمان. و الشافعى يعلن محبته لعلى، و يحكم على خصومه بأنهم بغاة ... «۱».

و نحن نقول أنه خالف إماما ثالثا و هو أحمد بن حنبل، فما كان رأيه كرأى مالک، بل كان يعدّ عليا من أهل بيت لا يجارون، و لا يقاس بهم أحد، و ذلک عند ما سأله ولده عبد اللّه: من أفضل الناس؟ قال: أبو بكر و عمر، و عثمان. ثم سكت، فقال له فعلى: فقال: يا بنى، على من أهل بيت لا يقاس بهم أحد. و له كثير من الآراء فى تفضيل الإمام على. حتى أنه ألف كتابا فى مناقب الإمام على، فهو يرى أن ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لعلى «۲».

و لا يصح اعتبار التفضيل سببا فى تعرّضه إلى الأذى على يد جعفر بن سليمان و الى المدينة سنة ۱۴۶ ه و إطلاق اسم المحنة على هذه الحادثة التى تعرض بها إلى الأذى، فقد جرّد من ثيابه، و مدّت يداه، و ضرب بالسياط حتى انخلعت كتفاه لعدم رضا الطالبيين عن مذهب مالک بهذا الخصوص.

و علينا أن نقف عند هذه الحادثة لأنها الفاصل بين الميول الأموية فى حياة مالک و الميول العباسية التى ظهرت عليه بما لا ينسجم مع ماضيه. إذ أن دخوله فى أمر ثورة محمد النفس الزكية أمر غير متوقع، فلذلک لا غرابة فى عدم الإجماع على سبب واحد لهذه الحادثة. فإضافة إلى ما ذكرناه من القول فى أن عدم الرضا من قبل

(۱) مالک ص ۷۰.

(۲) مناقب أحمد لابن الجوزی ص ۱۶۳.

الطالبیین کان سببا فی ذلک لرأی مالک فی التفضیل. فهناک قول أن السبب هو مجاهرة مالک بمخالفة ابن عباس فی جواز نکاح المتعة، فقیل له فی قول ابن عباس فیها، فقال: کلام غیره فیها أوفق لکتاب اللّه. و أصرّ علی القول بتحریمها، فطیف به علی ثور مشوّها، فکان یرفع القذر عن وجهه و یقول: یا أهل بغداد أنا مالک بن أنس فعل بی ما ترون لأقول بجواز المتعة «۱».

و هذا بعید عن الواقع، لأن الحادثة وقعت فی المدینة، و إذا سلّمنا صحة هذا السبب، فهل أصرّ مالک علی رأیه فیما بعد؟ و وافقته الدولة و تخلّت عن رأیها و قرّبته؟

أم أنه وافق رأیها و تنازل عن إصراره، و ترک ما وافق کتاب اللّه لما وافق رأیهم؟

و لا یبعد أن یکون وراء وضع هذه الصور المتعددة أنصار مالک لغرض اشتهاره و توسیع دائرة ذکره.

و مهما یکن، فإن سبب الحادثة الأقرب، هو التظاهر بتأیید ثورة محمد النفس الزکیة. و الروایة کما فی الطبری و ابن الأثیر: أن مالک بن أنس استفتی فی الخروج مع محمد و قیل له: إن فی أعناقنا بیعة لأبی جعفر. فقال: إنما بایعتم مکرهین و لیس علی کل مکره یمین. فأسرع الناس إلی محمد، و لزم مالک بیته «۲». أما ابن عبد البرّ فیروی- من بین ما یروی- أن أبا جعفر نهی مالکا عن الحدیث (لیس علی مستکره طلاق) ثم دسّ إلیه من یسأله عنه، فحدّث به علی رءوس الناس، فضربه بالسیاط «۳».

و الفرق بین الروایتین کبیر، فإذا اعتبرنا الثانیة، فإن روایة مالک للحدیث تأتی من اختصاصه فی حفظ الحدیث و الروایة، و تشدّده فی روایة الحدیث الذی یرتئیه و یصحّحه. فهو یجمع لموطئه، و عامل موهبته هو الحفظ. و یأتی نهی المنصور فی ظروف بحثه عن محمد النفس الزکیة و استعداد العلویین للثورة.

أما الروایة الأولی فلیس دور مالک فی الثورة بهذا الشکل، فقد علمنا ظروف الثورة و الحرکة العلویة التی یناهضها مالک، و من المبالغة بمکان أن یکون رأی مالک هو سبب إسراع الناس، و ذلک ما ینفرد به الطبری و من ورائه ابن الأثیر.

(۱) شذرات الذهب ج ۱ ص ۲۹۰.

(۲) الطبری ج ۹ ص ۲۰۶. و ابن الأثیر ج ۵ ص ۲۵۱.

(۳) الانتقاء ص ۴۳ و ۴۴.

ص: ۳۸۰

و خلاصة القول، أن الحديث الصحيح الذى منع المنصور مالكا من روايته كان مصداقا للتحلل من بيعة المنصور. و إنما كان مالک يرويه لكونه حديثا و ليس لغرض يخدم حركة العلويين، فلما قامت الثورة، قال مالک بما كان يرويه. و تظاهره بذلک لا يخلو من كراهيته لما فعل العباسيون بالأمويين. و من ثم كان انصرافه إلى بيته بانتظار ما سيسفر عنه الأمر. و لو صحّ هذا التأييد فما هو عذره فى السكوت عن جرائم أبى جعفر المنصور فى بنى الحسن، و دفنهم و هم أحياء، و قتل النفس الزكية؟! و المنصور هو هو من شدّة عدائه و حقده على من يناوئ حكمه و يمالىء أعداءه، و لو كان هناک ما يشمّ من مالک غير نشاطه اليومى فى الرواية التى خشى أثرها المنصور، لما كان هذا الاعتذار منه لمالک، و بهذا الشكل الذى يصفه لنا مالک بلسانه: (لما دخلت على أبى جعفر، و قد عهد إلىّ أن آتيه فى الموسم. قال لى: و اللّه الذى لا إله إلا هو ما أمرت بالذى كان، و لا علمته، إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم، و إنى أخالک أمانا لهم من عذاب، و لقد رفع اللّه بک عنهم سطوة عظيمة، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن، و قد أمرت بعد و اللّه أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على قتب، و أمرت بضيق محبسه، و الاستبلاغ فى امتهانه، و لا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالک).

و لا نكتشف أى إشارة للاتهام أو الاعتذار فى سبب معين، و قول مالک أو روايته يأتى مبينا لرأى المنصور فى مالک، لا يشوبه غضب متجبر أو ظالم كالمنصور، بل هو يشعر مالک بأن لوجوده بين أهل المدينة أثرا فى التخفيف من نقمته، أولئک الذين يصفهم المنصور بأنهم أسرع إلى الفتن. و الأمر بمقتضى الرواية المالكية لا يعدو رواية الحديث و التظاهر، و قد يكون من مالک بفتحة ضيقة من وراء بابه، يرفع بها صوته، مردّدا ما منعه المنصور من روايته فى تلک الظروف، و بعدها إحكام رتاج الباب حتى انتهاء الأحداث.

و لو كانت هذه الحادثة لعلوية أنزلها اللّه فى قلب مالک، لكان مصيره بلا شک كمصير الآخرين من الفقهاء و الرجال الذين سلط المنصور عليهم نقمته لانحيازهم إلى محمد النفس الزكية، و كابن هرمز الذى اختلف إليه مالک ثلاثين سنة للتفقه- كما مر بنا- و عبد العزيز بن محمد الدراوردى، و عبد الرحمن بن أبى الموالى الذى ضربه المنصور أربعين سوطا لكى يدله على محمد فلم يدله، و عبد اللّه بن عمر بن حفص

ص: ۳۸۱

الذى أخذ أسيرا، فأتى به المنصور فقال له: أنت الخارج علىّ؟ قال: لم أجد إلا ذلک أو الكفر بما أنزل اللّه على محمد. و عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير الذى هرب بعد قتل محمد، فأتى البصرة فأخذ منها و أتى به المنصور فقال له: هيه يا عثمان، أنت الخارج علىّ مع محمد؟ قال: بما بايعته أنا و أنت بمكة، فوفيت بيعتى، و عذرت بيعتک. قال المنصور: يا ابن اللخناء، قال: ذاک من قامت عنه الإماء. فأمر به فقتل.

و غيرهم كثير.

و لا نريد أن نبرئ المنصور تماما من بعض الأسباب التى تتعلق برواية الحديث و لا تتعداه، و هو أمر عابر لم يترك أثرا فى نفس المنصور التى تتسم بالحقد، و إلا فهناك رواية تبين أن جعفر بن سليمان هو الطرف فى منع رواية الحديث، و قد تصرّف بعقلية العباسى الذى ينتمى إلى أسرة لها الحكم و الطاعة، و رواية حديث: (ليس على مستكره طلاق) يؤدى إلى تبرير نقض إيمان بيعة بنى العباس «١». و قيل له: إنه لا يرى خلافتكم. فضربه سبعين سوطا، و مدّت يده حتى انخلعت «٢».

كما لا نريد أن نظلم مالكا، فقد دافع عن الفقهاء الذين يغلى صدر المنصور عليهم بحقده الأسود عند ما قال له: ما هذا الذى يبلغنا عنكم معاشر الفقهاء و أنتم أحق الناس بالطاعة، و أعرفهم بما يلزم من حق الأئمة؟ فقال مالك: فقلت يا أمير المؤمنين إن اللّه تعالى يقول فى كتابه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ فجرى بينهما كلام و مذاكرة، إلى أن ذكر له مالك أنه لما بعث إليه ليلا و طلبه خاف منه القتل على نفسه. فقال أبو جعفر: حاشا للّه يا أبا عبد اللّه أن أثلم ركنا للمسلمين، فإن لم أكن بالذى أبنيه لهم، فلست بهادمه لهم. ثم عرض عليه الذهاب معه إلى بغداد.

و بالجملة. فإن كل آراء المنصور فى مالك هى آراء حسنة، و من ينظر إلى موقف المنصور و ثباته إزاء مالك، يعلم أن «أمر المحنة» ليس كما صوّره الطبرى و ابن الأثير و غيرهما. و ما اختيار المنصور لمالك فى أمر الفقهاء إلّا لما عهده من مالك من موافقة فى الاعتقادات التى عليها الحكم العباسى، و قد رأينا قول مالك فى التفضيل،

---

(١) الانتقاء ٤٤.

(٢) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٠.

و فى عثمان. كما أن من لواحق قول مالك المعروفة- و التى تنم عن الأموية الواضحة- و جعله الإمام على كسائر الصحابة الآخرين هو قول مالك: و ليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه. و محمد النفس الزكية تتناوله و لا شك هذه القاعدة، فكل الوجوه فى سيرة مالك تنفى الميل العلوى، و إنما نمو ميل عباسى ليس على بقايا الميل الأموى و لكن إلى جانبه (لأن رأى مالك فى الإمام على متفق مع الولاة و الخلفاء) «١». و مما يلاحظ أن مالكا لم يسطع نجمه إلا بعد أن احتضنته الدولة و ذلك فى سنة ١٤٩ ه أى بعد وفاة الإمام الصادق عليه السّلام بسنة. فقد كانت الشهرة التى تلفّ مدرسة الإمام الصادق هى معارضة الدولة، و تطبيق منهج إصلاحى يبصّر الأمة، و يحملها على الالتزام و التمسّك بأحكام الدين، و لم يؤثر موقف الحكام العباسيين على انتشار مذهب أهل البيت، فقد كانت مدرسة الإمام الصادق من أبرز الحركات الفكرية، و من أشهر معالم النهضة العلمية. و كانت الدولة العباسية فى طفولتها تعارض حركة انتشار المذهب- من وراء الستار- إذ ليس فى إمكانها التظاهر بالمعارضة، لأنهم كانوا بحاجة ملحّة لاستمالة أعيان أهل البيت، للتأثير فى نفوس الناس الذين يدينون لهم بالولاء، و يتفجّعون لما أصابهم من ويلات و ما لحقهم من مصائب، و ليس للعباسيين نفوذ يستطيعون به حماية الدولة، فكان لا بد من الاستعانة بزعماء الشيعة لتثبيت أركانها و حمايتها.

و لم يكن هناک شهرة لأحد سوى الإمام الصادق، و قد رأينا كيف كان الإمام الصادق يمثّل خطرا أتعب المنصور أمره، فحاول مرات أن يقتل الإمام، و قد كلأه اللّه بعنايته و نجّاه من شرّه. و يذكر أن المنصور وصف الإمام الصادق بالشجى المعترض حلقه.

أما مالک بن أنس، فقد كان فى حياة الإمام الصادق كأحد رجال المدينة، قادته شهرة مدرسة الإمام الصادق إلى ما بين يدى الإمام، فكان أحد طلابها، و لم ينتشر ذكره إلا بعد سنة ۱۴۸ ه و هى سنة وفاة الإمام الصادق.

و لا يخفى أن غرض المنصور من وراء إظهار مكانة مالک و إبرازه، هو منزلة الإمام جعفر بن محمد الصادق. فقد علمنا محاولته فى استعمال فقه أبى حنيفة و مكانته للتأثير على منزلة الإمام الصادق، و مرّ بنا أمر هذه المحاولة. و يتّجه المنصور

---

(۱) مالک لأبى زهرة ص ۷۲.

بنفس تلک الدوافع إلى مالک لأن من قام بأمر الإمامة بعد الصادق هو وصيّه الإمام موسى بن جعفر. رجل الصلاح و الدين و العبد الصالح كما وصفه الناس و هم ملتفّون حوله و لقّبوه بالعالم.

فلاحت للمنصور فكرة إخضاع العلم الدينى للحكم، و ربطه بالدولة بتوحيد الأحكام و استعمال القوة، فروى أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالک: ضع للناس كتابا أحملهم عليه. فكلمه مالک فى ذلک. فقال: ضعه، فما أحد اليوم أعلم منک. فوضع الموطأ «۱».

و لم يغب عن مالک مغزى ذلک، فأجابه: يا أمير المؤمنين لا تفعل. أما هذا الصقع فقد كفيتكه، و أما الشام ففيه الرجل الذى علّمته- يعنى الأوزاعى- و أما أهل العراق فهم أهل العراق.

فكان المنصور يشدّ أزر الأوزاعى و يراسله.

و اخبر المنصور مالک أن من لا يرضى سيضرب عليه بالسيف و يقطع عليه ظهورهم بالسياط «۲» و فى رواية: كتب به إلى أمراء الأجناد و إلى القضاة فيعملون به، فمن خالف ضربت عنقه «۳». و كان عند الرشيد محل إجلال و تقدير، و له علاقة مع الرشيد قوية و حميمة، و كان لا يتردّد فى الشكوى إلى الرشيد مما يهمه، فكان يشكو إليه ما عليه من دين، و يطلب المساعدة فى زواج ابنه محمد «۴».

موطأ مالک

: يتضح أن موطأ مالک کان الکتاب الذی طلبه العباسیون، و قد وضع المنصور بنفسه خطة الکتاب، فبعث إلی مالک حین قدم، فقال له: إن الناس قد اختلفوا بالعراق، فضع للناس کتابا تجمعهم علیه. فوضع الموطأ «۵» و الظاهر أن بعض کتّاب المناقب من المالکیة حاولوا التمویه علی اشتراط المنصور أو خطته الکتاب الذی یریده

---

(۱) الدیباج ص ۲۵.

(۲) أیضا.

(۳) الزواوی ص ۲۴.

(۴) العقد الفرید ج ۱ ص ۱۱۰.

(۵) الجرح و التعدیل ج ۱ ص ۱۲.

من مالک، فوضعوا روایات أخری منها: أن المنصور قال: یا أبا عبد اللّه ضع هذا العلم و دوّن کتابا و جنّب فیه شدائد عبد اللّه بن عمر، و رخص عبد اللّه بن عباس و شواذّ ابن مسعود، و أقصد أواسط الأمور و ما أجمع علیه الصحابة «۱».

أما الروایة التی تتضافر علی صحتها المدلولات و الأقوال، فهو قول المنصور:

یا مالک علیک بما تعرف أنه الحق عندک، و لا تقلدنّ علیا و ابن عباس أو نحو هذا.

و نری أن ذکر ابن عباس من الزوائد أیضا التی قام بها کتّاب المناقب، و لعلهم استعظموا أن یکون أساس کتاب المذهب هو التحذیر من الإمام علی.

إن العباسیین تخلّوا عن ذاک الالتزام بسیرة الإمام علی، و انتهت أغراضهم من ذکر فضائله و معالم سیرته، فتحوّلوا- بعد قیام دولتهم- إلی العداء و النصب. أما ابن عباس فقد بقی رمزا لدیهم تجرّهم إلیه العصبیة و تشدّهم إلی ذکره مصالح حکمهم، و لیس لعلم أو منزلة، فهم علی حلیة نکاح المتعة لا لعدم النص علی نسخها و عدم جواز منعها أو تحریمها من قبل أحد غیر النبی محمد، و لکن لأن ابن عباس یقول بجواز نکاح المتعة، و قد رأینا أن مسألة نکاح المتعة کان من جملة الأسباب التی احتملت فی تعرّض مالک للأذی.

و لهذا فاشتراط المنصور أو خطته کانت موضع تنفیذ، و وفی مالک بالشرط، إذ لم یرو عن علی علیه السّلام فی موطأه، و یروی أن الرشید قال له: لم نر فی کتابک ذکرا لعلی و ابن عباس؟ فقال: لم یکونا ببلدی و لم ألق رجالهما. و یعتذر الزرقانی فیقول:

فإن صحّ هذا فكأنه أراد ذكرا كثيرا. و إلا ففى الموطأ أحاديث عنهما «۲».

و نال الكتاب شهرة، و أصبح موضع تقديس حتى أطلقوا عليه اسم الصحيح و قالوا: إنه لا مثيل له، و لا كتاب فوقه بعد كتاب اللّه عز و جل «۳».

و وضعوا عن رسول اللّه منامات فى مدحه، و أنه قال: ليس بعد كتاب اللّه عز و جل و لا سنّتى فى إجماع المسلمين حديث أصحّ من الموطأ «۴». و قالوا: إن النبى سمّى الكتاب بهذا الاسم ... إلى غير ذلک.

---

(۱) الديباج و شرح الموطأ للزرقانى ج ۱ ص ۷.

(۲) شرح الموطأ ج ۱ ص ۸.

(۳) مقدمة النص لابن عبد البر ص ۹.

(۴) كشف المغطى فى فضل الموطأ ص ۲.

و قد روى عن مالک أنه قال: عرضت كتابى هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة، فكلهم واطأنى عليه، فسمّيته الموطأ. و قيل: لما ألف الموطأ، ألقاه فى الماء و قال: إن ابتلّ فلا حاجة لى به. فلم يبتل منه شىء.

و كان قد جمع فيه عشرة آلاف حديث، ثم هذّبه و نقّحه، فلم يبق من ذلک العدد إلا ألف و سبعمائة حديث. و قيل: خمسمائة «۱». و قيل: أقل و أكثر لاختلاف النسخ زيادة و نقصا و إسنادا و إرسالا.

و جملة ما فى الموطأ ۱۷۲۰ حديثا، المسند منها ۶۰۰، و المرسل ۲۸۸ و الموقوف ۶۱۳. و من قول التابعين ۲۸۵.

و قد بلغ من اهتمام العباسيين بالموطأ أنهم عرضوا على مالک أن يكتب بماء الذهب و يعلّق فى الكعبة. و أن الرشيد قام يمشى مع مالک إلى منزله ليسمع منه الموطأ، فأجلسه معه على المنصة، فلما أراد أن يقرأه على مالک قال له: تقرؤه على؟

قال مالک: ما قرأته على أحد منذ زمان، قال: فيخرج الناس عنى حتى أقرأه أنا عليک.

فقال: إن العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع اللّه تعالى به الخاصة «۲».

: و كيف كان، فإن مالک بن أنس نال الحظوة عند بنى العباس. فقد مكّنه المنصور فى الحجاز من أن يتمتع بسلطة تنفيذية مع ما خوّله من السلطة التشريعية، و كان من أهم مظاهر إلحاق مالک بالدولة العباسية و اعتباره عالمهم، أن منادى المنصور كان فى أيام الحج يعلن: بأن لا يفتى إلا مالک.

و لما قام المهدى بالأمر بعد أبيه، عظمت منزلة مالک، و كان يحترمه و يصله بهدايا جزيلة، و يعطيه عطاء وافرا، و يقرّب مجلسه، و ينفّذ ما يريده، و كان المهدى يشيد بشأن مالک.

و لما جاء الرشيد لم تتغير منزلة مالک، بل كانت تزداد، و كان الرشيد يقصده إذا دخل المدينة و يجلس بين يديه إظهارا لمنزلة مالک و جلبا لأنظار الناس إليه. و أمر عامله ألا يقطع أمرا دون مالک.

---

(١) شرح الزرقانى على الموطأ ج ١ ص ٧.

(٢) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩١.

و قد رأينا مالكا قبل إلحاقه بالدولة و هو يسعى إلى العلم، فلم يظهر عليه إلا الرغبة فى السماع. و من المفاخر أن يؤدى به طلب العلم إلى أن ينقض سقف بيته و يبيع خشبه- كما يروى ابن فرحون- غير أن إقبال الحكّام عليه أحدث انقلابا فى مسلكه و سيرته و استجاب لما تضفيه عليه السلطة.

فعند ما يحاول أولياء و أقرباء بعض المسجونين فى سجون المدينة المنورة التوسط لدى المنصور، و يلجأ المنصور إلى الصيغة التى تجنّبه اللوم و نسبة الظلم إليه بإدخال العلماء و أهل الدين فى المعاينة، نجد مالک يجيب وفق ما يريد المنصور.

و معلوم أن أمر المدينة كان يشقّ على المنصور، و كانت السجون التى فيها تعكس مشاعر المنصور تجاه أهلها، فلما ولى عبد الصمد على المدينة عاقب بعض القرشيين و حبسه حبسا ضيّقا، فكتب بعض قرابته إلى المنصور و شكى ذلک إليه و أخبره. فكتب المنصور إلى المدينة و أرسل رسولا و قال: اذهب فانظر قوما من العلماء، فأدخلهم عليه حتى يروا حاله و تكتبوا إلى بها، فأدخلوا عليه فى حبسه مالک بن أنس، و ابن أبى ذئب، و ابن أبى سيرة و غيرهم من العلماء فقال: اكتبوا بما ترون إلى أمير المؤمنين.

قال: و كان عبد الصمد لما بلغه الخبر حلّ عنه الوثاق، و ألبسه ثيابا، و كنس البيت الذى كان فيه، و رشّه، ثم أدخلهم عليه. فقال لهم الرسول: اكتبوا بما رأيتم. فأخذوا يكتبون: يشهد فلان و فلان. فقال ابن أبى ذئب: لا تكتب شهادتى، أنا أكتب شهادتى بيدى إذا فرغت، فارم إلىّ بالقرطاس. فكتبوا: محبسا لينا، و رأينا هيئة حسنة. و ذكروا ما يشبه هذا الكلام، ثم دفع القرطاس إلى ابن أبى ذئب، فلما نظر فى الكتاب فرأى هذا الموضع قال: يا مالک داهنت و فعلت و ملت إلى الهوى. اكتب: رأيت محبسا ضيقا، و أمرا شديدا. و جعل يذكر شدّة الحبس «١».

و أخذ مالک باستعمال العنف و المعاملة بالقسوة، فکان إذا حدّث یقوم علی رأسه الحرس، فإذا تکلم أحد أو اعترض علیه، أشار للحرس فیسحبون المتکلم و یخرجونه من المجلس، و إن اقتضی السجن سجن، و قد رأینا سابقا کیف أمر بحبس ابن مهدی و کان یصلی خلفه، و من سیاق القصة یتبین لنا أن الحرس کان معه حتی

---

(۱) تاریخ بغداد ج ۲ ص ۲۹۹.

و هو یؤم الناس فی صلاتهم، لأن مالک سأل: من هنا من الحرس؟ فجاءه نفسان، و طلب منهما أن یحبسا ابن مهدی «۱».

و مما یؤلم أن تتعدی الشدّة الحدود إلی القسوة التی لا علاقة لها بحکمة تشریع الحدود، کما کان علیه الحال فی قصة الرجل الذی عدا علی أخیه، حتی إذا أدرکه دفعه فی بئر، و أخذ رداءه و أبوا الغلامین حاضران، فقال جماعة من أهل العلم:

الخیار للأبوین فی العفو أو القصاص. فقال مالک: أری أن تضرب عنقه الساعة. فقال الأبوان: أ یقتل ابن بالأمس، و نفجع فی الآخر الیوم؟ نحن أولیاء الدم، و قد عفونا.

فقال الوالی: یا أبا عبد اللّه، لیس ثمّ طالب غیرهما و قد عفوا. فقال مالک: و اللّه الذی لا إله إلا هو لا تکلمت فی العلم أبدا أو تضرب عنقه. و سکت، فارتجّت المدینة- فلما رأی الوالی عزمه، قدّم الغلام، فضرب عنقه، فلما سقط رأسه، التفت مالک إلی من حضر فقال: إنما قتلته بالحرابة حین أخذه ثوب أخیه، و لم أقتله قودا، إذ عفا أبواه.

و یسری تأثیر السلطة إلی منهجه، دخل علیه رجل فقال: ما تقول فیمن قال:

القرآن مخلوق؟ فقال مالک: زندیق اقتلوه. فقال: یا أبا عبد اللّه، إنما أحکی کلاما سمعته؟ قال: لم أسمعه من أحد، إنما سمعته منک «۲».

و قال سحنون: أخبرنی بعض أصحاب مالک أنه کان عنده جالسا، فأتی رجل فقال: یا أبا عبد اللّه مسألة. فسکت ثم قال: مسألة. فسکت، ثم أعاد علیه، فرفع رأسه کالمجیب له فقال له السائل: الرَّحْمنُ عَلَی الْعَرْشِ اسْتَوی کیف استواؤه؟

قال: فطأطأ مالک رأسه ساعة، ثم رفعه فقال: سألت عن غیر مجهول، و تکلمت فی غیر معقول، و لا أراک إلا أمرا سوء، أخرجوه «۳». و وردت سابقا بلفظ آخر، و لکن تجمعهما النهایة. و فی الحلیة: و أظنک صاحب بدعة. و أمر به فأخرج «۴».

و ما کان یتهیأ لأحد بالمدینة أن یقول قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلا حبسه مالک فی الحبس، فإذا سئل فیه، قال: یصحّح ما قال ثم یخرج. و لقد کان ابن کنانة و ابن أبی

(۱) مالک للخولی ص ۲۷۴ نقلا عن ترتیب المدارک.

(۲) مناقب السیوطی ص ۱۴.

(۳) الزواوی ص ۳۲.

(۴) حلیة الأولیاء ج ۶ ص ۳۲۵.

حازم و الدراوردی و غیرهم سمعوا مع مالک من مشایخ، و ترکوا الحدیث عنهم هیبة له حتی مات ففشا ذلک فیهم «۱».

و ابن فرحون ینقل فی وصفه: کان کالسلطان له حاجب یأذن علیه، فإذا اجتمع الناس ببابه أمر آذنه فدعاهم، فحضر أولا أصحابه، فإذا فرغ من یحضر، أذن للعامة.

و إذا أتاه الناس خرجت إلیهم الجاریة فتقول لهم: یقول لکم الشیخ تریدون الحدیث أو المسائل؟ فإن قالوا: المسائل. خرج إلیهم و أفتاهم. و لا بد هنا من ملاحظة قول ابن القاسم الذی یورده ابن فرحون بعد أسطر قلیلة من النصوص التی تصف مالک. قال ابن القاسم: سمعت مالکا یقول: إنی لأفکر فی مسألة منذ بضع عشرة سنة، ما اتفق لی فیها رأی إلی الآن. و کان یقول: ربما وردت علیّ المسألة فأسهر فیها عامة لیلتی.

و قال ابن عبد الحکم: کان مالک إذا سئل عن المسألة، قال للسائل: انصرف حتی انظر. فینصرف و یتردد فیها!! ا ه.

أما إذا طلب الناس الحدیث، قیل لهم: اجلسوا. فیدخل مغتسله، فیغتسل و یتطیب، و تلقی له المنصة، فیخرج إلیهم، و یوضع عود، فلا یزال یتبخّر حتی یفرغ من حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کان لا یوسع لأحد فی حلقته و لا یرفعه، یدعه یجلس حیث انتهی به المجلس. و مع هذا کان إذا استزاده أحد من الناس فی الحدیث یشیر إلی السودان الذین یقفون عند رأسه، فیخرجونه من الدار «۲».

و کان یلبس طیلسانا طرازیا و قلنسوة متربّکة و ثیابا مرویة جیادا، و فی بیته وسائد یقعد علیها أصحابه و قوّم الطیلسان بخمسمائة، و کان یقع جناحه علی عینیه، و قیل فی هذه الهیئة: إنه أشبه شیء بالملوک. و وصف منزله بأنه کان مبسوطا بأنواع المعارش «۳».

و لقد کان متأنقا فی ملبسه و مأکله أیضا، فقد مات و ترک مائة عمامة و خمسمائة زوج نعل، و کان یهدی إلیه الهدایا الفاخرة، و اشتهی یوما کساء قرمزیا، فأهدی إلیه سبعة منها.

و أهدی إلیه یحیی بن یحیی النیسابوری هدیة باع من فضلتها ثمانین ألفا. قال

(۱) الديباج ص ۲۴.

(۲) الانتقاء ۴۲.

(۳) البداية و النهاية ج ۱۰ ص ۱۷۴.

قتيبة: كنّا إذا أتينا مالكا خرج إلينا مطيبا، قد لبس من أحسن ثيابه، فتصدّر و دعا بالمراوح، فأعطى كل إنسان مروحة «۱».

و قد نصح بعضهم مالكا بالتواضع، و ترک ما هو عليه. فكتب إليه يحيى بن يزيد بن عبد الملک النوفلى المدنى- و كان من أهل الحديث-: بسم اللّه الرحمن الرحيم، و صلى اللّه على رسوله محمد فى الأولين و الآخرين، من يحيى بن يزيد بن عبد الملک إلى مالک بن أنس، أما بعد فقد بلغنى أنک تلبس الدقاق، و تأكل الرقاق، و تجلس على الوطء، و تجعل على بابک حاجبا، و قد جلست مجلس العلم، و قد ضربت إليک المطى، و ارتحل إليک الناس، و اتّخذوک إماما رضوا بقولک؛ فاتق اللّه يا مالک، و عليک بالتواضع، كتبت إليک بالنصيحة كتابا ما أطلع عليه غير اللّه سبحانه و تعالى و السّلام.

و يكتب إليه مالک كتابا يقرّ فى آخره بما آخذه به يحيى و يقول: فنحن نفعل ذلک، و نستغفر اللّه تعالى، فقد قال اللّه تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ و إنى لأعلم أن ترک ذلک خير من الدخول فيه «۲».

و الخلاصة، إننا لم نجد عند أحد من رؤساء المذاهب أو العلماء الذين كان لهم حظ وافر من تقريب السلطة لهم ما وجدناه عند مالک، فهذا الإمام أحمد كان يتحلى بروح إنسانية عالية بعيدة عن الميل و العنف- مع تشدده- فقد سئل يوما عن حبس أهل البدع، فأنكر ذلک بحجة أن لهم والدات و أخوات. أى أنه كره أن يتعدى عقابهم إلى الأبرياء من ذويهم ممن ليس لهم ذنب أو جريمة، و ما خلا القول بخلق القرآن و الرؤية، فإنا نرى الإمام أحمد يسمح بالمناظرة و القول.

و من العجب أن يستجيب رجل الدين للدولة و يؤثر فيه ميلها إليه بحكم مصالحها و احتضانها له لأغراضها، و يسمح لنفسه بأن يعامل الآخرين بهذا الشكل من النكال. فيشمل ذلک طلبة العلم أو العلماء، و أنهم- كما رأينا- تركوا أن يحدّثوا بشىء لأنه كان يعاقب من يروى عن النبى حديثا فيسجنه ما لم يصح عنده. فما ذا يعتذر له بذلک؟ فليسوا أصحاب جدل و لا شبهة هوى أو بدعة، و إنما علماء عاصروه و هم أعلم منه أو فى طبقته، و ما علمنا ذلک إلّا من شئون الملوک و سلاطين الزمان. و لكن

(۱) تذكرة الحفّاظ ج ۱ ص ۱۹۶.

(۲) إحياء علوم الدين ج ۱ ص ۱۱۴.

أدى رضا السلطان و احتضانه لمالک إلى أن يكون مثله فيزدحم الناس على بابه، و يقف الحجّاب عليها يمنعونهم من الدخول عليه، فإذا أذن لهم ازدحموا.

قال أبو مصعب: كانوا يزدحمون على باب مالک، فيقتتلون على بابه من الزحام، و كنّا عنده فلا يكلم هذا هذا، و لا يلتفت ذا إلى ذا، و الناس قائلون برءوسهم هكذا (مبالغة فى الإنصات) و كان الأمراء تهابه، و هم مستمعون، و كان يقول فى المسألة: لا أو نعم. فلا يقال له: من أين لک هذا.

و قد أنكر عليه بعض العلماء ما رأوه من حاله و أعماله، و ترک الحديث عنه الحكم بن نافع الحمصى و هو أحد العلماء، و من احتج الشيخان بحديثه، فإنه رأى مالكا و لم يسمع منه لما رأى من الحجّاب و الفرش «۱».

و تكلم فيه أيضا إلى جانب ابن أبى ذؤيب و ابن إسحاق عبد العزيز بن أبى سلمة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و ابن أبى يحيى و ابن أبى الزناد، و عابوا أشياء من مذهبه، و تكلم فيه غيرهم. و تحامل عليه الشافعى و بعض أصحاب أبى حنيفة، و عابه قوم فى قعوده عن مشاهدة الجماعة فى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «۲» و قال الخطيب: قد ذكر بعض العلماء أن مالكا عابه جماعة من أهل العلم فى زمانه بإطلاق لسانه فى قوم معروفين بالصلاح و الديانة و الثقة و الأمانة «۳».

و ما يرويه الإمام الشافعى فى أول اتصاله بمالک يؤيد ذلک، عند ما أخذ من والى مكة وصية إلى والى المدينة يطلب منه إيصال الشافعى إلى مالک.

قال الشافعى:

فأوصلت الكتاب إلى الوالى، فلما قرأه قال: يا فتى، إن مشيى من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا راجلا أهون على من المشى إلى باب مالک بن أنس، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه. فقلت: أصلح اللّه الأمير إن رأى أن يوجه إليه ليحضر؟ قال: هيهات، ليت إنى إذا ركبت أنا و من معى، و أصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا. قال: فواعدته العصر، و ركبنا جميعا، فو اللّه لكان كما قال، لقد أصابنا

---

(۱) ميزان الاعتدال ۱/ ۲۷۲.

(۲) جامع بيان العلم ج ۲ ص ۱۶۱.

(۳) تاريخ بغداد ج ۱ ص ۲۲۳.

من تراب العقيق. قال: فتقدم رجل، فقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولى لمولاک أنى بالباب. قال: فدخلت، فأبطأت، ثم خرجت فقالت:

إن مولاى يقرئک السلام و يقول: إن كانت مسألة فارفعها فى رقعة يخرج إليک الجواب، و إن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف. فقال لها: قولى له:

إن معى كتاب والى مكة إليه فى حاجة مهمة. فدخلت و خرجت و فى يدها كرسى، فوضعته، ثم إذا أنا بمالک ... إلخ الرواية «۱».

و لنتأمل تهيّب الوالى من الوصول إلى مالک، فهو أمر غير معهود، بل و غريب، و لكن مصلحة الملوک اقتضت ذلک. فقد نقل أن المنصور كان يطلب من مالک أن يبدى رأيه فى ولاته على الحجاز. و قال له:

إن رابک ريب من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد من عمّال الحجاز فى ذاتک أو ذات غيرک، أو سوء أو شرّ فى الرعية، فاكتب إلىّ بذلک، أنزل بهم ما يستحقّون.

فامتناع مالک فى أول الأمر كان لظنّه أن الطارق من طلبة العلم. أما عند ما علم بأنه من قبل والى مكة فقد تغيّر الحال، لأن ذلک من شئون الدولة. و لذلک فإن العلم يفرض علينا أن نستغرب صدور مثل هذه التصرفات فى السلوک و المظهر من رجل له مكان الصدارة فى مجلس العلم. و يبوّئ نفسه مقام المرجعية لأحكام الشريعة، لأنها أمور لا يتوقع صدورها إلا من الحكام الذين عدمت عندهم مقاييس العدل و المساواة.

و على أى حال، فإن الإمام مالک انتشر ذكره فى الحجاز بعوامل السلطة، فقرّبه الحكّام و الزموا الناس بالرجوع إليه، فأقبلت عليه الدنيا و استجاب هو لأشكال هذا الإقبال.

و نرى فيما قدّمناه كفاية، و قد أصبحت الصورة عن الإمام مالک متكاملة، و كان القسم الأول فى الجزء الثانى قد ضمّ الأمور الفقهية، و لم نأت هنا على ما بحثناه فى السابق من الجوانب التى تتعلق بالمذهب المالكى.

---

(۱) معجم الأدباء ۱۷/ ۲۷۵. و مناقب الشافعى للفخر الرازى و توالى التأسيس.

وفاته

: كثر الاختلاف فى وفاة مالک كاختلافهم فى ولادته، فقيل أنه مات فى ۱۰ ربيع الأول، و قيل ۱۴ منه، و قيل ۱۳، و قيل ۱۲ من شهر رجب سنة ۱۹۹ ه أو سنة ۱۹۸ ه و قيل من صفر ۱۹۹ ه أو فى سنة ۱۸۰ ه.

و شيّع جثمانه، و صلّى عليه الخليفة العباسى، و دفن بالبقيع، و نصبوا على قبره فسطاطا، و رثاه الشعراء منهم ابن أبى المعافى:

ألا قل لقوم سرّهم فقد مالک	إلا إن فقد العلم إذ مات مالک
فمالى لا أبکى على فقد مالک	و فى فقده سدّت علينا المسالک
و مالى لا أبکى عليه و قد بکت	عليه الثريا و النجوم الشوابک

و قالوا أن امرأة رثته بقولها:

بکيت بدمع و اکف فقد مالک	و فى فقده ضاقت علينا المسالک
و ما لى لا أبکى عليه و قد بکت	عليه الثريا و النجوم الشوائک

إلى آخر الأبيات و هى مشابهة لأبيات ابن أبى المعافى، و لا نستغرب هذا الاختلاف، فقد اشتبه الرواة أو نسبوا شيئا غير صحيح.

أولاده و أحفاده

: خلف مالک ولدين هما: يحيى و محمد، و ابنة اسمها فاطمة، زوّجها لابن أخته إسماعيل بن أبى أويس، و كان يحيى يروى عن أبيه نسخة من الموطأ و هى التى تروى عنه باليمن.

قال العقيلى: إن يحيى بن مالک حدّث عن أبيه بالمناكير «۱» و قال القروى: كنا نجلس عند مالک، و ابنه يحيى يدخل و يخرج، و لا يقعد، فيقبل علينا مالک، و يقول:

إن مما يهون علىّ أن هذا الشأن لا يورّث، و أن أحدا لم يخلف أباه و مجلسه إلا عبد الرحمن بن القاسم.

---

(۱) الذهبى، ميزان الاعتدال ج ۳ ص ۳۰۱.

و قال مصعب الزبيرى: كان محمد بن مالک يجىء و هو يحدّث و على يده باشق و نعل كيسانى و أرخى سراويله عليه «۱».

و كان لمحمد هذا ولد اسمه أحمد، سمع من جده مالک، و هو معدود من رواته، و لكنهم ضعّفوه و تركوه، بل تركوا أباه و عمه كذلک.

و ليس لمالک غير هؤلاء، و قيل: إن له ولدا رابعا اسمه حمّاد و ليس له ذكر.

و لا عقب لمالک يذكر فى التاريخ.

---

(١) الديباج المذهب ١٨.

الإمام الشافعى

لم نفرغ من حياة الإمام الشافعى ببحثنا عنه فى الجزء الثالث، لأن كثرة ما ذكر عنه، و سعة مواطن حياته، و تعدد مزاياه يحتاج إلى استفاضة و إسهاب، و أغلب المسائل التى تتعلق بمراحل عمره لفّها اللّبس و أحاطتها التناقضات، لأن الحقيقة غشيتها سحب العاطفة، أو لوّنتها ردود الأفعال المختلفة. و شعورنا بإجلال شخصية أو حبّها ربما يكون لعوامل هى بعيدة عن واقعها، كما أن البعد عنها و النفرة منها ربما تكون لردّ فعل و هى لا تستحق ذلک، و ربما يكون أيضا عن واقع يحمل على عدم الرضا و يبعث على النفور إذا كان الشعور نابعا عن عقل و رويّة، كما تبرز ما للشخصية من خصال. أما إذا غلبت الميول و سيطرت العاطفة أو تحكمت ردود الفعل، فهناک تقع الحيرة، و يحدث التناقض، لأن الحقيقة استكنّت بمعزل عن العاطفة و ردود الأفعال.

و ها نحن نستأنف البحث عن حياة الإمام الشافعى بمنهجنا القائم على اتباع الحق و التماس الحقيقة.

نسبه

: هو أبو عبد اللّه محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

ولد سنة ١٥٠ ه نهار الجمعة آخر يوم من رجب، و قيل فى اليوم الذى مات فيه أبو حنيفة، و قيل غير ذلک على اختلاف الأقوال.

و المطلب الذى ينتهى إليه نسب الشافعى، هو أحد أولاد عبد مناف الأربعة.

و هم المطّلب و هاشم و عبد شمس جدّ الأمويين و نوفل. و المطّلب هو الذى ربّى عبد المطلب ابن أخيه هاشم جدّ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فالشافعی بهذا قرشی النسب، یلتقی مع النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی عبد مناف، و هذا ما علیه الأکثر.

و یأبی التعصب إلا الغلوّ. فقالوا: لم تنل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم طهارة فی مولده و فضیلة فی آبائه إلا و هو قسیمه فیها، إلی أن افترقا من عبد مناف، فزوّج المطلب ابنه هاشما الشفاء بنت هاشم بن عبد مناف، فولدت له عبد یزید جدّ الشافعی. و کان یقال لعبد یزید المحض لا قذی فیه، فقد ولد الشافعی الهاشمان: هاشم بن المطلب، و هاشم بن عبد مناف. و الشافعی ابن عم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ابن عمته، لأن المطلب عمّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الشفاء بنت عبد مناف أخت عبد المطلب عمّة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. و لم یکن نسب الشافعی مسلّما به و مجمعا علیه، فذهب بعضهم إلی أن الشافعی لم یکن قرشیا بالنسب، بل کان قرشیا بالولاء. فهو مولی لهم و لیس منهم، لأن شافعا جدّه کان مولی لأبی لهب، فطلب من عمر أن یجعله من موالی قریش فامتنع، فطلب من عثمان ذلک ففعل. و نسب ذلک إلی المالکیة و الحنفیة «۱».

أما أمه فإنها من الأزد و کنیتها أم حبیبة.

و قیل إنها أسدیة، مستدلین علی ذلک بما روی عن الشافعی أنه لما قدم مصر سأله بعضهم أن ینزل عنده، فأبی و قال: أنزل علی أخوالی الأسدیین. و نزل علیهم «۲». فیما یستدل بروایة أبی الیمن یاسین بن زرارة و مکانها مصر، أنها أزدیة و هی الأظهر. و قال: أرید أن أنزل علی أخوالی الأزد. فنزل فیهم.

و تحلّق العواطف بأصحابها، و تنأی بهم عن الواقع بجناحها، فیدّعون أنها قرشیة علویة. فقیل: إنها فاطمة بنت عبد اللّه أو عبید اللّه بن الحسین بن الحسن بن علی بن أبی طالب. قال الرازی: و هذا القول شاذ، رواه الحاکم و ضعّفه البیهقی، و ذهب المقری إلی نفیه، و لکن السبکی ذهب إلی تأییده، و لیس له شاهد علی ذلک.

و قیل أیضا: إنها فاطمة بنت عبد اللّه المحض بن الحسن المثنی بن الحسن السبط «۳». و الحافظ الشافعی ابن کثیر یقول بأزدیة أم الشافعی کما هو المعروف،

---

(۱) مناقب الشافعی للفخر الرازی ۳- ۵. و هامش الانتقاء. و الشافعی لمحمد أبو زهرة.

(۲) طبقات الشافعیة ج ۱ ص ۱۰۰.

(۳) مناقب الرازی ۶. و طبقات السبکی ج ۱ ص ۱۰۰- ۲۴۹. و توالی التأسیس ص ۴۶. و مشارق الأنوار للعدوی ص ۱۸۱ و إسعاف الراغبین للصبّان و غیرها.

و يروى أنها قد رأت حين حملت به كأن المشترى خرج من فرجها حتى انقضّ بمصر، ثم وقع فى كل بلد منه شظية! أما أبوه إدريس، فلم يفصح التاريخ عن شىء من حياته و سيرته و وفاته، و لم يحتفظ إلا بالاسم فقط، فليس له ترجمة فى جميع الكتب التى ذكرت الشافعى، و لا فى غيرها من كتب الحديث و الرجال و الأدب.

و ما ذكر عنه أو أشير إليه بعيد عن الصحة، كقول هداية اللّه الحسينى أن والد الشافعى سلّمه للتفقه إلى مسلم بن خالد الزنجى- مفتى مكة- و هذا غير صحيح بالإجماع، لأن الروايات متضافرة على أن الشافعى نشأ يتيما فى حجر أمه، و تولت تربيته، و عند ما خشيت عليه الضيعة أرسلته إلى مكة و هو ابن عشر سنين.

فالشافعى لم يتربّ فى ظلال أبيه، و لم يتولّ ذلک إلا أمه، و لا نعلم أنه عرف أباه و حدّث عنه، كما لا نعلم هل ولد الشافعى فى حياة أبيه أم أن أباه مات و هو حمل فى بطن أمه؟ و هل أن إدريس كان فى مكة و رحل إلى اليمن، و ما هى أسباب رحلته؟

و جاء فى مقدمة كتاب الأم: أن والد الشافعى كان رجلا حجازيا فقيرا، خرج مهاجرا من مكة إلى الشام، و أقام بغزّة و عسقلان ببلاد فلسطين، ثم مات بعد ولادة الشافعى.

لكن هذا القول لم يستند إلى نص تاريخى. و أيا كان، فالروايات مختلفة و الأقوال متفرقة فى ولادته و محلها، و هجرته و وقتها، و كذلک رحلاته المتعددة و تحصيله للعلم بأى زمن، فهل كان من صغر سنه أم بعد نشأته، و كذلک دخوله إلى مكة، فقيل إنه لما بلغ من العمر سنتين، و أصبح قرة عين والدته، فرأت أن تحمله إلى مكة المكرمة صونا لنسبه من الضياع إذا بقى فى غزة، فهاجرت به، و نزلت بجوار الحرم بحى يقال له (شعب الخيف) و لمّا ترعرع، أرسلته أمه إلى الكتّاب، و حفظ القرآن و عمره سبع سنوات، و قيل: إن الشافعى ولد بغزّة، و حمل إلى عسقلان، و دخل مكة و هو ابن عشر.

طلبه العلم

: و قد تكون هذه النقاط غير مهمة فى سياق الأحداث أحيانا إذا ما جاءت مجردة لا يعتمد عليها جانب من السيرة المتعلقة بها، أما فى حياة الإمام الشافعى فهى تكتسب

أهمية لأن الاختلاف كبير فى تحديد سنّ تأهله للعلم أو تبوئه مكان الفتيا، و قد قادت العواطف و أدى التعصب إلى إظهار علمه و اجتهاده فى سن مبكرة أو نبوغه فى فترة قصيرة «١».

و الذى نستظهره أن اتجاه الشافعى لطلب العلم كان فى العقد الثالث من عمره، و على رواية ابن كثير أن بقاءه فى البادية عشرين سنة، فيكون طلبه للفقه فى العقد الرابع، أى بعد تجاوزه الثلاثين من عمره، فتكون ملازمته لمسلم بن خالد الزنجى الذى أخذ الشافعى عنه الفقه «٢» قصيرة جدا. حيث روى أن مسلم بن خالد قال له:

أفت. و هو ابن خمس عشرة سنة، و فى رواية الخطيب البغدادى عن الحميدى ما يشعر أن مسلم الزنجى مرّ على الشافعى و هو يفتى «٣» و أن الشافعى يقوم بالفتيا فعلا، و ليس كما فى الروايات الأخرى أن مسلما أذن للشافعى بالفتيا بعد درسه عليه و ملازمته له.

و كما قلنا فى بدء الحديث عن الإمام الشافعى، فإن العواطف أو ردودها العكسية هى وراء مثل هذه المبالغات، أو الاتهامات، و ما بين أيدينا من الأدلة التاريخية، يصرّح بأن الشافعى لم يعرف بالفقه إلا بعد مدة طويلة، مع أن الحميدى لم يدرک مثل هذا التاريخ، و أن الخطيب بعد نقل الحكاية يقول: و ليس ذلک بمستقيم لأن الحميدى كان يصغر عن إدراک الشافعى و له تلک السن.

و مهما يكن من أمر، فإن الشافعى لم يعرف الفقه و الحديث و هو فى مكة.

و لكن رحل إلى المدينة، و واصل دراسته، فأصاب الشهرة بعد المدة التى استغرقها طلب العلم.

قال ابن حجر: انتهت رئاسة الفقه فى المدينة إلى مالک، و رحل الشافعى إليه و لازمه، و أخذ عنه. و انتهت رئاسة الفقه إلى أبى حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد حملا ليس فيها شىء إلا و قد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأى و علم أهل الحديث.

---

(١) انظر التفاصيل: الإمام الصادق و المذاهب الأربعة، مجلد ٢ جزء ٣.

(٢) مسلم بن خالد بن سعيد مولى لآل سفيان بن عبد الأسد المخزومى و هو من الشام، كان مسلم أبيض مشربا حمرة، و الزنجى لقب لقب به و هو صغير. و فى الطبقات الكبرى لابن سعد: كان كثير الحديث، كثير الغلط و الخطأ فى حديثه، و كان فى بدنه نعم الرجل، و لكنه كان يغلط ا ه. ضعّفه أبو داود و غيره.

(٣) تاريخ بغداد ج ٢ ص ۶۴.

لأن الشافعى- مع أخذه العلم على مالک- كان يتمتع بقدرة على المناظرة و معرفة باللغة و مزايا أخرى تبعده عن حدود الرواية و التقيّد بها فقط. قال هارون بن سعيد الأيلى: (لو أن الشافعى ناظر على هذه العمود التى من حجارة أنها من خشب، لغلب لاقتداره على المناظرة). و نرى أن الرحلة إلى العراق كانت بدوافع علمية، بعد أن أتقن علم الحديث، ليطلع على أهل الرأى و هم فى مصرهم فقال: (سمّيت ببغداد: ناصر الحديث) فيما كان إقباله على الأخذ من محمد بن الحسن يفوق إقباله فى المدينة على أصحاب الحديث.

و مما لا شک فیه أن الشافعی کان ذکیا فی صباه، إلی جانب الحفظ، فکان معلمه کلما علّم صبیا شیئا کان الشافعی یتلقف ذلک الکلام، ثم إذا قام المعلم من مکانه، أخذ الشافعی یعلّم الصبیان تلک الأشیاء، فنظر المعلم فرأی الشافعی یکفیه أمر الصبیان أکثر من الأجرة التی کان أهل الشافعی لا یجدونها لفقر حالهم. و کان فی کل أحواله و هو فی طلب العلم فهما مدرکا.

لقد أدی الإعجاب بالشافعی و التعامل بالمذهبیة إلی تکلّف أمور لا نشکّ بأنها أصبحت من أمارات السیادة و علامات الرئاسة، رغم علمهم بأن استسهال الوسائل کالمنامات لإیجاد الصلة بالنبی محمد لا یخفی حقیقة الغرض و البواعث، بدلیل تقلیدهم غیرهم فیما یعملون، فهم لیسوا بدعا فی ذلک، و سیر رؤساء المذاهب التی أکملها الأصحاب و الأتباع، ممن سبق الشافعی قد أخذت بالظهور فی المجالس و الحلقات، و عانی من بواعثها المتعصبة الإمام الشافعی نفسه عند ما استقرّ بمصر أو خلال وجوده فی بغداد.

و قد کان أولی بأهل العلم أن یدعوا الشافعی یأخذ منزلته بما وهبه اللّه من علم، و یتبوّأ مکانته بما یستحقّه. فالمزنی یقول: رأیت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المنام، فسألته عن الشافعی. فقال لی: من أراد محبتی و سنّتی فعلیه بمحمد بن إدریس الشافعی المطّلبی فإنه منی و أنا منه.

و بعض هذه المنامات یتجاوز حدود اللیاقة اللازمة لذکر المصطفی، مما یجعل منام المزنی الآنف متمیزا بمراعاة الحضرة النبویة. أما أحمد بن حسن الترمذی- علی ما رواه الخطیب البغدادی- ففیه من الإساءات ما یحتاج إلی قول أوسع و أشمل. قال:

کنت فی الروضة فأغفیت، فإذا النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد أقبل، فقمت إلیه فقلت: یا رسول اللّه قد

کثر الاختلاف فی الدین، فما تقول فی رأی أبی حنیفة؟ قال: أف و نفض یده. قلت:

فما تقول فی رأی مالک؟ فرفع یده و طأطأ و قال: أصاب و أخطأ. قلت: فما تقول فی رأی الشافعی؟ قال: بأبی ابن عمی- هکذا العبارة فانظر- أحیی سنتی «۱».

و فی تفسیر الأحلام- أو تعبیرها- التی تروی عن الشافعی نفسه یذهبون بعیدا أیضا، فعن المزنی: سمعت الشافعی یقول: رأیت علی بن أبی طالب فی النوم، فسلّم علیّ و صافحنی، و خلع خاتمه و جعله فی إصبعی، و کان لی عم ففسّرها لی فقال لی: أما مصافحتک لعلی فأمان من العذاب، و أما خلع خاتمه فجعله فی أصبعک فسیبلغ اسمک ما بلغ اسم علی فی الشرق و الغرب!؟

و مما تواضع علیه منتسبو المذاهب کعلامات للرئاسة إلی جانب المنامات- و قد أطلعنا علی المنامات التی وضعت لکل رئیس مذهب- هو الحدیث النبوی بحق رئیس المذهب، فمنها ما یصرّح بالاسم و الصفة، و منها ما یتبنّی تخصیصه علی صرف الصفات الواردة فیه بدون دلیل. و قد کانت حصة الإمام الشافعی الحدیث: (اللهم اهد قریشا فإن عالمها یملأ طباق الأرض علما، اللهم کما أذقتهم عذابا فأذقهم نوالا). و لا نرید أن نناقش الأحادیث الأخری و باختلاف الألفاظ، کما نترک الخوض فی طرقها و أسانیدها. و نتنزل فالحدیث عن عالم من قریش إن لم یوقت فهو یتناول عالما من قریش.

و نتفق فی القول أنه: (علامة بیّنة للمیز، أن المراد بذلک رجل من علماء هذه الأمة من قریش قد ظهر علمه، و انتشر فی البلاد، و کتبوا تآلیفه کما تکتب المصاحف، و استظهروا أقواله). و إلی هنا فإن من أئمة قریش و علمائها من هو أحق و أولی من الشافعی. و ما القول: بأن هذه صفة لا نعلمها قد أحاطت إلا بالشافعی. إلّا تحکّم بدون دلیل، لأن الدلیل مع منهم أعلم من الشافعی و أحق بهذه الصفة، ممن وضع اللّه فیهم رسالته و أورثهم أمین السماء علمه و ولایته.

فقد أحتجّ به الإمام علی یوم حروراء، عند ما بعث إلیهم ابن عباس و قال: «قل لهم: علام تتهمونی و أشهد، فسمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول ذلک».

و وجوه الاستدلال لدیهم تجهر بأن القصد هو الانتصار فی معرکة تنازع

---

(۱) تاریخ بغداد ج ۲ ص ۶۹.

المذاهب، فمن نصوصهم: (أن هذا الخبر یتناول رجلا اجتمعت فیه خصال ثلاثة إحداها: أن یکون من قریش، و بهذا الطریق یخرج عن هذا الحدیث مالک و أبو حنیفة و أحمد بن حنبل و أبو یوسف و محمد. و ثانیهما: أن یکون ذلک الرجل کثیر العلم بحیث یکون قد وصل علمه إلی أهل الشرق و الغرب، و الشخص الموصوف بهذه الصفات لیس إلا الشافعی. و ذلک لأن جماعة من رجال قریش کانوا قد بلغوا فی العلم مبلغا، إلا أن أحدا منهم لم یبلغ علمه إلی جمیع أهل الأرض، و أما الشافعی فإنه هو الذی صنّف فی أصول الشریعة و فروعها، و انتشرت تلک التصانیف و العلوم فی الشرق و الغرب، و لم یبق بیت فی الدنیا من بیوت الموافقین و المخالفین و المنکرین إلا وصلت تلک العلوم و الکتب فیه، أما الأصحاب و الأتباع و الموافق فلتقریر الإثبات، و أما المخالفون فللطعن فیه، و الجواب عنه، و الناس کتبوا تلک الکتب کما تکتب المصاحف التی تتلی و الأخبار التی تروی، و کل یوم تزداد قبولا و إقبالا. فکان اللائق بقوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إن عالمها یملأ طبقات الأرض علما لیس إلا الشافعی) ا ه.

و لسنا بصدد الإطالة فی البحث عن ثمرات العواطف، و لکنا نحاول هنا أن نأتی علی الأشیاء التی نستکمل بها ما بحثناه من حیاة الشافعی فی القسم الأول، و قد أخذنا بتجنب التکرار إلا ما کان لضرورة اقتضتها «۱».

و قد أشرنا فی القسم الأول أن التأسی بأئمة المذاهب کان وراء هذه التکلّفات و الأقوال، فأبو حنیفة قتل مسموما بدعوی أنه لم یقبل القضاء. و مالک بن أنس ضرب بالسیاط لفتوی تخالف السلطان، أو لاشتراکه فی ثورة العلویین. و من بعده أحمد بن حنبل امتحن فی مسألة خلق القرآن. فإذن لم یبق من أمارات الرئاسة إلا المحنة. فبادر کتّاب المناقب إلی ذلک، و قد اطلعت علی الطعون التی وجهناها إلی الروایة فی الجزء الثالث من الکتاب، و مهما یکن من قول فإن المناقب احتوت علی باب یحکی المحنة التی مرّ بها الإمام الشافعی، و عقدت فصول فی بیانها و کیفیة وقوعها، و أشهرها فی کتبهم: (إنه جیء بالشافعی رضی

اللّه عنه إلى العراق، و أدخل ليلا، و كان فى رجله حديد، لأنه كان من أصحاب عبد اللّه بن الحسن بن على بن أبى طالب، و كان ليلة الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة أربع و ثمانين و مائة و فى ذلک الوقت كان أبو

---

(١) انظر التنبيه فى الجزء الثالث.

يوسف على قضاء القضاة، و محمد على المظالم). و لا نزيد فى الاقتباس على هذا، لأن وفاة أبى يوسف مع الاختلاف فى سنة ١٨٢ أو ١٨٣ ه و الثابت أنه لم يلتق بالشافعى، و تختلف الروايات هل حمل من اليمن أو من مكة؟ و هل كان فى اليمن واليا أو مقيما؟

و يضمّن ابن كثير روايته إشارة إلى موت أبى يوسف، و أن الاجتماع اقتصر على محمد بن الحسن، و تبين للرشيد براءته مما نسب إليه، و أنزله محمد بن الحسن عنده و أكرمه «١».

و لا يغير ذلک منه أن المحنة قد وضع حكايتها عبد اللّه بن محمد البلوى، و قد تضمّنت أشياء كثيرة لا أصل لها «٢». و لم تكن إلا من تلاطمات المناقبية، و موجات العواطف، و لا نذكر ما للشافعى فيه تضلّع و بصر كالأحكام و الشعر و صنوف الأدب الأخرى التى جاءت على لسان الشافعى و هو يجيب الرشيد، لكنا نذكر طرفا من أسئلة الرشيد و أقوال الشافعى و هو يجيبه. قال الرشيد: فكيف علمک بالنجوم؟ قال الشافعى: أعرف الفلک الدائر و النجم السائر، و الرجوع و الاستقامة و السعود و النحوس و هيئاتها و طبائعها و ما أهتدى به فى بر و بحر، و ما يستدلّ به فى أوقات الصلاة و أحوال الفصول و الأوقات. قال الرشيد: فكيف علمک بالطب؟ قال الشافعى: أعرف ما قالت الروم مثل أرسطاطاليس و بقراط و جالينوس و قرقوريوس و ابنه قليس بلغاتها، و ما نقله أطباء العرب و قننته فلاسفة الهند، و نمّقته علماء الفرس مثل جاماسب و ساهمرد و بزرجمهر ... الخ الرواية. إلى غيرها من رغبات التابعين الذين يحملهم الهوى على وضع صورة لشخصية محبوبهم و مقتداهم تفوق مواهب الآخرين و قدرات البشر على التعلم مما لم يدّعيه الشافعى و لم ينطق به. فقالوا فى معرفته بالطب أنه كان يقول:

العلم علمان: علم الأبدان و علم الأديان. ثم تارة يقول: علم الأبدان هو الطب، و علم الأديان هو الفقه. و أخرى يقول: علم الأبدان هو الفقه، لأنه يحثّ على التكاليف المتوجهة على الأعضاء و الجوارح. و علم الأديان هو علم الباطن، و هو معرفة اللّه تعالى و كيفية الدواعى و الصوارف و النيات فى الأعمال.

---

(١) البداية و النهاية ج ١٠ ص ٢٥٢.

(٢) انظر قصتها فى الحلية ج ٩ ص ٨٥. و المناقب للرازى ص ٢٣- ٢٧. و معجم الأدباء ج ١٧.

و لم يدعوا أقواله فى الفرق بين الفقه و الطب و منازعهما على ما وردت به مما يعلمه كل فقيه عالم بالأحكام عارف بالحديث، غير أنهم ادعوا معرفته بالطب و احتجوا بمزيد من الأقوال كقوله: لا تسكن بلدة لا يكون فيها عالم يخبرک عن دينک، و لا طبيب يخبرک عن أمر بدنک. و إنه كان يتلهّف على إعراض المسلمين عن علم الطب.

و إذا نظرنا إلى عصر الرشيد، رأينا أن ظهور النصارى بالطب، و دخولهم فى خدمة الرشيد، و حذقهم فى ذلک قد حمل المسلمين على التلهف على كون الطب فى غير المسلمين، و أن ادعاءهم مبنى على استشعار المسلمين هذه الحاجة. فالشافعى يعرف الطب فى هذه الظروف التى أدت إلى استخدام النصارى، لأن المسلمين جهلوا ما فى دينهم من وجوه الاهتمام بالبدن و وصايا الطب، فقد روى الثعلبى فى تفسيره أن بختيشوع بن جبريل المتطبب النصرانى كان يخدم الرشيد، و كان حاذقا، فقال يوما بحضرة الرشيد لعلى بن الواقد الواقدى: ليس فى كتابكم من علم الطب شىء، و العلم علمان علم الأبدان و علم الأديان. فقال له على بن واقد: قد جمع اللّه الطب فى نصف آية من كتابه و هو قوله تعالى: كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا فقال النصرانى: أو لا يروى عن نبيكم شىء من الطب؟ فقال الواقدى جمع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الطب فى كلمات و هى قوله: «المعدة بيت الداء، و الحمية رأس كل دواء، و أعط كل بدن ما عوّدته».

فقال النصرانى: ما ترک كتابكم و لا نبيكم لجالينوس طبا «١».

و برواية المحنة تكتمل شروط الرئاسة المذهبية، و بتفاصيل تفرّده فى النبوغ و المعرفة يصبح مؤهلا إلى أن يبعث لهذه الأمة، و يكون بمقتضى رواية أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «يبعث اللّه لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها» هو المقصود، و ينسب إلى أحمد بن حنبل ترويج ذلک و أنه قال: نظرت فى سنة مائة فإذا هو رجل من آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نظرت فى رأس المائة الثانية فإذا هو رجل من آل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم محمد بن إدريس رحمه اللّه.

ثم يمضون، فيضعون فى رأس كل مائة أحد شيوخهم من الشافعية، و قد

---

(١) المواعظ العددية.

يختلفون إذا تكافأ الاثنان كأبى حامد الاسفراينى و سهل بن أبى سهل الصعلوكى أو الفخر الرازى و الرافعى «١».

بين الحديث و الرأى:

ذكرنا سابقا رأى ابن حجر فى اجتماع الحديث و الرأى فى الشافعى، و خلصنا إلى أن الرحلة إلى العراق حقيقتها كانت لدوافع علمية، لأن الشافعى- و هو يتلقى على مالک- كان قادرا على المناظرة، و مستعملا الرأى الذى يخالف به أستاذه، و يقوم بالاستنباط، فقد روى عنه أنه كان جالسا بين يدى مالک بن أنس، فجاء رجل إلى مالک فقال: يا أبا محمد، إنى رجل أبيع

القمری، و إنی بعت یومی هذا قمریا، فبعد زمان أتانی صاحب القمری و قال: إن قمریک هذا لا یصیح، فتشاجرنا إلی أن حلفت بالطلاق أن قمریی ما یهدأ من الصیاح؟ فقال مالک: طلقت امرأتک. فانصرف الرجل حزینا، فقام الشافعی إلیه و قال للسائل: أ صیاح قمریک أکثر من سکوته أم سکوته أکثر؟ فقال السائل: بل صیاحه. فقال الشافعی: انصرف، فإن زوجتک ما طلقت. ثم رجع الشافعی إلی الحلقة فعاد السائل إلی مالک. فقال: یا أبا عبد اللّه تفکر فی واقعتی لتستحق الثواب. فقال مالک: الجواب ما تقدم. فقال: فإن عندک من قال الطلاق غیر واقع. فقال مالک: و من هو؟ فقال السائل: هو هذا الغلام. و أومأ إلی الشافعی، فغضب مالک علیه و قال له: من أین لک هذا الجواب؟ فقال الشافعی: إنی سألته أن صیاحه أکثر أم سکوته؟ فقال: إن صیاحه أکثر. فقال مالک: و هذا الدلیل أقبح، و أی تأثیر لکثرة صیاحه أو قلة سکوته فی هذا الباب؟ فقال الشافعی: إنک حدثتنی عن عبد اللّه بن یزید عن أبی سلمة بن عبد الرحمن عن فاطمة بنت قیس أنها أتت النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقالت: یا رسول اللّه أن أبا جهم و معاویة خطبانی، فأیّهما أتزوج؟

فقال النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أما معاویة فصعلوک، و أما أبو جهم فرجل لا یضع عصاه عن عاتقه.

و قد علم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن أبا جهم کان یأکل و ینام و یستریح، فعلمنا أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عبّر بقوله- لا یضع عصاه عن عاتقه- علی تفسیر أن الأغلب من أحواله ذلک اه.

و اشتهر منه ذلک و هو فی الحجاز، حتی لفت أنظار أهل الرأی کبشر المریسی «۲»

---

(۱) انظر مفتاح السعادة لطاش کبری زادة ج ۲ ص ۹۴.

(۲) بشر بن غیاث بن عبد الرحمن المریسی المعتزلی أدرک أبا حنیفة و أخذ عنه، ثم لازم أبا یوسف و أخذ عنه، و صار من أخص أصحابه، و اشتهر بعلم الکلام و الفلسفة، و قال بخلق القرآن، و إلیه تنسب المریسیة من المرجئة، و کفّره أکثرهم. و نسبته إلی مریسة توفی سنة ۲۱۹ ه.

فکانت مناظراته مع الشافعی من أشهر ما ذکر عن المریسی و قالوا: حج بشر المریسی فرجع فقال لأصحابه: رأیت شابا من قریش بمکة ما أخاف علی مذهبنا إلا منه «۱».

و فی رحلته إلی بغداد ینزل الشافعی علی بشر المریسی، فقالت له أم بشر: لم جئت إلی هذا؟ فقال أسمع منه العلم. فقالت: هذا زندیق. و فی روایة أن أم بشر جاءت إلی الشافعی فقالت: یا أبا عبد اللّه أری ابنی یهابک و یحبّک، و إذا ذکرت عنده أجلّک، فلو نهیته عن هذا الرأی الذی هو فیه، فقد عاداه الناس علیه، و یتکلم فی شیء یوالیه الناس علیه و یحبونه؟ فقال لها الشافعی: أفعل. فقال الشافعی لبشر:

أخبرنى عمّا تدعو إليه أ كتاب ناطق، أم فرض مفترض، أم سنّة قائمة، أم وجوب عن السلف البحت فيه و السؤال عنه «۲»؟ و لا نستطرد فى ذكر أقوالهما لأن ذلک ليس فى نطاق البحث.

و الغرض أن الشافعى نهج مع بشر منهج الحوار و القول بالحق، و ناظره فى مسائل كثيرة، فتبدّلت علاقتهما و ساءت، لأن الناس مالت إلى الشافعى، و خفّوا عن بشر، فلما قيل لبشر: هذا الشافعى الذى كنت تزعم قد قدم؟ فقال: إنه قد تغيّر عمّا كان عليه «۳».

و فى المرة الأولى من قدومه بغداد انقطع الشافعى إلى محمد بن الحسن، فحمل عنه «۴» و قد قدّر ما كتبه بوقر بعير، و كان الناس يعظمون محمد بن الحسن لقربه من الرشيد، و قد اجتمعا على باب هارون، فاندفع محمد يعرّض بالشافعى و يذم أهل المدينة بقوله: من أهل المدينة؟ و أى شىء يحسن أهل المدينة؟ و اللّه لقد وضعت كتابا على أهل المدينة كلها لا يخالفنى فيه أحد، و لو علمت أن أحدا يخالفنى فى كتابى هذا تبلغنى إليه آباط الإبل، لصرت حتى أردّ عليه.

و ينتبه الشافعى إلى أصل التحامل و مداره بين الأشخاص، فيروى الشافعى:

فتقدمت إليه فقلت: أصلحک اللّه- طعنک على أهل المدينة و ذمک لأهل المدينة إن

---

(۱) تاريخ بغداد ج ۲ ص ۶۵.

(۲) راجع تاريخ بغداد ج ۷ ص ۵۹.

(۳) أيضا ج ۲ ص ۶۵.

(۴) معجم الأدباء ج ۱۷ ص ۲۸۳.

كنت أردت رجلا واحدا و هو مالک بن أنس فألا ذكرت ذلک الرجل بعينه و لم تطعن على أهل حرم اللّه و حرم رسوله و كلهم على خلاف ما ادعيته. و أما كتابک الذى ذكرت أنک وضعته على أهل المدينة، فكتابک من بعد «بسم اللّه الرحمن الرحيم» خطأ إلى آخره. ثم يذكر الشافعى أقوال ابن الحسن و ردّه عليها «۱».

و عند ما يسمع الناس عن منحى الشافعى فى محاورة أهل الرأى يطلقون عليه (ناصر السنة) أو (ناصر الحديث) على اختلاف فى التسمية بين ما ذكره ابن كثير و هو الأول بسنده عن الشافعى، و ما ذكره الخطيب بسنده عن الشافعى أيضا و هو الآخر.

و من الواضح أن الشافعى يأخذ بالرأى و يقوم بالاستنباط فى عموم آرائه بعد تردّده على بغداد لعدة مرات و لسنين، و لكنه يبقى للحديث الشريف الأوليّة، فقد قالوا عنه: إذا صحّ عندكم الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقولوا به

ودعوا قولى، فإنى أقول به، و إن لم تسمعوا منى- و فى رواية- فلا تقلدونى، و فى رواية فلا تلتفتوا إلى قولى، و فى رواية فاضربوا بقولى عرض الحائط. فلا قول لى مع قول رسول اللّه «٢».

و تلك من مزايا الإمام الشافعى، لأن صحة الحديث النبوى الشريف و التحقق من طرقه من أعظم الأمور التى يتحرّاها الفقيه للاتباع أو للاستنباط.

و صفوة القول، فإن الإمام الشافعى كان طلّابة علم و بحّاثة يرود المواطن التى يرى فيها لفكره فائدة، إما اطلاعا أو أخذا، فهو كثير السؤال، و يدلنا قوله: (ما رأيت أحدا سأل عن مسألة فيها نظر، إلا رأيت الكراهة فى وجهه إلا محمد بن الحسن) «٣».

و مع تحوطه و تحرّزه، فإنه يثنى على مقاتل بن سليمان «٤» و قول الشافعى مشهور: (الناس كلهم عيال على ثلاثة: على مقاتل فى التفسير، و على زهير بن أبى

---

(١) المرجع السابق.

(٢) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٢٥٤.

(٣) الانتقاء ص ٦٩.

(٤) مقاتل بن سليمان بن بشر أبو الحسن البلخى، قدم بغداد و حدّث بها، و اشتهر بالتفسير. قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة، قال بالتشبيه و أفرط فى إثبات الصفات و تشبيه اللّه عز و جل بالمخلوقات. قال أبو حيان: كان يأخذ من اليهود و النصارى من علم القرآن الذى يوافق كتبهم توفى سنة ١٥٠ ه.

سلمى فى الشعر، و على أبى حنيفة فى الكلام) «١». كما أن قراءته لتفسير مقاتل بن سليمان معروفة كما فى أشكال المعنى عليه فى قوله تعالى: وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها «٢».

و لا ندرى هل تضافر التفسير و الشعر و الكلام على تمكّنه من ضرب من الألغاز يرد فى التفسير؟ نسوق بعض نصوص دون تعليق:

قيل له- أى الشافعى- كم قرء أم فلاح؟ فأجاب: على البديهة من ابن ذكا إلى أم شملة. و المراد بالقرء الوقت، و أم فلاح الفجر، و هو كنية الصلاة. و السؤال واقع عن مدة وقت صلاة الفجر، و قول الشافعى رضى اللّه عنه: من ابن ذكا. أى من وقت الصبح، و إلى أم شملة، و هى كنية الشمس، أى إلى طلوع الشمس. و هذا التفسير منسوب إلى الخطابى.

و ثانيها: سئل نسى أبو دارس درسه قبل غيبة الغزالة بلحظة، ما ذا يجب على أمه؟ فقال: عليها قضاء وظيفة العصرين. قال السائل: لجناية جناها أبو دارس؟ قال الشافعى: بل لكرامة استحقّتها أمه. و تفسيره أن نقول: أبو دارس: كنية فرج النساء، و الدارس: الحيض. فقال: نسى درسه، أى ترک حيضه. و الغزالة: الشمس، و المراد بأم دارس: المرأة، إذ أم الشيء أصله ... سئل: هل تسمع شهادة الخالق؟ قال:

لا، و لا روايته. و الخالق: الكاذب، قال اللّه تعالى: إن هذا خلق الأولين ... الخ.

و قد حرص تلامذته على حفظ نزعة الشافعى فى غرض لا يؤاخذ عليه كأحمد بن حنبل إذ يقول: خير خصلة فى الشافعى أنه ما كان يشتهى الكلام، إنما كان همّته الفقه. و قد بات علم الكلام يومئذ محذورا، و أصبح يعنى الأهواء و النحل المختلفة، و يصف الشافعى الظرف الذى كان فيه فيقول: رأيت أهل الكلام يكفّر بعضهم بعضا، و رأيت أهل الحديث يخطئ بعضهم بعضا، و التخطئة أهون من الكفر. و عرف عن الشافعى طعنه فى علم الكلام و بغضه لأهله، و أحاطه الأصحاب بما يوحى بأن الشافعى اقتصر على ما بأيديهم من طرق و لم يجاوز الأثر و الحديث، و لم يخض فى جدل أو حوار، و أنه انتهى من اطلاعه إلى أن أهل الكلام على شيء ما توهمه، و لئن يبتلى المرء بجميع ما نهى اللّه تعالى عنه سوى الشرک باللّه، خير من أن يبتلى بالكلام. و كان ذلک بتأثير العصر الذى عاش فيه الشافعى، إذ ارتأى الأصحاب

---

(١) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٦١.

(٢) مناقب الرازى.

و التلاميذ أن يبعدوا اسم رئيسهم عن مجالات النقاش و الجدل، و لا نريد أن نخوض فى الأسباب، و إنما نقول أن طرق الكلام تقوم على المناظرة و الحوار و إجادة الحجاج و المجادلة، و قد شهد الميدان رجالا تسلّحوا بالإيمان و تزوّدوا بالأحكام و اقتحموا تلک المعتركات للذبّ عن العقيدة و فضح أهل الأهواء و البدع.

أما الأتباع بعد عصر الشافعى فإنهم لا ينفون الحقائق، و لا ينكرون ما كان عليه الشافعى فيقولون: إن الشافعى كان قويا فى المناظرة و المجادلة. بل أنهم يرون تمكنه من ذلک سببا فى رجوع الناس عن قول أبى حنيفة و قول مالک لمخالفته لهما «١».

و لا نريد أن نتوسع فى القول، فقد ذكرنا قبل قليل بعض ما يشير إلى خوضه فى الرأى و المناظرة، و فيه مجال لمزيد من القول، و لكنّا آثرنا الاختصار، لأن غاية البحث فى أغراض أخرى، و لا مانع من القول أن الشافعى- فى طلبه و بحثه- كان لا يتوقف عند التهم، و لا يمتنع من الاتصال و الاطلاع بنفسه. لأن سلاح الاتهام بالبدع و الأهواء استعمل فى مناسبات و أغراض اختلطت فيها الصور، و مرّت الموجة لتشمل آخرين لا ذنب لهم، و قد ذكرنا طرفا من علاقته بالمريسى، و أنه جاء إليه للعلم، و مضى الشافعى فى مجادلته لمّا تبيّن له ضلاله.

عن أبى ثور قال: سمعت الشافعى يقول: قلت لبشر المريسى: ما تقول فى رجل قتل، و له أولياء صغار و كبار، و هل للأكابر أن يقتلوا دون الأصاغر؟ فقال: لا.

فقلت له: فقد قتل الحسن بن على بن أبى طالب ابن ملجم و لعلى أولاد صغار؟

فقال: أخطأ الحسن بن على. فقلت: أ ما كان جواب أحسن من هذا اللفظ؟ قال:

و هجرته من يومئذ. فنرى أن الإمام الشافعى يهجر من كان يتوسّم فيه العلم و هو من أهل الكلام لأنه أساء اللفظ فى وصف السبط الزكى. و يذمّ الآخرين ممن استهواهم الجدل و غلب عليهم الرأى، فأباحوا لأنفسهم ما لا يرضى اللّه أو أدتهم أهواءهم إلى الخروج إلى غيرها. و من الأسباب التى يمكن أن يحتج بها لأقوال الشافعى و من جملتها أيضا ما ذكرناه من هوى الأصحاب و الأتباع فى الحفاظ على منهج الشافعى فى سياقهم، و لا نرى وجها للتعليل بأن نهى الشافعى عن علم الكلام و التحذير منه كان لما بدر من المعتزلة، لأنهم كانوا القوامين عليه.

---

(١) مناقب الرازى ص ١٣٩.

و لقد بحثنا فى الجزء الثالث آراء الإمام الشافعى فى علم الكلام و خلق القرآن و الصفات و الإمامة. و نرى ما حررناه فى هذا الجزء جديرا باستكمال الفائدة «١».

الانتقال إلى مصر:

لا شك أن الشافعى كان طموحا، فلم يتمكن من الإقامة فى بغداد إلى جانب محمد بن الحسن الشيبانى و صفته فيها طالب علم، حتى قال: حملت عن محمد بن الحسن حمل بختى. و مرة قال: وقر بعير ليس عليه إلا سماعى منه «٢». و كان فى قدومه الأول منقطعا إلى الحسن.

و تختلف الروايات فى الأسباب التى حملت الشافعى على الانتقال إلى مصر، و نحن نرجح أن يكون اصطدامه بحواجز الشهرة و السلطان التى كانت تقف أمامه و تحيط مكانة محمد بن الحسن، و بلوغه درجة علمية تجعله يطمح إلى مكانة أعلى لا يبلغها بوجود محمد بن الحسن.

و قد قيل: إنه كان يتشوق إلى مصر، و رووا له شعرا بذلك:

أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر و من دونها قطع المهامة و القفر

فو اللّه ما أدرى أ للفوز و الغنى أ ساق إليها أم أ ساق إلى القبر؟

و هذه الأبيات تنسب إلى الحسن بن هانى المعروف بأبى نؤاس، و إن الشافعى تمثّل بها.

و قيل إنه قدم مصر رغبة منه فى معارضة انتشار أقوال أبى حنيفة و مالک- كما حدّث الربيع- قال: سألنى الشافعى عن أهل مصر، فقلت: هم فرقتان فرقة مالت إلى قول مالک و ناضلت عليه، و فرقة مالت إلى قول أبى حنيفة و ناضلت عليه. فقال:

أرجو أن أقدم مصر إن شاء اللّه فآتيهم بشىء أشغلهم به عن القولين.

و الحقيقة إنه قوبل فى مصر كتلميذ لمالک، و كان لمالک ذكر فى مصر و تلامذته ينشرون أقواله و يتبعونه، و نزل ضيفا على محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم، فكرّم مثواه، و كانت لمحمد هذا مكانة فى مصر، و هو من تلامذة مالک و إليه انتهت الرئاسة فى مصر و لا يعدلون به أحدا.

---

(١) تاريخ بغداد ج ٧ ص ٦٠.

(٢) الانتقاء.

و كان نزول الشافعى عنده من عوامل ظهور الشافعى، فهو معدود من تلامذة مالک، و آل الحكم كذلک فقدموا له كلما يحتاجه، و الأغلب أن للشافعى قدومين إلى مصر، الأول كان سنة ١٨٨ ه و فيه كان نزوله عند آل الحكم، و بعده عاد إلى بغداد للمرة الثانية سنة ١٩٥ ه فاختلف إليه جماعة من العلماء منهم: أحمد بن حنبل و أبو ثور الكرابيسى و الزعفرانى، و أملى أقواله و آراءه، و هو ما يعرف بمذهبه القديم. ثم رجع إلى مكة و عاد إلى العراق سنة ١٩٨ ه للمرة الثالثة، فأقام بها مدة يسيرة، و فى آخر سنة ١٩٩ ه عاد إلى مصر و أملى مذهبه الجديد. و هذه التواريخ تقوّيها أحداث حياة الشافعى المعروفة، و لقد ضمّت كتب المناقب و السير أن القدوم إلى مصر كان مرة واحدة، و أن بقاءه فى بغداد- آخر قدوم له- كان شهرا، و لكن بعض الوقائع تخلّ بهذا الترتيب.

و الظاهر أن ابن عبد الحكم و أهله لمسوا من الشافعى طموحه، فأخذوا فى الأعداد لشهرة الشافعى و لرئاسة، فنرى ابن عبد الحكم يقول: لمّا أن حملت أم الشافعى به رأت كأن المشترى خرج من فرجها حتى انقضّ بمصر، ثم وقع فى كل بلد منه شظية «١».

و فى مصر ظهرت مواهب الشافعى العلمية و مقدرته وسعة اطلاعه، و قصده الناس، و أصبح له تلامذة، و أملى مذهبه الجديد، و كان ابن الحكم المساعد الأول له. فقد أقبل على مذهب الشافعى و تحمّس له، و تحوّل عن مذهب مالک، و لمّا استخلف

الشافعى البويطى فى حلقته، نقم ابن الحكم، و عاد إلى المذهب المالكى، و تحوّل عن الشافعى تماما، و وضع كتاب الردّ على الشافعى فيما خالف الكتاب و السنّة. و فى مصر تنكّر الشافعى لأستاذه مالک، فردّ أقواله. و عظم ذلک على المالكية و تعصبوا عليه، وسعوا به عند السلطان، و قالوا له: أخرجه و إلا أفتتن به البلد. فأتاه الشافعى فكلّمه فامتنع الوالى و قال: إن هؤلاء كرهوک، و أخشى الفتنة. فقال له الشافعى: أجّلنى ثلاثة أيام، فمات الوالى فيها «٢» و كان الشافعى لما دخل مصر حضر إلى السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن على، و سمع عليها الحديث، و كانت لها منزلة فى مصر «٣» و هى زوجة إسحاق بن الإمام جعفر بن محمد الصادق.

---

(١) تاريخ بغداد.

(٢) توالى التأسيس ص ٨۴.

(٣) وفيات الأعيان ج ۵ ص ۵٧.

و أدى اتساع حلقة الشافعى فى مصر إلى سخط المالكية، و إلى تعرّضه إلى مسلک من التعصب. فذكر الساجى: إن الشافعى إنما وضع الكتب على مالک بسبب أنه بلغه أن قلنسوة لمالک يستسقى بها، و كان يقال لهم: قال رسول اللّه. فيقولون:

قال مالک. فقال الشافعى: إنما مالک بشر يخطئ. فدعاه ذلک إلى تصنيف الكتاب فى اختلافه معه و كان يقول: استخرت اللّه فى ذلک مدة سنة.

و فى مصر بلغ الشافعى درجة من الاجتهاد و النضج العلمى. و لا نشک فى ذلک، فإن القول القديم و هو العراقى، و القول الجديد و هو المصرى، أو مذهبه الجديد و مذهبه القديم، ينمّان عن تطور فى المدارک، وسعة فى التحصيل. و لقد قيل أن السبب فى هذا التحول فى الأقوال هو من عوامل البيئة و من مظاهر التأثر بالأوضاع، و الأمر قد يتسع للأقوال بهذا الخصوص، و لكنها لا تتسع للادعاء بأنه أعلم الأمة، و أن أمر التشريع انحصر به، و انتهى إليه الفقه. فإذا نظرنا إلى المدة فإن الشافعى رحمه اللّه توفى سنة ٢٠۴ ه فهى لا تكفى ليتحقق هذا الادعاء، و قد وجدنا من المبالغات فى مواهبه ما لا يقرّه الواقع، و لا يحتمله العقل. و لكن عواطف الأصحاب، و الإيقاع، و مماحكات التعصب، و ظروف التنازع المذهبى أدت إلى تعاطى ما يخالف الحقائق.

و من الإنصاف القول أنه لم يبلغ الدرجة التى يستحق أن يكون بها عند أتباعه، لأن الإساءة بوضع الأقوال بتأثير ردود الأفعال واضحة، و الإمام الشافعى له من العلم و الفضل الحقيقيين ما يغنى، و احتلاله المنزلة التى يراها هو لنفسه خير من عواطف و ردود أفعال مرتجفة.

و قد قلنا و تحدثنا مرارا عن أمواج الادعاءات، و قد كان الشافعى يعترف لأحمد بن حنبل بأنه أعلم منه فى الحديث.

لقد امتاز الشافعى عن غيره من أئمة المذاهب بتدوين مذهبه و تأليف كتبه. و قد ذكر له كثير من الكتب، ذكرها ابن النديم و البيهقى و ياقوت، و نسب له المسند، و ليس من تأليفه، و إنما استخرجه بعض أصحابه من أسانيد الأم. و قد كان تدوين المذهب، سببا فى الادعاء أن الشافعى هو أول من قعّد القواعد و أصّل الأصول، و هو ما يجافى الحقيقة و لا يتفق مع الواقع، لأن التدوين لا يعنى السبق فى تقعيد القواعد و تأصيل الأصول، و إنما هو تحرير للمذهب و تقرير للرأى، و قد ناقشنا فى فصل (تدوين العلم) فى الجزء الثانى ذلک، فلا حاجة إلى ذكر المزيد هنا.

ص: ۴۱۲

و القصد، فإن الانتقال إلى مصر لم يكن كرحلاته السابقة لطلب العلم، إنما اختار بلدا و هو عازم على أن يكون محلا لإقامته ليس فيه من ينازعه. فقد حلّ بين رجال يجمعهم اتّباع مالک، و لما استقرّ أخذ فى الردّ على أستاذه، و قد انتهى إلى مذهبه الجديد و قد كلفه ذلک حياته، إذ اعتدى عليه أتباع مالک.

و كيف كان فقد جاء الشافعى بمذهبه الجديد، و كان قد درس المذهبين: مذهب أهل الرأى و مذهب أهل الحديث. و قد لاحظ ما فيهما من نقص، فبدا له أن يكمل ذلک، و أخذ ينقص بعض التعريفات منه ناحية خروجها من متابعة نظام متحد فى طريقة الاستنباط، و ذلک يشعر باتجاهه فى الفقه اتجاها جديدا لا يكاد يعنى بالجزئيات و الفروع.

و خير ما يلخّص مسلكه هو أنه قال: الأصل قرآن و سنة، فإن لم يكن، فقياس عليهما. و إذا اتصل الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و صحّ الإسناد فهو سنّة، و الإجماع أكبر من الخبر المفرد، و الحديث على ظاهره، و ما احتمل معانى فما اشتبه منها ظاهر أولاها به، و إذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسنادا أولاها، و ليس المنقطع بشىء ما عدا منقطع ابن المسيب، و لا يقاس أصل على أصل، و لا يقال للأصل لم و كيف.

و إنما يقال للفرع، فإذا صحّ قياسه صحّ و قامت به الحجة.

فهو بهذا المسلک و بهذا المنحى قد ردّ على مالک، لتركه الأحاديث الصحيحة لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو رأى نفسه.

و هاجم أبا حنيفة و أصحابه لأنهم يشترطون فى الحديث أن يكون مشهورا، و يقدّمون القياس على خبر الآحاد و إن صح سنده، و أنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنّها غير مشهورة، و عملهم بأحاديث لم تصحّ عند علماء الحديث، بدعوى أنها مشهورة. و وقف فى القياس موقفا وسطا، فلم يتشدّد فيه تشدّد مالک، و لم يتوسّع فيه توسّع أبى حنيفة «۱».

و يقول إمام الحرمين الجوينى: فمالک أفرط فى مراعاة المصالح المطلقة

(۱) انظر تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ مصطفى عبد الرازق ص ۲۲۵. و ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ۲ ص ۲۲۴.

ص: ۴۱۳

المرسلة غير المستندة إلى شواهد الشرع، و أبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات و الفروع و التفاصيل من غير مراعاة القواعد و الأصول.

ثم يتعقب ذلک الجوينى- كشافعى- فيقول: و الشافعى (رض) جمع بين القواعد و الفروع، فكان مذهبه أقصد المذاهب، و مطلبه أسدّ المطالب.

و تدلنا الحوادث بوضوح أنه لقى أذى كثيرا فى إظهار مخالفته لمالک و ردّه عليه، كما أنه لم يلق فى مصر الإقبال الذى كان يرجوه و يأمله رجل مثله، فقد جفاه الناس و لم يجلس إليه أحد، فقال له بعض من قدم معه: لو قلت شيئا يجتمع إليک الناس.

فقال: إليک عنى و أنشأ:

أ أنثر درّا بين سارحة النعم و أنظم منثورا لراعية الغنم

«١».

و كان يظهر التذمّر و التألّم، و يدلنا على ذلک قوله:

و أنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله

أجامعه حتى تقال سجيّة و لو كان ذا عقل لكنت أعاقله«٢»

و قال الكندى: لما دخل الشافعى مصر كان ابن المنكدر يصيح خلفه: يا كذا .... دخلت هذه البلدة و أمرنا واحد و رأينا واحد؛ ففرّقت بيننا و ألقيت بيننا الشرّ، فرّق اللّه بين روحک و جسمک «٣».

أدبه و شعره

: كان الشافعى على درجة عالية من المعرفة فى اللغة العربية، و اطلاع كبير على معانيها و علومها، و كان أحمد بن حنبل يقول: الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء: فى اللغة و أيّام الناس و المعانى و الفقه. و نسب إليه أنه قال: (أقمت فى بطون العرب عشرين سنة، آخذ أشعارها و لغاتها) و ذلک لإظهار طول المدة التى استغرقها كدليل على تمكنه من اللغة و معرفته بها، و هى فترة تترک ثغرة فى مسار حياة الشافعى كما رأيناها، فليست إلا من عواطف الأتباع، و إنما الحقيقة التى تكفى لإظهار ما عليه

---

(١) و (٢) معجم الأدباء.

(٣) الولاة و القضاة ص ٤٣٨.

الشافعی أنه عاش بین القبائل فی البدایة لیأخذ المعانی و الألفاظ الفصحی، و قد ظهر ذلک مع مفرداته و أقواله و تحصیله موهبة الشعر، و قد کان غرض إقامته بین القبائل أن یستعین باللغة علی الفقه «۱».

و منهم من یقول أن الأصمعی صحّح أشعار هذیل علی فتی من قریش یقال له محمد بن إدریس الشافعی، و منهم من یروی قول الأصمعی دون ذکر عبارة: یقال له و ما بعدها، و إنما قال الأصمعی: صححت أشعار هذیل علی فتی من قریش.

و مهما یکن من قول فإن الشافعی حفظ أشعار العرب و شعر هذیل. یقول یاقوت: و حکی لنا عن مصعب الزبیری قال: کان أبی و الشافعی یتناشدان، فأتی الشافعی علی شعر هذیل حفظا و قال: لا تعلم بهذا أحدا من أهل الحدیث، فإنهم لا یحتملون هذا «۲».

فهو یخشی مجتمعه. و لقد التمس وسیلة تساعده فی اتجاهه للفقه و سعیه إلی العلم، فأخضع موهبته الشعریة لهذه الضوابط فقال:

و لو لا الشعر بالعلماء یزری لکنت الیوم أشعر من لبید

فهو یری أن منزلة العالم أسمی من کل منزلة، و قد ترک الشعر مع تمکنه من أدواته و قدرته علی نظمه، و قد ظهر قبل سنوات قلیلة دیوان شعر للشافعی جمعه:

محمد عفیف الزعبی فی أقل من خمسین ورقة طبع فی سنة ۱۳۹۱ ه.

إلا أن الشافعی یقول الشعر بعاطفة خالصة، کشعره فی حب آل البیت الذی کان سببا فی اتهامه بالتشیّع، و ینظم الشعر فی تجاربه مع الحیاة و الناس کما مرّ بعض ذلک.

قال الربیع بن سلیمان: حججت مع محمد بن إدریس الشافعی إلی مکة، فما کان یصعد شرفا و لا یهبط ودیا إلا أنشأ یقول:

یا راکبا قف بالمحصّب من منی و اهتف بساکن خیفها و الناهض

---

(۱) مناقب الرازی ص ۸۹.

(۲) معجم الأدباء ج ۱۷ ص ۲۹۹.

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضا حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

«۱» و يروى ابن عبد البرّ أنه قيل للشافعى إن فيک بعض التشيّع؟ قال: و كيف؟

قالوا: ذلک لأنک تظهر حب آل محمد. فقال: يا قوم، أ لم يقل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده و ولده و الناس أجمعين». و قال: «إن أوليائى من عترتى المتّقون» فإذا كان واجبا علىّ أن أحبّ قرابتى و ذوى رحمى إذا كانوا من المتقين، أ ليس من الدين أن أحبّ قرابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا كانوا من المتقين، لأنه كان يحب قرابته؟ و أنشد: يا راكبا قف بالمحصّب من منى.

و من شعره فى موالاة أهل البيت:

إذا فى مجلس نذكر عليا و سبطيه و فاطمة الزكيّة

يقال تجاوزوا يا قوم هذا حديث من حديث الرافضيّة

برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حبّ الفاطميّة

«۲» و كان يجيب على تهمة التشيّع بجرأة فى ظروف كانت فيها التهمة بالتشيع تعنى الهلاک و الحرمان، و لا يكتم رأيه فيقول:

أنا الشيعى فى دينى و أصلى بمكة، ثم دارى عسقلية

بأطيب موطن و أعزّ فخر و أسمى مذهب يسمو البريّة

---

(۱) الانتقاء و معجم الأدباء.

(۲) ذكر القندوزى الحنفى فى ينابيع المودة نقلا عن البيهقى عن الربيع بن سليمان الأبيات الشعرية و فيها زيادة رأينا ذكرها فى الهامش، لأن ما ورد فى المتن هى الأشهر: قيل للإمام الشافعى رحمه اللّه إن أناسا لا يصبرون على سماع منقبة أو فضيلة لأهل البيت الطيبين، فإذا رأوا واحدا منّا يذكرها يقولون هذا رافضى.

فأنشأ الشافعى:

إذا فى مجلس ذكروا عليا و سبطيه و فاطمة الزكية

فأجرى بعضهم ذكرا سواه فأيقن أنه سلقلقية

إذا ذكروا عليا أو بنيه تشاغل بالروايات العلية

و قال تجاوزوا يا قوم عن ذا فهذا من حديث الرافضية

برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حب الفاطمية

على آل الرسول صلاة و لعنته لتلك الجاهلية

.

ص: ۴۱۶

و له أيضا:

قالوا: ترفّضت. قلت: كلا ما الرفض دينى و لا اعتقادى

لكن توليت غير شك خير إمام و خير هادى

إن كان حب الولى رفضا فإن رفضى إلى العباد

و قوله:

يا آل بيت رسول اللّه حبكمو فرض من اللّه فى القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم الفخر أنكمو من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

و له أيضا:

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعا — فى الدين بالرأى لم يبعث بها الرسل

حتى استخفّ بدين اللّه أكثرهم — و فى الذى حملوا من حقّه شغل

و له فى الدعاء:

بموقف ذلى عند عزتک العظمى — بمخفىّ سرّ لا أحيط به علما

بإطراق رأسى باعترافى بزلتى — بمدّ يدى استمطر الجود و الرحما

بأسمائک الحسنى التى بعض وصفها — لعزّتها تستغرق النثر و النظما

بعهد قديم من أ لست بربّكم — بمن كان مجهولا فعلمته الأسما

أذقنى شراب الأنس يا من إذا سقى — محبّا شرابا لا يضام و لا يظما

و منه ما رواه الربيع بن سليمان أنه كتب إلى محمد بن الحسن، و قد طلب منه كتبا ليستنسخها فتأخرت عنه:

قل لمن تر عينا — من رآه مثله

و من كان من رآه — قد رأى من قبله

العلم ينهى أهله — أن يمنعون أهله

لعله يبذله — لأهله لعله

و عن الربيع أيضا أن الشافعى قال يعزّى ببعض إخوانه:

إنى أعزّيک لا إنى على طمع — من الحياة و لكن سنّة الدين

فما المعزّى بباق بعد صاحبه — و لا المعزّى و إن عاشا إلى حين

و لا بد للشافعى أن لا يدع من يستفزّهم ذكر آل محمد و يغضبهم موالاة من

أوصى بموالاتهم صاحب الرسالة، فهو على الاعتقاد الذى أجمعوا عليه، غير أنه يرى حب آل محمد فيقول:

إذا نحن فضّلنا عليّا فإننا روافض بالتفضيل عند ذوى الجهل

و فضل أبى بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكرى للفضل

فلا زلت ذا رفض و نصب كلاهما بحبيهما حتى أوسّد فى الرمل

و منها:

شهدت بأن اللّه لا ربّ غيره و أشهد أن البعث حق و أخلص

و أن عرى الآيات قول مبيّن و فعل زكىّ قد يزيد و ينقص

و أن أبا بكر خليفة ربه و كان أبو حفص على الخير يحرص

و أشهد ربى أن عثمان فاضل و أن عليا فضله متخصّص

أئمة حق يهتدى بهداهم لحى اللّه من إياهم يتنقّص

و أشعار الشافعى كثيرة فى مدح آل البيت عليهم أفضل الصلاة و السّلام، و لكن ذلک لا يجعله فى عداد الشيعة، و مع كونه قد أخذ كثيرا من الأحكام عنهم، و ضعّف بسبب ذلک، لأننا لم نجد صلة حقيقية بينه و بين الشيعة و لا اتصالا مع الأئمة فى عصره. و قد عقدنا له بحثا فى الجزء الثالث، و أدخلناه فى قفص الاتهام، و بعد الحوار و المناقشة أخرجناه ببراءة من تهمة التشيّع.

و يقتضى ذلک أن نقول: إن البعض يقع فى خطأ، و منهم الكتّاب و المؤرخون أو عامة الناس، فيذكرون أن الشيعة يأخذون بقول الشافعى، و يذكرون فى كتبهم أقواله فيقولون: قال محمد بن إدريس، أو أن المذهب الشيعى يلتقى بالمذهب الشافعى فى كثير من الموارد دون غيره من مذاهب السنة. و هو خطأ أوضحناه فى مكانه، و قلنا إنه ناشئ من عدم التحقيق، و لأن الشيعة يذكرون أقوال محمد بن إدريس الحلى- عالم الشيعة فى عصره و مؤلف كتاب السرائر- فيقولون: قال محمد بن إدريس، أو قال ابن إدريس. فيظنّون أن المقصود هو محمد بن إدريس الشافعى.

و لكن الشافعية زعموا أن الشيعة قالوا إن الشافعى منهم «۱» و أنهم احتجوا بهذه

---

(۱) مناقب الرازى.

الأشعار. و لا نستغرب ذلک، لأن الخشیة من تهمة التشیّع شملت أصحاب الشافعی و تلامذته بینما کان آخرون بخلاف ذلک فقد روی أن المزنی قال: قلت للشافعی: أنت توالی أهل البیت، فلو عملت فی هذا الباب أبیاتا فقال:

و ما زال کتمانیک حتی کأننی بردّ جواب السائلین لأعجم

و أکتم ودّی فی صفاء مودّتی لتسلم من قول الوشاة فأسلم

و اتهمه یحیی بن معین بالتشیّع و قال: طالعت کتابه السیر، فوجدته لم یذکر إلا علی بن أبی طالب. و قوله: نظرت فی قتال أهل البغی، فرأیته قد احتج من أوله إلی آخره بعلی بن أبی طالب. و کان یأخذ بحدیث الإمام الصادق و خاصة بأحکام الصلاة «۱».

و قد أکثر الشافعی من الروایة عن إبراهیم بن محمد بن أبی یحیی أبو إسحاق المدنی أحد تلامذة الإمام الصادق علیه السّلام روی أحادیث أهل البیت و له مؤلف مبوّب فی الحلال و الحرام علی مذهب أهل البیت، و هو أستاذ الواقدی و کتب الواقدی مأخوذة عنه. و کان الشافعی یقول: لأن یخرّ إبراهیم أحبّ إلیه من أن یکذب.

و لأن الشافعی أکثر فی الروایة عن إبراهیم و هو (متهم بالتشیع) کان الشافعی یذکر اسمه مرة و یورّی عنه أخری و یقول: حدثنی الثقة، حدثنی من لا اتهمه. إذا فالشافعی یأخذ من رجال الشیعة، و ینهل من مصادرهم، و یستقی من منابعهم، و لکنهم لا یدّعون أنه منهم.

لقد کانت مصر هی المکان الذی صدر عنه المذهب الشافعی، و منه انتشر فی الأقطار، و ذلک بفضل جهود تلامذته المخلصین الذین شغلوا الناس عن دراسة المذهب المالکی و المذهب الحنفی، و کانا قد انتشرا هناک.

قال السبکی فی الطبقات عن مصر و الشام بالنسبة للمذهب الشافعی:

هذان الإقلیمان مرکز ملک الشافعیة، منذ ظهر المذهب الشافعی، الید العالیة لأصحابه فی هذه البلاد. لا یکون القضاء و الخطابة فی غیرهم، أما الشام فقد کان

---

(۱) انظر مناقب الرازی ص ۸۴.

مذهب الأوزاعی حتی ولی القضاء أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقی الشافعی و یقول: کان (محمد بن عثمان) رجلا رئیسا یقال أنه هو الذی أدخل مذهب الشافعی إلی دمشق، و أنه کان یهب لمن یحفظ مختصر المزنی منه مائة دینار.

و على أى حال فإن المذهب الشافعى كانت بذرته الأولى فى مصر، و منها انتشر بفضل جهود أصحاب الشافعى، و لو لا هم لكان أثرا بعد عين. و لكان مصيره مصير مذهب الليث بن سعد الذى لم يتهيأ له أصحاب مخلصون يقومون بنشره، و لعل أهم العوامل التى هيأت للشافعى أسباب النجاح فى مصر هى:

١- إنه كان معروفا بأنه تلميذ مالک و خرّيج مدرسته، و كان لمالک هناک ذكر و لمذهبه انتشار، فقوبل بالعناية، و ذلک قبل إظهاره المعارضة لمذهب مالک و الردّ عليه.

٢- نشاط الشافعى و علوّ همّته و تفوّقه بالأدب و معرفة اللغة، و إحاطته بأقوال مالک و أهل العراق، و ما عرف عنه من انتصار لأهل الحديث و الردّ على أهل الرأى.

٣- اشتهار قرشيته و اعتصامه بالانتساب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هذا له أثره فى قلوب المصريين.

۴- صلته بحاكم مصر الجديد عبد اللّه بن العباس بن موسى، و معرفته به يوم كان بمصر، و أنه سافر معه من بغداد عند تعيينه، أو أنه حمل له وصية من الخليفة على اختلاف الروايات.

۵- اختياره النزول عند أقوى بيت فى مصر و أعزّهم جانبا و هم بنو الحكم، و التفاف أعيان أصحاب مالک حوله كأشهب و ابن القاسم و ابن الموّاز و غيرهم.

تغلب المذهب الشافعى على المذهب المالكى بمصر بعد أن كان هو السائد و له السلطان هناک. و ذكرنا مقابلة أنصار المذهب المالكى لأصحاب الشافعى، و قد تمت له الغلبة هناک أيام الدولة الأيوبية، لأنهم كانوا جميعا شافعية إلا عيسى بن الملک العادل سلطان مصر فإنه كان حنفيا، و لم يكن فيهم حنفى سواه، ثم تبعه أولاده و كان شديد التعصب لذلک المذهب، و يعدّه الحنفية من فقهائهم، و له شرح على الجامع الكبير فى عدة مجلدات.

و لما خلفت دولة المماليک البحرية دولة الأيوبيين، لم تنقص حظوة المذهب

الشافعى، فقد كان سلاطينها من الشافعية إلّا سيف الدين الذى حكم قبل بيبرس فقد كان حنفيا، و لكن لم يكن له أثر فى الدولة لقصر مدته. و لم يختلف بشىء عن سياسة الأيوبيين تجاه المذهب، و عملهم على نشر المذهب و تشجيع المنتمى إليه، و جعل القضاء للشافعية، و على غرار ما عملت به الدولة العباسية فى المشرق و حصره بالحنفية.

و بقيت صبغة المذهب صبغة رسمية حتى قيام الظاهر بيبرس و قيامه بتطبيق فكرة توزيع منصب القضاء على المذاهب الأربعة، فتأثرت مكانة المذهب الشافعى و نفوذه عمّا كانا عليه من قبل، و لكنه ظل يحتفظ بمكانة أعلى من غيره من المذاهب.

و كذلک استمر المذهب فی عصر المماليک الجرکسية، حتی جاء دور العثمانيين و استيلائهم علی مصر، فأبطلوا القضاء بالمذاهب الأخری و حصروه بالمذهب الحنفی لأنه المذهب الرسمی للدولة. و قد بيّنا أسباب اعتناق الأتراک للمذهب الحنفی دون غيره من المذاهب، لأنه لا يشترط القرشية فی الخلافة، و سلاطين آل عثمان ادعوا الخلافة علی المسلمين، و المذهب الحنفی يجوّز ذلک دون غيره.

و خلاصة القول، إن المذهب الشافعی شارک المذهب الحنفی و المذهب المالکی فی اهتمام السلطان و الرعاية، و أن العلاقة بالحکم کانت من أعظم مقومات الانتشار و الوجود کالمذهب الحنفی و المذهب المالکی اللذين انتشرا بقوة السلطة و مشيئتها، و کان مذهب أبی حنيفة فی بغداد يسمی مذهب السلطان «۱».

وفاته

: لعل وفاة الشافعی من أغرب أعمال التعصّب. لأن أرجح الروايات و أقربها إلی الصحة هی موته بسبب الاعتداء عليه من جماعة تعصبوا لفتيان- الرجل المالکی- الذی کان يناظر الشافعی کثيرا و يجتمع الناس عليهما، و قد کان فی فتيان حدّة و طيش و هو من أصحاب مالک بن أنس. و قد هجموا علی الشافعی و ضربوه، فحمل إلی منزله، فلم يزل عليلا حتی مات.

و لمّا توفی أدخلت جنازته علی السيدة نفيسة بنت الحسن التی تلمذ لها فی

---

(۱) معجم الأدباء ج ۶ ص ۱۱- ۱۲.

الحديث، و صلّت عليه فی دارها. هکذا حکاه ابن خلکان و ابن کثير «۱».

و قد وضعت نبوءة لإبراز أدوار و منازل أصحاب الشافعی التی کانت بعد موته علی أنها تجری کما علمها الشافعی و تنبأ بها. يقول الربيع: دخلنا علی الشافعی أنا و البويطی و محمد بن عبد اللّه بن الحکم و المزنی، فنظر الشافعی إلينا ساعة ثم قال للبويطی: أما أنت يا أبا يعقوب، فستموت فی حديدک. و أما أنت يا مزنی فستدرک زمانا تکون أقيس أهل ذلک الزمان. و أما أنت يا محمد فسترجع إلی مذهب أبيک أی مذهب مالک. و أما أنت يا ربيع فأنفع لی فی نشر کتبی.

توفی الشافعی رحمه اللّه فی شهر رجب سنة ۲۰۴ بمصر.

و بعد وفاته يقول الربيع:

رأيت الشافعی بعد وفاته فی المنام فقلت: يا أبا عبد اللّه ما صنع اللّه بک؟ قال:

أجلسنی علی کرسی من ذهب، و نثر علیّ اللؤلؤ الرطب «۲».

أولاده

: و للشافعی ولدان کل منهما اسمه محمد، أما الأصغر فتوفی بمصر صغیرا، و محمد الثانی یلقب أبو عثمان ولی قضاء الجزیرة و توفی سنة ۲۴۱ ه «۳».

---

(۱) وفیات الأعیان ج ۵ ص ۵۷. و البدایة و النهایة ج ۱۰ ص ۲۶۲.

(۲) تاریخ بغداد ج ۲ ص ۷۰.

(۳) النجوم الزاهرة ج ۲ ص ۳۰۶.

ص: ۴۲۳

الإمام الصادق أولاده و أحفاده

إن البحث فی حیاة أولاد الإمام الصادق و أحفاده له أهمیة کبیرة، سواء من حیث متطلبات موضوع الکتاب و اکتمال أجزائه، أو من الناحیة الدینیة و التاریخیة، لأن المرحلة التی جاءت بعد الإمام الصادق کانت من أکبر المراحل خطورة و أهمیة: کما أن البحث فی الأولاد و الأحفاد یستلزم جهودا مضنیة إذا ما أردنا الإیفاء بکل ما یندرج فی سلسلة النسب و الأسماء، فهو یعنی الحدیث عن الأئمة المعصومین صلوات اللّه علیهم و هو ما بقی مجال جهد و بحث للعلماء و الرجال منذ مئات السنین و حتی الیوم، و لم تتوقف البحوث و لن تکف الجهود عن کشف صفحات الأئمة المعصومین من أبناء محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأنهم نبراس الهدی، و منار الحق الذی یهتدی به الناس. و لذلک اقتصرت علی أولاده و أحفاده رضوان علیهم حسب مجریات الأحداث و سیاق البحث، و أعطینا سردا مختصرا یوفی بغرض إعطاء صورة عن عقبة علیه السّلام و باستخلاص واقع الملابسات فی مجری الإمامة و التی ظهرت بعد وفاته علیه السّلام و اقتبسنا شیئا من أنوار سیر الأئمة و اضمامات قلیلة من أزاهیر حیاة بعضهم علیهم السّلام.

أولاد الإمام

: قال الشیخ المفید: کان لأبی عبد اللّه عشرة أولاد: إسماعیل، و عبد اللّه، و أم فروة. أمهم فاطمة بنت الحسین بن علی بن الحسین السبط علیه السّلام.

و موسی علیه السّلام و إسحاق، و محمد، لأم ولد. و العباس، و علی، و، أسماء و فاطمة. لأمهات شتی.

و قال ابن عنبة الحسنی: و أعقب جعفر الصادق علیه السّلام من خمسة رجال:

موسی الکاظم، و إسماعیل، و علی العریضی، و محمد المأمون، و إسحاق، و لیس له

ولد اسمه ناصر، معقب و لا غير معقب بإجماع علماء النسب، و بأسفزار من ولاية هراة خراسان قوم يدّعون الشّرف، و ينتسبون إلى ناصر بن جعفر الصادق عليه السّلام و هم أدعياء كذّابون لا محالة، و هم هناک يخاطبون بالشرف على غير أصل، و يعرف هؤلاء القوم ببارسا و كذبهم أظهر من أن ينبه عليه «۱».

و قال سراج الدين الرفاعى: و كان له عشرة أولاد: إسماعيل و عبد اللّه و أم فروة، أمهم فاطمة بنت الحسين الأشرف بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب. و موسى الكاظم الإمام المعصوم رضى اللّه عنه، و إسحاق المؤتمن، و محمد الديباج، لأم ولد يقال لها حميدة البربرية.

على بن جعفر عليه السّلام

: يكنى أبا الحسن، و يلقب بالعريضى نسبة إلى العريض (بضم العين المهملة و فتح الراء) قرية على أربعة أميال من المدينة كان يسكنها و أمه، و يقال لولده العريضيون و هم كثير هناک «۲» و هو أصغر أولاد الإمام الصادق عليه السّلام مات أبوه و هو طفل، و روى عن أخيه موسى الكاظم، و له كتاب ما سأله به، و روى عن أبيه عليه السّلام على صغر سنه، و له كتاب فى مسائل الحلال و الحرام عنه، و كذلک روى عن ابن أخيه الرضا، و ابنه الجواد. و طال عمره إلى أيام الإمام الهادى عليه السّلام فكانت وفاته سنة ۲۱۰ ه.

روى العميرى أن أبا جعفر الجواد دخل على على بن جعفر، فقام له قائما و أجلسه فى موضعه و لم يتكلم حتى قام، فقال له أصحابه: أ تفعل هذا مع أبى جعفر و أنت عمّ أبيه؟

فضرب بيده على لحيته و قال: إذا لم يرها اللّه أهلا للإمامة أراها أنا أهلا للنار؟

(يعنى بادعاء الإمامة و هى ليست له) و قد ناصر أخاه محمد بن جعفر الصادق الثائر فى أيام المأمون و الذى أسس دولة فى مكة المكرمة. و بعد أن أسر محمد، نزل علىّ بالكوفة، ثم استدعاه القمّيون، و نزل قم و مات و قبره مشهور يزار.

قال الشيخ المفيد: على بن جعفر رضى اللّه عنه رواية للحديث، سديد الطريقة

---

(۱) عمدة الطالب.

(۲) صحاح الأخبار ص ۴۸.

شديد الورع، كثير الفضل. و لزم أخاه موسى عليه السّلام و روى عنه شيئا كثيرا من الأخبار.

و قال الشيخ الطوسى: على بن جعفر جليل القدر، ثقة، له كتاب المناسک و مسائله لأخيه موسى الكاظم سأله عنها.

و قال الشريف أحمد بن زين باعلوى فى شرح العينية عند ذكر على العريضى:

خلف أولادا أعقب منهم أربعة رجال: أحمد و الحسن و جعفر الأصغر و محمد.

و قال فى العمدة- فى عقب الإمام الصادق-: و أما على العريضى بن جعفر الصادق عليه السّلام و يقال لولده العريضيون و هم كثيرون متفرّقون فى البلاد، و منهم بالمدينة الشريفة أولاد يحيى المحدث بن يحيى ابن أبى الحسن عيسى الردمى الأكبر بن محمد بن على العريضى، و إليه يرجع نسب السادة أهل حضرموت. يقول الشريف أحمد بن محمد: أعقب على بن جعفر الصادق أبناءه ... على و جعفر و الحسن و محمد و أحمد، و فى محمد نسب السادة الحضارمة العلويين. و يجمعهم بن جعفر بن محمد بن على الحسينى، و هم فروع متوسعة إلا أننا سنذكر من يوجد منهم فى المدينة و مكة المكرمة، و ممن يسكن المدينة قديما: آل جميل الليل، و آل مشيخ بن أحمد بن حسين (و غيرهم) و منهم بمكة المكرمة: بيت السيد الحبش من علماء مكة المكرمة و أجلّائها و بيت السيد عقيل «١».

قال الذهبى: على بن جعفر روى عن أبيه و أخيه موسى و الثورى، و روى عن الجهضمى و البزى و الأوسى و جماعة، و روى له الترمذى فى كتابه.

و أسند الذهبى عنه فى الميزان عن آبائه أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ بيد الحسن و الحسين و قال: «من أحبنى و أحب هذين و أبويهما كان معى يوم القيامة».

و خرّج له الإمام أحمد فى مسنده، و عدّه ابن حجر فى الطبقة العاشرة. و قال أحمد بن زين الحبش: السيد على بن جعفر فهو أبو الحسن شمس أهل البيت كان رحمه اللّه جوادا سخيا عالما كبيرا، و هو أصغر أولاد أبيه سنّا و أطولهم عمرا، أخذ عن أبيه و صحبه، و أخذ عن أخيه موسى الكاظم، عن الحسن بن زيد، و روى عنه ابناه أحمد و محمد و حفيده عبد اللّه بن الحسن و إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر الصادق.

---

(١) انظر الدرر السنية للشريف أحمد بن محمد بن صالح.

وردت مسائله لأخيه الإمام الكاظم فى كتب علمائنا و روى له الشيخ الصدوق و الشيخ الطوسى و العلّامة الحلى و غيرهم من علمائنا.

قال المخزومى أعقب على بن جعفر أربعة رجال هم: محمد و أحمد و الحسن، و جعفر الأصغر. و هذه العشيرة أفخاذ و فصائل، ضمّت جماعة كثيرة فى العراق و الشام و اليمن و الحجاز، و لهم ذيل بشيراز، و الدينور، و منهم بواسط، و قد أنجبت قبيلتهم فأتت بالكثير الطيب. قال العمد: من أشياخ أهل البيت، إن السبب فى ذلک إذعان على العريض بإمامة محمد بن أخيه.

أما عقب أولاده الأربعة كما يلى باختصار:

١- أحمد المعروف بالشعرانى، فإنه أعقب من عبد اللّه، و عقبه بالمراغة.

و يعرفون ببنى الحسنية و الحسين، و عقبه بالرقة.

و محمد و على: و لهم جماعة بالبصرة و مرو و قم و شيراز.

٢- و أما محمد بن على بن جعفر فإن فى ولده العدد المتفرق فى البلاد، أعقب من خمسة و هم:

عيسى النقيب، و يحيى، و الحسن، و الحسين، و لكل واحد من هؤلاء عقب منتشر فى مصر و الرى و بغداد و اليمن و الشام و الكوفة و أصفهان و قزوين و الديلم.

٣- جعفر بن على بن جعفر، فعقبه من ابنه عبد اللّه، و عبد اللّه أعقب من على و موسى، و لهما عقب منتشر فى البلاد الإسلامية.

محمد

: محمد بن جعفر الصادق، و يلقّب الديباج، و كان وجيها محبوبا عند الناس شجاعا كريما ورعا تقيا، و كان يصوم يوما و يفطر يوما، و كان يرى الخروج بالسيف على الظالمين، و بايعه أهل مكة سنة ٢٠٠ ه.

قال ابن الأثير: كان يروى العلم عن أبيه، و كان الناس يكتبون عنه، و قال ابن خلدون: كان محمد بن جعفر عالما زاهدا.

و قال الشيخ المفيد: كان محمد بن جعفر سخيا شجاعا، و روى عن زوجته خديجة بنت عبد اللّه بن الحسين أنها قالت: ما خرج من عندنا محمد يوما قط،

فرجع حتى يكسوه. و كان يذبح كل يوم كبشا لأضيافه، و خرج على المأمون فى سنة تسعة و تسعين و مائة بمكة، و اتبعته الزيدية الجارودية، فخرج لقتاله عيسى الجلودى، و بعد قتال طويل تفرّق جمع محمد، فأخذه المأمون، و لما وصل إليه أدنى مجلسه منه و أكرمه و أحسن جائزته، و كان مقيما معه بخراسان، يركب إليه فى موكب من بنى عمه، و كان المأمون يحتمل منه ما لا يحتمله السلطان من رعيته.

و قد أنكر المأمون ركوبه إليه فى جماعة من الطالبيين الذين خرجوا على المأمون سنة مائتين فآمنهم، فخرج التوقيع إليهم: لا تركبوا مع محمد بن جعفر، و اركبوا مع عبد اللّه بن الحسين. فأبوا أن يركبوا و لزموا منازلهم، فخرج التوقيع: اركبوا مع من أحببتم. فكانوا يركبون مع محمد بن جعفر إذا ركب، و ينصرفون بانصرافه.

و أخبر محمد بن جعفر: أن غلمان ذى الرئاستين قد ضربوا غلمانک على حطب اشتروه. فخرج مؤتزرا ببردين و معه هراوة و هو يقول:

الموت خير لک من عيش بذلّ و تبعه الناس حتى ضرب غلمان ذى الرئاستين، و أخذ الحطب منهم. فرفع الخبر إلى المأمون، فبعث إلى ذى الرئاستين فقال له: ائت محمد بن جعفر، فاعتذر إليه و حكّمه فى غلمانک. فخرج ذو الرئاستين إلى محمد بن جعفر. قال موسى بن سلمة: فكنت عند محمد بن جعفر جالسا حتى أتى، فقيل: هذا ذو الرئاستين. فقال:

لا يجلس إلا على الأرض، و تناول بساطا فى البيت، فرمى به، و لم يبق فى البيت إلا وسادة، و جلس على الأرض، فاعتذر إليه و حكّمه فى غلمانه.

و توفى محمد بن جعفر سنة ٢٠٣ ه، فركب المأمون ليشهد جنازته، و قد خرجوا به، فلما نظر إلى السرير نزل فترجّل و مشى حتى دخل بين العمودين، فلم يزل بينهما حتى وضع، فتقدم و صلّى عليه، ثم حمله حتى بلغ به القبر، ثم دخل قبره، فلم يزل فيه حتى بنى قبره، ثم خرج فقام على القبر حتى دفن، فقيل له: لو ركبت؟ فقال:

هذه رحم قطعت منذ ثمانين سنة، فأحببت أن أصلها «١». و مات محمد بن جعفر عن عمر ينيف على السبعين كما ذكره الذهبى فى الميزان، و قبره بجرجان «٢». و ما ذكره

---

(١) الإرشاد للمفيد ١۶٩. و صحاح الأخبار لسراج الدين ص ۵۴.

(٢). ٣/ ٣۵.

بعضهم من أنه مات و له تسع و أربعون سنة فهو غلط، و الصحيح ما ذكرناه، لأن وفاة الإمام الصادق كانت سنة ١۴٨ ه.

و ذكر الشيخ المفيد: أن إسماعيل بن محمد بن جعفر قال: قلت لأخى و هو لجنبى و المأمون قائم على القبر: لو كلّمناه فى دين الشيخ، فلا نجده أقرب منه فى وقته هذا. فابتدأنا المأمون فقال: كم ترک أبو جعفر من الدّين؟ فقلت له: خمسة و عشرين ألف دينار. فقال: قد قضى اللّه عنه دينه. إلى من وصّى؟ قلنا: إلى ابن يقال له يحيى بالمدينة. فقال: ليس هو بالمدينة، و هو بمصر، و قد علمنا بكونه فيها، و لكن كرهنا أن نعلمه بخروجه من المدينة لئلا يسوؤه ذلک لعلمه بكراهتنا لخروجه عنها «١».

و أعقب محمد بن الإمام الصادق عليه السّلام: على و القاسم و الحسين، و عقب القاسم من ولده: يحيى و على و عبد اللّه. و القاسم يعرف بالطيّب، و ابنه يحيى يعرف بيحيى الشبيه.

قال السخاوى: هو يحيى بن القاسم الطيب بن محمد المأمون بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، قيل كان شبيها برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كان له خاتم بين كتفيه كخاتم النبوة، و كان الناس إذا شاهدوه أكثروا من الصلاة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و كان ابن طولون أقدمه من الحجاز، و لما سمع أهل مصر بقدومه، خرجوا إلى ظاهر مصر يتلقونه، و كان يوم قدومه يوما مشهودا. و بالقرافة بمصر قبر أبى عبد اللّه محمد بن القاسم بن محمد بن جعفر الصادق صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و دفن يحيى بمصر، و قبره مشهور يعرف بمشهد يحيى الشبيه. و دفن معه أخوه عبد اللّه بن القاسم الطيّب.

و قبره فى وسط القبة، و عند وسطه لوح رخام فيه نسبه، و كانت وفاته يوم الاثنين ١٣ من شهر رمضان سنة ٢٦١ ه.

و كان عبد اللّه كأخيه فى العبادة و الخير و العفّة و الصلاح، و هم بيت عظيم معروفون بإجابة الدعاء «٢». و فى نفس التربة دفنت أم عبد اللّه زوجة القاسم الطيب.

و فى مصر أيضا: الحسن بن يحيى الشبيه بن القاسم الطيّب، و عليه رخامة

---

(١) الإرشاد ص ٢٦٩.

(٢) انظر تحفة الأحباب و بغية الطلاب للسخاوى.

مكتوب فيها اسمه و اسم آبائه الطاهرين. و فى القرافة مشهد يعرف بمشهد السيدة العيناء، و هى السيدة كلثم أو أم كلثوم بنت محمد بن جعفر الصادق عليه السّلام و قبرها معروف بإجابة الدعاء.

و فى القرافة أيضا مشهد يعرف بمشهد الحسن و المحسن، و هما أولاد القاسم الطيب بن محمد بن جعفر «١».

و ذكر أبو نصر البخارى: أن جميع بنى محمد بن جعفر لصلبه سبعة: على و إسماعيل من أم ولد، و القاسم أمه أم الحسن بنت حمزة بن القاسم بن الحسن بن زيد ..

و يحيى و جعفر أمهما خديجة بنت عبيد اللّه. و موسى و عبد اللّه من أم ولد.

عبد اللّه

: ابن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام و كان أكبر إخوته بعد إسماعيل، و لم تكن منزلته عند أبيه كمنزلة غيره من ولده فى الإكرام، و ادّعى الإمامة بعد أبيه لأنه الأكبر، و جلس مجلس أبيه مدّعيا وصايته، فمال إليه كثير من الناس بادعاء أن الإمامة فى أكبر الأولاد.

و حيث لم يكن بمنزلة من العلم، فقد امتحنه جماعة ممن اتبعه بمسائل فى الحلال و الحرام و الصلاة و الزكاة و غير ذلک، فلم يجد عنده علما، فنفروا منه، و عادوا إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام و بقى جماعة على القول بإمامته و يعرفون (بالفطحية) لأن عبد اللّه يكنى بالأفطح، كان أفطح الرأس، و قيل كان أفطح الرجلين، و هم فرقة قليلة رجعوا عن القول بإمامته. مات و لم يعقب، فقالوا بإمامة موسى بن جعفر عليه السّلام. و لم يبق من هذه الفرقة أحد. و مات عبد اللّه بعد وفاة أبيه بسبعين يوما.

إسحاق

: ابن الإمام الصادق عليه السّلام كان رواية للحديث و من أهل العلم.

---

(١) نفس المصدر.

قال الشيخ المفيد: و كان إسحاق بن جعفر من أهل الفضل و الصلاح و الورع و الاجتهاد، و كان ابن كاسب «١» إذا حدّث عنه يقول: حدثنى الثقة الرضى إسحاق بن جعفر، و كان إسحاق يرى إمامة أخيه موسى بن جعفر عليه السّلام و روى عن أبيه النص بالإمامة.

و قال المخزومى: ولد لإسحاق: عبد اللّه و الحسن، و لهما عقب بهمدان و جيرفت. و فى عمدة الطالب: و أما إسحاق بن جعفر الصادق و يكنى أبا محمد و يلقب بالمؤتمن، فقد ولد بالعريض و هو واد بالمدينة، و كان من أشبه الناس برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كان محدثا جليلا، و ادعت فيه طائفة من الشيعة الإمامة. و كان سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعى رضى اللّه عنهما إذا ما روى عنه يقول: حدثنى الثقة الرضا إسحاق بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى اللّه عنهم، و هو أقل المعقبين من ولد جعفر الصادق عددا، إذ أعقب ثلاثة رجال: محمدا و الحسن و الحسين. و تعرف ذريته بالإسحاقيين.

يقول المقريزى فى خططه: و تزوّج- إسحاق- بنفيسة «٢» رضى اللّه عنها، و كان يقال له إسحاق المؤتمن، و كان من أهل الصلاح و الفضل و الخير و الدين، روى- الناس- عنه الحديث، و كان ابن كاسب إذا حدّث عنه يقول: حدثنى الثقة الرضا إسحاق بن جعفر. و كان له عقب بمصر، فهم بنو الرقى، و بحلب بنو زهرة.

الإمام موسى بن جعفر عليهما السّلام

كان موسى بن جعفر على جانب عظيم من العلم و الكمال، فقد أشبه بمواهبه و أخلاقه، و كان أبوه الإمام الصادق إذا ما اجتمع أولاده يقول: هؤلاء أولادى و هذا

---

(١) هو يعقوب بن حميد بن كاسب المدنى المتوفى ٢٤١ ه و ينسب إلى جده، و كان من المحدثين الإعلام. قال القاسم بن عبد اللّه بن مهدى: قلت لأبى مصعب، بمن توصينى بمكة و عمن أكتب؟ فقال عليک بشيخنا أبى يوسف يعقوب بن حميد. و قد روى الحديث عنه جماعة، و خرّج له البخارى فى أفعال العباد.

(٢) نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن السبط عليه السّلام و هى المعروفة بالسيدة نفيسة المتوفاة سنة ٢٠٦ ه و قبرها بمصر يزار و يعرف باستجابة الدعاء، و لها كرامات، و كانت عالمة جليلة القدر عظيمة الشأن يحترمها العلماء و يعظمها الأمراء. قالوا أن الشافعى كان يزورها و يسمع منها الحديث، و قد زار قبرها أكابر العلماء و أعيان الدولة، و ظهرت لها كرامات فى حياتها و بعد وفاتها رضى اللّه عنها.

سيدهم. و روى أن أبا حنيفة قال: دخلت المدينة فأتيت أبا عبد اللّه الصادق عليه السّلام فسلّمت عليه و خرجت من عنده، فرأيت ابنه موسى فى دهليز داره قاعدا فى مكتب- و هو صغير السن- فقلت له: أين يحدث الغريب عندكم إذا أراد ذلک؟ فنظر إلى ثم قال: «تجنّب شطوط الأنهار، و مسقط الثمار، و فىء النزال، و أفنية الدور، و الطرق النافذة و المساجد، و يرفع و يضع بعد ذلک حيث شاء». فلما سمعت هذا القول نبل فى عينى و عظم فى قلبى، فقلت له: فممن المعصية؟ فنظر إلىّ ثم قال: «أجلس حتى أخبرک» فجلست فقال: «إن المعصية لا بد أن تكون من العبد أو من ربه أو منهما جميعا، فإن كانت من اللّه عزّ و جلّ فهو أعدل و أنصف من أن يظلم عبده بما لم يفعله، و إن كانت منهما فهو شريكه و القوى أولى بإنصاف عبده الضعيف. و إن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر و إليه توجه النهى و له حق الثواب و العقاب، و لذلک وجبت الجنة و النار» قال: فلما سمعت ذلک قلت: ذرية بعضها من بعض و اللّه سميع عليم «١».

فقد كشف الإمام موسى الكاظم- على صغر سنّه- عن المسألة التى استعصى فهمها على الناس، و كانت مثار جدل و سببا فى العداوات و القتل و الطعون، حتى شملت أبا حنيفة نفسه.

لقد كان المجتمع ينظر إلى الإمام موسى نظرة إكبار و تقدير، و لما آلت إليه الإمامة و تسلّم زعامة البيت العلوى، صادف على الحكم بعد المنصور حكاما كالمهدى و الرشيد ترتعد فرائصهم خوفا و رعبا من البيت العلوى، إذ مضى زمن المنصور الداهية الذى استطاع أن يواجه البيت العلوى، و يلجأ إلى كل السبل و الوسائل للوقوف بوجه الإمامة و المنزلة الروحية، و يستخدم الوحشية و القتل ليقضى على ثوراتهم و حركاتهم.

فكان البيت العلوى شغل الدولة الشاغل و هاجسهم الدائم، يقضّ مضاجعهم، و يكدّر أوقات سكرهم و ملذاتهم و تبذّلهم فى الملاهى و الشهوات.

و من المتسالم عليه، أن الملوک الذين عاصرهم الإمام الكاظم عليه السّلام كانوا قد شدّدوا الرقابة عليه و اتهموه بأنه مصدر حركات الثوار و محل تجمع الفئات التى لا تعترف بشرعية الدولة، و كذلک الذين ينقمون على الحكام سوء تصرفهم فإنهم يجدون

---

(١) روضة الواعظين ج ١ ص ٣٩- ٤٠.

فى الإمام موسى الكاظم شخصية الخليفة العادل و الحاكم الذى تحتاج الأمة رعايته و قيادته.

فكان محل تخوّف الحكام. فهم يحذرونه أشدّ الحذر، فهو أكبر العلويين و أعلمهم، و الشيعة تغدو و تروح إليه، و هم يقصدونه من سائر البلاد الإسلامية، و لا يملک بنو العباس أنفسهم تجاه هذه المكانة. فيروى المأمون عن أبيه هارون أنه قال لبنيه فى حق الإمام الكاظم: أنا إمام الجماعة فى الظاهر و الغلبة و القهر، و إنه- أى الكاظم عليه السّلام- و اللّه لأحق بمقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منّى و من الخلق جميعا، و و اللّه لو نازعنى هذا الأمر لأخذت بالذى فيه عيناه فإن الملک عقيم «١».

و سنطلع على نبذ أخرى من سيرته الزكية.

ولادته

: ولد الإمام موسى بن جعفر سنة ١٢٨- ١٢٩ ه يوم الأحد سابع صفر بالأبواء- قرية بين مكة و المدينة- عند رجوع أبيه و أمه من الحج فى تلک السنة، فبشّر الإمام الصادق أصحابه الذين كانوا معه فى ذلک الموضع و أخبر خواصّ أصحابه بأنه الإمام من بعده، ثم أجرى جميع المراسيم الشرعية لمولده الجديد، فأذّن فى أذنه اليمنى، و أقام فى أذنه اليسرى، و أولم بعد ولادته، فأطعم الناس ثلاثا.

و عند ما دخل المدينة المنورة، أقبلت الوفود إليه يهنئونه بمولوده و يشاركونه أفراحه، و كان عليه السّلام يظهر لهم فرحه بهذا المولود، و يشيد به و أنه الخلف الصالح و الإمام من بعده. و نشأ صلوات اللّه عليه تحت رعاية أبيه نشأة صالحة، و اتصف بخصال الكمال، و لقّب بالعبد الصالح، و ينعت بالكاظم، و يكنى بأبى إبراهيم و بأبى الحسن.

و أمه أم ولد اسمها حميدة الأندلسية أو البربرية، و مدحها الإمام الصادق عليه السّلام بأنها مصفّاة من الدنس كسبيكة الذهب. و مات أبوه الصادق و له من العمر تسع عشر سنة.

و حصل بعد موت الإمام الصادق عليه السّلام خلاف بين أتباعه، فمنهم من قال

(۱) روضة الواعظين ج ۱ ص ۳۹- ۴۰.

ص: ۴۳۳

بإمامة محمد بن إسماعيل بن الإمام الصادق و هؤلاء قلة، و لم يسمعوا النص على الإمام موسى من أبيه، و بعد مدة رجع أكثرهم إلى القول بإمامته. و منهم من قال بإمامة موسى عليه السّلام للنص عليه من أبيه، و سيأتى بيان ذلک.

و كان عبد اللّه الأفطح قد ادّعى الإمامة و اتبعه البعض، و لم يكن عنده علم، و لم يجدوا فيه مؤهلات الإمامة، فرجعوا عنه.

و قام الإمام موسى عليه السّلام بأعباء الإمامة فى ذلک العصر المضطرب بالفتن، و قد كثرت فيه الخلافات فى الآراء، و ظهرت فيه العقائد المختلفة، و نبغ أناس حادوا عن طريقة المسلمين، فجاءوا بآراء إلحادية، و نشروا أقوالا تثير الشک. فكانت مدرسته التى تزعّمها بعد أبيه تواصل نشاطها فى قمع تلک الحركات، و صدّ تلک الهجمات عن الدين الإسلامى. و خرج دعاة الإمام موسى إلى الأقطار الإسلامية لنشر الدعوة و التصدّى لردّ تلک الأقوال، و تنفيذ تلک الآراء التى انتشرت فى المجتمع الإسلامى.

و الذى يظهر من تتبع الروايات أنه فى بدء أمره كان يحذر أشدّ الحذر من المنصور الدوانيقى، لأن المنصور ملأ المدينة بالجواسيس ليعرف على من يجتمع الناس بعد جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام فإذا عرفه فهناک سيحتال لقتله لعلمه بتعلق الناس بأهل البيت، و أن الإمام الصادق قد انتشر ذكره، و تفرّقت دعاته فى جميع الأقطار و لا بد أن يقوم مقامه أحد، فرأى عليه السّلام فى بدء الأمر، أن يحذر و يحسب لنقمة المنصور حسابها، و لكن بعد وفاة المنصور سنة ۱۵۲ ه خفّت الوطأة و قل الحذر عند ما ولى المهدى، لأنه أقل شدة من أبيه فى معاملة أهل البيت عليه السّلام.

و لكن التفاف الناس حول الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام و إقبالهم على أخذ الأحكام منه و الرواية عنه، جعل المهدى قلقا من أمره، لأنه أعرف الناس بمنزلة أهل البيت فى قلوب الأمة. فهم الساسة الذين ابتعدوا عن الاستغلال و الأثرة، و جانبوا كلما من شأنه أن يضع من قيمة تلک المنزلة السامية، و هم يحتفظون بمكانتهم الروحية و رتبهم العلمية، لم يطلبوا بذلک جاها، أو يحاولوا جمع الأموال و صرفها فى غير ما شرعه اللّه.

و قد أوضحوا فى سيرتهم أنهم ينهجون نهج جدّهم الرسول الأعظم فى إقامة العدل و نصرة المظلوم و إعلان الحرب على الظالمين و بذل النصح لجميع المسلمين.

ص: ۴۳۴

و كان الإمام موسى عليه السّلام تتمثل فيه خصال الكمال، و تتجسّم فيه شخصية الإمام الحق، و لعظم الأهوال و شدّة المحن، غلبت عليه صفة الكاظم، و كان من خصاله: التجاوز عن المعتدين «۱».

و كان يدعى بالعبد الصالح لعبادته و اجتهاده، و كان سخيا كريما، و كان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه؛ فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار «٢».

و بقى عليه السّلام مدة فى أيام المهدى فى المدينة، يقوم بإرشاد الناس و هداية الخلق، الأمر الذى جعل المهدى يتخوّف من انتشار دعوته و قوة جانبه، فلم يأمن وثبة الشيعة بقيادة الإمام موسى، فعمد إلى إبعاده عن المدينة و إقامته فى بغداد تحت رقابة شديدة، أو أنه سجنه كما هو المشهور.

و مكث عليه السّلام فى السجن مدة أشهر، ثم أطلقه المهدى لرؤيا رآها كما حدّث الفضل بن الربيع عن أبيه أنه لما حبس موسى بن جعفر عليه السّلام رأى فى النوم على ابن أبى طالب و هو يقول: يا محمد (أى المهدى) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ. قال الربيع: فأرسل إلىّ ليلا فجئته، فإذا هو يقرأ هذه الآية، و كان أحسن الناس صوتا و قال: علىّ بموسى بن جعفر، فجئته فعانقه و أجلسه إلى جانبه و قال: يا أبا الحسن إنى رأيت أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى النوم يقرأ علىّ كذا، فتؤمننى أن لا تخرج علىّ أو على أحد من ولدى.

فقال عليه السّلام: «و اللّه لا فعلت ذاک و لا هو من شأنى».

قال: صدقت. يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار، و ردّه إلى أهله إلى المدينة «٣».

و على رواية الجنابذى فى المعالم أنه وصله بعشرة آلاف.

و من هنا نستظهر أن المهدى لم يسجن موسى لشىء فى نفسه من عداء أو اعتداء، و إنما كان يحذره على ملكه من الزوال، و لم يخش أى شخصية فى عصره من جميع الطوائف و البيوت سوى الإمام موسى لمؤهلاته و مكانته فى نفوس الأمة، فهو يخشى من نهضة تطيح بعرشه، و لا تكون إلا على يد الإمام.

---

(١) سبائک الذهب فى معرفة قبائل العرب لأبى الفوز البغدادى.

(٢) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٧.

(٣) نفس المصدر ١٣/ ٢٦.

و يمكننا القول بأن المهدى فرض عليه الإقامة الجبرية فى بغداد، و هيأ له مكانا يسكن فيه، كما يدل عليه قوله للربيع: و ردّه إلى أهله فى المدينة. إذ لو اقتصر على قوله: إلى أهله. فالمتبادر إلى محله المعدّ له فى بغداد. فأكد عليه بقوله: أن ردّه إلى المدينة. فأسرع الربيع تجهيزه بسرعة خشية تبدّل الأمر، و يندم المهدى إلى إطلاقه.

و أقام صلوات اللّه عليه بالمدينة مدة أيام المهدى، و لما ولىّ موسى الهادى فكانت واقعة فخ المروعة و قتل الحسين بن على صاحب فخ، و حمل رأسه و الأسرى من أصحابه إلى موسى الهادى، و أمر برجل من الأسرى، فوبخه ثم قتله، ثم صنع ذلک بجماعة من الطالبيين، و جعل ينال منهم، إلى أن ذكر موسى بن جعفر عليه السّلام و قال: و اللّه ما خرج حسينى إلا من أمره، و لا اتّبع إلا محبّته، لأنه صاحب الوصية فى أهل هذا البيت، قتلنى اللّه إن أبقيت عليه.

فقال له أبو يوسف القاضى: يا أمير المؤمنين أقول أم أسكت؟

فقال موسى: قتلنى اللّه إن عفوت عن موسى بن جعفر، و لو لا ما سمعت من المهدى فيما أخبر به المنصور ما كان به جعفر من الفضل عن أهله فى دينه و علمه و فضله، و ما بلغنى عن السفّاح فيه من تقريضه و تفضيله لنبشت قبره.

فقال أبو يوسف: نساؤه طوالق، و عتق جميع ما يملک من الرقيق، و تصدّق بجميع ما يملک من المال، و حبس دوابه، و عليه المشى إلى بيت اللّه الحرام إن كان مذهب موسى الخروج، و لا يذهب إليه و لا مذهب أحد من ولده، و لا ينبغى أن يكون هذا منهم.

و لم يزل أبو يوسف يخاطب الهادى، و يخفّف حدّة غضبه بكلام رقيق، حتى سكن غضبه.

و كتب على بن يقطين «١» إلى أبى الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام فلما وصل

---

(١) من أكبر أصحاب الإمام الكاظم و أعظمهم منزلة، و كان أبوه من وجوه الدعوة إلى الرضا من آل محمد، فطلبه مروان، فهرب. و لما قامت دولة بنى العباس عمل يقطين مع السفاح و المنصور، و كان شيعيا يقول بالإمامة، و يحمل الأموال إلى الإمام الصادق، و كان على من كبار رجال دولة بنى العباس فى عهد هارون الرشيد. و لما توفى صلى عليه ولى العهد محمد. له كتب منها: ما سئل عنه الصادق من الملاحم، و كتاب مناظرة الشاک بحضرته، و له مسائل عن الإمام الكاظم. ولد رحمه اللّه فى الكوفة سنة ١٢٤ ه و توفى فى بغداد سنة ١٨٢ ه.

الخبر أخبر عليه السّلام أهل بيته و شيعته، و قال لهم: «ما تشيرون فى هذا؟» فأشاروا عليه بأن يتوارى و يباعد بشخصه عن الطاغية.

فتبسم عليه السّلام ثم تمثّل ببيت كعب بن مالک أخو بنى سلمة:

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها فليغلبنّ مغلّب الغلّاب

ثم أقبل على من حضر من مواليه، و أهل بيته و قال: «ليفرخ روعكم، إنه لا يرد أول كتاب من العراق إلا بموت موسى الهادى و هلاكه».

فقالوا: و ما ذاک أصلحک اللّه؟ ثم أخبرهم بأنه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المنام و شكى إليه موسى بن المهدى. و ما جرى منه فى أهل بيته. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «لتطب نفسک يا موسى، فاجعل اللّه لموسى عليک سبيلا» ثم قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «قد أهلک اللّه آنفا عدوک، فلتحسن للّه شكرک».

و فى رواية الحافظ ابن شهرآشوب أنه عليه السّلام تمثّل بقول الشاعر:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

ثم رفع رأسه إلى السماء و قال:

«إلهى كم من عدو شحذ لى ظبة مديته، و أرهف لى شبا حدّه، و داف لى غوائل سمومه، و لم تنم عنّى عين حراسته، فلما رأيت ضعفى من احتمال الفوادح، و عجزى عن ملمّات الجوائح، صرفت ذلک عنّى بحولک و قوتک، لا بحولى و قوتى ...» إلى آخر الدعاء.

ثم أقبل على أصحابه فقال لهم: «إنه لا يأتى أول كتاب من العراق إلا بموت موسى بن المهدى». ثم تفرّق القوم، فما اجتمعوا إلا لقراءة الكتب الواردة بموت موسى بن المهدى، و فى ذلک يقول شاعر أهل البيت فى وصف سرعة استجابة الدعاء:

و سارية لم تسر فى الأرض تبتغى محلا و لم يقطع بها البعد قاطع

سرت حيث لم تحد الركاب و لم تنخ لورد و لم يقصد بها البعد مانع

تمرّ وراء الليل و الليل ضارب بجثمانه فيه سمير و هاجع

تفتح أبواب السماوات دونها إذا قرع الأبواب منهنّ قارع

إذا وفدت لم يردد اللّه وفدها على أهلها و اللّه راء و سامع

و إنی لأرجو اللّه حتی کأنما أری بجمیل الظنّ ما اللّه صانع

و کان الإمام من جرّاء حب الناس له و تقدیسهم إیاه یرجو أن لا یظنّ به فوق مرتبته الدینیة و مهمات إمامته، و یبعد بالناس عن أسباب الغلوّ، سأله أحدهم:

إنی رأیت اللیلة فی منامی أنی سألتک کم بقی من عمری، فرفعت یدک الیمنی و فتحت أصابعها فی وجهی مشیرا إلیّ، فلم أعلم خمس سنین أم خمسة أشهر أم خمسة أیام؟ فقال علیه السّلام: «و لا واحدة منهن، بل ذاک إشارة إلی الغیوب الخمسة التی استأثر اللّه تعالی بها فی قوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ...»

من حکمه و مواعظه

: «إیاک أن تمنع فی طاعة اللّه، فتنفق مثلیه فی معصیة اللّه».

و قال له وکیله: ما خنتک. فقال: «خیانتک و تضییعک علیّ ما لی سواء، و الخیانة أشرّهما علیک».

و قال علیه السّلام: «لیس حسن الجوار کفّ الأذی، و لکن حسن الجوار الصبر علی الأذی».

و قال علیه السّلام: «لا تذهب الحشمة بینک و بین أخیک، و أبق منها، فإن ذهابها ذهاب الحیاء».

و قال علیه السّلام لبعض ولده: «یا بنی إیاک أن یراک اللّه فی معصیة نهاک عنها، و إیاک أن یفقدک اللّه عند طاعة أمرک بها، و علیک بالجدّ و لا تخرجنّ نفسک من التقصیر فی عبادة اللّه و طاعته، فإن اللّه لا یعبد حق عبادته. و إیاک و المزاح فإنه یذهب بنور إیمانک و یسحن مروّتک. و إیاک و الضجر و الکسل فإنهما یمنعان حظک من الدنیا و الآخرة».

و قال علیه السّلام: «إذا کان الجور أغلب من الحق، لم یحلّ لأحد أن یظن بأحد خیرا حتی یعرف ذلک منه».

و قال لعلی بن یقطین: «کفّارة عمل السلطان الإحسان إلی الإخوان».

و قال علیه السّلام: «کلما أحدث الناس من الذنوب ما لم یکونوا یعملون، أحدث اللّه لهم من البلاء ما لم یکونوا یعدّون».

و قال علیه السّلام: «إذا کان الإمام عادلا کان له الأجر و علیک الشکر، و إذا کان جائرا کان علیه الوزر و علیک الصبر».

«إن صلاحکم من صلاح سلطانکم، فإن السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحیم، فأحبّوا له ما تحبّون لأنفسکم، و أکرهوا له ما تکرهون لأنفسکم».

و قال علیه السّلام: «أخذ أبی بیدی و قال: إن أبی محمد بن علی أخذ بیدی و قال:

إن أبی علی بن الحسین أخذ بیدی و قال: یا بنی افعل الخیر إلی کل من طلبه منک، فإن کان من أهله فقد أصبت موضعه. و إن لم یکن له بأهل فکن أنت من أهله، و إن شتمک رجل عن یمینک، ثم تحول إلی یسارک و اعتذر إلیک؛ فاقبل منه».

«إن أهل الأرض لمرحومون ما تحابّوا و أدّوا الأمانة و عملوا بالحق».

«لا تضیّع حق أخیک اتکالا علی ما بینک و بینه، فإنه لیس بأخ من ضیّعت حقّه، و لا یکونن أخوک أقوی علی قطیعتک منک علی صلته».

«من طلب هذا الرزق من حلّه لیعود به علی نفسه و عیاله، کان کالمجاهد فی سبیل اللّه، فإن غلب علیه فلیستدن علی اللّه و علی رسوله، فإن مات و لم یقضه کان علی الإمام قضاؤه، فإن لم یقضه کان علیه وزره، إن اللّه عز و جل یقول: إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساکِینِ وَ الْعامِلِینَ ... الخ و هذا فقیر مسکین مغرم».

«الناس أشکال، و کلّ یعمل علی شاکلته، و الناس إخوان فمن کانت أخوته فی غیر ذات اللّه فإنها تعود عداوة، و ذلک قوله تعالی: الْأَخِلَّاءُ یَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِینَ».

«من استحسن قبیحا کان شریکا فیه».

«کفر النعمة داعیة المقت، و من جازاک بالشکر فقد أعطاک أکثر مما أخذ منک».

«لا تضمر نفسک الظنّ علی صدیق قد أصلحک الیقین له، و من وعظ أخاه سرا فقد زانه، و من وعظه علانیة فقد شانه».

«لا یزال العقل و الحمق یتغالبان علی الرجل إلی أن یبلغ ثمانی عشرة سنة، فإذا بلغها غلب علیه أکثرها فیه».

«و ما أنعم اللّه عز و جل علی عبد نعمة، فعلم أنها من اللّه، ألّا کتب اللّه علی اسمه شکرها له قبل أن یحمده علیها».

ص: ۴۳۹

«الشریف کل الشریف من شرّفه علمه، و السؤدد کل السؤدد لمن اتقی ربه».

«لا تعاجلوا الأمر قبل بلوغه فتندموا، و لا یطولنّ علیکم الأمل فتقسو قلوبکم، و ارحموا ضعفائکم، و اطلبوا الرحمة من اللّه بالرحمة منکم».

«من أمّل فاجرا، کان أدنی عقوبته الحرمان».

«موت الإنسان بالذنوب أكبر من موته بالأجل».

«لو كانت السموات و الأرض رتقا على عبد، ثم اتقى اللّه يجعل اللّه له منهما فرجا».

«من وثق باللّه و توكّل على اللّه نجّاه اللّه من كل سوء و حرسه من كل عدو.

و الدين عزّ، و العلم كنز، و الصمت نور، و غاية الزهد الورع، و لا هدم للدين مثل البدع، و لا أفسد للرجال من الطمع. و بالراعى تصلح الرعية، و بالدعاء تصرف البلية.

و من ركب مركب الصبر اهتدى إلى مضمار النصر. و من غرس أشجار التقى اجتنى ثمار المنى».

و قال عليه السّلام لبشر بن سعد: «يا بشر، للمحن أخريات، فيجب على العاقل أن ينام لها إلى إدبارها، فإن مكابدتها بالحيل عند إقبالها زيادة فيها» «١».

«كيف يضيع من اللّه كافله، و كيف ينجو من اللّه طالبه».

«إن للّه عبادا يخصّهم بدوام النعم، فلا تزال فيهم ما بذلوها؛ فإن منعوها نزعها اللّه عنهم و حولها إلى غيرهم».

«ما عظمت نعمة اللّه على أحد إلا عظمت إليه حوائج الناس، فمن لم يتحمل تلك المئونة عرّض تلك النعمة للزوال. أهل المعروف إلى ما يصطنعون أحوج من أهل الحاجة إليه، لأن لهم أجره و فخره و ذكره، فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنما يبتدئ فيه نفسه».

«من أجلّ إنسانا هابه، و من جهل شيئا عابه، و الفرصة خلسة».

«من استغنى باللّه افتقر الناس إليه، و من اتقى اللّه أحبه الناس».

«الجمال فى اللسان، و الكمال فى العقل».

---

(١) الشبلخى ١۶۴.

«العفاف زينة الفقر، و الشكر زينة البلاء، و التواضع زينة الحسب، و الفصاحة زينة الكلام، و الحفظ زينة الرواية، و حفظ الجناح زينة العلم، و حسن الأدب زينة الورع، و بسط الوجه زينة القناعة».

«حسب المرء من كمال المروة أن لا يلقى أحدا بما يكره، و من حسن خلق الرجل كفّه أذاه، و من سيمائه برّه بمن يجب حقّه عليه، و من إنصافه قبول الحق إذا بان له، و من نصحه نهيه عمّا لا يرضاه لنفسه، و من حفظه لجواره، تركه توبيخه، و من رفقه تركه عذلک بحضرة من تكره، و من حسن صحبته لک إسقاطه عنک مؤونة التحفّظ، و من علامة صداقته كثرة موافقته و قلة مخالفته، و من شكره معرفة إحسان من أحسن إليه، و من تواضعه معرفته بقدره، و من سلامته قلّة حفظه لعيوب غيره و عنايته بصلاح عيوبه».

«من أخطأ وجوه المطالب خذلته الحيل، و الطامع فى وثاق الذل».

«العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم».

«الصبر على المصيبة مصيبة على الشامت».

«ثلاث يبلغن بالعبد رضوان اللّه كثرة الاستغفار، و لين الجانب، و كثرة الصدقة».

«ثلاث من كنّ فيه لم يندم: ترک العجلة، و المشورة، و التوكل على اللّه عند العزم».

«لو سكت الجاهل ما اختلف الناس».

«مقتل الرجل بين فكّيه، و الرأى مع الأناة، و بئس الظهر الرأى الفطير».

«ثلاث خصال تجتلب بهنّ المودّة: و الإنصاف فى المعاشرة، و المواساة فى الشدّة، و الانطواء على قلب سليم».

و قال عليه السّلام لهشام: «من أراد الغنى بلا مال، و راحة القلب من الحسد، و السلامة فى الدين؛ فليتضرّع إلى اللّه عز و جل فى مسألته بأن يكمل عقله. فمن عقل قنع بما يكفيه، و من قنع بما يكفيه استغنى، و من لم يقنع بما يكفيه لم يدرک الغنى».

ص: ۴۴۱

أولاده:

أنجب الإمام موسى بن جعفر عدة أولاد ذكورا و إناثا، و كانوا مثالا للفضل و صورة صادقة للخلق الإسلامى الكامل، يقول الشيخ الطوسى: إن لكل واحد من أولاد أبى الحسن موسى فضلا و منقبة مشهورة.

و قد وقع اختلاف فى تحديد عدد تلک الذرية الطيبة، فمن قائل أنهم ثلاث و ثلاثون الذكور منهم، و الإناث ستة عشر. و قيل: الذكور ۳۷ و الإناث ۱۹. أو أن الذكور ۳۸ و الإناث ۱۸. و المشهور أن ذريته عليه السّلام سبعة و ثلاثون ولدا ذكرا و أنثى.

أما الذكور فهم: إبراهيم و العباس و القاسم، لأمهات أولاد، و إسماعيل و جعفر، و هارون و الحسن لأم ولد، و أحمد و محمد و حمزة لأم ولد، و عبد اللّه و إسحاق و عبيد اللّه و زيد و الحسن و الفضل و سليمان لأمهات أولاد.

أما البنات فهن: فاطمة الكبرى، و فاطمة الصغرى، و كلثم، و أم جعفر، و لبابة، و زينب، و خديجة، و عليّة، و آمنة، و حسنة، و بويهة، و عائشة، و أم سلمة، و ميمونة، و أم كلثم.

هكذا ذكرهم الشيخ المفيد عليه الرحمة. و قال ابن الخشّاب: ولد له عشرون ولدا ذكرا و ثمانية عشر بنتا.

و عدّهم فى صحاح الأخبار سبعة و ثلاثين ولدا بين ذكر و أنثى، ثم ذكرهم مع اختلاف بسيط بين ما ذكرهم و بين ما قدمناه.

و قد اختلفوا فيمن أعقب من أولاده عليه السّلام و قد اتفقوا على أن عقبه من عشرة من أولاده، و قيل أربعة عشر.

ص: ۴۴۳

الإسماعيلية و الإمامة

مرت الإمامة فى عهد أبى جعفر المنصور بأدوار غاية فى الصعوبة- كما رأينا- و قد تمكن الإمام الصادق عليه السّلام أن يجتاز دوائر الهلاك التى وضعها الحاكم الظالم و أن يجنّب أصحابه و شيعته ابتلاءات الحديد، و أن لا يعضّهم سيف الحكام قدر الإمكان، و قد علم الإمام الصادق- بما وهبه اللّه من حكمة و معرفة بالأحوال- إن غدر المنصور لن ينتهى، و أنه يتربّص الفرص للانتقام من أهل بيت النبوة، فكان تدبيره الوصية بالشكل الذى يفوّت على المنصور الفرصة، فلما توفى الإمام الصادق عليه السّلام و بلغ المنصور الخبر، كتب: إن كان أوصى الإمام الصادق إلى رجل بعينه يقدّم و يضرب عنقه. فرجع إليه الجواب أنه أوصى إلى خمسة نفر أحدهم أبو جعفر المنصور و محمد بن سليمان و عبد اللّه و موسى و حميدة. و فى رواية أخرى: إن الإمام الصادق عليه السّلام أوصى إلى أبى جعفر المنصور و موسى و محمد بن جعفر أولاده، و مولى لأبى عبد اللّه عليه السّلام.

فقال أبو جعفر المنصور: ليس إلى قتل هؤلاء سبيل «۱».

و سنرى أن أمر الوصية و تدبيرها على هذا الشكل قد مرّ بمرحلتين:

الأولى: الإعداد للوصاية و التهيؤ للإمامة، و إظهار ابنه موسى فى منزلتهما لدى شيعة أهل البيت، حتى إذا وضح فى أذهان الناس النص و استقروا على الأمر، أتبعه الإمام الصادق بالتدبير التالى و المرحلة الثانية: التى قصد بها كفّ الأذى عن وصيّه و إمام الناس من بعده، و هو تدبير أحبط مسعى عدوّهم، و أسقط فى يده. و لو لا هذا التدبير الذى أراده اللّه، لنفّذ الدوانيقى ما كان يتمنّاه، فكان الرشيد من تولى الجريمة، و لكن بعد أن قام الإمام الكاظم بالتبليغ، و نفذ الرسالة و الأحكام، و هكذا الحكام من

(۱) الغيبة للشيخ الطوسى. و منهج الدعوات للسيد ابن طاوس.

ص: ۴۴۴

الأمويين و العباسيين يتوارث الخلف عن السلف مهمة قتل أبناء النبوة و إنزال المصائب بأهل البيت الكرام.

روى ابن شهرآشوب فى المناقب عن داود بن كثير الرقى قال: أتى أعرابى إلى أبى حمزة الثمالى فسأله خبرا فقال: توفى جعفر الصادق، فشهق شهقة و أغمى عليه.

فلما أفاق قال: هل أوصى إلى أحد؟ قال: نعم، أوصى إلى ابنه عبد اللّه و موسى و أبى جعفر المنصور. فضحک أبو حمزة و قال: الحمد للّه الذى هدانا إلى الهدى، و بيّن لنا عن الكبير، و دل على الصغير، و أخفى عن أمر عظيم. فسئل عن قوله؟

فقال: بيّن عيوب الكبير، و دل على الصغير لإضافته إياه، و كتم الأمر بالوصية للمنصور، لأنه لو سأل المنصور عن الوصى. لقيل: أنت «۱».

و يورد الشيخ المفيد أمر الوصية مورد الدلالة على النص بالوصية للإمام موسى بن جعفر، و ينفى- رحمه اللّه- ذكر الإمام الصادق لأحد من أولاده مع ولده موسى، و يقول:

و قد تظاهر الخبر فيما كان عن تدبير أبى عبد اللّه جعفر بن محمد عليه السّلام و حراسة ابنه موسى بن جعفر عليه السّلام بعد وفاته من ضرر يلحقه بوصيته إليه، و أشاع الخبر عن الشيعة إذ ذاک باعتقاد إمامته من بعده، و الاعتماد على حجتهم، لذلک على إفراده بوصية مع نصه عليه بنقل خواصه، فعدل عن إفراده بالوصية عند وفاته، و جعلها إلى خمسة نفر أولهم المنصور، و قدّمه على جماعتهم، إذ هو سلطان الوقت و مدبر أهله، ثم صاحبه الربيع من بعده، ثم قاضى وقته، ثم جاريته و أم ولده حميدة البربرية، و ختمهم بذكر ابنه موسى بن جعفر عليه السّلام يستر أمره و يحرس بذلک نفسه، و لم يذكر مع ولده أحدا من أولاده لعلمه بأن منهم من يدّعى مقامه من بعده، و يتعلق بإدخاله فى وصيته، و لو لم يكن موسى عليه السّلام ظاهرا مشهورا فى أولاده، معروف المكان منه و صحة نسبه و اشتهار فضله و علمه و حكمته و امتثاله و كماله، بل كان مثل ستر الحسن عليه السّلام ولده لما ذكره فى وصيته، و لاقتصر على ذكر غيره ممن سميناه، لكنه ختمهم فى الذكر به كما بيناه «۲».

(۱) أعيان الشيعة للسيد العاملى ج ۴ ص ۲۲۶.

(۲) الفصول العشرة فى الغيبة للشيخ المفيد.

ص: ۴۴۵

و يتجه القول إذا علمنا أن عبد اللّه كان يظهر المخالفة لأبيه الإمام الصادق، روى الفضل عن طاهر بن محمد عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: رأيته يلوم عبد اللّه ابنه و يعظه و يقول له: «ما يمنعک أن تكون مثل أخيک، فو اللّه إنى لأعرف النور فى وجهه؟» فقال عبد اللّه: و كيف أ ليس أبى و أبوه واحدا، و أصلى و أصله واحدا؟ فقال له أبو عبد اللّه عليه السّلام: «إنه من نفسى، و أنت ابنى» «١».

و إن عبد اللّه أفطح الرجلين، ناقص التكوين. يروى الشيخ المفيد أن جماعة من أصحاب الإمام الصادق كانوا فى المدينة، فسألوا عبد اللّه- و قد اجتمع عليه من ظن بإمامته بعد أبيه- فسألوه عن الزكاة فى كم تجب؟ فقال فى كل مائتى درهم خمسة دراهم، فقالوا له: ففى مائة؟ قال درهمان و نصف، فقالوا: و اللّه ما تقول المرجئة هذا. فقال: و اللّه ما أدرى ما تقول المرجئة.

و يتبين بذلک جهل عبد اللّه بأحكام الشريعة، و عدم أهليته لاحتلال مكان أبيه، و قد وشّحت أنوار الإمامة وجه أخيه موسى منذ كان فى المهد، فكان الإمام الصادق يقف على رأسه و هو فى المهد و يسارّه طويلا، و روى الوشاء عن على بن الحسين، عن صفوان الجمّال قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن صاحب هذا الأمر؟ فقال:

«إن صاحب هذا الأمر لا يلهو و لا يلعب» فأقبل أبو الحسن عليه السّلام و هو صغير و معه بهمة (ولد البقر أو المعز أو الضأن) و هو يقول لها: «اسجدى لربک» فأخذه أبو عبد اللّه عليه السّلام و ضمّه إليه و قال: «بأبى و أمى من لا يلهو و لا يلعب» «٢».

و كان الإمام الصادق يميّزه عن أولاده، و يفضّله عليهم و يقول: «هؤلاء أولادى، و هذا سيدهم» «٣». و لشدّة حب الإمام الصادق عليه السّلام له قيل له: ما بلغ من حبک لموسى؟ قال عليه السّلام: «وددت أن ليس لى ولد غيره، لئلا يشركه فى حبى أحد» «٤».

و روى محمد بن الوليد قال: سمعت على بن جعفر بن محمد الصادق عليهما السّلام يقول: سمعت أبا جعفر بن محمد عليهما السّلام يقول لجماعة من خاصته و أصحابه:

«استوصوا بابنى موسى عليه السّلام خيرا، فإنه أفضل ولدى، و من أخلف من بعدى، و هو القائم مقامى، و الحجة للّه تعالى على كافة خلقه من بعدى».

---

(١) الإرشاد ص ٢٧١.

(٢) الإرشاد.

(٣) ينابيع المودة للقندوزى الحنفى.

(٤) الإتحاف للشبراوى الشافعى.

و قد ذكر الشيخ المفيد جماعة ممن رووا صريح النص بالإمامة من أبى عبد اللّه عليه السّلام على ابنه أبى الحسن موسى عليه السّلام من شيوخ أصحاب الإمام الصادق و خاصته و ثقاته الفقهاء الصالحين رحمة اللّه عليهم، منهم: المفضل بن عمر الجعفى، و معاذ بن كثير، و عبد الرحمن بن الحجّاج، و الفيض بن المختار، و يعقوب السرّاج، و سليمان بن خالد، و صفوان الجمّال و غيرهم ممن يطول ذكرهم.

و قد روى ذلک من أخوى الإمام الكاظم: إسحاق و على. و كانا من الفضل و الورع على ما لا يختلف فيه اثنان.

فروى عن المفضل بن عمر الجعفى رحمه اللّه قال: كنت عند أبى عبد اللّه عليه السّلام فدخل أبو إبراهيم موسى عليه السّلام- و هو غلام- فقال لى أبو عبد اللّه عليه السّلام: «استوص به، وضع أمره عند من تثق من أصحابک».

و روى عن معاذ بن كثير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قلت: أسأل اللّه الذى رزق أباک منک هذه المنزلة أن يرزقک من عقبک قبل الممات مثلها، فقال: «قد فعل اللّه ذلک» قلت: من هو جعلت فداک؟ فأشار إلى العبد الصالح و هو راقد فقال: «هذا الراقد» و هو يومئذ غلام.

و عن عبد الرحمن بن الحجّاج قال: دخلت على جعفر بن محمد عليهما السّلام فى منزله، فإذا هو فى بيت كذا من داره، فى مسجد له و هو يدعو، و على يمينه موسى بن جعفر عليهما السّلام يؤمّن على دعائه. فقلت له: جعلنى اللّه فداک، قد عرفت انقطاعى إليک و خدمتى لک، فمن ولىّ الأمر بعدک؟ قال: «يا عبد الرحمن، إن موسى قد لبس الدرع و استوت عليه» فقلت له: لا أحتاج بعد هذا إلى شىء.

و عن الفيض بن المختار قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: خذ بيدى من النار، من لنا بعدک؟ قال: فدخل أبو إبراهيم و هو يومئذ غلام. فقال: «هذا صاحبكم فتمسّک به».

و عن منصور بن حازم قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: بأبى أنت و أمى، إن الأنفس يغدا عليها و يراح، فإذا كان ذلک فمن؟ فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: «إذا كان ذلک فهو صاحبكم» و ضرب على منكب أبى الحسن الأيمن، و هو فيما أعلم يومئذ خماسى.

و صفوة القول: أن الروايات تتعاضد فى إثبات النزعات إلى الإمامة من بين أولاد الإمام الصادق، و هو أمر توهّموه بالعاطفة و تمنّوه، لأن الإمامة تجرى بدلائل و تتم بشروط، فيهتدى بيسر إلى صاحبها، و تصرح السجايا و الأعمال باكتمال الشروط، و هو أمر معلوم أصحابه فى عدد معين و شخوص مثبتين، و قد مرّ بنا كيف كانت علامات الإمامة و أمارات الانتساب إلى البيت النبوى فى جواب الإمام الكاظم إلى أبى حنيفة.

فذاع عن أصحاب الإمام الصادق يومئذ ما كان الإمام يقوم به فى رعاية وصيّة الإمام موسى، و انتشر ما كان يوصيه به. منها: «يا بنى اقبل وصيتى، و احفظ مقالتى، فإنک إن حفظتها تعش سعيدا و تمت حميدا، يا بنى إنه من قنع بما قسم اللّه استغنى و من مدّ عينه إلى ما فى يد غيره مات فقيرا، و من لم يرض بما قسم اللّه عز و جل له اتهم اللّه فى قضائه، و من استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره، و من استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه. يا بنى من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، و من سلّ سيف البغى قتل به، و من احتفر لأخيه بئرا سقط فيها، و من خالط السفهاء حقّر، و من خالط العلماء وقّر، و من دخل مداخل السوءاتهم. يا بنى قل الحق لک و عليک، و إياک و النميمة فإنها تزرع الشحناء فى قلوب الرجال، يا بنى إذا طلبت الجود فعليک بمعادنه «١».

و معلوم أن العصر الذى خضنا فى بحثه هو من أخطر العصور السياسية و أشدها على شيعة أهل بيت النبى و أئمتهم المعصومين عليهم السّلام و قد كانت الوصية بالشكل الذى ارتاه من التدبير للإبقاء على حياة وصيّه و حمايته من ظلم المنصور و حقده.

فتولى الإمام الكاظم أعباء الإمامة و هو يعلم ما عليه المنصور من ظلم و اعتداء، فحرص على أن لا يذاع أمره و لا تنتشر أجوبته و مسائله، فقد كان يقول لمن يجيبه:

«فإذا أذعت فهو الذبح».

و لكن من خلف المنصور كان أعتى و أعدى، و قد رأينا ما ذا كان عليه المهدى، بعد أن أخذ الإمام الكاظم فى المدينة يحتل مكانته و يقوم باستقبال الوفود و الطلاب من كافة الأقطار. ثم جاءت فترة حكم الرشيد، و بدأ وجود الإمام الكاظم يقضّ مضجع الرشيد

---

(١) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٥ و ٩٦.

العباسى، و على عادتهم إذ كانوا يتخذون الحج ذريعة للوصول إلى مواقع الأئمة من أهل البيت، فحج مرة و اجتمع بالإمام الكاظم عند الكعبة، و قال له الرشيد: أنت الذى يبايعک الناس سرّا؟ فقال الإمام عليه السّلام: «أنا إمام القلوب، و أنت إمام الجسوم» «١».

و لا يدع الإمام لهارون الرشيد فرصة يفتخر بها على المسلمين بالانتساب إلى النبى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا يتركه يتمتع و يدلّ بشرف القرابة التى يستعملها لظلمه، فلمّا حج هارون الرشيد مرة، فأتى قبر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم زائرا له، و حوله قريش و أفياء القبائل، و معه الإمام موسى الكاظم، فلما انتهى إلى القبر قال الرشيد: السّلام عليک يا رسول اللّه يا ابن عمى. افتخارا على من حوله، فدنا الإمام موسى بن جعفر فقال: «السّلام عليک يا أبة» فتغيّر وجه هارون و قال: هذا

الفخر يا أبا الحسن حقا «۲». و فى بعض الروايات أن الإمام الكاظم أجابه: «و عليک السّلام يا عبد اللّه» فلم يحتملها الرشيد «۳».

و لمّا قرب الرشيد من المدينة، استقبله الوجوه من أهلها، و تقدمهم الإمام الكاظم على بغلة، فقال له الربيع: ما هذه الدابة التى تلقيت عليها أمير المؤمنين، و أنت إن طلبت عليها لم تدرک، و إن طلبت لم تفت؟ فقال: «إنها تطأطأت عن خيلاء الخيل، و ارتفعت عن ذلّة العير، و خير الأمور أوساطها» «۴».

و لم يكن الإمام الكاظم ليخشى الرشيد فى أمر هو فيه الحكم و إليه المفزع، فهو صاحب السلطة الروحية، و إليه أمر الشريعة، فسأله محمد بن الحسن يوما- بمحضر الرشيد و هو بمكة- فقال: يجوز للمحرم أن يضلل محمله؟ فقال الإمام: «لا يجوز له ذلک مع الاختيار» فقال محمد بن الحسن: أ فيجوز له أن يمشى تحت الضلال؟ فقال له: «نعم» فتضاحک محمد بن الحسن من ذلک. فقال له الإمام عليه السّلام: «أ تعجب من سنّة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تستهزئ به، إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كشف ظلاله فى إحرامه، و مشى تحت الظلال و هو محرم، إن أحكام اللّه لا تقاس، فمن قاس بعضها على بعض فقد ضلّ عن سواء السبيل» فسكت محمد بن الحسن لا يرجع جوابا.

---

(۱) الإتحاف ص ۵۵.

(۲) تاريخ بغداد ج ۱۳ ص ۳۱. و تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزى ص ۲۵۹. و تاريخ ابن كثير ج ۱۰ ص ۱۸۳.

(۳) الإتحاف ص ۵۵.

(۴) روضة الواعظين.

و تبين الأحاديث و الأسئلة التى دارت بين الرشيد و بين الإمام الكاظم طوايا نفس الرشيد، و ما ضمّت جوانحه من غيض على الكاظم لتمتّعه بمنزلة الإمامة و برتبة الولاية الشرعية التى تتقاد لها القلوب، حتى كان لا يملک إخفاء ذلک، و يقول لبنيه فى حق الإمام موسى الكاظم: (هذا إمام الناس، و حجة اللّه على خلقه، و خليفته على عباده.

أنا إمام الجماعة فى الظاهر و الغلبة و القهر، و اللّه إنه لأحق بمقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منّى و من الخلق).

و كان المأمون فى خلافته يقول: كان الرشيد سمع جميع ما يجرى بيننا (بينه و بين أخيه الأمين) من موسى بن جعفر و لذلک قال ما قال «۱». و تصديقا منه لما قاله الإمام الكاظم له من أنه إمام القلوب و الرشيد إمام الجسوم. و يظل الرشيد على ما تقتضيه سلامة الملک و دوام الحكم باحثا عن ألوان من الإساءة فى الألفاظ و التصرف، و ساعيا إلى النيل من المنزلة و الرتبة التى حبا اللّه بهما الإمام الكاظم، فيسأل الرشيد الإمام الكاظم: أخبرنى لم فضّلتم علينا و نحن و أنتم من شجرة واحدة، و بنو

عبد المطلب و نحن و أنتم واحد، إنّا بنو عباس، و أنتم ولد أبى طالب، و هما عمّا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قرابتهما منه سواء؟

فقال الإمام: «نحن أقرب» قال: و كيف ذاک؟ قال الإمام: «لأن عبد اللّه و أبا طالب لأب و أم، و أبوكم العباس ليس هو من أم عبد اللّه و لا من أم أبى طالب».

قال: فلم ادّعيتم أنكم ورثتم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و العمّ يحجب ابن العم، و قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد توفى أبو طالب قبله و العباس عمه حى؟ فقال له: «إن رأى أمير المؤمنين أن يعفينى عن هذه المسألة، يسألنى عن كل باب سواه يريده».

فقال: لا، أ و تجيب.

فقال الإمام: «فأمّنى».

قال الرشيد: أمّنتک قبل الكلام.

فقال الإمام: إن فى قولک على بن أبى طالب عليه السّلام إنه ليس مع ولد الصلب ذكرا كان أو أنثى لأحد سهم إلا الأبوين و الزوج و الزوجة، و لم يثبت للعم مع ولد الصلب ميراث، و لم ينطق به الكتاب العزيز و السنة، إلّا أن تيما و عديا و بنى أمية

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميرى.

قالوا: العم والد. رأيا منهم بلا حقيقة، و لا أثر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و من قال بقول على من العلماء قضاياهم خلاف قضايا هؤلاء. هذا نوح بن دراج يقول فى هذه المسألة بقول على و قد حكم به» إلى أن قال عليه السّلام: «إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: أقضاكم على. و كذلک عمر بن الخطاب قال: على اقضانا. و هو اسم جامع، لأن جميع ما مدح به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أصحابه من القرابة و الفرائض و العلم داخل فى القضاء».

قال الرشيد: زدنى يا موسى.

قال الإمام الكاظم: «المجالس بالأمانات، و خاصة مجلسک».

فقال: لا بأس به.

قال الإمام الكاظم: «إن النبى لم يورّث من لم يهاجر، و لا أثبت له ولاية حتى يهاجر».

فقال: ما حجتک فيه؟

قال الإمام: «قول اللّه تبارک و تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا و إن عمّى العباس لم يهاجر».

فقال له الرشيد: إنى أسألک يا موسى، هل أفتيت بذلک أحدا من أعدائنا أو أخبرت أحدا من الفقهاء فى هذه المسألة بشيء؟

فقال الإمام: «اللهم لا ...» ا ه.

و نحو ذلک ما أثاره الرشيد التماسا للطعن و الإساءة لأن عامل القرابة من الرسول كان من أهم العوامل التى أقام عليها العباسيون صبغتهم الدينية و صفتهم الشرعية، إذ سأل الإمام الكاظم: جوّزتم للعامة و الخاصة أن ينسبوكم إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يقولوا لكم: يا بنى رسول اللّه، و أنتم بنو على. و إنما ينسب المرء إلى أبيه، و فاطمة إنما هى وعاء. و النبى جدّكم من قبل أمكم؟

فقال: «يا أمير المؤمنين. لو أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نشر فخطب إليک كريمتک، هل كنت تجيبه؟».

قال: سبحان اللّه! و لم لا أجيبه، بل افتخر على العرب و العجم و قريش بذلک.

فقال الإمام: «لكنه لا يخطب إلىّ و لا أزوجه».

فقال الرشيد: و لم؟

قال الإمام: «لأنه ولدنى و لم يلدک».

ص: ۴۵۱

فقال: أحسنت يا موسى! ثم قال: كيف قلتم إنّا ذرية النبى و النبى لم يعقب، و إنما العقب الذكر لا الأنثى، و أنتم ولد الابنة، و لا يكون ولدها عقبا له .. الخ حديثه.

فقال الإمام: «أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم بسم اللّه الرحمن الرحيم وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِکَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

فقال: ليس لعيسى أب.

فقال الإمام: «إنما ألحقناه بذرارى الأنبياء عليهم السّلام من طريق مريم عليها السّلام و كذلک ألحقنا بذرارى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل أمّنا فاطمة. أزيدک يا أمير المؤمنين؟».

قال: هات.

فقال الإمام: «أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم فَمَنْ حَاجَّکَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ و لم يدّع أحد أنه أدخله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحت الكساء عند مباهلة النصارى إلّا على بن أبى طالب عليه السّلام و فاطمة و الحسن و الحسين، أبناءنا: الحسن و الحسين، و نساءنا: فاطمة، و أنفسنا: على بن أبى طالب عليه السّلام. على أن العلماء قد أجمعوا على أن جبرئيل قال يوم أحد: «يا محمد إن هذه لهى المواساة من على» قال: «لأنه منى و أنا منه» فقال جبرئيل: «و أنا منكما يا رسول اللّه». ثم قال: لا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى إلا على، فكان كما مدح اللّه عز و جل به خليله عليه السّلام إذ يقول: قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ إنا نفتخر بقول جبرائيل أنه منّا» «١».

و من جميع الروايات، تظهر لنا صورة الرشيد الحاكم الذى يعانى أشدّ المعاناة من الوجود الشخصى للإمام الكاظم، و يحتال بمختلف السبل للنيل منه أو الغضّ من المكانة الروحية التى يعجز هو- بحكمه و جبروته- عن تحقيق أربه و غرضه، و لم يظفر بشىء فى كل تلك المحاولات، فالنفوس تهفو إلى أهل البيت، و لا يزداد محبّوهم إلا منعة و تمسّكا. و الإمام الكاظم احتلّ منصب الإمامة، بالعهد، فكان أهلا لما قدّر له و ما جرى به سابق علم الرب تعالى، فأىّ وجه للمدافعة و المقارنة بين سلطة تقوم بأمر اللّه و هدى الإسلام، و بين حكم يقوم بالقهر و الغلبة. و قد اتفق المخالف و المؤالف على عظيم منزلة الإمام الكاظم. روى الخطيب البغدادى: كان موسى بن جعفر يدعى العبد الصالح من عبادته و اجتهاده. روى أصحابنا أنه دخل مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

---

(١) الاحتجاج للطبرسى ج ٢ ص ١٦٣- ١٦٥. و عيون أخبار الرضا للصدوق. و نور الأبصار للشبلنجىّ.

فسجد سجدة فى أول الليل، و سمع و هو يقول فى سجوده: «عظيم الذنب عندى، فليحسن العفو عندک يا أهل التقوى يا أهل المغفرة» فجعل يرددها حتى أصبح. و كان يبلغه عن الرجل أنه يؤذيه، فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار، و كان يصرّ الصّرر ثلاثمائة دينار و أربعمائة دينار و مائتى دينار، ثم يقسّمها بالمدينة. و كان مثل صرر موسى بن جعفر إذا جاءت الإنسان الصرة فقد استغنى «١».

يقول الشبلخى: كان الإمام موسى الكاظم أعبد أهل زمانه و أعلمهم و أسخاهم كفا، و أكرمهم نفسا، و كان يتفقّد فقراء المدينة، فيحمل إليهم الدراهم و الدنانير إلى بيوتهم ليلا، و كذلک النفقات، و لا يعلمون من أى جهة وصلهم ذلک إلا بعد موته ا ه.

و لم يتمكن الرشيد- بسلطانه الغاشم- من أن يحجب نور الإمام بحبسه الإمام الكاظم، بل كان المكلّفون به لا يملكون إلا تقديسه و تبجيله، و من وراء القضبان كانت أخبار الإمام الكاظم أشدّ تأثيرا على العباسيين. عن عمار بن أبان يروى الخطيب، قال: حبس أبو الحسن موسى بن جعفر عند السندى، فسألته أخته أن تتولى حبسه- و كانت تتدين- ففعل، فكانت تلى خدمته،

فحكى لنا أنها قال: كان إذا صلى العتمة حمد اللّه و مجّده و دعاه، فلم يزل كذلک حتى يزول الليل، فإذا زال، قام يصلى حتى يصلى الصبح، ثم يذكر قليلا حتى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يتهيأ و يستاک و يأكل، ثم يرقد إلى قبل الزوال، ثم يتوضأ و يصلى حتى يصلى العصر، ثم يذكر فى القبلة حتى يصلى المغرب، ثم يصلى ما بين المغرب و العتمة، فكان هذا دأبه. فكانت أخت السندى إذا نظرت إليه قالت: خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل، و كان عبدا صالحا ... ا ه. و تروى له الكرامات و الفضائل فى السجون الأخرى التى كان بها الإمام الكاظم، و قد رويت فى المصادر التى ذكرت سيرته عليه السّلام.

و كان الإمام الكاظم لا ينفكّ فى سجنه يصف الرشيد بالطاغية، و يحذر حاشيته مما ينتظرهم على يديه، و أبى أن يعطى الدنية فى دينه فيقر للظلمة بسلطان أو يوافقهم على ما يريدون، فكان الإمام الكاظم غمّا على الرشيد ينغّص عليه عيشه و ملذاته و لهوه، و قد حيّرت الرشيد الدلائل و المعجزات التى ظهرت للإمام الكاظم، فاستعان يحيى بن خالد البرمكى و قال له: يا أبا على أ ما ترى ما نحن فيه من هذه العجائب، أ لا تدبّر فى أمر هذا الرجل تدبيرا يريحنا من غمه؟ فقال له يحيى: الذى أراه لک يا

---

(١) تاريخ بغداد.

أمير المؤمنين أن تمنن عليه و تصل رحمه، فقد و اللّه أفسد علينا قلوب شيعتنا. فقال هارون: انطلق إليه و أطلق عنه الحديد، و أبلغه عنّى السّلام، و قل له: يقول لک ابن عمک إنه قد سبق منّى فيک يمين أنى لا أخليک حتى تقرّ لى بالإساءة و تسألنى العفو عما سلف منک، و ليس عليک فى إقرارک عار و لا فى مسألتک إياى منقصة. و لما قام يحيى بالمهمة حذّره الإمام الكاظم مما ينتظره و قال له: «انظر إذا سار هذا الطاغية إلى الرقة و عاد إلى العراق لا يراک و لا تراه لنفسک، فإنى رأيت فى نجمک و نجم ولدک و نجمه أنه يأتى عليكم فاحذروه» ثم قال: «أبلغه عنى: يقول لک موسى بن جعفر، رسولى يأتيک الجمعة، فيخبرک بما ترى، و ستعلم غدا إذا حادثتک بين يدى اللّه من الظالم و المعتدى على صاحبه و السّلام» «١».

و بعث إليه الإمام عليه السّلام من الحبس رسالته التى يقول فيها: «إنه لن ينقضى عنى يوم من البلاء إلا انقضى عنک يوم من الرخاء، حتى نقضى جميعا إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون» «٢».

و لقد كان من خوف الرشيد و فزعه من الإمام الكاظم أنه وضع العيون على الإمام الكاظم و هو فى سجنه، فكانوا يرفعون إلى الولاة و البلاط العباسى أحواله فى العبادة و أوضاعه فى الديانة، و كتب بعض العيون التى كانت عليه أنه سمعه عليه السّلام يقول فى دعائه: «اللهم إنک تعلم أنى كنت سألتک أن تفرّغنى لعبادتک، اللهم قد فعلت».

و بالجملة فإن الشيعة قد اتجهت إلى الإمام الكاظم و أخذت الوفود تفد على المدينة من الأقطار المختلفة للانتهال من علم الإمام و الاستفسار عن الأمور التى تهمّها، و تحصيل الإجابات المطلوبة، و قد كان أخبار الأموال التى تحمل إلى الإمام من أكبر الأمور التى جعلت الرشيد فى حال من الضيق و الرعب. و نظر إلى طبيعة العلاقة بين الإمام و بين شيعة أهل البيت نظرته إلى اعتبار الجباية و جمع الأموال أساس الملک، لأنها مصدر الإسراف و البذخ فى قصور العباسيين، و بها قوة الدولة، و حسب

أن إقبال الناس على الإمام الكاظم، و أخبار جوده و سخائه بداية ثورة تقوّض ملكه و عرش آبائه. فكان يرى أن اختلاف الناس إلى إمامهم، و حملهم العبادات المالية المفروضة إلى جهتها الشرعية تمرّد عليه و حركة ضده، سيما و أن الإمام عليه السّلام كان

---

(١) انظر الغيبة للشيخ الطوسى ص ٢٠.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزى. و تاريخ بغداد.

يشعر الرشيد بأن له فى السلطان الذى هو فيه رأى، فإضافة إلى بيانه عليه السّلام للرشيد بأن سلطة الرشيد هى على الجسوم، و أنه إمامها. بمعنى قائدها و سلطان زمانها، تنساق وراءه بحكم القوة و القهر، و أما سلطته عليه السّلام فهى منصوبة على الإيمان بالعقيدة و الاقتداء بهدى الرسالة المحمدية، فقد بيّن له الإمام عليه السّلام أن الدولة التى عليها ملكه و تخضع لحكمه هى بمنزلة ما يخص أهل البيت من الممتلكات، لمّا قال هارون للإمام الكاظم: خذ فدكا. و الإمام يمتنع، فلمّا ألح عليه قال: «ما آخذها إلا بحدودها» قال: و ما حدودها؟ قال: «الحد الأول عدن»، فتغير وجه الرشيد قال:

و الحد الثانى؟ قال: «سمرقند» فاربدّ وجهه، قال: و الحد الثالث؟ قال: «إفريقية».

فاسودّ وجهه، قال: و الحد الرابع؟ قال: «سيف البحر مما يلى الخزر و أرمينية». فقال هارون: فلم يبق لنا شىء فتحول فى مجلسى فقال الإمام: «قد أعلمتک أنى لو حددتها لم تردّها». فعند ذلک عزم الرشيد على قتله «١».

و يعمد الرشيد إلى انتهاک حرمة بيت من بيوت اللّه كان موضع عبادة الإمام موسى الكاظم و محل حلقته، فيأخذه من المسجد، و لما دخل به إليه، قيده فى تلک الساعة. و تدلنا طريقة ترحيله للإمام الكاظم على مدى خوفه من الناس و توقعه أن يثوروا به و لا يتركوا ابن بنت نبيهم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يرسف بقيود الرشيد. و لكى يعمّى أمره على الناس استدعى قبتين. فجعله فى إحداهما على بغل، و جعل القبة الأخرى على بغل آخر، و خرج البغلان من داره عليهما القبتان مستورتان، و مع كل واحدة منهما خيل.

فافترقت الخيل، فمضى بعضها مع إحدى القبتين على طريق البصرة، و الأخرى على طريق الكوفة، و كان الإمام فى القبة التى مضى بها على طريق البصرة، و أمر القوم الذين كانوا مع قبة الإمام بأن يسلّموه إلى عيسى بن جعفر بن المنصور- و كان على البصرة- فحبسه عنده سنة، و تنقّل من حبس عيسى إلى حبس الفضل بن الربيع. فبقى عنده مدة طويلة، فأراده الرشيد على شىء من أمره، فأبى. فكتب إليه بتسليمه إلى الفضل بن يحيى، ثم إلى السندى بن شاهک «٢».

و توفى الإمام فى حبس السندى بن شاهک مسموما سنة ١٨٣ ه و له خمس و خمسون سنة.

(۱) تذكرة الخواص نقلا عن ربيع الأبرار للزمخشرى.

(۲) الإرشاد ص ۲۸۱. و الغيبة ۲۳. و روضة الواعظين ص ۲۲۰. و نور الأبصار ص ۱۵۱. و الإتحاف ص ۵۶.

ص: ۴۵۵

و ذكر الشيخ الطوسى رحمه اللّه رواية محمد بن يعقوب عن شيخ من العامة ممن كان يقبل قوله قال: جمعنا السندى بن شاهک ثمانين رجلا من الوجوه المنسوبين إلى الخير، فأدخلنا على موسى بن جعفر عليه السّلام و قال لنا السندى: يا هؤلاء انظروا إلى هذا الرجل هل حدث به حدث، فإن أمير المؤمنين لم يرد به سوء و إنما ننتظر به أن يقدم ليناظره و هو صحيح موسع عليه فى جميع أموره، فسلوه و ليس لنا همّ إلا النظر إلى الرجل فى فضله و سمته. فقال موسى بن جعفر عليه السّلام «أما ما ذكره من التوسعة و ما أشبهها فهو على ما ذكر، غير إنى أخبركم أيها النفر إنى قد سقيت السمّ فى سبع تمرات، و أنا غدا أحتضر، و بعد غد أموت» فنظرت إلى السندى بن شاهک يضطرب و يرتعد مثل السعفة «۱».

و خلاصة القول أن الإمام موسى بن جعفر كان أكثر أولاد أبيه علما و دينا و زهدا وجودا، أحاطه الإمام الصادق بالرعاية مذ كان فى مهده باعتباره الوصى و الخليفة من بعده، فكان أجلّ ولد أبى عبد اللّه عليه السّلام قدرا، و أعظمهم محلا، و أبعدهم فى الناس حقبا، و لم ير فى زمانه أسخى منه و لا أكرم نفسا و عشرة، و كان أعبد أهل زمانه و أورعهم و أجلّهم و أفقههم، و اجتمع جمهور الشيعة على القول بإمامته و التعظيم لحقه و التسليم لأمره، و رووا عن أبيه عليهما السّلام نصوصا كثيرة عليه بالإمامة، و إشارات إليه بالخلافة، و أخذوا عنه معالم دينهم، و رووا عنه من الآيات و المعجزات ما يقطع بها على حجية و صواب القول بإمامته «۲».

الإسماعيلية

: قدمنا أبرز الوجوه فى سيرة الإمام الكاظم لإظهار مسار الإمامة، و التعرّف على الخصائص و الفضائل التى تقطع القول، و هنا نبدأ بعرض لحياة إسماعيل بن الإمام الصادق، و مسلک الانشقاق عن مسيرة الإمامة.

إن الروايات فى إسماعيل لم تتطابق، و لا نذهب إلى أبعد من القول أن كونه أكبر أولاد الإمام الصادق كان سبب اللبس الذى وقع عند البعض، لأن الإمامة للأسنّ، و نعلم من صفته أنه كان أعرجا، فهو كأخيه عبد اللّه الأفطح، و إن كان أرجح الروايات تصف إسماعيل بحال يختلف عن عبد اللّه، و لكن الإمام الصادق الرجل

(۱) الغيبة.

(۲) الإرشاد.

الذى استطاع أن يقود الأمة فى أخطر فترة و أشد معترک، و أن يفتح آفاق الفكر، و يرسى قواعد الفقه، و يتحاشى مأزق السلطان و السياسة، كان فى بيته الأب الحانى و المربى العالم الذى يظل أولاده بالعطف و يغذيهم بالهداية و النور، و يحبهم و يبرّهم جميعا. و نحن على أن إسماعيل كان على الصلاح و الهداية، و كان يلقى من الإمام الصادق حب الأب و رعاية الإمام، فالتقت صور العطف هذه مع كون إسماعيل أكبر أولاد الإمام الصادق فى تكوين الظن بأنه الإمام من بعد أبيه. و أما ما قيل من البداء فى هذا المورد و بهذا المفهوم فلا أساس له، لأن الإمام الصادق لم يشر إلى إمامة إسماعيل بالرغم من أن الأسئلة التى كانت توجه إليه كثيرة، و ما روى عن الادعاء بالبداء، صادر من المخالفين الذين أباحوا لأنفسهم الكذب و التقوّل على الشيعة و أئمتهم كالجريرية «۱» و البترية «۲» و أصل أقوالهم التى نسبوها إلى الشيعة فى البداء كان فى تحولات الغلاة و بحثهم عن الأفكار التى تنسجم مع جذورهم كجماعات تسعى إلى إظهار ما جاءت عليه أيام الإسلام من عقائدهم، و أطلقوا هذه المقالة فى ظروف أصابهم الفشل فيها بعد أن حاولوا- فى غلوهم و انحرافهم- الانتساب إلى ثورة محمد النفس الزكية «۳» و قد كان المغيرة بن سعيد يدّعى الصلة بمحمد بن عبد اللّه بن الحسن، و يقول أن الإمام على زين العابدين عليه السّلام أوصى إليه، و أن النفس الزكية أذن له فى أمور منها: خنق الناس «۴».

و لما فشلت تلک الثورة و قتل محمد و أخوه إبراهيم، ادّعوا أن الشيعة وضعت البداء، لكى لا يظهر من أئمتهم القول بخلاف ما أخبروا به.

و الثابت الذى لا يرقى إليه الشک هو أمر وفاة إسماعيل فى حياة الإمام الصادق.

ذكر ابن خلدون أنه توفى فى حياة أبيه فى العريض فى المدينة المنورة، و دفن بالبقيع سنة ۱۴۵ ه «۵» و يقول المقريزى: إن إسماعيل توفى سنة ۱۳۸ ه و جعفر والده لا

---

(۱) اتباع سليمان بن جرير من الفرق الزيدية قال بأن الإمامة شورى و أنها تنعقد بعقد رجلين من خيار الأمة، و أجاز إمامة المفضول، و يذكر البغدادى أن بعض أصحاب التواريخ ذكروا أن سليمان بن جرير سم إدريس بن عبد اللّه بن الحسن، و يسميها الشهرستانى السليمانية.

(۲) اتباع الحسن بن صالح بن حى و كثير النواء الأبتر، و هم كالجريرية و قد توقفوا فى عثمان.

(۳) انظر الفرق بين الفرق ص ۱۴۸.

(۴) شرح ابن أبى الحديد ج ۲ ص ۳۰۹.

(۵) تاريخ ابن خلدون ج ۳ ص ۳۶۰.

يزال على قيد الحياة «۱» كما أن تواتر ذكر الإمام الصادق عند وفاة ابنه إسماعيل لما بدا للّه يفيد أن اللّه أظهر بوفاة إسماعيل ما كان فى سابق علمه من جعل الإمامة فى الأشخاص الذين خلقوا لتحمّلها. و اختلاف التواريخ لا يخرج عن فترة بقاء الإمام الصادق على قيد الحياة.

و لما توفى إسماعيل حزن عليه الإمام الصادق حزنا عظيما. و أمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه مرارا كثيرة، و كان يكشف عن وجهه و ينظر إليه يريد بذلک تحقق أمر وفاته عند الظالمين خلافته له من بعده، و إزالة الشبهة لهم فى حياته «۲».

و كان موت إسماعيل- رحمه اللّه- قد أزال الظن و الوهم اللذين وقع فيهما بعض أصحاب الإمام الصادق.

أما الآخرون الذين تصفهم المصادر بالأباعد و الأطراف، و ليسوا من خاصة الإمام الصادق، منهم الذين ادعوا بقاءه حيا و إنه لم يمت، و تلک مقولة الغلاة فى كل زمن، و عقيدتهم التى يقتربون بها من الحلول و التناسخ. فأنكرت موت إسماعيل، و قالوا: كان ذلک على جهة التلبيس من أبيه على الناس لأنه خان، فغيّبه عنهم، و زعموا أن إسماعيل لا يموت حتى يملک الأرض، يقوم بأمر الناس، و أنه هو القائم، لأن أباه أشار إليه بالإمامة بعده و قلّده ذلک «۳». و لو لا هؤلاء الذين ظلوا يتربصون، لما كانت قضية موت إسماعيل تصل إلى هذا الحد من الأهمية، و قد تولى كتّاب الفرق القول بإمامة إسماعيل. لأنه أدنى إلى الإساءة إلى الشيعة، و من طريقه يسهل نسبة كل فرقة إلى الشيعة، و يتحمل الشيعة الاثنا عشرية تبعة هذه الأقوال، و يجرى بين الأمة الإسلامية إطلاقات و مقولات هؤلاء، فتتلقاها بالقبول و الاطمئنان.

يقول المقريزى:

و كانت الشيعة فرقا، فمنهم من كان يذهب إلى أن الإمام من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه، و هؤلاء يعرفون من بين فرق الشيعة بالإسماعيلية من أجل أنهم

---

(۱) اتّعاظ الحنفا.

(۲) التكملة للشيخ عبد النبى الكاظمى ج ۱ ص ۱۹۲ نقلا عن أعلام الورى.

(۳) فرق النوبختى ص ۶۷- ۶۸.

يرون أن الإمام من بعد جعفر ابنه إسماعيل، و أن الإمام بعد إسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكتوم «۱».

و فى الوقت الذى يذكر البغدادى فى الفرق بين الفرق لفظ الزعم لتجنب القطع أو الجزم، يقول الشهرستانى بما عرف عنه من تعصّب و تحامل أن الإمام إسماعيل هو الابن الأكبر للإمام جعفر الصادق، و هو الذى نصّ عليه فى بدء الأمر، و لقد حدث الاختلاف على موته.

و يذهب ابن الجوزى فى المنتظم بعيدا، فيدرج معهم فى هذا المسلك الخرمية و البابكية و المحمّرة، و أن آرائهم و مذاهبهم أخذوا بعضها من المجوس و بعضها من الفلاسفة، و أنهم دخلوا تحت ستار ذكر ظلم السلف الأشراف من آل النبى، و دفعهم عن حقهم، و قتلهم و ما جرى عليهم من الذل، فتناصروا و تكاتفوا، و انتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق.

و ابن الجوزى يقصد بذلک الغلاة الذين سبق ذكر حركتهم فى أكثر من موضع و بحث فى سياق الكتاب، و الذين تصدى الإمام الصادق لحركتهم و تبرّأ منهم، و لما مات عليه السّلام قالوا أن الإمام الصادق حى لم يمت و لا يموت حتى يظهر و يلى أمر الناس، و إنه هو المهدى، و زعموا أنهم رووا عنه أنه قال: إن رأيتم رأسى قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه، فإنى أنا صاحبكم. و إنه قال لهم: إن جاءكم من يخبركم على أنه مرضنى و غسلنى و كفننى فلا تصدقوه فإنى صاحبكم صاحب السيف.

و لا يمكن الجزم بأن الغلاة هم قوم الفرقة الإسماعيلية. لأن أولئک الذين يصفهم العلماء بالأباعد مع أنهم ليسوا من خاصة أصحاب الإمام الصادق و أنهم من الأطراف، يحتمل وجود من أقام على الظن و بقى على الاعتقاد الذى أراد الإمام الصادق إزالته و منعه، فظلت (إسماعيلية) خالصة تدين بإمامة إسماعيل، و منها ما كان بالاتصال بإسماعيل كالمباركية التى تزعّمها مبارک مولى إسماعيل، فزعمت أن الإمام بعد الإمام الصادق هو محمد بن إسماعيل، و قالوا: إن الأمر كان لإسماعيل فى حياة أبيه، فلما توفى قبل أبيه جعل جعفر بن محمد الأمر لمحمد بن إسماعيل، و كان الحق له، و لا يجوز غير ذلک، لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٣۴٨.

و الحسين عليهما السّلام و لا تكون فى الأعقاب، و لم يكن لأخوى إسماعيل عبد اللّه و موسى فى الإمامة حق كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق على على بن الحسين.

و غيرها من المعتقدات و الآراء التى تتصل بنشوئها و اتصالها بعقائد الشيعة إلى أن تنتهى إلى هذه الفترة من الزمن و حدوث الاختلاف بعد وفاة الإمام الصادق، و على ذلک فلا نريد أن نظلم إخواننا من الإسماعيلية الذين آمنوا بعمق و عقيدة بوصاية النبى للإمام على عليه السّلام، و توليهم الأئمة المعصومين، إلى أن كانت الأقوال التى التزموها و ابتعدوا بها عن منهاج الشيعة.

و أن الفاطميين على لسان قاضيهم النعمان تبرءوا من الغلاة، و التزموا موقف الشيعة، و أنكروا أقوال أبى الخطّاب. قال القاضى النعمان: (ثم كان أبو الخطاب فى عصر جعفر بن محمد من أجلّ دعاته (!) فأصابه ما أصاب المغيرة. فكفر و ادعى أيضا النبوة.

و زعم أن جعفر بن محمد إله، تعالى اللّه عن قوله، و استحل المحارم كلها، و رخّص فيها، و كان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة. أتوه و قالوا: يا أبا الخطاب، خفف علينا فيأمرهم بتركها، حتى تركوا جميع الفرائض و استحلّوا جميع المحارم و ارتكبوا المحظورات، و أباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور. و قال: من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه، فبلغ أمره جعفر بن محمد (...)

فلم يقدر عليه بأكثر من أن لعنه و تبرّأ منه، و جمع أصحابه و عرّفهم ذلک و كتب إلى البلدان بالبراءة منه و باللعنة عليه، و عظم ذلک على أبى عبد اللّه جعفر بن محمد (...) و استفظعه و استهاله) «١». و يبدو أن القاضى المغربى يجهل تفاصيل ما قام به الإمام الصادق من جهد فى دحض و فضح أفكار الغلاة حتى كان لا ينام الليل، و إن كان قوله فيما قدر عليه الإمام الصادق يحتمل إرادة ما يقوم به الحكام من المحاربة بالسيف كعيسى بن موسى العباسى عامل الكوفة، و إذا كان غير ذلک فلا وجه لقوله.

و مهما يكن من أمر فرقة الإسماعيلية و الاختلاف فى إسماعيل، فإن التاريخ يجهل جهلا يكاد يكون تاما كيفية بدء الدعوة لإمامة إسماعيل، فلا يعرف أول من دعى لإمامته، كما لا يمكن تحديد عوامل تأخير ظهورها إلى الوجود، فالتاريخ لم يعرف شيئا اسمه الفرقة الإسماعيلية حتى أواخر القرن الثالث الهجرى، و هو بدء ظهور

---

(١) دعائم الإسلام ج ١ ص ٦٣ (الهفت- غالب).

حركتهم، و إذا كان ذلک دور الستر فى معتقدات الإسماعيلية. فإن أقوال الإسماعيلية عن هذا الدور هى الأقوال الوحيدة التى تظهر أسباب التستر و الاختفاء متعلقة بالدعوة و قيامها على الشكل الذى يدعون إليه، و هم دائما يتحدثون عن تاريخ أئمتهم فى هذه الفترة بشيء من عدم التطابق فى العدد و الوقائع.

و لكن الثابت أنه بعد وفاة الإمام الصادق عليه السّلام انتقل فريق منهم إلى القول بإمامة موسى بن جعفر عليه السّلام بعد أبيه عليه السّلام و افترق الباقون فريقين، فريق منهم رجعوا عن حياة إسماعيل و قالوا بإمامة محمد بن إسماعيل لظنهم أن الإمامة كانت فى أبيه و أن الابن أحق بمقام الإمامة من الأخ. و فريق ثبتوا على حياة إسماعيل. و يقول الشيخ المفيد- رحمه اللّه- المتوفى سنة ۴۱۳: (و هم اليوم شذّاذ لا يعرف منهم أحد يومى إليه، و هذان الفريقان يسميان بالإسماعيلية، و المعروف منهم الآن من يزعم أن الإمامة بعد إسماعيل فى ولده و ولد ولده إلى آخر الزمان). ا ه.

و قد أعقب إسماعيل محمدا و عليا. و نحن بإزاء الاثنين نلمس فى سيرتهما تلک الآثار النفسية التى تحدث فى الأبناء انحيازا للأب فى مجال الأسرة الواحدة كأى بشر ينقاد إلى العواطف و ينجر إلى الأهواء، و هذه الآثار لا علاقة لها بالتهيؤ للإمامة، فليس هناک ما يثبت أن محمدا قد تطلع على عهد جده الإمام الصادق إلى شيء من الإمامة أو أنه أعدّ لها نفسه، إذ يفترض حسب الادعاء أن يكون من نصب بعد وفاة إسماعيل و فى حياة الإمام الصادق عالما بما نصب له.

و السيد ابن عنبة فى العمدة يذكر قول شيخ الشرف العبيدلى: هو- إسماعيل- إمام الميمونية و قبره ببغداد. و قول ابن خداع: كان الإمام موسى الكاظم عليه السّلام يخاف ابن أخيه محمد بن إسماعيل و يبرّه، و هو لا يترک السعى به إلى السلطان من بنى العباس. كما ينقل السيد ابن عنبة قول أبو نصر البخارى: كان محمد بن إسماعيل بن الصادق عليه السّلام مع عمه موسى الكاظم عليه السّلام يكتب بالسرّ إلى شيعته فى الآفاق، فلما ورد الرشيد الحجاز، سعى محمد بن إسماعيل بعمه إلى الرشيد فقال: أ علمت أن فى الأرض خليفتين يجبى إليهما الخراج؟ فقال الرشيد: ويلک أنا و من؟ قال: موسى بن جعفر. و أظهر أسراره، فقبض الرشيد على موسى الكاظم عليه السّلام و حبسه و كان سبب هلاكه، و حظى محمد بن إسماعيل عند الرشيد، و خرج معه إلى العراق و مات ببغداد، و دعا عليه موسى بن جعفر عليه السّلام بدعاء

استجابه اللّه تعالى فيه و فى أولاده، و لمّا ليم موسى بن جعفر عليه السّلام فى صلة محمد بن إسماعيل و الاتصال مع سعيه به قال: «إنى حدثنى أبى عن جده عن أبيه عن جده عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الرحم إذا قطعت فوصلت، ثم قطعت فوصلت، ثم قطعت فوصلت، ثم قطعت قطعها اللّه تعالى، و إنما أردت أن يقطع اللّه رحمه من رحمى» «۱».

أما على بن إسماعيل فقد وردت الرواية به بهذا الخصوص، و هى المرجحة، لأن أبطالها البرامكة، و لكن ظهور اسم محمد فى تاريخ الفرقة الإسماعيلية على اسم أخيه على يعطى الأولى أهمية، و دور على بن إسماعيل مهم أيضا لعلاقته بالبرامكة الذين أخفوا مجوسيتهم، و كانوا مدار سياسة العداء للعلويين فى زمنهم، حتى انتقم اللّه من ظلمهم لآل بيت النبى الأطهار على يد ظالم آخر. و الرواية عن النوفلى عن أبيه عن مشايخهم قالوا: إن السبب فى أخذ موسى بن جعفر عليه السّلام أن الرشيد جعل ابنه فى حجر جعفر بن محمد بن الأشعث، فحسده يحيى بن خالد بن برمک على ذلک و قال: إن أفضت إليه الخلافة زالت دولتى و دولة ولدى. فاحتال على جعفر بن محمد- و كان يقول بالإمامة- حتى داخله و أنس به، فكان يكثر غشيانه فى منزله، فيقف على أمره و يرفعه إلى الرشيد، و يزيد عليه فى ذلک بما يقدح فى قلبه. ثم قال لبعض ثقاته أ تعرفون لى رجلا من آل أبى طالب ليس بواسع الحال يعرّفنى ما احتاج إليه؟ فدلّ على على بن إسماعيل بن جعفر بن محمد، فحمل إليه يحيى بن خالد مالا، و كان موسى عليه السّلام يأنس بعلى بن إسماعيل و يصله و يبرّه، ثم أنفذ إليه يحيى بن خالد يرغّبه قصد الرشيد و يعده بالإحسان إليه، فعمل على ذلک، فأحسّ به موسى عليه السّلام فدعا به و قال له: «إلى أين يا ابن أخى؟» قال: إلى بغداد. قال الإمام: «و ما تصنع؟» قال: علىّ دين و أنا مملق. فقال له الإمام موسى الكاظم عليه السّلام: «أنا أقضى دينک و أفعل لک و أصنع». فلم يلتفت إلى ذلک، و عمل على الخروج. فاستدعاه أبو الحسن عليه السّلام و قال له: «أ أنت خارج؟» قال: نعم، لا بد لى من ذلک. فقال له:

«انظر يا ابن أخى و اتق اللّه و لا توتم أطفالى» و أمر له بثلاثمائة دينار و أربعة آلاف درهم، فلما قام من بين يديه قال لمن حضره: «و اللّه ليسعينّ فى دمى و يويتمنّ أولادى» فقالوا:

جعلنا فداک، أو أنت تعلم هذا من حاله و تعطيه و تصله؟ قال: «نعم، حدثنى أبى عن

(۱) عمدة الطالب ص ۲۳۳- ۲۳۴.

آبائه عن رسول اللّه ...» الحديث ... فخرج على بن إسماعيل حتى أتى يحيى بن خالد فعرف من خبر الإمام موسى بن جعفر، فرفعه إلى الرشيد، و سأله الرشيد عن عمه فسعى به إليه و قال له: إن الأموال تحمل إليه من المشرق و المغرب، و إنه اشترى ضيعة سمّاها البشيرة بثلاثين ألف دينار ... ثم خرج يحيى بن خالد على البريد حتى وافى بغداد، ثم دعا السندى بن شاهک فأمره فى موسى بن جعفر بأمره فامتثله، و كان الذى تولى به السندى بن شاهک وضع له سما فى طعام قدّم إليه. و يقال أنه جعله فى رطب، فأكل منه موسى، و أحس بالسم، و لبث بعده ثلاثا موعوكا، ثم مات فى اليوم الثالث ... و أخرج و وضع على الجسر، فأمر يحيى بن خالد أن ينادى عليه عند موته:

هذا موسى بن جعفر الذى تزعم الرافضة أنه لا يموت فانظروا إليه «۱».

و الإسماعيليون يعدّون البرامكة إسماعيلية على مذهبهم، و كذلک زبيدة زوجة الرشيد هى الأخرى إسماعيلية، و ينفون عنها تدبير قتل البرامكة «۲».

يقول النوبختى: فأما (الإسماعيلية) فهم «الخطّابية» أصحاب (أبى الخطاب محمد بن أبى زينب الأسدى الأجدع) و قد دخلت منهم فى فرقة محمد بن إسماعيل، و أقرّوا بموت إسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه، و هم الذين خرجوا فى حياة أبى عبد اللّه جعفر بن محمد عليه السّلام.

و كانت الخطّابية بعد براءة الإمام الصادق عليه السّلام منهم و لعنهم و الوقوف بوجه إلحادهم و زندقتهم، قد تفرقوا فصاروا أربع فرق، و كان أبو الخطّاب يدّعى أن الإمام الصادق جعله قيّمه و وصيّه من بعده، و علّمه اسم اللّه الأعظم، ثم ترقّى إلى أن ادّعى النبوة، ثم ادّعى الرسالة. ثم ادعى أنه من الملائكة، و أنه رسول اللّه إلى أهل الأرض و الحجة عليهم. ففرقة منهم قالت: إن أبا عبد اللّه جعفر بن محمد هو اللّه جلّ و عزّ، و تعالى اللّه عن ذلک علوا كبيرا. و أن أبا الخطاب نبى مرسل أرسله جعفر، و أمر بطاعته، و أحلّوا المحارم من الزنا و السرقة و شرب الخمر، و تركوا الزكاة و الصلاة و الصيام و الحج. و أباحوا الشهوات بعضهم لبعض و قالوا: من سأله أخوه ليشهد على

(۱) الإرشاد ۲۷۹- ۲۸۰. و الغيبة ۲۱. و روضة الواعظين ص ۲۱۸. و مقاتل الطالبيين ص ۵۰۱- ۵۰۲. و كشف الغمة فى معرفة الأئمة للإربلى ص ۲۴۷.

(۲) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ۱۴۵.

مخالفيه فليصدّقه و يشهد له، فإن ذلک فرض عليه واجب. و جعلوا الفرائض رجالا سمّوهم، و الفواحش و المعاصى رجالا و تأوّلوا قول اللّه عز و جل: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ. و قالوا: خفف عنّا بأبى الخطّاب، و وضع عنّا الأغلال و الآصار، يعنون الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج، فمن عرف الرسول النبى الإمام، فليصنع ما أحب. و فرقة قالت بزيّع نبى رسول مثل أبى الخطاب، أرسله جعفر بن محمد، و شهد بزيع لأبى الخطّاب بالرسالة، و برىء أبو الخطاب و أصحابه من بزيع. و فرقة قالت: السّرى رسول مثل أبى الخطاب، أرسله جعفر و قال: إنه قوى أمين، و هو موسى القوى الأمين، و فيه تلک الروح، و جعفر هو الإسلام، و الإسلام هو السّلام و هو اللّه عز و جل، و نحن بنو الإسلام كما قالت اليهود: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ. و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سلمان ابن الإسلام. فدعوا إلى نبوّة السرى و رسالته، و صلّوا و صاموا و حجّوا لجعفر بن محمد، و لبّوا له فقالوا: لبيک يا جعفر لبيک.

و فرقة قالت: جعفر بن محمد هو اللّه عز و جل، و تعالى عن ذلک علوا كبيرا، و إنما هو نور يدخل فى أبدان الأوصياء فيحل فيها، فكان ذلک النور فى جعفر، ثم خرج منه فدخل فى أبى الخطّاب، فصار جعفر من الملائكة، ثم خرج من أبى الخطّاب فدخل فى معمر «۱».

و جميع ما نجم عن حركة الغلاة و انتسب إلى أبى الخطّاب لا يخلو من الادعاء بالربوبية و النبوة، و أغلبها تقول ببقاء الأموات، و الزعم أن معبودهم لا يموت، فالمعمرية عبدوا أبا الخطّاب كما عبدوا معمرا هذا، و قد كان رجلا يبيع الحنطة، و زعموا أن الدنيا لا تفنى، و أن الجنة هى ما يصيب الناس من العافية و الخير، و أن النار ما تصيب الناس من خلاف ذلک. و قالوا بالتناسخ، و أنهم لا يموتون و لكن ترفع أرواحهم إلى السماء و توضع فى أجساد غير تلک الأجساد، و استحلّوا الخمر و الزنا و سائر المحرمات، و دانوا بترک الصلاة «۲».

و لا شک أن حركة الغلاة هى حركة سياسية إضافة إلى كونها حركة دينية ضمّت بقايا العقائد و الأديان التى محق الإسلام وجودها، و اجتثت جذورها، و لما ظهرت

---

(۱) انظر فرق النوبختى ۴۲- ۴۴.

(۲) الحور العين لابن نشوان ص ۱۶۷.

بوادرها كان ظهورها فى ضلال الحكّام و حواشى عظمتهم. و استطاع الظلمة و المتجبرون أن يجعلوها سلاحا فتاكا فى حملتهم ضد أهل البيت و شيعتهم، فأسهموا فى نشاط تلک الفرق، و سهّلوا لهم التظاهر و الادعاء بحب أهل البيت، و قد عالج الأئمة الأطهار عليهم أفضل الصلاة و السّلام مشكلة تسلل الغلاة و دخولهم فى صفوف المسلمين، فكان الإمام الصادق يلعن أبا الخطّاب و أصحابه و جميع الدعاة إلى الألحاد و الغلو، و يفضح أصولها و مصادرها، و من أقواله عليه السّلام: «إنّا أهل بيت

صادقون لا نعدم من كذّاب يكذب علينا عند الناس، يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا». ثم ذكر المغيرة و بزيع و السرى و أبا الخطّاب و معمّر و بشّار الشعيرى و حمزة اليزدى و صائد النهدى فقال: «لعنهم اللّه أجمع، و كفانا مئونة كل كذاب».

و قال عليه السّلام: «إن قوما يزعمون أنى لهم إمام، و اللّه ما أنا لهم بإمام، مالهم لعنهم اللّه، أقول كذا و يقولون كذا. إنما أنا إمام من أطاعنى. و من قال بأننا أنبياء، فعليه لعنة اللّه. و من شک فى ذلک فعليه لعنة اللّه» «١».

و إذا كان الفاطميون قد أملوا على قاضيهم أن يثبت البراءة من أبى الخطّاب لتنزيه معتقداتهم، فإن بقية الإسماعيلية لم يوافقوهم على ذلک، كما لم يوافقوهم على أعمالهم الأخرى كمحاربتهم القرامطة و التصدّى لجرائمهم، و قد ألمحنا إلى أن التاريخ الإسماعيلى يظهر عليه الاضطراب و عدم الانسجام، لأن هناک فراغا و ثغرات ظلت ظاهرة لم تنفع فى ملئها المحاولات الكثيرة، و قد أدى ذلک إلى أقوال غير واقعية، و آراء لا نصيب لها من الصحة، كالقول بأن بذور حركة الإسماعيلية قد بذرت فى عهد جعفر بن محمد. يقول عارف تامر- و هو من الإسماعيلية-: و لا يوجد هناک من يستطيع إنكار هذه الحقيقة، و قد كانت هذه الدعوة سرّية، و كان يعمل لها فى الخفاء إسماعيل بحياة أبيه، يعاونه الداعية الكبير أبو الخطاب، و جاء بعد إسماعيل ولده محمد، و كان على جانب كبير من العبقرية و الثقافة راجح الفكر ثاقب النظر «٢».

و هذا تحكم واضح، و قول يبعد عن الواقع، و لا أساس له من الصحة، و لكنه يعتقد كبقية الإسماعيلية أن محمد بن إسماعيل خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوبا بأخيه و جماعة حركته، و استتر، فبنوا تاريخا لمحمد بن إسماعيل على مقتضى التنظيم

---

(١) انظر بحث: الغلاة، المجلد الأول، الجزء الأول من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

(٢) مقدمة كتاب عبقرية الفاطميين لمحمد حسين الأعظمى ص ١۴.

السرى و الحركة الباطنية، و أنكروا ما تذكره المصادر و تثبته الحقائق من التحاق محمد بركب العباسيين و تحكم المنفعة و الرغبة فى الدنيا حتى حملتاه إلى الموت فى بغداد.

و يحدد الأستاذ تامر عام ١٢٨ ه تاريخا لنشأة الإسماعيلية كدعوة دينية (من قبل الفقيه المتشرّع الإمام جعفر الصادق) ثم يقول إنها بدأت تتحول إلى حركة سياسية عام ٢٥٩ ه.

و لا نريد الخوض فى مناقشة مثل هذه الآراء لأنها تكشف عن نفسها، و لا نرغب بالإطالة فى بحث الإسماعيلية و الإمامة، فالمصادر الإسماعيلية التى يستقى منها الكتّاب المعاصرون- تامر و غيره- تشير إلى مثل هذا الادعاء، و قد قلنا آنفا أن الحركة الإسماعيلية اختارت الوقائع و المعتقدات المهمة فى تاريخ الشيعة، و ساقت انفصالها و انشقاقها عن المذهب الجعفرى فى صياغه مشابهة، فاختارت مبدأ التقية لدى الشيعة ليكون ذريعة للقول بالتنظيم السرى الباطنى القائم على الرموز و المعانى التى

لا صلة لها باللغة أو مبادئ التفسير. فالتقية عند الشيعة عمل بقوله تعالى: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً.

و قد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام يوصى بالتقية و يأمر بها، و ليس ذلک منه إقرارا، فقد علم تشدّده فى الحق، و عدم خشيته أحدا غير اللّه، لكنه أمر بها لأنها من الأمور التى يحكم بها العقل و السمع. أما من حيث العقل فالأولى أن يجنّب الإنسان نفسه شرور من يستطيع أن يناله بشرّ إما بسلطة أو قوة أو ظرف، فيتّقى شرّه و يحفظ حياته. و أما من حيث السمع. فإن قصة أصحاب الكهف و فرارهم بدينهم: إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ و وقائع دعوة موسى: اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها و غيرها من الأحداث الكثيرة كافية لإظهار أن التقية- أو مبدأ تجنب المخاطر و حفظ الوجود- من أوامر الشرائع، و قد قال اللّه عز و جل لنبيه الكريم: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ثم تأتى الآية التى تنص على التقية فى العلاقة مع المشركين أو السماع ببعض الأعمال: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ و ما نزل فى حق عمّار بن ياسر: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ و على ذلک رأينا كيف كان توجيه الإمام الصادق عليه السّلام لأصحابه و التزام التقية. و نرى كيف يخاطب الأئمة عليهم السّلام

الظلمة و العتاة بإمرة المؤمنين للإبقاء على حياتهم و كفّ شرور الحكّام الطغاة عن شيعتهم، و كل الأعمال المعهودة فى تطبيق التقية لا تحتمل أكثر من مقاصدها التى أذن بها الشرع، فإن الأئمة عليهم السّلام كانت مناهج سيرهم واضحة، و أقوالهم فى معاهدهم و بيوتاتهم معروفة. و ما يصدر عنهم فى مقابلة الملوک و سلاطين الزمان بالقدر الذى يوجبه الشرع لحفظ النفس، و كذلک رجال الشيعة و قادتها عملوا بأوامر الشرع و طبقوا توجيهات أئمتهم فى حال الاضطرار. و إلى هنا ينتهى أمر التقية، أى عند الحدود التى تكفل إبعاد الخطر و دفع الشر، فليس من تقية الشيعة التخفّى، و النظام القائم على السرّية و الرموز و الأرقام و الإشارات التى تخص أقواما خلت و مذاهب سالفة.

و قد استغل الإسماعيليون مذهب التقية فى سبيل أغراضهم و مصالحهم فكانوا سنيين مع أهل السنة و (شيعيين) مع الشيعة و مسيحيين مع المسيحية «۱».

كذلک أدّعى الإسماعيلية التدبير الذى رآه الإمام الصادق لحفظ حياة وصيه و خليفته الإمام موسى الكاظم و قالوا: إن قصة وفاة إسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه كانت قصة أراد بها الإمام جعفر الصادق التمويه و التغطية على الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور الذى كان يطارد الشيعة فى كل مكان، فخاف جعفر الصادق على ابنه و خليفته إسماعيل، فادّعى موته «۲». و قالوا إن موسى الكاظم لم يجعله الصادق إماما إلا سترا على ولى الأمر (محمد بن إسماعيل) ليكتم أمره على الأضداد، و لئلا يطلع ما خصّ به أهل العداوة و العناد حتى يستطيع الإمام المستقر الحقيقى النهوض بأعباء الدعوة سرا «۳». و لا تتفق الإسماعيلية على موت إسماعيل فى حياة أبيه، فمنهم من يرى ذلک، و منهم من ينكر موته، و أنه بقى حيّا و شوهد فى البصرة. و مهما يكن من قول فإنهم أقنعوا أنفسهم بالادعاء بالنص، و جعلوه مادة لبحوثهم و أفكارهم و قالوا:

و لما وجدناه قد نصّ عليه، كان منه العلم بأنه غير منقطع النسل و العقب، و إذا كان غير منقطع النسل و العقب فالإمامة له و لنسله ثابتة، و إن كان (ع. م) لم ينص على أحد بعد نصه على إسماعيل (ع. م) فالإمامة لإسماعيل، فإذا ثبتت إمامة إسماعيل ثبت

---

(١) عبقرية الفاطميين ص ١٨.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ١٦.

(٣) زهر المعانى للداعى إدريس ص (٤٨- ٤٩)- غالب- أعلام الإسماعيلية.

نسله. إذا لا يستحق الإمامة من لا يكون له عقب بكونها محفوظة فى العقب، و إذا ثبت نسله فالإمامة لنسله ثابتة «١».

و يدّعون: بما أن إسماعيل هو صاحب الحق الشرعى فى الإمامة بعد أن نص أبوه على ذلک، فلا بد إذن أن تتسلسل الإمامة فى ابنه محمد بن إسماعيل. هذا من ناحية، و من ناحية ثانية كان محمد بن إسماعيل أكبر سنا من عمه موسى الكاظم ا ه.

فإذا عدنا إلى تاريخ ولادة إسماعيل نجد أن ولادته كانت سنة ١٣٢ ه فيما كان الإمام موسى الكاظم عليه السّلام قد ولد سنة ١٢٨ ه. أما وجوه المقارنة الأخرى فهى واضحة و لا تحتاج إلى جهد فى الردّ و النقاش، لأنها لا تثبت أمام الحجج، فليس هناک من نص على إسماعيل بالمرة. كما أنه لم يجمع مؤهلات الخلافة، و لم يصلح لها بعد أبيه، و لكن الإسماعيلية ادّعوا ذلک، و أيدوا دعواهم بما لا يصلح للتأييد ورد الاعتراض و أن وفاة إسماعيل فى حياة أبيه و ما ذهبوا إليه من التمويه من قبل الإمام الصادق إنما هو من صنائع الغلو، و القصة خيالية وضعها المغالون فى هذا المبدأ من مؤرخى و كتّاب الإسماعيلية الذين يكثرون من أمثال هذه القصص فى كتاباتهم ليضفوا على الأئمة الإسماعيلية مناقب و فضائل لا يقرّها عقل «٢».

و إن الخوض فى غمار البحث عن الطائفة الإسماعيلية و نشأتها و مقومات دعوتها أمر يخرجنا عن الغرض الذى من أجله تعرّضنا لذكر أولاد الإمام الصادق عليه السّلام و لكننا رأينا أنفسنا ملزمين بهذه الدراسة إلى التعرّض لبعض ما يتعلق بتاريخ هذه الفرقة فى إطار ادعائها بالإمامة و معتقداتها. و سنقتصر على الجوانب الأساسية فيما يلى من البحث.

إن الوقائع التاريخية لا يضيرها الادعاء و لا تؤثر عليها فى جوهرها محاولات التغيير و التحريف، فإذا ما خيل للمتسلّطين أن كثرة اللغط بما أرادوه و زيادة الترديد لما افتعلوه قد حسم ما كان يهددهم و قطع ما كان يقضّ مضاجعهم، فليس ذلک من الحقيقة فى شىء. و أنا أذكر ذلک، و قصدى ما تجنّى الحكام الجائرون به من أقوال و دسائس و مؤامرات على الأئمة الأطهار من آل البيت رضوان اللّه عليهم، و ما كان

(۱) المصابیح فی إثبات الإقامة لأحمد حمید الدین الکرمانی ص ۱۳۰.

(۲) الطائفة الإسماعیلیة، الدکتور محمد حسن کامل ص ۳.

لأصحاب العروش من زبانیة و أذناب سایروهم علی الکذب و أقرّوهم علی الظلم، و لکن تاریخ و حقائق الأئمة الأطهار و شیعتهم بقی جلیا ناصعا برغم کل نتائج الملوک الفسّاق و الظالمین، و قد شمّر رجال الشیعة عن ساعد الجدّ، و بذلوا أقصی الجهود منذ مئات السنین لإظهار تلک الحقائق، فما کان الإمام علی إلا وصیّا، و أول القوم إسلاما و أقدمهم إیمانا، و هکذا کل وصی من ذریته، حتی إمامنا و مولانا الصادق علیه السّلام.

فلم یکن إلا صاحب الإمامة و الخلافة الکبری الذی تنطق بفضائله الآثار، و تصرخ بمکانته الحقائق، و الذی واجه ظروفا شائکة و أوضاعا صعبة تجلّت عنایة الرب و تسدیده فیما ألهمه اللّه من حکمة استطاع بها أن یحمی نفسه و یحفظ وجود شیعته.

و هکذا إذا تسلسلنا فی البحث حتی غیبة الإمام الثانی عشر حجة اللّه القائم بأمره صاحب الزمان المهدی عجل اللّه فرجه.

و قد حملنی علی هذا التلمیح دواعی الاستجابة لروح الإخاء و المودة التی أراها عند الکثیر من الأخوة الإسماعیلیة، فآثرت أن المح بمجمل الإمارات الهامة فی تاریخ الشیعة لأدخل منها إلی القول بأن الأخوة الإسماعیلیة لم ینتبهوا إلی أصل و سبب الاختلاف و الاضطراب الذی یحیط بالأحداث الأساسیة التی تتعلق بتاریخهم. و ذلک من حیث المواقع التی تجری علیها، و الأشخاص و التفاصیل، و من الطبیعی حدوث ذلک لأنها محاولات تبنی عبر عصور متلاحقة، و أقوال تنشأ فی أزمان متعددة، و الأصل أو الحقیقة تأباها.

و مع هذا النظام السری و القول الباطنی، ارتکب الإسماعیلیون خطأهم بأن أباحوا للمستشرقین التلاعب فی آثارهم، و اعتمدوا علیهم فی التحقیق و الإخراج، بحیث تجدهم یرون فی أحکام المستشرقین علی الآثار و النصوص الصحة و لا یتطرّق إلیهم الشک، و ما من مستشرق- إلا ما کان أندر من الکبریت الأحمر- إلا و اتصل بسبب، و التقی بغایة مع حرکة الاستشراق الاستعماریة الخبیثة، بل أقرّ الإسماعیلیة لهم بالفضل حتی قالوا: و بفضل تلک الدراسات التاریخیة الهامة التی قامت بها فئة من المستشرقین (الثقات) الضلیعین فی علوم الإسماعیلیة، و علی رأسهم أو بالأحری فی مقدمتهم العلامة و المستشرق الروسی الکبیر البروفسور (ایفانوف) و البرفسور ماسینیون ...

و الدکتور شتر و طحان و سبوکوربان ... و المستشرق الإنکلیزی برنارد لویس «۱».

(۱) تاریخ الدعوة الإسماعیلیة ص ۲۲.

و الغريب أن البعض منهم يرى فى تأييد المستشرقين لآرائه حجة، كما فعل عارف تامر و هو يقول: قلت فى أكثر من مكان بأنى لا أفرّق بين الحركات الثلاث:

الإسماعيلية و القرمطية و الفاطمية، فكلها باعتقادى حركة واحدة نبعت من نبع واحد و انحدرت من أصل واحد، و قد يكون دى ساسى و دوزى و هامر و كاترمير و غويارد و بلوشه و دى خويه متّفقين معى بالرأى «۱».

و فى الوقت الذى يعانى الشيعة من افتراءات المستشرقين و نتائج حملة الاستشراق اللعينة، و أخذهم بالأقوال التى تجافى الحقيقة، و يعمل كتّابهم و باحثوهم و مؤرخوهم على فضح حملة الاستشراق و من انتسب إليها من الكتّاب العرب، يفسح الإسماعيلية الباب لهؤلاء، و كأن الغرض الإسهام فى الإساءة إلى الشيعة و نشر دوائر الخلط بين مذهب الشيعة و الفرق الأخرى التى يعزى إلى الشيعة معتقداتها، فيزداد تراكم الأخطاء، و يظفر الأعداء باعتراف و إقرار بما يقوله المستشرقون، و نحن- بكل جهد و منذ عشرات السنين- لا نهدأ عن مواجهة المستشرقين و تلاميذهم فى البلاد الإسلامية، و لم نحقق من النتائج إلا اليسير إذا ما نظرنا إلى أصقاع العالم التى تأخذ بأقوال المستشرقين و تلتفت إلى آراء المتعصّبين الذين نحروا الإخاء و ضحّوا بالروابط.

فبرنارد لويس- على سبيل المثال لا الحصر- لا نتوقع منه أن يفهم التقيّة كما هى عند الشيعة لأمرين: الأول: بعده عن الإسلام. و الثانى:: تأثره بنصوص مؤرخى الحكّام و الملوك، و اعتباره أن كل ما يطلق عليهم شيعة هم متّفقون على هذه الآراء، فهو يقدم ملاحظات و آراء تشعر بالتمييز فى مواضع، لكنه فى قضية التقيّة أبعد ما يكون عن الصواب و الإدراك «۲».

و هكذا شأنه فى بقية القضايا التاريخية فاسمع لقوله: (فلما توفى الإمام جعفر الصادق سنة ۷۶۵ م انقسم أتباعه إلى فريقين حول أحد ابنيه، موسى و جعفر، و أيد حقه فى الخلافة، و اعترف أتباع الأول بالأئمة من نسله حتى الإمام الثانى عشر بعد على بن أبى طالب عليه السّلام) تجد خطأه فى الشخصيات الناجم عن خطئه فى فهم التاريخ الإسلامى «۳».

---

(۱) القرامطة ص ۸۴- ۸۵.

(۲) انظر الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) لبرنارد لويس ص ۳۹.

(۳) انظر: (برنارد لويس): العرب فى التاريخ ص ۱۵۰.

فإذا أعدنا النظر إلى الظروف التى نشأت فيها حركات الغلو و التى بحثنا عواملها و كونها من المؤامرات على الشيعة، نجد برنارد لويس يتبنّى الرأى الذى حاوله الحكام و قاموا بترويجه بظهور الفرق و أنصاف الفرق بين جماعات كانت مذاهبهم متعددة و مزيجة، و أن النصف الأول من القرن الثامن كان فترة نشاط هائل بين الشيعة المتطرفين. و يقول: و كان التحول من طائفة أو

رئيس إلى آخر سهلا و متكررا. و تسمى المصادر الإسلامية الكثير من المبشرين الدينيين الذين كان بعضهم أشخاصا من أصل وضيع قادوا ثورات و وصفوا للسيف، و تعزى لبعضهم عقائد أصبحت فيما بعد خاصة بالإسماعيلية «۱».

و يشير إلى العراق لذات الغرض الذى توخّاه الطاعنون على الشيعة، و لكنّا نجده متفهّما لظروف الدعوة الإسماعيلية و معتقداتهم فيقول: و يمكن وصف الفترة الواقعة بين القرن الثامن الميلادى و أوائل القرن التاسع بأنها فترة استعداد، نظم خلالها إسماعيل و ابنه محمد و عدد من الأتباع المخلصين بناء هذه الفرقة و الدعوة لها، و تختلف تعاليمهم اختلافا بيّنا عن تعاليم السنّة، كما أنها تضمّ كثيرا من الأفكار الأفلاطونية الحديثة و الهندية، و قد تمكنوا من إدخال هذه الأفكار بقولهم بمبدإ التفسير الباطنى الذى يجعل لكل آية معنيين: أحدهما ظاهر و حرفى، و الآخر باطن لا يقف عليه إلا أهل العلم. و كانت التعاليم السرّية لهذه الفرقة تنشر على مراتب من التنشئة (....) لا يرقى إلى أعلى مراتبها إلا من يتمّ تحوله إلى المذهب الإسماعيلى، و كان من شأن هذا التنظيم السرى أن ساعد الإسماعيلية على البقاء و الازدهار على الرغم من يقظة شرطة العباسيين «۲».

و خلاصة القول، فإن الكتّاب الإسماعيليين يكشفون عن عناصر قيام معتقدات الفرقة الإسماعيلية، و ننتهى إلى حقيقة أن الإمامة و الافتراق عن خطها بعد سنين طويلة من موت إسماعيل و حقائق سيرة ابنه محمد هى المنفذ، فهم يقولون أن الفكرة الإسماعيلية ليست وليدة حادثة معينة أو تفكير استبدّ بشخص أو جماعة فى أمر من الأمور، أو حال من الأحوال، بل هى امتداد أزلى لنظرة أزلية عاشت فى دم الإنسانية

---

(۱) الدعوة الإسماعيلية لبرنارد لويس ص ۳۹.

(۲) العرب فى التاريخ ص ۱۵۰- ۱۵۱.

منذ بدء الخليقة. و ستستمر فى تجدّدها و تصاعدها نحو الأكمل ما دامت الخليقة و ما دامت الحياة، و لربما استطاع المؤرخون أن ينسبوا ميلاد الحركات و العقائد إلى أحداث تاريخية معينة تسببت فى خلقها و عملت على تطويرها و بلورتها، غير أن هذا المقياس لا ينطبق على الفكرة الإسماعيلية من حيث جوهرها الذى كان توأما للحياة عينها «۱» و قد صارت مع تطور الزمن بعد نشأتها حركة عقلية تدل على أصحاب مذاهب دينية مختلفة، و أحزاب سياسية و اجتماعية متعددة، و آراء فلسفية و علمية متنوعة «۲».

و يعتبر الإسماعيليون أنفسهم من أنجب التلاميذ الذين درسوا الفلسفة اليونانية دراسة واقعية، و أخذوا عنها الأفكار و النظريات و طبّقوها و حوّروها فى مجتمعهم، و ليست جمهورية أفلاطون إلا أحد الكتب المفضلة القيمة التى درسوها بعناية و طبقوها بإمعان «۳».

و يتّفق الإسماعيليون على أن عقيدتهم فلسفية. يقول مصطفى غالب: (إذا ما أردنا تعريف الإسماعيلية بإيجاز و تقديمها باختصار، و وصفها بمختلف الأوصاف، فلا نقول عنها إلّا إنها العقيدة الفلسفية التى تتطور مع الزمن و تتكيف معه، أو بلغة أصحّ هى انطلاق الفكر الوثّاب فى هذا العالم اللامتناهى، أو وثوب الروح نحو مثلها الأعلى). و يبين عارف تامر فضل البحوث و الدراسات فى التعرف على الدعوة الإسماعيلية و يقول: (و بعد ظهور هذه المصادر و المخطوطات، أصبحت الحركة الإسماعيلية معروفة بأنها رسالة فلسفية مستقلة، و دعوة سياسية أممية ذات أثر ظاهر بمجرى الحياة العامة، و فكرة عقائدية باطنية تخفى وراءها أهدافا و مقاصد لا يزال الفكر يسعى لجلاء غوامضها و سبر أغوارها) ا ه.

و قد وجدت هذه المقاصد و الأفكار (الوثابة) فى قضية موت إسماعيل، و تطّلع ابنه محمد متنفّسا و ثغرة، فصاغ أصحابها و الداعون إليها معتقدات الإسماعيلية بالمضمون و المنطق الفلسفيين، و كانت تقوم و لا شک على الفلسفة اليونانية حتى كانت خير وعاء لها، و استطاع الداعون إلى هذه الفلسفة من إدخالها فى العقائد

---

(١) أعلام الإسماعيلية ص ١٣.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ١۴.

(٣) القرامطة لعارف تامر ص ۶۴.

و التنظيم و السلوک، فكانت الكواكب و الأجرام و النفس و العقل و الحركة و الثبات و الاختيار و الفعل و الأرض و البحار و البساتين و الأزهار و البشر و الحيوان و غيرها تربط بها الأسماء و توصل بها.

و كانت مسألة الباطن و الظاهر أعمق من الأوصاف التى عرفوا بها. لأن الباطنية و التخفّى من ألزم الحالات لمثل هذه الدعوات التى تنتمى إلى أمم أخرى و مذاهب و معتقدات قديمة، إذ لا يمكنها الظهور و لا الإفصاح، فالباطن هو الحال الذى لا يمكنها غيره، و من هذه الباطنية امتدت الصفات التى تستمدّ من القول بالإمام الظاهر و الإمام الباطن، و بالمعنى الظاهر و المعنى الباطن، فإنهم ادّعوا أن لظواهر القرآن و الأخبار بواطن تجرى مجرى اللب من القشر، و إنها توهم الأغبياء صورا، و تفهم الفطناء رموزا و إشارات إلى حقائق خفية. و أن من تقاعد عن العرض على الخفايا و البواطن متعثر، و من ارتضى إلى علم الباطن انحط عنه التكلف، و استراح من أعبائه، و استشهدوا بقوله تعالى: وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِى كانَتْ عَلَيْهِمْ قالوا:

و الجهال بذلک هم المرادون بقوله: فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ «١».

يقولون فى قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ أنه القيام من النوم، و مثل النوم مثل الغفلة. و المستجيب- أول رتبة يصل إليها المنتسب إليهم- طول ما كان فيه قبل استجابته فى غفلة من أمر اللّه و أمر أوليائه بمنزلة النائم فى الظاهر، فإذا انتبه بكسر كاسر (الكاسر من يتفقه بالدعوة و يصل إلى مدخل الفلسفة) كسر عليه، أو بمنبه له من قبل نفسه كما قد يتنبه النائم

كذلک من ذات نفسه، و قد يوقظه عن نومه غيره. و أراد الصلاة قصد إلى بيت الخلاء، و قد ذكروا أن مثله مثل الدعوة التى فيها يتخلى من كل كفر و شرک و نفاق و خطيّة كما يتخلى فى بيت الخلاء من أمثال ذلک من النجاسات و الأقذار، يتخلى من ذلک فى الظاهر من أراد الطهارة فى الظاهر، و فى الباطن من أراد الطهارة الباطنة بالتبرى من جميع ذلک، ثم يقبل على استماع العلم و الحكمة اللذين مثلهما فى الظاهر مثل الماء الذى منه أصل الحياة الظاهرة، كما أن من العلم أصل الحياة الباطنة الدائمة للأرواح «۲».

و يدخلون الإمامة فى سياق معتقداتهم، فبعد أن يذكروا أن القلب أول متكوّن من الجنين، ككون الشمس أول ما تكون من الفلک، و الناطق أول ما ظهر فى عالم

---

(۱) المنتظم ج ۵ ص ۱۱۱.

(۲) تربية المؤمنين من كتاب تأويل دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن محمد ص ۵۵.

؟؟؟، و هذه النفس النامية لا توجد إلا بوجود موضوعها الذى هو جسمها، فبوجوده وجودها و بعدمه عدمها ... يقولون ثم إنه كان إلى الأئمة الأطهار الذين هم حجب الإبداع على مرّ الأعمار، و إلى باب كل واحد منهم حجة و داعيه، و ما دونه حججه الاثنا عشر- عدد المراتب فى الدعوة الإسماعيلية- الذين لا يفارقون إقامة الدعوة الباطنة. و إلى الأبواب الظاهرة و الحجج و الدعاة و المأذونين إقامة الدعوة الظاهرة، فحدود الظاهر يستخرجون الأنفس من عالم الطبيعة و يهذّبونها أولا بالرياضة و الشريعة، و ينقلونها إلى المعارف الحكيمة، و يصوّرونها بالصور العلمية لكون الأئمة المستقرّين هم الذين أقاموهم و أحلّوهم فى منازلهم على قدر الاستحقاق و رتّبوهم، فكان أول قائم بالدعوة فى دور الستر آدم، و تبعه نوح، و قام إبراهيم الخليل عليه السّلام و اجتمع عنده أهل المستقر، فكان لها كالشمس و هى له كالقمر، لأن هيكله من جملة الهياكل النورانية ... «۱».

و عندهم آدم الجزئى و آدم الكلى، و الفرق بين آدم الكلى و آدم الجزئى هو أول دور الستر، و آدم الكلى هو صاحب الجثة الإبداعية، لأنه أول الكل، و إليه انتهاء الكل فى الابتداء، و آدم دور الستر جزئى بالنسبة إليه. و آدم الجسمانى يقع على كل ناطق من نطقاء دور الستر، و ضده إبليس الجسمانى فى دور كل ناطق. و يقول صاحب النص:

(فاعلم ذلک و إبليس ناطقنا صلوات اللّه عليه هو (... كتابة سرية رمزية ...) لعنه اللّه، فاعلم ذلک، و لذلک قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «قرن بكل نبى شيطان، و قرن بى شيطانان» يعنى أبا جهل و أبا لهب (كتابة سرية) لأنهما كانا معاديين له و لمقيمه فى أول دوره) «۲».

و هم يبقون عمل النبوة فى أئمتهم لا على أساس النيابة و بقاء الدعوة إلى الشريعة و دوام الهداية إلى الرسالة، فيقولون: (إن الإمام رسول إلى الخلق بأمر اللّه تعالى و نص رسوله من قبل الوحى و الإمام الثانى كذلک من قبل الإمام الأول، الأول بأمر

الوصی، و النبی بأمر من اللّه عز و جل، و هلمّ جرّا من واحد إلی واحد إلی یوم القیامة، یصح ذلک و یثبته قوله سبحانه لنبیه (ع. م): إِنَّما وَلِیُّکُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ

---

(۱) الذخیرة فی الحقیقة للداعی الفاطمی الیمانی علی بن الولید ص ۱۰۲- ۱۰۴.

(۲) مسائل مجموعة من الحقائق العالیة و الدقائق و الأسرار السامیة التی لا یجوز الاطلاع علیها إلا بإذن من العقد و الحل ص ۱۲۹- ۱۳۴ تحقیق د. شتروطحان.

وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ راکِعُونَ عنی هاهنا بالمؤمنین: الوصی و الأئمة من ولده و قوله تعالی:

وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَیَرَی اللَّهُ عَمَلَکُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ فقوله فی هذه الآیة «و المؤمنون» عنی به الأئمة الطاهرین من ذریة الرسول أولاد الوصی و البتول علیهم السّلام فلفظ «المؤمنون» هاهنا عام و معناه خاص، فلو لم یکن ذلک لم یدر من المأمور بالعمل و من الذی یراه، و کذلک جمیع الحدود الذین هم دون الإمام: الباب و الحجة إلی المکاسر، کل واحد منهم رسول إلی من دونهم بنص من هو فوقه، بأمر متسلسل إلی اللّه سبحانه) «۱».

و من الواضح اختلاف المضمون عند الشیعة فی أمر الوصایة و النص عنه فی هذا السیاق، فهو تشبّه بهم، و لکنه یفترق عنه من حیث تقیید الإمامة بحدود الولایة و النیابة عن صاحب الرسالة و المبعوث بالنبوة، فالإمامة عند الشیعة امتداد لأمر الدعوة و مداومة علی الأحکام و العمل بالأصول. أما الإسماعیلیون فقد أوقعهم الغلو فی الادعاء بأن محمد بن إسماعیل مشهود له بالرسالة فی الأذان عند قوله: أشهد أن محمدا رسول اللّه، لأن شهادته لنفسه غیر جائزة، و إنما کانت شهادته لمحمد بن إسماعیل «۲».

کذلک فإن الغلو نال من جوهر العقیدة بالصفة الروحیة للأئمة التی یعتقدها الشیعة فی الأئمة المعصومین لکی یکون الدین کاملا و یناط أمر الشریعة بإمام له من صفات صاحب الرسالة ما یعصمه، فقد قال الإسماعیلیة: إن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نقل إلی الإمام علی بعض علومه الإلهیة مباشرة لیتوارثها الأئمة من نسله بعده، و هی علوم تتمثل علی الخصوص فی تفسیر القرآن أو ما عرف بالتأویل أو المعنی الباطن، إذ لکل تنزیل تأویل، و کل کتب الإسماعیلیة تشیر إلی ذلک. کما ردّوا کل الأحادیث النبویة إلی أئمتهم و هی المعروفة بالأخبار، و قد جعلهم ذلک یثبتون لأئمتهم صفة إلهیة «۳». و هو ما یبرأ منه الشیعة، و قد اتخذ أعداؤهم ذلک ذریعة للطعن، و أنکروا کل حقائق التنزیه و دلالات النقاء و السمو فی عقیدة الشیعة.

---

(۱) کتاب الأزهار و مجمع الأنوار للداعی ابن آدم الهندی البهروجی ص ۱۸۴/ منتخبات إسماعیلیة تحقیق د. عادل العوّا.

(۲) الأنوار اللطيفة فى فلسفة المبدأ و المعاد للداعى طاهر بن إبراهيم الحارثى ص ۱۶۱ الباب الخامس من السرادقة الرابع الفصل الثانى. و المسائل المجموعة من الحقائق ص ۹۹.

(۳) الحاكم بأمر اللّه ص ۱۳- ۱۴.

و قد بيّن الأئمة- أنفسهم- منازلهم الدينية و مراتبهم، و وضحوا معالم الإمامة و صفات صاحب الأمر الشرعى، و لم يدع أحد منهم صفة إلهية.

و لا ننكر أن الحركة الإسماعيلية قد اتسمت بأساليب تنظيمية و بهياكل سرية و مناهج دعائية تدل على إدراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الأدنى، و على فهم دقيق لمصادر التذمّر، و لا يبعد عن الواقع من يقول أن للإسماعيلية سحرا خاصا و جاذبية قوية كانت تهفو بنفوس فريق من الناس و تستميلهم، و تستأثر بأهوائهم، و تبلغ منهم مبلغا يدفعهم إلى المخاطرة و المجازفة و الإتيان بغرائب الأعمال، و قبول الطاعة العمياء و الاستسلام المطلق، و أن فى الكتمان و السرية و الخفاء و الغموض ما يستهوى الخيال و يرغب النفوس و يطلق الأوهام و الأحلام، و كلما كان السرّ أدق و أخفى، أو كان اللغز أعوص و أغمض كان سحر الخفاء أشدّ جاذبية و أقوى إطلاقا للخيال. و ما زال الإنسان منذ أقدم العصور مولعا بالغرائب و العجائب، محبّا لاستطلاع الأسرار و كشف المخبآت و استجلاء الغوامض المحجوبة و الأسرار المنيعة «۱». و جميع ذلك من مقتضيات الأفكار الفلسفية و العقائد الغامضة التى عبّرت عن نفسها بالحركة، و ليست من التقية فى شىء. فما أوضح الاختلاف، و ما أجلى الفرق بين الاثنين؟

و يصرّح الكتّاب الإسماعيليون بأن حركتهم كان لها القدح المعلّى فى مضمار التنظيمات من حيث الدقة، و إنهم برعوا براعة لا توصف فى تنظيم أجهزة الدعاية على قلة الوسائل فى ذلك العصر، و استطاعوا أن يشرفوا بسرعة فائقة على أقاصى بقاع المسلمين، و يتنسّمون أخبار إقناعهم. فقد كان الإمام الإسماعيلى- و الذى يعتبر رئيسا للدعوة- يعتبر الدعاة عصبا مهما للدعوة، فينتخب الدعاة من ذوى المواهب. و وفقت الحركة الإسماعيلية بين جهاز الدعاية الذى نظمته و بين نظام الفلك و دورته، فجعلوا العالم- الذى كان معروفا فى عصرهم- مثل السنة الزمنية. فالسنة مقسمة إلى اثنى عشر شهرا، فقسموا العالم إلى اثنى عشر قسما، و سمّوا كل قسم جزيرة، و جعلوا على كل جزيرة داعيا، و قالوا: إن الدعوة لا تستقيم إلا باثنى عشر داعيا يتولّون إدارتها، يقابلهم فى عالم الفلك الواحد اثنا عشر برجا، يطابقها فى جسد الإنسان اثنا عشر نقيبا، يقابلها فى عالم الحجب اثنا عشر حجابا. و هكذا إلى بقية تنظيماتهم،

---

(۱) القرامطة ص ۷۸.

و التی تحتاج إلی بیان یفضی بنا إلی الإطالة و الخروج عن القصد، و قد أغفلنا الکثیر من جوانب الموضوع خشیة ذلک. و لم نذکر إلا ما کان إغفاله یخلّ بالغرض.

لقد شقّت الدعوة الإسماعیلیة طریقها فی المجتمع الإسلامی لعوامل متعددة و لجهازها السری و الدعائی، فتضافرت المواهب التی تنتمی إلی مختلف الجماعات و الأفکار علی دراسة الظروف الاجتماعیة و الاقتصادیة و السیاسیة، و اشترط علی الداعی أن یکون ملمّا بذلک، لیسهل علیه الدخول بین طبقات المجتمع الذی یوجّه إلیه. فهو مزوّد بمعلومات عن اختلاف الناس فی الدین و المذهب و العقلیة، و یخاطب فی دعوته کل جماعة بما یروقها لیجذبها إلی صفوف الحرکة، مع التأکید علی التکتّم و التخفّی و السرّیة، و کان أتباع کل مرتبة منهم لا یعرفون أسرار المرتبة الأخری. أما التقوی فهی أن یلزم الداعی الخیر و یعمل به و یتجنّب الشرّ و یحذره «۱».

و حقیقة الحرکة أنها أممیة، لم تکن حرکة قومیة عنصریة، کما أنها لا ترتبط مع الشیعة الإمامیة إلا بالتسمیات الشکلیة، فکل مبدأ لدی الإمامیة یتحول لدیهم بما ینسجم مع معتقداتهم. و الحرکة الإسماعیلیة استغلّت تذمّر الناس مما ارتکبه حکام تلک العهود من جرائم و من سوء السیرة و الاستبداد، و لم تظهر أمام انحراف الحکام و ظلمهم دعوة تردعهم، أو حرکة تثور بهم إلا من قبل شیعة أهل البیت و بزعامتهم، فالإسماعیلیة تنخرط فی إعلان المعارضة و توجیه السخط الاجتماعی و الدینی فی البلاد الإسلامیة و المطالبة بحق العلویین الشرعی فی الحکم مع الاحتفاظ بالأهداف السرّیة، و التنظیمات الخفیة التی تخلو منها ثورات العلویین، و التی تتمیز بوضوح أهدافها و اشتهار رجالها بالعلم و الدین و الدعایة الجلیة.

و کان نهج الشیعة الإمامیة الزاهر و سبیلها الراشد ینأیان عن الطرق الباطنیة و أسالیبها السرّیة و وسائلها العنیفة، فکانت عقائد الإمامیة تحکم تصرفات من آمن بها و التزم، و لم یتردّد علماء الإمامیة فی شجب و إدانة ما یتجافی مع روح الإسلام و یخشی نور عقیدته و وضوح أهدافه، و ینزوی فی السرّیة و الباطن، و قاموا بدورهم الدینی فشملهم الباطنیة بأعمال القتل، فراح الکثیر منهم ضحایا و شهداء.

و کان التشیّع قد انتشر فی بلاد المغرب علی ید الإمام إدریس بن عبد اللّه بن

---

(۱) القاضی أبو حنیفة النعمان المغربی: الهمة فی إتباع آداب الأئمة ص ۵۵.

الحسن بن الحسن بن علی بن أبی طالب علیه السّلام الذی فرّ من أیدی العباسیین بعد موقعة فخ فی عهد الخلیفة الهادی سنة ۱۶۹ ه. و أقام الأدارسة فی المغرب الأقصی دولة شیعیة سنة ۱۷۲ ه التفّ حولها البربر، و من ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة للدعوة الإسماعیلیة، و کان ذلک مما سهّل علی کل من الداعیین: أبی سفیان و الحلوانی عملهما، فلما ذهب أبو عبد اللّه الشیعی إلی المغرب فی أوائل سنة ۱۸۰ ه وجد الأمور ممهدة له، کما وجد التشیّع قد دخل فی عقول البربر، و اعتنقه کثیر من وزراء الأغالبة «۱». و کان من الحنکة السیاسیة بحیث استطاع أن یفهم الزعماء المحلیین أن الخلاف بینهم هو السبب فی

ضعفهم، و أن الاتحاد تحت لواء التشيّع سيكون لهم القوة، فمهّد الداعى لمجيء مولاه المهدى عبيد اللّه بانتصارات و مكاسب، فدفع قبيلة كتامة إلى مهاجمة دولة الأغالبة و مهاجمة دولة الرستمينى فى تاهرت بعد ذلک، و هكذا قامت دولة إسلامية شيعية جديدة، و دخل المهدى القيروان فاتحا «٢».

لقد اجتذبت الدعوة الإسماعيلية إلى صفوفها جماعة من المفكرين، كما نسبوا إليهم جمعية إخوان الصفا. لأن حركة الإسماعيلية قامت على أسس سياسية ثورية عنيفة و متطرفة مازجت الأفكار و العقائد الفلسفية التى حددت المنحى و صاغت النظرة التى يتّصفون بها، و لذلک كان يطلق على كل متفلسف بأنه إسماعيلى و لو فى فترة محدودة اشتهر بها وضع الإسماعيلية و أخبار حركتهم الخيالية التى تجمع بين الأفكار الفلسفية و بين الأعمال الانتحارية التى تقرب من الأساطير، و الأساليب التى تعتمد على المنحى الخيالى و الدعائى الذى لا يهتم بنوعية الأسلوب.

و اقترب الإسماعيلية من الطريقة الشيعية فى تبنّى ظلامات الناس و الدفاع عن المحرومين و البائسين، و ارتبطوا بالحركة الشيعية بمفهومها العام، فيما كان قادتهم يختارون الأشخاص للإيغال به فى عالمهم الخفى. كذلک ارتبط الإسماعيلية بالشيعة من خلال الشعار الذى يقضّ مضاجع الجبابرة بالنّصفة لآل محمد و الرضا منهم و الانتقام لهم، و لكن كان الأمر بمفهومهم الخاص لا بالمفهوم الشيعى الواضح و الصريح الذى تهفو له الأفئدة و تندفع فى ظله النفوس إلى الموت و الشهادة إرضاء للّه

---

(١) مصر فى عصر الدولة الفاطمية: محمد جمال الدين السرور.

(٢) الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى لآلفريد بل ص ١٥٨.

و انتقاما للنبى و آله الطيبين. فكان الإسماعيلية مع الشيعة فى مواطنهم فى الكوفة و بقية مناطق العراق، و استغل الدعاة الإسماعيليون اضطهاد الشيعة و جور الولاة، و اتصلوا بهم. كذلک كانت دعوتهم فى اليمن «١» و انضمّت إليها بتحدّى الخلافة العباسية. و قد ظهرت الحركة الإسماعيلية على مسرح الأحداث السياسية متسلحة بسلاح العقيدة بعد أن بسطت دعوتها فى أرجاء البلاد الشاسعة، و حاولت أن تزيل الخلافة العباسية و تقيم على أنقاضها دولة إسماعيلية، و لأن دعوتها لم تنجح فى بغداد، فقد سرت فى كثير من بقاع الأمة العربية غربى العراق لتجعل من العرب من الجزيرة و جنوب سوريا قوام دولتها و لب حضارتها و حملة لواء دعوتها، ثم تتولى الدفاع عن الأرض العربية ضد الغزوات الصليبية، فى الوقت الذى انحدرت فيه خلافة بغداد، إلى فرض الصراع السياسى و الخضوع للغزاة الأجانب تاركة عبء الدفاع عن بلاد العرب لسيوف المصريين و السوريين بقيادة الدولة الفاطمية «٢» و التى كانت فى عقائدها حريصة على المظهر الذى يجعلها قريبة من عقائد الشيعة، و تعمل على إخفاء المضامين الفلسفية و المعتقدات الغريبة التى لحقت بالفرقة الإسماعيلية.

الدولة الفاطمية

: قويت الدعوة الإسماعيلية تحت ظل ملوک مصر الفاطميين و لا بأس بالإشارة إلى تاريخ هذه الدولة بموجز من القول، فإنى لا أحاول بهذه العجالة إعطاء صورة عن الدولة الفاطمية، فهى دولة إسلامية خدمت الإسلام، و تركت آثارا تشهد للفاطميين.

و التاريخ سجّل لهم صحائف بيضاء. و لكن الأقلام الملوثة بأوساخ الطائفية و أدران التعصب أقامت الحواجز.

كان أول ظهورها بالمغرب سنة ۲۹۷ ه/ ۹۰۹ م و لم يرض خلفاؤها بالبقاء فى المغرب، بل حملهم الطموح و ساقهم إلى إخضاع ما جاور المغرب من البلاد، ففتحوا مصر سنة ۳۵۸ ه/ ۹۶۹ م و نقلوا قاعدة حكمهم إليها، و قد دامت دولتهم زهاء قرنين من سنة ۳۵۸ ه/ ۵۶۷ ه (۹۶۹- ۱۱۷۱ م).

و أنشئوا مدينة ملكية لتكون مقرّ سكناهم و بلاطهم، و هذه المدينة هى مدينة

---

(۱) رسالة افتتاح الدعوة للقاضى النعمان بن محمد ص ۳۳.

(۲) الإسماعيليون و الدولة الإسماعيلية لبميساف ميشيل لباد ص ۱۱ ط الاتحاد.

القاهرة «۱»- المدينة الخاصة التى كانت تحيط بها أسوار ضخمة- فأصبح فى مصر لأول مرة بلاط خلفاء ينافس بلاط خلفاء بنى العباس. و فى عهدهم انفصلت مصر عن الإمبراطورية العباسية، و أصبحوا أشدّ أعداء تلک الدولة، و اتخذت الدولة العباسية أساليب الدعاية ضدّهم، فقد طعنوا فى نسبهم، و أطلقوا عليهم بدل لفظ الفاطميين- العبيديين- باسم الخليفة عبيد اللّه المهدى، أول خليفة فاطمى، و هو الذى أسس الدولة الفاطمية فى المغرب، و شككوا فى صحة نسب عبيد اللّه، فأطلق عليهم أعداؤهم هذه التسمية للقضاء على نسبتهم لفاطمة الزهراء عليها السّلام و سيأتى ذكر ذلک.

كما أن بعض مؤرخى العرب سلب عنهم هذه التسمية، و سمّاهم الخلفاء المصريون، و منهم من سمّاهم بالرافضة، و من خصومهم من سمّاهم (المجوس) على اسم أتباع زرادشت الذين كانوا فى فارس حتى ظهور الإسلام. و سمّوهم أيضا الباطنيين.

و أيا كانت التسمية و الألفاظ، فقد بسطوا سلطانهم، و دام ملكهم مدة من الزمن.

فقد تأسست الدولة سنة ۲۹۷ ه/ ۹۰۹ م فى المغرب، و انتقلت إلى مصر سنة ۳۵۸ ه/ ۹۶۹ م و سقطت سنة ۵۶۷ ه/ ۱۱۷۱ م.

و كان عدد خلفاء مصر (۱۱) خليفة هم:

۱- المعز أبو تميم معد ۳۴۱ ه ۹۵۲ م.

۲- العزيز أبو المنصور نزار ۳۶۵ ه ۹۷۵ م.

۳- الحاكم أبو على المنصور ۳۸۶ ه ۹۹۶ م.

۴- الظاهر أبو الحسن على ۴۱۱ ه ۱۰۲۰ م.

۵- المستنصر أبو تميم معد ۴۳۷ ه ۱۰۴۵ م.

۶- المستعلى أبو القاسم أحمد ۴۸۷ ه ۱۰۹۴ م.

۷- الآمر أبو على المنصور ۴۹۵ ه ۱۱۰۱ م.

۸- الحافظ أبو ميمونة عبد المجيد ۵۴۱ ه ۱۱۴۶ م.

۹- الظافر أبو منصور إسماعيل ۵۴۴ ه ۱۱۴۹ م.

۱۰- الفائز أبو القاسم عيسى ۵۴۹ ه ۱۱۵۴ م.

---

(۱) الدكتور عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين و رسومهم ج ۲/ ۹.

ص: ۴۸۰

۱۱- العاضد أبو محمد عبد اللّه ۵۵۵ ه ۱۱۶۰ م.

و أبرز شخصية فى الدولة الفاطمية اشتهرت فى التاريخ هى شخصية الحاكم، حتى غلا فيه محبّوه. و سنشير لذلک.

و كانت الإسماعيلية وحدة لا تنفصم تحت زعامة الفاطميين، و كانت الدولة الفاطمية وقتئذ تسمى (الدعوة القديمة) و بموت الخليفة المستنصر الفاطمى حصل ذلک الانشقاق على (الدعوة القديمة) و انتهى المنشقّون إلى نزار بن المستنصر، و قالوا إن أباه عيّنه فى الإمامة و الخلافة من بعده، و استطاع زعيم هذه الدعوة (الحسن الصباح) أن يكوّن دولة نزارية لها كيانها الخاص فى فارس، و أن ينشىء دعوة عرفت فى التاريخ (بالدعوة الجديدة) و عرف أنصارها بالإسماعيلية النزارية أو (الإسماعيلية الحشيشية) و أخذت دولتهم تغالب الدهر منذ سنة ۴۸۸ ه حتى سقطت فى سنة ۶۵۴ ه على يد هولاكو المغولى، و لم تمت الدعوة النزارية بموت دولتها، و ظل أنصارها يعملون فى الخفاء حتى بعثوا اليوم باسم (الآغاخانية) اتباع آغاخان، و هؤلاء هم النزارية المحدّثون.

و أما أنصار الدعوة القديمة، فأولوا دعوتهم للمستعلى الابن الأصغر للمستنصر، و سمّوا المستعلية، و لمّا مات الخليفة الآمر، و ولى الخليفة الحافظ اعترف إسماعيلية مصر له بالرياسة، فسمّيت دعوتهم الدعوة الحافظية، و اعترف إسماعيلية اليمن بالطيّب فسمّوا الطيبية.

لقد كان من أكثر الأحداث تأثيرا فى إضعاف الدولة الفاطمية توالى الانقسامات المذهبية السياسية، و تعرّض الدولة إلى هزّات قوية، فقد كانت الاختلافات حول القائم بالحكم و البيعة له سببا فى تمزيق رعيتهم و تشتيت أتباعهم، فعند وفاة المستنصر- كما قلنا- فإن نزارا- الابن الأكبر- كانت له ولاية العهد، و قد أجلسه أبوه فى حياته، فلما مرض المنصور أراد أخذ البيعة له، لكن الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمّال كان يكره أن يكون الحكم لنزار لعداوة كانت بينهما بسبب أن نزار قال للأفضل يوما: انزل يا أرمنى يا نجس «١». و كان نزار قد وعد محمود بن وصال اللكى بالوزارة و التقدمة على الجيوش مكان الأفضل.

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٢.

و كان الأفضل هو الذى بادر بإخراج أبى القاسم و مبايعته و نعته بالمستعلى و قال: بأن النص و الوصية للابن الأصغر، و بادر و خرج من وقته و أخذ معه أخاه عبد اللّه، و توجهوا إلى الاسكندرية، و لا نخوض فى تفاصيل النزاع لأن ذلک ليس مقصدنا، و قد انتهى النزاع بهزيمة نزار، و انقسام الإسماعيلية منذ ذلک الحين إلى:

١- الإسماعيلية النزارية.

٢- الإسماعيلية المستعلية.

و لاقت الدولة الفاطمية بعد هذا الانقسام الأمرين من معارضة النزارية و مقاومتهم «١».

و حدث انقسام آخر بعد وفاة الآمر، فقد خولفت أصول المذهب، و ولى الخلافة ابن عم الآمر، و حدث ذلک لأول مرة، و ليس لذلک من سبب، لأن الآمر قد ولد له قبيل وفاته ابن اسمه الطيب، فأخذت له البيعة بولاية العهد، و لكن الحافظ قد استقرت له الأمور بعد أن ضعفت قوته لما أبداه وزيره أحمد بن الأفضل من رغبته فى الاستقلال و الدعوة إلى نفسه.

و الغرض أن الحافظ فى ولايته الخلافة، و ظهور مخالفة أصول المذهب كان يمثل جماعة تخالف أغلبية الفاطميين الذين يرعون الحكم، فقد كان الحافظ محبوسا فى حياة الآمر. و أدى ذلک إلى انقسام جديد كان من عوامل إضعاف الدولة.

و أصبحت الإسماعيلية منقسمة إلى:

١- إسماعيلية حافظية.

٢- إسماعيلية طيبية.

و تعرّضت الدولة إلى خلافات و منافسات فى عهد الحافظ بسبب الولاية على العهد، فقد عهد الحافظ أولا لابنه الأكبر سليمان، و لكنه مات بعد قليل، فعهد لابنه الثانى حيدرة، مما آثار حقد ابنه الثالث و اسمه حسن، فقام بثورة عنيفة انقسم بسببها الجيش الفاطمى إلى فريقين يحارب كل منهما الآخر، مما أدى إلى إضعاف الجيش فى مجموعه «٢».

---

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية، جمال الدين الشيّال/ ٢١.

(٢) نفس المصدر/ ٢٢.

و حدث فى السنة التالية لوفاة الآمر فترة من أهم فترات التاريخ الفاطمى، و دامت لمدة سنة. فقد ولى الحافظ- و هو ابن عم الآمر- غداة وفاة الآمر كولى للعهد و كفيل لطفل منتظر، ثم ثار به أبو على أحمد بن الأفضل شاهنشاه، و خلعه فى اليوم التالى و سجنه و استقل هو بالحكم.

و هذا الذى فعله الوزير أحمد يعدّ انقلابا سياسيا تام الأركان، و أوشك بفعلته هذه أن يقضى نهائيا على الدولة الفاطمية، فقد كان أبو على الحامى المذهب، و لهذا فقد عمل على إلغاء كثير من الشعائر الإسماعيلية. و يروى صاحب النجوم الزاهرة بأنه أظهر التمسّك بالإمام المنتظر فى آخر الزمان، فجعل الدعاء فى الخطبة له، و يغلط بشكل شنيع فى مذهبه لأن ابن تغرى يروى على المنقول و الموروث من أن الشيعة هم كل من حمل الاسم، فلذلک لا يرى فى انقلاب الوزير و مخالفته إلا مضادة تامة و مخالفة كاملة تضع الوزير فى الصف المعادى.

و كاد أبو على أحمد أن يقضى على الدولة الفاطمية، و أن يقيم فى مصر دولة جديدة، لكن أمراء الإسماعيلية و قوّادهم ثاروا عليه، و تمكنوا من قتله و إعادة الحافظ.

و لهذا اعتبر الإسماعيلية اليوم الذى أطلق فيه سراح الحافظ و إعادته إلى الحكم عيدا من أعيادهم الهامة و أسموه (عيد النصر) «١» و ظلوا يحتفلون به إلى آخر أيام دولتهم لأنهم اعتبروه نصرا للمذهب الإسماعيلى و للدولة الفاطمية و إحياء لهما بعد أن حاول الوزير أحمد تغييرهما.

و قد أنجبت زوجة الآمر بعد وفاته ولدا آخر غير الطيب، و لكنها أخفته فى القرافة خوفا عليه من الحافظ الطامع فى الخلافة.

و لمّا عاد الحافظ للحكم، ظل دائب البحث عن الطفل المختفى، إلى أن عثر عليه، و تخلص منه، و أعلن نفسه خليفة «٢».

و (البوهرة) اليوم هم الإسماعيلية المستعلية، يعتقدون أن إمامهم الحادى

(١) يقول المقريزى فى الخطط: عيد النصر هو السادس عشر من المحرم، عمله الخليفة الحافظ لدين اللّه لأنه اليوم الذى ظهر فيه من محبسه، و يفعل فيه ما يفعل فى الأعياد الأخرى من الخطبة و الصلاة و الزينة و التوسعة فى النفقة ج ١ ص ۴٩٠.

(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية/ ٢۴.

و العشرين (الطيب) ابن الآمر المستعلى قد استتر، و بدأ سلسلة الدعاة المطلقين، و قد ظهر منهم ثلاثة و عشرون فى اليمن، ثم ثلاثة و عشرون فى الهند. و يعتقدون أن الأيوبيين لم يتسلموا الحكم من الورثة الحقيقيين، بل من الخلفاء المزيّفين، لأن الحافظ و أولاده يعدّون غاصبين «١».

و على أى حال فإن أهم شخصية برزت فى التاريخ الإسلامى للطائفة الإسماعيلية هى شخصية الحاكم بأمر اللّه، و دارت حول تلك الشخصية أقوال و أساطير، فلنقتصر على ذكره منهم.

الحاكم بأمر اللّه:

هو المنصور بن نزار العزيز باللّه، ولد بالقاهرة ليلة الخميس ٢٣ من شهر ربيع الأول ٣٣۵ ه ٩٨۵ م. كنيته أبو على، و لقبه الحاكم بأمر اللّه، و هو أول خليفة من الفاطميين، ولد فى القاهرة.

ولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٣٨۶ ه فى شهر رمضان، و كان له من العمر إحدى عشرة سنة و نصف.

و قام بالوصاية عليه برجوان الصقلىّ، و كان يطمع بالاستئثار بالسلطة، و شعر الحاكم بخطر برجوان و ما يقصده، فعمل على التخلّص منه، فاحتال على قتله سنة ٣۵٠ ه و بذلک استعاد الحاكم سلطته، و قلّد الحسين بن جوهر أمور الدولة، و لقّبه بقائد القواد.

و اتصف الحاكم بصفات النبل و الشهامة و الأخلاق الفاضلة، و مثّلوه بعمر بن عبد العزيز بعدله.

و كانت تقوى الحاكم البالغة قد جعلت أتباعه يبالغون فى تقديرهم لشخصيته، فظهرت أقوال كثيرة بين أتباع المذهب الإسماعيلى تبيّن أن الحاكم ليس بإمام مثل الأئمة، و إنما بشّرت به الأنبياء، و أشير إليه بالرمز فى التوراة على أنه الزاهد الراكب الحمار ليأتى بهذه الأعمال الباهرة «٢».

(١) الحقائق الخفية لمحمد حسن الأعظمى ١٨.

(٢) عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر اللّه الخليفة المفترى عليه ١٠۶.

و لقد كانت خلقة الحاكم بأمر اللّه تساعده كذلک، توحى بأنه شخص متميز عن الآخرين، و تؤكد لديه هذا الإحساس. فلقد وصفته الروايات المعاصرة له فقالت:

(كان منظره مثل الأسد، و عيناه واسعة شهل- (يخالط سواد عينيه زرقة) و إذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيبته، و كان صوته جهر مخوف، فإذا أشرف عليهم، سقطوا على الأرض وجلا منه، و فحموا عن خطابه) «۱».

و زاد الطين بلّة أن الغلو فى ذات الحاكم وصل إلى حد التأليه، و أن الغلو جاء من بعض المقرّبين إليه، بحيث انفرط عقد مبادئ المذهب، و اختلطت عقائده.

و يعبّر أحد الدعاة عن هذه الحالة فى زمن الحاكم بقوله: (فغلا فيه صلى اللّه عليه من غلا، و سفل بذلک من حيث ظن أنه علا، و وقع فى أهل الدعوة و المملكة فى الاختباط، و كثر الزيغ و الاختلاط) «۲».

و لعل المتداخلين فى صفوف المسلمين- و الذين يسعون بكل جهد لمحو العقيدة الإسلامية- قد استغلوا هذا الشعور و غلوّ الاتباع فى شخصية الحاكم، فنفثوا السموم فى جسم ذلک المجتمع المتماسک فى عقيدته بالوحدانية و النبوة، فراحوا يبثّون تأليه الحاكم و نفى التوحيد و النبوة.

و من أولئک: الفرغانى المعروف بالأخرم، رجل من بلاد فارس، تسمّى بالحسن بن حيدرة، و هو رجل أجدع الأنف أو مثقوبه، فعرف بالأجدع، و كان ظهور دعوته سنة ۴۰۹ ه ۱۰۱۸ م على خلاف فى ذلک.

قام الأخرم بنشر الإلحاد، و قال أن المعبود هو الحاكم، و دعى لإبطال النبوة، فأسقط اسم اللّه و اسم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اعتبر التنزيل و التأويل و التشريع خرافات و قشورا.

و دخل فى خمسين رجلا من أعوانه إلى الجامع الذى كان فيه قاضى القضاة ابن أبى العوام، فدخلوا فيه راكبين، و أخذوا أموال الناس و ثيابهم، و سلّموا لابن أبى الهوام رقعة ليقرأها الناس، و قد بدأ باسم الحاكم الرحمن الرحيم، فرفع القاضى صوته منكرا، و هجم الناس على الأخرم و قتلوا أصحابه، أما هو فقد هرب (و قيل قتل) و إنه

---

(۱) محمد عمارة: عند ما أصبحت مصر عربية ص ۹۷ نقلا عن: الحاكم بأمر اللّه و أسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عبد اللّه عنّان.

(۲) الحاكم بأمر اللّه الخليفة المفترى عليه.

يقوم بعمليات أمثال هذه فى البلاد الإسلامية ليقتل المسلمون بعضهم بعضا، و تبقى آثار هذه الهجمات المنكرة يتوارثها أجيال لم يمحصوا الأمور كما يراد، فيكيلون الذمّ و يتّهمون الأبرياء.

و كذلک ظهر داعية آخر اسمه محمد بن إسماعيل سنة ۴۰۸ ه/ ۱۰۱۷ م و قيل اسمه: أنوشتكين أو هشكتين. و يظهر أنه تركى، و لقب بالدروز الذى لا يعرف لها أصل. و هذا الداعية قرّبه الحاكم فى أول الأمر، حتى عرف بأنه غلام الحاكم، و ارتفعت منزلته فى الدولة، و أظهر الغلو فى الحاكم، و أنه الإله الذى صنع العوالم، و صنف كتابا أسماه الدستور، و حصل له اتباع عرفوا بالدرزية بلغ عددهم ستة عشر ألفا كانوا يأتون بأمور مبتذلة ... «۱».

و اختلف فى نهاية الدرزى، و خلط بينه و بين الأخرم، فبينما تقول رواية أنه قتل و جماعة من الدرزية على يد الأتراک و هو فى موكب الحاكم، و إنهم لم يقتلوه بسبب اعتقاده، بل لأنه نصح الحاكم بإزالة الألقاب التى كانوا يباهون بها.

و تقول رواية ثانية إنه هرب إلى الشام، و نشر دعوته فيها، و تقول ثالثة إنه قتل فى إحدى المعارک.

و الذى يهمّنا فى هذا الموضوع هل أن طائفة الدروز فى سوريا و غيرها ينتمون إليه أم لا؟

و الذى يظهر أنهم لا يحبّون أن يلقّبوا بهذا اللقب، و يستنكرون أن ينسبهم أحد إلى الداعى نوشتكين الدرزى المسمى محمد بن إسماعيل الدرزى- و هم كما يظهر- يرمونه بالإلحاد و الخروج عن عقيدتهم، و يطلقون على أنفسهم اسم الموحدين و تسميتهم بالدروز تسمية خاطئة، و مع ذلک فقد أصبح اسم الدروز لهذه الفرقة ملازما لهم. و الباحث يجد نفسه مضطرا لإطلاق هذا الاسم لاختصاصه بهم فى الدلالة و الاشتهار.

و كذلک اختلف الكتّاب و المؤرخون فى أصل الدروز هل أنهم فرس أم أتراک؟

و قيل: إنهم مزيج من عناصر مختلفة من عرب و فرس و هنود.

---

(۱) نفس المصدر السابق ۱۰۸.

و ذهب البعض من مؤرخى الأفرنسيين فى القرن السابع إلى أن الدروز هم سلالة الجنود الفرنسيين الصليبيين الذين كانوا تحت قيادة الكونت «دى دروكس».

أسكنهم جبال لبنان بعد سقوط عكا!!! فكلمة الدورز هى تحريف «دى دروكس».

و التاريخ يدلنا على أن هذه القبائل التى اعتنقت عقيدة الدروز كانوا يسكنون هذه المنطقة من لبنان و حوران و وادى التيم قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بأكثر من ثلاثة قرون، و أن قبائلهم و عاداتهم معروفة بأصولها و تقاليدها الرفيعة.

يقول الأستاذ محمد كامل حسين: و ربما أراد المؤرخون الفرنسيون بهذا القول أن عددا كبيرا من جنودهم كانوا أسرى عند الدروز، فاتخذهم الدروز عبيدا لهم، كما اتخذوا النساء الفرنسيات إماء و سبايا «١».

و الذى يبدوا أن عقيدة الدروز فى تأليه الحاكم أخذت عن الداعى حمزة بن على الذى قدم مصر سنة ٣٩٥ ه و أخذ بنشر الدعوة سرّا إلى تأليه الحاكم، و كان الأخرم الفرغانى من أعوانه، قد شجّعه حمزة على الجهر بتأليه الحاكم كما تقدم.

و لمّا قتل الفرغانى حلّ محله الدرزى محمد بن إسماعيل الذى تنسب إليه الدروز، و هم يتبرّءون منه.

و قضية علاقة الدرزى بالحاكم تضمّ الإشارة إلى إنكار الحاكم لما ادّعاه الدرزى، و لكن اتفقت النقول و تطابقت الآراء على أن الحاكم إنما أنكر خوفا من الرعية بعد أن قدم الدرزى مصر- و كان من الباطنية القائلين بالتناسخ- فاجتمع بالحاكم و ساعده على ادعاء الربوبية، و صنف له كتابا ذكر فيه أن روح آدم عليه السّلام انتقلت إلى الإمام على، و أن روح الإمام انتقلت إلى أبى الحاكم، ثم انتقلت إلى الحاكم، فأظهر الحاكم الانقياد له و إطاعته. و لمّا ثار الناس، قال له الحاكم: أخرج إلى الشام، و أنشر الدعوة فى الجبال، فإن أهلها سريع الانقياد. فقرأ الكتاب على أهله، و استمالهم إلى الحاكم، و أعطاهم المال، و قرر فى نفوسهم الدرزى التناسخ، و أباح لهم شرب الخمور، و أخذ مال من خالفهم، و الزنا، و إباحة دماء أعدائهم. و لعل موافقة المصادر الإسماعيلية لعلاقة الدرزى بالحاكم هى الأصل فى اعتقاد صحة الاتهام، فقد جعلت شخصية الدرزى هى الصلة بين الإسماعيلية و الدروز، أو تروى أن الدرزى تمكن فى

---

(١) محمد كامل حسين، طائفة الدروز/ ٩ ط دار المعارف بمصر.

وقت قليل من السيطرة على الموقف فى وادى اليتم، و إعادة الهدوء و السكينة إلى صفوف الإسماعيلية هناك بعد فرقة و اختلاف، و عمل جاهدا لتوسيع و انتشار الدعوة الإسماعيلية فى تلك البلاد، و بقى الدرزى رئيسا للدعوة و كبيرا لدعاتها فى بلاد الشام حتى إعلان وفاة الحاكم و ولاية الظاهر، فلم يعترف الدرزى بوفاة الحاكم مدّعيا بأن وفاته لم تكن سوى نوع من الغيبة لتخليص أنفس مريدى الحاكم من الأدران. و بقى متمسكا بإمامة الحاكم، و منتظرا عودته من تلك الغيبة. و بذلك أعلن انفصاله عن الإسماعيلية التى لا تعتقد بالغيبة، و تقول بفناء الجسم و بقاء سرّ الإمامة بالروح، فينتقل بموجب النص إلى إمام آخر، و هو المنصوص عليه من قبل الإمام المتوفى، و سمّيت الفرقة التى تبعث (الدرزى) بالدرزية نسبة إليه «١».

و عقائد الدروز تلتقى مع عقائد الإسماعيلية فى الأمور التى انشقّوا بها عن المجتمع الإسلامى الشيعى، و تطرّفهم فى أمور لا يقرّها التشيّع، و انقسموا عن المسلمين فى عقائدهم التى لا يقرّها و لا يؤمن بها أتباع أهل البيت. لأن هناك عقائد هى مجموعة من أفكار و فلسفات قديمة صيغت فى صورة إسلامية، و هذا أبعد ما يكون عن نهج أهل البيت و أتباعهم، و قد بيّنا ذلك.

و أيا كان، فالحديث عن الدروز و عقائدهم صعب، فإن لهم كتبا مقدسة و آراء يشذّون بها عن المسلمين، فهم يتّبعون حمزة فى تعاليمه و تأليهه للحاكم، و هنا نقول:

إن الأيدى العابثة أو الفئات الحاقدة استطاعت خلق هذا الاعتقاد- تأليه الحاكم- و تشويه عقائد المسلمين بعقائد بعيدة عن روح الإسلام، و استغلال ظروف الناس العامة و أوضاع الأشخاص.

و ذلک عند ما حاولت بعض الطوائف إحياء، نحلها القديمة، و اتخذت لها مبادئ كان من أهمها: مناوءة سلطان الإسلام السياسى، و إعادة مجد أسلافهم. مما يحملنا على القول بأن هؤلاء الدعاة الذين وفدوا على مصر، و حاولوا نشر ألوهية الحاكم، كانوا ينتمون إلى هذه الطوائف، و قد عمدوا من وراء دعوتهم التى قاموا بنشرها إلى إثارة الفتن و القلاقل فى القاهرة، ليمهّدوا بذلک للقضاء على الدولة الفاطمية، غير أن محاولتهم سرعان ما باءت بالفشل «٢».

---

(١) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ٢٣٨- ٢٣٩.

(٢) انظر كتاب طائفة الدروز للدكتور محمد كامل حسين ط دار المعارف بمصر ١٩٦٢.

و لكنهم نجحوا فى نشر العقائد الفاسدة و بثّ روح الفرقة بين الطوائف، و أوجدوا تجمعا على الباطل، و تفرقا و ابتعادا عن الحق.

فهؤلاء الذين دعوا إلى تأليه الحاكم لم تكن عقولهم بهذا المستوى من الجهل و الغرور، و أن يسندوا خلق الأكوان إلى مخلوق عاشروه، و لكنهم استغلوا شخصية الحاكم و موقعها فى النفوس، فراحوا ينشرون ظلالهم و إلحادهم، و قد تألفت هذه الجماعة من ثلاثة: الفرغانى و محمد بن إسماعيل و حمزة، و قد وقع الاختلاف بينهم و اختص حمزة بنشر الدعوة. و من رسائل إلحاده (توكلت على أمير المؤمنين جل ذكره فى جميع الأمور معلّ علة العلل صفا صفاة العلة). (من عبد أمير المؤمنين و مملوكه حمزة بن على بن أحمد هادى المستجيبين المنتقم، من المشركين بسيف أمير المؤمنين و شدّة سلطانه، و لا معبود سواه).

و أصبح حمزة يلقب بالإمام، و لمّا غاب الحاكم، صرّح حمزة بأنه هو الإمام، و أنه سيغيب أيضا على أن يرجع مرة أخرى.

و لا نخوض فى تفاصيل سيرة الحاكم، فحديثها يطول، و فيها ما يدعو إلى الاستغراب و الدهشة من الأعمال الكثيرة و القدرة الفائقة على تحرّى العدل فى أوضاع العامة، و المبالغة فى العقوبات و الأحكام، إلى غيرها من التحوّلات فى الأوامر و التغييرات فى الأمور التى يقرّرها، و قد كانت سببا فى الطعون و النقمة على الحاكم.

و كان سبب اختيارنا له فى البحث، و اقتصارنا فى الحديث عليه للعبرة فى فعل الأهواء و تأثير الأحقاد التى استخلصت من سيرة الحاكم الأعمال التى تدل على روح العدل و الحرص على مصالح الرعية. و وافت بها ما ينسجم مع الهوى و الحقد للانتهاء

إلى أن الحاكم دعا لنفسه بالأهوية، و ارتكب من الأفعال ما ارتكب. و التحقيق يثبت أن الحاكم فى كل أمر يخرج عن سيرة العدل كان يقابله بالإنكار، و لا أريد هنا أن أقف مدافعا عن الحاكم بأمر اللّه، بقدر ما أقصد إلى التأكيد على مسألة الأهواء و التعصب، و ما تفعله فى التاريخ من تشويه حتى تمكنت من إخفاء آثار أعماله و أوامره التى ألزم الناس بها و هو يعالج بها أوضاعا فى المجتمع، و يقصد إلى القضاء على الفساد فيها و تستهدف المحافظة على الأخلاق، و معالجة موجات الانحلال التى بدأت تشيع بسبب الترف فى الأوساط الغنية أو تنتشر بسبب المجاعات فى أوساط الفقراء، فحرّم عمل (الفقّاع) و بيعه و كان من مسكرات ذلك العصر ... و لقد جاء فى سجل أصدره

ص: ۴۸۹

بتحريم المسكرات فى سنة ۴۰۰ ه (۱۰۰۹ م) أن: المسكر هو مجمع السيئات، و القائد إلى قبائح الأفعال.

و مما يؤكد أن الحاكم إنما كان يواجه موجة من التحلل الخلقى فى المجتمع القاهرى فى ذلك الحين، ذلك المرسوم الذى أصدره فى سنة ۴۰۱ ه و الذى يمنع فيه اللهو و الغناء، و خاصة بالنسبة للنساء، و الذى يحرم الاجتماعات الماجنة التى كانت تعقد فى الخلاء بالصحراء، و عند ذلك هوجمت أماكن البغاء بشدة، و أزيلت دورهم و أوكارهم، و طهّرت منهم أحياء المدينة، و كانوا ينبثون فى معظم جنباتها. كما سبق و حرّم على الناس دخول الحمام إلا بمئزر يستر بعض عوراتهم، و حرم على غير الباعة و المشترين للأرقّاء دخول أسواقهم حتى يمنع العابثين من تمضية الوقت فى التمتّع بالجوارى بحجة الشراء، كما طلب من تجار الرقيق عدم الجمع بين الغلمان و الإماء فى مكان واحد، و أن يفرد لكل منهم مكان خاص بالبيع و الشراء «۱».

و يقوم الحاكم بقتل قاضيه حسين بن على بن النعمان، و كان من أسباب قتله أن الحاكم كان قد ملأ عينه و يده، و شرط عليه العفة عن أموال الناس. فرفع إلى الحاكم شخص متظلم رقعته يذكر فيها أن أباه مات و ترك له عشرين ألف دينار، و أنها كانت فى ديوان حسين، و كان ينفق عليه منها مدة معلومة، فحضر يطلب من ماله شيئا، فأعلمه القاضى أن الذى له نفذ. فاستدعى الحاكم القاضى، فدفع إليه الرقعة، فأجابه بما قال للرجل، و أن الذى خلفه أبوه استوفاه فى نفقته. فأمر الحاكم بإحضار ديوان القاضى فى الحال، فأحضر ففتش فيه من مال الرجل، فظهر أنه إنما وصل إلى القليل منه، و وجد أكثره باق، فعدّ على القاضى ما رتبه و أجراه عليه و إكرامه إياه و ما شرط عليه من عدم التعرّض لأموال الرعية، فجزع و هاله و قال: العفو و أتوب. و انصرف بالرجل، فدفع إليه ماله، و أشهد عليه. فحقد الحاكم عليه ذلك، فأمر به فحبس، ثم أخرج بعد ذلك على حمار نهارا و الناس ينظرون «۲».

و أمر الحاكم قاضيه عبد العزيز بن محمد بن النعمان بالنظر فى المساجد، و تفقد أوقافها، و جمع الريع و صرفه فى وجوهه. ففعل ذلك و بالغ فيه.

---

(۱) محمد عمارة: عند ما أصبحت مصر عربية ص ۱۰۷- ۱۰۸.

(۲) ولاة مصر الكندى ص ۵۹۹.

و بنى الحاكم جامع القاهرة و جامع راشدة على النيل بمصر، و مساجد كثيرة، و نقل إليها المصاحف المفضضة و الستور الحرير و قناديل الذهب و الفضة، و منع من صلاة التراويح، و قطع الكروم، و منع من بيع العنب، و لم يبق فى ولايته كرما، و أراق خمسة آلاف جرّة من عسل فى البحر خوفا من أن تعمل نبيذا، و منع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا و نهارا «۱».

و لم يرض الحاكم بعادة من سبقه من الحكّام فى حمل الناس على تقبيل الأرض بين أيديهم، فنهى عن ذلك، و نهى عن الصلاة عليه فى الخطب و المكاتبات، و جعل مكان الصلاة عليه: السّلام على أمير المؤمنين.

و أمر الحاكم قاضيه عبد العزيز فى يوم عاشوراء أن يمنع النساء و الناس و هم فى مواكب العزاء من المرور فى الشوارع، لكى لا تمتدّ يد العامة إلى أمتعة الباعة، و أن يختص النوح و النشيد خارج المدينة.

و لما منع الحاكم النساء الخروج من دورهنّ و منع الأساكفة من عمل الخفاف لهن، اتفق أن القاضى مرّ على دار امرأة، فناشدته أن يقف لها و يسمع كلامها، فوقف، فبكت بكاء شديدا إلى أن رقّ لها، و حلفت له أن لها ابنا أنه فى السياق، و أنها تريد أن تراه قبل أن يموت. فأمر بعض رجاله بأن يمضى معها إلى دار أخيها، فأغلقت بابها، و أعطت مفتاحها لجاريتها، و ذهبت مع الرجّالة إلى دار طرقتها، ففتح لها، فدخلت، و استمرت مقيمة فيها، فكشف عن أمرها، فإذا هو منزل رجل كانت تهواه و يهواها.

فأخبر القاضى بذلك، فتعجّب من فطنتها حتى توصلت إلى مرادها، و إذا بزوجها قد جاء إلى القاضى و قال: ما أعرف زوجتى إلا منك. و حلف أنها ليس لها أخ و إنما ذهبت إلى عشيقها. فسقط فى يده، و خاف القاضى أن يبلغ الخبر الحاكم، فيكون سبب غضبه عليه، فركب فى الحال إلى الحاكم، و قصّ عليه القصّة و بكى. فأمر الحاكم بإحضار المرأة و الرجل، فمضى الأعوان إليهما بغتة، فوجدوهما نائمين متعانقين لا يعقلان من السكر، فحملوهما إلى الحاكم، فأمر بإحراق المرأة فى بارية، و ضرب الرجل بالسياط ضربا مبرحا، و زاد فى الاحتياط على النساء و التحجير عليهنّ «۲».

---

(۱) النجوم الزاهرة ج ۴ ص ۱۷۷.

(۲) ولاة مصر ص ۶۰۷.

لقد كان الحاكم يدور فى الأسواق على حماره، يبحث عن الذين يغشّون الناس، و يتولى عمل الحسبة بنفسه.

فإذا انتهت هذه الأعمال تاريخيا إلى الذين أسهموا فى إشاعة بدع الضلال، و استسهلوا إطلاق كلمة الفساد و الرداءة على الآخرين، و قيّد مداركهم التعصّب، و شوّه علمهم الهوى، قالوا بما يضحك، و كتبوا زورا، و لكنهم مرغمون على ذكر الحقيقة كقولهم: (فمن وجده قد غشّ فى معيشة، أمر عبدا أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، و هذا أمر منكر ملعون

لم يسبق إليه، و كان قد منع النساء من الخروج من منازلهنّ، و قطع شجر الأعناب حتى لا يتّخذ الناس منها خمرا، و منعهم من طبخ الملوخية و أشياء من الرعونات التى من أحسنها منع النساء من الخروج و كراهة الخمر ...) «١».

ثم تسهم الإقليمية فى الحملة على الحاكم بأمر اللّه الذى استطاع أن يقيم حكما قويا، أن ينشغل به ملوك الأقطار الإسلامية الأخرى الذين ضعفت قبضتهم و وهنت قواهم، و هم بأبراد الخلافة و أزياء الإسلام التى تكفل لهم الخضوع و الاستسلام.

يقول محمد عمارة: (و نحن نرى أن شخصية الحاكم بأمر اللّه شخصية تاريخية قد أصابها الكثير من الظلم و التعسّف فى التفسير و التحليل من قبل الكثير من المؤرخين و الباحثين. بل و نرى أن هذا الظلم قد انسحبت أذياله على القاهرة و مصر، فبدت فى ثوب من السخرية و الاضطراب، و جو من الإجراءات التى لا رابط لها و لا منطق وراءها خلال فترة حكم هذا الخليفة التى امتدت ربع قرن من الزمان) «٢».

و لقد بلغ من قوة الحاكم و قدرته على السلطان و الملك، أن ينفذ إلى بنى العباس فى إقليم سلطانهم و موضع ملكهم، فخطب أبو المنبع قرواش بن المقلد الملقب بمعتمد الدولة للحاكم سنة ٤٠١ ه فجمع معتمد الدولة أهل الموصل، و أظهر طاعة الحاكم، و أحضر الخطيب يوم الجمعة، و أعطاه نسخة ما يخطب نقتطف منها:

(اللّه أكبر اللّه أكبر لا إله إلا اللّه، و اللّه أكبر و للّه الحمد، الحمد للّه الذى انجلت بنوره غمرات الغضب، و انهدّت بقدرته أركان النصب، و أطلع بقدرته شمس الحق من

---

(١) ابن كثير ج ١٢ ص ٩.

(٢) عند ما أصبحت مصر عربية، محمد عمارة ص ٩٦.

الغرب، الذى محا بعدله جور الظلمة، و قصم بقوته ظهر الغشمة، فعاد الأمر إلى نصابه و الحق إلى أربابه.

و أشهد أن محمدا عبده و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اصطفاه و اختاره لهداية الخلق، و إقامة الحق، فبلّغ الرسالة، و أدى الأمانة، و هدى من الضلالة، و الناس حينئذ عن الهدى غافلون، و عن سبيل الحق ضالون، فأنقذهم من عبادة الأوثان، و أمرهم بطاعة الرحمن، حتى قامت حجج اللّه و آياته، و تمّت بالتبليغ كلماته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على أول مستجيب إليه على أمير المؤمنين و سيد الوصيين، أساس الفضل و الرحمة، و عماد العلم و الحكمة، و أصل الشجرة الكرام البررة، النابتة فى الأرومة المقدسة المطهرة، و على خلفائه الأغصان البواسق من تلك الشجرة، و على ما خلص منها و زكا من الثمرة) «١».

و يذكر ابن الجوزى أن الحاكم كان يرسل الرسل إلى قرواش، و يكاتبه حتى استماله، فأقام الدعوة له بالموصل، و انحدر إلى الأنبار، و أظهر قرواش الخلاف، و أدخل يده فى المعاملات السلطانية، و ورد على الخليفة من هذا ما أزعجه، فراسل عميد الجيوش، و كاتب بهاء الدولة البويهى.

و لقد كان هذا التهديد الفاطمى خطيرا، حمل العباسيين على اللجوء إلى كل الوسائل لدفعه عنهم و النيل من الحاكم و الفاطميين، و لجئوا إلى الطعن فى نسب الفاطميين، و تحريک المشاعر الدينية ضدّهم، و الضرب على أوتار الزندقة و الإلحاد، و رمى الآخرين بالكفر و الفسوق، مما اعتاده علماء العوام و خدمة الملوک، فكتب فى ديوان الخلافة محضرا بذلک أخذت فيه خطوط الأشراف و القضاة و الفقهاء (شهدوا جميعا أن الناجم بمصر و هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم حكم اللّه عليه بالبوار و الدمار و الخزى و النكال و الاستيصال ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده اللّه، فإنه لمّا صار إلى الغرب تسمى بعبيد اللّه و تلقب بالمهدى، و من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليه و عليهم لعنة اللّه و لعنة اللاعنين أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب، و لا يتعلّقون منه بسبب، و أنه منزّه عن باطلهم، و أن الذى ادّعوه من الانتساب إليه باطل و زور، و أنهم لا يعلمون أن أحدا من أهل بيوتات الطالبيين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء، و قد

---

(١) المنتظم ج ٧ ص ١٤٩. و النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٥.

كان هذا الإنكار لباطلهم و دعواهم شائعا بالحرمين، و فى أول أمرهم بالغرب منتشرا انتشارا يمنع من أن يتدلّس على أحد كذبهم، أو يذهب و هم إلى تصديقهم، و إن هذا الناجم بمصر هو و سلفه كفّار و فساق فجار ملحدون زنادقة، معطلون، و للإسلام جاحدون، و لمذهب الثنوية و المجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، و أباحوا الفروج، و أحلّوا الخمور، و سفكوا الدماء، و سبّوا الأنبياء، و لعنوا السلف، و ادعوا الربوبية).

و قد سقناه بكامل نصه و لفظه لإظهار ما كان عليه العباسيون من ضيق و قلق، فالتمسوا فى الطعن، وكيل التهم متنفسا و مخرجا. و لهم من الأتباع ممن تمسحوا بالعلم و تزيوا بالفقه ما يحقق لهم أغراضهم و يترجم رغباتهم. و قد لجئوا إلى التزوير، فوضعوا خط الشريف الرضى فى المقدمة «١».

و معلوم أن الشريف الرضى- بمكارمه و عظم منزلته و جلالة قدره فى مجتمعه و أهل بيته- كان لا يرى فى الملوک العباسيين من هو أهلا لها، و قد عرف القادر منه ذلک، و أصبح يخشى السيد الرضى لأنه يرى هوانا فى مقامه فى ظل حكّام كالقادر، فيفصح عن رأيه فى حكم العباسيين، و يجهر بميوله إلى الفاطميين مبالغة فى إظهار الخلاف للعباسيين، و يقول السيد الرضى:

ما مقامى على الهوان و عندى مقول صارم و أنف حمىّ

أحمل الضيم فى بلاد الأعادى و بمصر الخليفة العلوى

من أبوه أبى، و من جدّه جدّ ى إذا ضامنى البعيد القصى

و منها:

لف عرقى بعرقه سيدا الناس جميعا محمد و علىّ

إن جوعى بذلک الربع شبع و أوامى بذلک الطلّ رىّ

و لا يبعد أن يكون اعتراف الشريف الرضى بالحكام الفاطميين و التصريح برغبته فى اللحاق بهم فى نظر العباسيين بمستوى واحد من الأهمية مع اعتراف الولاة بالطاعة للفاطميين، و ذلک لعظيم مكانة الشريف الرضى و هيبته و تأثيره على الناس، لعلمه و شرفه و فضله، و أن يكون ذلک من أسباب لجوء العباسيين إلى كتابة محضر ديوانهم،

---

(١) انظر: المنتظم ج ٧ ص ٢٥٥ و البداية و النهاية ج ١١ ص ٣٤٦. و النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩.

و من الروايات ما يفيد أن أبيات الشريف الرضى الشعرية كانت وراء أمر القادر بكتابة المحضر.

و مهما يكن من قول، فإن الشريف الرضى لم يكن بالرجل الذى ينصاع لإرادة الباطل و أوامر الجور، و يتخلى عمّا يليق بمنزلته من قول الحق.

و لم يحرّک محضر العباسيين مشاعره أو يثير غضبه، بل أهمله تماما.

و الخلاصة:

فإن الحاكم كانت تبدو عليه منذ حداثة سنّه مظاهر التفوّق و الذكاء و قوة الشخصية، و قسمات الإنسان المتميز عن الأشباه و الأقران، و كان صاحب اهتمامات ثقافية و فكرية مبكرة، لا فى مجال الفلسفة و التشيّع و الفلک و التنجيم فقط- كما اشتهر عنه- بل و فى مجال التذوّق الأدبى للشعر و النثر، و المشاركة فى مجالسهما و مخالطة أعلامهما فى ذلک الحين «١».

و برز فى عهده أسماء كان لها أثرها فى انتشار الإسماعيلية كأحمد حميد الدين الكرمانى، و القاضى عبد العزيز بن محمد بن النعمان، و الحسن بن الحسن بن الهيثم و غيرهم من الدعاة و رجال الفكر الإسماعيلى.

أی أن الحرکة العلمیة التی بدأها المعزّ الفاطمی مع بنائه القاهرة لم تهدأ، و بقیت علی و تائرها المتعددة، منها ما یتعلق بالفکر الإسماعیلی، و منها ما یتصل بالحیاة الفکریة و الأدبیة المختلفة، و التی تدین للمعزّ الفاطمی بأعماله و عنایته، کما تدین العلوم الإسلامیة لعمله الأزهر بالفضل. و لا جدال فی أن عصر المعزّ لدین اللّه من أزهی العصور، و کیفما اتجهت إلیه النظرة، فإن عصره یمتاز بأمارات التقدم و الترقی و الحضارة.

و یحتل فی العقیدة الإسماعیلیة موقعا متمیزا بین أئمتهم، فقد عدّ بعد إمامهم محمد بن إسماعیل مجددا للشریعة، عند ما أمر القاضی النعمان بن محمد بتجدید الشریعة و رفع مبانیها و إظهار ظواهرها و معانیها، فألّفها فی مائتی کتاب تزید علی عشرین، و زاد علی ذلک عدة کتب، جاء فیها من ذکر الحلال و الحرام و القضایا و الأحکام «۲».

---

(۱) عند ما أصبحت مصر عربیة نقلا عن: الحاکم بأمر اللّه لمحمد عبد اللّه عنان.

(۲) کتاب الذخیرة فی الحقیقة، الفصل الحادی و العشرون.

و هنا لا بد من معاودة الإشارة إلی أن الفاطمیین من الإسماعیلیة کانوا فی معتقداتهم العامة بالإمامة یردّدون اعتقاد اعتقاد الشیعة الإمامیة، و جری فی أحوالهم السیاسیة هذا الاعتقاد، و جهدوا فی الحفاظ علی الطابع الذی یخفی آثار الباطنیة التی أبعدتهم عن الأرکان و الأصول، و عند ما تقترب منه نقاط الاختلاف و مواضع الافتراق، تتحول معتقداتهم إلی أمور بعیدة عن عقائد الشیعة علی ما تضمنه من اعتراف بمنزلة الإمامة و عقیدة الوصایة- فهی کما قلنا سابقا- واحدة فی الأصل، لکنها فی السیاق تفترق من بعد عصر الإمام الصادق علیه السّلام و یشعر المسلم الشیعی فی مراسیم الدولة الفاطمیة و أقوال حکامها بالقرب من عقیدة الإمامة الشیعیة فی أصولها و أحکامها، إلا أنها سیقت بعد الانشقاق إلی أشخاص فیهم صفات الحکام و السلاطین غالبة، و لا یبدو علیهم مهما أضیف إلیهم من صفات أخری أی قدر من المنافسة لأصحاب الإمامة الحقة و أهل الخلافة الکبری ممن حفظ النص بهم، و جعلت فیهم الولایة و الخلافة و الإمامة: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ.

و لقد کان الأخ الصدیق العلامة محمد حسن الأعظمی- عمید کلیة اللغة العربیة بکراتشی- واقعا تحت تأثیر دعوته الإیمانیة الطیبة إلی التقریب و الوحدة عند ما حکم بأن الشیعة الإمامیة یتفقون مع الفاطمیین علی المسائل العامة فی الفقه. و الصدیق الأعظمی یقدّم مشاعر التقریب و الاتفاق علی الحقائق التی لا سبیل إلی تجاوزها، و قد عرفناه واسع النشاط، غزیر المعرفة، صادق الکلمة، یحمل رسالة المودّة و الصفاء، و لأقواله أثر فی المحافل. لذلک ذهبت مقالته نصا اعتمدها الأستاذ الدکتور محمد غلّاب- أستاذ الفلسفة بالدراسة العلیا بالأزهر- و لو ترک القول دون أن یعقبه تفصیل لحملناه علی العموم و قلنا إن السید الأعظمی یرید أن المسلمین جمیعا یتفقون فی المسائل العامة فی الفقه بأصولها، و هو ما یشملنا و الفاطمیین. کذلک قوله فیما تختص به الشیعة من الأخذ عن طریق أهل البیت، لکنه یحصر الاختلاف فی أمرین أساسیین:

أولا: فيما يتعلق بمواقيت الصيام و الفطر. فالفاطميون يكملون رمضان ثلاثين يوما فى كل عام، و لا يلتزمون برؤية الهلال، بل يعتمدون على التقويم الفاطمى و الحساب، و الاثنا عشريون يقيّدون صيامهم اعتمادا على أحاديث صحّت عندهم برؤية الهلال كأهل السنّة.

ص: ۴۹۶

ثانيا: الاثنا عشريون يجيزون زواج المتعة، أما الفاطميون فلا يجيزون المتعة كأهل السنّة.

و ليس الأمر بهذه السهولة، و نخشى أن يخرج الحديث عن موضوعه، فإن الأجزاء السابقة من الكتاب ضمّت بحوثا عن المتعة، استوفينا بها أوجه الخلاف، و يضيق وسع الكتاب الآن، كما نحذر الدخول فى المسائل الفقهية القليلة و القصيرة التى تسربت عن الإسماعيلية، لأن أحكامهم خاصة بهم بعد عصر الافتراق. و قد أخذنا على أنفسنا التعرّض للاعتقادات المهمة، لأنا لا نودّ أن نحجب الحقائق الدينية، و لكنا لا نتزحزح عن نورها إلى ضيق و عتمة الرموز و التأويلات المتكلفة، فالفاطميون يقولون: إن أسرار الدين متوقفة على تعليم الأئمة من نسل فاطمة الزهراء، و هم الكواكب و النجوم و المصابيح، ترسل نور المعرفة إلى قلوب أتباعهم، كما أن العين المبصرة بدون القمر و الشمس و المصباح لا تحقق الفائدة المرجوة، كذلک المسلم لا بدّ له من أن يستمدّ من الأئمة أنوار العلم و المعرفة. و إلا فإن العقول وحدها لا تكفى «۱». و رووا عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «إنى تارک فيكم الثقلين: كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا أبدا، و إنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض» «۲». و قوله للإمام على: «سوف تقاتل على تأويله، كما قاتلت على تنزيله» «۳». فهذا كله يدل على أن الوصى و من تبعه من الأئمة من ذريته هم الذين اختصوا بتأويل القرآن، و لذلک رووا عن على قوله: «ما نزلت آية من القرآن إلا علمت كيف نزلت، و أين نزلت، و فى أى شىء نزلت، سلونى قبل أن تفقدونى».

و نكتفى إلى هنا بما أورده السيد الأعظمى حيث تبدأ بعد هذه النقطة مجالات الافتراق عنّا و دخولهم فى عالمهم الخاص بهم. ففى بدء كل مسألة يساق النص بلفظ أو بآخر، ثم يعقبه عرض بحسب معتقداتهم. فمثلا يأتى لفظ (فالإمامة عندهم- الفاطميين- هى قيادة العالم و حمل الحقيقة إليه، و مثل هذا المرشد ضرورى وجوده فى كل عصر حتى لا يبقى العالم جاهلا) «۴». و هو من نصوصهم الخاصة، و لا ينافى

---

(۱) الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية ص ۲۴.

(۲) المجالس المؤيدية ج ۱ ص ۱۴۷ (الحقائق).

(۳) أسرار النطقاء ج ۲ ص ۲۰۳ (الحقائق).

(۴) كلام بير ص ۲۱ (الحقائق).

ص: ۴۹۷

مضمون الإمامة من حيث كون الإمام هو الهادى و المرشد إلى الطريق الحق، و هو القدوة لقوله تعالى: وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً و قوله عز و جل: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا و الإمامة التى تنطوى عليها الخلافة هى لدوام النبوة و بقاء الرسالة لقوله تعالى: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً و قوله سبحانه: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ و الشيعة تقيّد الإمامة بالنص، و تجعلها فى إطارها الشرعى و أصلها الدينى، فهى من أركان الدين، و ليست من الفروع حتى يمكن أن يجتهد فيها، و تفوّض تفاصيلها و أحكامها إلى البشر، فيكون للأمويين الرأى فى الإسراف فى الظلم و اتخاذ مظاهر السلطان و العظمة، و يصبح للعباسيين الحق فى قتل أولاد النبى محمد، و ارتكاب المحارم، و صرف أموال الرعية فى غير وجوهها و حلّها. و قد أطلق الإمام الكاظم- كما علمنا- كلمته فى شدة المواجهة مع السلطان و الملوكية التى تتلبس بالإسلام، فقال للرشيد قولته: «أنا إمام القلوب، و أنت إمام الجسوم» لأن مظاهر الخضوع و الموافقة التى تنسجم مع مظاهر الأبهة و السلطنة كانت من مقتضيات القهر و الغلب، و لقد جاء من سوّغ إظهار الحكم المتسلط بالسيف و القائم بالغلبة بمظهر الإمامة، و إقرار سلطانه مع الفجور، و ذلك من أبعد ما يكون عن الإسلام، و من أغرب ما اختاروه للإساءة إلى عقيدة الإمامة.

و إذا نظرنا إلى الملوك الفاطميين، وجدنا انسياقهم إلى مظاهر الملوكية بأوسع صورها. و قد كان المعزّ- صاحب المواكب و الركوبات التى تبعث على الدهشة و الانبهار- إذا ما اطلع المرء على ما كتب عن هذه المواكب و الركوبات التى يترك وصفها فى النفس و الذهن صورا خيالية، و هى تجرى على نظام و ترتيب و مراسيم و أعمال لم يكن مثلها فى عصر أو قطر آخر «١». و القصد أن مسلك حياتهم أقرب إلى الدنيا و السياسة، و أدنى إلى إمامة الجسوم و سلطة الزمان، و هم أوفق بها. أما الإمامة الكبرى فهى مقيدة بشروطها، و متعلقة بأهلها الذين أحاطهم ولاة الجور بأسوار من الرعب. و لكن نور الإمامة لا تحجبه زنزانات الحكام أو عساكرهم، و لم ينل الحكّام من تفانى الأئمة الأطهار من أهل البيت فى الدعوة إلى التمسّك بالعقيدة و نشر الأحكام.

و الخلاصة، فإن الفاطميين قاموا بدور كبير و مشرّف فى مجال رفعة شأن

---

(١) انظر تفاصيل وصف المواكب هذه فى النجوم الزاهرة ج ۴ ص ۷۹- ۱۰۱.

الإسلام و إبراز عظمة فكره، و قد جذبوا إليهم الكثيرين من المفكرين و الأدباء و الفقهاء فانضموا إلى الدولة الفاطمية، و اعتنقوا الإسماعيلية، و أصبحوا قادة فيها، و هم كما قلنا فى مظهر عقيدتهم يتوخّون ما يتفق مع العقائد و الأحكام، و يقتربون من عقائد الشيعة فى مهمات الأمور و الأحداث التاريخية، و لعل صحة النسب و بقاء الانتماء إلى الدوحة المطهرة كان من أهم عوامل تميّزهم عن بقية الفرق الباطنية.

الهفت و الأظلة:

حاولت فی بحثی عن الإسماعیلیة و الإمامة أن أحصل علی أغلب المصادر و الکتب التی تختص بالإسماعیلیة، و أن تکون من مظانّها و تصدر من أصحاب العلاقة.

و قد نشر معهد الدراسات الشرقیة فی بیروت کتابا سمّی: بالهفت و الأظلة.

و قدم له الأستاذ الإسماعیلی عارف تامر بضمیمة الأب عبده خلیفة الیسوعی، و هو ینسب للمفضل بن عمر، و الکتاب جاء کمجالس متعددة تتضمن أسئلة متفرقة من المفضل بن عمر إلی الإمام الصادق یوجهها المفضل، و الإمام الصادق علیه السّلام یجیب.

و انتشر الکتاب بعنوان أنه من کتب الإسماعیلیة، ثم صدر کتاب (الهفت الشریف) تقدیم و تحقیق الأستاذ الإسماعیلی مصطفی غالب.

و الکتاب مجهول المؤلف و معدوم السند، بل یفقد کل عوامل الصحة و مقومات القبول، و مع الفرض أن المؤلف معروف و اسمه مشهور و الإسناد موجود، فإن العقل یحکم بأن الکتاب نوع من أنواع المهازل، و صورة من صور الخرافات المؤلمة التی منی بها المجتمع الإسلامی، فکم ابتلینا بدسّاسین، و أثقل کاهل المسلمین بما وضعه الذین یفترون الکذب علی اللّه و رسوله من أفکار و أقوال و ما سطّرته تلک الأیدی من کتب نسبوها إلی رجال الأمة من حملة العلم و رؤساء المذاهب مما لا ینسجم مع ما عرف عنهم و ما هم فیه من المنزلة، و لو لا واجب الحق و إظهار الحقیقة لألقیناه فی سلة المهملات أسوة بغیره من الکتب المکذوبة التی تضم الأراجیف و الخرافات، و تعلن عن نفسها بنفسها لوضوح مضامینها و ما تضم بین صفحاتها، و لا ندری ما الدافع علی نشر الکتاب إذا کان الناشر نفسه یعترف بأنه یحتاج إلی مناقشته بابا بابا، و فکرة فکرة، ففیه ما لا یقبله العقل کما یعترف بقوله:

(إن الإمام الصادق- و هو الحکیم الموحّد المعروف بسعة علمه و إیمانه- یترفّع عن تعمیم هذه الأفکار لتلامیذه و تبلیغها لمریدیه).

و أول ما یسترعی الانتباه من الناشر قوله: (مما لا جدال فیه أنه قد نؤاخذ علی محاولتنا هذه، و قد نلام من الأصدقاء و الإخوان، لأن الکتاب الذی ننشره الآن من الکتب السرّیة التی لا یجوز نشرها علی العامة، لأن فیها تعالیم ربما یساء فهمها و تؤوّل علی غیر حقیقتها، مما یحدث آثارا سیئة فی النفوس و یمزّق وحدة الصفوف، و ما أحوجنا إلیها فی هذه الظروف، و لکن لا بد من القول و نحن أمام موضوع خطیر بأنه کم یثلج صدورنا إذا ما فتح هذا الکتاب أمام علماء و أدباء و باحثین لإبراز نصوص علمیة تدحض، و إثبات أشیاء تخالف الوقائع، فنحن لا یهمنا إلّا جلاء الحقیقة وحدها، و إبراز الواقع بوجهه الناصع، و الحقیقة تأبی إلا الظهور مهما اعترضها من عقبات).

يخيل للقارئ عند الوقوف على هذه العبارات أنه سيقف على شيء فى النهاية يستحق الخوض فى قراءة أو تحقيق أمور مخالفة للحقيقة و يرفضها الواقع، أو أن فى ثناياها بعد التشذيب عطاء فكريا أو دلالة عقائدية أو نتاجا أدبيا يقدّمه الأستاذ تامر إلى العالم خدمة للحقيقة و قياما بواجبه العلمى كما يشير إلى ذلک بقوله:

(إذ نضع هذا الكتاب بين أيدى العلماء نعلم علم اليقين بأننا قد أدّينا جزءا من واجبنا نحو العلم و الحقيقة التى عاهدنا اللّه أن نجعلها هدفنا و مثلنا الأعلى فى الحياة).

مما يشعرنا بأن الأستاذ عارف قد أطلق هذه الكلمة نتيجة لدراسة موضوع علمى بطريقة منهجية هادفة إلى كشف حقيقة أو إظهار تفاصيل أو دقائق فى اتباع أصول التحقيق لإبراز ما يخدم العلم و يظهر الحقيقة نتيجة ما اكتسبه من خبرة فى ممارسته، و عند ما نقف على الكتاب نصاب بخيبة الأمل و للوهلة الأولى، إذ لا نعثر فيه على أمر يناسب قوله، فليس فى الكتاب مواضيع معقولة، فضلا عن أن يكون علما أو فكرا أو نحوهما.

ليس فيه من المعرفة المتّسعة المنسّقة و المرتبطة بنظام يعنى من الأقوال أو الأفكار شيء، بل فيه كل ما يمجّه الذوق و يرفضه العقل و لا يقرّه العرف.

و نعود للاستغراب عند ما نقف على قوله أن نشر هذا الكتاب لا بد أن يلقى استنكارا ... الخ.

ص: ۵۰۰

و حق أن يكون الكتاب موضع استنكار و استخفاف لكل من يقرأه، فكيف لا يستنكر مثل هذه الأمور التى تفاجأ بها الأمة فى عصر الثقافة و العلم، و فى زمن التقدم و التطور، ينفذ إلينا من بوابة عضادتاها أحد المختصين الإسماعيليين و أحد الآباء المسيحيين، و الغريب أن يطبع طبعة أولى عام ۱۹۶۰ م و طبعة ثانية عام ۱۹۶۵ م. و إنى لأكبر الذوق الأدبى و البحث العلمى عن هذا الفهم السقيم و الذوق الهابط حتى يكون هناک إقبال على تناول هذا الكتاب إلا للاستهزاء و السخرية، و على الأغلب تكون من قبل أعداء الإسلام و الساعين بكل جهد و قدرة للنيل من أبنائه، و إعطاء صورة مشوهة عن مجتمعه. و لا أدرى أى شيء فى الكتاب يدل على صحته و يشير إلى ثبوته حتى يحتاج إلى دحض، و أى عمل يوصف بالموضوعة و المنطق حتى يدعو إلى نقد؟؟! و لا بد أن نتساءل بموضوعية عن مقومات أى بحث تاريخى أو أثر علمى، أ ليس المضمون أو المنهج أو المعالجة أو الوصف التاريخى هى الأسباب التى تكسب البحث أهمية و الأثر دلالة؟ فيتوخى منه الفائدة، و يرجى منه المعرفة. أما إذا كان الأثر و الكتاب يحدث آثارا سيئة لعدم هذه الأسباب و لخلوّه من الأهمية، فلا مبرر لذكره فضلا عن التفكير فى نشره، و إن كان من صنف (الهفت) بخرافاته و أباطيله و أكاذيبه، فعلى المرء- أى امرئ مسلم- أن يسعى إلى إتلافه و يعمل على محوه، لما يحدثه من آثار سلبية تمسّ وحدة المجتمع.

أضف إلى أن الكتاب منحول من قبل شخص لا يجيد الوضع، و لا يحسن الألفاظ التى صاغ بها أكاذيبه.

و الكتاب مجهول المؤلف و معدوم السند، فكيف أقدم الاثنان على تكليف نفسيهما إشاعة عمل لا تتوافر فيه عناصر الصحة. و إن يكن عتب فعتب على عارف تامر لكونه إسماعيلى المذهب، و فى مثل هذا العمل إساءة بالغة سيما إذا كانت تصدر من إسماعيلى. و نستغرب متسائلين: ما هو الدافع و ما هى الخدمة التى يسديها بنشر هذا الكتاب؟ فليس من خدمة العلم و الحقيقة فى شىء أن تنشر هذه الأقوال الكاذبة و الخرافات الشائنة و تنسب إلى شخصية (خارقة متفوقة ذات مستوى رفيع هامت بجلائل الأعمال) هى شخصية الإمام الصادق عميد أول مدرسة فكرية فى الإسلام و رئيس أول مركز لتعليم الفلسفة، و مخرج العقل فى العصور الإسلامية من نطاقه المحدود إلى فضاء رحيب تسيطر على أرجائه حرية الفكر العلمى السليم القائم على

الحقيقة و المنطق و الواقع، و أن مدرسته عليه السّلام قد أنجبت خيرة المفكرين و صفوة الفلاسفة و جهابذة العلماء- كما يقول عارف نفسه- «١».

و لم يستبق الناشر النتائج بوعيه عند ما يقول و يعترف أن الكتاب لا يليق بالنشر، و ذلک ما يدعو إلى الحيرة، فإن النتائج هى أحداثه الفرقة فى المجتمع، و تعريض وحدة الصف إلى التمزّق لأنه لا يضمّ بين دفتيه إلا الإساءة لجميع طوائف المسلمين و التهجّم على العقائد، و الطعن برجالهم.

و لا يدرى أحد منّا إلا الناشر نفسه ما هى الأسباب التى تكمن وراء نشر الكتاب و هو يصرح برأيه فيه.

كان اللازم- كما يقضى واجب النشر و أمانة النقل- أن يتأكد الناشر من صحة الكتاب و نسبته للمفضّل، و أن يتحرّى صفة المؤلف من الكتاب، فإذا عدم الاسم استدل بالأثر، فهل كان المؤلف ثقة فى النقل و رجال أسانيده كذلک. فإذا كان الأثر عبارة عن أكاذيب و مفتريات و خرافات، فالمنتحل أبعد ما يكون عن صفات الثقة و الأمانة.

و لا أجد تبريرا أو احتمالا مناسبا يجعلنا على علم بارتكاب مثل هذا الخطأ، و قد كنت بحسن الظن أحاول ذلک باعتبار الأستاذ عارف من الكتّاب الذين ينادون بحرية الكلمة و الموضوعية. إذن لا بد أن هناک أسبابا خاصة و عوامل غامضة حدت به إلى أن يقوم بطبع الكتاب، فيقدّم للمكتبة العربية و الأمة الإسلامية كتابا لا يحتوى- باعترافه- إلا آراء غريبة و شاذة، الأمر الذى يصبح أمامه موضوع العلم و الحقيقة مجرد ادعاء و صبغة يحاول أن يطلى نفسه بها دوما، فأى حقيقة فيما يدور بين الأشباح و الأظلّة، و ما يعرضه أمامنا من عالم المهووسين و المصابين، و تزكم أنوفنا رائحة الدسّ التى تفوح من الآراء و الحوادث التى وردت فى الكتاب كالأظلّة و الأشباح و المسوخية و الناسوتيّة و الأدوار و الأكوار و الرسخ و المسخ و الزواخر و حجب الآدميين و قد القدود و سطح السطوح و الحجب الشجى ... الخ ... و نظريات أخرى تتعلق بالإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام و سلمان الفارسى، و بدء الخليقة، و تقمص المرأة ... و افتراءه على الإمام الصادق عليه السّلام فى كثير من تأولاته، فيقول بكل جرأة

---

(١) القرامطة ص ٤٩.

إن الإمام الصادق هو مؤسس الباطنية فى الإسلام، و فى عهده نمت و ترعرعت البذور التى غرست حتى بذور ابن سبأ، فتراه هنا يثير قضية لا صلة لها بالواقع، فحكمه بأن تأسيس الباطنية يعود إلى الإمام الصادق هو من جملة المفتريات التى أشرنا إليها فى بدء الحديث و قلنا أن قدم الاعتقادات الإسماعيلية و اتصالها بالمدارس الفلسفية و المذاهب القديمة التى سبقت الإسلام حملها على الافتراء و الالتصاق بالإمام الصادق، و نسبة المعتقدات التى ظهرت بعد انحرافهم عن مسار الوصاية و الإمامة إلى الإمام الصادق و أهل البيت و كل أحكامهم بلا بينة و جميع أقوالهم بلا دليل، لأن عزل النصوص عن مقاصدها و سوق الأفعال التى تصدر عن الإمام الصادق أو غيره من الأئمة المعصومين فى غير ظرفها تجن واضح و افتئات مشين.

و يبدى لنا الأستاذ على صفحات الكتاب رأيه فى قضية ابن سبأ، و أن آراءه قد ترعرعت بذورها فى ذلک العهد، فإذا به يتعرّى تماما من صفات التحقيق و التثبّت.

و قضية ابن سبأ لا تقل خرافية و كذبا عن (الهفت) الذى قدمه عارف ثامر فما هى إلا شخصية وهمية أوجدتها العناصر المعادية للإسلام، و غذّتها الطائفية الرعناء، و كان غرسها و نسج خيوطها فى القرن الثالث الهجرى. و قد بحثناها فى غير موضع فى أجزاء الكتاب السابقة.

و لا نجهد أنفسنا بأكثر من ذلک فى الردّ على عارف، بل نحيل الردّ على الأستاذ الإسماعيلى مصطفى غالب فيقول:

و لا بد لنا و نحن نستعرض بعض ما كتبه عارف ثامر من أن نشير إلى الكتابين اللذين أصدرهما مؤخرا و هما: (الإمامة فى الإسلام و القرامطة) لما أورد فيهما من الأراجيف و الخرافات المضحكة، مع علمنا الأكيد بأنه هو نفسه يعرف حقيقة تلک الأراجيف و الأساطير التى لا تتفق مع المنطق و التاريخ، و تتناقض أشد التناقض، و لكنه جاء بها لينال ما يرضى شهوته و يشبع نهمه، معتمدا فى ذلک على المبدأ الذى يقول: (خالف تعرف) و لقد شحن هذين الكتابين بكل ما هو غريب و مخالف لجميع من سبقه من الكتّاب و المؤرخين، و إن كنا نعجب لمن يختلق مثل هذه الروايات، و يفتعل النصوص، و يحرّف الوثائق، نقول و الألم يعصر قلوبنا و يحزّ فى أعماقنا أن الغاية لدى هذا الإنسان تبرر الواسطة، حتى و لو كانت الواسطة تقويض دعائم الدين، و طعنه فى الصميم، و الإجهاز على آخر رمق من الضمير الإنسانى، علما بأنه لو أردنا

الرجوع إلى أى كتاب من الكتب التى حققها أو ألّفها عارف ثامر نجد نقيض ما قال فى الآخر، فهو يأتى بالفكرة أو المصدر أو الرأى فى هذا الكتاب، فى حين أنه يخالفه أشدّ المخالفة، و ينقضه أبشع النقض فى كتاب آخر، ذلک لأن كل كتاب سار فيه حسب الهوى الجارف «۱».

و عن الهفت و الأظلة يتحدث الأستاذ مصطفى غالب حول ما ارتكبه الأستاذ ثامر من التحريف و الزيادة و إن كان (الهفت) الذى شرّفوه- و إنما يشرّفون الخرافة و الافتراء- فى متنه هو من جنس ما قدّمه ثامر، و لكن مصطفى غالب يدّعى أنه لفرقة

باطنية أخرى، و لا يعنينا ذلک لأن العبرة فى المضمون و فى الاتجاه الباطنى الذى نخالفه. و علىّ أن أسوق القول على طوله لمقتضيات البحث:

(مما لا جدال فيه أننا نعيش فى عصر تطوّر فيه العلم و الفكر، و انطلقت عصارات الأدمغة المفكرة لتفعل و تبنى صروح البشرية على أساس علمى صحيح رائده الخلق و التقدم و الإبداع، و لتنير الطريق الصحيح أمام الأجيال الصاعدة التوّاقة إلى الارتشاف من منهل العلم و المعرفة، و أصبح للفكر رسالة مقدسة هدفها التوضيح و النوعية و الأمانة بعيدا عن الارتزاق و الهواية و التحريف. فإنسان هذا القرن (التكنولوجى) أصبح ينظر إلى العلم بمنظار الواقع و الحقيقة و الصدق فى تتبع الأحداث التاريخية و الوقائع العلمية ... دعانى لإطلاق هذه الصرخة الداوية ما لمسته مؤخرا أن بعض الأيدى قد عبثت و لا تزال تعبث فى تراثنا الفكرى، و خاصة ما يتعلق منه بآثار الفرق الباطنية السرّية. نعم لقد امتدت الأيدى (غير الأمينة) فتلاعبت بما عثرت من نصوص مخطوطة فغيّرت و بدلت فيها بدون رادع من ضمير أو وازع مناقبى.

فى مطلع عام ١٩٥٨ ميلادية طلب إلىّ المستشرق الآلمانى الكبير البروفسور (شتروتمان) أن أعيره نسخة خطية من الكتاب الهفت الشريف الذى كان فى ذلک الوقت يعمل على نشره و تحقيقه فى (هامبورغ) ... فقد لبيت طلبه و أرسلت له النسخة المطلوبة ...

و راحت الأيام تدور، و إذا بى أفاجئ بكتاب معروض فى الأسواق أصدرته

---

(١) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ١٩- ٢٠.

المطبعة الكاثوليكية فى بيروت سنة ١٩٦٠ م على حساب دائرة (البحوث و الدراسات بإدارة معهد الآداب الشرقية) عنوانه (الهفت و الأظلة) المنسوب إلى المفضل بن عمر الجعفى، و قد قام بتحقيقه و التقديم له عارف ثامر و الأب أ. عبده خليفة اليسوعى.

اللّه. اللّه. كيف تبدل عنوان الكتاب بهذه السرعة الصاروخية من الهفت الشريف إلى الهفت و الأظلة؟ فقلت لنفسى: ربما كان هذا كتابا آخر. أم أن هنالک بعض النسخ المخطوطة تحمل هذا العنوان. فرحت أبحث و أنقب خلال ثلاث سنوات حتى تمكنت من الاطلاع على أكثر من ثلاثين مخطوطة، و قد جاءت كلها بعنوان واحد هو (الهفت الشريف) ... فأخذت أراجع النسخ المطبوعة و أطابقها على نصوص النسخ الخطية فوجدت مع الأسف الشديد بأن التلاعب و التزوير قد وقع بالفعل، و لما كنت أحرص على أن يكون المؤرخ أو العالم أو المحقق متّصفا على الأقل بالأمانة العلمية و الدقة و الإخلاص و التجرّد و النزاهة، فقد عمدت إلى تحقيق الكتاب مشيرا إلى الزيادات و التحريفات بقدر الإمكان ..

ثم يخاطب الأستاذ غالب الأستاذ ثامر:

نحن لا ننكر الخدمات التى قدمتها للمكتبة الإسماعيلية حيث قمت بنشر و تحقيق بعض المؤلفات بالرغم من أنها جاءت مشوّهة مقلوبة رأسا على عقب، و بصراحة أقول: إننا نفضل ألف ألف مرة أن تبقى تلك الآثار فى طى الكتمان و الإهمال على أن تتناولها الأيدى مبتورة. تلاعب التحقيق بنصوصها و حتى بعناوينها ...) «١».

و أعود و أعتذر لهذا النص الطويل، و لكنه من ضرورات اكتمال السياق و عرض الصورة بأبعادها، و نحن أخذنا من الأستاذ غالب ما اكتشفه فى عمل الأستاذ تامر من تلاعب بالنصوص، و هى ثورة حقيق بها أمر ذو بال و أهمية. و الذى يبدو أن المحتوى و المضمون فى الآثار الإسماعيلية لا يحتل أهمية بقدر ما يحتل النص و المنقول. و كان مما يناسب عصر العلم و التكنولوجيا أن يتجه نقد الأستاذ غالب إلى النص ذاته و إلى حقيقة هذه الخرافات و الافتراءات، و ليس الأمر مجرد آثار محفوظة و سرّية مما يضنّ به على الآخرين، و لا يطلع عليه إلا المنتسبون إلى الجماعات السرّية الباطنية. و من

---

(١) مقدمة كتاب: الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق عليه السّلام رواه المفضل بن عمر الجعفى.

المؤسف أن يكون الفصل فى تقرير أهمية النص أو صحته بأيدى المستشرقين، فيلجأ إليهم فى تحديد واقعية النصوص و ربما العقائد.

و الغريب أن يكون لهذا الهفت الساقط نسخ عديدة و كثيرة. و مهما كانت المكانة التى يحتلها الكتاب، فإن وجود مثل هذه النصوص أمر غير محسوم من جهة الإسماعيلية و الفرق الباطنية الأخرى بدلالة ما وقع بين الأستاذين بهذا الخصوص و نحن استشهدنا بأقوال الأستاذ غالب فى مؤاخذته على الأستاذ ثامر لإظهار ما عليه الأخير من عدم التثبّت و عدم الدقة، أما الناحية الأخرى و هى المهمة فإن لهذه النصوص وجودا و أثرا فى الحياة الدينية للفرق الباطنية لأنها تتفق مع نمط العقائد و طريقة العلاقات و المراسيم، و لذلک من الصعب أن يحكم الإنسان على إغفالها من قبل الإسماعيلية أخذا بأقوال الأساتذة من الإسماعيلية، و إنه لممّا يحزّ فى النفس حقيقة أن تبقى عناوين الأغلفة بعباراتها، و تظل أسماء هذه الكتب بألفاظها «١».

فالشيعى عند ما يقول: مولانا الإمام الصادق. يدرک ما ذا وراء هذه العبارة، و يعبّر عن معتقده بهذا القول، لأن الإمام الصادق عليه السّلام هو سادس الأئمة الأطهار وهبه اللّه المعرفة و الحكمة، و منحه الإمامة و الولاية، و اجتاز بالعقيدة الإسلامية ذلک المعترک القاتل و المحنة القاسية، فحفظ اللّه على يديه تراث آل محمد، و أنقذ اللّه به شيعة آل محمد فى نفس الوقت الذى حفظ به الإسلام و حصّنه.

إن النزعات الباطنية و الميول الخفية فى المعتقدات التى التقت بالإسماعيلية اعتمدت بعض الوجوه التى عليها فى السير بعض الغموض، و هنا كان الاختيار، و قد وقع على المفضل الجعفى، و قد تأثروا بالاختلاط الذى وقع فى الأقوال عنه، و بما حصل من تدافع، غير أن الأغلب و الأرجح هو تعديل المفضل و الركون إليه عندنا، و كلما قيل عنه من تحول و اختلاط فى النظرة إليه و القول فيه من قبل المصنّفين قد هذّبه و عدّله رواية علمائنا عنه كالشيخ الصدوق و الشيخ المفيد. و غلبه مدح الأئمة، مما

يكشف لنا أن قادة الاتجاه الباطنى يختارون ما يمكن النفاذ منه بالبناء على الخلط و الجرح، و ما علموا أن الحقائق و العقائد السليمة يموت حولها ما يعلق من شوائب، هذا إذا كان الاختلاط فى النظرة إلى المفضل مقصورا على الكتب القليلة التى خاضت

---

(١) الكتاب بعنوانين، أحدهما خارجى: كتاب الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق عليه السّلام رواه المفضل بن عمر الجعفى، و داخلى: كتاب الهفت الشريف رواه المفضل الجعفى.

فيه. أما القول الحق فهو ما أخذ من حقائق سيرته و من وقائع حياته، و ينحسر ما علق بصورة المفضل من غموض إذا تجنّبنا ملابسات انشقاق الإسماعيلية عن مسار الإمامة، كما لا يخفى دور الزنادقة فى الإساءة إلى المفضل لتصدّيه لهم، و ردّه عليهم. فإن بعض الروايات التى لا يركن إليها تصوّر المفضل بأنه وراء انحراف إسماعيل بن الإمام الصادق عن أبيه، و أنه كان منقطعا إليه، يقول فيه مع الخطّابية ثم رجع بعده. أما الزنادقة فإن من آثار الإمام الصادق العلمية و أجوبته الخالدة هو كتاب (التوحيد) فى أجوبة الإمام للمفضل بن عمر حينما سمع كلام ابن أبى العوجاء و إنكاره الصانع، فناظره المفضل، ثم بادر إلى الصادق عليه السّلام و طلب منه أن يملى عليه ما يقوى به على مناظرة الزنادقة، فأجابه بدلائل التوحيد و محكم البراهين على وجود الصانع الحكيم «١». فاختار الكذّابون الذين وصفوا (هفتهم) ذات الطريقة فى الإملاء بمجالس، و حسبوا أنهم سيسلمون من الفضيحة أو ينجون من العقاب. و لا ننسى أن نذكر أن طبيعة الدعوة الباطنية و غموضها يساعد على هذا الافتراء، و ذلک للانقياد الأعمى و الاستسلام التام، و إذا ما خرج بعضها إلى نور الحقيقة انهارت و تبدّدت.

خاتمة الكتاب

و بذلک نصل إلى ختام البحث الذى استغرق عشرات السنين، رافقت فيها الإمام الصادق، و تشرّفت بالكتابة عن شخصيته، إلى جانب البحث عن شخصيات أئمة المذاهب الإسلامية.

و قد كان نهج البحث يقوم على الحقائق و النظرة إلى واقع الأمور بتجرّد و إنصاف، و عرضنا لغرض المقارنة لشخصيات أئمة المذاهب، بحيث تجرى على بساط البحث و بنتيجة التنقيب.

و كان بودّى أن ألحق بالجزء الثامن بقية ما يتعلق بالمسائل الفقهية فى الصوم و الحج و الطلاق و الفرائض و غيرها، غير أن اتساع الجزء الثامن بمواضيعه حال دون ذلک. عسى اللّه أن يجعل له مناسبة أخرى.

و أرى فى ختام الكتاب و انتهاء سلسلة البحث عن الإمام الصادق و نشأة المذاهب

(۱) انظر بعض هذه المجالس التى أملى فيها الإمام الصادق أجوبته فى المجلد الثانى/ الجزء الرابع من الإمام الصادق و المذاهب الأربعة.

أن أعيد التنويه بالحقائق التى لا تحتاج إلى كبير عناء فى إثباتها، و فى مقدمتها دور الملوک و أصحاب السلطان فى تعدّد المذاهب و زرع الفرقة و الخصومة بين أبناء الأمة الواحدة. و قد ابتدأت الفكرة منذ الفترة الأولى للانحراف عن مبادئ العدل الإسلامى و الانغمار فى مظاهر الملوكية و التسلّط، فكان على يد معاوية الترويج لشرعية العسف و الظلم، حيث أوجد له مؤسسات ضمّ إليها الكثير ممن تزيّا بزى العلم و الدين، و راحت هذه المؤسسات تلبّى رغبات معاوية و الحكام فى إضفاء طابع الشرعية و الصبغة الإسلامية على واقع حكمهم و حقيقة سلطانهم القائم على القبلية و العصبية الجاهلية.

و بعد سقوط حكم الأمويين و قيام حكم الملوک من بنى العباس فى ظل و أفياء الدعوة إلى الرضا من آل محمد، أرسى الملوک العباسيون تلک الفكرة على أسس طبّقوها و نفّذوها فى فترة أصبح فيها التشيّع خطرا يتهدّد الكيان العباسى.

فقد نبغت شخصية الإمام الصادق، و شاع ذكره فى الآفاق، و أصبح سيد علماء الأمة و قائد حركة العلم و الفقه، فبات أمره شغل النظام الشاغل و همّه الدائم، و لمّا فشلت محاولات القضاء على حياة الإمام الصادق، و كانت آيات نجاته و حفظه من أيدى المنصور؛ التمس الدوانيقى طريقا آخر، فسنّ للعباسيين سنّة إدناء شخصية معينة ممن يتوسّم فيها الفقه، لتكون فى الموضع الذى يكتسب من الحكم نفوذه و قوته، و تستعمل السياسة فى أغراض التمذهب، و إخضاع العلم الدينى لأغراض الدولة بحيث ترتأى الأحكام التى تأمن جانبها.

فيما كان الشيعة يمثّلون الاتجاه المناوئ، و يقفون بوجه هذه الأغراض، لأنها تستهدف النيل من مكانة الإمام الصادق، و تحاول بيأس التأثير على موقعه الروحى و شهرته العلمية، و كان الانصراف إلى الدين و العلم و الدعوة إلى التمسّک بأحكام الإسلام و التقيّد بأوامره، و اجتناب نواهيه الصفة الأساسية للصرح العلمى الذى سرت آثاره، و انتشرت أفكاره فى المجتمع الإسلامى، و الذى تمثّل بمدرسة الإمام الصادق التى انتسب إليها أربعة آلاف طالب، قاموا بدورهم فى رواية الحديث و بيان الأحكام و تبصير الناس و حفظ تراث الإسلام، فكان عليه السّلام: مشغولا بالعبادة عن حب الرئاسة «۱». و آثر العزلة و الخشوع «۲» و الانصراف لمهمّاته الدينية.

(۱) صفة الصفوة ج ۲ ص ۹۴.

(۲) حلية الأولياء ج ۳ ص ۱۹۲.

و من الحقائق أيضا، أن الشيعة فى عقائدهم من حيث النشوء كانوا مع مراحل الرسالة و تطورات الإسلام، فلا يخضعون لمقاييس التمذهب هذه، و ما كان من تسميته (المذهب الجعفرى) فهو بحكم اصطلاحات فترة التمذهب التى تبنّاها الحكام، و بروز شخصية الإمام الصادق فى ذلک العصر و تصدّيه بمؤسسات مدرسته و رجال دعوته إلى تيارات الخلاف و الاختلاف، فنتج أن الإمام الصادق رأى أن يبرز معالم أحكامه و فقهه و طريقة مدرسته و منهجها التى هى امتداد لأحكام أهل البيت الكرام و آبائه المعصومين، و فى فترة اتضحت فيها المقاصد، فراح عليه السّلام يختار من أصحابه و مريديه الرجال، فيحمّلهم المهام الدينية و الفكرية و الاجتماعية ليظهروا- فى خضم تلک الفترة التى تعدّدت فيها الموجات و اتسعت- أحكام آل محمد، و يطبقوا طريقة الإمام الصادق فى الدعوة الدينية، و حماية مبادئ العقيدة و روح الإسلام مما يحيط بها من مخاطر و ويلات، فكان مصداق ما سعى إليه عليه السّلام أن يقال عنهم: «رحم اللّه جعفر بن محمد ما أحسن ما أدّب به أصحابه».

و قد كان تفرّد الإمام الصادق بصفات خاصة من الحقائق التى عجزت السلطة عن إخفائها أو طمسها، و ظلت منزلته الدينية و العلمية لا ينال منها العداء أو النصب، فتراه عليه السّلام سيد الفقهاء و أستاذهم الذى يفتخر بالأخذ عنه، و يتشرف برواية حديثه.

و قد استظهرنا من تتبع ظروف نشأة مدرسة الإمام الصادق و أحوال نشاطها تلک المهمات الجسام التى كان على الإمام الصادق أن يتولاها، و تلک العوائق التى واجهها الإمام الصادق، فقد كان الخطر من السلطة الحاكمة بطابعه السياسى، و الخطر من الحركات التى قامت و اشتدت بطابعها الدينى و الفكرى.

و يدلنا البحث على متانة الصرح الفكرى الذى شيّده الإمام الصادق، بحيث تمكّن من أداء المهمات، و استطاع مواجهة تلک الأخطار، و أرسى حركة الفقه و العلم على قواعد ثابتة و أصول دائمة. و لذلک فإن الحاجة تزداد ظهورا فى عصرنا إلى إحياء منهج مدرسة الإمام الصادق و نشر أفكاره، لأن التكوين العقائدى لمدرسة الإمام الصادق و الذى اشتمل على حاصل ما قرره النبى محمد و الأئمة الأطهار من أهل بيته الكرام تكوين ثابت و مستقر، له القابلية- بمقتضى ما انطوى عليه من أحكام و ما ضمّه من تراث- على ضمان بقاء الأمة و تحقيق أمنها و مواجهة أعدائها.

و نرى اليوم ما يعانى منه الفكر الشيعى و اشتداد الهجمة المعادية من قبل الحكام

و المتسلّطين، فقد احتفظت الأيام و مرّ التاريخ على أطراف المواجهة بين دعاة العدل الإسلامى و بين الملوک و الحكام الذين يتّخذون من الدين ستارا لمصالحهم، و يذيقون شعوبهم الويلات.

و خلاصة القول فإن مدار البحث هو أن السلطان الروحى و القيادة الدينية اللتين اختصّ بهما الأئمة الأطهار هما من صور الإمامة التى حفظت بها منزلة النبوة، و ضمن بها بقاء الدعوة، و من هنا كان سرّ تميّز سيرة الأئمة الأطهار و سبب نفوذهم الذى عجزت قوة الباغين و الطغاة عن القضاء عليه.

لقد أثبت الشيعة وجوب عصمة الأنبياء قبل اصطفائهم و بعد اصطفائهم لأنهم الأمناء و القادة، و قد كلف اللّه الخلق باتباعهم، فلا يجوز على المصطفين الإثم، لأن النبوة دعوة و تبشير بأمر إلهى، و الدعوة تتأثر بشخصية الداعى، فإذا جرب على نبى إثم أو عرف عنه ذنب، فإن مجرى الدعوة يتأثر بهما، و درجة إقبال الخلق أيضا.

قال اللّه تعالى مخاطبا إبراهيم عليه السّلام: إِنِّى جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً فعلى الناس اتباعه و الاقتداء به، و هم مكلفون بذلک. فذهب الشيعة إلى تنزيه الأنبياء عن المعاصى لأن ارتكابها ينفّر الناس. بخلاف غيرهم من المذاهب فى تجويز المعصية قبل النبوة.

و قد كان من سير الأئمة عليه السّلام و أحوالهم و أوضاعهم و خلقهم شواهد كبرى على تسديد اللّه و عصمتهم، مما يؤثر فى سير الدعوة و وقع الأحكام فى النفوس، و لذلک لا تجد فى فقه الشيعة قضية تدور عليها الآراء و الاجتهادات فى أن ولى الأمر إذا أخطأ، فمن الذى يقيم عليه الحكم. كما هو فى المذاهب الأخرى.

فولى الأمر الشرعى عند الشيعة هو فى منزلة و مرتبة دينية لها من النبوة الوصاية على أمر الشريعة و حماية الدين و مصالح الأمة، و ليس فى فكر الشيعة أوفقهم ما يبعد عن هذه الخصائص التى تدور فى فلک النبوة، فكيف يجرأ فاسق أو فاجر على أن يتولى من أمرهم شيئا؟ فيما جوّزت المذاهب الأخرى إمامة المتسلّط و من اتصف بذلک من غلبة أو غيرها، و كذلک الحال مع الفاجر، حتى نسب إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الأمر بالصلاة خلف البرّ و الفاجر، و قد تناسى من وضع الحديث و غفل من تعاطاه أن نبى الرحمة حمل رسالة العدل و بشّر بمرحلة جديدة من الإنسانية تصان فيها الدماء و الأموال بأعظم صيغ التشديد على حرمة حياة الإنسان و بأوضح عبارات تأكيد حريته،

لكن فهم الإمامة بمنطق الحاكمين و المتسلّطين كان من بواعث الوضع و من دواعى التسليم بصحته تحت ذريعة (الجماعة) و حفظ الأمة بعيدة عن (الفتنة) و ما الفتنة إلا مهادنة البغاة و الجائرين على انتحالهم صفة الدين، و مجاراتهم على انتهاک حرمة دماء المسلمين و أموالهم و أعراضهم، و كان هذا المنطق وراء إظهار النظم المنحرفة بمظاهر إسلامية لا تمتّ إلى روح الإسلام بصلة.

و قد مرّ من خلال البحث جوانب مختلفة من سير و مواقف الأئمة الأطهار من أهل البيت عليهم السّلام و كيف عالجوا العلاقة بالحكّام، و كانت صفحات حياة الإمام الصادق عليه السّلام منهج هداية و رشاد يحضّ الأمة على التمسّک بجوهر الإسلام و تعاليم القرآن، و يعمل على دفع الأذى عن المؤمنين، و معالجة سياسة الحكام، و كيف كان الاتجاه نحو دولة العدل التى ينشؤها مهدى الأمة الذى جاءت به بشارة النبى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و ختاما، و نحن فى نهاية المطاف أقول: إن منهج البحث فى هذه السلسلة قد استهدف كشف الحقائق و بيان الوقائع، و من خلال المقارنة ندع النتائج طليقة، و لا نحصرها فى فصل من البحث، سيّما و نحن نعترف أن الجهد يقصر عن الإحاطة التامة بشخصية كالإمام الصادق، و نأمل أن نلتقى بالقرّاء قريبا فى بحث مخصوص عن حياة الإمام الصادق.

و للّه الشكر على توفيقه و عونه على إنجاز هذا البحث، و له الحمد أولا و آخرا.

و صلى اللّه على نبينا محمد و على آله الكرام الطيبين، و على من اتبعه و والاه.